مَنْهَج
الحافظ ابن رجب الحنبلي
في العَقِيْدَة

تأليف

علي بن عبد العزيز بن علي الشبل

عفا الله عنه وعن والديه ومشايخه والمسلمين

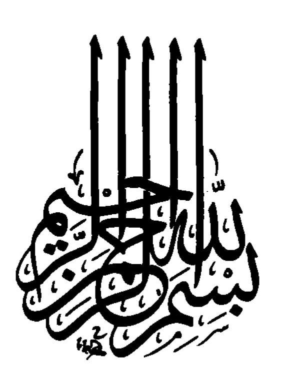
تقديم أصحاب المعالي:

١ ـ الشَّيخ صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

٢ ـ الشَّيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل

٣ ـ الشَّيخ عبد الله بن سليمان بن منيع




بسم الله الرحمن الرحيم


منهج
الحافظ ابن رجب الحنبلي
في العقيدة

الطَّبْعَة الأُولى
المُصَحَّحَة والمزِيَّدَة
١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

دار العاصمة
المملكة العربية السعودية
الرياض - ص ب ٤٢٥٠٧ - الرمز البريدي ١١٥٥١
هاتف ٤٩١٥١٥٤ - ٤٩٣٣٣١٨ - فاكس ٤٩١٥١٥٤

تقديم معالي الشيخ

صَالح بن فوزان بن عَبْد ٱلله ٱلفوْزَان

عضو اللجنة الدائمة للإفتاء وعضو هيئة كبار العلماء

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، نبيِّنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد قرأت الكتاب المسمى: «**منهج الحافظ ابن رجب الحنبلي في العقيدة**»، لمؤلفه الشيخ: علي بن عبد العزيز بن علي الشبل؛ فوجدته كتابًا قيِّمًا في موضوعه حيث تكلم عن شخصية علمية فذة مبينًا سيرته وآثاره العلمية وما له من إسهام عظيم في مجال توضيح عقيدة السلف الصالح، والدعوة إليها والرد على أعدائها والمخالفين لها. وعسى أن يتخذ الدعاة في العصر الحاضر من هذا الإمام الجليل قدوة صالحة لهم في منهج الدعوة بدلاً من السير وراء المناهج الفكرية المخالفة لمنهج السلف الصالح فجزى الله المؤلف على ما بذله في هذا الكتاب من جهد خير الجزاء ونفع به. وصلَّى الله على نبيِّنا محمد وآله وصحبه وسلَّم.

كتبه

صَالح بن فوزان بن عَبْد ٱلله ٱلفوْزَان

في ١١/ ٣/ ١٤١٤هـ

تقريظ معالي الشيخ القاضي

عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل

رئيس الهيئة الدائمة بمجلس القضاء الأعلى سابقًا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وأصلِّي وأسلِّم على رسول الله، **وبعد**:

فإنَّ من أهم ما ينبغي لطلاَّب العلم هو العناية بتراجم علمائهم وسلفهم الصالح، والاطِّلاع على سير حياتهم ونهجهم في تعلُّم العلم وتعليمه؛ للتأسِّي بهم والاقتداء بآثارهم.

ومن أشهر سلفنا الصالح ومن اتفقت كلمة العلماء على جلالة قدره وسعة علمه، هو الإمام الحافظ زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي (**٧٣٦ ــ ٧٩٥هـ**)، كيف لا؟ وهو من أخصّ تلاميذ الإمام شمس الدِّين ابن القيم الذي هو من أخص تلاميذ شيخ الإسلام تقيّ الدين أحمد بن تيمية، رحم الله الجميع ورضي عنهم؛ فابن رجب إمام حافظ، جاهد في طلب العلم وأثرى المكتبة العلمية عامة، والحنبلية خاصة، بكثير من المؤلَّفات النافعة في العقيدة السلفية، وعلم الحديث رواية ودراية، وعلم الفقه، والزهد والوعظ والتراجم، وغيرها. وبين يدي الآن رسالة جامعة لسيرته ومؤلفاته،

أَلَّفها الابن الشيخ الأستاذ علي بن الشيخ عبد العزيز العلي الشبل، سمّاها «**منهج الحافظ ابن رجب الحنبلي في العقيدة**».

وقد عرفت المؤلف الشيخ عليّ من خلال طلبه العلم وقراءته عليّ منذ ثمان سنين، كما عرفت والده الشيخ عبد العزيز بن علي الشبل، المدرِّس في المسجد النبوي، كما عرفت جده لأم أبيه شيخنا وجارنا في عنيزة الشيخ عبد الله بن محمد المانع قاضي عنيزة، المتوفى سنة ١٣٦٠هـ.

فالمؤلف ــ وفَّقه الله ــ حريص على تحصيل العلم وبذله، وقد أُعطي فهمًا وملكة علمية تظهر من خلال مؤلفه المذكور وغيره.

وأما الكتاب «**منهج الحافظ ابن رجب الحنبلي في العقيدة**»، فقد اطَّلعت عليه وألفيته قد استوعب ترجمة الحافظ ابن رجب وسيرته، وما في ضمنها من الفوائد والعلوم الجمَّة، وقد ركز على منهجه في العقيدة، كما قد استوعب ذكر ما تمكن عليه من مؤلفاته المخطوطة والمطبوعة، سواء منها المؤلفات الكبار، مثل: «فتح الباري شرح البخاري»، و «شرح الترمذي». والمتوسطة، مثل: «جامع العلوم والحكم»، و «لطائف المعارف». والرسائل الصغار، مثل: «فضل علم السلف»، و «تحقيق كلمة التوحيد»، وغيرها. وأعطى عن كل منها بيانًا كافيًا لمن أراد التعرُّف عليها مجملاً، وقد ركَّز على منهجه في العقيدة.

كما تضمَّن بحوثًا مهمة، وتحقيقات سديدة، واستطرادات جيِّدة لم تخرج عن دائرة الموضوع، وهذا مما يشجع على استحصال مؤلفات ابن رجب والاستفادة منها، وبالجملة فَمَخْبَرُ الكتاب أَبلغ من منظره.

ولهذا، فقد أعجبت به، وشجَّعته على طبعه ونشره، لتعم فائدته، ولعل الله أن ينفع به المسلمين، كما أسأله تعالى أن يرزقنا جميعًا العلم النافع والعمل الصالح، إنه جواد كريم.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

وكتبه الفقير إلى الله

عَبْدُ ٱللَّهِ بن عَبْدِ ٱلعَزِيزِ بن عَقِيل

رئيس الهيئة الدائمة بمجلس القضاء الأعلى سابقًا

تقريظ معالي الشيخ القاضي

عبد الله بن سليمان بن منيع

رئيس محكمة التمييز سابقًا وعضو هيئة كبار العلماء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله الذي خلق الإنسان وعلَّمه البيان، وَفَقَّه من أراد به الخير بضياء الإيمان، أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، فمنَّ علينا أن هدانا للإيمان، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وصلَّى الله وسلَّم على رسول الهدى إمام المتقين وسيِّد المرسلين، مُخرج أمَّته من الظلمات إلى النور، نبيّنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدِّين، **وبعد**:

حقًّا لقد استمتعتُ بقراءة بروقة الطبعة الأولى لكتاب «**منهج الحافظ ابن رجب الحنبلي في العقيدة**»، لمؤلِّفه فضيلة الشيخ علي بن عبد العزيز بن علي الشبل، المدرِّس بكلية أصول الدين في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض.

وقد رغب إليَّ فضيلة مؤلِّف الكتاب الشيخُ عليٌّ قراءة الكتاب وإبداء ما يظهر لي فيه من الملاحظات، وقد استجبتُ لهذه الرغبة الكريمة من أخٍ محبٍ عزيز، إلاَّ أنني كنت على عزم في الاكتفاء من

القـراءة بـالتصفـح؛ نظـرًا لضخـامـة الكتـاب، حيـث تقـارب صفحـاتـه السبعمائة صفحة، ولكثرة مشاغلي، ولظنِّي أنَّ الموضوع لا يحتاج إلى هذا التوسع في الكتابة. ولكن بعد أن بدأتُ في تصفح الكتاب رأيته يشدني شدًّا قويًّا إلى التأنِّي في قراءته، وإعادة قراءة بعض محتوياته.

وأدركتُ أنَّ الشيخ عليًّا ــ جزاه الله خيرًا ــ قد أحسن إليَّ إحسانًا أسأل الله أن يتولَّى جزاءه عنِّي، حيث أتاح لي فرصة الاطِّلاع على كامل شخصية إمام من أبرز أئمتنا معشر الحنابلة، لا في الأحكام الفرعية فحسب، وإنما في أصول الشريعة، وقواعد منهج أهل السنَّة والجماعة في الاعتقاد، في أصول الاعتقاد، في التوحيد بأقسامه الثلاثة، وفي أركان الإيمان والإسلام، وحقيقة الإحسان، وحقيقة الزهد والورع، وتمام التعلُّق بالله.

فجزى الله الشيخ عليًّا الجزاء الأوفى على ما كتبه عن إمامنا زين الدين الحافظ ابن رجب ودافع عنه، ودفع ما قيل عنه من نهج إلى التصوف المذموم، حيث أبان أن تصوف ابن رجب لا يعدو الزهد والورع، وكمال الخشية والخشوع، والتعلُّق بالله تعالى، دون أن يكون ذلك من منطلق الطرق الصوفية وبواسطة مشايخهم أهل التضليل والضلال، ودون أن يكون ذلك مبنيًّا على دعاوى الأوهام والتخيلات في الكشف واختراق الحجب الغيبيَّة.

لقد كان الشيخ عليّ ــ حفظه الله ــ عدلاً ومنصفًا في استعراض جـوانـب شخصيـة ابـن رجـب، فـي انتقـاده عليـه بعـض التعبيـرات الاصطلاحية لدى أهل التصوف، فكان ــ جزاه الله خيرًا ــ يجيب عليها

بانتفاء مستلزماتها لدى الإمام ابن رجب؛ حيث إن جميع اتجاهاته في الاعتقاد هي وفق ما عليه سلف هذه الأمة أهل السنَّة والجماعة، وأن هذه التعبيرات الصوفية جاءت عن طريق التأثر بالبيئة، من غير أن يكون لمدلولها أثر في الاعتقاد والعمل.

والخلاصة: أنَّ الكتاب مجهود علمي يستحق الثناء والإشادة والاعتزاز به، حيث أعطانا عن إمامنا ابن رجب صورة جليَّة لحياته وجهاده في سبيل العلم والتعليم، وسلامة اعتقاده، وانتهاجه النهج السلفي المستمد مما كان عليه رسول الله ﷺ، وكان عليه أصحابه رضوان الله عليهم.

وأشكر فضيلة الشيخ عليّ على إتاحته لي فرصة قراءة هذا الكتاب القيِّم، وأسأل الله تعالى أن يجعل ذلك في موازين حسناته، وألا يجعل هذا آخر عهدنا بما يتحفنا به من تأليف وتحقيق ونظر، جعله الله مباركًا أينما كان.

والله المستعان، وصلَّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

كتبه

عَبْدُ ٱللّٰه بن سُلَيْمَان بن مَنِيع

عضو هيئة كبار العلماء

مقدمة الطبعة الجديدة

الحمد لله وكفى، وصلاة وسلامًا من مولاي على عباده الذين اصطفى وعلى آلهم وسلَّم تسليمًا وذكرًا مُحتفىٰ، وبعد:

فهذه الطبعة الجديدة لكتابي «**منهج الحافظ ابن رجب الحنبلي في العقيدة**» بعد نفاذ طبعته الأولى، والتي كثرت فيها التطبيعات والتحريفات، في حين ازدانت هذه الطبعة بفوائد وتصحيحات وإفادات وإضافات خلت عنها في الأولى، وكان من أعز ما وردني وشحذ همتي في العناية بالكتاب موقف سماحة شيخنا الكريم: الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ـ رحمه الله تعالى ـ من الكتاب ـ وكنت أهديته نسخة منه وهو في الطائف ـ حيث امتدح الكتاب وأثنى عليه ودعا لي بخير، ولما سألته: أقرأت الكتاب كله؟ أفاد أنه قرأ منه أوله[1]. فجزاه الله خيرًا وضاعف مثوبته، آمين.

وفي هذه الطبعة إضافات مهمة تتعلق بالمنهج، من حيث موقف الحافظ رحمه الله من التبرك، والتمذهب، والتقليد، والتأويل والتفويض، وقبل ذلك ببحث دلالة النظر والفكر على التوحيد في الفصل الأول.

---

(١) لما زرته مُسلِّمًا عليه في أول جمادى الأولى عام ١٤١٧هـ، بعد رجوعه من الطائف إلى الرياض.

وإضافات كثيرة في الباب الثاني تعزز دلالته على الباب الأول، وتوسع في مجال البحث فيه لا سيما في إضافة فصول في آخره.

وأؤكد هنا على الفرق بين المنهج والجهود على ما بُيِّن في آخر مقدمة الكتاب.

ثم لا أنسى الإشادة بعلماء أجلاء، وزملاء فضلاء، وتلاميذ نجباء، أسهموا في النصح والدعاء والتسديد، رفع الله ذكرهم في الدارين، وبارك في الجميع، وسدد أقوالنا وأعمالنا ومقاصدنا، وجعلنا وإياكم موفّقين، آمين، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

تحررت في ٢١/ ١٢/ ١٤١٧هـ
بالرياض أعزها الله

الـرياض ١١٤١٥
ص. ب ٦٣١٢٨
فاكس ٢٢٧٥٩٠٠

مُقَـدِّمَةُ الطَّبعَـةِ الأوْلَىٰ

إنَّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلّل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إلـه إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلَّى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فإن العلم بالله وبأحكام الله من أشرف العلوم مطلقًا؛ لأن شرفها من شرف المعلوم، ولحاجة الناس الضرورية إليها أكثر من غيرها.

ومن أشرف تلك العلوم الشرعية وأفضلها: علم العقيدة؛ لشرف المعلوم كذلك؛ فهو العلم بالله وأفعاله وصفاته وما يجب ويجوز ويمتنع له وعليه، ولأنها المقصود الأعظم من الخلق والرسل والبعث يوم القيامة.

وقد تكفّل الله سبحانه وتعالى بحفظ العقيدة بحفظ وعائها الذي يحملها ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩].

وسخَّر سبحانه لنا أناسًا يحفظونها، ويتعلمونها، ويعلمونها مَنْ بعدهم، فتحملها الرسول ﷺ وأدَّاها إلى صحابته رضوان الله عليهم، وهكذا الصحابة إلى التابعين، والتابعين إلى من بعدهم، وهكذا إلى أن يرفع الله هذا العلم.

وممن سخَّره الله تعالى لحمل العقيدة الربَّانية والدعوة إليها والمنافحة عنها، تأصيلاً ومنهـجًا، وتعلمًا وتبليغًا، الإمام الحافظ عبدُ الرحمن بنُ رجبٍ الحنبلي؛ فقد أفنى زمانه وعمره في خدمتها والدعوة إليها تدريسًا ووعظًا وتصنيفًا، وقبل ذلك وبعده سلوكًا وتطبيقًا في خاصة نفسه.

فإذا كان هذا هو الحافظ ابن رجب، وتلك الأمانة التي تحملها؛ كانت دراسته منهجه في العقيدة دراسة لأصل الدين الإسلامي ومصادره التي عليها تعتمد تلك العقيدة.

كما أنه رحمه الله من علماء السلف المشهور عنهم سلامة المعتقد وقوة التأصيل وغزارة العلم، فكانت دراسة منهجه في الاستدلال لمسائل العقيدة من مصادرها دليلاً لمن جاء بعدهم في نهج منهجهم للسير على الجادة الصحيحة لاتِّباعهم في عبادة الله عز وجل كما شرّع لنا.

تلك أهمية البحث وموضوعه، ولأجله كان الاختيار له، ولتسابق الأخوة إلى البحثين الآخرين. فأحمد الله تعالى على هذا.

أما فقرات البحث المعنون بـ «منهج الحافظ ابن رجب الحنبلي في العقيدة» فكانت من تمهيد وبابين هي على النحو التالي:

* **التمهيد**: وفيه الكلام على ترجمة الحافظ بصورة موجزة، وتضمنت المباحث التالية:

١ ــ عصره من الناحية السياسية والاجتماعية والعلمية.

٢ ــ اسم الحافظ ابن رجب، ولقبه وكنيته وولادته، ثم مكانته رحمه الله.

٣ ــ أسرته وبيئته.

٤ ــ رحلاته في طلب العلم، وأبرز مشايخه.

٥ ــ تدريسه للعلم ووعظه وتذكيره، وأبرز تلاميذه الذين أخذوا عنه علمه.

٦ ــ مكانة الحافظ العلمية من الناحية العقدية والفقهية والحديثية.

٧ ــ زهده رحمه الله وورعه.

٨ ــ تحقيق كيف كان تصوّفه (مذمومًا أو محمودًا)؟

٩ ــ أخيرًا في آثاره العلمية، في مؤلفاته وتصانيفه المطبوعة والمخطوطة.

* **أما الباب الأول**، فكان عن: الأصول العامة لمنهج الحافظ ابن رجب في تلقي العقيدة الإسلامية، ومنهجه في الاستدلال منها. وقسمته إلى فصول أربعة هي:

الفصل الأول: في مصادر تلقي العقيدة عنده ومنهجه في الاستدلال منها، وهذه المصادر هي:

ــ الكتاب الكريم.

ــ السنة المطهّرة.

ـ الإجماع.
ـ الفطرة ودلالتها.
ـ ثم دلالة النظر والتفكّر.

أما الفصل الثاني: ففيه منهج الحافظ في بعض الوسائل لفهم نصوص الكتاب والسنَّة. وهو كالآتي:

ـ أقوال السلف.
ـ العقل ودوره في العقيدة.
ـ ربطه رحمه الله بين العلم والعمل، وذا هو ثمرة العلم.

والفصل الثالث: كان عن موقفه من المخالفين لمنهج السلف الصالح، وهم:

ـ أهل الشرك والنفاق.
ـ المتكلمون ومناهجهم.
ـ أهل البدع.
ـ أهل الغلو في الدين ونقده لهم.
ـ وسطيته رحمه الله في المنهج.
ـ موقفه من المجاز.
ـ ثم التبرك.
ـ وقاعدة في مسائل الخلاف في الدين.
ـ ثم موقفه من التمذهب.
ـ ثم موقفه من التقليد.
ـ ثم موقفه من التأويل والتفويض.

وقد ألحقت بهذا الباب ملحقًا، تضمن الكلام فيه على موارد الحافظ ابن رجب في كتبه التي صرح بها، مما يعكس الصورة العامة للمنهج الذي تم البحث بصدد بيانه له.

الفصل الرابع: في منهج الحافظ في النقد من خلال كتابه «ذيل طبقات الحنابلة» وذلك من خلال تسعة مباحث يأتي بيانها في آخر المخطط إن شاء الله.

وفي الباب الثاني: كان الكلام مركّزًا على أقوال الحافظ ابن رجب في مسائل العقيدة مرتبة حسب حديث جبريل المشهور على هذا النحو:

الفصل الأول: الإيمان بالله تعالى، وفيه الكلام على:

أوَّلاً ـ توحيد الربوبية.

ثانيًا ـ توحيد الأسماء والصفات.

ثالثًا ـ توحيد الألوهية.

ثم الفصل الثاني: وفيه بقية أركان الإيمان، وهي:

ـ الإيمان بالملائكة.

ـ الإيمان بالكتب.

ـ الإيمان بالرسل.

ـ الإيمان باليوم الآخر.

ـ الإيمان بالقضاء والقدر، ومسائله الرئيسة تأصيلاً وتطبيقًا.

فالفصل الثالث: وفيه كلامه حول بعض مسائل الإيمان، وهي:

ـ تعريف الإيمان.

ـ الإسلام والإيمان والعلاقة بينهما.

- زيادة الإيمان ونقصانه.
- كلمة جامعة في الإيمان وعلاماته.
- أثر المعاصي والكبائر على الإيمان.
- مسألة صاحب الكبيرة: اسمه وحكمه، وهي مسألة «الأسماء والأحكام».

فالفصل الرابع: العذر في الخطأ والنسيان والإكراه.

ثم الفصل الخامس: في أنواع الكفر والظلم والفسق.

كما تضمَّن البحث منهج الحافظ ابن رجب في كتابه ذيل طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى، وهو كتاب حافل في التراجم والنكات العلمية في الحديث والفقه والنحو، وألحقته بالباب الأول وتضمن هذا الاستطراد ـ في منهج الحافظ في الذيل ـ المسائل التالية:

- تعريف بكتاب «ذيل طبقات الحنابلة».
- منهج الحافظ العام في التراجم.
- طريقة نموذجية لتراجمه.
- أثر العقيدة في تراجم الحافظ ابن رجب.
- إشادته بعلماء أهل السنَّة ومحققيهم.
- نقده وحكمه على أحوال بعض العلماء «النقد الخاص».
- موقفه من عرض تصانيف المترجمين.
- موارده في الذيل.
- أبرز الملاحظات عليه فيه.

* * *

وعلى كل فهذا الموضوع يقوم على ركيزتين أساسيتين هما:

الباب الأول وملحقه: وفيه الأصول العامة لمنهج الحافظ ابن رجب في العقيدة تلقيًا ثم استدلالاً، وهو **باب الدلائل**.

والباب الثاني: وحوى مقتطفات لأبرز أقوال الحافظ ابن رجب في مسائل العقيدة، والذي يظهر من خلاله تطبيقه للمنهج العام عند أهل السنَّة والجماعة في العقيدة، وهو **باب المسائل** التي توافقت مع باب الدلائل، وأيدتها.

إذًا فهذا الباب شاهد رئيس في تطبيق الحافظ لمنهجه ــ محل الدراسة ــ، وأيضًا دليل على سلفية الحافظ في المعتقد والمنهج.

المنهج في كتابة البحث:

يقوم المنهج على الجمع بين النقل من مصنفات الحافظ والتدليل بكلامه نفسه على منهجه وأقواله، مع التعبير بأسلوبي الشخصي في التدليل والربط والتحليل والاستدلال والتنويه، مع غلبة النوع الأول، لقصور لفظي عند لفظ الحافظ، وكون التعبير بلفظه على المسائل والدلائل، أقوى في تحقيق المقصود من تحرير منهجه في العقيدة تأصيلاً وتمثيلاً.

وكان من طرق البحث هذه النقاط:

ــ جمعت أولاً مؤلفات الحافظ ابن رجب المطبوعة والمخطوطة حسب ما تيسّر لي منها، مع بذل الوسع في ذلك، فتكون عندي أكثر مؤلفاته والحمد لله.

ـ شرعت في قراءة ما تجمع من مؤلفات الحافظ قراءة متأنية، وفي مواضع قراءة عابرة، في المباحث الفقهية والحديثية. . وغيرها.

ـ جمعت من خلال ذلك مسائل المنهج التأصيلية في كراسٍ مستقل قسمته حسب مفردات المنهج، وأصوله العامة.

أما مفردات مسائل العقيدة التطبيقية للمنهج فجمعتها في كراس آخر مقسّم حسب أركان الإيمان الستة في حديث جبرائيل، وملاحق أخر بمسائل الإيمان المتعلقة به، وتكوَّن لدى من خلال ذلك كمٌّ كثير من النقول من مؤلفاته رحمه الله.

ـ بعد القراءة والجمع والتصنيف، بدأت بتحليل ألفاظ الحافظ واستخلاص الأصول المنهجية لعقيدته، وتصنيفها حسب الفصول المناسبة كما في الباب الأول، ومحاولة انتقاء أقرب ألفاظ الحافظ إلى مدلول المنهج.

وكان الباب الثاني أسهل من الباب الأول في هذه الناحية، إذ أنَّ أكثره من لفظ الحافظ نفسه، كما ستلاحظه.

ـ ثم بعد ذلك شرعت في صياغة البحث في مسودته وتنسيقها والتعليق فيها على ما يحتاج إلى تعليق بعد التأمّل: هل محله الصلب أو الحاشية.

ـ ثم المرحلة الأخيرة من الصياغة تبييض البحث بعد أن تكاملت مفرداته، ووضحت صورته، مع بعض التعديل في الفصول والمباحث، وهو عمل فني حسب التناسب، والتوافق.

ثم صنعت الفهارس الفنية[1] التي أرى أنها ستساعد في تقريب ثنايا البحث إلى قارئه، وتُحتّمه مناهج البحوث المعاصرة، مع الأخذ بالاعتبار أن فهرس المصادر والمراجع حوى المؤلفات التي ذكرت في ثنايا الكتاب وحواشيه فقط دون غيرهما مما لم ترد إليه الإحالة!

لفتة مهمة

وأمر لا بد من التنويه به بهذه المناسبة، وهو خلط كثير من الناس بين قضية المنهج، وجهود الرجل في توضيح وبيان العقيدة، حيث يظنوها شيئًا واحدًا، وأنهما لفظان مترادفان، أو مؤديان لمعنى واحد.

وهذا ليس بصحيح، لأن المنهج شيء وأقوال الإمام في العقيدة شيء آخر، وهو في المطرد الأغلبي نتيجة طبيعية له، إذ جهود الإمام في توضيح العقيدة أو بيانها، هي في الواقع مجموع أقواله في العقيدة ومسائلها التفصيلية، مجموعة ومصنفة حسب حديث جبرائيل عليه السلام في الدراسات السلفية، أو حسب مناهج المتكلمين وأتباعهم في الدراسات العصرية حيث يجمع أقواله في الإلهيات والسمعيات والنبوات.

أما المنهج، فهو الأصول والضوابط والقواعد التي سار عليها الإمام، وفهم بها العقيدة، وتناولها بواسطتها تلقيًا، ثم عبَّر من خلالها عن الاستدلال بالعقيدة.

وهو كيف تعامله مع القرآن؟ وكيف يفهم آياته ويستنبط الحكم

(١) وجرى حذفها في طبعة الكتاب تخففًا، خلا فهرسي المصادر والمحتوى!

أو الاستدلال منها؟ على من يعتمد في فهم كلام الله؟ . . وأيضًا كذلك في السنَّة النبوية، ونظرته للمصادر الشرعية الأخرى.

وكيف يتعامل مع الأدلة العقلية في باب العقيدة، وهي الدلائل التي ذاع استخدامها في القرون المتأخّرة، وادعتها طوائف شتى من أهل البدع، مع سمات منهج أهل السنَّة والجماعة الواضحة على أفرادهم وجماعتهم.

كل هذه القضايا بمجموعها هي المنهج الذي تُترسم أصوله لتلقي المعتقد، والاستدلال له في ديننا الإسلامي وغيره من الملل.

هذا وقد اطلع على البحث في مراحله عدد من الأساتذة والمشايخ هم على الترتيب: الدكتور محمد بن عودة حالة إشرافه عليه في أول إعداده في السنة الرابعة من الكلية، كما قرأه الأستاذ الدكتور محمد الأنور عيسى الأستاذ بكلية أصول الدين بالأزهر بقسم العقيدة، حالة كونه معارًا لجامعة الإمام بالرياض، وكذا الوالد السعيد فضيلة الشيخ عبد العزيز بن علي الشبل[١] بعد فراغي منه. ثم قرأه معالي الشيخ د. صالح بن فوزان الفوزان، وكتب له المقدمة الموجودة على طرته، كما طالعه صاحب المعالي الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل رئيس لجنة مجلس القضاء الأعلى الدائمة، ومعالي الشيخ عبد الله بن سليمان بن منيع قاضي محكمة التمييز بالمنطقة الغربية بمكة، وعضو هيئة كبار العلماء، وأوصى الأربعة الأخيرون بطباعته ونشره، فشكر الله لهم جهدهم، ونصيحتهم

(١) توفي الشيخ رحمه الله يوم الجمعة في أثناء صلاته المغرب في الصف الأول خلف الإمام بالمسجد النبوي بالمدينة في ١٤١٨/٦/٢هـ وهذه الطبعة الجديدة في طور الإعداد والتنضيد.

وضاعف للجميع المثوبة آمين. «والمرغوب إلى من يقف على هذا الكتاب أن يعذر صاحبه، مع بضاعته المزجاة، التي حقيق بحاملها أن يقال فيه «تسمع بالمعيدي خير من أن تراه»، وها هو قد نصب نفسه هدفًا لسهام الراشقين، وغرضًا لأسنَّة الطاعنين، فلقارئه غنمه، وعلى مؤلفه غرمه، وهذه بضاعته تُعرض عليك، وموليته تُهدى إليك، فإن صادفت كفؤًا كريمًا لها لن تعدم منه إمساكًا بمعروف أو تسريحًا بإحسان، وإن صادفت غيره[1] فالله المستعان وعليه التكلان. وقد رضي من مهرها بدعوة خالصة إن وافقت قبولاً واستحسانًا، وبردٍّ جميل إن كان حظها احتقارًا واستهجانًا، والمنصف يهب خطأ المخطىء لإصابته، وسيئاته لحسناته، فهذه سنَّة الله في عباده جزاءً وثوابًا.

ومن ذا الذي يكون قوله كله سديدًا، وعمله كله صوابًا؟ وهل ذلك إلاَّ المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، ونطقه وحيٌ يوحى، فما صح عنه فهو نقل مصدق عن قائل معصوم، وما جاء عن غيره فثبوت الأمرين فيه معدوم، فإن صحَّ النقلُ لم يكن القائل معصومًا، وإن لم يصح لم يكن وصوله إليه معلومًا»[2].

وبعد: فإني أشكر المولى سبحانه وتعالى، وأحمده، على أن أنعم عليَّ بالإسلام، والانتساب إلى عقيدته؛ ووفقني إلى طريق طلب العلم الشرعي وتحصيله، فالحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحب ربنا ويرضى، وكما يليق بجلاله وعظمته لا أحصي ثناءً عليه.

(١) وهؤلاء قلة أقلهم الله، والأولون كثرة بحمد الله، كذا أحسب والله أعلم!
(٢) تضمين من مقدمة الإمام ابن القيم لروضة المحبين، ص ٢٨.

كما أصلّي وأسلِّم على عبد الله المصطفى، ونبيّه المجتبى، محمد بن عبد الله، وأنبياء الله، وسلَّم. الذين حملوا إلينا الدين بكل أمانة وصدق وإخلاص، حتى أقاموا دين الله في الآفاق ونشروا شريعته على كل أرض، فبلغوا البلاغ المبين، وأناروا الصراط المستقيم.

كما أدعو بالرحمة والمغفرة لعلمائنا الأماجد من السلف الصالح، ومن بعدهم ومن كان على طريقتهم وعلى منهجهم، وبالخصوص الحافظ العالم الزاهد عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، الذي ترك لنا هذه الثروة العلمية النفيسة، وهو الإمام العلم المجهول القدر عند كثير من الناس وللأسف!

كما أشكر كل من ساعد ونصح وأرشد للبحث وصاحبه بأيِّ شكل من المساعدة أو النصيحة فللجميع جزاكم الله خيرًا، وكتب ما قدمتموه في ميزان أعمالكم.

هذا وفي الختام أقول: إن ما قدمته هو جهدي وهو مبلغ وسعي، فإن وفقت فيه فللّٰه الحمد وحده لا شريك له. وإن كان فيه نقص أو عيب فالكمال لغيري وأبى الله الكمال إلاَّ لكلامه وكتابه ورسوله، والنقص صفة المخلوق، وأستغفر الله من الخطأ والزلل، فالحق قصدت، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وأعوذ بالله من شر نفسي والشيطان، والله أعلم، وصلَّى الله وسلَّم على محمد وآله وسلَّم.

* * *

نـبذة مختصرة
عن الحافظ ابن رجب

وتـشـمـل :

* عصره «سياسيًّا ــ اجتماعيًّا ــ علميًّا» .
* اسمه ولقبه وكنيته ومولده ووفاته .
* أسرته وبيئته .
* رحلاته في طلب العلم وأبرز شيوخه .
* تدريسه ووعظه وأبرز طلابه .
* زهده وورعه .
* مكانته العلمية «عقديًّا ــ حديثيًّا ــ فقهيًّا» .
* محنته .
* تصوّفه .
* تصانيفه وآثاره .

مصادر ترجمة الحافظ ابن رجب

١ ـ الرد الوافر، لابن ناصر الدين، ص ١٠٦ ـ ١٠٧ .
٢ ـ إنباء الغمر بأبناء العمر، ١/ ٤٦٠ ـ ٤٦١ .
٣ ـ الدرر الكامنة، ٢/ ٣٢١ ـ ٣٢٢ .
٤ ـ لحظ الألحاظ، لابن فهد، ص ١٨٠ ـ ١٨٢ .
٥ ـ ذيل طبقات ابن رجب، لابن عبد الهادي، ص ٣٦ ـ ٤١ .
٦ ـ الدارس في تاريخ المدارس، للنعيمي، ٢/ ٧٦ ـ ٧٧ .
٧ ـ الشهادة الزكية، لمرعي الكرمي، ص ٤٩ ـ ٥١ .
٨ ـ شذرات الذهب، ٦/ ٢٣٠ ـ ٢٣١ .
٩ ـ صلة الخلف بموصول السلف، ص ٢٧٦ ومواطن أُخر .
١٠ ـ البدر الطالع، للشوكاني، ١/ ٣٢٨ .
١١ ـ التاج المكلل، لصديق حسن، ص ٣٢٥ .
١٢ ـ الرسالة المستطرفة، للكتاني، ص ١٤٧ ـ ١٤٨ .
١٣ ـ منادمة الأطلال، لابن بدران، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧ .
١٤ ـ مختصر طبقات الحنابلة، للشطي، ص ٦٤ .
١٥ ـ معجم المؤرخين الدمشقيين، ص ٢١٨ ـ ٢١٩ .

١٦ ـ طبقات الحفاظ، ص ٥٣٦.
١٧ ـ ذيل التقييد في رواة السنن والمسانيد، الفاسي ٢/ ٧٢.
١٨ ـ إيضاح المكنون، لإسماعيل باشا ١/ ١٢٢ و ٣٥٥.
١٩ ـ السحب الوابلة، ص ١٩٧ ـ ١٩٩.
٢٠ ـ فهرس الفهارس، ٢/ ٦٣٦ ـ ٦٣٧.
٢١ ـ هدية العارفين، ١/ ٥٢٧ ـ ٥٢٨.
٢٢ ـ المقصد الأرشد (مخطوط) ٢/ ١٥٦ ـ ١٥٧ بدار الكتب ١٣٩٨١ تاريخ. وفي المطبوع، ص ١٦١، والمحققة ٢/ ٨٠ وما بعدها.
٢٣ ـ التبيان شرح بديعة البيان (مخطوط)، لابن ناصر، ورقة ١٥٩.
٢٤ ـ المنهل الصافي المستوفي بعد الوافي، ٢/ ١٩٧.
٢٥ ـ الدليل الشافي على المنهل الصافي، ١/ ٣٩٨.
٢٦ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك.
٢٧ ـ البداية والنهاية، ج ١٣/ ١٤.
٢٨ ـ خطط الشام.
٢٩ ـ العصر المماليكي في مصر والشام.
٣٠ ـ الجوهر المنضد في طبقات متأخري المذهب، ليوسف بن عبد الهادي، رقم ٥٧، ص ٤٦ ـ ٥٣.
٣١ ـ تاريخ ابن قاضي شهبة، ١/ ٤٨٨.
٣٢ ـ المنهج الأحمد، للعليمي، (مخطوط)، ص ٤٧٠.
٣٣ ـ مختصر المنهج الأحمد، ص ١٦٩.

٣٤ ـ ذيل التذكرة، للسيوطي، ص ٣٦٧.

٣٥ ـ كشف الظنون، في مؤلفاته رحمه الله.

٣٦ ـ الأعلام، ٣/ ٢٩٥.

٣٧ ـ معجم المؤلفين، ٥/ ١١٨.

٣٨ ـ معجم المؤرخين الدمشقيين للمنجد ٢١٨.

٣٩ ـ الدرّ المنضَّد، ص ٤٨، رقم ٦٩.

٤٠ ـ القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، لابن طولون الصالحي، في مواضع عدة.

٤١ ـ وجيز الكلام في الذيل على تاريخ الإسلام، ١/ ٣٠٨ (٦٨٧).

ومن الأطروحات المعاصرة:

١ ـ مقدمة د. همام سعيد لتحقيق كتاب شرح علل الترمذي لابن رجب، وهو أطروحة دكتوراه.

٢ ـ ابن رجب الحنبلي وآثاره الفقهية، د. أمنية الجابر، أطروحة دكتوراه.

٣ ـ ابن رجب الحنبلي وآثاره في الفقه، د. محمد الوائلي، أطروحة دكتوراه.

٤ ـ ابن رجب الحنبلي وأثره في توضيح العقيدة، د. سليمان الغفيلي، أطروحة دكتوراه.



عصره سياسيًّا

عند البحث في الحياة السياسية في وقت ومكان محدد فإن الحديث عادة ينصب في السلطة المتولية على هذا القطر، وعن الأوضاع الخارجية المتعلقة به والحوادث الداخلية، وما بين ذلك من أمور تتعلق بها.

ولهذا لما كان موضوع الحديث عن حياة الحافظ ابن رجب الحنبلي، الذي عاش في الثلثين الأخيرين من القرن الثامن الهجري وكانت إقامته بدمشق، انصب الحديث سياسيًّا عن أحوال بلاد الشام وبلد المترجم له، التي قضى فيها طفولته وشبابه وكهولته.

فقد كانت بلاد الشام في ذاك العصر تابعة لحكم دولة المماليك البحرية، الذين خلفوا الدولة الأيوبية بعد وفاة الملك الصالح أيوب سنة ٦٤٧هـ، وكانت تحكم بلاد مصر والشام وساحل فلسطين والأردن والحجاز وبلاد الحرمين.

وانتقال الحكم من دولة بني أيوب لما حكمتهم زوجة الملك الصالح شجرة الدر والتي نكحت بعده عز الدين أيبك (٦٤٨ ــ ٦٥٥هـ) فكانت بذاك بداية دولة المماليك «البحرية».

وكانت الشام بعيدة نسبيًا عن مركز دولة المماليك بالقاهرة في مصر، وقسموها إلى ست ولايات كبار تتبعها أعمال وقرى. . . وهي:

١ ـ **ولاية دمشق**: وهي أكبر الولايات، وبمثابة الزعامة لباقي الولايات ومركز الثقل فيها. بل هي عاصمة القطر الشامي والدول المتولية عليها قبل ذلك كالدولة الأموية؛ وهي بلد الحافظ ابن رجب التي بها نشأ وسكن ومات.

٢ ـ **ولاية حلب**: وهي ثاني الولايات وعاصمة دولة بني حمدان. وأهمية هذه الولاية سياسيًّا أنها تصد خطر النصارى الأرمن والروم والتركمان والتتار.

٣ ـ **ثم ولاية طرابلس في لبنان**، وعليها التعويل في صدِّ النصارى الصليبيين القادمين من أوروبا بطريق البحر المتوسط إلى الشام.

٤ ـ **ولاية حماة**.

٥ ـ **ولاية صفد**: وتتبعها غالب قرى ومدن الساحل الفلسطيني.

٦ ـ **ولاية الكرك بالأردن**: وما يتبعها من البادية والحاضرة وطرق الحجاج.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الحالة السياسية لدولة المماليك كانت مضطربة، حيث كان القتل والثورة مَعْلَمَيْن بارزين لحال الولاة والسلطنة فيها، فكان الابن يقتل أباه، والأخ أخاه، في سبيل المنصب والزعامة.

وما يتعلق ببلاد الشام ـ وهي محل كلامنا باعتبار نشأة الحافظ بها ـ فكان نائب السلطان في دمشق أحيانًا يخرج على سلطان المماليك

بالقاهرة تبعًا للأحوال المضطربة بمصر، فقد خرج نائب الشام سنة ٧٤٧هـ على السلطان الكامل شعبان سلطان دولة المماليك بمصر.

ومن جهة أخرى يمكن القول أن بُعد دمشق عن مركز الاضطرابات والثورات في مركز الدولة المملوكية أبعدها عن كثير من المشاكل الداخلية نسبيًّا.

وبالمناسبة أشير إلى موقف دولة المماليك، في سياستها الخارجية من زحف التتار إبَّان احتلالهم للعراق، وغزوهم بلاد الشام، فكانت المواقع التاريخية الفاصلة بين المسلمين والتتار الوثنيين، كمعركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ، والخازندار سنة ٦٩٩هـ، وشقحب سنة ٧٠٢هـ.

إلَّا أن الحروب مع التتار زمن الحافظ ابن رجب قد قلت بسبب إسلام المغول التتار، وضعفهم السياسي، وركونهم إلى الترف والاشتغال بملاذ الحياة ورغد العيش.

كما كان للمماليك موقف مشرف آخر ضد الهجمات الصليبية النصرانية الحاقدة القادمة من أطراف أوروبا، فكان لهذه الدولة شرف صد تلك الهجمات على السواحل الشامية والمصرية ومما وقع من ذلك خلال حياة ابن رجب: محاصرة الفرنجة لقلعة إياس في الشام سنة ٧٦٥هـ، ثم خروج نائب حلب إليهم وهروبهم منها.

ومن مواقفهم أيضًا: صدهم الزحف الأرمني الأرثوذكسي من الشمال في محاصرة قلاع الشام الشمالية، ومن ذلك حوادث سنة ٧٦٠هـ وتقليصهم هذا المد النصراني المتعصّب.

ومن مواقفهم المشرّفة: مواقفهم من الكسرويين «النصيرية» والدروز في جبال غرب الشام، وهم أعداء دين محمد ﷺ، وأنصار أعدائه من اليهود والنصارى، فقد كانوا عونًا وردءًا للصليبيين في غزوهم بلاد المسلمين.

ومع هذه الأحوال السياسية فإن الحافظ ابن رجب الحنبلي كان له موقف منها، تمثل بعزلته عنها، حيث كان لا يعرف من أمور الناس شيئًا، معتزلاً لهم، فارغًا من الرياسة، ليس له شغل إلاَّ الانشغال بالعلم[1].

كما كان زاهدًا بما عند غيره، فالأحداث والثورات السياسية لم يكن يلقي لها اهتمامًا؛ لأنه لم يتردد على أهل الولايات والمناصب ويزاحم محالهم حتى يهمه ما يهمهم.

إلاَّ أنه رحمه الله مع هذا العزوف عما في أيدي الناس، لم يترك جانب النصح لهم وإرشادهم، ومحاولة تصحيح أوضاعهم إلى ما يصبو إليه، فإنه رحمه الله سلك منهجًا مميزًا له في الدعوة إلى الزهد بالدنيا الفانية والإقبال على الدار الباقية، والتحذير من مذاهب الفرق الضالة تحذيرًا شديدًا.

بدا هذا جليًّا في رسائله التي كانت مركزة حول تقدير الدنيا بقدرها وتحديدها بحدّها الطبيعي، وظهر أيضًا ذلك في مجالسه الوعظية التي كانت للناس عامة، صارعة للقلوب بالحق الواضح المبين.

وليعلم أن الحافظ ابن رجب لم يكن منعزلاً عن جميع الناس

---

(١) ذيل ابن عبد الهادي عن طبقات ابن رجب، ص ٣٧.

وأحوالهم كما عليه أهل التصوّف المذموم، فلا تؤثر فيهم الأحداث السياسية داخليًّا وخارجيًّا والأحوال الاجتماعية المرتبطة بأمور دينهم ودنياهم.

ولهذا لما ذكر الذين يستحضرون الذكر ويستمرون على استحضار حالهم فيه، فلا يزال تذكر ذلك بقلوبهم ملازمًا لهم، قسّمهم قسمين:

قسم: تشغله تلك الحال عن مصالحه المباحة، حتى ينقطع عن الخلق فلا يقوى على مخالطتهم.

ثم ذكر القسم الثاني ـ وهو أفضل من الأول ـ بقوله:

«... والثاني من يستحضر ذكر الله وعظمته وثوابه وعقابه بقلبه، ويدخل ببدنه في مصالح دنياه من اكتساب الحلال، والقيام على العيال، ويخالط الخلق فيما يوصل إليهم به النفع مما هو عبادة في نفسه كتعليم العلم، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهؤلاء أشرف القسمين وهم خلفاء الرسل، وهم الذين قال فيهم علي رضي الله عنه: صحبوا الدنيا بأبدان، أرواحها معلقة بالمحل الأعلى. وقد كان حال النبي ﷺ عند الذكر يتغير، ثم يرجع بعد انقضائه إلى مخالطة الناس و القيام بحقوقهم». اهـ[1].

وهؤلاء هم المعنيون بقوله ﷺ: **«الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»**.

---

(١) من لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، ص ١٦.

وابن رجب أثنى على هذا القسم، وهو ـ كما أحسبه ـ منهم على ما علمنا من حاله إلى حدٍّ ما.

ومن الأسباب التي دعته إلى العزوف عن الدنيا وأهلها فراغ قلبه منها وما فيها بما أيقنه من عاقبتها ومآلها. مع ما ذكره في بعض كتبه حيث قال:

«. . . وقد كان علماء السلف يأخذون العلم عن أهله، والغالب عليهم المسكنة، وعدم المال والرفعة في الدنيا، ويدعون أهل الرياسات والولايات فلا يأخذون عنهم ما عندهم من العلم بالكلية»[(١)]. اهـ.

وهو لما كان سلفيًّا متبعًا لصالح سلفه فإنه عمل بما حكاه عنهم، وهذا لا يرد على خصوص كون بعض أهل السياسة من العلماء العاملين والراسخين في علمهم، وعندهم من الهدى والعلم ما لا يوجد في غيرهم، كما ذكره الحافظ عن الوزير ابن هبيرة في ذيله على طبقات ابن أبي يعلى برقم ١٣١ في ٣/ ٢٥١. ويشهد له في الحقيقة واقع سلفنا وحاضرنا.

عصره اجتماعيًّا

انقسم مجتمع الحافظ ابن رجب في الشام إلى قسمين بارزين هما: الحاضرة والبادية.

---

(١) انظر كتابه «اختيار الأولى»، ص ٨٧. وسيأتي لهذا مزيد بيان عند الكلام على ربطه العلم بالعمل في الفصل الثالث من الباب الأول إن شاء الله تعالى.

فالحاضرة كانت متمثلة بالمدن الكبيرة كدمشق ــ بلد الحافظ ــ وحمص وحلب..، وأهلها الساكنون بها هم الحضر أهل المدر، والذين يمتهنون التجارة والصناعة والزراعة ــ في ضواحي المدن وسهولها وأوديتها ــ وهم في الغالب أهل استقرار وبعد عن المنازعات السياسية والفتن والثورات التي تكون حول السلطة وفي البوادي، وعليه فمجمل طبقات الحضر هكذا.

الأمراء وحاشيتهم والتجّار والمزارعون، وأهل الصناعة والموالي من الرقيق، ولكل مراتب. وأكثر الأمراء من هؤلاء الموالي أصلاً أو استمرارًا.

كما يغلب على أهل الشام اختلاط الأجناس والقبائل والشعوب بعضها ببعض، وعدم التمييز بينهم بالانتماء القبلي والعربي، ولهذا أكثرهم ينتسبون إلى مدنهم أو صناعتهم أو محالهم أو مذاهبهم، والقليل النادر من ينتسب فيهم إلى أصله وقبيلته.

وكان العلماء من الحاضرة، والذين هم في كل وقت أنوار الدجى وسرج الظلماء يهتدي الناس بهم، ويلجأون إليهم عند المصائب والبلاياء. كما حصل في الطاعون الذي عمّ البلاد في ذلك الوقت، والريح الشديدة التي أطبقت على أهل دمشق وأظلمت بها الدنيا في سنة ٧٤٩هـ؛ لأنهم بالله أعرف، وقلوبهم عند هذه المفزعات أيقن وأثبت.

وكان للحافظ ابن رجب من هذا نصيب مشكور مشهود، فكان يستغل المناسبات لوعظ الناس وترقيق قلوبهم، وربطهم بربهم واتعاظهم بما يحل بهم، وحسبك شهودًا على هذا ما سطره في كتابه

«لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف» والذي استغل فيه مناسبات العام كله من المحرم إلى ذي الحجة وما يناسب كل مناسبة من العبادة والوعظ والتذكير، بأسلوبه العلمي الوعظي الرصين، حتى ناسب كتابه العامة والخاصة.

مع ما جعل الله له من القبول والمحبة عند الناس، حتى كانت مواعظه في حياته صارعة القلوب، وبعد موته محل العناية والدراسة والسرور.

أما القسم الآخر من المجتمع فهم أهل البادية، القاطنون بين الشام والعراق في بادية الشام، وشمال جزيرة العرب.

وكانت البادية موضع إزعاج للسلطة ولربما تورطت معهم ضد بعضهم بعضًا.

هذا والمظهر العام لأهل البادية والحاضرة هو التديّن بالإسلام، وتفاوتهم في تمسكهم بـه، مع وجود الجهل عند البادية أكثر مما هو عند الحاضرة، وتمكن أهل الأهواء والبدع من الجميع، كالصوفية المنتشرة في تلك النواحي خاصة، والنصيرية في جبال كسروان، والدروز في لبنان وسوريا، وطوائف من الرافضة الباطنية مع من ما سبق. ولهم انعزال بقلاع وحصون وقرى خاصة بهم. وهي نعمة جليلة فالحمد لله.

كما يوجد في المجتمع القضاة، وهؤلاء لا غنى عنهم في أي مجتمع أبدًا، وإن كانوا في بلاد الشام في ذلك الوقت قضاة من أتباع كل

مذهب من المذاهب الأربعة، فلكل مذهب قاض، وعليهم رئيس يسمى قاضي القضاة[1] وأكثر ما يكون في بلاد الشام من أتباع مذهب الشافعية؛ فهم الأكثر عددًا ـ كما يبدو ـ والأمكن عند الولاة.

* الحياة العلمية:

إن النظرة العامة والسريعة للتاريخ الإسلامي يلاحظ من خلالها عنصر القوة العلمية والانتشار العلمي والتوسع في المعارف والفنون في عصور الضعف والتخلّف السياسي والعسكري؛ فسبحان الذي جعل مع كل ضعف لطفًا.

ولعل ذلك مردة، ردة فعل عن حال المجتمع في الضعف في إمارته وتسلّط الأعداء عليه.

ولهذا نجد العلماء يبرزون بعلومهم بروزًا قويًّا يتناسب عكسيًّا مع حال السلطة وضعفها، والتقسيمات السياسية والدويلات في مراحل التاريخ الإسلامي.

فضلاً عما سببه العدوان المغولي على مركز الخلافة الإسلامية في العراق، وهرب كثير من علمائها إلى جهة المغرب وخصوصًا بلاد الشام ومصر والحرمين.

---

(١) يميل الحافظ ابن رجب إلى المنع من هذا اللقب حماية لجناب التوحيد، وسدٍّ الذرائع الموصلة للشرك، وهو جادة الكثير من علماء أهل السنة والجماعة، رحمهم الله، وسيمر فصل معقود بهذا عنوانه: «نواقض التوحيد، ونواقض كماله» في نهاية الفصل الأول من الباب الثاني فانظره هناك!

أيضًا لعل شعور أهل العلم بالعدوان النصراني، والتكتل الصليبي من عدة جهات على بلاد المسلمين، يجعلهم يحاولون تكميل نقصهم بتحصين أنفسهم ومجتمعاتهم بالعلوم النافعة الدافعة لشر هؤلاء.

ناهيك عما يلقاه العلماء وطلاّب العلم من الإعانة والتشجيع من بعض سلاطينهم وولاتهم وكبرائهم الذين أريد بهم خيرٌ فأحبوا العلم وأهله، فأدى ذلك إلى اهتمامهم به وبمراكزه.

ولعل من مظاهر النشاط العلمي في القرن الثامن ـ كنموذج لقرون الضعف في العالم الإسلامي ـ هذه الملامح:

١ ـ كثرة المدارس وحلق العلم:

فقد انتشرت هذه المدارس والحلقات التي تدرس بها الفنون العلمية في بلاد الشام وغيرها، ومقامنا يتحتم جعل الكلام على الشام، إذ هي بلاد الحافظ ابن رجب الحنبلي.

فقد كانت المدارس الشامية تتركز في المدن والحواضر على وجه العموم، وكان نصيب حاضرة الشام دمشق من ذلك أوفر النصيب.

ومن البدهي الإشارة إلى أولى هذه المناشط العلمية المتمثلة في الجوامع والمساجد فهي منبع العلم الأول، وجامعته العظمى، وحظيت دمشق بعدة جوامع ضربت شهرتها من أول التاريخ الإسلامي، ومنها:

ـ الجامع الأموي بدمشق، الذي هو مفخرة الدولة الأموية والشاميين.

- وجامع الجراحين بالباب الصغير.
- وجامع الحنابلة بالجبل، الذي أنشأه محمد بن قدامة المقدسي ٥٩٨هـ، جد الموفق ابن قدامة صاحب المغنى.
وهذا الجامع له وضع خاص؛ إذ كان منارة الحنابلة في بلاد الشام ومركزهم العلمي الأهم، وكانت الرحلة في بلاد الشام لطلاب العلم يستقطبهم فيها هذا الجامع، حيث توارد على التدريس فيه جماعة من كبار العلماء والمحققين في المذهب ومذهب أهل الحديث، وأهل السنَّة والجماعة.
- وجامع النحاس في صالحية دمشق.
- وجامع باب المصلى.. وغيرها. فضلاً عن مساجد الأوقات الخمسة، فكانت هي الأخرى رديفًا للجوامع في مهمة تبليغ العلم والتعليم.

وكانت توقف الأوقاف، وتحبس الأسبال، على هذه المساجد وعلى طلاب العلم فيها، مع ما تجود به الدولة من بيت المال والموسرين من صدقاتهم.

أما المدارس فهي غير قليلة أيضًا، ولها من النصيب ما للجوامع والمساجد[1]، وكانت منتشرة في المدن، فلكل مذهب فقهي من

---

(١) انظر الكلام مفصلاً عن النشاط في الجوامع والمدارس والمكتبات والأربطة كتاب «الدارس في تاريخ المدارس» النعيمي، وخطط الشام لمحمد كرد علي ج ٥ و ٦، والعصر المماليكي في الشام ومصر لسعيد عبد الفتاح عاشور، في الفصل الحادي عشر، ص ٣٤٠ ـ ٤٠٥ وغيرها.

المذاهب الأربعة مدارسه الخاصة به، وللمدارس أوقاف تريع عليها محبوسها لها وعلى أعيانها. ومن أشهر المدارس في وقت الحافظ ابن رجب:

المدرسة الوجيهية: وأسست سنة ٦٩٠هـ ومنشئها أبو المعالي التنوخي من الحنابلة.

ـ ومن دور الحديث المشهورة:

المدرسة الأشرفية المؤسسة سنة ٦٣٠هـ ودرس فيها من العلماء أبو عمرو بن الصلاح وأبو شامة والنووي وابن الزملكاني والجمال المزي والسبكي وابن كثير وهي من مدارس الشافعية.

ـ وكذلك دار الحديث السكرية بالقصاعين، داخل باب الجابية بدمشق، وكان شيخها وقيمها عبد الحليم بن تيمية والد شيخ الإسلام، ثم كان بعده ابنه شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية قيمًا عليها وبعده شمس الدين الذهبي.

وقد سكنها الحافظ ابن رجب، ودرس فيها الفقه والحديث مدة طويلة.

وكانت مدارس المذاهب الأربعة مع انتشارها تتنافس فيما بينها، إلَّا أن أكثرها، وأشهرها مدارس الشافعية؛ لأنه المذهب المنتشر، ولقوته ماديًّا وسياسيًّا وكثرة مشايخه وتمكنهم في المنصب.

ـ ومن مدارس الحنابلة الشهيرة:

المدرسة الجوزية التي أنشأها أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي

(٥٩٧هـ)، وتخرّج فيها جماعة من العلماء منهم: آل ابن قدامة المقادسة، والمرداوي وابن مفلح.

ـ وأيضًا المدرسة الحنبلية(١) التي أنشأها شيخ الحنابلة بالشام وابن ناقل المذهب إليها وباعثه فيها، الشيخ عبد الوهاب بن أبي الفرج عبد الواحد الشيرازي ابن الحنبلي (٥٣٦هـ).

وفي هذه المدرسة درّس الحافظ ابن رجب.

هذه من أشهرها، وغيرها كثير، وللمالكية والحنفية أيضًا. وهي تعكس ما كان عليه المجتمع من توجّه نحو التعلُّم والتعليم، وتدل أيضًا على النهضة العلمية الشاملة في ذلك القرن على وجه الخصوص، ولا تغفل مكاتب تعليم الصبيان القرآن ومبادىء العلوم، والتي تسمى كتاتيب أو حلق أو خلاوي، فهي كانت الحلقة الأولى في طريق العلم.

٢ ـ المكتبات والمكاتب وسوق الوراقين:

حيث انتشرت الكتب فيه انتشارًا يناسب النهضة الشاملة في طلب العلم والتعليم، وهذه المكتبات منها ما هو ملحق بالجوامع والمساجد، ومنها ما هو ملحق بالمدارس المشار إلى بعضها آنفًا، ومنها ما هو محبوس في قصور السلاطين والأمراء والأعيان، وهناك قاعدة مطردة، فأينما يوجد مجمع علمي تجد معه مكتبة ولا بد ـ فهما متلازمان ـ صغرت أو كبرت، حسب حال ذلك المجمع العلمي المتمثل في الجامع أو المدرسة.

---

(١) انظر: مقدمة أطروحتي «ابن الحنبلي وكتابه الرسالة الواضحة»، لمزيد التفصيل عن هذه المدرسة ونشأتها وعلمائها.

وكان من أشهر تلك المكتبات: مكتبة قلعة الجبل، ومكتبة الجامع الأموي، ومكتبة المدرسة الظاهرية، وهذه لم يزل باقيها موجودًا بدار الكتب الظاهرية بدمشق الآن، ومكتبة المدرسة الأشرفية.

وهذه الكتب صاحب انتشارها قيام سوق الورَّاقين والنسّاخ والخطاطين، ولكل طائفة منهم فن مستقل وحضارة وتطوّر لوحده يعكس تلك الكائنة العلمية في ذلك الوقت.

مع ما يصاحب ذلك من مكاتب خاصة بالدواوين السلطانية.

٣ ــ كثرة الأربطة والأوقاف والزوايا وانتشارها:

والأربطة والزوايا مكان سكن الفقراء والمحاويج، وغالب طلاب العلم ــ بل العلماء ــ من هذه الطائفة، وربما يسمى في بعض الجهات بالخلوات أو الخلاوي، وأصبحت في زماننا اسمًا لمكتب تعليم القرآن للصبيان.

وعادة ما تكون تلك الأربطة مكانًا لاجتماع الصوفية والزهّاد، وربما توسع فيها لإقامة أذكارهم وأورادهم الجماعية وما يتزيدون به من البدع. وربما أصبحت تربًا يدفن فيها كبارهم من شيوخ المدارس أو الطرق أو العلماء فتجمع بين السكن وتعظيم المدفون فيها.

وهذه الأربطة على هذا النحو انتشرت بعد القرن السادس الهجري في عموم بلاد المسلمين ومنها ــ بل من أشدها ــ بلاد الشام.

ومن أشهر هذه الأربطة: رباط الوضاعين بجانب المدرسة السكرية دار الحديث بالقصاعين سالفة الذكر.

ولا يبعد تأثر الحافظ بمثل هذه المدارس فيما ينسب إليه من التصوّف! وما يطبّقه من الزهد، الذي أعمل فيهما ما علمه من حال السلف الصالح، فكان زهدًا معتدلاً على طريقة الأئمة.

وهذا الازدهار العلمي في هذا القرن، هو في الحقيقة حلقة ضمن القرون بعده ومثله، تميزت بكثير من الفنون الشرعية وأدواتها وتوسع المدارس الفقهية والحديثية والأدبية.

والذي صاحبه توسع في بقية الفنون كالتاريخ والجغرافيا واللغة وعلومها والتراجم والفلك والطب والهندسة... ما لم يكن مثله في القرون قبله.

تلك كانت أبرز المناشط العلمية في عصر الحافظ، والتي بلا شك أثرت الحركة العلمية والتوجيه العلمي لطلاب العلم ومنهم ابن رجب الحنبلي.

ويمكن تقسيم الناس في ذلك الوقت إلى ثلاث طوائف:

الأولى: أهل السنَّة والجماعة، وهم السواد الأعظم، ومن علمائهم الحافظ ابن رجب الحنبلي.

الثانية: الأشاعرة، وهم أكثر الفرق الإسلامية وجودًا في ذلك الوقت.

الثالثة: الصوفية، وهم لا يقلون عن الأشاعرة، بل منهم أشعرية في العقيدة صوفية في السلوك، خصوصًا بعد خلط التصوّف بالمذهب

الأشعري على يد عبد الكريم القشيري وأبـي حامد الغزالي، والصوفية كانوا كثيرين ولكنهم يتفاوتون غلوًّا وبدعة.

ويتخلل ذلك بقايا من معتزلة وكرامية ورافضة ونصيرية وباطنية وماتريدية... وهذا التقسيم على كل حال اعتباري نسبـي.

* * *

الترجمة الذاتية للحافظ ابن رجب

الحمد لله، لقد حظي الحافظ ابن رجب باهتمام المترجمين، أو قُلْ: وافق وقته الاهتمام بهذا الفن، والمناسب القول بهما جميعًا، إذ لو لم يكن مشهورًا لما اعتنى مؤرخو سير علماء قرنه به. وحسبك في الدلالة على هذه العناية كثرة مصادر ترجمته، وإن كان اللاحق منهم ينقل عن السابق.

وفي هذه الترجمة ـ تلاحظ ـ إغفالي جانب الخلاف بين مترجميه في اسمه ونسبه وسنة ولادته وما إلى ذلك مما لا كبير طائل تحته.

* * *

اسمه ولقبه وكنيته ومولده ووفاته

* اسمه:

هو الحافظ عبد الرحمن بن أحمد بن رجب ـ واسم جده: عبد الرحمن، سُمي رجبًا لأنه ولد فيه ـ بن الحسن بن محمد بن أبي البركات مسعود السلامي البغدادي ثم الدمشقي الشامي موطنًا، الحنبلي مذهبًا، السلفي منهجًا وعقيدة ومسلكًا.

المشهور بابن رجب الحنبلي. بل لا يكاد يعرف إلَّا بها، وإذا أطلقت هذه الشهرة لا تنصرف إلَّا إليه.

* لقبه:

المشهور عند العلماء أن لقبه زين الدين.

كما لقّب بألقاب عديدة دلالة على حفظه وعلمه نحو: الحافظ، والعمدة، والمحدث، والقدوة. وسيأتي لها ذكر في ثناء العلماء عليه.

* كنيته:

أبو الفرج. وهذه الكنية يشترك بها الحافظ مع الشيخ الواعظ أبي الفرج ابن الجوزي، كما صرح الحافظ في ترجمته من الذيل[1].

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة ١/ ٣٩٩، ترجمة رقم (٢٠٥).

ويشترك أيضًا بها مع الشيخ عبد الواحد بن محمد الشيرازي البغدادي الدمشقي (٤٨٦هـ) إمام المذهب في الشام، حيث كنيته أبو الفرج.

وهذه الكنية لا تقتصر على من عنده ولد؛ لأنها تكون قبل الولادة وبعدها، وأيضًا ربما يولد للمكنى ولد ولا يسميه بما يكنى به وهذا كثير.

والكنية مشروعة في ديننا؛ لئلا تسبق على الناس الألقاب، وأطرد هذا، فإذا غابت الكنى ظهرت الألقاب، تدل عليه سنَّة الرسول ﷺ القولية في حديث ابن عمر «**كنوا أولادكم قبل أن تسبقهم الألقاب**». وسنَّته الفعلية بتكنيته أخا أنس بن مالك بأبي عمير، وعليًّا بأبي تراب، وغيرهما رضي الله عنهما.

*** ولادته:**

اختلفت سنة ولادته عند مترجميه اختلافًا متباينًا حتى قيل إنه ولد سنة ٧٠٦هـ، وهو خطأ؛ إذ هذه سنة ولادة أبيه، أحمد بن رجب.

والراجح من اختلافهم أنه ولد سنة ٧٣٦هـ ببغداد، لعدة قرائن، منها: تصريحه بالسماع من شيوخه في سنة ٧٤١ و ٧٤٣ و ٧٤٤هـ، ويعقب على ذلك بقوله: «وأنا صغير».. وأحيانًا يحدد سنّه بالرابعة والخامسة.. وسيأتي له مزيد بيان في شيوخه وطلبه للعلم.

وأيضًا أكثر من ترجموه حددوا ولادته بسنة ٧٣٦هـ.

* وفـاتـه:

اتفقت مصادر ترجمته على سنة وفاته وأنها سنة **٧٩٥هـ** بدمشق في شهر رمضان منه، وذكر الحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة أنها في رجب، والله أعلم. وعليه يكون عمره نحو ستين سنة. قال ﷺ كما في الصحيح: «**أعمار أمتي بين الستين والسبعين وأقلهم من يجوز ذلك**».

ودفن بمقبرة الباب الصغير جوار قبر الشيخ إمام المذهب في الشام عبد الواحد بن محمد الشيرازي (٤٨٦هـ).

قال ابن ناصر الدين[١]: «ولقد حدثني من حفر لحد ابن رجب أن الشيخ زين الدين ابن رجب جاءه قبل أن يموت بأيام قال، فقال لي: احفر لي هنا لحدًا، وأشار إلى البقعة التي دفن فيها، قال: فحفرت له فلما فرغت، نزل في القبر واضطجع فيه، فأعجبه، وقال هذا جيد.

قال ـ رأى الحفار ـ فوالله ما شعرت بعد أيام، إلاَّ وقد أُتي به ميتًا محمولاً في نعشه، فوضعته في ذلك اللحد، وواريته فيه». اهـ.

فسبحان الله العظيم! أحس رحمه الله بدنو أجله، وقرب رحيله، ولعل هذا من كراماته، حيث قال للحفَّار: احفر لي، بضمير المتكلم، فاستعد لموته بحفر قبره، وغيرها مما لا نعلمه... وكيف نظن استعداد من عرف قرب موته؟

ونحو هذا قصص نسمعها عن بعض علمائنا وعبادنا من استعداداتهم بحفر قبورهم وتجهيز أكفانهم والوصاية بأنفسهم ومن يغسلهم قرب موتهم بأيام أو حتى سويعات.

---

(١) من كتابه: الرد الوافر، ص ١٠٦.

ومن شواهد حسن خاتمته ما ذكره ابن عبد الهادي[1]، حيث قال:

«. . . ووجدت في كتاب القواعد له ـ أي القواعد الفقهية لابن رجب ـ : مات مصنفه بعد العصر ثالث شهر رمضان سنة **٧٩٥**هـ، وقال عند خروج روحه ـ ثلاثين مرة ـ : يا اللَّـه العفو، ودفن بمقبرة الباب الصغير بجوار قبر الفقيه: عبد الواحد بن محمد الشيرازي بناء على وصيته بذلك». اهـ.

اللَّـه أكبر: من أيقن بدنو أجله وقرب ساعته، كان أدعى لاستعداده وحسن خاتمته.

أحسن الله لنا وله العاقبة، وقدَّس الله روحه ورفعها في عليين، وجمعنا به وبعلمائنا ووالدينا والمسلمين في فردوسه الأعلى وصلَّى الله على محمد وآله وصحابته وسلَّم، آمين.



(١) في كتابه: الجوهر المنضد، ص ٥٣.

أسرته وبيئته

من توفيق الله تعالى للحافظ أن أنبته في بيت علم ودين؛ إذ هذا من العوامل المعينة على طلب العلم، والاستعداد له.

عرفنا هذا من خلال سيرته مع أبيه وجده، اللذين كانا عالمين فاضلين، فقد سلك الحافظ مسلكهما، وتوجها به إلى العلم؛ فبدأ بالجلوس في حلقاته منذ نعومة أظفاره.

وكان جده عبد الرحمن «رجب» بن الحسن السلامي من علماء بغداد، فهم بغداديون في الأصل، ثم انتقلوا في آخر حياته إلى دمشق، قال عنه الحافظ ابن حجر: «ولد سنة ٦٧٧هـ تقريبًا، وسمع ثلاثيات البخاري من ابن المالحاني عن القطيعي ـ ببغداد ـ ، وحدث بها وكان يقرىء حسبةً ـ أي محتسبًا الثواب من الله دون أجر من الناس ـ واسمه عبد الرحمن، ويقال له: رجب؛ لكونه ولد في رجب، ومات في شهر صفر سنة ٧٤٢هـ». اهـ[١].

والحافظ على هذا أدركه بل سمع تحديثه بالثلاثيات، قال الحافظ

---

(١) من كتاب ابن حجر الدرر الكامنة ٢/ ١٠٧، ترجمة رقم (١٧١٢).

ابن رجب في ذيله على الطبقات: «قرأ على جدي أبي أحمدُ بن رجب بن الحسن غير مرة ببغداد، وأنا حاضر في الثالثة والرابعة والخامسة. . .»[1]. اهـ. أي: من عمره.

وهذا يدل على أمرين، بل ثلاثة:

مكانة جده رجب العلمية، وأيضًا قراءة أبيه على جده تدل على أنه من طلاب العلم، وثالثها تبكير سماع الحافظ وجلوسه وهو صغير عمره ٣ و ٤ و ٥ سنوات.

ومما يبين عن علم جده وزهده: إقراؤه القرآن والعلم حسبةً لله عز وجل.

وأما أبوه فهو الشيخ المقرىء أحمد بن رجب بن الحسن السلامي، ولد سنة ٧٠٦هـ كما ذكره ابن ناصر الدين وغيره.

وقرأ على العلماء في بغداد، حيث قرأ القرآن بالروايات، واشتغل بإقرائها ولهذا لقّب بالمقرىء. وأكثر من السماع عن الشيوخ حتى خرَّج لنفسه مشيخه ترجم فيها لهم، وما قرأه عليهم. وكان والده شيخ شيوخ الحافظ ابن حجر العسقلاني، كالحفاظ العراقي والهيثمي والعلائي وغيرهم.

ورحل أبوه بأولاده من بغداد إلى دمشق بعد وفاة جد الحافظ في سنة ٧٤٤هـ، وكانت دمشق مسكنهم، وقبل سكناهم دمشق رحل أحمد بن رجب في طلب العلم ومعه ابنه عبد الرحمن إلى دمشق

(١) في الذيل، للحافظ ابن رجب ٢/ ٢١٣ ــ ٢١٤.

والقدس وأسمع ممن كان بها من العلماء، وجلس بعد سكناه دمشق للتدريس والإقراء ومات سنة ٧٧٤هـ[١].

قال الحافظ ابن رجب في الذيل ٤/ ٢١٣ مثبتًا هذا التسلسل: «وقرأ على جدي أبـي أحمد بن رجب بن الحسن غير مرة ببغداد وأنا حاضر في الثالثة والرابعة، والخامسة:

أخبركم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم البزار سنة ٦٨٦هـ ـ ثم ذكر إسناده مع التحويلات ـ إلى سلمة بن الأكوع مرفوعًا إلى النّبـي ﷺ أنه قال: «**من يقل عليَّ ما لم أَقُله فليتبوأ مقعده من النار**».

ورواه الحافظ في ترجمة القطيعي من طريقه بطريق الإمام البخاري رحمهم الله، على عاداته في آخر التراجم يسند من طريق المترجم له حديثًا أو أكثر وقع له من سنده[٢].

ونرجع إلى أسرة الحافظ فقد كانت لعناية والده بأولاده، واصطحابهم معه إلى العلماء ومجالسهم، دور مهم في بروز الحافظ وحبه للعلم واشتغاله به، كما قال الأول:

بـأبـه اقتـدى عـديٌ بـالكـرم ومـن يشـابـه أبـه فمـا ظلـم

---

(١) وقد عمل له مشيخة، انتقى منها أبو بكر بن أحمد بن قاضي شهبة الأسدي (٨٥١هـ) باسم: «المنتقى من معجم شيوخ ابن رجب» وأصلها المخطوط محفوظ في جامعة بيل بنيوهاتن بأمريكا برقم (٤٤٧). وأفادني د. عبد الرحمن بن عثيمين أنه قيد تحقيقه منذ مدة؟

(٢) كما يفعله المترجمون من المحدثين، كالحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق، والحافظ الذهبـي في السير، وغيرهما.

وهذا توجيه للآباء والأسر بتنمية هذا الجانب فيهم، وحمل أبنائهم معهم إلى مجالس العلماء وحلق الذكر ليألفوها أولاً، ويحبوها وتعلق بقلوبهم.

وحسبك شاهد عليه أثر أسرة الحافظ ابن رجب في تكوينه العلمي وتوجهه إليه.

هذا، وقد كان الحافظ ابن رجب متزوجًا، يدل لذلك ما أورده ابن عبد الهادي قال: «حدثنا شيخنا شهاب الدين ابن زيد أن زوجته مرة دخلت الحمام وتزينت، ثم جاءته فلم يلتفت إليها، فقالت: ما يريد الواحد منكم إلاَّ من يتركه مثل الكلب. وقامت وخلَّته»[١]. فهذا يدل على أمرين: أنه كانت تحته زوجة. والثاني: انشغاله عنها بما هو فيه من العلم والتعليم! ولكن لم أقف على أحد أشار إلى ذرية له.

* بيئته:

لمَّا كانت الأسرة هي البيئة الأولى للفرد، ومنها يتعلم ويكتسب أصول التوجيه والسير نحو العلم والحياة.

والحافظ ابن رجب ــ والحال كما عرفنا ــ توجه لحلق العلم مستمعًا وطالبًا في سن مبكرة بأثر أسرته ووالديه وجده.

كذلك المجتمع الذي يحيط الحافظ هم من الحنابلة ــ خصوصًا ــ وغيرهم، وفيهم التوجه العلمي ظاهر، فلم يكونوا من أهل الولايات أو التجارات والأموال فكان رافدًا آخر لهذا المسلك الذي

(١) من ذيل ابن عبد الهادي على الطبقات لابن رجب ص ٣٩.

سلكه الحافظ نحو العلم والتعلّم. بل وصارت هذه النشأة وتلك البيئة عونًا له على الزهد والتخفف من الدنيا، أضف إلى ذلك الاستعداد الذاتي عند ابن رجب إلى التحصيل والهمة القوية في دراسة علوم الشريعة وفطنته وذكائه، وأيضًا ذلك العصر الذي تميّز بالعلماء الموسوعيين مع البراعة فيما يتخصصون به من آحاد الفنون.

كل هذه العوامل وغيرها كان من توفيق الله له بالالتفات للعلم والتبريز فيه.

ومن شواهد تبكيره في الطلب ما أورده هو في ترجمة شيخه عبد الرحيم بن عبد الله الزريرتي البغدادي الفقيه ابن شيخ العراق في الذيل (٤/ ٤٣٦)، والذي توفي سنة ٧٤١هـ، وعمر الحافظ آنذاك خمس سنين قال فيها:

«. . . ودرس بالمجاهدية ــ ببغداد ــ بعد موت صهره شافع المذكور قبله، ولم تطل بها مدته. وحضرت درسه وأنا إذ ذاك صغير لا أحُقّه جيدًا». اهـ.

وذكر شيخه أبا عبد الله محمد بن عبد العزيز بن المؤذن الوراق في الذيل (٢/ ٢٨٤): وأنه حضر عليه وعمره أربع سنوات قراءة كتاب النكاح من صحيح البخاري. بكماله. اهـ.

كما حصل له سماع وهو في الخامسة من علي بن عبد الصمد البغدادي حيث قال في الذيل (١/ ٦٧) عند ذكر طرقه لمسموعات الشيخ أبي إسماعيل الهروي الأنصاري على عادته في التراجم، قال:

«. . . ح وأخبرنا الربيع علي بن عبد الصمد بن أحمد البغدادي بها قراءة وأنا في الخامسة أخبرنا. . .».

مع ما سبق ذكره في سماعه قراءة والده على جده وهو في الثالثة والرابعة والخامسة وكلها وهم ببغداد في صغر سِنِّه؛ بل في أول طفولته[1]!

بل أجازه الحافظ علم الدين أبو القاسم البرزالي (٧٣٩هـ) عند رحلته مع أبيه إلى دمشق وعمره ٣ سنوات، وساعد أثر البيئة عليه في انتقاله مع والده إلى دمشق إبان طفولته، وسكناهم إياها، فقد كانت مركزًا مهمًّا من مراكز العلم، ومحطًّا للعلماء من الشرق والغرب.

وفي دمشق اتصلت أسرته بالعلماء من أهل الحديث والفقهاء، وكان لتلك الصلات أثر في إحاطة العلم وأهله للحافظ ابن رجب من مهده وفي نشأته، وهو من توفيق الله سبحانه وإعانته.

* * *

(١) مشى الحافظ على قول الجمهور من أنه يصح سماع الطالب وهو صغير، لكن لا يحدث بها أو يصح تحمله لها إلاّ بعد التمييز، بل في الكبر والرسوخ كما فعل هو بنفسه، وانظر اعتذاره عن قلَّة رواية ابن شافع في الذيل ١/ ٣١٢.

رحلاته في طلب العلم، وأبرز شيوخه

كانت الرحلة في طلب العلم سمة بارزة من سمات أهل العلم، ووسيلة لا يستغني عنها طالب علم من وسائل تحصيله، فكان الطلاب يتنافسون أشد التنافس في كثرة الرحلات وتوسعها؛ لأنها وسيلة للسماع من الشيوخ في البلدان والأخذ عنهم الرواية والدراية.

وفي الحقيقة لم تزل أهمية الرحلة للعلم باقية، إلَّا أنه خف شأنها كثيرًا في هذا الزمان.

وبما سبق من الكلام على الأسرة والبيئة فقد شبَّ الحافظ من طفولته المبكرة على الرحلة في طلب العلم؛ إذ رحل مع والده إلى عدة بلدان وأخذ عن علمائها، فحصَّل الحافظ بتلك الرحلة إجازات وسماعات عالية مع ما استفاد به من علماء بغداد وسماعه منهم وهو صغير، ولذا فهو في طلب العلم والسماع من الشيوخ منذ الصغر، وهؤلاء شيوخه في هذه المرحلة:

١ ـ والده المقرىء الشيخ شهاب الدين أحمد بن رجب السلامي الحنبلي (٧٠٥ ـ ٧٧٥هـ) حيث من أخص ما قرأ عليه القرآن الكريم بالروايات؛ إذ والده متخصص فيها، مع ما حصله على يديه من

المسموعات والمقروءات والإجازات الأُخر، والحافظ يشير إلى هذا في مناسبات عدة، ووالده له مشيخة لشيوخه على المعجم، انتقى منها ابن قاضي شهبة (٨٥١هـ) منتقًى لم يزل مخطوطًا في جامعة بيل بأمريكا، وقد جعل عليها ابنه الحافظ ابن رجب حاشية، يمر الإشارة إليها، مؤلفاته إن شاء الله.

٢ ــ جده الشيخ المقرىء عبد الرحمن بن الحسن السلامي الملقب بـ «رجب» (٦٧٧ ــ ٧٤٢هـ)، وحضر الحافظ قراءة والده أحمد على جده رجب وهو صغير عمره ثلاث وأربع وخمس سنوات في بغداد، كما ذكره الحافظ نفسه في الذيل ٢/ ٢١٣.

٣ ــ الشيخ العالم المسند المحدث الحافظ علم الدين أبو القاسم البرزالي (٦٦٣ ــ ٧٣٩هـ)، أجاز للحافظ وعمره ثلاث سنوات، وانظر: الذيل (٢/ ١٨٤) قال فيه: «أنبأني القاسم بن محمد الحافظ...» و (٢/ ٣٠٣) مثله.

٤ ــ الشيخ العالم المسند عبد المؤمن بن عبد الحق بن عبد الله مسعود القطيعي البغدادي الفقيه الفرضي المتقن الحنبلي (٦٥٨ ــ ٧٣٩) ترجمة الحافظ ابن رجب في الذيل (٢/ ٤٢٨ ــ ٤٣١)، وذكر فضله وتصانيفه ومسموعاته وقال: «وأجاز لي ما يجوز له روايته غير مرة». ونحوه في الذيل (٢/ ٣٠٤)، وانظر: الشذرات (٧/ ١٢١)، والدرر الكامنة (٣/ ٣٢)، والمنهج الأحمد (٤٤٢).

٥ ــ الشيخ المحدث عبد الرحيم بن عبد الله الزريرتي البغدادي الحنبلي (٧٤١هـ) سمع منه صغيرًا ببغداد، كما ذكره في الذيل

(٢/ ٢٣٦)، وقد ترجمه فيه[1].

٦ ــ الشيخ المحدث أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز بن المؤذن الوراق البغدادي (٧٤١هـ)، حضر عليه الحافظ قراءة كتاب النكاح من البخاري وهو صغير عمره أربع سنوات، ذكره في الذيل (٢/ ٢٨٤).

٧ ــ الشيخ المسند الربيع علي بن عبد الصمد بن أحمد البغدادي (٦٥٦ ــ ٧٤٢هـ)، ذكره الحافظ في الذيل ١/ ٦٧ و (٢/ ٤٤٥ و ٢٢١ و ٢٩٠ و ٣٠٤) في مسموعاته، وأخذ عنه وهو في الخامسة تحمُّلاً.

٨ ــ الشيخ العالم المسند محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن أبـي عمر محمد بن قدامة، صاحب الشرح الكبير المقدسي الخطيب الصالح القدوة (٦٦٣ ــ ٧٤٨هـ) أجاز لي مروياته. اهـ. قاله الحافظ ابن رجب في الذيل في ترجمته[2]، كما أجاز لوالده أحمد بن رجب، وهو من شيوخ الذهبـي.

---

(١) وترجمه في الشذرات ٦/ ١٣٠ ــ ١٣١ وسمّاه فيها: أبو محمد عبد الصمد بن عبد الملك بن محمد بن أبـي بكر بن إسماعيل الزريراتي البغدادي. من مؤلفاته مختصر طبقات الحنابلة لابن أبـي يعلى، وذيل عليه، كما اختصر «المطلع على المقنع» و «الفروق للسامريِّ»، وله نسخة خطية في جامعة برنستون بأمريكا (٤٥٧٧) وعنها فلم بمكتبة الملك فهد الوطنية. وانظر: الدرر الكامنة ٢/ ٤٦٦، والوافي بالوفيات ١٧/ ٥٩٢، والمنهج الأحمد ٤٤٤.

(٢) الذيل على الطبقات ٢/ ٤٤١ ــ ٤٤٢، ومعجم الذهبـي ١٢٢، والدرر الكامنة ٣/ ٣٧٤، من ذيول العبر ٢٦٦، والمقصد الأرشد ٢/ ٣٣٥، والشذرات ٦/ ١٥٧، والمنهج الأحمد ٤٤٧.

٩ ـ ابن النباش، من أصحاب الشيخ الإمام عبد المؤمن بن عبد الحق بن القطيعي (٧٣٩هـ) وكلاهما شيخ للحافظ ابن رجب، وقد ترجم شيخه ابن النباش، فقال في الذيل (٢/ ٤٣٢): «وابن النباش كان آية في الحفظ، غاص في البحر ولم يعلم له خبر، قرأت عليه «مختصر الخرقي» من حفظي، وسمعت عليه أجزاءً كثيرة من مصنفاته، وصحبته إلى الممات، ورأى عند وفاته طيورًا بيضاء نازلة، رحمه الله تعالى». اهـ. وانظر: المنهج الأحمد (٤٤٣).

١٠ ـ كما لقي هو ووالده الشيخ المحدث محمد بن أحمد بن تمَّام التلي الصالحي (٦٥١ ـ ٧٤١هـ) وأخذا عنه، انتقى له الحافظ الذهبي مشيخة عن نحو خمسمائة شيخ، وقال الحافظ ابن رجب في الذيل (٢/ ٤٣٤): «حدث بالكثير وسمع منه خلق وأجاز لي ما يجوز له روايته وكتب بخط يده». اهـ[1].

كما لقي الشيخين:

١١ ـ أبا محمد عبد الرحيم بن عبد الله البغدادي الحنبلي (٧٤١هـ) وأفاد منه.

١٢ ـ وأحمد بن عبد المؤمن السبكي النووي الشافعي (٧٤٩هـ) وأفاد منه، وحصَّل إجازته له.

وليلاحظ القارىء الكريم تنوع مشايخ الحافظ ومشاربهم الفقهية والعلمية وما يترتب على ذلك من آثار في تكوينه العلمي والمنهجي،

---

(١) المقصد الأرشد ٢/ ٨٨٢، ووفيات ابن رافع ١/ ٣٥٣، والدرر الكامنة ٣/ ٤٠٠، والبداية والنهاية ١٤/ ٣٥٩.

وعدم تعصبه للحنابلة باكتفائه بعلمائهم دون غيرهم، فها هو ينهل من عدة علماء وحفاظ من مذاهب فقهية أخرى!

وقد رحل مع والده إلى دمشق وفلسطين قبل تركهما بغداد، في سنة ٧٣٩هـ.

وفي دمشق لقيا الحافظ أبا القاسم البرزالي المتوفى في تلك السنة، وأجاز ابن رجب كما يأتي.

وعليه فكانت رحلات الحافظ هكذا حسب البلاد التي زارها:

(أ) **دمشق**: وقد رحل إليها مرتين، الأولى سبق ذكرها مع والده والثانية لما انتقلوا إليها قاطنين بها في سنة ٧٤٤هـ.

وقد أجازه فيها ــ بعد السكن بها ــ جماعة من العلماء حيث سمع من:

١٣ ــ المحدثة المسندة زينب بنت بن عبد الرحيم أحمد المقدسي (٦٤٦ ــ ٧٤٠هـ) الملقبة ببنت الكمال، كما في الذيل ١/ ٥٣ و ٨٢ و ١٥٥.

١٤ ــ ومن أشهرهم: الشيخ محمد بن النقيب الشافعي (٧٤٥هـ)[1].

١٥ ــ وفيها أيضًا سمع **سنن أبي عبد الله بن ماجه** على الشيخ يوسف بن عبد الله النابلسي الفقيه الفرضي (٧٥٤هـ)[2].

---

(١) الدرر الكامنة ٣/ ٣٩٨ رقم (١٠٦٢)، وذيل ابن عبد الهادي، ص ٣٧، والمقصد الأرشد ٢/ ٨١.

(٢) انظر: الذيل على الطبقات ٤/ ٣٤١، حيث صرح فيه بالسماع عنه بذلك.

١٦ ــ وسمع من المحدث محمد بن إسماعيل بن الخباز المدرس بدار الحديث السكرية (٦٦٧ ــ ٧٥٦هـ)[١]، وله سند متصل إلى **صحيح مسلم** تلقاه عنه ابن رجب، وابن الخباز قد سمع من الحافظين المزي والذهبي[٢].

١٧ ــ وسمع أيضًا فيها من جمال الدين داود بن العطار (٧٥٢هـ)، حيث سمع الحافظ منه **مسند الإمام أحمد كاملاً**[٣].

(ب) مصر: حيث رحل إليها الحافظ ابن رجب بعد بلوغه؛ ولقي فيها:

١٨ ــ الشيخ المحدث أبا الفتح محمد بن محمد بن إبراهيم بن الميدومي (٦٦٤ ــ ٧٥٤هـ)، وأكثر عنه سماع الأحاديث وكان من الحفاظ المشهورين ولربما هو أحفظ أهل عصره، كما كان عالي الإسناد، مشتغلاً بالحديث والإسماع، توفي سنة ٧٥٤هـ[٤].

---

(١) الدرر الكامنة لابن حجر ٣/ ٣٨٤ ــ ٣٨٥. وكان والد الحافظ ابن رجب: الشهاب أحمد قد سمع منه المسند للإمام أحمد بكماله وقرأ عليه صحيح مسلم، والحافظ ابن رجب الحنبلي سمع منه مرات كما في الذيل ١/ ١٩٦ و ٢٤٧ و ٢/ ١٥٠ و ٦١ و ٧٨ و ١٦١ و ١٩٢.

(٢) وهما مذكوران في عداد كبار شيوخه.

(٣) الدرر الكامنة للحافظ ابن حجر ٢/ ٩٥، وانظر: المقصد الأرشد لابن مفلح ٢/ ٨٢، والدارس ١/ ٤٣٥، والتنبيه والإيقاظ للطهطاوي ٧٧.

(٤) انظر: الذيل على الطبقات ١/ ٣٥ و ١/ ١١٨ و ١٣٧ و ١٣٨ و ١٤٠ و ١٨٧، وترجمته في الدرر الكامنة ٤/ ١٥٧، وشذرات الذهب ٦/ ٣٣٩، والمقصد الأرشد ٢/ ٨٢، والدارس ٢/ ٧٧.

١٩ ــ وفي دمشق سمع الحافظ من المحدث المسند المعمر أحمد بن محمد بن عمر الصالحي، أبو العباس المعروف بُرغُنُش[١]، ويُعرف بابن مهندس الحرم، قيم الضيائين (٦٧٥ ــ ٧٧١هـ)، حيث قال ابن قاضي شهبة في تاريخه: «سمع منه الحسيني وابن رجب، والحفاظ: ابن العراقي والهيثمي وابن حجي وغيرهم». اهـ[٢]. وقد توفي وقد قارب المائة، ورأى من أولاده وأحفاده مائة.

٢٠ ــ ومن شيوخه أيضًا: قاضي الحنابلة علي بن الزَّين المنجَّا التنوخي المقرىء الدمشقي (٧٥٠هـ)، فقد نقل ابن قاضي شهبة في تاريخه عنه فقال: «قال الحافظ زين الدين ابن رجب: وحدث بالكثير وقرأت عليه جزءًا فيه الأحاديث التي رواها مسلم في صحيحه عن الإمام أحمد». اهـ[٣].

٢١ ــ ومنهم الشيخ الفقيه القاضي حمزة بن موسى بن أحمد المعروف بابن شيخ السلامية (٧١٢ ــ ٧٦٩هـ)، كان من أصحاب ابن

---

(١) كذا ضبطه ابن مفلح في كتابه المقصد الأرشد قاله ابن العماد في الشذرات ٦/ ٢٢٠، ولم أجد الضبط مكتوبًا في مطبوعة المقصد ١/ ١٨٢ لكن في حاشيته ذكر المحقق أن هذا الضبط في هامش النسخة بخط الشيخ عبد القادر بدران، وفي بعض المصادر أبدلت النون لامًا «زغلش». وانظر: العقود الدرية ٢/ ٤١٩، والدرر الكامنة ١/ ٣١٠، والوفيات لابن رافع ٢/ ٣٥٠.

(٢) تاريخ ابن قاضي شهبة ٢/ ٣٦٧.

(٣) تاريخ ابن قاضي شهبة ١/ ٦٩٦، والبداية والنهاية حوادث سنة (٧٥٠هـ) ١٤/ ٢٣٢، ووفيات ابن رافع، ترجمة (٦١٢)، ووجيز الكلام للسخاوي ١/ ٥٠، والمنهج الأحمد ٤٧٥، والدرر الكامنة ٣/ ٢٠٩.

تيمية وله عناية بفتاويه، ويوالي فيه ويعادي، وقف درسًا وكتبًا بالصالحية وعين لها الحافظ ابن رجب الحنبلي. قال ابن رجب: وحدثني الإمام العلامة عز الدين حمزة ابن شيخ السلامية عنه ـ أي عمر بن سعد الله الحراني ـ أنه قال له: لم أقض إلاَّ وقد أعددت لها الجواب بين يدي الله تعالى». اهـ[1].

٢٢ ـ وأيضًا سمع بها من محمد بن إسماعيل بن الملوك الأيوبي (٧٥٦هـ)، وكان من شيوخ الحديث والتصوّف[2].

٢٣ ـ كما أخذ عن أبي الحرم محمد بن القلانسي (٦٨٣ ـ ٧٦٥هـ) وكان مسند الديار المصرية في وقته[3].

وأخذ عن جماعة من أصحاب الإمام المحدث المسند الفخر ابن البخاري شيخ شيخ الإسلام ابن تيمية.

٢٤ ـ وأخذ عن قاضي الديار المصرية وابن قاضيها الشيخ أبو عمر عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم بن جماعة الكتاني الشافعي الحموي المصري (٦٩٤ ـ ٧٦٧هـ). انظر: الذيل (٣/ ٨٤ ـ ٨٥). قال فيه: «وكان شيخنا أبو عمر عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم بن جماعة الكناني الشافعي، قاضي الديار المصرية وابن قاضيها، يمنع الناس أن يخاطبوه بقاضي القضاة أو يكتبوا له ذلك، وآمرهم أن يبدلوا

---

(١) الذيل ٢/ ٤٤٣، وترجمته في الدرر الكامنة ٢/ ٧٧، والمنهج الأحمد ٤٦٠، والوفيات للسلامي ٢/ ٣٣٧، والرد الوافر ١٦١، والنجوم الزاهرة ١١/ ١٠١، والشذرات ٦/ ٢١٤، والقلائد الجوهرية ١/ ٢٢٦، والمقصد الأرشد ١/ ٣٦٢.

(٢) انظر: الذيل ١/ ١٥ و ٤١ في سماعه منه.

(٣) ترجمته في الشذرات ٦/ ٢٠٦ وغيرها.

ذلك بقاضي المسلمين، وقال: إن هذا اللفظ مأثور عن علي رضي الله عنه». اهـ[1].

وقد لقيه مرة أخرى في مكة لما حج ــ كما يأتي إن شاء الله ــ وذلك أنه حج سنة (٧٦٣هـ)، واجتمع بعدد من العلماء، نص على ذلك هو في ترجمة أحدهم من شيوخه، وهو الشيخ الإمام جمال الدين ابن الأنباري (٧٦٥هـ)، وتأتي ترجمته في عداد شيوخه، ومما جاء في ترجمته من الذيل (٢/ ٤٤٧): «وقد جمعت بينه وبين قاضي قضاة مصر الموفق وابن جماعة ــ كذا بالواو ــ بمنى يوم القرِّ عام ثلاث وستين ومائة»، كذا، والصواب: وسبعمائة، ويبدو لي أن قاضي قضاة مصر الموفق هو ابن جماعة وأن الواو غلط، والله أعلم.

(ج) **ثم رحل إلى نابلس**: وسمع من أصحاب الشيخ المحدث الصوفي ابن بدران[2].

٢٥ ــ ومن أخصهم الشيخ جمال الدين يوسف بن عبد الله بن محمد النابلسي الفقيه[3] الفرضي (٦٩١ ــ ٧٥٤هـ)، سمع منه سنن ابن

(١) الدرر الكامنة ٢/ ٣٧٨، والشذرات ٦/ ٢٠٧، والبدر الطالع ١/ ٣٥٩د، وطبقات الشافعية للإسنوي ١/ ٨٢.

(٢) واسمه عبد الحافظ ابن بدران بن شبل بن طرخان المقدسي النابلسي، كان زاهدًا متصوفًا محدثًا، وهو من المقادسة، مات وعمره نحو ٩٠ سنة، وهو من طلاب الموفق ابن قدامة، انظر ترجمته. وأَخْذَ ابن رجب عنه، وترجمه في الذيل ٤/ ٣٤١.

(٣) ترجمته في الدرر الكامنة ٥/ ٢٣٩، والشذرات ٦/ ١٧٦ والمنهج الأحمد ٤٥٣، والمقصد الأرشد ٣/ ١٤١.

ماجه بدمشق، بسماعه عن ابن بدران. كما أخذ عن غيره من أصحاب ابن بدران.

(د) **ثم رحل إلى القدس**: وهي غير رحلته الأولى إليها مع والده وهو صغير.

٢٦ ــ وبالقدس سمع من الحافظ أبـي سعيد خليل بن كيكلدي العلائي (٦٩٤ ــ ٧٦١هـ)[١] المصنف المشهور، وهو الذي قد سمع من أكثر من سبعمائة شيخ منهم المزي والذهبـي وغيرهما، فقد سمع منه ابن رجب الحديث، وكانت له معرفة في علم الرجال وكان ذكيًّا فهمًا، وكتابه «جامع التحصيل في أحكام المراسيل» شاهد على ذلك.

قال الحافظ ابن رجب في ترجمة الشيخ سليمان بن حمزة بن قدامة المقدسي (٧١٥هـ) من الذيل (٢/ ٣٦٥)، «قلت: وسمعت شيخنا الحافظ أبا سعيد العلائي ببيت المقدس يقول: رحمه الله شيخنا القاضي تقي الدين سليمان، سمعته يقول: لم أصلِ الفريضة قط منفردًا إلاَّ مرتين وكأني لم أصلهما قط». اهـ.

ــ وقبل هذه الرحلات سافر الحافظ ابن رجب إلى بغداد لوحده، فسمع هناك على جماعة من المحدثين:

٢٧ ــ حيث قرأ على الشيخ محمد بن عبد الرزاق الشيباني الزاهد في سنة ٧٤٩هـ، وقد نص على قراءته عليه في الذيل (١/ ٢٨٩)، فقال: «أخبرنا أبو المعالي محمد بن عبد الرزاق بن أحمد

(١) انظر: ترجمته في الذيل ٤/ ٤٤٤، وفيه ذكر أنه حجَّ سنة وفاته ومات بعد نية الإحرام.

الشيباني الزاهد، بقراءتي عليه ببغداد سنة ٧٤٩هـ، أخبرنا الحافظ أبو عبد الله أحمد بن محمد الأنجب بن الكسار ــ سماعًا ــ ، أخبرنا العلامة أستاذ دار الخلافة أبو محمد يوسف بن الحافظ أبـي الفرج بن الجوزي، أخبرنا أمير المؤمنين المستعصم بالله أبو محمد عبد الله بن المستنصر بالله أبـي جعفر منصور بن الظاهر بن الناصر، أخبرنا أبو علي الحسن بن المبارك الزبيدي ح . . . عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يزداد الأمر إلاَّ شدة، ولا يزداد الناس إلا شحًّا، ولا تقوم الساعة إلاَّ على شرار الناس**». وفي هذا الإسناد سلسلة عجيبة بالخلفاء والملوك». اهـ.

٢٨ ــ وفي هذه السنة (٧٤٩هـ) سافر إلى الحج مع والده، وسمع قبلها **ثلاثيات البخاري** بالسند عن المحدث أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن موسى الحسيني البغدادي البزار الأزجي الشافعي (٦٨٨ ــ ٧٤٩هـ) إمام جامع الخليفة ببغداد، قال ابن قاضي شهبة في تاريخه (١/ ٦٩٧): «سمع منه المقرىء شهاب الدين ابن رجب ــ أحمد والد الحافظ ــ وذكره في معجمه، وولده الحافظ زين الدين، وقرأ عليه مشيخته . . .

قال ابن كثير: سمعته كثيرًا يتنصل ويظهر محبة الإمام أحمد، سمع الكثير وصنف، وعمل مشيخة ذكر أنها تحتوي على ألوف كثيرة من الكتب المجازة له والتي سمعها». اهـ.

سمع عليه الحافظ ثلاثيات البخاري ببغداد بالحلة اليزيدية[١].

---

(١) ذكرها في ترجمته برقم (٥٤٤) من الذيل ٤/ ٤٤٤ وما بعدها.

قال ابن رجب في الذيل (٢/ ٤٤٤): «قدم في آخر عمره إلى بغداد فأقام بها يسيرًا ثم توجه إلى الحج سنة تسع وأربعين، وحججت أنا تلك السنة أيضًا مع والدي، فقرأتُ على شيخنا أبـي حفص ثلاثيات البخاري». اهـ[1].

٢٩ ــ كما سمع في بغداد على الشيخ الفقيه الفرضي أحمد بن علي بن محمد البابصري ويُقال «البصري» البغدادي الحنبلي (٦٧٧ ــ ٧٥٠هـ).

٣٠ ــ قال الحافظ في ترجمته من الذيل (٤/ ٤٤٦): «وكان صالحًا دينًا متواضعًا، حسن الأخلاق، مطرحًا التكلف، حضرت دروسه وإشغاله غير مرة، وسمعت بقراءته الحديث». اهـ[2]. . . وهو من جلساء ابن تيمية وممن أخذ عنه.

كما سمع من الحسين بن بدران البابصري البغدادي الخطيب المحدث النحوي الفقيه (٧٤٩هـ) قراءته **لصحيح البخاري** على الشيخ جمال الدين مسافر بن إبراهيم الخالدي بسنده[3].

وقال الحافظ عنه: «وسمع الحديث متأخرًا من جماعة من شيوخنا وغيرهم. وقال: واختصر «الإكمال» لابن ماكولا، وعلقه في حياته، وقرأت عليه بعض. . .»[4].

---

(١) في الذيل ٤/ ٤٤٣ ــ ٤٤٤، والدرر الكامنة ٣/ ٢٥٦.

(٢) ترجمه في الذيل ٤/ ٤٤٥ ــ ٤٤٦، والمنهج الأحمد ٤٤٨، والشذرات ٦/ ١٦٦.

(٣) المصدر السابق ٤/ ٤٤٣ ــ ٤٤٤.

(٤) في الذيل العبارة كالتالي: «وقرأ عليه بعض» ٤/ ٤٤٤، و «تاء المتكلم» ساقطة ويحتمها السياق، وإلاَّ لما كان للكلام معنى.

٣١ ــ وفي المدينة سمع من حافظها ومؤرخها أبو السيادة عبد الله بن محمد السعدي ابن المطري الخزرجي (٧٦٥هـ) مؤذن مسجد النبي ﷺ وصاحب تواريخ المدينة وغيرها، وقد ذكر الحافظ مشيخته له في الذيل (٤/ ٣٧٠). في آخر ترجمة ابن عبد القوي الطوفي، ونقل ابن قاضي شهبة في تاريخه قال: «وقال الحافظ زين الدين ابن رجب: سمعت عليه الكثير في مجاوري سنة ثلاث وستين (٧٦٣)، وقد رأيته حافظ وقته». اهـ[1].

وكان قد سمع منه أيضًا أكابر الحفاظ: علم الدين البرزالي والشمس الذهبي والحسيني وغيرهم.

ــ وأيضًا حجَّ ابن رجب مرة ثانية في سنة ٧٦٣هـ والتقى فيه جماعة من العلماء منهم:

٣٢ ــ عز الدين عبد العزيز بن جماعة (٧٦٧هـ)، وهو كبير ورئيس القضاة بمصر سنة ٧٣٩هـ، وأصله حموي شامي جاور بمكة وبها مات وهو من الحفاظ المحدثين. . .، ومضى في الكلام على بيئته وذكر بعض شيوخه المسندين في صغره.

٣٣ ــ ولقي في مكة الشيخ المحدث الفقيه فخر الدين عثمان بن يوسف بن أبي بكر النويري الملكي (٦٦٣ ــ ٧٥٦هـ)، وترجمه الحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة وغيره[2]، كان زاهدًا فقيهًا

---

(١) تاريخ ابن قاضي شهبة ٢/ ٢٥٠.

(٢) الدرر الكامنة ٢/ ٤٥٣، والدارس ٢/ ٧٦، والمقصد الأرشد ٢/ ٨١.

عالمًا. قال الحافظ ابن رجب عنه أنه قال: «لم يكتب الملك عليَّ كذبًا ولا كبيرة». اهـ.

٣٤ ــ ومن أشهر شيوخ الحافظ ابن رجب شيخه **الإمام أبو عبد الله ابن القيم** حيث لازمه ابن رجب أكثر من سنة وسمع عليه العقيدة النونية «**الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية**» وغيرها، وقد ترجم له في ذيله ترجمة ذكر فيها فضائله ومناقبه وأطال فيها ما لم يطل في أحد سواه من شيوخه، ومما قال فيه في الذيل (٢/ ٤٤٧ ــ ٤٥٢):

«قلت: وكان رحمه الله ذا عبادة وتهجد، وطول صلاة إلى الغاية القصوى، وتألّه ولهج بالذكر، وشغف بالمحبة والإنابة والاستغفار والافتقار إلى الله والانكسار له والاطراح بين يديه على عتبة عبوديته؛ لم أشاهد مثله في ذلك، ولا رأيت أوسع منه علمًا، ولا أعرف بمعاني القرآن والسنَّة وحقائق الإيمان منه، وليس هو المعصوم، ولكن لم أر في معناه مثله.

وقد امتحن وأوذى مرات، وحبس مع الشيخ تقي الدين في المرة الأخيرة بالقلعة، منفردًا عنه، ولم يفرج عنه إلَّا بعد موت الشيخ.

وكان مدة حبسه مشتغلاً بتلاوة القرآن بالتدبّر والتفكّر، ففتح عليه من ذلك خير كثير، وحصل له جانب عظيم من الأذواق والمواجيد الصحيحة، وتسلّط بسبب ذلك على الكلام في علوم أهل المعارف، والدخول في غوامضهم، وتصانيفه ممتلئة بذلك، وحج مرات كثيرة، وجاور بمكة، وكان أهل مكة يذكرون عنه من شدة العبادة وكثرة الطواف أمرًا يتعجب منه.

ولازمت مجالسه قبل موته أزيد من سنة، وسمعت عليه «**قصيدته النونية الطويلة**» في السنة وأشياء من تصانيفه وغيرها». اهـ.

توفي ابن القيم سنة ٧٥١هـ وعمر تلميذه ابن رجب نحو من خمس عشرة سنة، ولا أشك أنه تأثّر به تأثّرًا بالغًا لم يشاكله تأثّر بأحد أشياخه.

ومن عجيب الاتفاق تماثل وصف الحافظ ابن رجب لعبادة ابن القيم، مع وصف ابن القيم لعبادة شيخ الإسلام ابن تيمية!

وبالجملة فالحافظ ابن رجب أخذ عن مدرسة شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية بواسطة جماعة من تلاميذه وأخصهما ابن القيم وابن قاضي الجبل، مع شدة إفادته من الأول وملازمته له إلى موته.

ومدرسة تقي الدين ابن تيمية لها من التمييز والتحقيق ما هو معروف عنه رحمه الله، وعليه التعويل في تحقيقات علوم الشريعة في زمنه وما بعده حتى زمننا الحاضر، وهو التفنن الشمولي في العلوم الشرعية وملاحظة المناهج المبتدعة في العقيدة.

واستفاد ابن رجب أيضًا من مدرسة المحدثين من طبقة الحافظ جمال الدين المزي وتلامذته الإمام الذهبي وابن الخباز، فصُبغ في منهج الحافظ صبغة أهل الحديث، وهي عنده ظاهرة، كذلك بمصاحبته لأهل الزهد والتصوّف كأصحاب ابن بدران النابلسي ومن عاشرهم في الشام، أثَّر هذا عليه في توجهه إلى وجهة الزهد والإعراض عن الشهرة وأهل الولايات، وتركيزه على أعمال القلوب ورقائقها.

فمن مجموع هذا تحصل له الجمع بين طريقي: المحدثين بسماعه الأصول ومدونات السنَّة من الصحاح والمسانيد بالأسانيد المتصلة إلى أصحابها.

وطريقة الفقهاء بنوعيها: فقه التفاصيل الشرعية في الأحكام العملية، والفقه الأكبر في العقيدة والسنَّة من مدرسة ابن تيمية، فجمع بين طريقتي السلف في العلوم.

وأخذ الحافظ عن الإمام ابن القيم الحديث حتى روى عنه **صحيح البخاري** بسنده من طريق شيخه تقي الدين ابن تيمية[١].

---

(١) وأنا ــ بحمد الله ــ أرويه من طريقهم، فقد أخبرني الشيخ بديع الدين الراشدي السندي بها، وكذا الشيخ سلطان محمد سكراني الملتاني والشيخ حماد الأنصاري والشيخ إسماعيل الأنصاري والشيخ عمر بن محمد فلاتة رحمهم الله، ومن الأحياء الآن الشيخ أبو تراب الظاهري والشيخ عبد العزيز الزهراني وآخرون، كلهم إجازة، أخبرنا الشيخ عبد الحق الهاشمي، أخبرنا أحمد بن عبد الله بن سالم البغدادي، عن عبد الرحمن بن حسن بن محمد عبد الوهاب، عن جده شيخ الإسلام، عن عبد الله بن إبراهيم المدني، عن عبد القادر التغلبي، عن عبد الباقي، عن أحمد الوفائي، عن موسى الحجازي، عن أحمد الشويكي، عن العسكري، عن الحافظ عبد الرحمن بن رجب، عن الحافظ شمس الدين ابن القيم، عن شيخ الإسلام الحافظ تقي الدين أبي العباس ابن تيمية، عن الفخر ابن البخاري، عن أبي ذر الهروي، عن شيوخه الثلاثة، السرخسي والمستملي والكشميهني، عن محمد بن يوسف الفربري، عن الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري. رحمهم الله أجمعين.
فانظر إلى هذه السلسلة الإسنادية التي ضمت في نظمها أئمة الدعوة السلفية المعاصرة والمتقدمة. وهذا الطريق من أعلى الطرق لرواية الصحيح.

٣٥ ـ كما تتلمذ ابن رجب على شيخ الحنابلة بالشام المعروف بابن قاضي الجبل (٦٩٣ ـ ٧٧١هـ)[١]، وتحمل عنه علمًا كثيرًا خصوصًا فقه المذهب، بل إن الحافظ ابن رجب خلفه في حلقته؛ وابن قاضي الجبل من تلامذة شيخ الإسلام ابن تيمية.

قال عنه ابن رجب: قال لي مرة: كنت في حالة الشبوبية ما أتغدى إلَّا بعد عشاء الآخرة للاشتغال بالعلم. وقال لي مرة: كم تقول إنني أحفظ بيت شعر؟ قلت: عشرة آلاف! قال: بل ضعفها.

ودرس على الشيخ ابن النباش ووصفه بأنه كان آية في الحفظ، وقد غاص في البحر ولم يعلم له خبر. ومرَّ ذكر ذلك برقم (٩) من تعداد شيوخ الحافظ.

هذا، ومن شيوخه أيضًا:

٣٦ ـ الشيخ العالم المحدث المقرىء عبد الله بن عبد المؤمن بن الوجيه الواسطي (٦٧١ ـ ٧٤١هـ). وقد تدبج هو والحافظ الذهبي (٧٤٨هـ) فكل منهما آخذ عن الآخر، وذكر الحافظ ابن رجب شيخه الواسطي هذا بقوله في ترجمة عمر بن علي البغدادي (٢/ ٤٤٤)، فقال: «وعلى شيخنا عبد الله بن عبد المؤمن الواسطي، وقرأ عليه بعض تصانيفه في القراءات.

(١) ترجمه في الذيل ٢/ ٤٥٣ في آخر تراجمه فانظرها فإنها مهمة، والدرر الكامنة ١/ ١٢٠، وله كتاب القواعد الفقهية، وأظنه لم يتمه وهو كتابٌ مخطوطٌ محفوظٌ في الظاهرية رقم (٢٧٥٤).

٣٧ ــ الشيخ الحافظ مسند العراق ومحدثها أبو حفص عمر بن علي بن عمر القزويني (٦٨٣ ــ ٧٥٠هـ)، قال فيه ابن حجر في الدرر الكامنة (٣/ ١٨٠): «الحافظ الكبير محدث العراق سراج الدين. . . وأجاز له التقي سليمان وغيره من دمشق، وصنف التصانيف، وعمل الفهرست أجاد فيه. . .». اهـ.

وقال ابن رجب مصرحًا بالأخذ عنه في الذيل (١/ ٦٧): «قرأت علي أبي حفص عمر بن علي القزويني ببغداد أخبركم أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم المقرىء ح وأخبرنا الربيع علي بن عبد الصمد بن أحمد البغدادي بها قراءة عليه وأنا في الخامسة أخبرنا. . .». اهـ.

٣٨ ــ الشيخ المسند المعمر شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن جُبارة الحريري المقدسي الصالحي (٦٦٣ ــ ٧٥٨هـ)، وهو آخر من روى بالإجازة في الدنيا عن ابن عبد الدائم (٦٦٨هـ) والنجيب عبد اللطيف. قاله الحسيني كما في ذيل العبر (٣١٦)، سمع منه الحفاظ: البرزالي والذهبي والحسيني وابن رجب وقد صرَّح الحافظ بذلك نصًّا في الذيل (٢/ ٣٢١)، ترجمه في المقصد الأرشد (١/ ١٢٦) وغيره، حيث روى عنه ابن رجب عن شيخه المسند محمد بن عبد الرحيم السعدي (٦٠٧ ــ ٦٨٨هـ).

٣٩ ــ الشيخ المحدث عمر بن عثمان بن سالم بن خلف بن فضل المقدسي الصالحي (٦٧٨ ــ ٧٦٠هـ) اعتني بالكتب الحديثية، روى عنه من الحفاظ الحسينيُّ (٧٦٥)، وابنُ رجب عن شيخه محمد بن

عبد الرحيم السعدي (٦٨٨) وغيره، كما صرح بذلك الحافظ في الذيل (٢/ ٣٢١). وصرح به أيضًا في (٢/ ٢٨٦)، وترجم له في ذيول العبر (٣٣٠) ووفيات ابن رافع (٢/ ٢٢٢)، والدرر الكامنة (٣/ ٢٥١)، والمنهج الأحمد ٤٥٤)، والمقصد الأرشد (٢/ ٣٠٣)، والشذرات (٦/ ١٨٩).

٤٠ ــ مسند الوقت الشيخ عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن نصر الدمشقي العطار الحنبلي، ابن قيم الضيائية (٦٦٩ ــ ٧٦١هـ) وقد عُمِّر ٩١ سنة وهو شيخ الحفاظ: الذهبي والبرزالي وابن رافع والحسيني، وأخذ عنه الحافظان: ابن رجب، والعراقي وأكثر عنه كما قاله تلميذه ابن حجر في الدرر الكامنة (٢/ ٢٨٣).

قال ابن رجب في الذيل (٢/ ٣٢١): «وحدثنا عنه ــ أي محمد بن عبد الرحيم السعدي (٦٠٧ ــ ٦٨٨هـ) ــ جماعة منهم: ابن الخباز وعبد الله بن محمد ابن قيم الضيائية، وأحمد الحريري، وأبو الفضل الحموي، وعمر بن عثمان بن سالم المقدسي». اهـ.

٤١ ــ الشيخ العالم أحمد بن محمد بن سليمان بن أحمد بن سليمان الشِّيرجي الحنبلي أبو العباس البغدادي (٦٩١ ــ ٧٦٥هـ)، وقد سمع عليه الحافظ ابن رجب في بغداد حيث قال في آخر ترجمة الشيخ عبد القادر الجيلاني من الذيل (١/ ٣٠١): «قرأت على أبي العباس أحمد بن محمد بن سلمان ــ حيث نسبه إلى جد جده أو ربما تصحفت المخطوطة ــ الحنبلي ببغداد: أخبركم أبو الحسن علي بن تامر بن حصين...». اهـ. وترجمته في الدرر الكامنة (١/ ١٨٢)، والمنهج الأحمد (٦٥٧)، والمقصد الأرشد (١/ ١٨١).

٤٢ ـ الشيخ المسند المكثر أبو الفضل بن الحموي، وهو محمد بن إسماعيل بن أبـي الفضل المُسلَّم بن الحسن الدمشقي المعروف بابن الحموي المتوفى سنة (٧٥٨هـ).

وقد سمع عليه الحافظ «أمالي ابن سمعون» قاله التقي ابن الفاسي (٨٣٢)، في ذيل التقييد (٢/ ٧٢). وهذه الأمالي هي الأمالي العشرين لأبـي الحسين محمد بن أحمد بن سمعون الواعظ[١] (٣٨٧) وهي مخطوطة في الظاهرية، وعنها فلم بجامعة الإمام (٢٠٣٠).

وقد ذكره الحافظ ابن رجب في عداد شيوخه الذي حدثوا عن الشيخ محمد بن عبد الرحيم السعدي (٦٨٨) ابن أخي الضياء المقدسي في ترجمته من الذيل (٢/ ٣٢١). وانظر: وفيات ابن رافع (٢/ ١٩٢)، والدرر الكامنة (٣/ ٣٨٩)، والمجمع المؤسس لابن حجر (١/ ٦٠١ و ٦٠٣ و ٢/ ١٤٢ و ١٧٨ و ١٩١).

٤٣ ـ والشيخ المقرىء الفقيه: بشر بن إبراهيم بن محمود البعلي الحنبلي (٦٨١ ـ ٧٦١هـ).

سمع منه الحافظ ابن رجب، وأسند عنه في آخر ترجمة عبد الرحيم بن نجم بن عبد الوهاب الحنبلي فقال في الذيل (٢/ ٢٠٠): «أخبرنا بشر بن إبراهيم البعلي وغير واحد قالوا: حدثنا

(١) وأحب لفت أذهان طلاب العلم والمتخصصين بالحديث إلى أهمية الأمالي ونحوها من الأجزاء والفوائد والمجالس والمشيخات والمعاجم، واحتوائها على العزيز والطريف من الألفاظ والطرق والغرائب، وغيرها مما يدركه المشتغلون بها، والمخطوط منها كثير جدًّا.

أبو عبد الله. . . ». وقد تُرجم في الوفيات لابن رافع (٢/ ٢٢٩)، والدرر الكامنة (٢/ ١٢)، والمقصد الأرشد (١/ ٢٨٦)، والشذرات (٦/ ١٩٠)، والمنهج الأحمد (٤٥٥).

٤٤ ــ الشيخ العالم القاضي جمال الدين عمر بن إدريس الأنباري البغدادي الحنبلي (٧٦٥) عرف بإقامة السنن وقمع البدع ببغداد وإزالة المنكرات، ونصر المذهب حتى ارتفع فيه حتى لم يكن في المذهب أحمد منه في زمانه، ثم وزر لكبير بعض الرافضة فظفروا به فعاقبوه مدة، فصبر. ثم إن أعداءه أهلكهم الله تعالى عاجلاً بعد استشهاده، وفرح أهل بغداد بهلاكهم، وذلك عقيب موته في سنة (٧٦٥هـ)، ثم دفن بمقبرة الإمام أحمد عند المدرسة التي عمرها بها. . . وقد جمعت بينه وبين قاضي قضاة مصر الموفق، وابن جماعة ــ كذا ــ بمنى يوم القَرِّ عام ثلاث وستين وستمائة ــ كذا ــ قاله الحافظ ابن رجب في ترجمته من الذيل (٢/ ٤٤٦ ــ ٤٤٧)، وانظر: الدرر الكامنة (٣/ ٢٢٩)، والشذرات (٦/ ٢٠٤)، والمقصد الأرشد (٢/ ٢٩٤)، والمنهج الأحمد (٤٥٨).

٤٥ ــ الشيخ المحدث أحمد بن عبد الكريم بن أبي بكر البعلي الحنبلي الصوفي (٦٩٦ ــ ٧٧٧هـ)، سمع منه الحافظ ابن رجب إما في بلده بعلبك أو دمشق حيث نقل عنه في آخر ترجمة نصر بن فتيان ابن المني الحنبلي من الذيل (١/ ٣٦٥)، فقال: «أخبرنا أحمد بن عبد الكريم البعلي حدثنا عبد الخالق بن علوان. . . ». اهـ. وعدَّ الحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة (١/ ١٧٧) من شيوخه التاج عبد الخالق!

٤٦ ـ الشيخ المحدث المسند عمر بن حسن بن مزيد بن أميلة المزي أبو حفص الحلبي، ثم الدمشقي (٦٧٩ ـ ٧٧٨هـ).

سمع من الفخر ابن البخاري جماعة واشتغل بالتحديث خمسين سنة بلا ضجر ولا ملل. قاله الحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة (٣/ ١٦٠).

قال الحافظ ابن رجب في الذيل على الطبقات (١/ ٩٨) في ترجمة أبي منصور الخياط: «قرأت على أبي حفص عمر بن حسن المزي أخبركم...». اهـ.

٤٧ ـ الشيخ يوسف بن الشيخ يحيى بن الإمام الناصح عبد الرحمن بن الحنبلي الشيرازي الدمشقي (٦٦٥ ـ ٧٥١هـ)، وقد سمع منه الحافظ ابن رجب ووالده المقرىء أحمد بن رجب.

وقد سمع منه أيضًا الحفاظ: البرزالي وابن رافع والحسيني، وهو من بيت علم وصلاح وإمامة فأبوه وجده وجد أبيه وجد جده علماء:

ـ فأولهم الإمام أبو الفرج عبد الواحد بن محمد الحنبلي الشيرازي (٤٨٦هـ) وهو ناقل مذهب الحنابلة من بغداد وباثُّه في الشام.

ـ وابنه الشيخ عبد الوهاب بن عبد الواحد بن الحنبلي (٥٣٦هـ)، خلف والده على إمامة المذهب الحنبلي في الشام، وصاحب الصولات على المبتدعة من الباطنية والأشاعرة وغيرهم. وقد بسطت القول على أعلام هذه الأسرة المباركة في تقدمة أطروحتي «ابن الحنبلي وكتابه الرسالة الواضحة».

قال الحافظ ابن رجب في ترجمة والد شيخه من الذيل (٤/ ٢٨٦): «وحدثنا عنه ابنه شمس الدين يوسف مدرس الصاحبية

بجزء ابن زبر الصغير[1]، كان حضره على أبيه، ومحمد بن الخباز، وأحمد بن عبد الرحمن الحريري». اهـ.

٤٨ ــ الشيخ المقرىء أحمد بن عبد الهادي بن عبد الحميد بن قدامة، أبو العباس المقدسي الصالحي الحنبلي (٦٧٢ ــ ٧٥٢هـ)، اشترك في السماع عليه الحفاظ: ابن رافع والحسيني وابن رجب وقال في ترجمته ابنه الشمس محمد من الذيل (٢/ ٤٣٩) من آخرها: «وحدث بشيء من مسموعاته، وسمع منه غير واحد، وقد سمعت من أبيه؛ فإنه عاش بعده نحو عشر سنين». اهـ. ترجمه ابن رافع في الوفيات (٢/ ١٤١) والحسيني في ذيول العبر (٢٨٥)، والحافظ في الدرر الكامنة (١/ ٢٠٨)، والصفدي في الوافي بالوفيات (٧/ ١٥٩)، وفي المقصد الأرشد (١/ ١٤٠)، والمنهج الأحمد (٤٥٢)، والشذرات (٦/ ١٧١).

٤٩ ــ عبد الرحمن بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، أبو الفرج (٦٩٣ ــ ٧٦٩هـ) أخو الحافظ ابن القيم. ذكر في الذيل ٢/ ٩١، وفي الشذرات ٦/ ٢١٦ أن ابن رجب سمع عليه كتاب التوكل لابن أبي الدنيا بسماعٍ عالٍ وأنه أورده في مشيخته. قلت: والمشيخة لوالد الحافظ ابن رجب: أحمد، ولكن لابن رجب حواشٍ عليها، فالمشيخة محتملة، والله أعلم.

---

(١) وهو لأبي محمد عبد الله بن أحمد بن ربيعة البغدادي القاضي الدمشقي، سمع من جماعة منهم عباس الدوري وغيره، وهو مُضعف. وله جزء صغير هو ذا، وكبير، رواهما كلاهما ابن حجر في معجمه، والذهبي قبله في معجمه ١/ ١٦٠، وانظر: المجمع المؤسس ١/ ٤٣٨ و ٢/ ١٧١ و ٥٥٣ ــ ٥٥٤، وترجمه فيها وفي تاريخ بغداد ٩/ ٣٨٦، والسير ١٥/ ٣١٥.

هذا ما أتحفتنا به المصادر المتهيئة، ولا شك أنه بتتبع مشيخة والد الحافظ ابن رجب: الشيخ أحمد بن رجب، وحاشية ابن الحافظ عليها وكتابه الذيل، سيكون مظنة لكمٍّ آخر من المشيخة سماعًا وإقراءً وإجازة. فرحمهم الله رحمة واسعة. آمين.

هذا وقد زامل الحافظ في رحلة الطلب الحافظ زين الدين العراقي كما صرح به ابن حجر في إنباء الغمر[1]، وما أورده القاسمي بقوله: «وقرأ أبو الفضل العراقي **صحيح مسلم** على محمد بن إسماعيل الخباز ــ وقد سبق ذكره من شيوخ ابن رجب ــ بدمشق في ستة مجالس متوالية، قرأ في آخر مجلس منها أكثر من ثلث الكتاب، وذلك بحضور زين الدين ابن رجب وهو يعارضه بنسخته». اهـ[2].

ومن هذا التنوّع في المشايخ والمسموعات والمقروءات، تنوعت معارف الحافظ في القرآن وعلومه وقراءاته والحديث والفقه والعقيدة السلفية والتاريخ والأصول والتصوّف والوعظ، وظهرت هذه في كتبه مع ظهور سمة العناية بالحديث وطرقه ورواته وعلله وغوامض معانيه في تصانيفه.



(١) في إنباء الغمر ١/ ٤٦٠.

(٢) من كتابه: قواعد التحديث، ص ٢٦٢، وإنها والله لعجيبة من إتمامهم صحيح مسلم في ستة مجالس؛ بل في مجلس واحد أزيد من ثلثه. فسبحان الله العظيم!

تدريسه، ووعظه، وأبرز طلابه

*** تدريسه، ووعظه:**

لمَّا بلغ الحافظ من العلم مبلغًا رغب أن ينفع غيره بما تعلمه فكان تدريسه ــ رحمه الله ــ للناس وتعليمه إياهم مَعلمًا بارزًا في حياته، مع ما تركه من التأليف والتصنيف في الحديث والفقه والأصول.

وما ذاك إلاَّ من ثمرات العلم المنشودة، وهو رفع الجهل عن نفسه وغيره، وإذاعة فقه الكتاب والسنَّة.

وقد درس الحافظ في عدة مدارس وحلقات، خاصة مدارس المذهب الحنبلي بعد وفاة علمائها.

كما وُلي حلقة الثلاثاء التي كان يقوم بها شيخه ابن قاضي الجبل، وليها بعد وفاته سنة ٧٧١هـ، وكانت حلقة مشهورة يحضرها ناس كثيرون، والظاهر أنها للوعظ!... وأظنها في الجامع الأموي، وهي كذلك حيث قال ابن قاضي شهبة في تاريخه ٢/ ٣٦١ في حوادث سنة ٧٧١ـ: «وفي رجب باشر الشيخ العالم الإمام زين الدين ابن رجب بحلقة الثلاثاء بالجامع الأموي عوضًا عن القاضي شرف الدين ابن قاضي الجبل». اهـ.

وقد انتهى إلى الحافظ ابن رجب علم فقه الحنابلة في وقته، مع بروزه في الحديث والسير والأصول والوعظ.

* ومن المدارس التي درس فيها: المدرسة الحنبلية الشريفة قرب الجامع الأموي بدمشق، وهي مدرسة عريقة من أكبر مدارس الحنابلة في بلاد الشام، وهي التي أسسها الشيخ عبد الوهاب بن الحنبلي (٥٣٦هـ).

* وأيضًا مدرسة تربة الصالحية، من ضواحي دمشق، فقد عيَّنه شيخه ابن شيخ السلامية مدرسًا بها، وهو المتوفى سنة ٧٦٩هـ[١].

* كما درس بالمدرسة الوجيزية، ذكر ذلك ابن قاضي شهبة من تاريخه ٢/ ٥٧٢ فقال:

«وفي ربيع الأول سنة ٧٨٠هـ درَّس الشيخ زين الدين ابن رجب بالمدرسة الوجيزية بجيرون وقد كمل بناؤها». اهـ.

وعرَّف بهذه المدارس وغيرها مع ذكر مشايخها النعيميُّ في كتابه «الدارس في تاريخ المدارس»، والمقصود أن الحافظ رحمه الله أمضى عمره بالاشتغال بالتدريس والتعليم وبذل العلم في كل مناسبة تسنح له، وفرصة تتهيأ لذلك، في الجوامع والمدارس وتصنيف الكتب ونحو ذلك.

وتميزت دروس الحافظ ابن رجب بالشمول للفقه والحديث

---

(١) انظر: الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي ٢/ ٧٦، والدرر الكامنة ٢/ ٧٧. وسبق مروره في عداد شيوخه رقم (٢١).

وعلومه والسنَّة والأصول والافتاء بفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية في العقيدة وغيرها، وسبَّب له إفتاؤه بها محنًا وفتنًا يأتي ذكرها.

وقد تخرج على الشيخ أكثر الحنابلة الذين جاؤوا بعده.

ومع الدروس العلمية فقد كانت مجالسه وحلقاته حافلة بالتذكير والوعظ، بل كان الوعظ له يوم مشهود يحضره عامة الناس، إذ كان الحافظ ذا طريقة مرغوبة في الوعظ والتزهيد بالدنيا ــ وهو ملاحظ في رسائله ــ وأسلوبه مميز فيها، مما زاد إقبال الناس عليها، مع ما منحه الله من محبة في القلوب بسبب صدقه وإيمانه، وإعراضه عن الدنيا وزهده بما عند الناس، فإن القول إذا صاحبه العمل كان أوعى في قبوله وولوجه القلوب:

العلــم يهتــف بــالعمــل فـإن أجـابـه وإلاَّ ارتحـل

وقد وصفت حلقات وعظه، فمما قيل فيها:

«. . . كانت مجالس تذكيره للقلوب صارعة، وللناس عامة مباركة نافعة، أجمعت الفرق عليه، ومالت القلوب إليه. . .». اهـ.

مع اختياره ما يناسب الوعظ ومجلسه ووقته من العبارات القوية النافعة، الصارعة للقلوب.

وقد شبهه من ترجم له بالواعظ الكبير أبـي الفرج ابن الجوزي الذي طار صيته به، وكان الحافظ بذاته معجبًا به وبوعظه كما يلمس هذا في ترجمته له في الذيل برقم (٢٠٥).

والمقصود أن الحافظ ابن رجب فرَّغ عمره وحياته للعلم والتعليم ودعوة الناس للخير، فرحمه الله رحمة واسعة.

* أبــرز طــلاَّبــه :

سبق أن أشرت إلى أن عامة الحنابلة تخرجوا عليه، وكانت مجالسه مشهودة، وتنوعت مدارسه وحلقاته، فأفادنا ذلك أن له جمًّا غفيرًا من الطلبة، لكن التراجم لم تتحفنا إلاَّ بالقليل عنهم.

بل ومن العجيب أن هؤلاء الطلاب لم يشرف الحافظ بهم بقدر ما شرفوا هم به واشتهروا.

ومن هؤلاء الطلاب:

١ ــ أكبرهم سنًّا، وأقرب الجميع وفاة من شيخه، الشيخ علي بن محمد البعلي الدمشقي المشهور بابن اللحام (٨٠٣هـ)[١]. فقد لازم شيخه، وكتب أكثر كتبه بخطه كفتح الباري في شرح صحيح البخاري. وخلف شيخه الحافظ على مشيخة الحنابلة بالشام مع القاضي ابن مفلح، كما خلفه في حلقة الجامع الأموي ــ حلقة الثلاثاء ــ ونقل البرهان ابن مفلح أن الحافظ أذن له في الإفتاء ومن أبرز كتبه: «القواعد الأصولية في المسائل»[٢] مطبوع في مجلد، و «تجريد العناية في تحرير أحكام النهاية»، و «الأخبار العلمية الفقهية في اختيارات ابن تيمية».

٢ ــ والشيخ أبو عبد الله محمد بن خليل بن طوغان ابن المنصفي الحريري الحنبلي (٧٤٠ ــ ٨٠٣هـ)، وكان صحب الحافظ

(١) ترجمه وأخذه عن ابن رجب في الرد الوافر ص ١١١، وذيل ابن عبد الهادي، ص ٣٦ و ٥٥ ــ ٥٧، وشذرات الذهب ٧/ ٣١، وأنباء الغمر ٢/ ١٧٤.

(٢) وتوجد نسخته المخطوطة في المكتبة المحمودية، بمكتبة الملك عبد العزيز العامة بالمدينة، ورقمه فيها ٣٤ أصول فقه.

ابن رجب وأخذ عنه، ومن كان ممن نافره وانفصل عنه لتركه الإفتاء بفتاوى ابن تيمية، وهؤلاء ممن امتحن بهم الحافظ فأداه إلى ترك الإفتاء بفتاوى ابن تيمية ومن ثم اعتزل الناس ـ كما ستراه في محنته إن شاء الله ـ ثم صار ابن المنصفي يُفتي بفتاوى ابن تيمية في الطلاق وغيره، وامتحن وأوذي بسببها رحمه الله وغفر له[1].

٣ ـ الشيخ عمر بن أحمد بن الملقن (٧٢٣ ـ ٨٠٤هـ)[2]، تخرج على الحافظ ابن رجب؛ وبلغت مؤلفاته ثلاثمائة، وهو من شيوخ الحافظ ابن حجر العسقلاني؛ بل من أكبر شيوخه.

٤ ـ والشيخ محمد بن علي بن بن عبد الرحمن المقدسي القاضي الحنبلي (٧٦٤ ـ ٨٢٠هـ) خطيب الجامع المظفري بالصالحين، ومن محفوظاته في فقه الحنابلة المقنع للموفق، وهو صاحب نظم مفردات الحنابلة المسمى «النظم المفيد الأحمد في مفردات الإمام أحمد»[3].

٥ ـ والشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبادة السعدي الأنصاري الحنبلي (٧٦٥ ـ ٨٢٠هـ) قاضي الحنابلة بالشام بعد ابن

---

(١) الرد الوافر ٨٤، والتبيان شرح بديعة الزمان ١٥٩ كلاهما لابن ناصر الدين، والقلائد الجوهرية ٢/ ٤٤٣، والمقصد الأرشد ٢/ ٤٠٩، والشذرات ٧/ ٣٥.

(٢) إنباء الغمر ٣/ ٢١٦ ـ ٢١٩، وشذرات الذهب ٧/ ٤٤ ـ ٤٥. ومن مؤلفاته: «التوضيح شرح الجامع الصحيح» في عدة مجلدات خطية، وهو قيد التحقيق بجامعة أم القرىٰ بمكة.

(٣) الشذرات ٧/ ١٤٧، والضوء اللامع ٨/ ١٨٧، والثغر البسام ٢٨٩، والمقصد الأرشد ٢/ ٤٧٩ و المنهج الأحمد ٤٨١ وإنباء الغمر ٣/ ١٥٢، والدارس ٢/ ٤٨.

المنجا، وكان آية في حفظ الوقائع والحوادث، وقد أخذ عن الحافظ ابن رجب وتلميذه ابن اللحام(١).

٦ ـ والشيخ المحدث محمد بن أحمد الحَبَتِّي الحنبلي القاهري المصري (٧٤٥ ـ ٨٢٥هـ) كان ذا قراءة حسنة للبخاري وغيره، قال الحافظ ابن حجر: «سمعنا بقراءته صحيح البخاري من عدة سنين بالقلعة، وسمعنا من مباحثه وفوائده ونوادره وماجرياته، وتوفي فجأة ليلة الخميس وقت العشاء...»(٢). اهـ.

٧ ـ العلامة الحافظ علي بن محمود بن أبي بكر المغلي الحنبلي رئيس القضاة (٧٧١ ـ ٨٢٨هـ) أخذ يسيرًا عن الحافظ ابن رجب وكان أعجوبة في قوة حفظه، ومما حفظ: الفروع لابن مفلح والخلاصة للحنابلة، ومجمع البحرين للحنفية، والتنبيه للشافعية، وتسهيل الفوائد لابن مالك في النحو، والقانون في الأخبار، مع حفظه لصحيح البخاري، رحمه الله رحمة واسعة(٣).

٨ ـ والشيخ القاضي محمد بن خالد بن موسى الحمصي (٨٣٠هـ) المعروف بابن زهرة، كان أبوه شافعيًا، درس لما كبر مذهب

---

(١) الشذرات ٧/ ١٤٨، وإنباء الغمر ٣/ ١٥٢، والدارس ٢/ ٤٩، والثغر البسام دمشق ٢٩٠، والقمصد الأرشد ٢/ ٤٩١، والمنهج الأحمد ٤٨١.

(٢) الشذرات ٧/ ١٧١، وإنباء الغمر ٣/ ٢٩١، والنجوم الزاهرة ١٥/ ١١٣، ضوء اللامع ٧/ ١٠٧، والمقصد الأرشد ٢/ ٣٦٧، والمنهج الأحمد ٤٨٢.

(٣) ترجمه في الضوء اللامع ٦/ ٣٤، وإنباء الغمر ٨٦١٨، والنجوم الزاهرة ١٤/ ١٢٣، والمنهج الأحمد ٤٨٢، والمقصد الأرشد ٢/ ٢٦٤، والشذرات ٧/ ١٧٥.

الحنابلة وأخذ عن ابن قاضي الجبل، والحافظ ابن رجب وغيرهما وولي قضاء حمص[1].

٩ ـ الشيخ عمر بن محمد بن علي السراج الدمشقي، أبو حفص الشافعي المعروف بابن المزلِّق، وهو ممن أجازه الحافظ بمروياته (٧٨٧ ـ ٨٤١هـ)، من أواخر من سمع الحافظ ابن رجب وأخذ عنه؛ إذ كان عمره لما توفي الحافظ ثمان سنوات[2].

١٠ ـ الشيخ المفتي أحمد بن نصر الله بن أحمد بن محمد القاضي الحنبلي البغدادي ثم المصري (٧٦٥ ـ ٨٤٤هـ) أخذ عن جماعة من الحفاظ الكبار منهم: ابن رجب والزين العراقي والبلقيني وابن الملقن، وهو شيخ البرهان ابن مفلح صاحب المقصد الأرشد وترجمه فيه، وقد اختصر الذيل والقواعد لشيخه ابن رجب، ومختصر القواعد (مخطوط، لدي منه صورة) وله حاشية على الفروع لابن مفلح في مكتبة الشيخ عبد الله بن حميد، رحم الله الجميع[3].

١١ ـ الشيخ داود بن سليمان بن عبد الله الموصلي ثم الدمشقي، زين الدين الحنبلي (٧٦٤ ـ ٨٤٤هـ)، سمع على الحافظ شرح الأربعين المسمى «جامع العلوم والحكم»، ومجالسًا من كتابه

(١) الشذرات ٧/ ١٩٥، والمنهج الأحمد ٤٨٣.
(٢) ترجمه في الضوء اللامع ٦/ ١٢٠.
(٣) المقصد الأرشد ١/ ٢٠٢ وحاشيته، والمنهل الصافي ٢/ ٢٤٤، والنجوم الزاهرة ١٢/ ٤٨٣، والمنهج الأحمد ٤٨٨، والضوء اللامع ٢/ ٢٣٣.

«اللطائف»، وكان من أنبه الآخذين عنه[1].

١٢ ــ قاضي حماة ثم حلب الشيخ أحمد ابن أبي بكر بن الرسام الحنبلي (٧٦٧ ــ ٨٤٤هـ) تتلمذ على الحافظ ابن رجب والعراقي والهيثمي وابن اليونانية وابن المحب الصامت في غيرهم من الكبار. رحمه الله[2].

١٣ ــ ومن أصغرهم أبو شَعْرٍ المقدسي عبد الرحمن بن سليمان (٧٨٠ ــ ٨٤٤هـ)، وكان ممن حفظ مختصر الخرقي، وقرأ على الحافظ ابن رجب «المقنع» للموفق ابن قدامة إلى أثناء كتاب البيع بدمشق، وكان معظمًا للسنَّة وأهلها بارعًا في التفسير حتى لقّب بترجمان القرآن[3].

كان متبحرًا في فتاوى ابن تيمية وأجوبته، إلاَّ أنه أوذي في ذلك فلزم بيته، وعكف عليه كثيرون يترددون عليه بالقراءة والبحث. وهو من أواخر من سمع من الحافظ ابن رجب.

١٤ ــ ومنهم أبو ذر عبد الرحمن بن محمد المصري الحنبلي المعروف بالزركشي (٧٥٨ ــ ٨٤٦هـ)، حفظ المحرر والعمدة في الفقه الحنبلي، وأخذه عن الحافظ ابن رجب، وكان من أهل التصنيف.

١٥ ــ الشيخ علي بن محمد بن علي الطرسوسي المزي، ومات بها (٨٥٠هـ)، سمع من الحافظ ابن رجب، ومن ذلك قوله: «أنه سمعه يقول: أرسل إليَّ الزين العراقي ــ وهو الحافظ المشهور شيخ ابن حجر

---

(١) ترجمه في الجوهر المنضد ٣٨ والضوء اللامع ٣/ ٣١٢، والسحب الوابلة ١٦٦ (٢٤٧).

(٢) ترجمه في الدرر الكامنة ٤/ ١٧٥، والضوء اللامع ١/ ٢٤٩، والمقصد الأرشد ١/ ٨٠، والمنهج الأحمد ٢/ ١٤٢، والشذرات ٦/ ٣٣١.

(٣) ترجمته في السحب الوابلة ص ٢٠٢ برقم (٣٠٣)، والضوء اللامع ٤/ ٧٢، وطبقات المفسرين ١/ ٢٦٦، والشذرات ٧/ ٢٥٣، والمقصد الأرشد ٢/ ٩٠، والمنهج الأحمد ٤٩١، وتاريخ الصالحية ٤٣٨، والقلائد الجوهرية ٤٣٨.

وصاحب الألفية ـ يستعين بي في شرح الترمذي»، وتدبج مع شيخه الحافظ ابن رجب في الأخذ عن شيخهما: ابن أملية رحمهم الله. ترجمه في الضوء اللامع ٦/ ٣٤.

١٦ ـ «الفقيه الفاضل الأوحد المشتغل المحصل زكي الدين أبو الخير محمد بن الشيخ القدوة العارف أبي محمد: عبد القادر بن محمد بن علي بن الحجار المدني الحنبلي، نفع الله به، وذلك في شهر رجب سنة خمس وثمانين وسبع مائة لظاهر دمشق المحروسة، وأجزت له ما تجوز لي وعني روايته بشرطه، كتبه عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي عفا الله عنه». اهـ.

كذا وجدتها بقلمه في آخر مخطوطة الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ وهي مصورة في آخر الكتاب في الملحق. وهي ـ والله أعلم ـ منقولة من أصل الحافظ ابن رجب نفسه[1].

١٧ ـ شمس الدين محمد بن أحمد بن سعيد المقدسي (٧٧١ ـ ٨٥٥هـ)، النابلسي الحنبلي المكي، تفقّه على الحافظ بدمشق[2]، وبصالحيتها بعد سنة ٧٨٩هـ، وأكثر الرحلة حتى صار إلى مكة وبها توفي، وكان مستحضرًا للفقه الحنبلي بشكل فريد، مع ما له من التصانيف الجيدة، منها: اختصار كافي الموفق.

---

(١) وكذا أثنى عليه الحافظ وأجازه لما نسخ له «جامع العلوم والحكم» وعرضها عليه في ١٢/ ٦/ ٧٩٠هـ بدار الحديث السكرية ـ بدمشق. وهذه النسخة هي المحفوظة بخدابخش ـ بتنه.

(٢) شذرات الذهب ٧/ ٢٨٦، والضوء اللامع ٦/ ٣٠٩، والمنهج الأحمد ٤٩٤.

١٨ ـ ومن أصغرهم أيضًا: الشيخ أحمد بن علي بن محمد الشحام الحنبلي الصالحي المؤذن بالجامع الأموي (٧٨١ ـ ٨٦٤هـ)، وهو آخر من وقفت عليه من أصحاب الحافظ ابن رجب الحنبلي وفاة[١].

١٩ ـ الشيخ المعمر المقرىء عبد الرحمن بن أحمد بن محمد الدمشقي ثم المكي (٧٧٢ ـ ٨٥٣هـ)، وكان أخذ عن الحافظ ابن رجب بدمشق[٢].

٢٠ ـ الشيخ الناسخ إسماعيل بن علي بن محمد البقاعي الشافعي الدمشقي (٨٠٦)، وقد نسخ للحافظ «جامع العلوم والحكم» نسخة الظاهرية (٥٨٥٢) وعارضه ابن رجب على نسخته. وكان البقاعي مشتغلاً بالعلم مصاحبًا للحنابلة معتقدًا عقيدة أهل السنة، وكان نسَّاخًا مشهورًا، كتب نسخة من صحيح البخاري في مجلدة واحدة معدومة النظير، وبيعت بمبلغ باهظ. انظر ترجمته في إنباء الغمر ٥/ ١٦٥.

تلك كانت كوكبة من العلماء الذين أخذوا عن الحافظ ابن رجب العلم وعن غيره، فكانوا ـ بإذن الله ـ نتاج خير، وحلقة مهمة في سلسلة علماء الأمة في ذلك العصر، صلة لمن بعدهم بمن قبلهم.

وممن عُدَّ من تلاميذ الحافظ ابن رجب: الشيخ المحدث أبو العلاء [علي بن محمد بن إبراهيم العفيف الحنبلي الجعفري] النابلسي (٧٥٢ ـ ٨١٨هـ)، وما بين المعكوفين من اسمه نقلته من آخر نسخة البلدية الإسكندرية لكتاب: فضائل ـ أو حماية أو كفاية ـ

(١) شذرات الذهب ٧/ ٣٠٣، والضوء اللامع ٢/ ٤١.

(٢) انظر: الضوء اللامع ٤/ ٥٩ وما بعدها، والشذرات ٧/ ٢٧٧.

الشام، للحافظ ابن رجب الحنبلي. وفيها ذكر أنه نسخها في: «رابع عشرٍ من صفر سنة ثمانمائة». اهـ.

فقد ذكر في الضوء اللامع ٥/ ٢٧٩، وتبعه عليه ابن حميد في «السحب الوابلة» ص ٣٠٣ قال: «. . . ووقفت له على تصنيفين:

أحدهما: في وصف الحمام، سمَّاه «رشف المدام» نقل فيه عن ابن رجب ووصفه بـ «شيخنا»، فكأنه أخذ عنه الفقه. . .». اهـ.

قلت: وقوله ذلك محتمل لمشيخة الحافظ له مباشرة، كما تحتمل أنه تتلمذ عليه في علومه من ظلال كتبه أو أصحابه من أهل جيله، أو من خلال معاصرته، والأول أوجه.

على كل حال فإنني أجزم أن الآخذين عن الحافظ المُترجَم كثيرون، كما أنهم على كثرتهم منهم من برز في العلم وصارت له قدم فيه، كجملة ممن ذكرت، وفيهم من كان دون ذلك، إما لانقطاع اشتغاله بالعلم أو خفائه، أو أهملت كتب التراجم أخبارهم أو غير ذلك. . .، وحسبك على كثرتهم اشتغاله بالتدريس والتعليم في أماكن عدة!

وهم مع هذا ممن يشرفون بانتساب مشيختهم للحافظ ابن رجب، فيعلو بذلك شأنهم عند من لا يعرفهم، كما علا قدر الحافظ ابن رجب بعلمه، وزاد بتتلمذه على ابن القيم، وهذا على شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية، وهكذا غيرهم، رحم الله الجميع.

* * *

زهـــده وورعــه

لقد لاحظت في دراسة سير الحنابلة في طبقاتهم تميزهم بصفة غلبت على كثير منهم وهي الزهد في الدنيا، والورع فيها، والبعد عن المناصب، وتولي الولايات.. فتجدهم في أول أعمارهم مشتغلين بتحصيل العلم، وطلبه، ومدارسته، وقراءته على الشيوخ والرحلة فيه.

فإذا برز أحدهم فيه وتحصلت له أصوله وفروعه، وتكاملت له أدواته، قضى عمره بالتدريس والاشتغال بتعليمه والتصنيف في العبادة والتألُّه والصلاة وقراءة القرآن... ويكتفي بما يرد عليه من المورد القليل، وربما المتقطّع من المال.

وهم في هذا يشابهون إمامهم أحمد بن حنبل عليه وعليهم رحمة الله. وكان مع هذا قليل منهم الذي تولى مناصب عليا؛ حتى تميز الوزير المظفر ابن هبيرة عنهم بتلك الصفة ــ مع نزاهته وديانته ــ ولحقه لقب الوزارة وشغلها.

وقد وصفهم الخبير بهم وأشهر علمائهم في وقته أبو الوفاء بن عقيل (٥١٣هـ)، فقال فيهم: «هم قوم خشن، تقلصت أخلاقهم عن المخالطة، وغلظت طباعهم عن المداخلة، وغلب عليهم الجد، وقلّ عندهم الهزل، وعزبت نفوسهم عن ذل المراءاة، وفزعوا عن الآراء إلى

الروايات، وتمسكوا بالظاهر تحرجًا عن التأويل، وغلبت عليهم الأعمال الصالحة، فلم يدققوا في العلوم الغامضة بل دققوا في الورع . . . ».

وقال قبلها: «والغالب على أحداث طائفة أصحاب أحمد العفة، وعلى مشايخهم الزهادة والنظافة»[١]. اهـ.

وإلى هذه السيرة والمسلك جنح ابن رجب متبعًا للحنابلة في سبقهم وزهدهم وفضلهم. . . حتى جمع الله له بين الزهد[٢] والعلم.

ومن ورع الحافظ عفته عن الولايات، وبعده عن الرياسات، وسكناه المدارس والأوقاف، مع إقبال الدنيا عليه، وتعرضها له، وعزوفه عنها، وزهده رحمه الله كورعه، قاله العليمي في المنهج الأحمد[٣].

وكان قوامًا للّيل، ذا عبادة وتهجّد وحزب مرتب لليله. وهذا من إتباع العلم بالعمل، ومن صفات الراسخين فيه، فما يتعلمونه في

---

(١) ذكرها عنه ابن رجب في ترجمته له من الذيل رقم (٦٦) في ٣/ ١٥٢ و ١٤٤.

(٢) اختلفت عبارات السلف الصالح في تعريف الزهد، وتنوعت فيه ألفاظهم، وما ذاك إلاَّ لأنه معنى جامع يقرُّ أولاً بالقلب، فلا يُعرفُ أصله وإنما تظهر آثاره فيه فيعرّفه كل بما ظهر له من تلك الآثار. وقد تعرض الحافظ لمعناه وأقوال العلماء فيه وأقسامه وأنواعه في شرح الأربعين، ص ٢٨٨، فقال: «وقد تكلم السلف ومن بعدهم في تفسير الزهد في الدنيا. . .» ثم ذكر أقوالاً، وقال آخر البحث، ص ٢٩١: «. . . وأنا أذهب إلى أن الزهد هو: ترك ما أشغلك عن الله عز وجل. وهذا الذي قاله أبو سليمان الداراني حسن، وهو يجمع جميع معاني الزهد وأقسامه وأنواعه». اهـ. أما الورع فلا يبعد عن الزهد أيضًا. وقد سئل الإمام أحمد: هل للورع حد يعرف؟ فتبسم وقال: ما أعرفه. اهـ. من كتاب الورع عنه الخلال، ص ٩.

(٣) نقله عن ابن حميد في السحب الوابلة، ص ١٩٧، والكتاب مخطوط، ونسخته محفوظة بدار الكتب المصرية بالقاهرة رقم (٨٣٨) تاريخ تيمور.

الصباح يترجمونه في الليل إلى عمل، فللّه دَرُّهم.

هذا إذا علمنا أن رحمه الله كان فقيرًا لا يملك من حطام الدنيا إلاّ ما يقوته على قلته الشديدة.

ومن ورعه ما حكاه تلميذه ابن اللحام في أحد المواقف، فقال:

«ذكر لنا مرة الشيخ مسألة فأطنب فيها، فعجبت من ذلك ومن إتقانه لها؛ فوقعت بعد ذلك بمحضر من أرباب المذاهب وغيرهم، فلم يتكلم فيها الكلمة الواحدة. فلما قام قلت له: أليس قد تكلمت فيها بذلك الكلام؟. قال: إنما أتكلم بما أرجو ثوابه، وقد خفت الكلام في هذا المجلس. أو ما هذا معناه»[1]. اهـ.

فانظر إلى مداراته وإيمانه وإخلاصه لله عز وجل، ثم قارنه بحال المتعالمين في كل مجلس وناد، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

وقد كان رحمه الله لا يعرف أمور الناس المتعلقة بدنياهم؛ لأنه منعزل عنها، لا يعرفهم إلاّ في المساجد وحلق العلم والذكر.

فصار هذا أعز لدينه ونفسه وعلمه، كما في حديث سهل بن سعد قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله، دلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس فقال: «**ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس**». رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة، وانظر شرحه في جامع العلوم[2].

---

(١) نقله عنه ابن عبد الهادي في ذيله على ذيل ابن رجب، ص ٤٠.

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم، شرح الحديث الحادي والثلاثين ص ٢٨٦ ــ ٣٠٠.

وقال ابن قاضي شهبة في ذيله على عبر الذهبي نقلاً عن شيخه عن الحافظ ابن رجب:

«أنه كان يحفظ كثيرًا من كلام السلف، وكان يسكن المدرسة السكرية بالقصاعين ـ بدمشق ـ وكان فقيرًا متعففًا غني النفس، وبالجملة فلم يخلف بعده مثله»(١). اهـ.

هذا مع أنفته وعزة نفسه، وغفلته عما عند الناس، وحزمه على نفسه بأطرها على التردد على أصحابها والبعد عن مجالسهم، مدبرًا عن فانيتهم مقبلاً على آخرتهم. وهذه ثمار الورع والزهد في الدنيا، والذي يورثه السعادة السرمدية في الآخرة.

كيف يتحقق الزهد بالدنيا زهدًا حقيقيًّا؟

قال الحافظُ ابنُ رجب كلامًا متينًا، حُقَّ لقارئه تأمّله وتدقيق النظر في مراميه ثم تطبيقه على نفسه ليعرفها ويحاسبها، إن كان يصبو لحال العلماء الزهاد، قال في كتابه الحافل النفيس **«فضل علم السلف»** (ص ٥٢): «وسبب ذلك أن هذا العلم النافع يدل على أمرين:

أحدهما: على معرفة الله وما يستحقه من الأسماء الحسنى والصفات العلى والأفعال الباهرة. وذلك يستلزم إجلاله وإعظامه وخشيته، ومهابته ومحبته ورجاءه والتوكّل عليه، والرضا بقضائه والصبر على بلائه.

---

(١) نقله عنه ابن عبد الهادي في ذيله على طبقات ابن رجب، ص ٣٧، وكتاب ابن قاضي شهبة مخطوط ونسخته في مكتبة باريس الأهلية، وهي مصورة بمركز الملك فيصل للدراسات الإسلامية بالرياض برمتها.

والأمر الثاني: المعرفة بما يحبه ويرضاه وما يكرهه ويسخطه من الاعتقادات والأعمال الظاهرة والباطنة والأقوال.

فيوجب ذلك لمن علمه المسارعة إلى ما فيه محبة الله ورضاه والتباعد عما يكرهه ويسخطه؛ فإذا أثمر العلم لصاحبه هذا فهو علم نافع، فمتى كان العلم نافعًا ووقر في القلب، فقد خشع القلب لله وانكسر له وذل هيبة وإجلالاً وخشية ومحبة وتعظيمًا.

ومتى خشع القلب لله وذل وانكسر له قنعت النفس بيسير الحلال من الدنيا، وشبعت به، فأوجب لها ذلك القناعة والزهد في الدنيا وكل ما هو فانٍ لا يبقى من المال والجاه وفضول العيش، الذي ينقص به حظ صاحبه عند الله من نعيم الآخرة وإن كان كريمًا على الله، كما قال ذلك ابن عمر وغيره من السلف وروي مرفوعًا.

وأوجب ذلك أن تكون بين العبد وبين ربه عز وجل معرفة خاصة، فإن سأله أعطاه، وإن دعاه أجابه، كما قال في الحديث الإلـٰهي: «**ولا يزال عبدي يتقرّب إليَّ بالنوافل حتى أحبه**» إلى قوله: «**فلئن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأُعيذنَّه**»، وفي رواية: «**ولئن دعاني لأجيبنَّه**». وفي وصيته ﷺ لابن عباس: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة**»، فالشأن في أن العبد يكون بينه وبين ربه معرفة خاصة بقلبه، بحيث يجده قريبًا منه يستأنس به في خلوته، ويجد حلاوة ذكره ودعائه ومناجاته وخدمته، ولا يجد ذلك إلاَّ من أطاعه في سره وعلانيته»[1]. اهـ.

---

(١) من كتابه: فضل علم السلف، ص ١٥١ ــ ١٥٣.

مكانة الحافظ ابن رجب العلمية

لقد حظي رحمه الله بمنزلة رفيعة علميًّا بين علماء زمانه، حتى عند مخالفيه في المذهب والمنهج.

فلقد رأيت كل من ترجم له يثني عليه، ويمدحه جدًّا، ولا يذكرون ما يعيبه، إلاَّ ما نُقم عليه من إفتائه بفتاوى الشيخ ابن تيمية وهم قلَّة، وهو ليس بعيب، وسيأتي الكلام عليه في محنته إن شاء الله.

وإن مكانته رحمه الله لتتبين من خلال قراءة سيرته والنظر في أقوال العلماء فيه بصورة سريعة، من نحو الحافظ ابن حجر وابن عبد الهادي وابن ناصر الدين والسيوطي..، ومن خلال مطالعة تصانيفه وتحريره فيها.

فإن ابن رجب الحنبلي كان في وقته من أكابر علماء أهل السنَّة والجماعة، وكان من دعائم مذهب أهل الحديث، والمنافحين عن منهجهم أمام المخالفين.

جاء في وصف تلميذه ابن اللحام قوله: «... سيدنا وشيخنا الإمام العالم العلامة الأوحد الحافظ شيخ الإسلام، محل المشكلات، وموضح المبهات... بقية السلف الكرام، وحيد عصره، وفريد دهره،

أبو الفرج ابن رجب الحنبلي، والله في عونه، وأعاد على الكافة من بركته بمنّه وكرمه»[1].

وكل من ترجم له وصفه بالصفات الحسنة، والمكانة العالية المرموقة دينًا ومذهبًا وحالاً، وهو كذلك، حيث كان من الأئمة العاملين، العبّاد الواعظين، الزاهدين بالناس وما عندهم، جامع الفضائل والشتات، أحد الثقات العُمد، راسخي القدم في العلم والأدب، صاحب التصانيف المشهورة، والعلوم الغزيرة النافعة المنثورة.

* مكانته عَقديًّا:

الحافظ ابن رجب من أهل السنَّة والجماعة، ومن أهل العقيدة السلفية، بل هو إمام من أئمتها؛ فكان مذهبه مذهب أهل الحديث والأثر، وكتبه طافحة بدلائل هذا. . فالسمة البارزة، والعلامة الواضحة فيها آية وحديث وأقوال الصحابة والتابعين وعلماء القرون المفضّلة، ولا يخرج عنهم في الذكر والاستشهاد غالبًا إلاَّ في أئمة مشهورين بالرسوخ العلمي: كالموفق ابن قدامة، والقاضي أبو يعلى، والمجد ابن تيمية، وحفيده شيخ الإسلام ابن تيمية. . ونظرائهم.

وهذا ليس خاصًّا بكتاب محدد بل عامة مؤلفاته ورسائله دالة على هذا، ومن أخصها وأشهرها شرح الأربعين للنووي وزيادته عليها،

---

(١) نقل هذا عنه، ومن خطه، ابن عبد الهادي في ذيله على طبقات ابن رجب، ص ٣٦.

المعنون بـ «**جامع العلوم والحكم**» وباقي كتبه كـ «**الذيل على الطبقات**» في التراجم تجد فيها هذه السمة والحمد لله.

هذا، ومن شواهد سلفيته ما جاء في كتابه «**فضل علم السلف**» حيث قال:

«والصواب ما عليه السلف الصالح من إمرار آيات الصفات وأحاديثها كما جاءت من غير تفسير لها، ولا تكييف، ولا تمثيل ولا يصح عن أحد منهم خلاف ذلك البتة، خصوصًا الإمام أحمد، ولا خوض في معانيها، ولا ضرب مثل من الأمثال لها، وإن كان بعض من كان قريبًا من زمن الإمام أحمد فيهم من فعل شيئًا من ذلك اتباعًا لطريقة مقاتل، فلا يقتدى به في ذلك، إنما الاقتداء بأئمة الإسلام كابن المبارك، ومالك، والثوري، والأوزاعي، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، وأبي عبيد، ونحوهم». اهـ[1].

هذا مثل لعقيدة الحافظ ابن رجب في الأسماء والصفات في باب الصفات الإلـٰهية؛ لأنه أعظم الأبواب ضلالاً وقع فيه أهل البدع.

ولمَّا رسم الحافظ العلم النافع ووضح أصوله، جعله هو علم السلف الصالح وطريقتهم، وفهمها حق الفهم مع إحسان القصد لله تعالى فيها، فقال:

«فالعلم النافع من هذه العلوم كلها ضبط نصوص الكتاب والسنَّة، وفهم معانيها، والتقيّد في ذلك بالمأثور عن الصحابة والتابعين وتابعيهم

(١) من كتابه «فضل علم السلف على الخلف»، ص ٢٩ ــ ٣٠.

في معاني القرآن والحديث، وفيما ورد عنهم من الكلام في مسائل الحلال والحرام، والزهد، والرقائق، والمعارف، وغير ذلك. والاجتهاد في تمييز صحيحه من سقيمه أولاً.

ثم الاجتهاد في الوقوف على معانيه وتفهمه ثانيًا.

وفي ذلك كفاية لمن عقل، وشغل لمن بالعلم النافع عُني واشتغل. ومن وقف على هذا وأخلص القصد فيه لوجه الله عز وجل، واستعان عليه، أعانه وهداه ووفَّقه وسدَّده وفهَّمه وألهمه.

وحينئذٍ يثمر له هذا العلم ثمرته الخاصة به، وهي خشية الله، كما قال عز وجل: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]»[١].

ويشهد لكلامه الأول في أهمية فهم كلام سلفنا الصالح وفهم علومهم ويؤكده قوله:

«فأفضل العلوم في تفسير القرآن ومعاني الحديث، والكلام في الحلال والحرام، ما كان مأثورًا عن الصحابة والتابعين وتابعيهم إلى أن ينتهي إلى زمن أئمة الإسلام المشهورين المقتدى بهم ــ الذين سميناهم فيما سبق ــ فضبط ما روي عنهم في ذلك أفضل العلوم، مع تفهمه وتعقّله، والتفقّه فيه، وما حدث بعدهم من التوسع لا خير في كثير منه إلَّا أن يكون شرحًا لكلام يتعلق بكلامهم، وأما ما كان مخالفًا لكلامهم فأكثره باطل أو لا منفعة فيه.

---

(١) من كتابه القيم «فضل علم السلف على علم الخلف»، ص ٤٥ ــ ٤٦ و ٤١ ــ ٤٢.

وفي كلامهم في ذلك كفاية وزيادة فلا يوجد في كلام من بعدهم من حق إلاَّ ويوجد في كلامهم موجود بأوجز لفظ، وأقصر عبارة، ولا يوجد في كلام من بعدهم من باطل إلاَّ وفي كلامهم ما يبيّن بطلانه لمن فهمه وتأمّله.

ويوجد في كلامهم من المعاني البديعة، والمآخذ الدقيقة، ما لا يهتدي إليه من بعدهم ولا يلم به.

فمن لم يأخذ العلم من كلامهم فاته ذلك الخير كله، مع ما يقع في كثير من الباطل متابعة لمن تأخّر عنهم، ويحتاج من أراد جمع كلامهم إلى معرفة صحيحه من سقيمه...»[1].

فهذه النبذة من كلامه أوضح ما يبين عن صدق سلفيته ومنهجه المتبع لأهل السنَّة والجماعة في العقيدة والعلوم النافعة.

مع تحذيره من علوم أهل الأهواء المحدثة، وعلوم من لم يفهم كلام سلفه حق فهمها، كمن يدعي أن قول السلف الصالح في صفات الله هو تفويض معانيها وكيفياتها، كما هو أحد قولي مذهب الأشاعرة في الصفات، وينسبونه ـ إما جهلاً بحقيقة قول السلف، أو زورًا ـ إليهم.

ومن الدلائل على مكانته العقدية عند أهل السنَّة والجماعة، الطائفة المنصورة، في من بعده، أن أقواله في العقيدة محل عناية واعتبار لديهم، فلهذا نجد الشيخ سليمان بن عبد الله بن الشيخ

---

(١) نفس المرجع السابق.

محمد بن عبد الوهاب يعتني بذكر أقوال الحافظ ابن رجب في شرح كتاب التوحيد لجده شيخ الإسلام وتوضيحه، يوردها مع أقوال شيوخه ابن القيم وابن تيمية؛ وهذا من أسباب معرفة أئمة الدعوة بعده به وثنائهم عليه.

* مكانته فـقـهـيًّا:

كان رحمه الله في فروع المسائل الفقهية على مذهب الإمام أحمد فأصحابه من الحنابلة، فيتبع أصول مذهب أحمد اتباع حق لا هوى وتشهٍّ. فكانت له معرفة بالمذهب، حيث حفظ مختصر الخرقي على شيخه ابن النباش، وقرأ الروايات عن الإمام أحمد في مسائل أبنائه وأصحابه، وتحصلت له ملكة في التمييز بين روايات المذهب وأقواله وأوجهه وتخريجاته، حتى غدا متعقبًا لغرائب كبار الأصحاب في كتابه «ذيل طبقات ابن أبـي يعلى».

هذا، وقد كتب في المذهب والفقه كتبًا تدل على إمامته ورسوخه فيه، منها:

* كتاب القواعد الفقهية:

وهو من أوعب الكتب في تحصيل تلك القواعد، وتطبيقاتها في المسائل على أبواب الفقه. قال في مقدمتها:

«فهذه قواعد مهمة، وفوائد جمة، تضبط للفقيه أصل المذهب، وتطلق من مآخذ الفقه على ما كان قد تغيّب، وتنظم له منثور المسائل في سلك واحد، وتفيد له الشوارد، وتقرب عليه محل متباعد، فليمعن

فيه الناظر النظر لِيوسع العذر، إن اللبيب من عذر. . .»[1].

جمع فيه مائة وستين قاعدة، ذيَّلها بمسائل عدتها إحدى وعشرون مسألة قد اشتهر فيها الخلاف وفق مذهب الحنابلة، والخلاف فيها له ثمرته الفعلية، إذ تبنى عليه مسائل أخرى.

وهذا الكتاب أعظم مصنفات الحافظ الفقهية التي وصلتنا، بل ربما كان أعظمها في بابها عند الحنابلة، قال ابن عبد الهادي: «وكتاب القواعد الفقهية، مجلد كبير وهو كتاب نافع، من عجائب الدهر، حتى إنه استكثر عليه، حتى زعم بعضهم أنه وجد قواعد مبددة لشيخ الإسلام ابن تيمية فجمعها، وليس الأمر كذلك، بل كان رحمه الله فوق ذلك». اهـ.[2].

* ومنها: كتابه الحافل «**ذيل طبقات الحنابلة**»، وهو ذيل ذَيَّل به على طبقات الحنابلة للقاضي محمد بن أبي يعلى، فبدأه من وفيات سنة ٤٦٠هـ إلى ٧٥١هـ، فلم يكن كتاب تراجم فحسب، بل اشتمل على أحاديث وآثار منقولة بالإسناد إلى رواتها، منه أو من غيره، كما حوى تحريرات فقهية وحديثية وعقدية ولغوية. . . وفتاوى متنوعة وتعقبًا لغرائب المترجمين. وبالجملة فمن قرأ كتابه هذا عرف تمكّنه في المذهب، وإحاطته بالروايات عن أحمد، وتعقبه لغرائب الكبار، وسيأتي الكلام عن هذا الكتاب في فصل مستقل إن شاء الله.

---

(١) انظر: قواعد الفقه الإسلامي في مقدمته، ص ٣.

(٢) ذيل ابن عبد الهادي على طبقات ابن رجب، ص ٣٨.

ـ ومن منزلته الفقهية وتضلّعه في مذهب الإمام أحمد ما يحكيه من أقوال العلماء والخلاف في ثنايا كتبه كفتح الباري والجامع وشرح العلل ورسائله الصغار، فإنه لا يذكر خلافًا إلاَّ ويذكر المروى فيه عن أحمد من رواية أو أكثر.

قال ابن عبد الهادي: «. . . وله تحقيق في المسائل على نصوص أحمد وكلام الأصحاب، وله مسائل كثيرة غريبة ، وأشياء حسنة يعجز الإنسان عن حصرها. تفقّه عليه جماعة من الأكابر. . .»[1]. اهـ.

وعليه، فمنزلته عند الحنابلة رفيعة؛ فهو شيخهم، وفاضلهم، وإمامهم في وقته، وعليه تخرَّج أكثر أهل وقته منهم، فدرس في مدارسهم وحلقاتهم، وخلف شيخه ابن قاضي الجبل في حلقته الخاصة بهم، وهي حلقة يوم الثلاثاء خاصة بالحنابلة في الجامع الأموي بدمشق، التي لا يتولى التدريس بها إلاَّ شيخ المذهب وأوجه أتباعه، حيث تولى هذه الحلقة من قديم أكابر علماء الحنابلة في الشام، منهم:

* شيخ مذهب الحنابلة في وقته: عبد الوهاب، ابن إمام المذهب في الشام عبد الواحد بن محمد الشيرازي (٤٨٦هـ)، وهو ناقل المذهب الحنبلي من العراق إلى دمشق، وقد توفي الشيخ عبد الوهاب سنة ٥٣٦هـ.

* ودرس فيها أبناؤه وأحفاده من بعده وأشهرهم ناصح الدين عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب بن الحنبلي (٦٠٣هـ).

---

(١) ذيل ابن عبد الهادي على طبقات ابن رجب، ص ٣٩.

* ودرّس بها موفق الدين ابن قدامة المقدسي[1] شيخ المذهب، وصاحب أوعب تصانيفه (٦٢٢هـ).

* وأيضًا أحمد بن عبد الرحمن بن أبي عمرو بن قدامة المقدسي، صاحب الشرح الكبير (٦٨٩هـ)، ابن أخي الإمام الموفق رحمهم الله.

* وأيضًا علي بن عبد الرحمن بن أبي عمرو المقدسي (٦٩٩هـ).

* وأيضًا شهاب الدين أحمد بن حسن المقدسي الصالحي (٧١٠هـ). . وغيرهم[2].

*** منزلته حديثيًا:**

بلغ ابن رجب الحنبلي في علم حديث رسول الله ﷺ مبلغًا كبيرًا، فقد برع فيه على كثير من أهل العلم في زمانه، ولا عجب لأنه من صغره كان ملازمًا لحلقه وسماعه، وتحصيل إجازته على شيوخه وعوالي رجاله علمًا وسندًا، كما ذكر طرفًا من ذلك في أثناء ترجمة الحسن بن البنا الحنبلي (٤٧١هـ) في الذيل (١/ ٣٥) فقال: «وقد وقع لنا الكثير من حديثه عاليًا»، إذ كان أكثر حياته في طلب العلم، وأكثر ما طلب في الحديث وعلومه.

---

(١) انظر: القلائد الجوهرية ٣٣٨/٢: كيف صلّى الموفق في حلقته على الشيخ إبراهيم بن عبد الواحد المقدسي، أخي الحافظ عبد الغني المقدسي الجماعيلي.

(٢) انظر: تراجمهم في القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية لابن طولون الصالحي (٩٥٣هـ)، ت: محمد دهمان، ١٣٨١هـ.

وقد أثنى عليه الأئمة في هذا الشأن فقيل فيه: هو أحد الأئمة الحفاظ الكبار، وأنه مفيد المحدثين، بل لقبه الذي غلب عليه لقب «الحافظ».

ولمعرفة مدى منزلته فيه نقرأ ما قاله الحافظ ابن حجر ـ وهو من هو في هذا العلم ـ حيث قال في ترجمته له في كتابه إنباء الغمر:

«رافق شيخنا زين الدين العراقي في السماع كثيرًا، ومهر في فنون الحديث أسماءً ورجالاً، وعللاً وطرقًا، واطلاعًا على معانيه... وأتقن الفن، وصار أعرف أهل عصره بالعلل، وتتبّع الطرق»[(١)]. اهـ.

ونحوه ما نقله ابن عبد الهادي عن ابن قاضي شهبة (٨٥١هـ)، فقال: «وقال شيخنا[(٢)]: كان قرأ وأتقن الفن ثم أكب على الاشتغال بمعرفة متون الحديث وعلله ومعانيه، انفرد وحده بكتب وشرح الترمذي في نحو عشرين مجلدًا، وشرح أربعين النووي شرحًا حسنًا، وشرع في شرح البخاري وأخذته المنية...»[(٣)]. اهـ.

وقال عنه أيضًا ابن حجر في الدرر الكامنة:

«وأكثر من المسموع، وأكثر الاشتغال بالعلم حتى مهر وأكثر عن الشيوخ، وخرج لنفسه مشيخة مفيدة»[(٤)]. ولذا قال السخاوي في ذيله

---

(١) انظر: إنباء الغمر ١/ ٤٦٠ ـ ٤٦١.

(٢) ولعل المقصود شيخه زين الدين العراقي (٨٠٥هـ)، الحافظ، فهو أقربهم للموضوع مع شك عندي أن يقصد به ابن حجر.

(٣) ذيل ابن عبد الهادي، ص ٣٧.

(٤) الدرر الكامنة ٢/ ٣٢٢.

على تاريخ الإسلام لما ترجمه معرفًا به (ص ٦٨٧): «صاحب لطائف المعارف، شرح أربعين النووي، والترمذي و «ذيل طبقات الحنابلة». . وغيرها، مع العبادة والتهجّد وعدم التردد إلى الناس، بل جمع نفسه على التصنيف والإقراء. وصار فيما قاله ابن حجي: أَعرَف أهل عصره بالعلل وتتبّع الطرق. ومحاسنه جمَّة وقد أخذت عن بعض أصحابه». اهـ.

ومن علامات علو مكانته في الحديث تصانيفه النافعة فيه، وكان من أبدعها وأحفلها:

* شرحه لصحيح البخاري المسمى «فتح الباري في شرح صحيح البخاري» حيث شرع في شرحه ولم يتمّه، فقد مات وتوقَّف على كتاب الجنائز منه ولم يشرع فيه. وحوى نقولاً عن المتقدمين بديعة قال عنه ابن عبد الهادي: «وهو من عجائب الدهر، لو كمل كان من العجائب وهو شرح نفيس». اهـ[١]. وهو شرح للأسف لم يزل مخطوطًا[٢].

* **«جامع العلوم والحكم»**: وهو شرح لأربعين النووي المباركة وزادها ثمانية أحاديث من جوامع الكلم له ﷺ، ولم يزل هذا الشرح حافلاً، محل العناية والإفادة من طلاب العلم. وهو وحده كافٍ في الدلالة على مكانة الرجل في الفن.

---

(١) ذيل ابن عبد الهادي، ص ٣٨.

(٢) وله قطع مخطوطة في الظاهرية بنحو مائتين ورقة وبدار الكتب المصرية ـ خزانة تيمور ـ فن الحديث، وبمكة المكرّمة، وهذا الكتاب بخط تلميذه ابن اللحام، وسيأتي الكلام عليها في مؤلفاته. ثم طبع بعد ذلك طبعتين.

* وله شرح على جامع الترمذي كبير جدًّا بلغ فيه عشرين مجلدًا، وصفه الحافظ ابن حجر فقال: «صنف شرح الترمذي فأجاد فيه في نحو عشرين مجلدًا»[1]. اهـ.

وقد احترق هذا الشرح في دمشق خلال الفتنة التي وقعت بها[2]، ولم يبق منه سوى وريقات، تجد مصورة لها في ملحق خاص بهذا الكتاب لكونها بخطه رحمه الله، وشرح علل الترمذي منه، كلاهما في الظاهرية، وهذا الشرح من أوسع الشروح وأوعبها، بسط فيها القول في المسائل وحقق الخلاف فيها..، وحسبك الوقوف على شرح العلل منه[3] وما فيه من العناية والقدم الراسخة في العلل حتى فاق بها أهل عصره، وأظن لو وُجد هذا الشرح لأغنى الناس عن غيره، كفاية الفتح لابن حجر عن غيره، لا بل أشد، والله المستعان.

---

(١) إنباء الغمر ١/ ٤٦٠.

(٢) من كشف الظنون ١/ ٥٥٩، وهذه الفتنة المشار إليها وقعت سنة ٨٠٣هـ. وهي فتنة وقعت بين التتر وبين أهل الشام والعساكر المصرية، وكان على التتر تَمُرْن ـ بفتح التاء وضم الميم وسكون الراء ـ وهو اختصار لكلمة تمرلنك، وكانت الكائنة على أهل دمشق فقلب عليهم وغدر بهم، ثم حرق دمشق كلها حتى الجامع الكبير واستباح المدينة في الفترة بين ربيع الآخر وأوائل شعبان من سنة ٨٠٣هـ. انظر: وجيز الكلام للسخاوي ١/ ٣٥١ وما بعدها، وإنباء الغمر ٤/ ١٨٩، والشذرات ٧/ ٢٢ و ٦٢ وما بعدها.

(٣) طبع الكتاب عدة طبعات، أحدها أطروحة دكتوراه في الأزهر، أعدّها د. همام سعيد.. والثانية بتحقيق د. صبحي السامرائي.. والثالثة بتحقيق د. نور الدين عتر، وغيرهم، وعلى طبعاتهم تفاوت حجم الكتاب من مجلدين إلى مجلد واحد.

مع ما وقع للحافظ من كثرة المسموعات، وعوالي الأسانيد وجمع أقوال السلف الصالح، والإسناد هو خاصة هذه الأمة، وشرف أهل الحديث فيها، في كل عصر وزمن.

لا سيما وأهل الحديث المهتمون به وبعلومه عبر العصور هم أهل الاستقامة والصلاح، وسلامة المعتقد، كيف وهم نقلة الآثار، ومطايا حديث رسول الله ﷺ وأحواله وسننه وأيامه؟ وهم أمناء الله على وحيه، أفنوا فيه أعمارهم وأموالهم وشهواتهم، فأجزل الله لهم منه عاجل المثوبة وآجلها، آمين.



محنته

مضت سُنَّةُ الله تعالى بالابتلاء لعموم الناس، والامتحان لخاصتهم تمحيصًا لهم وبيانًا لثباتهم على دينهم، وليخلصوا به من شوائب الذنوب والدنيا والأهواء..

قال سبحانه في أول العنكبوت: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ۝٤﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٤].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ٢ ــ ٣].

وهذه السنَّة متفاوتة تفاوت إيمان الناس، وصدقهم فيه، وصبرهم عليه؛ لما في الحديث المخرج في الصحيح عن النّبي ﷺ: «**أشد الناس بلاء: الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل. يُبتلى الرجل بحسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء**».

وتلك البلايا والامتحانات جارية على الناس منذ إخراج أبيهم آدم

من الجنة وإنزاله إلى الأرض، ثم من بعده على الأنبياء والصالحين ومن دونهم، بأنواع الفتن والبلايا. ولكنهم ـ أي المؤمنين ـ صبروا ونجحوا في امتحانهم، ثم هكذا إلى أمة محمد ﷺ فلقي الرسول ما لقي وصحابته ومن بعدهم إلى يومنا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وكانت محنته رحمه الله من نوع خاص، حيث لم تكن من جهة السلاطين أو الأمراء وأصحاب الولايات الدنيوية؛ لأن الحافظ كان فارغًا منهم، عازفًا عما لديهم، تاركًا مخالطتهم والتردد عليهم.

وإنما أتت فتنته من أقرانه، ومن أهل العلم ممن حسدوه، أو حقدت قلوبهم عليه فيما بَزَّهُم وفاق فيه وخالف مألوفهم وما اعتادوه، حيث نقموا عليه الإفتاء بفتاوى الشيخ تقي الدين ابن تيمية ـ وهو شيخ شيخه ـ لأن أعداء ابن تيمية ومناوِئيه ما زالوا باقين وهم كذلك إلى يومنا هذا، فكيف بقرنه الذي مات فيه؟ فلقي الحافظ منهم منافرة وشغبًا، ولما كان رحمه الله مظهرًا السلامة مؤثرًا لها، أظهر للناس الرجوع عما أفتى به من أقوال الشيخ تقي الدين ابن تيمية مع بقاء تعظيم الشيخ وثنائه عليه ـ كما في مناسباته في مؤلفاته ـ والإفادة من علومه، لما أظهر هذا لم يسلم من أتباع الشيخ ـ وربما المتعصبون له ـ حيث نافروه، وأغلظوا عليه؛ لأن لكل عالم أعداء له، ومتعصبون فيه، وهذا مطرد غالبًا، فالحافظ ابن رجب لم يسلم من كلا الفريقين، فأداه هذا إلى ترك الطائفتين والانعزال عنهم.

لهذا ترك رحمه الله الفتوى في آخر حياته، منقطعًا للعبادة والتدريس، طالبًا السلام، وهذا يليق بمثل الحافظ في زمن الفتنة.

ولقد صور الحافظ ابن حجر تلك المحنة بقوله: «... وكان يفتي بمقالات شيخ الإسلام ابن تيمية، وأن الناس نقموا عليه ذلك، فأظهر الرجوع عن خطته، فتنافره التيميون. فهجر هؤلاء وهؤلاء، وكان قد ترك الإفتاء بآخره». اهـ.

ولم تحدد لنا المصادر تاريخ تلك المحنة، إلَّا أنها من مجموعها تشعر أنها في آخر حياته، وهذا المناسب للسياق.

* * *

تصوف الحافظ ابن رجب

في البدء لا بد من العطف على معنى التصوف، إذ هو في الأصل من مفردات الزهد والورع، ولهذا تنوعت عبارات العلماء فيه، ثم ما طرأ في أصله ــ وهو الزهد ــ من المحدثات والبدع، بل والزندقة أضفى على التصوف معنى شرعيًّا خاصًّا يعكس ذم العلماء له وتحذيرهم منه، ومن أهله.

وإذا نظرنا إلى ابن رجب الحنبلي رحمه الله وعرضنا على حاله مصطلح التصوف، نجده يتناقض معه قولاً وفعلاً وحالاً.

وقد وصف بعض الناس الحافظ ابن رجب بالمتصوف، حتى إنه عرف به في بعض الجهات؛ وسبب هذا الوصف ما أشرت إليه آنفًا من العلاقة المتصورة بين التصوف والزهد.

ولكن ها هنا لا بد من تقييد تلك الدعوى؛ لأن هذا الإطلاق في حق الحافظ ابن رجب وأمثاله فيه شبهة كبيرة.

ولهذا أقول إن اتهام الحافظ، ووصفه بالتصوف ــ والحالة هذه ــ لا يخرج عن أمرين.

أحقهما: أنه عن جهل وقلة علم في الحافظ، وفي التصوف المذموم؛ لأنه على أحسن الحالين يدل على الفهم السطحي لكلام

الحافظ، ونقوله عن بعض متقدمي الزهّاد من مُعظَّمي الصوفية كأبـي سليمان الداراني وابن أدهم والجنيد وأمثالهم. وهذا هو وجهة الأكثر من واصفي الحافظ بالتصوف.

والثاني: أنه صادر عن غرض وهوى مؤدَّاه القدح فيه وفي عقيدته ومنهجه، حيث حاولوا عسف بعض عبارات الحافظ إلى هذا المنحى. وهؤلاء ــ والحمد لله ــ قلَّة، وغرضهم مكشوف، وأمرهم إلى الله فهو حسيبهم وكافيهم.

هذا والواقف على كلام الحافظ ابن رجب في موضوع البحث في كتبه يراه يدور على أمر هام هو التزهيد بالدنيا والترغيب عنها بدار الآخرة وبرضوان الله، باتخاذ أسلوب مخاطبة القلوب لا الشهوات والجوارح. وهذا في حدّ ذاته مقصد شرعي من مقاصد الشريعة العامة.

لهذا كثر كلامه عن أحوال القلوب، ووجوب تزكية النفوس، وترقيقها لترقّى إلى منزلة الصديقين وأولياء الله المقرّبين، وليبلغ العبد أعلى مراتب الإيمان وهي الإحسان بدرجته الأولى أن يعبد الله كأنه هو يرى الله.

وهو اليقين التام بهذا الموقف، مع قلَّة الواصلين إليه.

فكان رحمه الله يصوغ ذلك بأسلوب لطيف روحاني مجرب، أتى إليه عن طريق تجربة واقعية وممارسة عملية لهذا الأسلوب في وعظه ودروسه العامة وفي رسائله، وقبل ذلك في أحواله وحياته.

فجاءت أكثر مصنفاته الوعظية على هذا النهج، حتى مصنفات المسائل الاجتهادية في الفقه وغيره والتي فيها تحقيق وسبر للأدلة

والأقوال، لم تخل من هذا المنهج، فكان غالبًا ما يذيلها بتلك اللفتات الزكية، والعبارات الندية في الوعظ ومخاطبة القلوب.

وفي هذه المناسبات تراه ينقل أقوال وأحوال كبار الزهّاد من صالحي القرون الثلاثة المفضّلة وقصصهم ونوادرهم من أمثال أيوب السختياني (١٣١هـ)، ومالك بن دينار (١٣٠هـ)، وإبراهيم بن أدهم (١٦٢هـ)، والحسن البصري (١١٠هـ)، والفضيل بن عياض (١٨٧هـ)، وابن المبارك (١٨١هـ)، والجنيد (٢٩٧هـ)، والإمام أحمد (٢٤١هـ) وأمثالهم.

لأن كلام هؤلاء وأحوالهم أبلغ ــ في الحقيقة ــ في التأثير؛ لأنه صدر عن تجربة وعن اختصاص، وقبل ذلك عن صدق مع الله وإخلاص وتجرّد.

ولعل مما سبب للحافظ مثل هذه الدعوى استخدامه للمصطلحات الشائعة عند متأخري الزُّهَّاد ــ أو قل المتصوفة ــ في القرون الأربعة المفضلة الذين وجد في آخرهم أنواع مذمومة ومنكرة من الشطحات، وهذه العبارات نحو: أصحاب الحقائق، والمكاشفات، وخواص المحبين والعاشقين، والمنامات النورانية، وأهل المعرفة الحقيقية.

مما هو محل احتمال ومورد إجمال يتطرق إليه مجال تلك الدعوى، ولكن هذا على أبعد أحواله خطأ من الحافظ وتجوز في القول لا يراد منه المعنى المتبادر عند أولئك، يدل عليه سياق كلامه الذي ترد فيه تلك المصطلحات وقواعد منهجه الرادَّة للجنوح البعيد في تلك المجاهل التي يسلكها مدعو الحقائق والمحبة وعشق الإلـه.

ومنهج آخر من منهاج الحافظ في هذه المسألة هو أنه إذا نقل عن بعض الزهّاد ممن غلّبوا جانب العبادة والذوق على العلم، حتى وقعوا في أخطاء وبدع سلوكية أو انحرافات، أدت بهم إلى نوع من الشطحات، نتيجة للجهل بعلم الرسول ﷺ الذي أورثه أمته، كما وقع لذي النون المصري، والبسطامي، وبشر الحافي، ورابعة العدوية، ومن هو أشد منهم، فالحافظ ينقل عنهم بعد أن ينتقي من كلامهم الحق والصواب، وتؤيده النصوص، ولا يسترسل معهم في نقل كل أقوالهم، وجميع ما عندهم مما يتضمنه الخطأ والبدع والضلال. ومثال ذلك على النوع الأول الذي ينقله الحافظ: ما نقله عن ذي النون المصري في كتابه «لطائف المعارف» مسألة الشوق إلى لقاء الله وتمني الموت لذلك، قال: «قال ذو النون: كل مطيع مستأنس وكل عاصي مستوحش»[1]. اهـ.

وعلى ذلك يجب مراعاة هذه الضوابط:

١ ــ نقل الحافظ لتلك الجمل من أقوالهم لا يعني بالضرورة تزكيتهم مطلقًا أو تسويغ أخذ جميع ما جاء عنهم؛ إذ الميزان موافقة ما صدر عنهم لقواعد الشرع وحيثياته مما جاء في كتاب الله أو سنَّة رسوله ﷺ وما قبله جماهير السلف الصالح من المسكوت عنه فيهما، ومما لا يخالف القواعد العامة المقررة.

٢ ــ إنصافه رحمه الله لأولئك «العارفين» حيث لم يرد كل ما جاء عنهم؛ لما أُثر عنهم من بدع ومخالفات في السلوك أو القول، بل أخذ ما لديهم من الحق، وطرح ضده. وهذا هو العدل؛ لأن الحكمة

(١) لطائف المعارف، ص ٥١٢.

هي ضالته أنى وجدها أخذها. ويجب ألاَّ يسلك هذا المنحى الدقيق إلاَّ أولو العلم الراسخون في الدين من أمثال الحافظ ابن رجب وابن القيم. . ؛ لأنه مسلك وعر ودحض مزلّة ، ربما يُجلب فيه من الشر الذي لا يعرفه المنتقي من كلامهم أشد من الخير المنشود، وعلى مثل هذا تنزل قاعدة: «درء المفاسد مقدم على جلب المصالح».

٣ ــ أمر ثالث هو ملاحظة تعقب الحافظ ابن رجب لأغاليط المنحرفين من الزهّاد، وغلاة المتصوفة، أو متصوفة أهل البدع والزندقة[١]، كنحو المفرقين بين الحقيقة والشريعة، والرافعين التكاليف الشرعية عنهم أو عن غيرهم.

قال رحمه الله: «ومما أحدث من العلوم، والكلام في العلوم الباطنة من المعارف وأعمال القلوب، وتوابع ذلك بمجرد الرأي، والذوق، أو الكشف وفيه حظر عظيم.

وقد أنكره أعيان الأئمة كالإمام أحمد وغيره.

وكان أبو سليمان يقول: إنه لتمر بي النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلاَّ بشاهدين عدلين: الكتاب والسنَّة.

وقال الجنيد: عِلْمُنا هذا مقيد بالكتاب والسنَّة، من لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يُقتدى به في علمنا هذا.

وقد اتسع الخرق في هذا الباب، ودخل فيه قوم إلى أنواع الزندقة والنفاق، ودعوى أن أولياء الله أفضل من الأنبياء، أو أنهم مستغنون

(١) كما جاء في كتابه «فضل علم السلف على الخلف»، ص ٦٧، فانظره لزامًا.

عنهم، وإلى التنقص بما جاءت به الرسل من الشرائع[1]، وإلى دعوى الحلول والاتحاد، أو القول بوحدة الوجود، وغير ذلك من أصول الكفر والفسوق والعصيان، كدعوى الإباحة، وحل محظورات الشرائع.

وأدخلوا في هذا الطريق أشياء كثيرة ليست من الدين في شيء، فبعضها زعموا أنه يحصل به ترقيق القلوب كالغناء والرقص.

وبعضها زعموا أنه يراد لرياضة النفوس كعشق الصور المحرمة ونظرها.

وبعضها زعموا أنه لكسر النفوس أو التواضع، كشهوة اللباس، و غير ذلك مما لم تأت به الشريعة، وبعضها يصد عن ذكر الله وعن الصلاة، كالغناء والنظر المحرم، وشابهوا بذلك الذين اتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا...»[2]. اهـ.

هذا، ومن نماذج أقواله رحمه الله التي ترسم لنا منهجه الحقيقي في الزهد الذي ربما يسمى «تصوفًا معتدلاً» على سبيل التجوز:

قوله في كتابه «البشارة العظمى للمؤمن»: «... فأما ما يجدونه من آثار الجنة فمما يتجلى لقلوب المؤمنين من آثار نور الإيمان، وتجلي الغيب لقلوب المؤمنين، كالشهادة لقلوبهم في مقام الإحسان؛ فربما تجلت الجنة، أو بعضها، أو بعض ما فيها، لقلوبهم أحيانًا حتى يرونها كالعيان.

---

(١) كما يقوله غلاتهم مثل الحلاج وابن عربي الطائي وابن الفارض، وصوفية الفلاسفة كابن سبعين.

(٢) من «فضل علم السلف على الخلف»، ص ٤٤ ـ ٤٥.

وربما استنشقوا من روائحها، كما قال أنس بن النضر يوم أحد: والله إني لأجد ريح الجنة من قبل أحد. . . »[1]. اهـ.

ـ وقال في شرح وصية النّبـي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما وهو غلام رديفه على الدابة: «. . . ومتى حصل هذا التعرّف الخاص للعبد، حصل للعبد معرفة خاصة بربه توجب له الأنس به والحياء منه؛ وهذه معرفة خاصة، غير معرفة المؤمنين العامة.

ومدار العارفين كلهم على هذه المعرفة، وهذا التعرّف، وإشاراتهم تومىء إلى هذا.

سمع أبو سليمان ـ هو عبد الرحمن الداراني (٢١٥هـ) ـ رجلاً يقول: سهرت البارحة في ذكر النساء، فقال: ويحك!، أما تستحي منه يراك ساهرًا في ذكر غيره؟ ولكن كيف تستحي مما لا تعرف؟!»[2]. اهـ.

ـ وقال أيضًا في كتابه «استنشاق نسيم الأنس» في مقدمته: «الحمد لله الذي فتح قلوب أحبائه من فج محبته، وشرح صدور أوليائه بنور معرفته، فأشرق عليهم النور ولاح، أحياهم بين رجائه وخشيته، وغذاهم بولايته ومحبته، فَلاَحَ لهم فيه من السرور والأفراح، فسبحان من ذكره قوت القلوب وقرة العيون وسرور النفوس، وروح الحياة، وحياة الأرواح. . . »[3].

---

(١) من كتابه «البشارة العظمى للمؤمن بأن حظه من النار الحمى»، (مخطوط)، ص ١٨١.

(٢) من كتابه «نور الاقتباس من مشكاة وصية النبـي ﷺ لابن عباس»، ص ٢٤.

(٣) من كتابه «استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس»، (مخطوط)، ص ٨٤.

هذا المنهج يقارب في الحقيقة منهج ابن القيم رحمهما الله في بعض مصنفاته كالفوائد، والجواب الكافي، وحادي الأرواح، وروضة المحبين في مواضع فيه، ومن هذا وغيره[1] أستطيع القول إن تصوّف الحافظ ابن رجب ـ إن صحت تسميته كذلك ـ من التصوّف المعتدل، والزهد المقبول عند السلف الصالح، وهوالخلي عن البدع والشطحات أو الانحرافات في الأقوال والأعمال.

ومن التصوف العذري، وهو البريء من شطحات وبدع المتصوفة، وهو في الحقيقة زهد وورع المتقدمين، ما أشار إليه ابن القيم في النونية بقوله ص ٢٦١ :

أهلُ الحديث جميعُهم وأئمةُ الـ ـفتوى وأهلُ حقائق العرفان
العارفون بربهم ونبيِّهم ومراتب الأعمال في الرجحان
صوفيةٌ سنيةٌ نبويةٌ ليسوا أولي شطح ولا هذيان». اهـ

* * *

(١) النماذج على ذلك كثيرة مبثوثة في كتبه: «جامع العلوم والحكم»، و «لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف»، و «التخويف من النار»، ص ٨، و «شرح حديث عمار بن ياسر»، ص ٤٣ ـ ٤٧، و «نور الاقتباس»، ص ٤٢، ٤٥، ٧٨، و «اختيار الأولى»، ص ١١٥، ١٢١، و «سيرة عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز»، ص ٣ وما بعدها، و «كشف الكربة»، ص ٢٨، ٢٩، و «المحجة»، ص ٧٨ وما بعدها. . وفي أواخر رسائله عامة، فإنها لا تخلو من تلك الإشارات اللطيفة.

تصانيف الحافظ ومؤلفاته

كان الحافظ من العلماء متوسطي التأليف، يظهر ذلك من عدة مؤلفاته ومن حجمها. ومع هذا فقد ورّث تركة علمية نفيسة، فقد بعضها، وأبقى الله لنا أكثرها، وقد كتب لها الانتشار والذيوع في عصرنا ــ والحمد لله ــ إلاَّ قليلاً منها لم تزل حبيسة المكتبات.

وقد تنوعت مؤلفاته، فكتب في العقيدة، وفي الحديث وشروحه وعلله، في الفقه وقواعده وفروعه، وفي التراجم، وفي التفسير، وعلوم الرقائق ولطائف القلوب.

وفي كل هذه المؤلفات يغرف من بحر مليء بالعلم من أقوال السلف الصالح وأحوالهم، مع حسن العرض والترتيب والتبويب، والتدرّج في عرض المسائل وبحثها والتعليق عليها، وتحقيقه لمواطن الخلاف، وقوة عبارته وجزالتها وجمعه للمعاني الكبيرة بالجمل والعبارات القصيرة.

والسمة البارزة في مؤلفات الحافظ ابن رجب كثرة نقوله وعنايته بأقوال السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم، وأئمة القرون المفضلة وصلحائهم، فلا يطرق موضوعًا أو مسألة إلاَّ ويورد من كلامهم ما يناسبها، لهذا غدت كتبه مصدرًا مهمًّا حفظت لنا من خلالها

تلك الأقوال، حيث لم يصلنا كثير من أقوال وتحقيقات الأئمة في متقدم القرون الإسلامية إلَّا من خلال النقل عنهم؛ إذ لم يكن لهم تصانيف مؤلفة لهم، وميزة كتب الحافظ أنها مما يعول عليها في تلك النقول؛ لأنها صدرت عن إمام ثقة من أهل العلم والديانة، فلا يُظن في حقه الكذب عليهم، مع أن ما ينقله هو عن دراية وفقه ناقد.

وتظهر شخصية الحافظ العلمية في هذا النقل من خلال انتقاء أقوال السلف، والتنسيق بينها، والمقارنة لما ينقل بعضه مع بعض، وتحليلها والتعقيب عليها بما يناسب إن دعت إلى ذلك الحاجة، واستظهار بعضها على بعض، وتحقيق المقصود منها، مع الاستنباط الدقيق لمعانيها ورده على ما قد يقع من مجانبة للصواب بأدب ومعرفة فضل من تقدم، ما لم يكن الخطأ مقصودًا متعمدًا.

وغالبًا ما يأتي كلام نفسه في آخر تلك النقول محصلاً ونتيجة لها متميزًا بالقوة وجزالة المعنى والترابط الواضح بين أوله وآخره.

مع ملاحظة غلبة منهج أهل الحديث على كتبه ورسائله، في نقوله ومنهجه في إيراد الأقوال، ودقته في النقل والعزو، وأمانته العلمية في العرض والمناقشة، والميل مع الدليل أينما مال بدون تعصّب بقول أو لرجل، لأنه غالبًا ما يطرح الأقوال في المسألة ثم يرجح منها ما يميل إليه الدليل ويوافقه التعليل.

وعنايته بمناقشة الشبهة الواردة على الأدلة ومناقشة الأقوال المرجوحة إن بدا لذلك حاجة عنده.

وبالمناسبة فإنه ربما يتكرر عنوان مؤلف من مؤلفات الحافظ بأكثر

من اسم وهذا قد وقع، فمثلاً كتابه شرح كلمة الإخلاص، سمي بكتاب التـوحيـد، وتحقيـق كلمـة الاخـلاص، وشـرح معنـى لا إلـٰـه إلاّ الله، وغيرها.

وهذا أمر مشهور في عناوين الكتب من خلال كتب التراجم، والنُّساخ، واجتهاد الطابعين؛ لأنه إذا لم يكن مسمى من مؤلفه باسم مُحدد يجتهد أحد أولئك في اختيار عنوان له يناسب موضوعه.

هذا أمر، وأمر آخر: هو إشارة كثير ممن ترجموا للحافظ إلى مؤلفاته، بل رواية بعض كتب المشيخات والإثبات والبرامج لتلك المؤلفات بالأسانيد إلى ابن رجب الحنبلي[1].

وهذا أوان الكلام على تلك المؤلفات، وتمييز مطبوعها من مخطوطها[2]، ووصفها بصورة مجملة:

---

(١) ومنها كتاب «صلة الخلف بموصول السلف» لمحمد بن سليمان الرَّوداني (١٠٩٤هـ)، الذي هو فهرس رواياته عن شيوخه، وما وقع له من الكتب عمن سبقه من العلماء.
وهذا الكتاب مخطوط بمكتبة الحرم المكي بمكة المكرمة، وفي دار الكتب المصرية برقم ٦ مجاميع (٤٣١٣٠) عمومية.
ونشـر منـه أربعـة أقسـام ــ علـى الحـروف ــ د. محمـد الحجـي بمجلـة معهـد المخطوطات العربية، التابع لجامعة الدول العربية، الأعداد من ٢٦ ــ ٢٩ ولم يتمه.
ومنها أيضًا الكتاب الكبير الحاوي لمجموعة من كتب الفهارس والأثبات والبرامج والمشيخات «فهرس الفهارس للكتاني»، وانظره في ترجمة ابن رجب ٢/ ٦٣٦، وفي فهرس المؤلفات.

(٢) وأبشر القارىء أنني سأفرد لمخطوطات الحافظ ابن رجب ثبتًا مستقلاً، ربما ألحق =

١ ــ «**أحكام الخواتم وما يتعلق بها**»: مطبوع بتحقيقين.

في الكلام على الخاتم وما جاء فيه، وحكم لبسه والخلاف في ذلك، ونوع الخاتم ومعدنه، وأنواع نقوشه، والوضوء به، وفي أي الأيدي والأصابع يوضع، وخاتم الميت، وزكاته، والشفعة فيه، ووديعته ولقطته، ووهبته وسرقته. حيث مرَّ على مجموع أحكامه المتعلقة به.

٢ ــ «**اختيار الأولى في شرح اختصام الملأ الأعلى**»: مطبوع قديمًا وحديثًا.

رسالة شرح فيها حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه الذي رواه أحمد والترمذي، وفيه اختصام الملأ الأعلى حول الكفارات والدرجات، حيث يقف ابن رجب عند كل عبارة من الحديث ويتكلم عليها ناقلاً أقوال السلف فيها.

وللكتاب مجموعة نسخ خطية:

* نسختان في جامعة الملك سعود، وواحدة في دار الإفتاء بالمكتبة السعودية.

* وواحدة بخزانة فاتح[1] باستنبول رقم (٥٣١٨). واثنتان

= بثبت مخطوطات الشيخين ابن تيمية وابن القيم المطبوع، ولكن أعجل هنا بما قد رقمته في حواشيه من قبل، وبشرى أخرى لطلاب العلم، وهي: طبع وتحقيق وفهرسة رسائل ابن رجب كلها في مجموعة واحدة قريبًا إن شاء الله.

(١) هذا المجموع فيه إحدى وعشرون رسالة كلها لابن رجب، يأتي الإشارة إليها عند كلٍّ، ورقمه فيها (٥٣١٨)، وهي ضمن المكتبة السليمانية.

بمكتبة الأوقاف العامة ببغداد، الأولى برقم (٤٧٦٧/ ١٤) في ١٤ ورقة، والثانية برقم (٤٧٥٤/ ٢٢) في ٢٤ ورقة.

* وفي مكتبة شقراء العامة برقم (٢٠٧) في ٣٠ صفحة، وهي الآن ضمن مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض.

* وفي جامعة برنستون مجموعة يهودا ـ برقم (٣١٢١) ٣٦ ق سنة ١٠٠٦هـ .

* وفي تشستربتي ٣٢٩٢/ ٥ (١٠٣ق ـ ١٣٤ق)، مكتوبة في حياة الحافظ، وهي محفوظة بجامعة الإمام.

* ونسخة في جامعة برنستون، يهودا، ٤١٦١ (١٤٨ ـ ١٧٦) ورقة في سنة ٨١٦هـ.

* وفي المذنب بالقصيم نسخة في ٤٩ صفحة بخط فهد بن عبيد سنة ١٣٣٩هـ، بكل صفحة ٢٣ سطرًا.

٣ ـ «**الاستخراج لأحكام الخراج**»: مطبوع قديمًا وحقق عدة مرات.

في الكلام على موضوع الخراج وما يتعلق به، وجعله في عشرة أبواب: معناه، وما ورد في السنة من ذكره، وأصل وضعه، الأرض التي يوضع عليها وما لا يوضع، حقيقة الخراج، وما وضعه عمر على الأرض، مقداره، تصرفات أرباب الأرض فيها، وتصرفات الإمام في أرض العنوة، مصارف الخراج وماله.

* وله خطية في جامعة أوبسالا برقم (٥٥٢/ ١٧٦) في ١٠٢ق بخط واضح سنة ٨٦٣هـ.

* وثانية في الأهلية بباريس رقمها (٢٤٥٤) في مجلد، وعنها فلمان بمركز إحياء التراث بجامعة أم القرى بمكة رقمهما على الترتيب (٢٢٨) و (٢٢٧) ـ فقه حنبلي. خلا أربع نسخ أخرى ذكرها محقق إحدى الطبعات في أطروحة علمية بجامعة الأزهر وهو الأستاذ: مجدي الهيتي.

٤ ـ **«استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس»**[1]: مطبوع.

وهو من كتبه الفريدة التي رسمت معالم منهجه في الزهد والتصوف المعتدل. وقد جعله في اثني عشر بابًا، في محبة الله ولزومها، وسؤال الله محبته على أكمل وجه، والأسباب الجالبة لمحبته، وعلامات محبته الصادقة، والتلذذ بكلام المحبوب، وأنس المحبين بالله، وسهر المحبين بمناجاته، وشوق المحبين له، ورضاهم بأقداره، وخوفهم، وشرفهم، ونبذ من كلامهم وأحوالهم وخبرهم.

والذين يقدحون في الحافظ ويصفونه بالتصوّف العام مأخذهم

---

(١) كتاب «الاستنشاق» له عدة نسخ مخطوطة منها نسختان بجامعة الملك سعود رقمهما (١٨١٧/ ٧) في ٣٦ ورقة، و (١٦٣٧/ ١) في ٢٦ ورقة، من منسوخات القرن الثالث والرابع عشر الهجري.
ونسختان في مكتبة دار الإفتاء السعودية بالرياض برقم (٥٢٧) في ١٨ ورقة ورقم (٦٣٣) في ٢٧ ورقة.
وفي مكتبة الأوقاف العامة ببغداد رقم (٤٧٥٤/ ٣) مجاميع٧ في ٣٢ ق، فيه خرم من آخره، وأخرى برقم (٤٧٦٧/ ١٣).
وفي مكتبة تشستربتي برقم (٣٢٩٢/ ٢) (١٩ ـ ٨١) منسوخ من ٢١/ ٧/ ٧٩٦هـ.
وفي دار الكتب المصرية مصورة برقم (٤٧٨٨٣) في ٢١ ق.

ومعتمدهم ينصب في الغالب على هذا الكتاب، وسبق الكلام على بعضه في تصوّفه.

٥ ـ «**أهوال القبور، وأحوال أهلها إلى دار النشور**»: مطبوع عدة مرات. وحقق في رسالة علمية في قسم العقيدة بكلية أصول الدين بجامعة الإمام.

ألَّفه في أول منازل الآخرة، فيما يتعلق بحياة البرزخ، وقال في مقدمته: «وقد سألني بعض الإخوان الصالحين أن أجمع لهم ما ورد من أخبار البرزخ وأحوال الموتى الذاهبين، فإن سماع ذلك للقلوب موعظة، وهو يحدث لأهل الغفلة الانتباه واليقظة...»، وجعله في ثلاثة عشر بابًا.

ونسخه التي لم يعتمد عليها المحقق:

(أ) في مكتبة شقراء العامة برقم (١٠) في ١٠٨ صفحات.
وفي مكتبة الملك فهد الوطنية برقم (٣١٠).

(ب) وأخرى في تشستربتي برقم (٤١١٥) في ٦٣ ورقة بخط رديء متصل الحروف، من القرن الثامن.

(ج) وثالثة بدار الكتب المصرية برقم (٢١٩٢٦ ب) في ٢٠ ورقة.

(د) ورابعة في جامعة برنستون بأمريكا ـ مجموعة يهودا ـ نسختان رقمهما (٤٠٨٧) و (٣٩٦٤).

(هـ) وسادسة بالظاهرية برقم (٤١٣٢) عام في ١٦٤ ورقة سنة ٨٤٦هـ.

(و) وفيها أخرى برقم (٧٥٤٧) عام في ١٤٤ق سنة ٨٥٢هـ.

(ز) وضمن مجموع لابن مرشد بخطه، أوله أهوال القبور في ١٥/ ٢/ ١٣٥٥هـ وبعده التخويف من النار.

(ح) وفي مكتبه الشيخ علي اليعقوب بحائل نسخة في مجلد لطيف فيه ١٧٠ صفحة، ومصححه ومقابله سنة ١٣٣٠هـ.

٦ ـ **«البشارة العظمى للمؤمن بأن حظه من النار الحمى»**[1]: مخطوط.

رسالة شرح فيها حديث أبي أمامة مرفوعًا: **«الحمى كير جهنم فما أصاب المؤمن منها كان حظه من النار»** رواه أحمد.

جمع فيه نصوصًا نبوية وأقوالاً للصحابة والسلف الصالح في الباب، وكيف كانت حمى النبي ﷺ، واستحباب الصبر عليها.

* ـ **بيان فضل علم السلف = فضل علم السلف على الخلف.**

---

(١) كتاب «البشارة» له أربع نسخ خطية:
ففي المكتبة السعودية بدار الإفتاء بالرياض نسخة رقمها (٥٢٧) في ٥ ورقات.
وفي جامعة الملك سعود بالرياض نسختان برقم (١٨١٧/ ٩) (١٧٩ ـ ١٨٩) في خمس لوحات، ورقم (١٦٣٧/ ١٤) في ٤ ورقات.
وفي خزانة الفاتح بالسليمانية بتركيا ضمن مجموع كله لرسائل ابن رجب الحنبلي رقمه (٥٣١٨) في ٩ ورقات.
وخامسة بالمكتبة الوطنية بتونس ضمن مجموع (١٥٧).

٧ ــ «**تحقيق كلمة الإخلاص**»[1]: له عدة طبعات.

وله أسماء أخر منها: «**كتاب التوحيد**» و«**شرح معنى لا إلـٰه إلاّ الله**» حيث شرح فيه الحافظ حديث معاذ رضي الله عنه لما كان رديف النبي ﷺ على حمار وأخبره بحق الله على العباد، وحق العباد على الله الحديث، متفق عليه. بيّن فيه المؤلف معنى هذه الكلمة، وفضلها وبعض شروحها ونماذج من تطبيق السلف الصالح لها. وربما يسمى: «**شرح حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه**».

(١) لهذا الكتاب عدة نسخ:
ففي جامعة الإمام بالرياض نسخة برقم (٤٧٦١) في (١ ــ ١٢): وفي الجامعة الإسلامية بالمدينة نسخة فلمية عن جامعة جوتا بألمانيا ورقمها هناك (٧٠٢). وفي المدينة رقم (٢٨١٠).
وفي مكتبة الأوقاف العامة ببغداد رقم (٧٠٠٢/ ٣) مجاميع، في ١٥ ورقة برقم (١٣٨٠٩/ ١) في ٩ ورقات، وبرقم (٤٧٦٢/ ١٥) في ٨ صفحات تقريبًا، ورقم (٥٦٣٠/ ٣).
وخزانة الفاتح بالسليمانية رقمها (٥٣١٨) في ٣٠ صفحة.
وفي جامعة الملك سعود برقم (٤٥/ ١٥ ج) ظنًا.
وفي مكتبة شقراء العامة ضمن مجموع رقم (٢٢/ ٣)، هي الآن ضمن مكتبة الملك فهد الوطنية ــ أعني جميع مكتبة شقراء ــ وسائر مكتبات المدن السعودية العامة الخطية.
وفي مكتبة جوتا بألمانيا برقم (٧٠٢) في ١٣ ورقة.
ونسخة لدي ضمن مجموع لأئمة الدعوة في ٤ ورقات تعليم نسخي دقيق حسن بخط الشيخ عبد العزيز بن صالح بن مرشد سنة ١٣٣٤هـ. وأخرى في ٧ ورقات ضمن مجموع آخر منسوخ سنة ١٣٠٨هـ.

٨ ــ **«تعليق الطلاق بالولادة»**: مخطوط.

ضمن مجاميع مكتبة الفاتح بالسليمانية باستنبول رقم (٥٣١٨).

٩ ــ **«التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار»**: مطبوع ومحقق في رسالة علمية.

من أشهر كتبه في الوعظ والرقائق، ومهم في بابه، تكلم فيه على أحوال يوم القيامة من البعث والنشور، والنار وعذابها، والجنة ونعيمها، جعله في ثلاثين بابًا.

(أ) وله خطية بدار الكتب القطرية برقم (٥٠٩) في ١٠٤ ورقات.

(ب) وفي جامعة برنستون برقم (٤٧٣٨) يهودا، لها فلم بمكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض.

(ج) وفي مكتبه الشيخ عبد الله السليم رحمه الله في مجلد متوسط، وبخط جيد.

(د) وفي نسخة عندي مصورة عن مجموع لأئمة الدعوة، هي الثانية فيه، بخط الشيخ صالح بن عبد العزيز بن مرشد سنة ١٣٥٥هـ.

١٠ ــ **«تسلية نفوس الآباء والرجال عند فقد الأطفال»**: مطبوع. وهو ضمن مجموع الفاتح.

رسالة حث فيها على الصبر عند مصيبة فقد الولد، وعضد ثوابه بالأجر الجزيل من الله بالأدلة من الكتاب والسنَّة، واستأنس بأقوال السلف.

(أ) وفي الوطنية العامة بتونس نسخة برقم (١٥٧) ضمن مجموع (٦٧ ـ ٧٠ ق).

(ب) وضمن مجموع الفاتح نسخة رقمها (٥٣١٨).

١١ ـ «**تفسير سورة الإخلاص**»: مطبوع ومحقق.

بدأ فيه بذكر فضائل السورة، وسبب نزولها ثم تفسيرها على طريقة السلف، وجمع فيها بين الرواية والمناقشة، وبين تضمنها لأنواع التوحيد الثلاثة الربوبية والألوهية والأسماء والصفات وهذا الكتاب من أهم ما ألف في تفسير سورة الإخلاص اختصارًا وجمعًا لمعاني ومقاصد السورة. وحبذا تقريره في مناهج التفسير في مدارسنا.

(أ) وله نسخة خطية بمكتبة الأوقاف ببغداد برقم (١٣٨٠٩/ ٥) في ٨ ورقات.

(ب) وثانية برقم (٤٧٦٧/ ١٩)، تضم ٤ ورقات.

(ج) وثالثة بمكتبة الرياض السعودية بدار الإفتاء برقم (٥٢٧)، وهي ضمن مكتبة الملك فهد الوطنية في ١٢ ورقة.

(د) ورابعة ضمن مجموع الفاتح رقم (٥٣١٨).

١٢ ـ «**تفسير سورة الفلق**»: مخطوط.

على نمط التفسير السابق لسورة الإخلاص، ونسختها وحيدة ـ حسب علمي ـ ضمن مجموع مكتبة الأوقاف ببغداد العامة رقم (٣٦٥١١).

١٣ ــ «**تفسير سورة النصر**»[1] : مطبوع قديمًا وحديثًا .

كما فعل في التي قبلها، مع بيان فضل الاستغفار ونماذج من أقوال السلف فيه، وأحوالهم .

١٤ ــ «**جامع العلوم والحكم**» : مطبوع عدة طبعات .

وهو من أوعب كتبه وأهمها، شرح فيه ستة وعشرين حديثًا هي أصل الكتاب، وهي التي جمعها أبو عمرو ابن الصلاح من جوامع كلمه ﷺ، ثم شرح زيادة النووي عليها بستة عشر حديثًا، فتمت اثنين وأربعين حديثًا هي الأربعين النووية. وزادها ثمانية من جوامع الكلم فأضحت خمسين حديثًا . عُني بشرح ألفاظها ومعانيها ورواياتها وأحكامها وتحقيق مسائل الخلاف في بعضها، والكلام على الروايات تفصيلاً . وحوى الكتاب نقولاً كثيرة ومتنوعة عن السلف الصالح .

وللكتاب نسخ خطية كثيرة، لا سيما في مكتبات نجد الخاصة . . ومن مخطوطاته :

---

(١) للكتاب أربع نسخ خطية :
ففي المكتبة المركزية لجامعة الملك سعود بالرياض نسختان رقمهما (١٦٣٩/ ٤) في ست صفحات و (١٧٣٧/ ٤) في مثلها .
وفي مكتبة الأوقاف العامة ببغداد أيضًا نسختان هما : رقم (١٣٨٠٩/ ٤) مجاميع في عشر صفحات و (٤٧٦٧/ ١٨) في أربع ورقات .

(أ) نسخ في برلين مكتبة الدولة برقم (١٤٨٦) و (١٤٨٧) و (١٤٩٢).

(ب) في جامعة برنستون[1] مجموعة يهودا برقم (٤٣٠٧).

(ج) وفي دار الكتب الظاهرية نسخة برقم (٩٦١)، فيها ٢٢٩ ورقة، منسوخة سنة ٨٢٦هـ، أي بعد وفاة الحافظ بنحو ٣٠ سنة.

وبرقم (١٢٩٨) فيها ١٠٥ ورقات، منسوخة سنة ٨٢٨هـ.

وبرقم (٥٨٥٢) عام فيها ٢٣٠ ورقة.

(د) وفي مكتبة غازي خسرو بسرايفو بالبوسنة برقم (٢٦٥٠/ ١) نسخ في سنة ١٣٥٠هـ.

(هـ) وفي العمومية باستنبول نسخة نفيسة نسخت في عهد الحافظ سنة ٧٨٩هـ برقم (٨٣٨) فيها ٢٦٨ ورقة.

(و) مثلها نسخة خدابخش ـ بتنه بالهند برقم (٢٨١) فيها ٤٧١ ورقة مكتوبة سنة ٧٩٠هـ. وعليها تصحيح المؤلف وإجازته لناسخها هو تلميذه، حيث عارضها عليه في مجالس أخرى في ١٢/ ٦/ ٧٩٠هـ.

(ز) وفي مكتبة الجامع الكبير بعنيزة نسخة مكتوبة سنة ١١٠١هـ مخرومة في النصف الأول.

---

(١) مصورات مخطوطات هذه الجامعة كلها، والمحتوية على مجموعات يهودا وجاريت والمجموعة الحديثة في مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض على أفلام، ويمكن الوقوف عليها فيها بذات أرقامها.

(ح) وفي مكتبة الدولة ببرلين برقم (١٤٩٢) فيها ٣٥٧ ق سنة ٨٣٣هـ.

(ط) وفي جامعة الإمام نسخة أصلية رقمها ٩٠٢٩/خ بخط محمد بن عيسى بن أحمد المقدسي في ٢٠/٨/٨٣٣هـ، أصل المؤلف في ٥٤٨ ورقة، ومقابلة على ٢٥ سطرًا.

(ي) ونسخة في ٤٢١ صفحة منسوخة سنة ٨٣٢هـ في مجلد لدي.

ولدي بيان عشرون مخطوطة للكتاب.

ويسمى الكتاب في بعض الفهارس بـ «**شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم**»، وله بهذا المسمَّى خمس نسخ خطية: أربع في تركيا، وواحدة في أمريكا ــ برنستون.

١٥ ــ «**الحكم الجديرة بالإذاعة من قوله ﷺ: «بعثت بالسيف بين يدي الساعة»**»: مطبوع محقَّق.

شرح فيه الشيخ حديث ابن عمر رضي الله عنهما في المسند وفيه: «**بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك به، وجُعل رزقي تحت ظل رمحي، وجُعل الذلَّة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبّه بقوم فهو منهم**» على نهج شرح الأحاديث، كما سبق.

١٦ ـ «**الخشوع في الصلاة**» أو «**الذل والانكسار للعزيز الجبار**»[١]:
مطبوع.

تكلَّم فيه على معنى الخشوع المطلوب في النصوص ووسائله، وكيفيته عند الدعاء. . . وفضل مقام العبودية، وما فيه من كمال الذل والخضوع لله تعالى وهذا هو حقيقة العبادة.

* ـ **ذم الجاه والمال = شرح حديث ما ذئبان جائعان.**

١٧ ـ «**ذم قسوة القلوب**»[٢]: مطبوع.

---

(١) له عدة نسخ خطية:
(أ) في مكتبة جامعة الإمام برقم (٤٧١٦/ ٤) (٥١ ـ ٦٠).
(ب) وبمكتبة الرياض السعودية بدار الإفتاء برقم (٥٢٧) في ١٤ صفحة.
(ج) وبجامعة الملك سعود برقم (١٦/٥٦ ف)، ولعلها صورة عن نسخة الإفتاء، وأُخرى برقم (٦٧٢).
(د) وفي الظاهرية برقم (٦٦٢٠) تصوف ـ في ١٦ ورقة.
(هـ) وبدار الكتب المصرية رقم (٤٧٨٨٣ ب) (٥٢ ـ ٦١).
(و) وبمكتبة تشستربتي بدبلن بإيرلندا رقم (٣٢٩٢)، وعنها صورة بنفس الرقم بجامعة الإمام بالرياض، لأن كل المكتبة صورت على أفلام بها وبنفس أرقام الأصل.
وتتفاوت النسخ في عنوان الرسالة، ففي بعضها: قاعدة في الخشوع.
(ز، ح، ط) وثلاث نسخ أخرى بجامعة الإمام عن تشستربتي: برقم (٣٢٩٢/ ٤) (٨٦ ـ ١٠٢) في القرن الثامن. وبرقم (٥٠٠٤) في ٢١ ورقة من القرن الثاني عشر، بخط معتاد نسخي.

(٢) رسالة ذم قسوة القلوب لها خمس نسخ:
(أ) في جامعة الإمام برقم (٤٧١٦/ ٣).
(ب) وفي جامعة الملك سعود برقم (١٨١٧/ ٨) في ٢٢ صفحة ورقم =

رسالة صغيرة بيَّن فيها أسباب قسوة القلوب بالأدلة، وأنواع القلوب، وختمها بذكر مزيلات هذه القسوة، والطريق إليها، وهي مهمة في بابها.

١٨ ــ **«ذيل طبقات الحنابلة»**[١]: مطبوع.

= (١٦٣٧/ ١٢) في ٨ ورقات.

(ج) وفي خزانة الفاتح بتركيا برقم (٥٣١٨) في ١٧ ق.

(د) ومكتبة الأوقاف العامة ببغداد برقم (٤٧٦٧/ ٢٥) في ٤ ورقات.

(١) هذا الكتاب الحافل في تراجم الحنابلة، له نسخ في:

(أ) دار الإفتاء في المكتبة السعودية رقم (١٢٤) و (١٢٥) و (٣٠٨) و (٧٦١)، أربع مجلدات، ولعلها أكثر من نسخة.

(ب، ج) وفي الظاهرية نسختان رقم (٣٤٢٦) في ٢٣٩ ورقة في سنة ٨٠٠هـ، ورقم (٣٤٢٥) (١٥٩ ــ ٣٥١ ق) سنة ٨٣٤هـ.

(د) وفي مكتبة الحرم المكي برقم (٢٨١٥) في ٣٧٢ ق في سنة ١٣٤٤هـ.

(هـ) ومصورات في جامعة الملك سعود برقم (٩/ ١٠) في ٢١٩ ورقة، ورقم (١١/ ١٦ ق) في ١٣٥ ورقة، ورقم (١١/ ١٥ ق) في ٢٨١ ورقة، ورقم (١٣٧/ ١ ح) في ٣٧٠ ورقة.

(و) وفي مكتبة الأوقاف العامة ببغداد نسخة في ٥ مجلدات في كل مجلدة ١٠٠ ورقة، فرغ منها في ١٣/ ٢/ ٨٣٦هـ، وهي منقولة عن نسخة كوبرلي.

والكتاب جدير بعناية المهتمين بتراث ابن رجب خصوصًا، والحنابلة عمومًا وغيرهم، فإنه ثروة علمية مهمة.

(ز) وهناك نسخة من الذيل محفوظة بمكتبة عنيزة الوطنية بالجامع الكبير بها في (٢٥٠ ق)، وعنها فلم بجامعة الإمام برقم (٩٧).

(ح) وفي جامعة الإمام أيضًا نسخة في جزئين في ٢٢١ ورقة بخط الشيخ سليمان بن حمدان، منسوخة في ٩/ ١٠/ ١٣٤٠هـ، وهي مقابلة على أصل عتيق نسخت منه. =

سبق بيان شيء عنه عند الكلام على منزلته عند فقهاء الحنابلة، وأزيد هنا أنه جمع في كتابه **٥٤٩** ترجمة، رتّبها حسب الوفيات لكل مائة سنة بدءًا من سنة **٤٦٠ ـ ٧٥١**هـ. وجمع مع التراجم نكتًا علمية وغرائب فقهية وفوائد إسنادية.

وسيأتي له بحث مستقل خاص بهذا الكتاب.

* ـ **«رسالة في رؤية الهلال» أو «قاعدة في رؤية الهلال»**.

١٩ ـ **«سيرة عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز»**: مطبوع.

ترجم فيه لهذا الفتى الزاهد الذي مات في حياة والده وكان عمره **٢١** سنة، وجعل الترجمة في أحد عشر بابًا.

٢٠ ـ ومعه: **«مختصر سيرة عمر بن عبد العزيز»**: مطبوع مع الذي قبله.

جعلها في صفحات عقب سيرة ابنه عبد الملك، رحمهما الله.

وللكتاب نسخة خطية للرسالتين بمكتبة الرياض السعودية بالإفتاء رقم (**٥٤**) في **١٥** ورقة.

= (ط) وفي دار الكتب المصرية برقم (٥٢٣٠)، تاريخ، عن الأصل بمكتبة كوبرلي، في ٦٣٦ ق، نسخ صفر سنة ٨٣٦هـ.

(ي) وكذا في خزانة أحمد الثالث بتركيا نسخة ثالثة برقم (٦١) تاريخ، بخط نفيس في ٣٤٩ ورقة، سنة ٨٠٠هـ.

(ك) وانظر أُخريات برقم (٨٣٨) و (٣٨٣٩) فيها (٣٤٦) و (٣١٦) مكتوبتان سنة ٨٩٩هـ وسنة ٨٧٠هـ. وانظر نسخ أخرى في بروكلمان ٢/ ١٢٩ الملحق.

٢١ ـ **«شرح حديث أبـي الدرداء في طلب العلم»**: مطبوع عدة مرات.

شرح فيه حديث: «**من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سلك الله به طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات والأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء فإن الأنبياء لم يورثوا درهمًا ولا دينارًا وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر**». رواه أحمد وبعض أهل السنن وطريقته كما سبق في شرح الأحاديث[١].

٢٢ ـ **«شرح حديث زيد بن ثابت»**[٢]: مطبوع.

---

(١) وله عدة نسخ أصلية مخطوطة في:
(أ) مكتبة الرياض السعودية بدار الإفتاء رقم (٦٨٦) في ١٦ ورقة، ورقم (٥٢٧) في ١٧ ورقة،
(ب) وفي فلم بالجامعة الإسلامية بالمدينة رقم (٩٤١ ص ق) (١٠٤ ـ إلى آخره).
(ج) وفي جامعة الملك سعود بالرياض رقم (١٦٣٧/ ٥) في ١٦ ورقة، ولعلها مصوَّرة عن إحدى نسخ الإفتاء.
(د) وفي مكتبة الأوقاف العامة ببغداد برقم (٤٧٦٧/ ١٥) في ١٤ صفحة.
(هـ) وفي جامعة الإمام نسخة برقم (٦٢٨٨) من القرن الرابع عشر.
(و) ونسخة ضمن مجموع لأئمة الدعوة في ٨ ورقات بخط نسخي حسن دقيق للشيخ عبد العزيز بن مرشد في ٣/ ٢/ ١٣٣٤هـ.

(٢) لهذا الكتاب مجموعة نسخ: =

الـذي رواه أحمـد والحـاكـم وفيـه: أن رسـول الله ﷺ أمـره أن **يتعاهد أهله كل صباح... لبيك اللَّهمَّ لبيك، لبيك وسعديك والخير في يديك ومنك وإليك، اللَّهمَّ ما قلت من قول، أو حلفت من حلف، أو نذرت من نذر فمشيئتك بين يدي ذلك كله...»** الحديث، وهو كما سبق في شرح الأحاديث.

٢٣ ــ «شرح حديث شداد بن أوس»[1]: مخطوط.

وفيـه: «إذا كنـز النـاس الـذهـب والفضـة فـأكثـروا أنتـم هـؤلاء الكلمات: اللَّهمَّ أني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على

= (أ) في دار الإفتاء بالرياض برقم (٥٢٧/ ٥٦).
(ب) وجامعة الملك سعود برقم (١٨١٧/ ١) في ٩ ورقات، ورقم (٥٦/ ١٦ ق) في ١٤ ورقة، وهي مصورة عن نسخة الإفتاء.
(ج) وفي الجامعة الإسلامية بالمدينة في فلم (٩٤١) من (٨٧ ــ ١٠٤).
(د) وفي مكتبة فاتح باستنبول رقم (٥٣١٨) في ١٦ ق.
(هـ) وفي المكتبة العامة للأوقاف ببغداد برقم (٤٧٦٧/ ٢٣) في ٣ ورقات.

(١) للكتاب مجموعة مخطوطات:
(أ) في جامعة الملك سعود برقم (١٨١٧/٨) (١٥٧ ــ ١٧٨)، ورقم (١٦٣٧/ ١٢) في ١٦ صفحة.
(ب) وبمكتبة الأوقاف العامة بالعراق برقم (٤٧٦٧/ ٢٥ مجاميع) في ٨ صفحات.
(ج) وفي مكتبة شهيد علي ضمن السليمانية نسخة برقم (٥٤٣/ ٣) في خمس ورقات منسوخة في حياة الحافظ ابن رجب سنة ٧٨٧هـ.
(د) وفي مكتبة فاتح بالسليمانية باستنبول برقم (٥٣١٨) في ١٧ ورقة.
(هـ) وفي مكتبة جامعة جوتا بألمانيا برقم (٦٣٩)، وعنها صورة بالجامعة الإسلامية بالمدينة رقمها (٦٦٦) (٥٢ ــ ٥٩).

الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وحسن عبادتك، وأسألك قلبًا سليمًا ولسانًا صادقًا، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم...» الحديث رواه أحمد والترمذي والحاكم وصححه. على منهج شروحه السابقة.

٢٤ ـ **«شرح حديث عمار بن ياسر»**: مطبوع.

وهو: **«اللَّهمَّ بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيرًا لي، وتوفني ما علمت الوفاة خيرًا لي...»** الحديث رواه أحمد والنسائي وغيرهما. وله نسخة بالوطنية بتونس برقم **١٥٧** مجموع، وانظر فهرس المجاميع لها ١/ ٤٧.

٢٥ ـ **«نزهة الأسماع في مسألة السماع»**: مطبوع.

تكلم فيه عن حكم سماع الغناء واللهو، وفصّل الحكم فيه. وحكم سماع الآلات على طريقة أصحاب الطرق بالتقرّب بها إلى الله. وله نسخة خطية في تشستربتي برقم **٤٢٤٢** في ١٧ ورقة من القرن التاسع الهجري.

٢٦ ـ **«شرح حديث: ما ذئبان جائعان...»**: مطبوع[1].

---

(١) مخطوطاته في:
(أ، ب) الإفتاء برقم (٦٣٣) في (١٤ ق)، ورقم (٦٨٦) في (١٠ ق)، وعنها فلمان بجامعة الملك سعود.
(ج) وفي خزانة فاتح برقم (٥٣١٨) في ١٦ ورقة.
(د، هـ) والأوقاف العامة برقم (٦٦٨٥/ ٢) ص ١٤ ق، ورقم (٧/٧٠٠٢) في ١٧ ورقة مكتوبة سنة ١٢١٧هـ.
(و) وفي المكتبة العامة بشقراء ضمن مجموع (٢٢/ رقم ٦)، وهي ضمن مكتبة =

ويسمى «ذم الجاه والمال»، ذم فيه الدنيا، وطلب المال والشرف فيها وفصَّل في أنواع تلك المسالك، ورغب في الزهد والقناعة.

٢٧ ـ «**شرح حديث: يتبع الميت ثلاث...**»: مطبوع ومحقق.

وهو حديث أنس رضي الله عنه في الصحيحين، وهذه الثلاث هي: الأهل والمال، والعمل، فزهَّد في الأول والثاني، ورغَّب في استغلال الثالث؛ لأنه الباقي، ورغب في المبادرة إلى الأعمال الصالحة.

ومن نسخة غير المعتمدة في التحقيق ما في مجموع الوطنية بتونس ١٥٧ (٦٢ ـ ٦٦):

ـ «**شرح شعب الإيمان**» أو «**رسالة في شعب الإيمان**»[(١)].

= الملك فهد الوطنية.

(ز) وفي دار الكتب المصرية برقم (١٥٠٩).

(ح) وفي الأمبروز يانا بإيطاليا برقم (١٦٦٠) ضمن مجموع (١٥٨ ـ ١٦٧ ق).

(ط) وضمن مجموع الأئمة الدعوة، في ٦ ورقات بخط الشيخ عبد العزيز بن مرشد سنة ١٣٣٤هـ بخط نسخي حسن دقيق في كل صفحة ٣١ سطرًا.

(١) هذه الرسالة مخطوطة في مجاميع مكتبة الأوقاف ببغداد برقم (٤٧٦٧/٢٦) في ١٢ صفحة، ولم يذكرها أحد بهذا العنوان أو قريبًا منه ممن ترجم لابن رجب، لذا فربما تكون مستلة من أحاديث جامع العلوم والحكم المشروحة وبالتحديد حديث أبي هريرة في شعب الإيمان برقم (١٥)، أو هو شرح لغيره نسب إليه سهوًا. والله أعلم.

٢٨ ــ «**شرح علل الترمذي**»: مطبوع عدة طبعات.

وهو آخر أجزاء شرحه لجامع الترمذي الذي وصف أنه في عشرين مجلدًا. فهذا الجزء تعلق بشرح علل الترمذي في آخر الجامع.

وهو من كتب العلل المهمة في بابه.

ومن مخطوطاته:

(أ) ما في دار الكتب المصرية برقم **٤٩** مصطلح. فيها **١٣٦** ق سنة **٨٩٩**.

(ب) وثانية في متحف طبقوسراي في مكتبة أحمد الثالث برقم **٥٣٢** فيها **١٥٩** ق.

(ج) وفي جامعة الإمام بالرياض برقم **٤٨٦٠** فيها **١٥٢** ورقة من القرن التاسع.

(د، هـ) وفي الظاهرية نسختان: ضمن مجموع **١٢٩** مكتوبة في حياة المؤلف وبخطه. وفي **٤٠٥** حديث (**١١١ ــ ٢٠٠**) لكنها ناقصة من أولها.

(و) وفي متحف طبقوسراي نسخة في **١٥٩** ق برقم (**٢٥١٩**).

(ز) وفي جامعة الملك سعود (**٧٧٢**) قطعة من هذا الشرح.

٢٩ ـ «**غاية النفع في تمثيل المؤمن بخامة الزرع. . .**»[1]: مطبوع عدة مرات.

وهو على حديث أبي هريرة في الصحيحين، وفيه تمثيل المؤمن بخامة الزرع، من حيث أتتها الريح كفأتها، فإذا اعتدلت تكفأ بالبلاء. والفاجر بالأرز الصماء حتى يقصمها الله إذا شاء.

٣٠ ـ «**فتح الباري شرح صحيح البخاري**»: مطبوع طبعتين.

هذا الكتاب شرع فيه ابن رجب في شرح البخاري ولكنه مات ولم يتمه، وقف فيه على كتاب الجنائز. وفيه يأتي إلى ترجمة البخاري فيورد الحديث بإسناد البخاري ثم يعقبه بشواهده والروايات الأخرى له من أوجه متعددة مع العناية بالصناعة الحديثية بالتخريج والكلام على الرواة والمتون نقدًا وشرحًا، ثم يتطرق للمسائل الفقهية العلمية التي دل عليها الحديث وربما حرر فيها مواطن الخلاف، مع العناية بأقوال السلف، والموازنة بين المروي

---

(١) له أربع نسخ خطية:

١ ـ عن مكتبة الرياض السعودية بالإفتاء برقم (٥٢٧) في ٦ ورقات.

٢، ٣ ـ عن مكتبة جامعة الملك سعود برقم (١٦٣٧/ ١٣) في ٦ صفحات، وأخرى في ٤ ورقات برقم (٥٦/ ١٦).

٤ ـ عن خزانة فاتح بالسليمانية برقم (٥٣١٨) في ٩ ورقات.

وخامسة ضمن مجموع عندي لأئمة الدعوة فيه ٥ ورقات بقلم نجدي معتاذ بخط سعد بن عبد الله الحميدي سنة ١٣٠٨هـ.

عنهم في الباب[1].

٣١ ــ «**الفرق بين النصيحة والتعيير**»: مطبوع.

رسالة فرّق فيها بين النصيحة عند السلف الصالح، وكيف تكون، والتعيير وما فيه من سوء أدب، وعدم بصيرة في الدعوة، وتطرّق إلى الغيبة وما يكون فيها من خصال النفاق، وهي رسالة مهمة في بابها!

وله نسخة خطية في مكتبة الأوقاف العامة ببغداد برقم ٧٠٠٢/ ٤ في ٧ ورقات منسوخة سنة ١٢١٧هـ وأخرى برقم ١٣٨٠٩/ ٣ في ٥ ورقات.

---

(١) لهذا الكتاب قطع:
ــ ففي دار الكتب الظاهرية بدمشق قطعة في ٢٠١ ورقة من (٥٠ ــ ٢٥١) ضمن الكواكب الدراري برقم (٣٧٧). وعنها صورة في مكتبة الرياض السعودية بدار الإفتاء برقم (١١٠)، من أول كتاب الغسل إلى أبواب سترة المصلي.
ــ وقطعة منها برقم (٩٤١٤) عام، فيها ٢٠ ورقة.
ــ وفي دار الكتب المصرية نسخة من أول كتاب مواقيت الصلاة إلى كتاب الكسوف رقمها (٣٨٩) حديث تيمور. وعنهما قطعتان بمكتبة الحرم المكي أفلامهما برقم (٣٦٧٧) في ٩٥ ورقة، ورقم (٣٦٧٩) في ٢١ ورقة..
ولم أقف على أول الشرح فيما عندي من القطع.
ــ وفي جامعة الإمام ثلاث قطع عن الظاهرية هي: الأولى في ٢٠ ورقة عن الظاهرية برقم (٩٤١٤ حديث)، والثانية في ٢٥٠ ورقة عنها برقم (٥٧٣) في سنة ٨٢٨هـ، والثالثة في ٢٦٨ ورقة عنها برقم (٥٧٤ حديث) مكتوبة سنة ٨٢٨هـ أيضًا.
ــ ونسخة ضمن المجموع المذكور قبل من «غاية النفع» من ٨ ورقات بقلم نجدي أولها بخط الحميدي والثاني لعله بخط الشيخ عثمان بن منصور.

٣٢ ـ «**فصل في وجوب إخراج الزكاة على الفور**»: مطبوع.

موضوعها يدل عليها، حيث بدأ بروايات الإمام أحمد في المذهب في حكم تقديم الزكاة وتأخيرها، ثم قارنه بما عند المذاهب الثلاثة الأخرى.

٣٣ ـ «**فضل صدقة السر أو صدقة السر وفضلها**»: مطبوع.

وهو فصل قصير جدًّا في فضل صدقة السر، ومسألة الزكاة وأيهما أفضل أن تكون سرًّا أو جهرًا.

٣٤ ـ «**فضل علم السلف على علم الخلف**»: مطبوع مرات.

رسالة نفيسة، أبرزت منهج الحافظ، ونظرته إلى السلف الصالح بقوة، وتسمى في بعض النسخ الخطية «**الفرق بين العلم النافع والضار**».

بيَّن فيها خصائص العلم النافع وآثاره، وتطرق إلى أنواع العلوم المحدثة وأثرها على أهلها؛ وكيف فاق علم السلف غيرهم لورعهم وصلاحهم وصفات علومهم.

ومن نسخها الخطية:

(أ) نسخة في مكتبة شقراء العامة برقم **٢٢** مجموع وهي ضمنه رقم **٥**.

(ب) وأخرى باسم «**بيان فضل علم السلف**» في تشستربتي برقم **٣٢٩٢/ ١** (١ ـ ١٨) من القرن الثامن الهجري:

(ج) وثالثة في مكتبة الأوقاف العامة ببغداد برقم **١٦/٤٧٦٧**:

(د) ورابعة فيها برقم **١٣٨٠٩/ ٣** في **١١** ورقة:

(هـ) وخامسة فيها برقم ٢/١٣٨٠٩ مهداة من مكتبة حسن الأنكرلي في ١١ ورقة، بكل صفحة ٢١ سطرًا.

(و) وسادسة في مجاميع الوطنية بتونس برقم ١٥٧ (٥١ ـ ٦٠).

٣٥ ـ **قاعدة رؤية هلال ذي الحجة «رسالة في غم هلال ذي الحجة»**(١): مطبوعة.

سببها ما وقع سنة ٧٨٤هـ من غم هلال ذي الحجة حتى أكمل الناس شهر ذي القعدة ثلاثين، ثم تبين رؤية الهلال بعد ذلك، ولم يقبل الحاكم شهادة من رآه فأشكل عليه يوم عرفة والعيد، فكتب الشيخ القاعدة مبينًا صورها المحتملة وحكم كل صورة.

٣٦ ـ **«القواعد الفقهية» أو «قواعد الفقه الإسلامي»**(٢): مطبوع

---

(١) لها ثلاث نسخ:
١ ـ ففي مكتبة الرياض السعودية بالإفتاء نسخة رقمها (٥٢٧) في ١٢ صفحة.
٢ ـ وبجامعة الملك سعود بالرياض نسخة رقمها (٣/١٨١٧) في ٨ صفحات.
٣ ـ وفلم رقمه (١٦/٥٦ ق) في ص ٥ ورقات، ولعله صورة عن نسخة الإفتاء.

(٢) وهو كتاب مهم في موضوعه، كبير في حجمه، جدير بعناية طلاب الدراسات العليا. وله عدة نسخ:
١ ـ منها نسخة في دار الإفتاء بالمكتبة السعودية بها برقم (٤٣١) في ٢١٩ ورقة.
٢ ـ وفي جامعة الملك سعود بالرياض برقم (٦/٤٠ س) في ٥٣٦ صفحة.
٣ ـ وفي مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى بمكة فلم مصور عن بانكبور بالهند رقمه (١٨٨١). =

قديمًا .

وربما سمي «**تحرير الفوائد وتقرير القواعد**» .

وقد سبق الكلام عليه في مكانة الحافظ الفقهية فراجعه . وهو قيد التحقيق في أطروحات علمية بكلية الشريعة بالرياض .

= ٤ ـ وفي الخزانة العامة للآثار الوقفية ببغداد برقم (١/٣٨٣٤ مجاميع) في ١٩٢ ورقة .

٥ ـ ونسخة في مكتبة الوطنية بعنيزة ، في الجامع الكبير بخط الشيخ منصور بن تركي بن حميدان التركي من عصريٍّ الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب ، في مجلد كبير .

٦ ـ وفي المكتبة السليمانية باستنبول ـ تركيا نسخة ضمن خزانة أسد أفندي رقم (٥٠٥) وهي نسخة نفيسة عليها خط المؤلف الحافظ ابن رجب ، وقد قوبلت على نسخته . قاله الزركلي في الإعلام .

٧ ـ وفي مكتبة الشيخ سليمان الصالح البسام بعنيزة نسخة بخط جيد لأحد تلاميذ الحافظ ابن رجب ، مقابلة على نسخة المؤلف في مجلد كبير فيه ٣٠٨ ورقات ، والآن العم قد توفي رحمه الله .

٨ ـ وفي استنبول خزانة ولي أفندي نسخة في مجلد كبير فيه ٣٤٣ ورقة برقم (١٤٢١) بخط الشيخ أحمد الفتوحي .

٩ ـ ولدى الشيخ صالح الأحمد الخريصي نسخة كاملة جيدة في مجلد ضخم بخط نجدي كتبه سعد بن سعد بن عنبر ، وقابله على نسخة جيدة .

١٠ ـ وترتيب القواعد حسب أبواب الفقه والرمز لها بحروف الجمل ، للقاضي ناصر الدين أبي عبد الله محمد المقدسي الحنبلي . كما وجدته في آخر المخطوطة ، وهي في ٤٤ لوحة .

ولهذا الكتاب مختصر اختصره الشيخ عبد الرزاق الحنبلي المقدسي (٨١٩هـ) في نحو خمسين ورقة .

٣٧ ـ «**القول الصواب في تزويج أمهات الأولاد**»: مطبوع، وهو ضمن مجموع الفاتح.

فيمن غاب أبو ولدها مدة طويلة، فتكلم فيها على زوجة المفقود وماله، وأم ولده، وما يتعلق بذلك من النفقة والزكاة، وأقوال علماء المذهب، وغيرهم في مسائل البحث.

٣٨ ـ «**كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة**»: مطبوع مرات.

شرح فيه حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا... «**بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء**». أخرجه مسلم. على نهج شروحه السابقة.

ومن نسخه الخطية:

(أ) نسخة ضمن مجموع رقم ٢٢ في مكتبة شقراء العامة، وهي ضمنه برقم ٧.

(ب) ونسختين في مكتبة الأوقاف ببغداد برقم ٧٠٠٢/ ٩، في ٨ ورقات و ٦٦٨٥/ ٥ في ٥ ورقات بخط عبد العزيز بن قاسم بن حميد سنة ١٢٨٦هـ.

(ج) وفي الملك سعود ٣٥٣٧/ ١١٣٤هـ (١٧ ـ ٢٣).

(د) وفي مكتبة جامعة قار يونس بليبيا برقم ١٩١٥ (٣٨ ـ ٤٧) ق.

(هـ) وفي مكتبة تشستربتي بجامعة الإمام نسخة في ٢٦٠ ورقة

بخط معتاد سنة ٨٣٠هـ في شوال منه رقمها ٣٢٦٧ بخط محمد بن محمد بن عمر الحنبلي.

(و) ونسخة في مكتبة الأوقاف العامة ببغداد برقم ٣٨٣٤/ ٢ في ٢٠٢ ورقة بخط عمر بن زكريا النجدي في كل صفحة ٢٧ سطرًا، ولها فلم بمركز البحث العلمي بمكة (٥) أصول.

(ز) وله نسختان مكتوبتان في حياة الحافظ هما:

١ ــ في المكتبة المحمودية بالمدينة برقم ١٤٠٥ في ٢٦٢ ق سنة ٧٨٨هـ.

٢ ــ وفي مكتبة أسعد أفندي بتركيا وبرقم ٥٠٥ في ٢٦٥ ق (٧٧٣هـ).

(ح) ونسخة في المحمودية برقم ١٤٠٧ ق ١٥٤ ق في كل صفحة ٣١ سطرًا بخط دقيق.

(ط) ونسخة بمكتبة الشيخ سليمان الحمدان بخطه سنة ١٣٣٩هـ فيها ٢١٢ ق في كل صفحة ٢٨ سطرًا.

وللأربع أفلام بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى ــ فقه حنبلي ــ أرقامها على الترتيب: ١٦٢ و ٢٧٠ و ١٦٣ و ٦٩.

٣٩ ــ «الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾»: مطبوع.

تكلم فيه على آية فاطر حيث دلالة (إنما)، وما يوجبه العلم من الخوف والخشية وحذر الجهل والذنوب والمعاصي وما يستلزمه العلم والجهل على صاحبه.

٤٠ ـ **«لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف»**[١]: مطبوع مرات.

كتاب ماتع في أسلوبه حوى فصولاً نافعة، وفوائد مهمة، جعله

---

(١) وله ثلاث نسخ بجامعة الإمام عن مكتبة تشستربتي:
١ ـ برقم (٥٠٥٠) في ٢٦٢ ورقة بخط واضح.
٢ ـ وبرقم (٤٨٨٦) في ٣١٢ ورقة بخط واضح لمحمد الجماعيلي في سنة ٩٠٥هـ.
٣ ـ وبرقم (٤٢٧١) في ١٤٠ ورقة بخط جيد منسوخ في ٢٢/ ١/ ٨٥٠هـ.
٤ ـ ورابعة في مكتبة الأوقاف العامة ببغداد برقم (١/٤٧٥٤) في ١٩٥ ورقة، وهي نسخة قديمة.
٥ ـ وخامسة بدار الكتب المصرية برقم (٢٢٩٥٣ ب) في ١٨٨ ورقة منسوخة سنة ٨٣٤هـ.
٦ ـ وسادسة بمكتبة الدولة ببرلين برقم (٣٨١٦).
٧ ـ وسابعة بالظاهرية برقم (٣٢١٩) عام، فيها ٢٣١ ورقة سنة ٨٤٣هـ.
٨ ـ وثامنة فيها برقم (٥٨٤٠) عام، فيها ١٩٦ ورقة في عام ٨٧٣هـ.
٩ ـ وتاسعة بالمكتبة السعيدية بالهند (٣١٦) في ٢٠١ ورقة، منسوخة في عصر المؤلف.
١٠ ـ وعاشرة في مكتبة الجامع الكبير بعنيزة لكن فيها سقط من آخره.
١١ ـ وفي مكتبة الشيخ عبد الله السليم رحمه الله نسخة في مجلد ضخم كامل، بقلم نجدي نسخ سنة ١٢٩٦هـ.
١٢ ـ ونسخة ضمن مكتبة المسجد النبوي بالمدينة في ١٨٣ ورقة، ضمن مجموعة الحصين بها. وغيرها كثير.

على الشهور فبدأ بالكلام على تعلّق العبادات بالحساب ثم وظائف الشهور وما فيها من مواسم الطاعات بدءًا من المحرم إلى ذي الحجة. مع تحقيق المسائل الخلافية وتحريرها، واعتماده على المنقول كتابًا وسنَّة وأقوالاً للسلف.

وقد استل منه كتاب طبع بعنوانين هما:

(أ) وظائف شهر رمضان.

(ب) بغية الانسان في وظائف شهر رمضان.

وهو مناسب للوعّاظ والمذكرين، ولقراءته على جماعة المساجد في حال اجتماعهم وفي المناسبات، كشهر رمضان والحج والمحرم.

٤١ ــ «**معاملة الظالم السارق عند أهل المعرفة والحقائق**»: مطبوعة.

رسالة صغيرة في النهي عن سب الظالم لنفسه والدعاء عليه، وفيه الصبر على المظالم. وتسمى: «**مختصر فيما روي عن أهل المعرفة والحقائق في معاملة الظالم السارق**».

ولها نسخة أخرى لم تعتمد في التحقيق في الوطنية بتونس برقم (١٥٧) (٦١ ــ ٦٢).

٤٢ ـ «**المحجة في سير الدلجة**» أو «**بيان المحجة. . .**»[(١)]: مطبوع عدة مرات.

شرح فيه الحافظ الحديث الذي رواه البخاري: «**لن يدخل أحدكم الجنة بعمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله. قال: ولا أنا إلَّا أن يتغمدني الله برحمته. سددوا وقاربوا، واغدوا وروحوا، وشيء من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا**» عن أبي هريرة رضي الله عنه على نحو ما سبق من أحاديث.

٤٣ ـ «**نور الاقتباس من مشكاة وصية النّبي ﷺ لابن عباس**»[(٢)] رضي

---

(١) للكتاب عدة نسخ خطية:
١ ـ في المكتبة السعودية بدار الإفتاء برقم ٦٨٦ في ١٧ ورقة.
٢، ٣ ـ وبجامعة الملك سعود نسختان برقم (٢٢٥٢) في ٨ ورقات، ورقم (٢/١٦٣٧) في ١٤ ورقة.
٤ ـ وفي مكتبة الأوقاف العامة ببغداد نسختان برقم (٧/١٣٨٠٩) في ١٢ ورقة.
٥ ـ وهذا المجموع يحتوي أيضًا رسائل عديدة لشيخ الإسلام ابن تيمية، وبرقم (٢٠/٤٧٦٧) في ثماني صفحات.
ونسخة ضمن مجموع بخط الشيخ عبد العزيز بن المرشد سنة ١٣٣٤هـ في ٦ ورقات فيها ٣١ سطرًا.

(٢) لنور الاقتباس عدة نسخ:
١ ـ فبمكتبة الرياض السعودية بدار الافتاء برقم (٥٢٧) في ٢٧ ورقة.
٢ ـ وبجامعة الملك سعود برقم (٨/١٦٣٧) في ٣٢ صفحة.
٣ ـ وبجامعة الإمام برقم (٢/٤٧٦١) (١٣ ـ ٤٦).
٤ ـ ونسخة رابعة في تركيا بالمكتبة السليمانية خزانة فاتح برقم (٥٣١٨) في ٤٥ ورقة.
٥ ـ وخامسة في مكتبة شقراء العامة ضمن مجموع ٢/٢٢، وهي في مكتبة =

الله عنهما: مطبوع.

وهو حديث ابن عباس رضي الله عنهما لما كان رديف النّبي ﷺ على حمار فقال له: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله**...» الحديث المشهور، وهو على نحو الشروح السابقة.

٤٤ ــ «**اختيار الأبر في سيرة أبي بكر وعمر، أو الأبرار في سيرة**...»[1]: مطبوع.

تكلم فيه عن سيرة الشيخين بشيء من الاختيار والاختصار. وهو جزء من كتاب له عن الأئمة الأربعة الخلفاء. قد يكون مقدمته.

= الملك فهد الوطنية.

٦ ــ وسادسة في مكتبة تشستربتي برقم (٤٩٥١/ ٢) (١٢٤ ــ ١٦٢) منسوخ في ٢٩/ ١/ ٨١٦هـ.

٧ ــ وسابعة في الجامع الكبير بصنعاء برقم (٢٤٦) (٢٠٣ ــ ٢٢٠)، سنة ١٦٠.

٨ ــ وفي جامعة قار يونس برقم (١٩١٥) في (٣٦ ق)، سنة ١٢٣٢هـ.

٩ ــ وفي جامعة برنستون ــ يهودا برقم (٧٢٣) ضمن مجموع نسخ سنة ٨١٦هـ (١١٧ ــ ١٤٧).

١٠ ــ وفي جامعة بيك برقم (٦٧٣) (٣٦ ق)، سنة ١١١٩هـ.

١١ ــ وفي المكتبة الصالحية بعنيزة نسخة بخط شيخ مشايخنا: علي بن ناصر بن وادي (١٣٦١هـ) بخط حسن.

(١) نسخة واحدة محفوظة بمكتبة الدولة ببرلين برقم (٩٦٩٠)، وربما يكون عند مركز الملك فيصل للدراسات الإسلامية بالرياض صورة فلمية عنها؟

٤٥ ــ «**ذم الخمر وشاربها**»[1]: مخطوط.

وهو شرح لحديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا: «**الخمر أم الخبائث**» على منهاج الشروح السالفة.

٤٦ ــ «**رسالة في تعليق الطلاق بالولادة**»[2]: مخطوط.

٤٧ ــ «**رسالة في فضيلة شهر رجب**»[3]: مخطوط.

٤٨ ــ «**رسالة في معنى العلم وأنواعه**»: مخطوط.

لعلها كتابه «فضل علم السلف على الخلف» والذي ربما يسمى «الفرق بين العلم النافع والعلم الضار». وهذه الرسالة في جامعة لايبزك بألمانيا برقم ٤٦٢. وربما هي شرح لحديث أبي الدرداء رضي الله عنه في «**من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا**».

وفي جامعة الرياض (الملك سعود) نسخة برقم ١٦٣٧/ ٧ م في ١٩ ص سنة ١٣٣٣هـ بعنوان: «مختصر في معنى العلم وانقسامه إلى علم نافع وغير نافع».

---

(١) نسخة واحدة ضمن مجاميع خزانة الفاتح بالسليمانية باستنبول برقم (٥٣١٨) في ٧ ورقات.

(٢) نسخة واحدة ضمن مجاميع خزانة الفاتح بالسليمانية باستنبول برقم (٥٣١٨) في ٧ ورقات.

(٣) نسخة وحيدة في مكتبة الأوقاف العامة ببغداد برقم (١٣٨٠٣/ ٢) في ٤ صفحات، أولها: «كم اختلق الكاذبون على النّبي ﷺ، وكم وصفوا بالأباطيل والمناكير...» وربما تكون مستلة من لطائف المعارف في فضل شهر رجب منه!

٤٩ ـ قطعة من شرحه لجامع الترمذي: مخطوطة.

وهي ورقات في كتاب اللباس بقيت من عشرين مجلدًا هي مجموع شرح الحافظ لجامع الترمذي، وهذه الورقات في المكتبة الظاهرية بالشام؛ عليها تملك الشيخ يوسف بن عبد الهادي، وهي بخط الحافظ ابن رجب، كما قاله ابن عبد الهادي، وستجدها كاملة ملحقة بالكتاب مصورة بخطه رحمه الله، وهي غير شرحه للعلل. وقد أحال الحافظ إلى شرح الترمذي في كتابه اختيار الأولى ص ٧ وفي فتح الباري ٣٠٧ ق التيمورية، وفي غيرهما.

٥٠ ـ «شرح حديث أبـي أمامة: «إن أغبط أوليائي عندي...»[١]: مخطوط.

وهو على نمط شروحه للأحاديث السابقة.

٥١ ـ «شرح المحرر في الفقه»: مخطوط.

وهو المحرر في الفقه للمجد ابن تيمية جد الشيخ تقي الدين ابن تيمية. وعندي منه ورقات هي شرح لبعض عباراته.

عن نسخة بجامعة الإمام برقم ٥/٤٧٦١ من (١٦١) إلى آخر المجموع.

---

(١) ـ نسخة في مجموع الفاتح بالسليمانية باستنبول برقم (٥٣١٨) في ٢٤ ورقة.
ـ وأخرى بالمكتبة الوطنية بتونس برقم (١٥٧ مجموع).

٥٢ ـ «مقدمة تشتمل على أن جميع الرسل كان دينهم الإسلام»:
مطبوعة بعنوان: «**جميع الرسل كان دينهم الإسلام**».

عن أصل بدار الكتب المصرية رقمه **١٣٧٩** علم كلام وسببها تأليفها كما في آخرها ص **٥٦** قول الحافظ:

«وكان المقصود من ذكر هذه المقدمة أن وقع السؤال عن جماعة من شيوخ الرواية الذين أدركناهم بالسماع والإجازة بالشام ومصر، وعن شيء من رواياتهم العالية، وكأن السائل قدره أعلى من أن يُسلك من المسلك المعتاد من الاقتصار على ذكر الإسناد، فإن ذلك يقع كثيرًا لمن يقنع بظواهر الرسوم دون حقائق الإيمان والعلوم، فذكرنا قبل ذلك هذه المقدمة لتكون الأشياء مبنية على أصولها، وليبن بذلك مقصود الرواية وأنها وسيلة إلى الدراسة». اهـ.

ـ وبناءً على إسناد الحافظ ابن حجر للحافظ ابن رجب كتاب المشيخة، وكذا البرهان ابن مفلح في المقصد الأرشد، والنعيمي في تاريخ المدارس، واعتبار ابن قاضي شهبة أن للحافظ ابن رجب حاشيةً على مشيخة والده الشيخ شهاب الدين أحمد بن رجب.

أرجح أن هذه المقدمة، هي لهذه «المشيخة» أو «الحاشية»؛ لعدة اعتبارات، أهمها:

(أ) كونها مقدمة، وليست مقصودة لذاتها.

(ب) ما تضمنته من الكلام على أنواع التحمل، وأنواع الإجازات وآدابها، واعتبارها من باب الرواية والدراية.

(ج) مضمون ما ذكره الحافظ في سبب تأليف هذه المقدمة، ومقصودها، وهي ما سبق إيرادها.

(د) هذه المباحث المتضمنة بالمقدمة هي ما يناسب للمحدث الفقيه طرحها في تقدمة مشيخته أو مسموعاته أو مجازاته.. وهو الظن بالحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله.

٥٣ ــ «شرح حديث: مثل الإسلام الذي ضرب النّبي عليه الصلاة والسلام»[(١)]: مطبوع.

وهو على منهاج الشروح السابقة. شرح فيه حديث النواس رضي الله عنه مرفوعًا: **«ضرب الله مثلاً صراطًا مستقيمًا وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داعٍ... والصراط: الاسلام، والسوران: حدود الله، والأبواب الفتحة: محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله...»**، الحديث رواه أحمد والنسائي والترمذي وغيرهما.

(١) ــ ضمن مجموع خزانة الفاتح بالسليمانية باستنبول برقم (٥٣١٨) في ١٠ ورقات. وهذا المجموع مكتوب بخط الشيخ عيسى بن علي بن محمد الحوراني الشافعي في سنة ٨٩٣هـ كما جاء في آخر المجموع.
ــ وثانية في الوطنية بتونس برقم (١٥٧) (٧٠ ــ ٧٦).

٥٤ ـ «فائدة لابن رجب حول حديث النزول»[١]: مخطوطة.

وهذه الفائدة أظنها مأخوذة من شرح للبخاري، فهي مضمنة ضمن مجموع في جامعة الملك سعود برقم ٩/٤٦٤٦، وهي حكاية أقوال العلماء من علماء السلف في معنى النزول. بقدر صفحة ونصف.

٥٥ ـ «الرد على من اتبع غير المذاهب الأربعة»: مطبوع.

رد فيه دعوى التمذهب بها، دفعًا للتقليد، مبينًا رجوح مصلحة اتباعها، كاجتماع الصحابة على مصحف واحد دون غيره، محتمًا التمذهب بها على العوام والطلاب، خلا من بلغ مكانه في العلم شأوًا يمكنه من الاجتهاد والترجيح. خاتمًا له بوصايا لطالب العلم، أبلغ فيها في النصح.

٥٦ ـ «فضائل الشام»[٢] ويسمى «كفاية ـ أو حماية ـ الشام بما فيه من الأعلام»: مخطوط.

وأظنه ـ مع بيان فضائل الشام ـ حوى تراجم علمائه كما يفيده العنوان.

---

(١) هذه الفائدة ضمها هذا الكتاب في الفصل الثالث، في اعتباره أقوال السلف.

(٢) ـ هذا الكتاب أصله محفوظ بالمكتبة البلدية العامة بالاسكندرية بمصر برقم (١٠٨ تاريخ)، وبرقم (١٣٥١) في البلدية العامة في ٦٠ ورقة، وعنه فلم بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالقاهرة برقم (٣٣٣).
ـ ونسخة أخرى مكتوبة في آخر حياة الحافظ سنة ٧٩٢هـ بمكتبة خراجي أوغلي ضمن السليمانية برقم (١٠٥).

٥٧ ــ «**كتاب الاستغناء بالقرآن في تحصيل العلم والإيمان**»:

وهـذا الكتـاب ذكـره صـاحـب كشـف الظنـون ١/ ٧٩ وهـديـة العارفين ١/ ٥٢٧ ومن قبلهما. ولما يوجد؟

لكـن يـوسـف بـن عبـد الهـادي فـي كتـابـه «**هـداية الإنسـان فـي الاستغناء بالقرآن**» لخّصه فيه. والكتاب في الظاهرية رقم ٦ تصوّف و ٥٦ ق. وفي فهرس الظاهرية ص ٢١، ذكروه فيها بـرقـم ٣٤٥ عـام فيـه ٢٧٧ ورقـة منسـوخ سنـة ٨٧٧ فـي حيـاة مؤلفه، وله صورة بالجامعة الإسلامية بالمدينة برقم ٢٢٠٦. وقد ذكره الحافظ في كتابه الذل والانكسار ص ٤٨، وكتاب ابن عبد الهادي ماتع جدًا، ليت أحد الباحثين يفطن له ويعتني به.

❊ ❊ ❊

وهناك كتب ذكرها المترجمون كابن عبد الهادي وابن حميد في السحب الوابلة وغيرهما، هي:

٥٨ ـ **«الأحاديث والآثار المتزايدة في أن طلاق الثلاث واحدة»**:

ويسمى: **«مشكل الأحاديث الواردة أن الطلاق الثلاث واحدة»**.

وسمى أيضًا: **«سير الحاث إلى علم الطلاق الثلاث»**.

٥٩ ـ **«إزالة الشنعة عن الصلاة بعد النداء يوم الجمعة»**: وهو جزء ويسمى: **«الصلاة يوم الجمعة بعد الزوال قبل صلاة الجمعة»**. ألفها في الجواب عما اعترض به على جزئه الذي سماه في الفتح:

٦٠ ـ **«نفي البدعة عن الصلاة يوم الجمعة»**: وقد ذكرهما الحافظ نفسه في **«فتح الباري»** له على البخاري في شرحه لكتاب الجمعة، آخر باب الصلاة بعد الجمعة وقبلها، من نسخة التيمورية ورقة **٣٤٩**.

٦١ ـ **«مشيخة ابن رجب»**: والمشهور أنها لأبيه أحمد ابن رجب(١)، ولكن ذكرها منسوبة له الحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة،

---

(١) ومما قد ينسب إلى أبيه كتاب «التسهيل والتقريب في معرفة الحل والتركيب» في الفلك والهيئة، وهي خطية في مكتبة تشستربتي برقم (٤٧٢٦) في (٤٩ ق)، ولكنها في الواقع لأحمد بن رجب ابن المجدلي (٨٥٠هـ). والله أعلم.

والنعيمي في الدارس ١/ ١٢٣، وابن مفلح في المقصد الأرشد ٢/ ٣٠٧. لكن ذكر ابن قاضي شهبة (٨٥١هـ) من تاريخه[١] أن للحافظ حاشية على مشيخة والده، فقال في حوادث سنة ٧٥٦هـ في ترجمة أبي عمرو عثمان بن يوسف الأنصاري النويري المالكي قال: «ورأيت بخط الحافظ زين الدين ابن رجب على حاشية مشيخة والده: وصح عنه أنه قال: لم يكتب الملك عليَّ كذبة قط ولا كبيرة...». اهـ[٢].

٦٢ ـ «**الاستيطان فيما يعصم من الشيطان...**» أو: فيما يعتصم به العبد من الشيطان.

٦٣ ـ «**إعراب أم الكتاب**»: في مجلد. ولعله كتاب الفاتحة، وقد سمعت أنه مطبوع بالكويت! ولم أره، فالله أعلم.

٦٤ ـ «**إعراب البسملة**».

٦٥ ـ «**الإيضاح والبيان في طلاق الغضبان**».

٦٦ ـ «**كتاب السليب**».

٦٧ ـ «**صفة الجنة، وصفة النار**». وربما يكون بعض كتابه: التخويف من النار؟

٦٨ ـ «الإلمام بفضائل بيت الله الحرام».

٦٩ ـ «الكشف والبيان عن حقيقة النذور والإيمان».

---

(١) تاريخ ابن قاضي شهبة ٢/ ٨٦.

(٢) تاريخ ابن قاضي شهبة ٢/ ٨٦.

٧٠ ــ «وقعة بدر».

٧١ ــ «مناقب الإمام أحمد بن حنبل».

٧٢ ــ «شرح مولدات ابن الحداد في الفقه».

وهو عبد الباقي بن حمزة ابن الحداد الحنبلي (٤٩٣هـ). انظر: ترجمته من ذيل ابن رجب ٣/ ٩٠.

٧٣ ــ **«أحاديث حول هدم القباب والبنايا على القبور، والنهي عن ذلك وتحريمه»**: مخطوط.

وقد فرحت به واطلعت عليه بجامعة الملك سعود برقم ٣٤١٣/ ٩ فإذا هي صفحات بها كلام مجتمع لجماعة من أئمة الدعوة مثل: الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف والشيخ سعد بن عتيق والشيخ سليمان بن سحمان والشيخ محمد بن إبراهيم. وليس فيه لابن رجب شيء لا من قريب ولا من بعيد وهو من ص (٣٤١ ــ ٣٤٨)، وهو خطأ من المفهرسين بالمكتبة! والمجموع كله فيه رسائل متنوعة لأئمة الدعوة تحوي ١٣ رسالة، ومنها رسالة لابن رجب في شرح حديث عمار بن يسار: «**اللَّهمَّ بعلمك الغيب**». والمجموع منسوخ سنة ١٣٤٣هـ بخط عبد الله الربيعي رحمه الله.

٧٤ ــ **«الكافية»**: مخطوط.

في مكتبة الافتاء، ولما وقفت عليه إذا هو الكافية الشافية «نونية ابن القيم»، وقد نسبت إليه خطأ.

٧٥ ـ **«مولدات في فضائل الشهور»**: ذكره بعض مترجميه، يغلب على ظني أنه «لطائف المعارف» أو بعضه.

٧٦ ـ **«جزء في محمد بن سلام البيكندي»**: ذكره الحافظ في فتح الباري ٢/ ٢٨٨ في مناسبة البحث في ضبط اسم أبيه «سلام» هل هو مخفف أو مشدد؟ وأن الأصح كونه بالتشديد.

هذه مؤلفات الحافظ ابن رجب الحنبلي، ومنها ما نسب إليه خطأ وليس له، وربما هناك غيرها مما لم أقف عليه أو على إشارة له مما قد يوجد في خبايا المكتبات الخطية العامة والخاصة، وهو ليس ببعيد، أو ربما ذهب بعضها في فتن أو حريق كما حصل لشرحه الكبير على جامع الترمذي.

وربما بعضها يستل من كبار مؤلفاته ويطبع مستقلاً فيظن أنه مصنف مستقل وليس كذلك.

وربما ينسب إليه ما ليس له، إما تصحيفًا[1] أو وهمًا أو ذهولاً.

---

(١) ومن ذلك كتاب **«الزبدة في الأصول لطالب الوصول»** لابن رجب الطوفي الشافعي شهاب الدين (ت ٨٩٣هـ) في مكتبة تشستربتي بدبلن برقم (٣٤٦٩/ ٢)، وهو نظم لورقات الجويني.
وأيضًا **«شرح سنن ابن ماجه»** وهو لمحمد بن رجب الزبيري القاهري الشافعي (٨٤٦ ـ آخر القرن) ترجمة الشوكاني في الضوء اللامع ٧/ ٢٤٣. وهو من موارد السندي في شرحه لابن ماجه.

ولعل أحدًا من الكرام يقع على شيء من مؤلفاته الأخرى فيرشدني إليها مشكورًا، وهناك جهود مستحبة لجمع شتات مؤلفات هذا العَلَم رحمه الله في مجموعة واحدة، كلّلها الله بالتوفيق والسداد، ونفع بها بالاطراد. آمين.

❋ ❋ ❋

البابُ الأوّل

الأُصُولُ العامّة لمنهج الحافظ ابن رجب الحنبلي في التلقي والاستدلال

وفيه فصول:

الفصل الأول: مصادر تلقي العقيدة عند الحافظ ابن رجب ومنهجه في الاستدلال، منها:

- الكتاب.
- السنة.
- الإجماع.
- الفطرة.
- دلالة التفكر والنظر.

الفصل الثاني: منهجه في بعض وسائل فهم الكتاب والسنَّة:

- أقوال السلف.
- العقل ودوره.
- الربط بين العلم والعمل.

الفصل الثالث: موقفه من المخالفين لمنهج السلف:

١ ـ أهل الشرك والنفاق.

٢ ـ مناهج المتكلمين.

٣ ــ أهل الابتداع.

٤ ــ نقده لأهل الغلو في الدين.

٥ ــ الوسطية والمنهج.

٦ ــ موقفه من المجاز.

٧ ــ التبرك.

٨ ــ قاعدة في مسائل الخلاف في الدين.

٩ ــ موقفه من التمذهب.

١٠ ــ موقفه من التقليد.

١١ ــ موقفه من التأويل والتفويض.

ملحق بموارده.

الباب الأول

هذا الباب بما يحويه من فصول هو منهج الحافظ عبد الرحمن بن رجب الحنبلي في العقيدة بدلائله.

فهو يجيب عن أسئلة مهمة في صلب المنهج:

ما هي مصادر العقيدة؟ وكيف استمداده منها؟

وما هي النظرة إلى المناهج المختلفة الموجودة؟

فالسؤال الأول إجابته تحدد الثوابت التي ترتكز عليها العقيدة، والتي تبعها بالديمومة، وتكون العقيدة موجودة بوجودها، وبالتالي منعدمة بانعدامها.

وهو ما أجاب عنه الفصل الأول من هذا الباب...

أما الشق الثاني من السؤال الأول المتصل بكيفية الاستمداد من تلك الثوابت «المصادر» فهو ما تناوله، بالدرجة الأولى، بطريقة مباشرة الفصل الثاني، وبطريقة غير مباشرة الفصل الثالث.

والسؤال الثاني تولى الفصل الثالث الجواب عنه.

وكان الكلام مقتصرًا على المجتمع الإسلامي بما فيه من مناهج وتوجهات تتمثل في أصولها:

ـ بمناهج المشركين وتبعهم المنافقون.

ـ ومناهج المتكلمين بمعناه العام الذي يضم معظمي العقل الآدمي، الجهمية والمعتزلة والأشاعرة والماتردية والكلابية. . .

ـ مناهج أصحاب الأذواق أو مدعي معرفة الحقيقة والصوفية بفروعها وصورتهم الواضحة.

ـ مناهج الغلاة والمتشددين في العقيدة، وينقدح في الذهن مباشرة الخوارج وأضرابهم.

وهذا الباب أظنه سيعطي صورة جلية عن منهج الحافظ في عقيدته أصالة من خلال صريح قوله، وواضح طريقته في التأصيل والدعوة لما يعتقده، فإن لم يعط ذلك فإنه يرسم الخطوط العريضة، والمعالم البارزة في منهجه.

ومن خلال النظرة النقدية الضدية للمناهج الأخرى التي تخالف ما هو عليه ويتبناه، وكما قيل:

الضد يظهر حسنه الضدّ   وبضدها تتبين الأشياء

ولعله بهذين المحورين تتضح لنا الأطر والأصول العامة والخطوط العريضة لمنهج الحافظ ابن رجب الحنبلي في العقيدة تلقيًّا واستدلالاً، والذي يمكن أن نسميه منهجه في «**الدلائل**».

وفي هذا كله سأحاول جعل عبارة الحافظ ذاته تتحدث عن المنهج؛ لأن كلامه رحمه الله المسطّر في كتبه وسيلتنا المستطاعة للتعبير بها عن منهجه، وما تقديمي وتعقيبي إلاَّ توضيح وتحليل لأصل كلامه؛ لنخرج بالنتيجة المبتغاة بتصوير منهجه العام في العقيدة.

الفصل الأول

مصادر تلقي العقيدة
عند الحافظ ابن رجب الحنبلي

الفصل الأول
مصادر تلقي العقيدة
عند الحافظ ابن رجب الحنبلي
ومنهجه في الاستدلال منها

إنه من خلال قراءة مؤلفات الحافظ، لا سيما التي تمس مسائل الاعتقاد، تبيّن لي اعتماده رحمه الله على المصادر الرئيسة والمعتبرة عند أهل السنَّة والجماعة في تلقي وفهم العقيدة، ثم العمل على مقتضاها.

وتلك المصادر هي أصول ديننا وشريعتنا، التي أنزلها الله علينا وتعبّدنا بها، وهي:

١ ـ كلام الله سبحانه وتعالى ووحيه وكتابه الذي أنزله تبيانًا لكل شيء وهدى ورحمة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يونس: ٥٧].

٢ ـ سنَّة رسوله ﷺ الصحيحة وهي وحيه الثاني، والحكمة التي نطق بها الرسول عليه الصلاة والسلام: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

٣ ـ ثم فهمهما بواسطة نقلتهما لنا، وهم الصحابة والتابعون وتابعوهم بإحسان، الذي حملوا لنا هذين الأصلين برمتهما وبلغوهما لنا، والذين هم أول المخاطبين بهما قبلنا. وهم الذين شهد لهم الرسول ﷺ بالخيرية المطلقة لمجموعهم في حديث ابن مسعود رضي الله عنه في الصحيحين أن النّبـي ﷺ قال: «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته**». وفيهما عن عمران بن حصين رضي الله عنهما أيضًا نحوه.

وبالتتبّع والاستقراء لم أجد كتابًا للحافظ ابن رجب الحنبلي إلاَّ وتضمن الاستدلال لما يقوله بآية من القرآن، أو حديث من سنَّة رسول الله ﷺ أو مستشهدًا بأقوال السلف الصالح؛ أقوله جازمًا فيما وقفت عليه من كتبه.

هذا وقد عرف الحافظ ابن رجب العلم النافع بأنه: المضبوط بنصوص الكتاب والسنَّة، والمأثور عن سلف الأمة الصالحين، فقال: «... فـالعلم النافـع من هذه العلوم كلها ضبط نصوص الكتاب والسنَّة، وفهم معانيها، والتقيّد في ذلك بالمأثور عن الصحابة، والتابعين، وتابعيهم، في معاني القرآن والحديث، وفيما ورد عنهم من الكلام في مسائل الحلال والحرام، والزهد والرقائق والمعارف وغير ذلك.

والاجتهاد على تمييز صحيحه من سقيمه أولاً. ثم الاجتهاد على الوقوف على معانيه، وتفهمه ثانيًا.

وفي ذلك كفاية لمن عقل، وشُغلٌ لمن بالعلم النافع عني واشتغل»[1]. اهـ.

وأكد هذا المنهج في موضع آخر، قال في كتابه «**استنشاق نسيم الأنس**»: «وقد استخرت الله تعالى في جمع ما ورد في الكتاب والسنَّة وكلام أئمة أعيان سلف الأمة ومن سلك سبيلهم من العارفين والأئمة في محبة الله...»[2].

ومن الملاحظ عليه رحمه الله التَّسليم التَّام للنصوص ومدلولاتها؛ بل يجعلها هي التي تجيب عن حكمه على المسائل.

كما يلاحظ عليه التأدّب التام مع نصوص الوحيين وتعظيمهما واحترامهما، فلا يقدم عليهما غيرهما أبدًا. مع تحذيره من ترك الاعتماد عليهما[3] وتشديده على أولئك.

وفي هذا وغيره تتضح لنا الصورة العامة لمصادر التلقي، وثوابت العقيدة عند ابن رجب الحنبلي.

مع الأخذ بالاعتبار أن السلف الصالح رحمهم الله لم يكونوا يفرقون بين الاعتقاد والأعمال أو مسائل الشريعة، حيث كانت كلها كلًّا لا يتجزأ، فما ورد عن الله وعن رسوله يجب العمل به واعتقاده أيًّا كان. ولذا لم يطرأ عندهم التفريق بين خبر وخبر، أو رد خبر لأنه جاء من طريق آحاد. وغاية ما عندهم التفصيل بين ما ثبت بطريق التواتر، الذي

---

(١) من كتاب ابن رجب «فضل علم السلف على الخلف»، ص ١٥٠.

(٢) من كتاب «الاستنشاق»، ص ٨٨.

(٣) كما سيأتي بيانه في الرد على المبتدعة في الفصل الثالث.

هو أعلى مراتب الثبوت والعمل، وما دون ذلك، ولا يؤثر هذا التفصيل في العمل شيئًا.

ومن تأصيل الحافظ ابن رجب لمنهج السلف الصالح في عدم التفريق بين ما جاء في الوحيين قوله في باب الصفات: «... والصواب ما عليه السلف الصالح من إمرار آيات الصفات، كما جاءت من غير تفسير[1] لها ولا تكييف، ولا تمثيل، ولا يصح عن أحد منهم خلاف ذلك البتة...»[2]. اهـ.

وسيأتي في المباحث بعده تناول هذا المنهج بالتفصيل، فإلى ذلك لنقف على أصول منهج الحافظ في العقيدة وطريقته في الاستدلال منها.

* * *

(١) من كتاب «فضل علم السلف على الخلف»، ص ١٣٩. وقوله رحمه الله «من غير تفسير» طار بها المفوضة، وليس لهم بها مستمسك والحمد لله؛ لأن التفسير عند السلف الصالح ــ وتبعهم ابن رجب ــ في معناه العام: بيان الكيفية، لا كما عليه الآن تحديد الاصطلاح ببيان المعنى دون الكيفية. وعليه يحمل كلامهم ولا بد، بدليل ما بعده، وبدليل منهجه في باقي صفات الله تعالى، وكما يقول الإمام مالك بن أنس: «الاستواء معلوم ــ أي معنىً ــ والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة».

(٢) نفس المرجع السابق.

أولاً :

الكتاب الكريم

اعتمد الحافظ ابن رجب الحنبلي على كتاب الله وكلامه ووحيه مصدرًا أساسًا وأوليًّا في استمداد المعتقد، وللاستدلال عليه، وهذا ظاهر في جميع مؤلفاته، فلا ترد مسألة في العقيدة ولا غيرها، ولها دليل من القرآن الكريم، إلاَّ ويورده أولاً ويقدمه على غيره مبتدئًا به، تعظيمًا لكلام الله وتعويلاً عليه بالدرجة الأولى، وعكسًا لأهمية القرآن العظمى في نفسه ونفوس متلقيه من المؤمنين.

وعن أهمية القرآن الكريم ـ وهو كلام ربنا وصفة من صفاته ـ في بيان العقيدة قوله رحمه الله: «والقرآن تذكر فيه أسماء الله وصفاته، وأفعاله، وقدرته، وعظمته، وكبرياؤه، وجلاله، ووعده ووعيده»[1]. اهـ.

وقد أشار إلى منهجه في الأخذ من القرآن واعتباره أصلاً، وإدامة النظر والتفكّر فيه، للهداية بنصوصه والاعتماد على السنَّة الصحيحة وأقوال وأحوال السلف بقوله: «. . . فمن تأمّل الكتاب الكريم، وأدار فيه فكره وجد من ذلك ـ أي من أخبار ـ المعاد العجب العجاب، وكذلك السنَّة الصحيحة التي هي مفسرة ومبينة لمعاني القرآن، وكذلك

(١) من كتابه نزهة الأسماع، ص ١٠٣.

سير السلف الصالح أهل العلم والإيمان من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، من تأمّلها علم أحوال القوم وما كانوا عليه. . . »[1].

وهو مع هذا إذا استدل لمسألة ما بآية من القرآن فإنه يجمع من الآيات الأخرى الشاهدة لها، والمُثنِّية بالدلالة على المسألة، ويكثر من سوقها، ليؤكد الدليل، وينوع التدليل عليه من ذات المصدر. وهذا المسلك موجود عند العلماء قبل الحافظ ابن رجب كما عند الشيخ ابن تيمية فإنه إذا استدل لكلام الله مثلاً جمع شواهد الآيات الدالة عليه من أكثر سور القرآن، ومثله ما عند قوام السنَّة الأصبهاني في «الحجة في بيان المحجة»، وغيرهما.

* منهجه في الاستدلال من القرآن الكريم:

صرح الحافظ رحمه الله بهذا المنهج الواضح وبيَّنه في قوله في كتابه «فضل علم السلف»:

« . . . فأفضل العلوم في تفسير القرآن، ومعاني الحديث، والكلام في الحلال والحرام، ما كان مأثورًا عن الصحابة والتابعين، وتابعيهم، إلى أن ينتهي زمن أئمة الإسلام المشهورين المُقتدى بهم. . . »[2]. اهـ.

ولذا سلك رحمه الله هذا المنهج في كتبه فجمع بين تقريره قولاً وعملاً، وهو أوضح الدلائل على تبنيه له.

هذا وقد ظهر لي من منهجه في الاستدلال من القرآن الأمور الآتية:

(١) من التخويف من النار، ص ٨.

(٢) كتاب فضل علم السلف على الخلف، ص ١٤٧.

ـ ١ ـ

تفسيره الآية (مصدر التلقي والاستدلال) بآية أخرى

لبيان معناها، بحيث تكون مفسرة لها ومبينة لوجه الدلالة منها، ومؤكدة لها ومُثنيِّه على الاستدلال منها. وهذا من باب تفسير القرآن بالقرآن؛ لأن كلام الله يصدق بعضه بعضًا، والأحكام والقصص فيه تتكرر كما قال عنه في سورة الزمر ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ الآية [الزمر: ٢٣].

وهذا المنهج بتفسير الآية بمثلها، منهج مقبول ومعتبر، بل ومعتمد عند أهل السنَّة والجماعة منذ الصدر الأول.

ومن شواهد هذا المسلك من كلام الحافظ ابن رجب قوله: «أما الأصل فهو أن عمل الإِنسان لا ينجّيه من النار، ولا يدخله الجنة، وأن ذلك كله إنما يحصل بمغفرة الله ورحمته. وقد دل القرآن على هذا المعنى في مواضع كثيرة، كقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وقوله:

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [التوبة: ٢١][1]. اهـ.

وكتبه مستطردة بهذا لا سيما في أوائلها عند إكثاره من حشد الآيات للدلالة على ما تدل عليه مما هو بصدده من تقرير المسائل وتوضيحها وبيانها.

* * *

(١) من كتاب الحافظ «المحجة في سير الدلجة»، ص ٢٥.

ـ ٢ ـ

تفسيره الآية بحديث رسول الله ﷺ

لأن السنَّة وحي ثانٍ، والرسول عليه الصلاة والسلام هو واسطة إبلاغ الوحي وهو ناقل القرآن إلى الناس، فهو أعلم الخلق بمعانيه، وأفصح العرب لسانًا، وأحسنهم بيانًا، لهذا كان حديثه وسنته أوضح بيان لفهم مراد القرآن، وهذا معنى قول العلماء: السنَّة مفسّرة للقرآن ومبينة له. قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [النحل: ٦٤].

وهذا أسلوب حصر في الآية فيه بيان الرسول ﷺ للقرآن المنزّل إليه من ربه. ولما في الحديث «**أعطيت القرآن ومثله معه**» يعني سنته.

والحافظ ابن رجب اعتمد هذا المنهج، فعمل به في مواطن كثيرة؛ يفسر الآية بحديث رسول الله ﷺ، وربما يقيد عمومها به، أو يحمل مطلقًا على مقيد الحديث، أو يبين معناها بما دل عليه الحديث. مع عنايته بالصناعة الحديثية فلا يفوت الحديث دون تعقيب عليه بتخريجه، وتصحيحه أو تضعيفه، أو الكلام على علله!

ففي تفسير سورة الإخلاص قال: «. . . وأما سبب نزولها ففي المسند والترمذي عن أبي سعيد الصاغاني محمد بن مبشر، عن

أبـي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبـي العالية، عن أبـيٍّ بن كعب رضي الله عنه أن المشركين قالوا للنّبـي ﷺ: انسب لنا ربك يا محمد؟ فأنزل الله ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ . . .﴾ [سورة الإخلاص]. ورواه الترمذي من طريق. . .»[1]. اهـ. ثم تكلم على طرقه ورواته من أصحاب الكتب، وحال كل طريق.

ومن شواهده أيضًا تفسيره لقوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۝٢٧﴾ [إبراهيم: ٢٧]، فسرها بما ورد في الصحيحين من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه عن النّبـي ﷺ، من أنها نزلت في عذاب القبر، زاد مسلم: «يقال له: من ربك؟ فيقول ربـي الله ونبيّـي محمد» فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. . . اهـ[2].

وهذا المسلك للحافظ له شواهده الكثيرة، التي تدل على اعتماده على سنَّة النّبـي ﷺ الصحيحة في تفسيره الآيات، وفي استدلاله منها على المقصود. بل صرح بذلك لما تعرض لقوله تعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، نقل قول الفضيل: «العلماء كثير والحكماء قليل. وقال: «الحكماء ورثة الأنبياء. فالحكمة هي العلم النافع الذي يتبعه العمل الصالح، وهي نور يقذف في القلب يُفهم بها معنى العلم المنزل

---

(١) من تفسيره لسورة الإخلاص، ص ٨٤ ــ ٨٥.

(٢) في أهوال القبور، ص ٦ ــ ٧، وانظر ص ١٠، ١٢، ١٣، ١٤.

من السماء، ويحض على اتباعه والعمل به، ومن قال الحكمة: السنَّة، فقوله حق؛ لأن السنَّة تفسّر القرآن، وتبيّن معانيه، وتحض على اتباعه والعمل به، فالحكيم هو العالم المستنبط لدقائق العلم المنتفع بعلمه بالعمل به...»[1]. اهـ.

* * *

(١) من كتابه لطائف المعارف، ص ١٦٨.

ـ ٣ ـ

تفسيره الآية بقول الصحابة رضي الله عنهم

وهم الذين لازموا النّبي ﷺ، فشاهدوا التنزيل، حين نزل، وفيمن نزل، ومعنى ما نزل، بل هم نقلته إلينا. وهم المخاطبون به أولاً وابتداء. وقد عرفهم شيخهم أبو عبد الرحمن عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي رضي الله عنه وأرضاه، فيما رواه عنه ابنُ عبد البر وغيره فقال فيهم:

«من كان منكم مستنًّا فليستن بمن قد مات فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة. أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا أبرَّ هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيّه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الصراط المستقيم».

فهؤلاء ـ والحالة هذه ـ أقوالهم في التفسير آكد الأقوال وأقواها ممن بعدهم ولا بد، بلا شك في ذلك.

وقد اعتمد الحافظ ابن رجب أقوال الصحابة ـ لا سيما كبارهم وعلمائهم ـ رضي الله عنهم ـ في التفسير وغيره، بل أكثر النقل عنهم، خصوصًا الذين اشتهر عنهم التفسير كالخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وأبي بن كعب . . . رضي الله عنهم.

فمن ذلك قوله رحمه الله في تفسير سورة النصر: «. . . وفي صحيح البخاري من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال: لم تدخل هذا معنا، ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه ممن قد علمتم! فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم، فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذٍ إلاَّ ليريهم؛ فقال: ما تقولون في قول الله عز وجل: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ [النصر: ١]، فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله، ونستغفره إذا جاء نصرنا وفتح علينا. وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا. فقال لي: أكذا تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا. قال: ما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له.

قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ [النصر: ١]، فذاك علامة أجلك. . . فقال عمر: ما أعلم منها إلاَّ ما تقول»(١). اهـ.

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ﴾ [البقرة: ١٢١] الآية، قال فيها: «وقد روي عن طائفة من السلف منهم ابن مسعود وابن عباس في قوله تعالى ــ فذكر الآية ــ قالوا: يحلون حلاله ويحرمون حرامه ولا يحرفونه عن مواضعه». اهـ(٢).

ولهذا نظائر كثيرة أيضًا.

* * *

(١) من تفسير سورة النصر، ص ٤٥ وما بعدها.

(٢) من جامع العلوم والحكم شرح الحديث الثاني والعشرين، ص ٢٠٥.

ـ ٤ ـ

تفسير الآية بأقوال السلف

إذا أُطلق السلف عادةً دخل فيهم أولاً الصحابة وقرنهم، ولكن ها هنا المراد بهم التابعون، وتابعوهم، ومن أخذ عنهم من أئمة العلماء في القرون المشهود لها بالخيرية.

وقد صرح الحافظ ابن رجب باعتماد ما ينقله عنهم ـ كما مر في أول الفصل ـ كما اعتمد على أقوال أئمة المفسرين منهم ممن أخذ عن الصحابة، كمجاهد بن جبر الذي أخذ عن ابن عباس وعارضه المصحف ثلاث مرات، يقفه عند كل آية ويسأله عنها، فقال في تفسير سورة الإخلاص: في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣﴾ [الفجر: ٣] قال مجاهد: كل شيء خلقه الله فهو شفع، قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩﴾ [الذاريات: ٤٩]، الكفر والإيمان، والهداية والضلال... وهو الذي ذكره البخاري في صحيحه، فإنه يعتمد قول مجاهد؛ لأنه أصح التفسير، قال الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به. واختاره الشيخ مجد الدين ابن تيمية». اهـ[١].

(١) تفسير سورة الإخلاص، ص ١٠١.

وكذلك ذكر أقوالهم في تفسير «الصمد»، فنقل معناه عن ابن مسعود وابن عباس ثم عكرمة مولاه والشعبي ومجاهد[1].

وفي هذا الصدد من منهج الحافظ عدم الاقتصار على التابعين، بل كذلك تابعوهم والأئمة بعدهم، المشهورون بالعدالة، والمتفق على توثيقهم عند المسلمين، والمشهور لهم بالصلاح وسلامة المعتقد[2].

ومن آخرهم الإمام أحمد وأصحابه الكبار وابن جرير الطبري وينقل عنه الحافظ كثيرًا.

وهم غالب القرون المفضّلة، وربما استأنس بأقوال كبار الزهّاد ومعتدليهم كالجنيد والداراني ومعروف الكرخي وابن أدهم وغيرهم.

وها هنا أنموذج يحوي المنهج السالف للحافظ، واعتبار كونه مطردًا، فقد ذكره الحافظ رحمه الله في «مقدمة تشتمل على أن جميع الرسل كان دينهم الإسلام» ص ٢٠ وما بعدها، حيث قال رحمه الله:

«والدين واحد، ثم ختم الله الشرائع والملل بالشريعة العامة، الكاملة الحنيفية المحمدية، المحتوية على جميع محاسن الشرائع، المتضمنة لجميع مصالح العباد في المعاش والمعاد، فأكمل الله بها دينه الذي ارتضاه لنفسه وختم بها العلم الذي أنزله من السماء على رسله، فلذلك تضمنت جميع محاسن الشرائع المتقدمة، وزادت عليها أمورًا عظيمة وأشياء كثيرة من العلوم النافعة والأعمال الصالحة التي خص بها

---

(١) تفسير سورة الإخلاص، ص ٩٢.

(٢) فتح الباري، مصورة الصديقية بمكة ق ١٤. والتخويف من النار، ص ٨١ وما بعدها.

هذه الأمة، وفضلهم بها على من قبلهم من الأمم.

ولذلك أوجب الله على جميع من بلغته هذه الدعوة من جميع الأمم الانقياد إليها ولم يقبل من أحد منهم دينًا سواها.

ولما كانت هذه الشريعة خاتمة الشرائع وعليها تقوم الساعة، ولم يكن بعدها شريعة ولا رسالة أخرى، تبين ما تبدل منها وتجدد ما درس من آثارهما، كما كانت الشرائع المتقدمة تجدد بعضها آثار بعض، وتبين بعضها ما تبدل من بعض، تكفل الله بحفظ هذه الشريعة، ولم يجمع أهلها على ضلالة، وجعل منهم طائفة قائمة بالحق لا تزال ظاهرة على من خالفها حتى تقوم الساعة، وأقام لها من يحملها ويذب عنها بالسيف واللسان والحجة والبيان، فلهذا أقام الله تعالى لهذه الأمة من خلفاء الرسل وحملة الحجة في كل زمان من يعتني بحفظ ألفاظ الشريعة وضبطها، وصيانتها عن الزيادة والنقصان ومن يعتني بحفظ معانيها، ومدلولات ألفاظها، وصيانتها عن التحريف والبهتان. والأولون أهل الرواية، وهؤلاء أهل الدراية والرعاية، وقد ضرب النبي ﷺ مثل الطائفتين. كما ثبت في الصحيحين عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب الأرض فكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها ناسًا فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا وأصابت طائفة منها أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني به، ونفع به، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به**».

فمثّل النبي ﷺ العلم والإيمان الذي جاء به بالغيث الذي يصيب الأرض. وهذا المثل كقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ [الرعد: ١٧].

فمثل تعالى ما أنزله من العلم والإيمان إلى القلوب بالماء الذي أنزله من السماء إلى الأرض، وهو سبحانه وتعالى يمثل العلم والإيمان تارة بالماء كما في هذه الآية، وكما في المثل الثاني المذكور في أول سورة البقرة[١]، وتارة يمثله بالنور كما في المثل المذكور في سورة النور[٢]، والمثل الأول المذكور في سورة البقرة[٣]، وكذلك في هذه الآية التي في سورة الرعد[٤]، وذكر مثلاً ثانيًا يتعلق بالنار وهو قوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ [الرعد: ١٧] فإن الماء والنور مادة حياة الأبدان، ولا يعيش حيوان إلاَّ حيث هما موجودان، كما أن العلم والإيمان مادة حياة القلب، وهما للقلوب كالماء والنور، فإذا فقدهما القلب فقد مات.

---

(١) يعني قول الحق تبارك وتعالى: ﴿... وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢].

(٢) يشير المصنف رحمه الله إلى قوله تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور: ٣٥].

(٣) يشير إلى قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [البقرة: ١٧].

(٤) يشير إلى قوله تعالى: ﴿... أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ ...﴾ [الرعد: ١٦].

وقوله تعالى: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧] شبه القلوب الحاملة للعلم والإيمان بالأودية الحاملة للسيل، فقلب كبير يسع علمًا عظيمًا، كوادٍ كبير يسع ماءً كثيرًا، وقلب صغير يسع علمًا قليلاً، كواد صغير يسع ماءً قليلاً، فحملت القلوب من هذا العلم بقدرها، كما سالت الأودية من الماء بقدرها.

فهذا تقسيم للقلوب بحسب ما يحمله من العلم والإيمان إلى متسع وضيق.

والذي ذكره النبي ﷺ في حديث أبي موسى تقسيم لها بحسب ما يرد عليها من العلم والإيمان إلى قابَل لإنبات الكلأ والعشب، وغير قابل لذلك وجعلها ثلاثة أقسام.

القسم الأول: قسم قَبِل الماء، فأنبت الكلأ والعشب الكثير، وهؤلاء هم الذين لهم قوة الحفظ، والفهم والفقه في الدين، والبصر بالتأويل، واستنباط أنواع المعارف والعلوم من النصوص، وهؤلاء مثل:

الخلفاء الأربعة، وأُبي بن كعب، وأبي الدرداء، وابن مسعود، ومعاذ بن جبل، وابن عباس.

ثم كالحسن، وسعيد بن المسيب، وعطاء، ومجاهد.

ثم كمالك، والليث، والثوري، والأوزاعي، وابن المبارك، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، وأبي عبيد، وأبي ثور، ومحمد بن نصر المروزي.

وأمثالهم من أهل العلم بالله وأحكامه، وأوامره، ونواهيه.

وكذلك مثل: أويس، ومالك بن دينار، وإبراهيم بن أدهم، والفضيل بن عياض، وأبي سليمان، وذي النون، ومعروف، والجنيد بن محمد، وسهل بن عبد الله، والحر بن أسد.

وأمثالهم من أهل العلم بالله وأسمائه وصفاته وأيامه وأفعاله.

القسم الثاني: وقسم حفظ الماء، وأمسكه حتى ورد الناس فأخذوه فانتفعوا به وهؤلاء هم الذين لهم قوة الحفظ، والضبط، والإتقان، دون الاستنباط، والاستخراج، وهؤلاء كسعيد بن أبي عروبة، والأعمش، ومحمد بن جعفر غُندر، وعبد الرزاق، وعمرو الناقد، ومحمد بن بشار، بندار، ونحوهم.

القسم الثالث: وقسم ثالث وهم شر الخلق، ليس لهم قوة الحفظ، ولا قوة الفهم، لا دراية ولا رواية، وهؤلاء الذين لم يتقبلوا هدى الله ولم يرفعوا به رأسًا.

والمقصود ههنا أن الله تعالى حفظ هذه الشريعة بما جعل لها من الحملة، أهل الدراية، وأهل الرواية، فكان الطالب للعلم والإيمان، يتلقى ذلك ممن يدركه من شيوخ العلم والإيمان فيتعلم الضابط القرآن والحديث، ممن يعلم ذلك، ويتعلم الفقه في الدين من شرائع الإسلام الظاهرة، وحقائق الإيمان الباطنة، ممن يعلم ذلك.



ـ ٥ ـ

عنايته بأسباب النزول في فهم الآية

وهو أساس معتبر عند المفسرين لفهم الآية للوقوف على حقيقة المراد منها؛ لأن الآيات غالبًا ما تنزل بخصوص واقعة معينة لتفيد الحكم فيها، مع اعتبار أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولكن من شأن سبب النزول إنارة الفهم لحسن تطبيق الآية على محلها الصحيح عند العمل بها، ومعرفة سبب النزول أدعى لمعرفة مراد الحكم أو الحكم المأخوذ منها، وقد عُني بهذا الفن العلماء قديمًا وحديثًا وأكثروا من التصنيف فيه.

وممن عُني به في تفسير القرآن والاستدلال منه ابن رجب الحنبلي، فإنه لا يستدل بآية ولها سبب نزول ظاهر في نزولها، إلاَّ ويسترشد به في إضاءة معانيها وأحكامها.

فها هو في تفسير سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤] يحشد جملة من الأحاديث الواردة في فضلها ومنزلتها وتفسيرها وسبب نزولها حيث قال:

«وأما سبب نزولها ففي المسند والترمذي... ثم ذكر قول المشركين للرسول ﷺ: انسب لنا ربك، فأنزل الله عليك تلك السورة»[1].

وأيضًا قال في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٨٧﴾ [المائدة: ٨٧]، قال: «وهذه الآية نزلت بسبب قوم امتنعوا من تناول بعض الطيبات زهدًا في الدنيا وتقشفًا، وبعضهم حرّم ذلك على نفسه إما بيمين حلف بها، أو بتحريمه على نفسه، وذلك كله لا يوجب تحريمه في نفس الأمر، وبعضهم امتنع منه من غير يمين ولا تحريم، فسمى الجميع تحريمًا حيث قصد الامتناع منه إضرارًا بالنفس وكفًّا لها عن شهواتها...». اهـ[2].

* * *

(١) تفسير سورة الإخلاص، ص ٨٤ ــ ٨٦.

(٢) جامع العلوم والحكم، ص ٢٠٦.

ـ ٦ ـ

تفسيره الآية بدلالات اللغة العربية

وذلك أن اللغة العربية هي وعاء الدين، وأداة تبليغه، وبها نزل القرآن، وتكلم الله به، وبها نطق الرسول ﷺ.

فالحافظ ابن رجب إذا أورد آية ـ أحيانًا ـ يتكلم عنها من الناحية النحوية في إعرابها؛ لتجلية معناها، ليتوصل من خلال الإعراب إلى الدلالة العربية للآية، وربما استشهد بكلام أئمة اللغة مستأنسًا به.

وفي الواقع أن هذا النوع من التفسير أقل الأنواع.

ومن نماذج ذلك قوله في تفسير سورة النصر: «وفي الباء في «بحمد» قولان:

أحدهما: أنها للمصاحبة فالحمد مضاف إلى المفعول: أي فسبحه حامدًا له.

والمعنى: اجمع بين تسبيحه، وهو تنزيهه عما لا يليق به من النقائص، وبين تحميده، وهو إثبات ما يليق به من المحامد.

والثاني: أنها للاستعانة.

والحمد مضاف إلى الفاعل، أي سبحه بما حمد به نفسه، إذ ليس

كل تسبيح بمحمود، كما أن تسبيح المعتزلة يقتضي تعطيل الصفات كما كان بشر المريسي يقول: سبحان ربي الأسفل»[1]. اهـ.

وأيضًا يستشهد بقول العرب شعرًا أو نثرًا، والغالب الأول في بيان دلالة الآية أو إحدى مفرداتها، قال في تفسير سورة الإخلاص: و «الصمد اختلفت عبارات السلف في معناه. وهي متقاربة أو متفقة والمشهور منها قولان:

أحدهما: أن الصمد هو السيد الذي تصمد إليه الخلق في حوائجهم ومطالبهم. وهو مروي عن ابن عباس وغيره من السلف.

قال ابن الأنباري: لا خلاف بين أهل اللغة أن الصمد السيد الذي ليس فوقه أحد، الذي يصمد إليه الناس في حوائجهم وأمورهم. وقال الزجاج: هو الذي ينتهي إليه السؤدد، فقد صمد له كل شيء أي قصد قصده وأنشدوا:

لقد بكر الناعي بخير بني أسد ... بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

وأنشدوا أيضًا:

علوته بحسام ثم قلت له
خذها حذيف فأنت السيد الصمد»[2]

اهـ.

---

(١) من تفسيره لسورة النصر، ص ٤٢.

(٢) من تفسيره لسورة الإخلاص، ص ٩٠، وانظر ص ٩٩ وما بعدها إلى نهاية التفسير.

كما استشهد بشعر الجاهليين الذي آمنوا به بالله، ولكن كفرت قلوبهم به، فقال في تفسير سورة الإخلاص في آخرها:

«وقال كعب: السموات السبع والأرضون السبع، أسست على هذه السورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ . . .﴾ [سورة الإخلاص].

ومعنى هذا ـ والله أعلم ـ أن السموات والأرض، إنما خلقت بالحق، والعدل، والتوحيد، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨ ـ ٣٩].

ومن شعر أمية بن أبي الصلت:

وسبحان ربي خالق النور لم يلد ... ولم يك مولودًا بذلك أشهد
وسبحانه من كل إفك وباطل ... وكيف يلد ذو العرش أم كيف يولد
هو الله بارىء الخلق والخلق كلهم ... إماء له طوعًا جميعًا وأعبد
هو الصمد الله الذي لم يكن له ... من الخلق كفو قد يضاهيه مخلد
وأنىٰ يكون الخلق كالخالق الذي ... يدوم ويبقى والخليقة تنفد
وليس بمخلوق على الدهر جدّه ... ومن ذا على مر الحوادث يخلد
وتفنى ولا يبقى سوى القاهر الذي ... يميت ويحيي دائبًا ليس يمهد»[1]

اهـ.

ومع الاستدلال بدلائل اللغة على تفسير الآية وتوضيح مرادها، إلَّا أنه يقرر أن المعاني اللغوية لا تدل بمفردها دلالة كاملة على المقاصد الشرعية، فإن الشرع جاء بدلالة اللغة، وأخص منها، حيث

---

(١) من آخر تفسير سورة الإخلاص، ص ١٠٤ ـ ١٠٥.

تحوى المعاني الشرعية المعاني اللغوية وزيادة معنى. كالصلاة في اللغة هي الدعاء، ولكن معناها الشرعي: الدعاء وزيادة أفعال وأقوال مخصوصة.

ومثله الاشتراك اللفظي المتواطىء في أسماء الله وصفاته، فاللغة تفسّر الأسماء والصفات بما هو معروف ومشهود في الكون من أسماء المخلوقين وصفاتهم؛ لأنها وضعت عليهم، لكن المعاني الشرعية واللائقة بالله تعالى من أسمائه وصفاته فوق هذا، حيث تزداد بالاختصاص به بمعانٍ زائدة عن الدلالات اللغوية، فأسماء المخلوقين وصفاتهم تخصهم، والخالق تخصه وتليق به، فالسمع والبصر صفتان معروفتان عند المخلوقين، وهكذا معناهما في حق الله ولكن بزيادة إثبات أن سمعه وبصره لا يشبهه سمع المخلوقين في الحقيقة، ولكنه بما يليق به سبحانه ــ وهذا هو التواطؤ اللفظي ــ .

وأيضًا الاشتراك في الاسم والصفة لا يقتضي الاشتراك في المعنى الكلي بينهما. وهذا مثاله في حق المخلوقين أنفسهم، فإن سمع الإنسان ليس كسمع الجمادات من الأجهزة ونحوها، وأيضًا إدراك الإنسان يتفاوت بحسب هذا الإنسان قوة وعلمًا وفهمًا فضلاً عن إدراك بقية الحيوانات، حتى ربما لا يشتركان في الإدراك إلاَّ بمعناه اللغوي، مع اختصاص كل منهما بإدراك يخصه لا يشبه إدراك الآخر وهذا القياس يجب أن يكون في حق الله أولى وأعم

وأجدر[1].

ولهذا لم يتوقف تفسير الحافظ ابن رجب للآيات واستنباطه منها على الدلالات اللغوية فقط، بل جعلها عاضدة للدلالات الشرعية من القرآن والسنَّة وتأويل علماء السلف.

* * *

(١) تكلم على أنواع الاشتراكات، وأنواع الأقيسة، شيخ الإسلام ابن تيمية في أوائل التدمرية عند كلامه على القواعد العامة في خاتمة مقدمتها.

ـ ٧ ـ

عنايته بتوجيه القراءات الواردة في الآية، والإفادة من اختلافها في تنوع المعنى

أثرت البيئة العلمية التي نشأ بها الحافظ في هذه المسألة، حيث كان والده مقرئًا للقرآن برواياته، وممن أخذ عنه تلك الروايات ابنه الحافظ ابن رجب، ولذا اعتنى بها في مواطنها من التفسير، ومن نماذجه التي وجه فيها الحافظ تنوع المعنى باختلاف القراءة قوله في كتابه «التخويف من النار» في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾ [الذاريات: ٨ ـ ٩] قال: «وقال السدى، من قرأها في [عَمَدٍ]، يعني: بالفتح، فهي عمد من النار، ومن قرأها في [عُمُد]، يعني: بالضم، فهو أجل ممدود». اهـ[1]، وقال: «قرأ ابن عباس: ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝٧١﴾ [غافر: ٧١]، بنصب السلاسل، وفتح ياء يسحبون، قال: هو أشد عليهم، هم يسحبون السلاسل. خرجه ابن أبي حاتم». اهـ.

* * *

(١) التخويف من النار، ص ٨٤، وأيضًا ما بعدها، ص ١٢٤ ـ ١٢٥.

ـ ٨ ـ

توضيحه واستنباطه للأحكام بنفسه على ضوء القواعد السابقة

مع استناد الحافظ ابن رجب إلى تلك القواعد السابقة، فإنه لم يكن جمّاعًا نقّالاً دون أن تكون له استنتاجات وطروحات يستمدها ويستنبطها من النصوص، وما تلك المناهج إلاَّ قواعد مساعدة للاستدلال وفهم مراد الله في كلامه.

فإنه بعد تفسيره الآية بالآية الأخرى وبالحديث وبقول السلف والدلالات العربية وسبب النزول، وقراءاتها إن وجدت، نجده يعقب على ذلك بالتوضيح والبيان، والاستنباط والترجيح، والرد والمناقشة...

من ذلك قوله في تفسير الكفؤ بعد ذكر القواعد السالفة قال: «... وحقيقة الكفؤ: هو المساوي والمقاوم، فلا كفو له تعالى في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أسمائه، ولا في أفعاله، ولا في ربوبيته ولا في إلاهيته، ولهذا كان الإيمان بالقدر نظام التوحيد ـ كما قال ابن عباس ـ ؛ لأن القدرية جعلوا له كفوًا في الخلق.

وأما توحيد الإلهية فالشرك فيه تارة يوجب الكفر والخروج من المِلَّة، والخلود في النار، ومنه ما هو أصغر كالحلف بغير الله والنذر له، وخشية غير الله، ورجائه، والتوكّل عليه والذل له، وقول القائل: ما شاء الله وشئت. . .»[1]. اهـ.

وقال في شرح الأربعين على قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٢١].

«قال ابن مسعود وابن عباس: يحلون حلاله ويحرمون حرامه، ولا يحرفونه عن مواضعه. والمراد بالتحريم والتحليل: فعل الحلال، واجتناب الحرام، كما ذكر في الحديث.

وقد قال الله تعالى في حق الكفار الذين كانوا يغيرون تحريم الشهور الحرم: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٧].

والمراد: أنهم كانوا يقاتلون في الشهر الحرام عامًا فيحلونه بذلك، ويمتنعون من القتال فيه عامًا فيحرمونه بذلك»[2]. اهـ.

ولهذا نظائر كثيرة، بل كلامه على هذا النسق مطرد بكل ما ينقله في تفسير آية أو حديث ليستدل بها ويعول عليها.

وعلى ما سبق نخلص إلى أن الحافظ ابن رجب سلك في الاستدلال من القرآن والتلقي منه مسلك أهل السنَّة والجماعة، ولم

(١) تفسير سورة الإخلاص، ص ١٠٢.

(٢) من كتابه جامع العلوم والحكم، ص ٢٠٥. وانظر التخويف من النار، ص ٨٤ و ١٢٥.

ينحرف عنه إلى فعل ومناهج أهل الأهواء والبدع، بتفسير النصوص بالأقيسة العقلية المعارضة للنصوص الشرعية.

كما كان لتلك التعقيبات والاستنباطات منه دلالة على رسوخ علمه وفقهه وأدبه مع النصوص الشرعية، مع بعده في النظرة، وعمقه في الفكرة، وسرعة بديهته عند التحليل والاستطراد، وصار هذا علمًا على أسلوبه رحمه الله، فلذا من يكثر قراءة كتبه يستطيع تمييز أسلوبه بسهولة.

ولو أنَّه رحمه الله عني بتفسير القرآن، لجاء تفسيره له مميزًا بتميز منهجه وأسلوبه وسهولة طرقه وتناوله، فرحمه الله رحمة واسعة.

* * *

ثانيًا:
السنَّة النبوية

السنَّة هي المصدر الثاني من مصادر تلقي العقيدة عند المسلمين، وهي شقيقة القرآن، وفيها تفسير ما أجمل وبيان ما أبهم، وهي المبينة للقرآن والمفسرة له، وهي الحاضّة على اتباعه والعمل به . . .

والمقصود بها: السنَّة الصحيحة الثابتة عن النّبي ﷺ، كما سبق أن قرره الحافظ ابن رجب(١).

وعليه فقد اعتمدها الحافظ مصدرًا أساسًا ثانيًا؛ لأنه يتبع الآية بحديث رسول الله عليه الصلاة والسلام، ويفسّر الآية بالحديث، وإذا لم يكن في الموضوع نص من كلام الله، عول على حديث رسوله، فهي رديفة القرآن دائمًا عنده.

والسنَّة النبوية هاهنا، هي قول الرسول ﷺ وفعله وتقريره، وهي بلاغه ﷺ لدين ربه، حيث شهد له به ربه سبحانه وتعالى فقال: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [النحل: ٨٢]، في آيات متعددة.

وفي باب العقيدة نص الحافظ على هذا وأكده في مواطن كثيرة في ثنايا كتبه، فقال في مقدمة كتابه: «نفحات رياض القدس»:

---

(١) كما في لطائف المعارف، ص ١٠١؛ والتخويف من النار، ص ٨.

«. . . وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، بعثه مفصحًا بتوحيده، أيَّما إفصاح، موضحًا لعبيده سبيل الهدى والإيضاح. فلم يزل ﷺ يعرّف بالله حتى ظهر التوحيد في جميع النواحي. . . »[1]. اهـ.

وكثيرًا ما يطلق الحافظ ابن رجب السنَّة ويقصد بها الاعتقاد؛ لأنه أصل الإيمان، ولأنه السنَّة في مقابل البدعة، ولأنه مبني عليها، ولأنه الفقه الأكبر الذي ما بعده تبع له. . .

وهكذا أواخر القرون المفضّلة؛ أطلقوا لفظ السنَّة على ضد البدعة كما في مصنفاتهم المسماة «بالسنَّة» أو المبدوءة بها. وعلى هذا الاصطلاح درج الحافظ، فلا تجده يكثر من التصريح بالاعتقاد أو العقيدة كما يكثر من إطلاق لفظ السنَّة[2]، وظهر هذا كثيرًا في تراجمه في الذيل.

قال في «كشف الكربة»: «ثم صار في عرف كثير من العلماء المتأخرين من أهل الحديث وغيرهم، السنَّة عبارة عما سلم من الشبهات في الاعتقادات، خاصة في مسائل الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر. وكذلك في مسائل القدر، وفضائل

---

(١) من مقدمة: استنشاق نسيم الأنس في نفحات رياض القدس، ص ٨٦. وانظر زيادة بيانه عند الكلام على الإيمان بالأنبياء من الباب الثاني.

(٢) ثم تحدد الاصطلاح بها لدى العلماء في شتى فنونهم:
فعند الأصوليين، السنة: ما أثر عن الرسول ﷺ من قول أو فعل أو تقرير.
وعند الفقهاء، السنة: ما يثاب فاعله ولا يُعاقب تاركه.
وعند المحدثين هي: ما روي عن النبي ﷺ من قول أو فعل، أو تقرير، أو صفة خَلْقية أو خُلقية.

الصحابة. وصنفوا في هذا العلم تصانيف سمّوها كتب السنَّة. وإنما خصُّوا هذا العلم باسم السنَّة؛ لأن خطره عظيم، والمخالف فيه على شفا هلكة.

وأما السنَّة الكاملة فهي الطريقة السالمة من الشبهات والشهوات، كما قال الحسن ويونس بن عبيد، وسفيان، والفضيل، وغيرهم...»[1]. اهـ.

وقال في «**الرد على من اتبع غير المذاهب الأربعة**»: «ثم بعد ذلك ليكن همك في فهم كلام هذا الإمام في جميع مسائل العلم، لا مسائل الإسلام، أعني: مسائل الحلال والحرام. وفي علم الآفاق، أعني: مسائل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهو العلم المسمَّى في اصطلاح كثير من العلماء بعلم السنة». اهـ.

وهناك ملامح ظهرت في مؤلفات الحافظ ابن رجب أبدت عنايته بالسنَّة، وإشادته بها، وتعويله عليها في العقيدة مصدرًا واستدلالاً، منها:

١ ـ أكثر رحمه الله من الاستدلال بالأحاديث الصحيحة والحسنة في تقرير مسائل العقيدة، إكثارًا بارزًا ملحوظًا، فتراه يسردها سردًا في الموضوع الواحد، بتنوع ألفاظها ورواياتها، وبحشد الأحاديث من عدة طرق ينتقيها بزيادات ألفاظها وما تدل عليه من زيادة المعنى.

---

(١) كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة: ٢٠.

وهذا هو نهج السلف الصالح والأئمة، فإنهم يحشدون الآثار والأحاديث للدلالة على المسائل مع قلَّة كلامهم فيها، حيث يجعلون هذه الأحاديث تؤدي المقصود، وإنما كثر كلامهم، لما برطل المبتدعة بشبههم فأدَّى الحال إلى التوضيح والبيان، والاستدلال من تلك النصوص الواردة، وهو المنهج الذي يتضح بشكل ملحوظ عند الشيخ تقي الدين ابن تيمية. وابن رجب نهج نهجه في هذا، مع تنوع بينهما في الأسلوب، قوة ومتانة.

ومن أكثر مؤلفات الحافظ سردًا للنصوص النبوية، وجمعًا لها: «فتح الباري بشرح صحيح البخاري»، و «جامع العلوم والحكم»، و «التخويف من النار، وأهوال القبور»، و «لطائف المعارف»؛ بل وسائر تصانيفه.

ومن منهجه المطّرد الواضح تصديره الحديث النبوي احتجاجًا به عند عدم النص من كلام الله، أو عدم صراحته.

٢ ـ الحافظ رحمه الله مع إكثاره من الاستشهاد بالأحاديث، يظهر اهتمامه بالحديث، والحكم عليه وعلى رواته.

فلم أجده في إيراد حديث ليعتمده في مسألة من مسائل العقيدة إلاَّ ويعتني بتخريجه والحكم عليه أو على سنده، أو بيان حال رواته، أو علله، كما يعتني بذكر روايات الحديث، والشواهد، ويبين الفرق بين الألفاظ، وما تفيده من زيادة معنى.

وأحيانًا في مواطن الكلام على الرقائق والوعظ ربما تساهل في الأحاديث من حيث التوسع بذكر الصفات وأخبار بني إسرائيل، وهو

قليل، ويصاحبه اقتصار في التخريج وذكر حال السند، فغالبًا هاهنا يشير إلى تصحيحه أو تضعيفه مع ذكر من رواه.

ونماذجه واضحة في «جامع العلوم والحكم»، وشروح الأحاديث، ومنها شرح حديث أبي هريرة عن النّبي ﷺ أنه قال: «بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء»، رواه مسلم، ثم ذكر رواية أحمد وابن ماجه من حديث ابن مسعود وزياداته، ثم رواية الآجري، والترمذي، والطبراني، وغيرهم، بألفاظها واختلاف رواتها[1].

وها هنا إذا جاء حديث ــ في غير الصحيحين ــ ولكن خالف عمل المسلمين والمشهور عندهم فإنه يبين ذلك، ويجعله سببًا في رده، وهذا يكون في غير مسائل الأصول أو الأحكام العامة. قال في «لطائف المعارف» حول يوم عاشوراء: «وروى الطبراني من حديث ابن أبي الزناد، عن أبيه، عن خارجة بن زيد، عن أبيه قال: ليس يوم عاشوراء باليوم الذي يقول الناس، إنما كان يومًا تستر فيه الكعبة، وتقلس فيه الحبشة عند النّبي ﷺ. وكان يدور في السنَّة، فكان الناس يأتون فلانًا اليهودي يسألونه، فلما مات اليهودي أتوا زيدًا بن ثابت فسألوه.

---

(١) من كشف الكربة، ص ١١ ــ ١٦. ومثله اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى، ص ٦ ــ ٨، والبشارة العظمى، ص ١٧٩ ــ ١٨١؛ ولطائف المعارف، ص ٢٢١ و ص ٢٢٩ و ص ٢٣٠ ــ ٢٣١ و ٢٣٣ ــ ٢٣٤ حول فضل رجب.

وهذا فيه إشارة إلى أن عاشوراء ليس هو في المحرم، بل يحسب بحساب السنَّة الشمسية، كحساب أهل الكتاب.

وهذا خلاف ما عليه عمل المسلمين قديمًا وحديثًا...»[1]. اهـ.

ثم يجلب الأحاديث والأخبار الصحيحة الدالة على شذوذ هذا الحديث أو القول.

٣ ـ ومن منهج الحافظ في عرض السنَّة أنه يفسر الحديث محل التلقي والاستدلال، بنصوص القرآن الكريم، فيورد بعده آية تبرز مقصوده وتوضح شاهده؛ لأن السنَّة والقرآن من مشكاة واحدة، وكلاهما أصلان يعول عليهما، فلا ضير من تفسير أحدهما للآخر.

من ذلك أن الحافظ ابن رجب فسَّر قوله ﷺ: «**اغدوا وروحوا وشيء من الدلجة**»، قال: «يعني أن هذه الأوقات الثلاثة تكون أوقات السير إلى الله بالطاعات، وهي آخر الليل، وأول النهار، وآخره.

وقد ذكر الله هذه الأوقات في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإنسان: ٢٥ ـ ٢٦]. وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾ [ق: ٣٩ ـ ٤٠][2]. اهـ.

وها هنا عكس ما سبق من كون السنَّة تفسّر القرآن، ولا منافاة؛ لوحدة المصدر والهدف، فكلاهما من الله، والغاية منهما هداية الخلق

(١) لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، ص ١٠٩.
(٢) من كتابه: المحجة في سير الدلجة، ص ٥٩ ـ ٦٠.

من الغواية، ورشادهم من الضلالة؛ بل السنَّة قاضية على الكتاب وحاكمة عليه، كما قاله حسان بن عطية وغيره من علماء السلف. والمراد من ذلك أن السنَّة تفسِّر القرآن وتبينه، وتدل عليه وتعبر عنه، وتخصّص عامة، وتقيد مطلقه، وتحقق متشابهه.

٤ ــ وأيضًا هو رحمه الله يفسّر الحديث بالحديث الآخر، ويشرحه به، فيوضح ما أبهم منه أو سكت فيه. وهذا كثير، بل هو منهج مطرد عنده في مسائل كثيرة.

من ذلك تفسيره للظل في قوله ﷺ: «**سبعة يظلهم الله في ظلّه يوم لا ظل إلاّ ظلّه**» بأنه ظل العرش، اعتمادًا على حديث آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**من نفس عن غريمه، ومحى عنه؛ كان في ظل العرش**»، رواه أحمد والترمذي وصححه. قال: «وهذا يدل على أن المراد بظل الله هو ظل عرشه»(١). اهـ.

فلم ينف ظل الله يوم القيامة، على قاعدة المعطلة في نفي ما أضيف إلى الله من ذلك دفعًا لوصفه بالجسمية والحيزية كما يزعمون؟!. بل ردَّ حديث النّبي ﷺ إلى حديث آخر يوضحه،

---

(١) حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم القيامة مخرج في الصحيحين. حيث أخرجه البخاري في كتاب الجماعة وفضل الإمامة ــ باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة. ومسلم في كتاب الزكاة ــ باب فضل إخفاء الصدقة برقم (١٣١).
وهذا النقل عن الحافظ من كتابه: فتح الباري شرح صحيح البخاري (ق ٧٣) مصورة الصديقية بالحرم المكي.

ويُصدِّقه، ولم يضرب بعضها في بعض، وهو منهج الراسخين في العلم المصدقين بما جاء عن الله وعن رسوله عليه الصلاة والسلام، غير متحكمين فيهما بعقولهم أو أذواقهم أو شهواتهم.

٥ ـ من منهج الحافظ في تفسير الحديث النبوي الصحيح، تفسيره وتوضيحه بأقوال الصحابة الذين كانوا هم المخاطبون بتلك الأحاديث أولاً، ولأنهم أعرف الناس بمراد كلام الله، وكلام رسوله ﷺ، وهذا دليل سلفيته رحمه الله باعتماد قول السلف الصالح، ومفهومهم، كما فعل في حديث البخاري: «**ليس أثقل على المنافقين من الفجر والعشاء**»، فبعد أن جمع روايات الحديث، وشواهده، استدل بقوله تعالى عن المنافقين: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢]، وبأحاديث... ثم قال: «كقول ابن عمر: إنا إذا افتقدنا الإنسان في صلاة العشاء الآخر والصبح أسأنا به الظن»[1]. اهـ.

وكما فعل في أقوال الصحابة، فكذلك يفعل في أقوال التابعين وتابعيهم بإحسان من الأئمة والعلماء كالأوزاعي وابن المبارك والأئمة الأربعة... وهو من معرفته لفضلهم وسبقهم، وربما استطرد في بيان خلافهم، والترجيح بين أقوالهم واستدلالاتهم[2].

---

(١) من كتابه فتح الباري شرح البخاري (ق ٦٣، ٧٠) مصورة الصديقية.

(٢) من كشف الكربة، ص ٢٢ ـ ٢٣ في حكاية تعريفهم للغربة وتنوع عباراتهم فيه، ووجهة كل قول. كذلك في مقدمة مشتملة على أن جميع الرسل كان دينهم الإسلام: ٢٣، وما بعدها، وسبق نقل كلامه رحمه الله منها.

٦ ـ أيضًا من منهجه في الاستدلال بالحديث النبوي، شرحه باللغة ودلالاتها، لبيان معنى اللفظة المروية فيه ودلالتها، ليستقيم فهم الحديث وتصدّق دلالته على المسائل المساق فيها، ويصح كونه فيها مصدرًا يؤخذ الحكم منه لها.

ففي شرحه لحديث زيد بن ثابت، ذكر فيه أن النّبـي ﷺ أمره أن يتعاهد هو وأهله كل يوم حين يصبح قول: لبيك اللَّهمَّ لبيك وسعديك... الحديث. رواه أحمد والحاكم. فقال في شرحه وبيان معنى لبيك: «معناه إجابة لدعائك مرة بعد مرة. وليس المراد به حقيقة التثنية؛ بل المراد التكرير والتكثير والتوكيد، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: ٤]، يعني: مرة بعد مرة.

وأصله من لبَّ المكان إذا لزمه وأقام فيه، فكأن الملبّـي يجيب دعوة الله ويلزم ذلك، ويقتضي سرعة الإجابة مع الدوام عليها...»[(١)]. اهـ.

وذلك لأن الرسول ﷺ تكلّم بلسان عربـي مبين فصيح، فاستعان الحافظ بالمعاني اللغوية، لفهم التراكيب اللفظية الواردة في أحاديثه.

وهذا هو المنهج السليم لفهم النصوص من الوحيين «الكتاب والسنَّة»، أعني: فهمهما باللسان الذي تفهم به مخاطبة دينك الوحيين.

وإفادة المعاني اللغوية عند الحافظ ابن رجب من مصادرها في كلام العرب وديوان شعرهم.. ومن أقوال أئمة اللغة كأبي

---

(١) من شرح حديث زيد بن ثابت (مخطوط) ق ٨٧.

عبيدة[1]، وابن الأنباري[2] ونحوهما.

٧ ــ ومن منهج الحافظ الملاحظ عند استدلاله من الحديث مع ما سبق من سوقه للروايات والشواهد وعنايته بالصناعة الحديثية، ونقله الآيات والأحاديث وأقوال السلف ودلالات اللغة في بيان المقصود وأوجه الاستدلال من الحديث، فإنه كذلك يعرض إلى أحوال الزهاد والعارفين في القرون المفضلة الذين عرفوا بالزهد والرغبة عن الدنيا، والذين حكيت عنهم النوادر والأحوال، البريئة عن بدع المبتدعة، ومحدثات المتصوّفة.

فالحافظ بعد ذلك يستأنس بأقوالهم وأفعالهم وأحوالهم ــ كما فعل عند استدلاله من القرآن ــ لا سيما الذين أثنى عليهم الإمام أحمد أو غيرهم من أئمة الدين.

---

(١) نقل عنه في مواضع منها المحجة في سير الدلجة، ص ٦٩.
وهو معمر بن المثنى التيمي مولاهم، كان علامة باللغة والنحو وأيام العرب، من مؤلفاته: «مثالب العرب»، و «مثالب أهل البصرة»، قدم بغداد أيام الرشيد، وقرأ بعض الكتب. مات سنة ٢٠٧ وله ٩٨ سنة. انظر: سير النبلاء ٩/ ٤٤٥. وإشارة التعيين، ص ٣٥٠. والبلغة، ص ٢٦١. وإنباء الرواة ٣/ ٢٨٦ ــ ٢٨٨. ومراتب النحويين ٧١، ومعجم الأدباء ١٩/ ١٥٤. والشذرات لابن العماد ٢/ ٢٤.

(٢) نقل عنه الحافظ في مواضع منها: تفسيره لسورة الإخلاص، ص ٩٠. وهو أبو بكر محمد بن الأنباري، كان حفّاظًا حفظ ٣٠٠ ألف شاهد على القرآن من الشعر. وحفظ تفاسير كثيرة بأسانيدها. ومن المشهورين في اللغة والنحو، له كتاب الزاهر في اللغة، وهاءات القرآن، والآمالي، مات سنة ٣٤٨هـ. انظر: النبلاء ١٥/ ٣٧٤. وإنباء الرواة ٣/ ٢٠١، والبلغة، ٢٤٥. والشذرات لابن العماد ٢/ ٣١٥. ومعجم الأدباء ١٨/ ٣٠٦. وطبقات القراء ٢/ ٢٣٠. وبروكلمان في مؤلفاته ٢/ ٢١٤.

كما ينقل أشعارهم وحِكَمَهم، التي تناسب مقام الاستدلال والاستشهاد بها، وكتاباه «لطائف المعارف»، و «استنشاق نسيم الأنس» مليئان بمثل ذلك على وجه الخصوص.

نقل في «كشف الكربة» عن حديث «**بدأ الإسلام غريبًا. . .**» قال: «ومن كلام أحمد بن عاصم الإنطاكي، وكان من كبار العارفين في زمان أبـي سليمان الداراني، قال: إني أدركت من الأزمنة زمانًا عاد فيه الإسلام غريبًا كما بدأ، وعاد وصف الحق فيه غريبًا كما بدأ، إن ترغب فيه إلى عالم وجدته مفتونًا بحب الدنيا، يجب التعظيم والرئاسة، وإن ترغب فيه إلى عابد وجدته جاهلاً في عبادته، مخدوعًا صريعًا، غدره إبليس، قد صعد به إلى أعلى درجة العبادة وهو جاهل بأدناها، فكيف له أعلاها؟ وسائر ذلك من الرعاع، همج عوج، وذئاب مختلسة، وسباع ضارية، وثعالب ضوار.

هذا وصف عيون أهل زمانك من حملة العلم والقرآن، ودعاة الحكمة. . . خرجه أبو نعيم في الحلية. فهذا وصف أهل زمانه فكيف بما حدث بعده من العظائم والدواهي التي لم تخطر بباله، ولم تدر في خياله؟!

ولبعض شيوخنا في هذا المعنى:

فحـيَّ علـى جنـات عـدن فـإنهـا ... منازلك الأولى وفيها المخيم
ولكننـا سيمـا العـدو فهـل تـرى ... نعـود إلـى أوطـاننـا ونسلـم؟
وقد زعموا أن الغريب إذا نأى ... وشطت به أوطانه فهو مغرم

فأي اغتراب فوق غربتنا التي　　لها أضحت الأعداء فينا تحكم»

اهـ[1].

وأمثال هذا كثير في كتبه، وهي سمة بارزة في منهجه، فإذا تناول أعمال القلوب، وعللها، ووعظها، طرد هذا المنهج في نقل كلام أولئك وأشعارهم وأحوالهم، ولكن مع العناية عمن ينقل، وماذا ينقل، وهذا ملحظ للحافظ دال على دقته واعتداله لا على سبيل الاستدلال أو التلقي! وإنما استشهادًا وتمثيلاً، فافهم هذا رعاك الله، تدرك الفرق بينه وبين الصوفية والخوارج.

٨ ـ وهنا أمر من منهج الحافظ في الاستدلال بالسنَّة النبوية، حيث يخص منها السنَّة الصحيحة المقبولة، فلا يعول في العقيدة ـ خصوصًا ـ على الأحاديث الضعاف أو الواهية.

ولكن إذا أورد الأحاديث الضعيفة والمرسلة... فإنه يوردها مؤكدة للمعنى الذي هو بصدد الاستدلال له، لا منشئًا لمعنى أو حكم جديد مستقل، مع ملاحظة عدم شدة الضعف، وأيضًا مع التعقيب على الحديث بما يوضح حاله ضعفًا، أو صحة، أو أقل شيء بالإشارة إلى من خرجه، والرمز له بما يشعر حال مخرجه.

وربما استقلّ بالضعاف من الأحاديث في باب الوعظ والزهد والرقائق ترغيبًا أو ترهيبًا، وهو قليل؛ لأنه هو رحمه الله من علماء

---

(١) من كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة، ص ٢٣ ـ ٢٨.

وهذه الأبيات من القصيدة الميمية العصماء لشيخه ابن قيم الجوزية، ومطلعها:

إذا طلعت شمس النهار فإنها　　أمارة تسليمي عليكم فسلموا

الحديث وأهل الشأن، فما يرد عنه من ذلك قد يكون لحكمة مرادة منه، أو سبق قلم، أو عدم تحرٍّ فيها، أو غير ذلك. والله أعلم.

وفي هذا الصدد ـ إذا نقل من الأحاديث الضعيفة ـ فإنه عادة ما ينقلها من كتب مسندة، لكنه هي مظان الضعف، كمؤلفات ابن أبي الدنيا، والحلية لأبي نعيم، والمسند للديلمي. ومراسيل الحسن البصري يعول عليها في هذا الباب كثيرًا، وهي من أصح المراسيل.

أيضًا ينقل هاهنا عن الإسرائيليات ـ وهي أخبار بني إسرائيل الماضية ـ التي أقرَّها رسول الله ﷺ أن نحدث عن بني إسرائيل ولا حرج، إلاَّ فيما يخالف ديننا، أو ما جاء في شرعنا بيانه، كقوله: «ويروى عن كعب الأحبار أنه قال: مكتوب في الإنجيل «يا عيسى: قلب لا يخشع، علمه لا ينفع، وصوته لا يُسمع، ودُعاؤه لا يُرفع»[(١)]. اهـ. لما بيَّن أثر القرآن على القلوب، وهو قريب من قوله ﷺ في استعاذته: «**اللَّهمَّ إني أعوذ بك من قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن عين لا تدمع، ومن علم لا ينفع، ومن دعوة لا يستجاب لها**». رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح.

ومن نماذج إيراده الأحاديث الضعاف مُستشهدًا بها: قوله في فضل سورة الإخلاص من تفسيره لها: «. . . ومنها أنها نسبة الله عز وجل، خرج الطبراني من طريق عثمان بن عبد الرحمن الطرائفي عن الوازع بن نافع، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال

---

(١) من الخشوع في الصلاة، ص ٣٠.

رسول الله ﷺ: «لكل شيء نسبة، ونسبة الله ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٢]، ليس بأجوف». الوازع ضعيف جدًّا وعثمان يروي المناكير. وسيأتي في سبب نزولها ما يشهد له. ومنها...»[1]. اهـ.

٩ ـ ومن الأمور الدقيقة فيما يتعلق بالسنَّة أننا نرى الحافظ يرحمه الله في عباراته التي يتكلم بها، نراها موافقة أو مستقاة من حديث أو آية من شدة تعلقه بهما[2].

ولا شك أن التعبير بالألفاظ الشرعية وما جرى مجرى النصوص هو الأصوب لتكلم الله ورسوله بها، مما يدلنا على كثرة مدارسته للقرآن والسنَّة وعنايته بهما، والرجوع إليهما وفهمهما وحفظهما والاشتغال بهما عن غيرهما. وهذا ظاهر في كلامه، وكل إناء بالذي فيه ينضح.

فالمشتغل بالشعر يظهر أثره عليه، وباللغة يظهر أثرها عليه، وبالنحو والإعراب يبين لسانه عن ذلك، وكذلك المنطق والكلام،

---

(١) من تفسير سورة الإخلاص، ص ٧١ ـ ٧٢. والشواهد التي ذكرها هي في ص ٨٥ ـ ٨٦. والحديث تخريجه، أورده بهذا اللفظ الهيثمي في المجمع، وقال: رواه الطبراني في الأوسط وفيه الوازع بن نافع متروك، وعثمان الطرائفي، ابن مسلم الحرَّاني، صدوق أكثر الرواية عن الضعفاء والمجاهيل فضعف بسبب ذلك، ونسبه ابن نُمير إلى الكذب، لكن وثقه ابن معين وغيره. اهـ. التهذيب، وذكر له شواهد بمعناه. وصرح ابن رجب بشواهده وذكرها في ص ٨٥ وما بعدها، ومن الشواهد ما هو في مستدرك الحاكم، وصحح الحاكم إسنادها ولم يخرجها الشيخان. ووافقه الذهبي ٢/ ٥٤٠ من المستدرك.

(٢) من شواهده ما في فتح الباري شرح البخاري، ورقة ٩٢ ـ ٩٣.

والبيع والشراء وهذه سمة علماء الشريعة بين العلماء، وعلامة أهل السنَّة والجماعة بين الفرق والأهواء.

* أخبار الآحاد[١]:

مضى عصر الصحابة وتابعيهم وأهل القرون الفاضلة وصلحائها ولم يفرقوا في نصوص الشريعة بين خبر الواحد والمتواتر، بل أسلموا وسلموا لما صح عن النّبي ﷺ، فثبتت قدمهم على الإسلام بإظهارهم التسليم والاستسلام لما في الوحيين جملة وتفصيلاً.

ولكن لما غصَّ أهل الأهواء والبدع والتغيير بآحاد الأحاديث الناسفة لأصولهم، الرَّادة لبطلانهم وتغييرهم، الهادمة لمسلك تعطيلهم، جنحوا إلى شعب ضيقة، حرجة مظلمة، يريدون بذلك هدم نصوص الوحيين شيئًا فشيئًا.

فهذا خبر آحاد يعارض صريح العقل، وذاك محتمل الدلالة، حتى جمّدوا أكثر ما في الوحيين بهذه الطواغيت.

وهؤلاء ـ على اختلاف مشاربهم ـ راموا علم ما حظر عنهم علمه، من علوم الغيب سواء في أرواحهم فضلاً عن أسماء وصفات وذات ربهم عز وجل، فلم تقنع بالتسليم ـ لله ورسوله ـ فُهُومُهُم، حتى حجب مرامهم عن خالص التوحيد، وصافي المعرفة، وصحيح الإيمان، فتذبذبوا بين الكفر والإيمان، وبين التصديق والتكذيب، والإقرار والإنكار، تائهين شاكين، أو قل: جاحدين مكذبين منكرين.

---

(١) كثرت البحوث في الموضوع قديمًا وحديثًا، وأحسن ما رأيت فيه بحث ابن القيم له في المجلد الثاني من الصواعق المرسلة.

وهي لعمر الله بذرة يهود: بذرة الفرقة والشقاق في هذه الأمة، استطالت حتى أظلت عقول كثير من المسلمين، ممن يدعون أنهم أهل المعرفة والفكر والنظر، وهم أبعد أهل الإسلام عن النص والأثر.

وما التشكيك بخبر الآحاد صحةً أولاً، ثم دلالةً ثانيًا، إلاَّ من سوق تلك البذرة الكاسدة، والبضاعة الفاسدة.

ولم يكن السلف الصالح من قريب ولا بعيد يفرقون بين خبر عن رسول الله ﷺ وآخر بدعوى أنه آحادي أو متكاثر الورود، تفريقًا يؤثر في العمل والعلم والاعتقاد، واستمر هذا في أهل السنَّة والجماعة، أهل الحديث والأثر إلى يومنا هذا، وإلى أن يشاء الله تبارك وتعالى، متى صح الحديث وتُلقي بالقبول وجب العمل والاعتقاد به ولزم، ولا أدل على هذا من الحديث الغريب في طبقات رواته الأربعة، أعني حديث الصحيحين عن يحيى بن سعيد القطان الأنصاري، عن محمد بن إبراهيم التيمي، عن علقمة بن وقاص الليثي، عن أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**».

أما الحافظ ابن رجب الحنبلي فمن خلال تتبّع كلامه، وفي العقيدة خاصة، لم أجده تطرّق إلى هذا التفريق، ولا لرد حديث أو إيقاف اعتباره لأنه آحادي. بل الملاحظ عكس ذلك تمامًا، حيث استدل بالأحاديث النبوية ــ لكن المقبولة منها صحة وحسنًا ــ ولم يفرق بينها بما تكلم عليه المُحدَثون من كونه آحاديًّا، محتمل الخطأ أو السهو. . .

بل هو رحمه الله مستدل بها جميعًا، عامل بما دلت عليه، دائر معها أينما دارت بفهم السلف الصالح المعتبر. نعم إذا كان الحديث متواترًا، ينبّه على تلك المسألة التي جاء فيها الخبر متواترًا، كالمسح على الخفين وعذاب القبر ونعيمه[1]، دون إشارة لا من قريب ولا بعيد إلى رد الآحاد أو عدم إفادته العلم أو وجوب العمل به.

فإذا علمنا أن ما ورد من السنَّة الصحيحة تواتره من المسائل العلمية قليل ومحصور، ولا يقوم الدين بالاقتصار عليها، فضلاً عن أصوله وقواعده.

ومن الأدلة على أن منهجه في هذه المسألة منهج السلف الصالح لم يخرج عنه أو يحيد، شرحه لحديث عمر بن الخطاب السابق وهو الغريب سندًا في طبقاته الأربع من الصحابي إلى علقمة تلميذه إلى محمد بن إبراهيم، إلى يحيى بن سعيد الأنصاري، وعنه انتشر واشتهر، حتى قيل إنه رواه عنه مائتا راوٍ أو ربما أكثر.

وهذا الحديث في الواقع هو مظنة شبهة منكري حجية خبر الواحد، إلاَّ أن الحافظ في هذا الموضع من شرحه للأربعين النووية نقل اتفاق العلماء على صحة الحديث، وتلقي الأمة له بالقبول، بل قال: إنه أحد الأحاديث التي يدور عليها الدين، حتى جعلوه أحد ثلاثة أحاديث

---

(١) كما صرح في أهوال القبور، ص ٤٣. وكما صرح بذلك عند حديث الشفاعة العظمى للنبي ﷺ في فتح الباري له ورقة ٩١. وكما صرح في البشارة العظمى ص ١٨٢، بتواتر النصوص عنه عليه الصلاة والسلام بتكفير الذنوب بالأسقام والأوصاب إلى غير ذلك.

تدور عليها أصول الإسلام، وأنه ثلث العلم. . . »[1].

* **الأخذ بمجموع نصوص الوحيين:**

وهذا منهج جدير بالبيان من مناهج الحافظ ابن رجب الحنبلي، بل هو منهج أهل السنَّة والجماعة تجاه نصوص الكتاب والسنَّة، والعمل بهما، والدعوة إليهما.

فأهل السنَّة والجماعة لا تجدهم في جميع أصولهم ينفكون عن هذا المنهج، ولذا تتفق الأدلة من الكتاب وصحيح السنَّة على أصولهم، وتفرق على أصول المبتدعة من سائر الطوائف، وهذا معنى مهم من معاني وسطية أهل السنَّة والجماعة، فهم مثلاً في باب الوعد والوعيد، أخذوا بنصوص الوعد وبنصوص الوعيد فأعملوهما جميعًا.

أما المبتدعة فكانوا على طرفين: طرف أعملوا نصوص الوعد، وأهملوا نصوص الوعيد، وظنوها معارضة للأولى، وهؤلاء هم المرجئة. وطرف على ضده، أعملوا نصوص الوعيد، وأهملوا نصوص الوعد، وهم الخوارج والمعتزلة.

فالرد على هؤلاء بنصوص أولئك، والرد على أولئك بنصوص هؤلاء[2].

---

(١) جامع العلوم والحكم، ص ٧ ــ ١٠. وانظر هناك كيف أكد أهميته، ونقله أقوال العلماء في منزلة هذا الحديث العظيمة في الدين وعند المسلمين.

(٢) وهذا المنهج في الرد على أهل البدع قد نظره وسلكه أئمة أهل السنة المتأخرين، كشيخ الإسلام ابن تيمية في أوائل التدمرية، في رده على الأشاعرة بالمعتزلة، ورده على المعتزلة بالجهمية، فيما نفاه وأثبته كُلٌّ من الأسماء والصفات. والعلامة ابن =

أما أهل السنَّة والجماعة فوفقوا بين الأدلة وجمعوا بين نصوص الوعد والوعيد، ففازوا بموافقة المنقول وصراحة المعقول، وسلموا في طريقهم من رد النصوص أو بعضها واطراحها، بل وُفقوا للإذعان والتسليم لمدلول الكتاب والسنَّة.

وهكذا عمل الحافظ ابن رجب، فأيَّ مسألة يمر عليها باحثًا لها تجده يجمع فيها الأدلة من الكتاب والسنة وأقوال علماء السلف، وإن كان في بعضها ما هو ظاهر التعارض ولكن يسلك مسلك أهل السنَّة، فيعمل جهده وفقهه، بالتوفيق بين ما ظاهره التعارض ويؤلف بينها حتى يخرج منها بحكم تتوافق فيه جميع الأدلة وتتفق ولا تفترق، وغالبًا ما يكون فيها تابعًا لإمام من أئمة السلف فيها. وشاهد لذلك تعارض الأدلة فيمن قال لا إلـه إلَّا الله، فانظر كلامه فيها آخر الفصل الثالث من الباب الثاني في تحقيق كلمة الإخلاص، ص ٨ ــ ١٦.

وهو على كل حال ليس بالمعصوم الذي تنزه عن الخطأ والزلل، ولم يكن قوله كله سيئًا لا نقص فيه، ولكن الشأن في الجادة والمنهج وهي ما نحسبها جادة أهل السنَّة وطريقتهم.

* * *

= القيم في كتابه الحافل «الصواعق المرسلة» في الفصل العشرين ٢/ ٤٥٢ وما بعدها.

ثالثًا:

الإجمـاع

الإجماع: هو اتفاق علماء العصر من أمة النّبـي ﷺ على حكم شرعي في حادثة.

والإجماع عند العلماء ثالث مصادر الشريعة الإسلامية؛ لأنه اجتماع لأهـل العلم على حكم شرعي، واجتماعهم معصوم؛ لقوله تعالى في سـورة النساء: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [النساء: ١١٥]، ولحديث النّبـي ﷺ: «لا تجتمع أمتي على ضلالة»(١)،

---

(١) حديث مشهور عند الأصوليين، رواه جملة من الصحابة، منهم ابن عمر وأبو مالك الأشعري وأبو مسعود الأنصاري البدري، وكعب بن عاصم الأشعري وأبو بصرة الغفاري وأنس بن مالك، رضي الله عنهم، بألفاظ مختلفة متقاربة المعنى.
أخرجها عنهم الإمام أحمد في مسنده في مواضع، منها ٦/ ٣٩٦، وأبو داود في سننه برقم ٤٢٤٣، والترمذي في جامعه برقم ٤٦٦، وابن ماجه برقم ٣٩٥٠، وابن أبـي عاصم في كتابه السنَّة ١/ ٤١ فما بعدها. وهذه الجملة من الحديث صحيحة، جاءت من طرق كثيرة، صححها غير واحد من العلماء من متأخريهم الألباني في المشكاة برقم ١٧٣ و ١٧٤، وصحيح الجامع ١٨٤٨.
والحديث مشهور وعليه اعتمد الأصوليون في تقريرهم للإجماع. وانظر كلام ابن =

ويكون الاجماع قوليًا وفعليًا وسكوتيًا، وكما يكون ظنيًا وقطعيًا.

ولا شك أن الإجماع القطعي حجة على الناس، والمخالف له كالمخالف للدليل السمعي من الكتاب والسنَّة، والإجماع القطعي معتبر وملزم.

ومن خلال مطالعة كتب الحافظ ابن رجب الحنبلي رأيته يُنوّع الإجماع[1] إلى نوعين:

١ ـ **النوع الأول**: نقله الإجماع عن علماء سابقين له من المشهورين من أهل السنَّة والجماعة. وذلك أنه يورد المسألة المجمع عليها، وينقل كلامهم في الإجماع.

كما نقل الإجماع عن الإمام ابن جرير الطبري فقال: «. . . فقد قال ابن جرير الطبري: أجمع الناس أن إظهار الواجب أفضل»[2]. اهـ.

أي أن إظهار الواجب من الفرائض كالزكاة والصلاة أفضل من

= حزم عليه في الإحكام ١/٤٩٦، والمقاصد الحسنة برقم ١٢٨٨، والتلخيص الحبير ٣/١٤١، والدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة برقم ٤٥٩، والمعتبر في تخريج أحاديث منهاج المختصر للزركشي رقم ٢٤؛ وكشف الخفاء رقم ٢٩٩٩، وتحفة الطالب بمعرفة أحاديث مختصر الحاجب لابن كثير، ص ١٤٨ وما بعدها.

(١) لم أستطع بيان مراد الحافظ ابن رجب من نقله للإجماع عن العلماء، أيريد به الإجماع القطعي أو الظني، بحيث يكون قول عامة العلماء أو جماهيرهم؟ ولكنه فيما حكاه هو بنفسه من الإجماع يريد به الإجماع القطعي الملزم به شرعًا بلا شك.

(٢) من رسالته في بيان صدقة السر وفضلها، ص ٥٩ ـ ٦٠. ويلاحظ أن حكاية ابن جرير للإجماع أقوى وأضبط من حكاية ابن المنذر لأنه غالبًا يحكي عمن يحفظ أو يذكر قول الجماهير.

إسرارها. كما نقل الإجماع عن ابن المنذر، عمن يحفظ عنه أنه لا يعطي أهل الذمة من صدقة المال شيئًا.

وكنقله الإجماع على أن الإيمان قول وفعل، عن الشافعي، بأنه إجماع الصحابة والتابعين، كذا حكايته عن الأوزاعي وأبي ثور وغيرهم. وهذا متوجه في إجماع المتقدمين، ولما حصل خلاف في المتأخرين. قال الحافظ في أول شرحه لكتاب الإيمان في البخاري:

«وأكثر العلماء قالوا: هو قول وعمل. وهذا كله إجماع من السلف وعلماء الحديث، وقد حكى الشافعي إجماع الصحابة...». اهـ[١].

هذا، وربما تعقب الحافظ دعاوى بعض العلماء للإجماع؛ لقيام المعارض القوى عنده لهذه الدعوى، كما تعقب ابن قتيبة الدينوري في دعواه الإجماع على ترك العمل بأحاديث المسح على العمامة، ودعوى بعضهم الإجماع على ترك العمل بأحاديث فسخ الحج إلى العمرة، ودعوى بعضهم الإجماع على ترك العمل بحديث: «**إذا اختلف المتبايعان والسلعة قائمة، فالقول ما قال البائع أو يترادان البيع**»[٢]، رواه أبو داود والنسائي.

٢ ـ **النوع الثاني**: ما ينقله هو بنفسه من الإجماع على مسألة من المسائل، كنقله الإجماع على جواز نقد الرواة في كتب الجرح والتعديل، وبيان خطأ من أخطأ في فهم معاني الكتاب والسنَّة.

---

(١) من أول فتح الباري على أول كتاب الإيمان منه.

(٢) انظرها في شرح علل الترمذي له، ص ٤٠ ـ ٤١.

ونقله الإجماع على قصد إظهار الحق الذي جاء به الرسول ﷺ.

قال في رسالته الماتعة «الفرق بين النصيحة والتعيير»:

«وقد قرر علماء الحديث هذا في كتبهم في الجرح والتعديل، وذكروا الفرق بين جرح الرواة، وبين الغيبة، وردوا على من سوَّى بينهما من المتعبدين وغيرهم ممن لا يتسع علمه، ولا فرق بين الطعن في رواة ألفاظ الحديث ولا التمييز بين من تقبل روايته منهم ومن لا تقبل، وبين تبيين خطأ من أخطأ في فهم معاني الكتاب والسنَّة، وتأول شيئًا منها على غير تأويله، وتمسك بما لا يتمسك به، ليحذر من الاقتداء به فيما أخطأ فيه.

وقد أجمع العلماء على جواز ذلك أيضًا، ولهذا نجد في كتبهم المصنّفة في أنواع العلوم الشرعية من التفسير، وشروح الحديث، والفقه، واختلاف العلماء، وغير ذلك ممتلئة من المناظرات.

وردُّوا أقوال من تضعف أقواله من أئمة السلف والخلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، ولم يترك ذلك أحد من أهل العلم، ولا ادعى فيه طعنًا على من رد عليه قوله، ولا ذمًّا ولا نقصًا، اللَّهمَّ إلاَّ أن يكون المصنف ممن يفحش في الكلام، ويسيء الأدب في العبارة فينكر عليه فحاشته وإساءته دون أصل ردِّه ومخالفته، إقامة بالحجج الشرعية والأدلة المعتبرة.

وسبب ذلك أن علماء الدين كلهم مجمعون على قصد إظهار الحق الذي بعث الله به رسوله ﷺ، وأن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمته هي العليا.

وكلهم معترفون بأن الإحاطة بالعلم كله من غير شذوذ شيءٍ منه ليس هو مرتبة أحد منهم، ولا ادعاه أحد من المتقدمين ولا من المتأخرين، فلهذا كان أئمة السلف المجمع على علمهم وفضلهم يقبلون الحق ممن أورده عليهم وإن كان صغيرًا. . . »[1]. اهـ.

وهذا النوع هو الإجماع المعتبر الواجب موافقته، والمذموم مخالفته. وهذا أظهر وأقوى دلالة من الإجماع الأول الذي ينقله، وربما يُوجد في بعض ما ينقل من الإجماعات الواضحة قوة كهذا، فالعبرة بنوع الإجماع المحكي، وقائله، وقوة مستمسكه الشرعي.

* * *

(١) ص ٢٥ ــ ٢٦ من الفرق بين النصيحة والتعيير.

القـيـاس

* وبهذه المناسبة ربما يطرأ سؤال: لِمَ لم يجعل الحافظُ القياسَ مصدرًا للتلقي والاستدلال؟ لأن القياس عند جمهور العلماء من مصادر الشريعة.

والجواب: أنه في باب العقيدة لا يصح اعتبار القياس أبدًا في إثباتها؛ لأن العقيدة غيب، والغيب لا يثبت بالنظر والفكر وقياس الأصل على الفرع بسبب العلة الجامعة.

ولأن القياس مأخذه العقل، والعقل دوره في باب العقيدة العلم والفهم دون التلقي، فهو في غير العقيدة معتبَر في محله وبشرطه.

ولـذا لمـا تكلـم العلمـاء علـى أنـواع القيـاس التـي تستخـدم فـي حق الله، نفوا أن يستخدم فيه قياس التمثيل أو قياس الشمول:

* فلا يجوز أن يُمثَّل سبحانه بغيره وهو «**قياس التمثيلَ**».

ولا أن يدخل سبحانه وغيره تحت قضية كلية يستوي جميع أفرادها، وهو «**قياس الشمول**» كما سلك به المتكلمون والفلاسفة في حقه فعطلوا صفات الله، والواجب له من الكمال والتنزيه من ضده، لأجل هذه الأقيسة.

ولكن الواجب أن يُستخدم في حقه عز وجل **قياس المثل الأعلى** ـ إن سميناه قياسًا ـ الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٦٠﴾ [النحل: ٦٠].

والمثل الأعلى: هو كل كمال ثبت للمخلوق لا نقص فيه بوجه من الوجوه فالله أولى به وأحق؛ لأنه هو الذي أمده به.

وكل عيب ونقص لا كمال فيه بوجه من الوجوه، وجب نفيه عن مخلوق من مخلوقاته؛ فالله أولى بالتنزيه عنه، ونفيه عن ذاته.

ـ فالعلم صفة كمال لا نقص فيها، فالله عز وجل أولى به، فهو العالم سبحانه علمًا محيطًا بكل شيء، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، ويدل للأخير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝٢٨﴾ [الأنعام: ٢٨].

ـ والتزوج والولد صفة كمال، لكنها تدل على نقص؛ للحاجة إلى الزوجة والولد، فنفاها الله عن نفسه في آخر الإسراء: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ۝١١١﴾ [الإسراء: ١١١]، وفي سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ [سورة الإخلاص].

ـ والعور لما كان عيبًا لا كمال فيه تنزه الله عز وجل عنه، كما صح في الصحيحين من حديثي أبي هريرة وابن عمر رضي الله عنهم.

ـ والمكر والكبر لما كانا عيبين، لكنهما كمال فيمن يستحقهم، وصف الله بهما في مقابل من يستحق أن يقابل بهما، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: ١٥ ـ ١٧].

* * *

رابعًا:

دلالة الفطرة

اعتبر الحافظ ابن رجب الفطرة دليلاً على التوحيد ومصدرًا له؛ لأنها دلت على وجود الله وربوبيته ووحدانيته.

فالفطرة من الأدلة المعتبرة في مصادر تلقي العقيدة، والاستدلال لها، وهي ما جبله الله في قلوب عباده في قرارة أنفسهم من معرفته وتوحيده، والحق المبرهن.

قال تعالى في سورة الروم: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: ٣٠].

والفطرة هي الإسلام العام، وهي العهد المأخوذ على بني آدم في آخر الأعراف ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وقد فطر الله عباده على توحيده وحده لا شريك له في ألوهيته وربوبيته المطلقتين الشاملتين؛ فكل الناس يكونون على هذه الفطرة، قبل أن تطرأ عليهم أنواع المؤخذات والمغيرات.

قال الحافظ ابن رجب في شرح حديث أبـي ذر الغفاري رضي الله عنه القدسي: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا. يا عبادي كلكم ضال إلاَّ من هديته فاستهدوني أهدكم**» الحديث رواه مسلم، قال فيه: «وقوله: «**كلكم ضال إلاَّ من هديته**» قد ظن بعضهم أنه معارض لحديث عياض بن حمار عن النّبـي ﷺ، يقول الله عز وجل: «**خلقت عبادي حنفاء**»، وفي رواية: «**مسلمين فاجتالهم الشياطين**» وليس كذلك.

فإن الله خـلق بني آدم وفطرهم عـلى قبول الإسلام والميل إليه دون غيره، والتهيؤ لذلك، والاستعداد له بالقوة، لكن لا بد للعبد من تعلم الإسلام بالفعل، فإنه قبل العلم جاهل لا يعلم شيئًا كما قال عـز وجـل: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨]، وقال لنبيّه ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

فالإنسان يولد مفطورًا على قبول الحق، فإن هداه الله تعالى سَبَّبَ له من يعلمه الهدي فصار مهديًا بالفعل، بعد أن كان مهديًا بالقوة، وإن خذله الله قيض له من يعلمه ما يغير فطرته، كما قال النّبـي ﷺ: «**كل مـولـود يـولـد عـلى الفطـرة فـأبـواه يهـودانـه أو ينصـرانـه أو يمجسانه...**»[1]. اهـ.

---

(١) من جامع العلوم والحكم، شرح الحديث الرابع والعشرين، ص ٢٢٤. والحديث مخرج في صحيح البخاري من حديث أبـي هريرة رضي الله عنه.

وذكر بعدها أنواع الهداية، وأحد نوعيها هو الفطرة التي فطرهم عليها في قلوبهم فقال:

«وأما سؤال المؤمن من الله الهداية، فإن الهداية نوعان:

١ ـ **هداية مجملة**: وهي الهداية للإسلام والإيمان، وهي حاصلة للمؤمن بتوفيق الله.

٢ ـ **وهداية مفصّلة**: وهي هداية إلى معرفة تفاصيل أجزاء الإيمان والإسلام وإيمانه على فعل ذلك، وهذا يحتاج إليه كل مؤمن ليلاً ونهارًا، ولهذا أمر الله عباده أن يقرأوا في كل ركعة من صلاتهم قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦]، وكان النّبي ﷺ يقول في دعائه في صلاة الليل: «اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[١]. اهـ.

وهكذ فقد دلت الفطرة على التوحيد، وقبول دين الرسول عليه الصلاة والسلام، بل الفطرة تدل على كل خلق جميل، وطبع حميد، فضلاً عن أن تنهي عن ضده من الظلم والبغي والعدوان، وسوء الطباع.

هذا وقد قرر الحافظ ابن رجب الموضوع في موضع آخر من كتابه «مقدمة تشتمل على أن جميع الأنبياء كان دينهم الإسلام» ص ١٦ ـ ١٧، فقال:

---

(١) حديث رواه البخاري في الصحيح من حديث أبي هريرة، وهو حديث مشهور رضي الله عنه.

«فإن العباد وإن كانوا مفطورين على معرفة الله ومحبته وتألهه فإن: «**كل مولود يولد على الفطرة**»[1] وهي سلامة القلب وقبوله وإرادته للحق الذي هو الإسلام، وتهيؤه له، لكنهم محتاجون أشد الحاجة إلى ما يحمل قوتهم العلمية والعملية، وهو العلم النافع والعمل الصالح، وبذلك يصيرون مسلمين بالفعل بعد أن كانوا مسلمين بالقوة. فلذلك أرسل الله الرسل وأنزل معهم الكتب ليرشدوا الخلق إلى ما فيه سعادتهم، وفلاحهم في دنياهم وآخرتهم، وضمن لهم أن من اتبع هداه الذي أرسل به رسله فلا يضل ولا يشقى، وأنه على هدى من ربه، وأنه من المفلحين، فالهدى ضد الضلال، والفلاح ضد حال أهل الشقاء، وكذلك الغي، كما نفى الله تعالى عن نبيه ﷺ أن يكون ضل أو غوى، فإذا جمع بين الضلال والغي، فالضلال من الجهل، وعدم العلم والغي من اتباع الهوى، ذاك فساد في القوة العلمية، وهذا فساد في القوة العملية.

ولن ينجو من ذلك إلاَّ أهل الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين». اهـ.

والفطرة بهذا الاعتبار مصدر من مصادر العقيدة، لكن غير مستقل، فهو سبب هداية لا تتم الهداية وتكتمل به وحده، ولهذا أرسل الله الرسل وأنزل الكتب وأقام الحجة، ولو كان في الفطرة كفاية لما احتاج لذلك.

* * *

(١) من جامع العلوم والحكم، ص ٢٢٤، شرح الحديث الرابع والعشرين، ص ١٦٥.

خامسًا:
دلالة النظر والتفكُّر

وهاتان الدلالتان دلّل بهما الحافظ ابن رجب على قضايا مهمة، أهمها:

١ ــ تحقيق توحيد الربوبية.

٢ ــ وتحقيق توحيد الله بالعبادة.

٣ ــ تقدير الدنيا قدرها والاعتبار بما فيها على الزهد بها.

* فمن شواهد كلامه رحمه الله على تحقيق توحيد العبادة بتحقيق نوع من أنواعه وهو تحصيل محبة الله، قوله في «استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس»:

«ومما يستجلب به المحبة: تلاوة القرآن بالتدبّر والتفكّر، ولا سيما الآيات المتضمنة للأسماء والصفات والأفعال الباهرات، ومحبة ذلك يستوجب به العبد محبة الله، ومحبة الله له.

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً كان يصلي بهم ويختم قراءته بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١]، فأمر النّبي ﷺ أن يُسأل عن ذلك، فقال: إنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن

أقرأها، فقال النّبـي ﷺ: «أخبروه أن الله يحبّه». اهـ[1].

* ومن شواهده أيضًا على تقرير توحيد الربوبية، ودلالته على عبادة الله والإيمان بألوهيته، مع الزهد بالدنيا والطمع عنها بالآخرة الباقية، بأسلوب شيّق مؤثّر في القلوب، قوله في كتابه الماتع «اللطائف»:

«كل ما في الدنيا فهو مُذكر بالآخرة، ودليل عليه؛ فنبات الأرض واخضرارها في الربيع بعد محولها ويبسها في الشتاء، وإيناع الأشجار واخضرارها بعد كونها خشبًا يابسًا يدل على بعث الموتى من الأرض، وقد ذكر الله تعالى ذلك في كتابه في مواضع كثيرة، قال الله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾ [الحج: ٥ ـ ٧].

وقال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾ [ق: ٩ ـ ١١].

وقال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٥٧﴾ [الأعراف: ٥٧].

---

(١) من كتابه: استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس، المطبوع، ص ٧٨. كذلك انظر شرح حديث أبـي الدرداء، ق ١١١.

قال أبو رزين للنّبـي ﷺ: كيف يحيـي الله الموتى؟ وما آية ذلك فـي خلقـه؟ قـال: «**هـل مـررت بـواد أُهلـك محـلاً، ثـم مـررت بـه يهتـزُّ خضرًا**»؟ قال: نعم. قال: «**كذلك يخرج الله الموتى، وذلك آيته في خلقه**». خرَّجه الإمام أحمد.

وقصر مدة الزرع والثمار وعود الأرض بعد ذلك إلى يبسها، والشجر إلى حالها الأول، كعود ابن آدم بعد كونه حيًّا إلى التراب الذي خلق منه.

وفصول السنة تذكّر بالآخرة؛ فشدَّة حر الصيف يذكّر بحرّ جهنم، وهو من سمومها؛ وشدة برد الشتاء يذكر بزمهرير جهنم وهو من زمهريرها، والخريف يكمل فيه اجتناء الثمرات التي تبقى وتدخر في البيوت، فهو منبّه على اجتناء ثمرات الأعمال في الآخرة. وأما الربيع فهو أطيب فصول السنة، وهو يذكر بنعيم الجنة وطيب عيشها، فينبغي أن يحث المؤمن على الاستعداد لطلب الجنة بالأعمال الصالحة.

كان بعض السلف يخرج في أيام الرياحين والفواكه إلى السوق، فيقف وينظر ويعتبر، ويسأل الله الجنة.

ومر سعيد بن جبير بشباب من أبناء الملوك جلوس في مجالسهم في زينتهم، فسلَّموا عليه، فلما بعد عنهم بكى واشتد بكاؤه، وقال: ذكّرني هؤلاء شباب أهل الجنة.

تـزوج صلـة بـن أشيـم[1] بمعـاذة العـدويـة، وكـانـا مـن كبـار

(١) هو صلة بن أشيم، أبو الصهباء العدوي البصري، الزاهد العابد، من رجال الكتب الستة. مات بسجستان سنة ٦٢هـ. وخبره هذا في «صفة الصفوة» ٣/ ٢١٩.

الصالحين، فأدخله ابن أخيه الحمام، ثم أدخله على زوجته في بيت مطيب منجد، فقاما يصليان إلى الصباح، فسأله ابن أخيه عن حاله، فقال: أدخلتني بالأمس بيتًا أذكرتني به النار، يعني الحمام، وأدخلتني الليلة بيتًا أذكرتني به الجنة، فلم يزل فكري في الجنة والنار إلى الصباح.

دعا عبد الواحد بن زيد إخوانه إلى طعام صنعه لهم، فقام على رؤوسهم عُتبةُ الغلام يخدمهم وهو صائم، وهم يأكلون، فجعلت عيناه تهملان. فسأله عبد الواحد عن سبب بكائه، فقال: ذكرت موائد أهل الجنة إذا أكلوا وقام الولدان على رؤوسهم.

إنما خلقت الدنيا مرآة لننظر بها إلى الآخرة لا لننظر إليها ونوقف معها.

كَفَى حَزَنًا أن لا أعايِنَ بُقْعَةً ... مِنَ الأرْضِ إلاَّ ازْدَدْتُ شوقًا إليكُمُ
وإنِّي متى ما طابَ لي خفْضُ عِيشةٍ ... تذكَّرْتُ أيَّامًا مَضَتْ لي لَديكُمُ

* تدقيق النظر والفكر في حال النبات يستدل به المؤمن على عظمة خالقه وكمال قدرته ورحمته، فتزداد القلوب هيمانًا في محبته، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)﴾ [الأنعام: ٩٩].

زمان الربيع كله واعظ يذكر بعظمة مُوجده وكمال قدرته، ويشوّق إلى طيب مجاورته في دار كرامته، كما قال ابن سمعون[1] في وصف الربيع: أرضه حرير، وأنفاسه عبير، وأوقاته كلها وعظ وتذكير.

وقال غيره: الأرض فيه زمردة، والأشجار حلل ووشي، والهواء مسك، والنسيم عبير، والماء راح، والطير قيان، والكل دال على كمال الصانع، شاهد له بالوحدانية.

أنشد بعضهم في زمان الربيع:

يا قومَنا فاحَ الرَّبيع ... ولاحَ للأحبابِ نجدُ
الزَّهْرُ مِسْكٌ والرِّيا ... ضُ أرِيضَةٌ والماءُ جَعْدُ
والظِّلُّ منثورٌ وفي ... جِيدِ الشقائق منه عِقْدُ
هذا النَّسيمُ مْعَنْبَرٌ ... وضَبَابُ هذا النَّوْءِ نِدّ
والغُصْنُ يرْقُصُ والغَدِيـ ... ـرُ مصفِّقٌ والوُرْقُ تشدُو
والجوُّ بعضٌ منه يا ... قُوتٌ وبَعْضٌ لازَوَرْدُ
والكُلُّ يَشْهَدُ أنَّ صا ... نِعَهُ قديرٌ وَهْوَ فَرْدُ

وأنشد آخر:

الطَّلُّ في سلكِ الغُصون كلؤلؤٍ ... رَطْبٍ يصافِحُه النَّسيمُ فيسقُطُ
والطَّيرُ يقرأ والغديرُ صحيفة ... والرِّيح يكتبُ والغمامُ يُنَقِّطُ

---

(١) هو محمد بن أحمد بن إسماعيل «سمعون» بن عَنْبَسُ البغدادي الواعظ الملقب: الناطق بالحكمة (٣٠٠ ــ ٣٨٧) أخباره في السير ١٦/ ٥٠٥، وطبقات الحنابلة ٢/ ٥٥، والبداية والنهاية ١١/ ٣٢٣، وتاريخ بغداد ١/ ٢٧٤.

رُؤي بعضُ الشعراء المتقدمين في المنام بعد موته، فسئل عن حاله، فقال: غفر لي بأبيات قلتها في النرجس، وهي:

تَفَكَّرْ في نباتِ الأرْضِ وانْظُرْ ... إلى آثارِ ما صَنَعَ المليكُ
عيونٌ من لُجينٍ ناظِراتٌ ... بأحداقٍ هِيَ الذَّهبُ السَّبيكُ
على قُضُبِ الزَّبَرْجَد شاهداتٌ ... بأنَّ الله ليس له شَريكُ

سبحان من سبحت المخلوقات بحمده، فملأ الأكوان تحميده، وأفصحت الكائنات بالشهادة بوحدانيته، فوضح توحيده، يسبحه النبات جمعه وفريده، والشجر عتيقه وجديده، ويمجده رهبان الأطيار في صوامع الأشجار، فيطرب السامع تمجيده، كلما درَّس الهزار درس شكره فالبلبل بالحمد معيده، وكلما أقام خطيب الحمام النوح على منابر الدوح هيج المستهام نوحه وتغريده، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ١٩].

واعجبًا للمتقلب بين مشاهدة حكمه وتناول نعمه، ثم لا يشكر نعمه ولا يبصر حكمه، وأعجب من ذلك أن يُعصى المنعم بنعمه، هذا عود شجر الكرم يكون يابسًا طول الشتاء، ثم إذا جاء الربيع دب فيه الماء واخضر، ثم يخرج الحصرم فينتفع الناس به حامضًا، ويتناولون منه طبخًا واعتصارًا، ثم ينقلب حلوًا فينتفع الناس به حلوًا رطبًا ويابسًا، ويستخرجون منه ما ينتفعون بحلاوته طول العام، وما يأتدمون بحمضه وهو نعم الإدام.

فهذه التنقلات توجب للعاقل الدهش والتعجب من صنع صانعه وقدرة خالقه، فينبغي له أن يفرغ عقله للتفكر في هذه النعم والشكر

عليها. وأما الجاهل فيأخذ العنب فيجعله خمرًا فيغطي به العقل الذي ينبغي أن يستعمل في الفكر والشكر، حتى ينسى المنعم عليه بهذه النعم كلها، فلا يستطيع بعد السكر أن يذكره ولا يشكره، بل ينسى من خلقه ورزقه، فلا يعرفه في سكره بالكلية، وهذه نهاية كفران النعم.

فواعجبًا كيف يُعصَى الإلٰهُ أمْ كَيْفَ يجحَدُهُ الجاحِدُ
ولله في كُلِّ تحريكةٍ وتسكينةٍ أبدًا شاهِدُ
وفي كُلِّ شيءٍ لَهُ آيةٌ تَدُلُّ على أنَّهُ واحِدُ

* ومن وجوه الاعتبار في النظر إلى الأرض التي أحياها الله بعد موتها في فصل الربيع بما ساق إليها من قطر السماء، أنه يرجى من كرمه أن يحيي القلوب الميتة بالذنوب وطول الغفلة، بسماع الذكر النازل من السماء، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿ ۞أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]، إلى قوله: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد: ١٧]، ففيه إشارة إلى أن من قدر على إحياء الأرض بعد موتها بوابل القطر، فهو قادر على إحياء القلوب الميتة القاسية بالذكر.

عسى لمحة من لمحات عطفه، ونفحة من نفحات لطفه، وقد صلح من القلوب كل ما فسد، فهو اللطيف الكريم.

عَسَى فَرَجٌ يأتي بهِ الله إنَّه لَهُ كُلَّ يومٍ في خليقته أمْرُ
إذا اشْتَدَّ عُسْرٌ فارْجُ يُسرًا فإنَّه قَضَى الله أنَّ العُسْرَ يتبعه اليُسْرُ

عسى من أحيا الأرض الميتة بالقطر أن يحيي القلوب الميتة

بالذكر. عسى نفحة من نفحات رحمته تهب؛ فمن أصابته سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدًا». اهـ[1].

ومثل هذا ونظائره من نفسه العليل المخالج للقلوب قبل العقول، كثير مبثوث في كتبه رحمه الله، مما أكسبها حلاوة ورونقًا وذيوعًا وإقبالاً من الناس.

* * *

(١) من: لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، ص ٥٤٠ ــ ٥٤٤.

الفصل الثاني

منهج الحافظ ابن رجب الحنبلي في وسائل فهم نصوص الكتاب والسنّة

الفصل الثاني

منهج الحافظ ابن رجب الحنبلي في وسائل فهم نصوص الكتاب والسنّة

في الفصل السابق كان الحديث عن عرض مصادر الحافظ ابن رجب الحنبلي في تلقي العقيدة، والاستدلال منها، ومنهجه فيه. ثم هذا الفصل الذي سيتركز البحث فيه إن شاء الله على منهج الحافظ في الوسائل التي فهم بها مصادر التلقي والاستدلال مما يؤكد الفصل السابق ويدعمه.

ولا بد من الإشارة إلى أن الحديث هاهنا عن بعض تلك الوسائل، بل أشدها وأظهرها وأسلمها طريقًا لفهم مصادر التلقي وصحة الاستدلال منها. وهذه الوسائل هي:

١ ــ فهم السلف الصالح المتمثل بأقوالهم وأحوالهم في التعامل مع النصوص الشرعية من الكتاب والسنَّة.

٢ ــ دور العقل وحجمه مع النص.

٣ ــ ربط العلم بالعمل.

* * *

أولاً:

أقوال السلف الصالح

وأفعالهم أيضًا وأحوالهم، التي تصدِّق تلك الأقوال، وتبين تعاملهم مع كلام الله وكلام رسوله ﷺ، وفهمهم لهما وعملهم بهما.

وقبل ذلك لا بد من التعريف بالسلف من لفظ الحافظ ابن رجب نفسه فقال في كتابه «فضل علم السلف على الخلف»:

«فأفضل العلوم في تفسير القرآن ومعاني الحديث والكلام في الحلال والحرام ما كان مأثورًا عن الصحابة، والتابعين، وتابعيهم، إلى أن ينتهي زمن أئمة الإسلام المشهورين المقتدى بهم، الذين سميناهم فيما سبق»(١). يعني الثوري والأوزاعي والليث وابن المبارك وطبقتهم والشافعي ومالك وأحمد وإسحاق وأبو عبيد القاسم بن سلام.

وقد ألزم الحافظ الناس في زمانه خاصة ـ ومن بعدهم أولى وآكد ـ بكتابة كلام الأئمة والعناية به واتباعه. فقال ملزمًا ومحذرًا ومؤكدًا: «وفي زماننا يتعين كتابة كلام أئمة السلف المقتدى بهم إلى زمن الشافعي وأحمد وإسحاق وأبـي عبيد، وليكن الإنسان على حذر

(١) من كتابه فضل علم السلف على الخلف، ص ٤١ و ٤٢ ـ ٤٣، دار عمار.

مما حدث بعدهم، فإنه حدث بعدهم حوادث كثيرة، وحدث من انتسب إلى متابعة السنَّة والحديث من الظاهرية ونحوهم، وهو أشد مخالفة لها لشذوذه عن الأئمة وانفراده عنهم بفهم يفهمه أو بأخذ ما لم يأخذه به الأئمة من قبله. . .»[1].

وهؤلاء هم السلف الصالح المشاد بهم إلى القرن الثالث الهجري. وهكذا كان يحدهم شيخ الإسلام ابن تيمية في مواضع من مؤلفاته فيجعل آخرهم الإمام ابن جرير الطبري وابن المنذر.

كما ذكر ذلك في «منهاج السنَّة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية» **٧/ ١٣ و ٢٨٦ و ١٧٩/ و ٦/ ٥٢ ــ ٥٣.**

والأصل الذي يدور عليه تفضيل السلف الصالح، الحديث المخرج في الصحيحين عن ابن مسعود وعمران بن حصين رضي الله عنهم أن النّبي ﷺ قال: «**خير الناس ــ أو خيركم ــ قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يجيء قوم يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن**».

* وقد أشاد الحافظ ابن رجب بالسلف وركز على فضلهم، وعلو مكانتهم، وقارنهم بالأمم الأخرى، فقال عند شرحه حديث ابن مسعود رضي الله عنه الآنف الذكر «. . . من أين في الأمم مثل أبي بكر الصديق، أو عمر الذي ما سلك طريقًا إلاَّ هرب الشيطان من ذلك الطريق؟.

---

(١) نفس المرجع السابق.

أو عثمان الصابر على مر الضيق، أو عليٍّ بحر العلم العميق، أو حمزة أو العباس، أفيهم مثل طلحة والزبير القرينين، أو مثل سعد وسعيد؟ هيهات من أين؟ أو مثل ابن عوف، وأبـي عبيدة، ومن مثل الاثنين إن شبهتهم بهم، فقد أبعدتم القياس!

من أين في زهاد الأمم مثل أويس، أو في عبادهم مثل عامر بن عبد قيس، أو في خائفهم مثل عمر بن عبد العزيز، هيهات ليس ضوء الشمس كالمقياس.

أفي علمائهم مثل أبـي حنيفة ومالك، والشافعي السديد المسالك؟ كيف تمدحه وهو أجل من ذلك؟ ما أحسن بنيانه والأساس!

أفيهم أعلى من الحسن البصري وأنبل؟ أو ابن سيرين الذي بالورع تقبل؟ أو سفيان الثوري الذي بالخوف تسربل؟ أو مثل أحمد الذي بذل نفسه لله وسبَّل؟

تالله ما في الأمم مثل ابن حنبل! ارفع صوتك بهذا ولا بأس: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] »[١]. اهـ

* وقد عرف قدر السلف، فاقتدى بهم في قلة الكلام والتطويل فيه، وترك النصوص من القرآن والحديث تعبّر عنه بألفاظها المنزّلة بها. فسلك بذلك جادتهم، فما أقل كلامه عند كلامهم، فغالب كتبه آية أو حديث وأثر صحابـي وتابعي وقول إمام مشهور، وحال زاهد صالح عابد.

---

(١) من كتابه لطائف المعارف، ص ١٨٠ ـ ١٨١.

فلا شك أن الحق ما كان في كلامهم، وغيرهم فكلامهم في الدين إما ناقص أو لا نفع فيه أو باطل، وما كان فيه من حق، فقد سبقهم أولئك إليه.

قال رحمه الله مقررًا هذا: «فمن عرف قدر السلف عرف أن سكوتهم عما سكتوا عنه من ضروب الكلام، وكثرة الجدال، والخصام، والزيادة في البيان على مقدار الحاجة لم يكن عيًّا، ولا جهلاً، ولا قصورًا، وإنما كان ورعًا وخشية لله واشتغالاً عما لا ينفع بما ينفع.

وسواء في ذلك كلامهم في أصول الدين وفروعه، وفي تفسير القرآن والحديث، وفي الزهد والرقائق والحكم والمواعظ، وغير ذلك مما تكلموا فيه.

فمن سلك سبيلهم فقد اهتدى، ومن سلك غير سبيلهم، ودخل في كثرة السؤال والبحث والجدال، والقيل والقال، فإن اعترف لهم بالفضل، وعلى نفسه بالنقص كان حاله قريبًا»[1]. اهـ.

وقال في موضع آخر: «فضبط ما روي عنهم في ذلك أفضل العلم، مع تفهمه وتعقّله، والتفقّه فيه، وما حدث بعدهم من التوسع لا خير في كثير منه إلاَّ أن يكون شرحًا لكلام يتعلق بكلامهم.

وأما ما كان مخالفًا لكلامهم فأكثره باطل، أو لا منفعة فيه، وفي

---

(١) من كتاب «فضل علم السلف على الخلف»، ص ١٦١ و ١٤٧ وما بعدها، بل كل الكلام في كتابه هذا هو بالدندنة حول السلف الصالح وعلمهم وعملهم وفضلهم.

كلامهم في ذلك كفاية وزيادة، فلا يوجد في كلام من بعدهم من حق إلاَّ وهو في كلامهم موجود بأوجز لفظ وأقصر عبارة.

ولا يوجد في كلام من بعدهم باطل، إلاَّ وفي كلامهم ما يبين بطلانه لمن فهمه وتأمّله.

ويوجد في كلامهم من المعاني البديعة والمآخذ الدقيقة ما لا يهتدي إليه من بعدهم ولا يلم به»[١]. اهـ.

* وبالاستقراء لمؤلفات الحافظ ابن رجب، تجدها حافلة بالنقول الكثيرة عن السلف الصالح، خصوصًا الصحابة والتابعين.

وهي حافلة بالاعتداد بأقوالهم، وأفعالهم، وأحوالهم، وتأصيل المسائل بها، وفهم دلالات القرآن والحديث بفهمهم، أي فهم أدلة الكتاب والسنَّة بفهم السلف الصالح لها.

ــ ومن شواهد هذا في باب العقيدة مسألة دخول أطفال المسلمين الذين لم يبلغوا الحلم الجنة. حيث تتبع فيها أقوال كبار الصحابة كابن مسعود وعلي وابن عباس رضي الله عنهم أجمعين، وفتاوى الشافعي وأحمد في المسألة[٢].

فهو يعول على أقوال السلف في هذه المسائل، ويستدل بها ولها. ويوازن بين أقوالهم، ويربط أقوال اللاحقين بالسابقين، وينوع في

---

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) كما في تسلية نفوس الآباء والرجال عند فقط الأطفال «مجلة البحوث»، عدد ٢٣، ص ١٦٩ ــ ١٧٠.

الاستشهاد بالقول والحال على ما يناسب كل حال[1].

* كما أن الحافظ ابن رجب ينظر إلى أقوال السلف الصالح بعين البصيرة، فليس هو ناقل لكلام على عواهنه، أو دون تميز له، ولكنه عارف لما ينقل خبير به، فلا يقبل القول إلَّا وله حظ من الدليل والاعتبار والنظر، أو موافق لقواعد الدين وأصول الشريعة، أما ما خالف ذلك وخالف النصوص مما قد يروى عن السلف فلا يلتفت إليه إلَّا موجهًا له ومعتذرًا إن أورده.

كما ينقد الحافظ الأقوال المتعارضة مع نصوص الوحيين، فلا يحابي بها أحدًا، كما لا يتعصب لأحد على حساب الأصلين الشريفين، كما أنه يرجح بعض أقوال السلف بعضها على بعض عند التعارض، سالكًا في ذلك مسالك الشرع وجواد الحكمة، وقواعد التعارض والترجيح.

مع التأدّب التام معهم بالأدب الحميد، ويلتمس للأقوال الضعيفة الأعذار المناسبة في مخالفتها لظواهر النصوص، كما يحاول توجيه أقوال السلف إلى ما يظنه هو بهم ــ ويُظن فيهم ــ من حسن القصد، وسلامة السبيل، وتحري الحق.

ونموذج على ذلك قوله في «تحقيق كلمة الإخلاص»:

«وقد ذهب طائفة إلى أن هذه الأحاديث المذكورة أولاً: ــ يشير إلى الأحاديث الواردة فيمن قال كلمة التوحيد دخل الجنة، وهي

---

(١) كما في مسألة تمني الموت، وكيف عول عليها بفهم الصحابة، وجمعه بين الأدلة... من لطائف المعارف، ص ٥١٠ ــ ٥٢٢.

الأحاديث التي ساقها في فضل كلمة التوحيد ــ ومافي معناها، كانت قبل نزول الفرائض والحدود، منهم الزهري والثوري وغيرهما، وهذا بعيد جدًا.

فإن كثيرًا منها كان بالمدينة بعد نزول الفرائض والحدود، وفي بعضها أنه كان في غزوة تبوك، وهي في آخر حياة النّبـي ﷺ.

وهؤلاء منهم من يقول في هذه الأحاديث: إنها منسوخة. ومنهم من يقول: هي محكمة، ولكن ضُمَّ إليها شرائط، ويلتفت هذا إلى أن الزيادة على النص: هل هي نسخ أو لا؟ والخلاف في ذلك بين الأصوليين مشهور.

وقد صرح الثوري وغيره بأنها منسوخة، وأنها نسختها الفرائض والحدود، وقد يكون مرادهم بالنسخ البيان والإيضاح، فإن السلف كانوا يطلقون النسخ على مثل ذلك كثيرًا، ويكون مقصودهم أن آيات الفرائض والحدود تبين بها توقف دخوله الجنة والنجاة من النار على فعل الفرائض، واجتناب المحارم، فصارت تلك النصوص منسوخة أي: مبينة مفسرة، ونصوص الحدود والفرائض ناسخة، أي: مفسرة لمعنى تلك موضحة لها...»[1]. اهـ.

فانظر ــ رعاك الله ــ إلى تأدبه مع الأئمة، وتوجيهه أقوالهم، وحملها على محملها الحسن، المظنون بهم.

* ومن منهجه في أقوال السلف أيضًا أنه عند التعرض للقصص

(١) من كتاب شرح كلمة الإخلاص، ص ١٩ ــ ٢٠.

المأثورة عن السلف الصالح في الزهد والورع، يسوق ذلك أحيانًا بالأسانيد تحريًا للصحة وعدم الإفراط، أو النقل عن مصادر معتبرة في ذلك كما فعل في ترجمته لعبد الملك بن عمر بن عبد العزيز وكذا ترجمته الموجزة لأبيه(١).

* كما كان رحمه الله عالمًا بأقوال السلف الصالح عارفًا لها معتنيًا بها عناية ظاهرة، يُظهر لنا علمه فيها، وفقهه لها، حُسْنُ عرضه لتلك الأقوال المأثورة عنهم ووظفها في أماكنها اللائقة بها، والموازنة بين الأقوال وحسن الاختيار منها، وترتيب أقوالهم عند عرضها جميعًا، أحيانًا مقدمًا الأعلم، وأحيانًا الأكبر، وأحيانًا القول الأظهر... ونحو ذلك، فإن حسن الصياغة والترتيب علم وذوق وهو ما أجاده الحاظ ابن رجب في تناوله لمأثورات السلف الصالح في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم(٢).

هذا والحافظ ابن رجب في سائر كتبه ورسائله تجده في صنعه مميز كثير التعويل على السلف الصالح وأقوالهم وفهومهم وأحوالهم، فما أكثر مما تقرأ له قوله: قال السلف، كان السلف يفعلون، كان السلف يقولون، قال بعض السلف، وعليه عمل السلف، وهو الموافق لقول السلف، قال محققو العلماء، عليه جمهور السلف... وهكذا. مما يعكس ارتباطه الوثيق بهم، وحبه العميق لهم.

* * *

(١) كما في ص ٦ و ١٠، ١٦ وما بعدها.
(٢) ومقالة ما في الفرق بين النصيحة والتعيير، ص ٣١ وما بعدها.

مقالة: طريقة السلف أسلم
وطريقة الخلف أعلم وأحكم

ذاعت هذه المقالة الفاسدة عند المتأخرين من أتباع المتكلمين، وطاروا بها، وأسَّسوا عليها علومهم العقدية. وهذه المقالة خطيرة على الدين والعقيدة بما تتضمنه من القدح في السلف الصالح وأولهم صحابة رسول الله ﷺ، وعلومهم وفهومهم، وتتضمن تفضيل بدع المتكلمين على سنن الأولين، كما يلزم منها تجهيل السلف، ونسبتهم إلى السطحية وقلة المعرفة، وضيق الأفق...

وذاعت هذه المقالة في أتباع الأشعرية حيث قال البيجوري في «شرح الجوهرة»: «وطريقة الخلف أعلم وأحكم؛ لما فيها من مزيد الإيضاح، والرد على الخصوم، وهي الأرجح، ولذلك قدمها المصنف. وطريقة السلف أسلم لما فيها من السلامة من تعيين معنى قد يكون غير مراد له تعالى»[1]. اهـ.

والحافظ ابن رجب الحنبلي نقم على أهل الكلام القادحين في علوم السلف الصالح، وفضلهم، وحكمتهم، والقائلين لتلك المقالة

---

(١) من شرح جوهرة التوحيد لإبراهيم البيجوري، ص ٩١، على قول ناظمها:

وكل نص أوهم التشبيها ... أوّله أو فوض ورم تنزيهًا

الخبيثة «طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أحكم وأعلم»، حيث لم يتميز السلف عليهم إلاَّ بالسلامة.

ولا أبعد إن قلت: إن كتابه «فضل علم السلف والخلف» يدور حول تفنيد هذه الجملة وأمثالها، وما تحويه من لوازم فاسدة وخطيرة على دين المرء وإيمانه.

فالحافظ رحمه الله استحقر هذا القول، واستشنعه، وعده من البلاء على المسلمين، ودعوة مغرضة على أهل السنَّة والجماعة ومما قال:

«وقد ابتلينا بجهلة من الناس يعتقدون في بعض من توسع في القول من المتأخرين أنه أعلم ممن تقدم.

فمنهم من يظن في شخص أنه أعلم من كل من تقدم من الصحابة، ومن بعدهم؛ لكثرة بيانه ومقاله.

ومنهم من يقول هو أعلم من الفقهاء المشهورين المتبوعين. وهذا يلزم منه ما قبله؛ لأن هؤلاء الفقهاء المشهورين المتبوعين أكثر قولاً ممن كان قبلهم، فإذا كان من بعدهم أعلم منهم لاتساع قوله، كان أعلم ممن كان أقل منهم قولاً بطريق الأولى، كالثوري، والأوزاعي، والليث وابن المبارك وطبقتهم، وممن قبلهم من التابعين والصحابة أيضًا. فإن هؤلاء كلهم أقل كلامًا ممن جاء بعدهم.

وهذا تنقص عظيم بالسلف الصالح وإساءة ظن بهم، ونسبة لهم إلى الجهل، وقصور العلم، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله. وقد صدق ابن

مسعود في قوله في الصحابة: «إنهم أبر الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا» وروي نحوه عن ابن عمر أيضًا.

وهذا إشارة إلى أن من بعدهم أقل علومًا وأكثر تكلفًا. وقال ابن مسعود أيضًا: «إنكم في زمان كثير علماؤه، قليل خطباؤه، وسيأتي بعدكم زمان قليل علماؤه كثير خطباؤه. فمن كثر علمه وقل قوله فهو الممدوح. ومن كان بالعكس فهو مذموم».

وقد شهد النّبـي ﷺ لأهل اليمن بالإيمان والفقه، وأهل اليمن أقل الناس كلامًا وتوسعًا في العلوم، لكن علمهم علم نافع في قلوبهم، ويعبرون بألسنتهم عن القدر المحتاج إليه من ذلك.

وهذا هو الفقه والعلم النافع»[1]. اهـ.

وحسبك بشناعة تلك العبارة ما يلزم عليها من اللوازم الشنيعة المذمومة.

* * *

(١) من فضل علم السلف على الخلف، ص ١٤٦ ــ ١٤٧. وانظر قبله ١٣٩ ــ ١٤٠ وتفسيره سورة الإخلاص، ص ٨٩، ٩٣.

* هذا ومن تعظيم الحافظ ابن رجب للسلف تعظيمه لأهل المواقف منهم الذي أثبتوا بمواقفهم عقيدة المسلمين، وثبات أئمتها عليها، ومن أميز هؤلاء في آخر قرون السلف الصالح المفضلة الإمام الرباني والصديق الثاني: أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، والذي ثبته الله وأيده في فتنة من أعظم ما مر بالمسلمين من الفتن العقدية الإيمانية، ألا وهي فتنة القول بخلق القرآن.

ومن خلال مطالعتي لكتب الحافظ ابن رجب ورسائله لم أره مرة يذكر أحمد بن حنبل بقول أو حال أو تخريج أو تعليل إلاَّ ويصدره بكلمة الإمام أحمد، وربما يذكر معه من يذكره من العلماء بأسمائهم كما يفعل عند تخريج حديث فإنه يقول مثلاً أخرجه الإمام أحمد في المسند ومسلم في صحيحه والنسائي.

وهذا إنما يدل على تعظيمه لهذا الإمام، ومعرفته لقدره في العلم والدين عند أهل السنَّة والجماعة، أهل الحديث.

* * *

السلف
والفرق بين أهل الحديث وأهل الفقه

تعرَّض الحافظ ابن رجب لهذه القضية محققًا فيها القول، مبينًا عن التدرج العلمي والتاريخي لها، مع تقدير السلف الصالح وأهل القرون المفضلة الفاضلة قدرهم ومبرزًا علمهم وفضلهم على من بعدهم، وأن هذا التفريق بين أهل الفقه وأهل الحديث وغير ذلك من الانتساب إلى متون العلم، أنه اصطلاح ناشىء بعد قرن الصحابة والتابعين وتابعيهم؛ إذ كانوا محصلين لجوامع هذه الفنون مدركين لها عارفين بها.

فقال رحمه الله في «مقدمة تشتمل على أن جميع الرسل كان دينهم الإسلام»:

«وكان الأغلب على القرون الثلاثة المفضلة، جمع ذلك كله، فإن الصحابة تلقوا عن النبي ﷺ جميع ذلك، وتلقاه عنهم التابعون، وتلقى عن التابعين تابعوهم، فكان الدين حينئذ مجتمعًا، ولم يكن قد ظهر الفرق بين مسمى الفقهاء، وأهل الحديث، ولا بين علماء الأصول والفروع، ولا بين الصوفي والفقير والزاهد، وإنما انتشرت هذه الفروق بعد القرون الثلاثة، وإنما كان السلف يسمون أهل العلم والدين،

القراء، ويقولون: يقرأ الرجل إذا تنسك، وكان العالم منهم يتكلم في جنس المسائل المأخوذة من الكتاب والسنَّة، سواء كانت من المسائل الخبرية العلمية، كمسائل:

التوحيد، والأسماء والصفات، والقدر، والعرش، والكرسي، والملائكة، والجن، وقصص الأنبياء، ومسائل الأسماء، والأحكام، والوعد والوعيد، وأحوال البرزخ، وصفة البعث والمعاد، والجنة، والنار، ونحو ذلك.

أو من أعمال الجوارح، كالطهارة، والصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، والجهاد، وأحكام المعاوضات، والمناكحات، والحدود، والأقضية، والشهادة، ونحو ذلك.

أو من المسائل العلمية، سواء كانت من أعمال القلوب كالمحبة، والخوف، والرجاء، والتوكل، والزهد، والتوبة، والشكر، والصبر، ونحو ذلك، وإن كان يكون لبعضهم في نوع من هذه الأنواع من مزيد العلم، والمعرفة، والحال، ما ليس له في غيره مثله.

كما كان يقال في أئمة التابعين الأربعة:

سعيد بن المسيب، إمام أهل المدينة.

وعطاء بن أبي رباح، إمام أهل مكة.

وإبراهيم النخعي، إمام أهل الكوفة.

والحسن البصري، إمام أهل البصرة.

كان يقال: أعلمهم بالحلال والحرام، سعيد بن المسيب، وأعلمهم بالمناسك عطاء، وأعلمهم بالصلاة إبراهيم، وأجمعهم الحسن.

* وكان أهل الدراية والفهم من العلماء إذا اجتمع عند الواحد منهم من ألفاظ الكتاب والسنَّة، ومعانيها، وكلام الصحابة والتابعين ما يسره الله له، جعل ذلك أصولاً، وقواعد يبنى عليها، ويستنبط منها، فإن الله تعالى أنزل الكتاب بالحق والميزان، والكتاب فيه كلمات كبيرة، هي قواعد كلية وقضايا عامة، تشمل أنواعًا عديدة، وجزئيات كثيرة، ولا يهتدي كل أحد إلى دخولها تحت تلك الكلمات، بل ذلك من الفهم الذي يؤتيه الله من يشاء في كتابه.

وأما الميزان فهو الاعتبار الصحيح، وهو من العدل والقسط، الذي أمر الله بالقيام به كالجمع بين المتماثلين لاشتراكهما في الأوصاف، الموجبة للجمع والتفريق بين المختلفين لاختلافهما في الأوصاف الموجبة للفرق، وكثيرًا ما يخفى وجه الاجتماع والافتراق ويدق فهمه.

* وأما أهل الرواية إذا اجتمع عندهم من ألفاظ الرسول، وكلام الصحابة والتابعين، وغيرهم في التفسير، والفقه، وأنواع العلوم، لم يتصرفوا في ذلك بل نقلوه كما سمعوه، وأدوه كما حفظوه، وربما كان لكثير منهم من التصرف والتميز في صحة الحديث وضعفه من جهة إسناده، وروايته ما ليس لغيرهم». اهـ.

* وبهذه المناسبة بيَّن الحافظ رحمه الله مسلك السلف الصالح في تلقي العلم، ومن ثمَّ بداية تصنيفهم في جمعه وتدوينه في المدونات، فقال:

«**فصل**: وكان العلم والدين يتلقاه التابع عن المتبوع سماعًا، وتعلمًا، وتأدّبًا، واقتداءً.

وكان الحديث يحفظ في القلوب حفظًا، فكان الشيخ يحدث أصحابه من حفظه وربما حدث من حفظه وكتابه، وأصحابه يسمعون ذلك ويحفظونه عنه، وربما كتبوه، ولم تكن الكتب قد صنفت في زمن الصحابة والتابعين، وإنما صنفت بعد ذلك، في زمن أتباع التابعين، فصنف ابن جريج في التفسير والحديث والفقه.

وصنف سعيد بن أبي عروبة، وحماد بن سلمة، وصنف مالك، وابن المبارك، ووكيع، وعبد الرحمن بن مهدي، وهشيم، وابن أبي شيبة، وعبد الرزاق، وابن وهب، وغيرهم.

وهؤلاء يجمعون في كتبهم ما روي عن النبي ﷺ وعن الصحابة والتابعين، ثم جرد طوائف آخرون الحديث المسند عن النبي ﷺ ولم يخلطوه بشيء من الآثار كما فعل:

موسى بن عقبة، والإمام أحمد، وإسحاق، وبقي بن مخلد، وأبو يعلى الموصلي، وغيرهم.

ثم صنف قوم المسند الصحيح عن النبي ﷺ، وأسقطوا ما عداه من الضعيف، كما فعل: البخاري، ومسلم.

وصنف أيضًا في الصحيح ابن حبان، وابن خزيمة، والحاكم، وابن السكن، وغيرهم. ولا يبلغ تصحيح هؤلاء، تصحيح الشيخين.

وصنف أصحاب السنن والجوامع الكتب المرتبة على الأبواب، ولما انتشرت الكتب والتصانيف، توسع الناس في الرواية، فصاروا

يقرأون على الشيوخ قراءات ويسمى ذلك **العرض**. وصار الشيوخ **يناولون** أصحابهم كتبًا يعرفون ما فيها، ويأذنون لهم في روايتها عنهم، وكان هذا وهذا من عمل أهل الحجاز وغيرهم.

وقد كانوا قبل تصنيف الكتب يفعلون ذلك أيضًا في أحاديث **يكتبونها في صحف**». اهـ.

* * *

ثانيًا:
العقل ودوره

خلق الله في الإنسان عقلاً، وجعله دليلاً له إلى الإيمان به، والتعرف عليه، ومميزًا له بين الخير وما يوصل إليه، والشر وما يقرب منه.

ومع هذا التكريم منه سبحانه للإنسان بالعقل، صار الناس فيه نحلاً أشتاتًا، وتبعهم على ذلك أمة النّبـي ﷺ. فمنهم من غلا وأعطى العقل فوق قدره، فجعله حاكمًا على الوحي، ورقيبًا عليه، وهؤلاء هم العقلانيون ـ إن صح التعبير ـ من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة والماتردية والفلاسفة، بل عموم المتكلمين.

وطرف آخر على النقيض من هؤلاء هم من عطلوا العقل وخضعوا للذوق والشهوات وهم الصوفية وغلاتهم بالخصوص، مع أن منهم من جمع السوأتين.

فهدى الله أهل السنَّة والجماعة، الطائفة الناجية المنصورة لما اختلف فيه من الحق بإذنه، فأعطوا للعقل دوره، وحجَّموه بحجمه فلم يغلوا فيه، ولم يرغبوا عنه، فأعملوه في فهم آيات الله الكونية والشرعية وفقه دينه ودنياهم، والأدلة الشرعية حوت من الدلائل العقلية ما هو

أوضح من أقيسة الفلاسفة والمتكلمين وأبلغ في التقرير والبرهان[1].

والحافظ ابن رجب الحنبلي لم يأت هاهنا بجديد، فلم يكن له منهج مستقل، بل سار على جادة أهل السنَّة والجماعة في إنزال العقل الصحيح منزله اللائق.

فنظر فيه إلى الطبيعة، وإلى المحسوسات والمجربات نظرة عقلية واعية استدل من خلالها على توحيد الله في أفعاله «ربوبيته» وعلى بعثة الأبدان بعد الموت، وما في القبر من العذاب والنعيم. . .

نظر تلك النظرة بعين المؤمن؛ لأن القرآن قرر دلائل الربوبية والبعث وغيرها بالثوابت العقلية والقواطع اليقينية؛ ولأن الشريعة جاءت بما يحار فيه العقل، لا بما يحيله فيجعله مستحيلاً. قال سبحانه وتعالى في آخر سورة يونس: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١].

ونموذج آخر في تقرير البعث بقوله تعالى في آخر يس: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾

---

(١) انظر: مثالاً في كلام الشيخ تقي الدين ابن تيمية على آية القصص ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ في الفتاوى ٣/ ٢٩٦.

﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: ٧٧ ـ ٨٣].

وقد أشار إلى هذا الحافظ في مقدمة «التخويف من النار».

فقال: «أما بعد: فإن الله خلق الخلق ليعرفوه، ويعبدوه، ويخشوه، ويخافوه، ونصب لهم الأدلة الدالة على عظمته وكبريائه ليهابوه ويخافوه خوف الإجلال... فمن تأمل الكتاب الكريم، وأدار فكره فيه وجد من ذلك العجب العجاب»(١).

ولأجل عدم استقلالية المنهج العقلي عند ابن رجب وفوضويته بالاستدلال لم يتعارض مع الأدلة السمعية النقلية؛ لأنه استخدم العقل في محله بمنظار الكتاب والسنَّة المعصومين من الزلل. كما يزن المقدمات والأقيسة العقلية بالموازين الشرعية المستمدة من نصوص الوحيين، أقول هذا نتيجة تتبع كلامه، وقراءة كتبه.

وهناك مجالات كثيرة استخدم فيها الحافظ ابن رجب عقله في الاستدلال لها والاستنباط، والربط والقياس والتحليل، منها:

١ ـ أعمل عقله، وأبرز فقهه في تقسيم المسائل العلمية، وفهم أدلتها ومآخذ الاستنباط منها، والموازنة، وترتيبها حسب قوتها وأفضليتها.

وهو الفقه المندوح إليه شرعًا، كما في حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**» أخرجاه في الصحيحين.

---

(١) كتاب التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار، ص ٧ ـ ٨.

وشاهد ذلك من قول ابن رجب تقسيمه الخشوع إلى أنواع وهو تقسيم بديع، فقال:

«ويتفاوت الخشوع في القلوب بحسب تفاوت معرفتها لمن خشعت له، وبحسب تفاوت مشاهدة القلوب للصفات المقتضية للخشوع:

ـ فمن خاشع لقوة مطالعته لقرب الله من عبده...

ـ ومن خاشع لمطالعته لكماله، وجماله المقتضي للاستغراق في محبته.

ـ ومن خاشع لمطالعته شده بطشه وانتقامه، وعقابه المقتضي للخوف منه»[1]. اهـ.

ولو أعمل المتكلمون والفلاسفة وأضرابهم عقولهم في تأمل هذه المعاني، وإدراك معانيها، لصلحت كثير من أحوالهم، ولانتقلوا من ضلال الشك والحيرة إلى سعادة الإيمان وبحبوحته.

ولكن من رام علم ما حظر عنه علمه، ولم يقنع بالتسليم فهمه، حجبه مرامه عن خالص التوحيد، وصافي المعرفة، وصحيح الإيمان، فشتان بين عامل عقله في هذا وذاك.

٢ ـ ومن استخدامه للعقل في تأمل آيات الله، وربطه بين النصوص الشرعية والأحوال الواقعية، كما قرر أن حالة السجود في الصلاة يكون فيها الساجد أقرب من الله تعالى، لأنه أشد المقامات

(١) من رسالته في الخشوع في الصلاة، ص ٢٠ ـ ٢١.

عبودية وذلة وخضوعًا لله عز وجل[1].

٣ ــ وأيضًا وظَّف عقله في تحليل المشتبهات، وتفصيل المشكلات فيما جاء في الشرع الحنيف، الذي أتى بما تحار فيه العقول، ولم يأت بما تستحيله العقول.

ففي كلامه على حديث أنس مرفوعًا: «**ما أنعم الله على عبد من نعمة، فقال: الحمد لله، إلاَّ كان ما أعطى أفضل مما أخذ**». قال: «وأشكل ذلك على كثير من العلماء قديمًا وحديثًا، وعلى ما قررناه معناه ظاهر، فإن المراد بالنعم: الدنيوية.

والحمد: من النعم الدينية، والنعم الدينية أفضل من النعم الدنيوية، ولكن لما كان الحمد منسوبًا إلى العبد لفعله له، وقيامه به، جعله الله معطيًا لأعظم النعمتين، مكافئًا بها للنعمة الأخرى.

ولهذا جاء في الأثر: «الحمد لله حمدًا يوافي نعمه ويكافىء مزيده». فبهذا الاعتبار يكون الحمد ثمنًا للجنة»[2]. اهـ.

وله اعتبار آخر فإن قوله حمدًا يوافي نعمه، ويكافىء مزيده، ليس معناه أن العبد حمد ربه بهذه الصفة، الحمد الذي يوافي نعم الله عليه، أو يحصّل به مكافأة مزيده، فإن هذا الحمد بهذه الصفة لا يستطيعه، ولكن معناه أن الله مستحق للحمد الذي يوافي نعمه، وهو أهل لاستحقاق الحمد المكافىء مزيده.

---

(١) مقالة في الخشوع والصلاة، ص ٤٠ ــ ٤٢.

(٢) من المحجة في سير الدلجة، ص ٣١؛ ومثله أيضًا في رد شبهة الولادة والتولد في حق الله سبحانه وتعالى بالطريقة العقلية طريقة السبر والتقسيم في سورة الإخلاص، ص ٩٨ ــ ٩٩.

وبكلا الاعتبارين نرى فائدة الحمد، وعظيم أثره فالحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا. كما استخدم طريقة السبر والتقسيم في نفي شبهة التولد والولادة عن الله تعالى، حيث قال رحمه الله في «تفسير سورة الإخلاص» ص ٩٨:

«فهذه السورة الكريمة تضمنت نفي ما هو من خصائص آلهة المشركين عن رب العالمين؛ حيث جاء في سبب النزول أنهم سألوا النّبـي ﷺ عن ربه من أي شيء هو؟ أمن كذا، أم من كذا، أو ممن ورث الدنيا، ولمن يورثها، حيث كانوا قد اعتادوا آلهة يلدون، ويولدون، ويرثون ويورثون، وآلهة من مواد مصنوعة منها، فأنزل الله هذه السورة.

وفي «المسند» من حديث أبـي بن كعب بعد ذكر نزولها: لأنه ليس أحد يولد لا يموت ولا أحد يرث إلاَّ يورث، يقول كل من عبد من دون الله وقد ولد مثل المسيح والعزير وغيرهما من الصالحين، ومثل الفراعنة المدعين الآلهية، فهذا مولود يموت وهو وإن كان قد ورث من غيره ما هو فيه فإذا مات ورثه غيره، والله سبحانه حي لا يموت ولا يورث سبحانه وتعالى. والله أعلم.

سؤال: نفى سبحانه الولادة قبل نفي التولد، والتولد أسبق وقوعًا من الولادة في حق من هو متولد؟

وجوابه: أن الولادة لم يدعها أحد في حقه سبحانه وإنما ادعوا أنه ولد، فلذلك قدم نفيه لأنه المهم المحتاج إلى نفيه.

سؤال آخر: كيف نفى أن يكون مولودًا ولم يعتقده أحد؟

جوابه: من وجهين:

أحدهما: أنهم سألوا عمن ورث الدنيا ولمن يورثها، وهذا يشعر بأن منهم من اعتقد ذلك.

والثاني: أنه نفى عن نفسه سبحانه خصائص آلهة المشركين فإن منهم من عبد المسيح، ومنهم من عبد العزير، وهما مولودان، ومنهم من عبد الملائكة والعجل وهي متولدات، وقد تقدم أن نفي الولادة تدل على نفي المتولد بطريق الأولى.

فائدة: قال ابن عطية: ﴿كفوًا﴾ خبر كان، واسمها أحد، والظرف ملغي، وسيبويه يستحسن أن يكون الظرف إذا تقدم خبرًا.

ولكن قد يجيء ملغيّ في أماكن يقتضيها المعنى كهذه الآية». اهـ.

٤ ـ استعمل الحافظ القياس العقلي في دلالة الإلزام أو الاستلزام، وهي دلالة الشيء أو اللفظ على أمر خارج عنه، حيث استخدمها كثيرًا، فقد استدل بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية بهذه الدلالة فقال:

«إن الله خلق الخلق، وأوجدهم لعبادته الجامعة لخشيته، ورجائه، ومحبته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر: ٥٦]، وإنما يُعبد سبحانه بعد العلم به ومعرفتهِ، فلذلك خلق السموات والأرض وما فيها للاستدلال بها على توحيده وعظمته، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ

عِلۡمَۢا ﴿١٢﴾ [الطلاق: ١٢] »[1]. اهـ.

كما استخدم دلالة الإلزام، في استلزام توحيد الله بصفاته وأسمائه لتوحيده بعبادته وألوهيته وحده لا شريك له فقال:

«وسبب ذلك أن هذا العلم النافع يدل على أمرين:

أحدهما: على معرفة الله وما يستحقه من الأسماء الحسنى والصفات العلى، والأفعال الباهرة. وذلك يستلزم إجلاله وتعظيمه، وخشيته، ومهابته، ومحبته، ورجاءه والتوكل عليه، والرضا بقضائه والصبر على بلائه...»[2]. اهـ.

٥ ـ تطبيقه قياس الأولى: وهو كل كمال ثبت للمخلوق لا نقص فيه بوجه من الوجوه فالخالق أولى به، وكل عيب تنزه عنه المخلوق، أو وجب نفيه عن مخلوق من مخلوقاته فالله أولى بالتنزه عنه.

طبق الحافظ هذا القياس في تنزيه الله تعالى عن العيوب والنقائص، فقال:

«فإذا نزه الرب عن المادة العلقة، وهي التولد من النظير، فتنزه به عن تولده من غير نظير أولى.

كما أن تنزيهه عن الكفوء تنزيه له عن أن يكون غيره أفضل منه بطريق الأولى...». اهـ.

وقال في موضع آخر: «إنه نفى عن نفسه ـ سبحانه ـ خصائص آلهة المشركين فإن منهم من عبد المسيح، ومنهم من عبد العزير، وهما

---

(١) من كتابه: استنشاق نسيم الأنس، ص ٨٧.

(٢) من كتابه: فضل علم السلف على الخلف، ص ١٥١.

مولدان، ومنهم من عبد الملائكة والعجل وهي متولدات، وقد تقدم أن نفي الولادة تدل على نفي المتولد بطريق الأولى». اهـ[1].

وذلك أن نفي الولادة عنه سبحانه يدل تضمنًا على نفي التولد أولاً.

وله بين ذلك نظائر متعددة.

٦ ـ كما استعمل دلالة العقل على نفي العيوب عن الله، حيث أكده وبرهن عليه بالأمثلة في قوله في سورة الإخلاص:

«فهذه السورة تتضمن انفراده ووحدانيته، وأنه منقطع النظير، وأنه إنما نزه عن أن يكون من أجناس المخلوقات؛ لأن أفراد كل جنس من هذه الأجناس متكافئة متماثلة.

فالذهب يكافىء الذهب، والإنسان يكافىء الإنسان ويزاوجه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩]، فما من مخلوق إلاَّ وله كفو، هو زوجه، ونظيره، وعدله، ومثيله، فلو كان الحق من جنس شيء من هذه الأجناس لكان له كفو وعدل، وقد علم انتفاؤه بالشرع والعقل»[2]. اهـ.

وبعد، فلعله ظهر لك أخي القارىء تنوع وتعدد مجالات العقل عند الحافظ ابن رجب، وما هي إلاَّ نماذج محدودة، وأمثالها كثيرة تدل على مكانة العقل المعتبرة في الشريعة فهمًا واستدلالاً وتطبيقًا وقياسًا...

* * *

(١) من تفسير لسورة الإخلاص، ص ٩٤، ٩٥، ٩٧، ٩٩.
(٢) من تفسير لسورة الإخلاص، ص ١٠٠.

ثالثًا:

ربط العلم بالعمل

ورد في الصحيح قوله ﷺ: **«لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن شبابه فيما أبلاه، وعن عمره فيما أفناه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به»**.

والعلم النافع هو الذي قيّد بالعمل به، وإلاَّ فما ثمرة العلم لو لم يوافقه عمل؛ بل يكون وبالاً على صاحبه:

العلـــم يهتـــف بـــالعمـــل فـــإن أجـــابـــه وإلاَّ ارتحـــل

وكان علماء المسلمين، لا سيما أهل السنَّة والجماعة سمتهم موافقة علمهم لعملهم، فلا يتعلمون حكمًا أو فضيلة إلاَّ طبقوها، فصار ذلك العلم بركة عليهم، وزكاة لهم، كما في الحديث **«من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم»**[1]، ويصدقه قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقد لمست هذا المنهج عند الحافظ ابن رجب في سيرته

---

(١) وهو مروي من طرق عديدة مرفوعة فيها ضعف، ومعناه صحيح. انظر: إتحاف السادة المتقين ١/ ٤٠٣ و ٣/ ٤٤٩، ٧/ ٣٢٣، والحلية لأبي نعيم ١٠/ ١٥، وكشف الخفاء ٢/ ٣٦٥، والمغني عن حمل الأسفار ١/ ٧١ و ٣/ ١٣.

ومؤلفاته، وحثه على العمل الصالح، وهذا له عدة شواهد بدا منها:

١ ـ ابتعاده رحمه الله عن الولايات والرياسات، والمناصب والشهرة... وهذا أهم معالم حياته الشخصية، وهو بنفسه قد ذكر أن العلم النافع يدل صاحبه على الهرب من الشهرة وتوابعها، ولكن الذكر الحميد لحقه رغمًا عنه وما ذاك إلاَّ لحسن قصده، ولا نزكيه على ربنا.

قال في «فضل علم السلف»: «فأصل العلم، العلم بالله الذي يوجب خشيته، ومحبته والقرب منه والأنس به والشوق إليه، ثم يتلوه العلم بأحكام الله، وما يحبه ويرضاه من العبد من قول أو عمل أو حال أو اعتقاد... وهو المتلقى عن الكتاب والسنَّة، فإن كان متلقى من غير ذلك فهو غير نافع في نفسه، ولا يمكن الانتفاع به، بل ضره أكثر من نفعه.

وعلامة هذا العلم الذي لا ينفع أن يكسب صاحبه الزهو والفخر والخيلاء، وطلب العلو والرفعة في الدنيا والمنافسة فيها، وطلب مباهاة العلماء ومماراة السفهاء، وصرف وجوه الناس إليه، وقد ورد عن النّبي ﷺ: «**إن من طلب العلم لذلك فالنار النار**».

وربما ادعى بعض أصحاب هذه العلوم معرفة الله وطلبه، والإعراض عما سواه، وليس غرضهم بذلك إلاَّ طلب التقدم في قلوب الناس من الملوك وغيرهم، وإحسان ظنهم بهم، وكثرة أتباعهم، والتعظم بذلك على الناس.

وعلامة ذلك إظهار دعوى الولاية كما كان يدعيه أهل الكتاب،

وكما ادعاه القرامطة والباطنية ونحوهم، وهذا بخلاف ما كان عليه السلف من احتقار نفوسهم وازدرائها باطنًا وظاهرًا»[1]. اهـ.

٢ ـ شابه طريقة السلف في قلة الكلام ووجازته، وتركه للنصوص من الكتاب والسنَّة، وأقوال السلف تعبّر عنه، لهذا كان الغالب على كتبه النقل من تلك المصادر، ولا يكون كلامه إلاَّ بالتحليل والاستدلال والربط بينها غالبًا.

فقال معرّفًا بعلم السلف وقلة كلامهم، محذرًا عن حال المتأخرين: «ومن علمه غير نافع إذا رأى لنفسه فضلاً على من تقدمه في المقال، وتشقق الكلام، ظن لنفسه عليهم فضلاً في العلم أو الدرجة عند الله لفضل خُص به عمن سبق فاحتقر من تقدمه، وازدرى عليه بقلة العلم.

ولا يعلم المسكين أن قلة كلام من سلف إنما كان ورعًا وخشية لله، ولو أراد الكلام وإطالته لما عجز عن ذلك، كما قال ابن عباس لقوم سمعهم يتمارون في الدين: «أما علمتم أن لله عبادًا أسكتتهم خشية الله من غير عيّ ولا بكم؟

وإنهم لهم العلماء والفصحاء والطلقاء والنبلاء، العلماء بأيام الله، غير أنهم إذا تذكروا عظمة الله طاشت لذلك عقولهم، وانكسرت قلوبهم، وانقطعت ألسنتهم، حتى إذا استفاقوا من ذلك تسارعوا إلى الله بالأعمال الزاكية، يعدون أنفسهم مع المفرطين، وإنهم لأكياس وأقوياء، ومع الظالمين الخاطئين، وأنهم لأبرار برآء، إلاَّ أنهم لا يستكثرون له الكثير،

---

(١) من كتابه: فضل علم السلف، ص ١٥٤ ـ ١٥٦.

ولا يعرضون له بالقليل، ولا يدلون عليه بالأعمال، هم حيث ما لقيتهم مهتمون مشفقون، وجلون خائفون». خرَّجه أبو نعيم في الحلية»[1]. اهـ.

فالحافظ سلك مسلكهم، وعمل بطريقتهم فما أقل كلامه عند آية أو حديث.

٣ ـ غلَّب الحافظ على نفسه جانب إساءة الظن بها، وإحسانه الظن بالسلف الصالح، على قاعدة الخوف والرجاء، فالمؤمن في استصحابهما كالطائر مع جناحيه فهما جناحاه. إلاَّ أنه في حال الأمن والرخاء يغلب جانب الخوف، وإساءة الظن بالنفس، وعمله، وفي حالة الخوف وقرب الأجل يغلب جانب رجائه بالله وطلبه ومرضاته وتطلعه إلى عفوه وجوده.

وتلك طريقة الحافظ في مؤلفاته، لا يرى لنفسه استقلالاً، بل متبعًا لما كان عليه السلف، ولأقوال السلف، دائر مع الوحيين أينما دارا ولذا قال واصفًا حالهم وعلمهم:

«... وأهل العلم النافع على ضد هذا ـ أي إحسان الظن بأنفسهم وحب ظهورها ـ يسيئون الظن بأنفسهم، ويحسنون الظن بمن سلف من العلماء، ويقرون بقلوبهم وأنفسهم بفضل من سلف عليهم، وبعجزهم عن بلوغ مراتبهم، والوصول إليها أو مقاربتها.

وما أحسن قول أبي حنيفة وقد سئل عن علقمة والأسود: أيهما أفضل؟ فقال: والله ما نحن بأهلٍ أن نذكرهما، فكيف نفضل بينهما؟

---

(١) من كتابه: فضل علم السلف على الخلف، ص ١٥٨ ـ ١٥٩.

وكان ابن المبارك إذا ذكر أخلاق من سلف ينشد:

لا تعـــرض لـــذكـــرنـــا فـــي ذكـــرهـــم
ليـــس الصحيـــح إذا مشـــى كـــالمقعـــد»[1].

والحافظ مشى على هذه القاعدة في تعامله مع السلف الصالح فلا يفتر من الدعاء لهم والثناء عليهم ومدحهم، وإيراد أقوالهم واختياراتهم وأحوالهم، وهذا بلا شك عقد للعلم بالعمل؛ لأنه يدعو إلى إنزال السلف الصالح منازلهم اللائقة بهم. ونقل عنهم في «فضل علم السلف»، فقال:

«إذا أراد الله بعبد خيرًا فتح له باب العمل، وأغلق عنه باب الجدل. وإذا أراد الله بعبد شرًا أغلق عنه باب العمل، وفتح له باب الجدل»[2]. اهـ.

٤ ـ ومن ربطه العلم بالعمل ودعوته إليه تقريره في معنى الحكمة في قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة: ٢٦٩]، فقال:

«ومن قال: الحكمة السنَّة، فقوله حق؛ لأن السنَّة تفسّر القرآن وتبين معانيه وتحض على اتباعه والعمل به، فالحكيم هو العالم المستنبط لدقائق العلم المنتفع بعلمه بالعمل به.

ولأبـي العتاهية:

وكيف تحب أن تدعى حكيمًا ... وأنـت لكـل مـا تهـوى ركـوب
وتضحـك دائبًـا ظهـرًا لبطـن ... وتذكر ما عملت فلا تتوب[3]. اهـ

(١) من كتابه: فضل علم السلف على الخلف، ص ١٥٨.
(٢) من: فضل علم السلف على علم الخلف، ص ١٤١.
(٣) من: لطائف المعارف، ص ١٦٨.

هذا، وانظر ـــ وفقك الله ـــ إلى من جمع العلوم وأظهرها، وتساهل بالعمل، كيف يمقت نفسه ويمقته الناس؟ ولا تجد لكلامه خشوعًا ولا لوعظه تأثيرًا ولا لمظهره حلاوة ولا على هيئته طلاوة، فهو ـــ أعزكم الله ـــ كالحمار يحمل أسفارًا.

٥ ـــ ومن منهج الحافظ ابن رجب المطرد أنه إذا قرر مسألة علمية وفقهية أو عقدية أو حديثية وعملية، ورجح ما فيها مما يستصوبه، فإنه يعضده بعد تقريره بما يُرغِّب في الحرص على العمل بها من نصوص الوحيين وأقوال السلف وأحوالهم، وكيف حرصهم على تطبيقها، وشدة تمسكهم بتحقيقها، وتحريهم الإخلاص لله بها، وما يرفع همة قارئه لنيل تلك الفضيلة بالعمل بها، كما صنع في مسألة صوم المحرم كاملاً لله، بعد أن قرر آكدية صومه وفضله. وما ذاك إلَّا اعتقادًا منه بلزوم ربط العلم بالعمل، وتثبيته فيه.

حيث قال رحمه الله(١) في كتابه الماتع الممتع «لطائف المعارف» في الكلام على شهر الله المحرم:

«ولما كان هذا الشهر مختصًّا بإضافته إلى الله تعالى، وكان الصيام من بين الأعمال مضافًا إلى الله تعالى؛ فإنه له من بين الأعمال، ناسب أن يختص هذا الشهر المضاف إلى الله بالعمل المضاف إليه، المختص به، وهو الصيام.

وقد قيل في معنى إضافة هذاالشهر إلى الله عز وجل: إنه إشارة إلى أن تحريمه إلى الله عز وجل ليس لأحد تبديله، كما كانت الجاهلية

---

(١) كما في مجالس شهر المحرم، في آخرها، ص ٨٢ ـــ ٨٦ من لطائف المعارف.

يحلونه ويحرمون مكانه صفر، فأشار إلى أنه شهر الله الذي حرمه، فليس لأحد من خلقه تبديل ذلك وتغييره.

شهــرُ الحَــرَامِ مُبَــارَكٌ مَيْمُــونُ والصَّــومُ فيـهِ مُضَـاعَـفٌ مَسْنُـونُ
وثــوابُ صــائِمـهِ لـوجـهِ إلٰهِـهِ في الخُلْدِ عندَ مَليكِهِ مَخْزُونُ

الصيام سر بين العبد وبين ربه، ولهذا يقول الله تبارك وتعالى: «**كل عمل ابن آدم له إلاَّ الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، إنه ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي**»[1].

وفي الجنة باب يقال له: «الريان» لا يدخل منه إلاَّ الصائمون، فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه غيرهم[2]، وهو جنة للعبد من النار، كجنة أحدكم من القتال.

وفي المسند عن النّبـي ﷺ، قال: «**من صام يومًا ابتغاء وجه الله تعالى بعَّده الله من نار جهنم كبعد غراب طار وهو فرخ حتى مات هرمًا**»[3]. وفيه أن أبا أمامة قال للنّبـي ﷺ: أوصني، قال: «**عليك بالصوم فإنه لا عدل له**»[4]، فكان أبو أمامة وأهله يصومون، فإذا رؤي في بيتهم دخان بالنهار علم أنه قد نزل بهم ضيف، وممن سرد الصوم

---

(١) رواه الشيخان عن أبـي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» (١١٥٢) في الصيام، باب فضل الصيام، عن سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٣) رواه أحمد في «المسند» ٢/ ٥٢٦، من حديث أبـي هريرة رضي الله عنه.

(٤) قطعة من حديث رواه الإمام أحمد في «المسند» ٥/ ٢٤٩، ٢٥٥، ٢٥٨، ٢٦٤ من حديث أبـي أمامة رضي الله عنه.

عمر وأبو طلحة وعائشة وغيرهم من الصحابة، وخلق كثير من السلف.. وممن صام الأشهرَ الحرمَ كلها ابنُ عمر والحسنُ البصري وغيرهما.

قال بعضهم: إنما هو غداء وعشاء، فإن أخرت غداءك إلى عشائك أمسيت وقد كتبت في ديوان الصائمين.

«**للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه**»(1) إذا وجد ثواب صيامه مدخورًا.

سمع بعضهم مناديًا ينادي على السحور في رمضان: ياما خبَّأنا للصوام، فانتبه لذلك وسرد الصوم.

وروي أن الصائمين توضع لهم مائدة تحت العرش، فيأكلون والناس في الحساب، فيقول الناس: ما بال هؤلاء يأكلون ونحن نحاسب؟ فيقال: كانوا يصومون وأنتم تفطرون.. وروي أنهم يحكمون في ثمار الجنة والناس في الحساب. روى ذلك ابن أبي الدنيا في «كتاب الجوع».

قال الله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥]. وقال تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ٢٤]. قال مجاهد وغيره: «نزلت في الصوام». من ترك لله طعامه وشرابه وشهوته عوَّضه الله خيرًا من ذلك طعامًا وشرابًا لا ينفد، وأزواجًا لا تموت.

---

(1) حديث رواه مسلم رقم (١١٥١) (١٦١) في الصيام، باب فضل الصيام.

وفي التوراة: طوبى لمن جوَّع نفسه ليوم الشبع الأكبر، طوبى لمن ظمَّأ نفسه ليوم الريّ الأكبر، طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعد غيب لم يره، طوبى لمن ترك طعامًا ينفد في دار تنفد، لدار ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ ﴾ [الرعد: ٣٥].

مَنْ يُرِدْ مُلْكَ الجِنانِ فَلْيَذَرْ عنهُ التَّواني
وَلْيَقُمْ في ظُلْمَةِ اللَّيـ ـلِ إلى نُورِ القُرانِ
وَلْيَصِلْ صَوْمًا بِصَوْمٍ إنَّ هذا العيشَ فاني
إنَّما العيشُ جِوارُ اللَّـهِ في دارِ الأمَانِ

كان بعض الصالحين يكثر الصوم، فرأى في منامه كأنه دخل الجنة، فنودي من ورائه: يا فلان، تذكر أنك صمت لله يومًا قط؟ قال: إي والله، يوم ويوم ويوم، فإذا صوانيّ النثار قد أخذته يمنة ويسرة.

كان بعض الصالحين قد صام حتى انحنى وانقطع صوته، فمات فرئي بعض أصحابه في المنام، فسئل عن حاله، فقال:

قَدْ كُسِي حُلَّةَ البَهاءِ وطافَتْ بالأباريق حَوْلَه الخُدَّامُ
ثم حُلّي وقيلَ يا قارِيَ ارْقَه فلَعَمري لَقَدْ بَرَاكَ الصِّيامُ

صام بعض التابعين حتى اسود من طول صيامه. وصام الأسود بن يزيد حتى اخضر جسمه واصفر، فكان إذا عوتب في رفقه بجسده يقول: كرامة هذا الجسد أريد. وصام بعضهم حتى وجد طعم دماغه في حلقه. كان بعضهم يسرد الصوم، فمرض وهو صائم، فقالوا له: أفطر، فقال:

ليس هذا وقت ترك الصيام. وقيل لآخر منهم وهو مريض: أفطر، فقال: كيف أفطر وأنا أسير لا أدري ما يفعل بـي؟

مات عامر بن عبد الله بن الزبير وهو صائم ما أفطر. ودخلوا على أبـي بكر بن أبـي مريم وهو في النزع، وهو صائم، فعرضوا عليه ماء ليفطر، فقال: أغربت الشمس؟ قالوا: لا، فأبـى أن يفطر، ثم أتوه بماء وقد اشتد نزعه، فأومأ إليهم: أغربت الشمس؟ قالوا: نعم، فقطروا في فيه قطرة من ماء ثم مات. واحتضر إبراهيم بن هانىء صاحب الإمام أحمد وهو صائم، وطلب ماء، وسأل: أغربت الشمس؟ قالوا: لا، وقالوا له: قد رُخِّص لك في الفرض وأنت متطوع. قال: أجل، أمهلوا، ثم قال: ﴿﴾ [الصافات: ٦١]، ثم خرجت نفسه وما أفطر...». اهـ إلى غير ذلك مما استطرد الحافظ بذكره وهذا شأنه وديدنه في كتابه «لطائف المعارف» فلله دره!

* * *

الفصل الثالث

موقف الحافظ ابن رجب الحنبلي من المخالفين لمنهج السلف الصالح

الفصل الثالث

موقف الحافظ ابن رجب الحنبلي من المخالفين لمنهج السلف الصالح

التزم الحافظ ابن رجب الحنبلي مذهب السلف الصالح، أهل السنَّة والجماعة، في تأصيل العقيدة، والدعوة إليها، والعمل بها، والصبر على ما يلقاه في سبيل ذلك.

ومن الطبيعي ــ والحالة هذه ــ أن يجد المخالف له والمناوىء لدعوته من الأضداد والمنحرفين.

ولم يسلم من ذلك الأنبياء والرسل فكيف من بعدهم ممن يسير على منهاجهم من الدعاة والعلماء..؟

لذا كان الرد على مخالفي العقيدة والمنهج السلفي جزءًا من منهاج أهل السنَّة والجماعة بل قاعدة من قواعدهم ولاءً وبراءةً.

ولأجل هذا نرى أن منهج السلف في العقيدة في آخر القرون المفضلة يقوم على ركيزتين أساسيتين:

١ ــ بيان العقيدة الإسلامية الصحيحة، والاهتمام بمصادرها، تأصيلاً واستدلالاً وفهمًا على نصوص الوحيين، وأقوال الصحابة وتابعيهم وكبار علماء أتباعهم.

٢ ــ الرد على المناوئين لهذه العقيدة، والمخالفين لها من أهل الأهواء والبدع من سائر الطوائف، وتفنيد شبههم، والرد على افتراءاتهم في النصوص، وتلبيساتهم وشبههم في العقيدة والشريعة.

وقد برزت مؤلفات علماء أهل السنَّة والجماعة في هاتين الركيزتين، وربما مما جمعت كلا المنحيين في مؤلف واحد، كما في كتب السنَّة ومدونات الحديث النبوي من الصحاح والسنن والجوامع، وهذا جهد مبرور من جهودهم المباركة في خدمة الدين والعقيدة الإيمانية الصحيحة والذبِّ عنها وعن أهلها، ويمثل القرنان الثالث والرابع مرحلة ذهبية في هذا المضمار.

فما أحسنَ أثرهم على الناس، وأقبحَ أثر الناس عليهم، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المُبطلين، وتأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدع، وأطلقوا عقال الفتنة، فهم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، مجمعون على مفارقة الكتاب.

يقولون على الله، وفي الله، وفي كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمُتشابِه من الكلام، ويخدعون جُهَّالَ الناس بما يُشبِّهون عليهم، فنعوذ بالله من فتن الضالين[1].

ومن جهودهم في ذلك التأليف والتصنيف، فقد ازدهر القرنُ الثالثُ الهجري بمؤلفات علماء أهل السنة في رد البدع عمومًا، وهذه البدعة خصوصًا. وبتقعيد منهج أهل السنة والجماعة، وربط أصولهم،

---

(١) تضمين من تقدمة الإمام أحمد لكتابه الرد على الجهمية والزنادقة ٨٥.

وتأصيلها في مؤلفات زَهُرت بها علومُ المسلمين وفنونهم، فكان من عيونها:

- «**كتاب الإيمان**» و «**السنة**» و «**الرد على الجهمية والزنادقة**» كُلُّها لإمام أهل السنَّة والجماعة، الإمام المبجل أحمد بن حنبل (٢٤١هـ).

- «**الرد على أهل الأهواء**» و «**السنَّة**»، كلاهما لأبي بكر الحميديِّ عبد الله بن الزبير المكي (٢١٩هـ) صاحب المسند، وشيخ الإمام البخاري.

- «**الإيمان**» لأبي عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤هـ).

- «**الرد على أهل الأهواء**» لأصبغَ بنِ الفرج الأموي (٢٢٥هـ).

- «**السنَّة**» لابن أبي شيبة (٢٢٥هـ) صاحب المصنف.

- «**الرد على الجهمية**» لشيخ البخاري: عبد الله بن محمد الجُعفي (٢٢٨هـ).

- «**الرد على الجهمية**» لنُعيم بن حماد الخزاعي (٢٢٨هـ).

- «**الواضحة في السنَّة**» لعبد الملك بن حبيب الأندلسي (٢٢٨هـ).

- «**الرد على الزنادقة والجهمية**» و «**الحيدة**» لعبد العزيز بن يحيى الكنانيِّ (٢٤٠هـ).

- «**السنَّة**» و «**أفعال العباد**» لأبي الحسين علي بن حجر السعدي المروزي (٢٤٠هـ).

ـ «**الرد على الجهمية**»[1] لمحمد بن أسلمَ الكندي الطوسيِّ (٢٤٢هـ).

ـ «**الإيمان**» لمحمد بن يحيى بنِ أبي عمرَ العدنيِّ (٢٤٣هـ).

ـ «**الاستقامة**» و «**السنة**» لخُشيش بنِ أصرمَ النسائي (٢٥٣هـ)، شيخ الإمام النسائي صاحب السنن.

ـ «**السنَّة**» لعبد الوهاب بنِ عبد الحكم الوراق (٢٥١هـ).

ـ «**السنَّة**» و «**الرد على أهل البدع**» و «**الإيمان**» و «**الرد على البكرية**» و «**الحجة على المعتزلة**» كلُّها لمحمد بنِ سحنون القيرواني (٢٥٦هـ).

ـ «**السنَّة**» لأحمدَ بن الفرات الضَّبي الرازي (٢٥٨هـ).

ـ «**السنَّة**» لأحمدَ بن محمد بن هانىء الأثرم (٢٦١هـ)، صاحب الإمام أحمد.

ـ «**الرد على أهل الأهواء**» لأبي زرعة عبيد الله الرازي (٢٦٤هـ).

ـ «**الأهواء والاختلاف**» لأبي عبد الله محمدِ بن أحمدَ بن الزُّرباق (٢٦٤هـ).

ـ «**السنَّة**» لإسماعيل بن يحيى المزني (٢٦٤هـ) صاحب الشافعي.

ـ «**الرد على بشر المريسيِّ**» لمحمد بن عبد الله بن عبد الحكم البصري (٢٦٨هـ).

---

(١) وهذا الكتاب تعجب منه الإمام أحمد لما نظر فيه لحسنه، كما في السير ١٢/١٩٧.

ـ «السنَّة» لحنبل بن إسحاقَ بن حنبل (٢٧٣هـ)، ابن عم الإمام أحمد وصاحبه.

ـ «السنَّة» للإمام أبـي داودَ السجستاني (٢٧٥هـ) صاحب السنن.

ـ «السنَّة» لأحمدَ بن محمد بن الحجاج المروّذي (٢٧٥هـ).

ـ «السنَّة» ليعقوبَ بن سفيانَ الفسوي (٢٧٧هـ).

ـ «السنَّة» لحرب بن إسماعيلَ الكرماني (٢٨٠هـ)، صاحب أحمد.

ـ «**السنَّة والنهي عن البدعة**» لأحمد بن يزيد القُرشي المعلم القيرواني (٢٨٤هـ).

ـ «السنَّة» لابن أبـي عاصم النَّبيل (٢٨٧هـ).

ـ «**البدع والنهي عنها**» لمحمد بن وضَّاح القرطبـي (٢٨٧هـ).

ـ «**الرؤية والرد على الجهمية**» و «**الرد على المرجئة**» و «**الصراط والميزان**» و «**معالم الإيمان**» ليحيـى بن عمر الكناني المالكي (٢٨٩هـ)، فقيه الأندلس وإمامها.

ـ «السنَّة» لعبد الله بن الإمام أحمدَ (٢٩٠هـ)، وجملته من مرويات عن والده.

ـ «السنَّة» لأبـي بكر أحمد بن عليٍّ بن سعيد المروزي (٢٩٢هـ).

ـ «**الإيمان**» لأبـي سعدٍ يحيـى بنِ منصور الهروي (٢٩٢هـ).

ـ «السنَّة» و «**تعظيم قدر الصلاة**» لمحمد بن نصرٍ المروزي (٢٩٤هـ)، الملقب بالشافعي الثاني.

- «**السنَّة**» للحكم بن معبدٍ الخزاعي (٢٩٥هـ).
- «**العرش وما ورد فيه**» لمحمد بن عُثمانَ بن أبـي شيبة (٢٩٧هـ).
- «**الحجة في الرد على أهل البدع**» ليحيـى بن عونٍ الخزاعي المالكي (٢٩٨هـ).
- «**مجالس في مناظرات أهل البدع**» و «**كتاب الاستواء**» لأبـي عثمان سعيد بن الحدَّاد الغسانيِّ القيروانيِّ (٣٠٢هـ).

ثُمَّ جاء القرن الرابعُ متواصلاً مع غلبة أهل السنَّة والجماعة على مناوئيهم من أهل البدع، وبظهور السنَّة على الناس؛ وإعزاز حملتها، ولم يعكِّر صفو ذلك سوى ما امتد من بذور البدع الأولى من الرفض والاعتزال والإرجاء والتصوف، وفيه ظهرت الكُلاَّبية من خلال تحمل الأشاعرة والماتريدية لها عقيدةً في باب الصفات.

وكان من شواهد غَلبةِ أهلِ السنَّة وظهورهم، ما حظي به هذا القرن مِنْ امتدادِ تواصلِهم في التأليف والتصنيف في سبيل ذلك، وكان من عيون تلك المصنفات:

- «**التبصير في معالم الدين**» و «**صريح السنَّة**» و «**الملل والنحل**» لأبـي جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ)، صاحب أكبر التفاسير المسندة، وأشهرها.
- «**التوحيد**» لأبـي بكر مُحمد بن خُزيمة (٣١١هـ) الملقب بإمام الأئمة.
- «**الرد على المعطلة**» للحكيم الترمذي (٣١١هـ).

- «**الجامع**» لعلوم الإمام أحمد والمشتمل على كتاب الإيمان والسنَّة وغيرها مما جمعه أبو بكر محمد بن هارون الخلال (٣١١هـ).
- «**الشريعة**» لأبـي بكر بن أبـي داودَ (٣١٦هـ).
- «**الإيمان**» لأبـي عمرو أحمدَ بن خالدِ بن الجيَّاب (٣٢٢هـ) محدث الأندلس.
- «**الرد على الجهمية**» لنفطويه إبراهيمَ بنِ مُحمدٍ الأزدي النحوي (٣٢٣هـ).
- «**السنَّة**» و «**الرد على الجهمية**» لعبدِ الرحمن بن أبـي حاتم (٣٢٧هـ).
- «**السنَّة**» لأبـي إسحاقَ إبراهيمَ بنِ أحمدَ المَروزي الشافعيِّ (٣٤٠هـ).
- «**الأسماء والصفات**» و «**الرؤية**» و «**الإيمان**» و «**القدر**» و «**الصحابة**» لأبـي بكر أحمدَ بنِ إسحاقَ النيسابوري الصَّبغي (٣٤٢هـ).
- «**أصول السنَّة والتوحيد**» لأبـي مُحمد بن المُبدل البصري (٣٤٧هـ).
- «**السنَّة**» و «**المعرفة**» و «**الرؤية**» و «**العظمة**» للحاكم أبـي أحمد العسَّال (٣٤٩هـ).
- «**الإبانة عن حقائق أصول الديانة**» لمنذر بن سعيد البلوطي (٣٥٥هـ)، قاضي الأندلس.
- «**الشريعة**» لأبـي بكر محمد بن الحسين الآجري (٣٦٠هـ).

ـ «**السنَّة**» و «**الرد على الجهمية**» لأبـي القاسم سُليمانَ بن أحمد الطبراني (٣٦٠هـ).

ـ «**السنَّة**» لمحمد بن علي القصَّاب الكرجي (٣٦٠هـ).

ـ «**السنَّـة**» و «**العظمـة**» لأبـي الشيـخ عبـد الله بـن جعفـر بـن حِبَّـان الأصبهاني (٣٦٩هـ).

ـ «**الرد على الكلابية**» لأبـي إسحاق إبراهيم بن شَاقلاّ الحنبلي (٣٦٩هـ).

ـ «**اعتقاد التوحيد بإثبات الأسماء والصفات**» أو «**العقيدة**» لمحمد بن خفيف الضَّبـي الشيرازي (٣٧١هـ).

ـ «**جامع الأصول**» لأبـي الحسن عبد العزيز بن الحارث التميمي الحنبلي (٣٧١هـ).

ـ «**السنَّة**» لأبـي حفص عُمرَ بنِ شاهين (٣٨٥هـ).

ـ «**السنَّة**» لعلي بنِ عُمرَ الدارقطني (٣٨٥هـ).

ـ «**الرد على المعتزلة والقدرية**» و «**النهي عن الجدال**» و «**الرسالة في التوحيد**» لعبد الله بن أبـي زيدٍ القيرواني الفقيه المالكي (٣٨٦هـ).

ـ «**الإبـانـة الكبـرى**» و «**الصغـرى**» لأبــي عُبيـد الله بـن بطـة العُكبـري (٣٨٧هـ).

ـ «**الغنية عن الكلام وأهله**» لأبـي سليمانَ حَمْدٍ الخطابـي (٣٨٨هـ).

ـ «**التـوحيـد**» و «**الـرد علـى الجهميـة**» و «**الإيمـان**» لأبــي عبـد الله محمد بنَ إسحاقَ ابنِ مندةَ (٣٩٥هـ).

فجاء بعده القرنُ الخامس الهجري، والركبُ سائرٌ ببركة الله، وأهلُ السنَّة ثابتون على منهاجهم، والأهواء تتخاطف مَنْ حولهم، ولم تزل العلماءُ تنفع الناس بمصنفاتهم ومآثرهم العلمية، وكان منها في هذا القرن:

ـ «**ذم الكلام**» أو «**الرد على أهل الكلام**» لأبـي عبد الرحمن السلميِّ الصُّوفي (٤١٢هـ).

ـ «**الوصية**» لمعمرِ بنِ أحمدَ الأصبهاني (٤١٨هـ).

ـ «**شرح السنَّة**» لأبـي القاسم هبة الله اللالكائي (٤١٨هـ).

ـ «**الوصول إلى معرفة الأصول**» و «**السنَّة**» و «**الدليل إلى معرفة الجليل**» لأبـي عُمَرَ أحمدَ بن مُحمدٍ الطَّلَمَنْكِي المالكي (٤٢٩هـ).

ـ «**محجة الواثقين ومدرجة الوامقين**» لأبـي نُعيمٍ الأصبهاني (٤٣٠هـ).

ـ «**أحاديث الصفات**» لعلي بنِ عُمرَ القزويني الحربـي (٤٤٢هـ).

ـ «**كتاب الصفات**» لأبـي القاسم عبد العزيز بن عليٍّ الأزجي (٤٤٤هـ).

ـ «**الإبانة عن أصول الديانة**» و «**رسالته فيمن أنكر الحرف والصوت**» كلاهما لأبـي نصرٍ السِّجزيِّ الشافعي (٤٤٤هـ).

ـ «**اعتقاد السلف وأصحاب الحديث**» لشيخ الإسلام أبـي عثمان الصابونيِّ الأنصاري (٤٤٩هـ).

ـ «**الرد على الجهمية**» و «**إبطال التأويلات لأخبار الصفات**» و «**الرد على الكرامية**» و «**الرد على السالمية والمجسمة**» و «**إيضاح البيان في مسألة القرآن**» كُلّها للقاضي أبـي يعلى الحنبلي (٤٥٨هـ).

ـ «**الأسمـاء والصفـات**» و «**الاعتقـاد**» و «**الـرؤيـة**» كُلُّهـا لأبـي بكـرٍ أحمد بن الحُسين البيهقي (٤٥٨هـ). مع التنبه لما في بعضها من التمشعر، مما لا يوافق عليه الإمام البيهقي.

ـ «**الإبانة**» لأبـي القاسم عبد الرحمن بن محمد الفوراني (٤٦١هـ).

ـ «**الإيمان**» و «**العقيدة والمذاهب السديدة**» لأبـي الوليد سُليمانَ الباجي (٤٧٤هـ).

ـ «**الإيمان**» لمُحمد بن مُحمد بن غانم (٤٧٤هـ).

ـ «**الفاروق في الصفات**» و «**ذم الكلام وأهله**» و «**الأربعين في التوحيد**» و «**تكفير الجهمية**» كُلُّها لأبـي إسماعيل عبد الله الهروي الأنصاري (٤٨١هـ).

ـ «**التبصرة في أصول الدين على مذهب الإمام أحمد**» لأبـي محمدٍ عبد الواحد بن مُحمدٍ الشيرازي (٤٨٦هـ). ناقل المذهب الحنبلي إلى دمشق الشام.

ـ «**البيان في أصول الدين**» لأبـي بكرٍ مُحمد بن بكران الحمويِّ الشافعي (٤٨٨هـ).

ـ «**تقويم الأدلة**» و «**الانتصار لأهل الحديث**» و «**المنهاج لأهل السنَّة**» كُلُّها لأبـي المُظفَّر منصورٍ السمعاني المروزي (٣٨٩هـ).

ـ **«الحجة على تارك المحجة»** لأبـي الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي الشافعي (٤٩٠هـ).

ـ **«الحجـة علـى تـارك المحجـة»**[١] للحـافـظ محمـد بـن طـاهـر بـن القيسراني (٥٠٨هـ).

وقد درج الحافظ على هاتين الركيزتين في منحيٍّ: تقرير العقيدة والمنافحة عنها بالردود؛ فسلكهما داعيًا إلى التمسك بكتاب الله وسنة رسوله، ومضى منهجه في الأولى، وهذه طريقته في الثانية:

* * *

---

(١) الكتاب قيد التحقيق والدراسة مني ولعله يطبع قريبًا.

أولاً:
ردّه على أهل الشرك والنفاق

الشرك: هو أن تجعل مع الله شريكًا في أقوال أو أفعال عباده.

والنفاق: هو إظهار الإسلام وإبطان الكفر، والنفاق العملي طريقه إليه، وهذان الأمران أعظم ما يكون خطرًا على القلوب، وعلى الإيمان وعلى الأعمال، والمآل يوم القيامة.

وتناولهما الحافظ ابن رجب وأهلهما من خلال التحذير منهما ومن الطرق الموصلة إليهما، لأن خطر أهل الشرك وأهل النفاق على الدين أمر واضح وضوح الشمس.

ومن رده لمخالفته أهلهما بيانه الشرك والنفاق ليعلم أهلهما ممن هو في طريقه إليهما، ومن سلمه الله منهما.

فالأول وهو الشرك، تركز كلام الحافظ على الشرك في توحيد العبادة، وهو الشرك في أفعال المكلفين، الذي لأجله أرسل الله الرسل وأنزل عليهم الكتب، وله خلق الجن والإنس.

ولأن الشرك في الربوبية أمر قليل، بل نادر لم يدعه إلاَّ القليل من خلق الله، وادعوه ظاهرًا لا باطنًا كما فعل فرعون مصر، والنمرود بن كنعان في بابل قبله، والدهريون بعد ذلك.

أما الشرك في الألوهية فهو الذي كثر في الناس بجلب الشيطان له عليهم بخيله ورجله، ومشاركته لهم في دنياهم ووعده لهم وتغريره بهم:

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وهذا الشرك المنتشر في بلاد المسلمين قديمًا وحديثًا بصور متنوعة ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله.

فالحافظ ابن رجب قسَّم الشرك إلى قسمين ــ كما هو المشهور عند المسلمين ــ أكبر وأصغر.

١ ــ **فالشرك الأكبر**: هو المحبط للعمل، الموجب للخلود في نار جهنم، وهو صرف شيء من أنواع العبادة التي اختص الله بها، لغير الله.

فقد أجمل ذلك الحافظ ابن رجب إجمالاً موفقًا فقال:

«... فمن أشرك مخلوقًا في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلـٰهية، كان ذلك قدحًا في إخلاصه في قوله: لا إلـٰه إلاَّ الله، ونقصًا في توحيده، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك، وهذا كله من فروع الشرك»[1]. اهـ.

---

(١) من رسالة: تحقيق كلمة الإخلاص، ص ١٦ ــ ١٧.

٢ ــ **والشرك الأصغر**: وهو من أكبر الكبائر، وهو كل شرك لم يصل إلى الشرك الأكبر، أو طريق يوصل إلى الشرك الأكبر. وهو محبط للعمل الذي صاحبه، وصاحبه على خطر أن يشرك حتى يقع في الأكبر.

قال ابن رجب:

«ولهذا ورد إطلاق الكفر والشرك على كثير من المعاصي التي منشؤها من طاعة غير الله، أو خوفه، أو رجائه، أو التوكل عليه أو العمل لأجله، كما ورد إطلاق الشرك على الرياء، وعلى الحلف بغير الله، وعلى التوكل على غير الله، والاعتماد عليه، وعلى من سوى بين الله وبين المخلوق في المشيئة مثل أن يقول: ما شاء الله وشاء فلان، وكذا قوله: مالي إلاَّ الله وأنت، وكذلك ما يقدح في التوحيد، وتفرد الله بالنفع والضر كالطيرة والرقى المكروهة، وإتيان الكهان وتصديقهم بما يقولون، وكذلك اتباع هوى النفس فيما نهى الله عنه قادح في تمام التوحيد وكماله»[١]. اهـ.

ولا شك أن إتيان الكهان وتصديقهم ليس من الأصغر، بل كفر أكبر؛ للنَّصِّ على ذلك منه ﷺ في قوله: «**من أتى كاهنًا أو عرافًا فسأله فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد**» خرجه في الصحيح.

هذا نموذج من تفصيله وبيانه خطر الشرك على أهله وعلى المسلمين.

* * *

---

(١) من رسالة: تحقيق كلمة الإخلاص، ص ١٦ ــ ١٧.

*أما النفاق فكذلك حذر منه ومن أهله، ببيانه وتقسيمه إلى نوعين حسب دلالة النصوص إلى نوعين:

١ ــ نفاق أكبر وهو الاعتقادي، وهو المخرج عن الملة، وصاحبه في الدرك الأسفل من النار، وهو نفاق المنافقين على عهد النبي ﷺ وهو نفاق الزنادقة فمن بعدهم؛ لقوله تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾.

٢ ــ ونفاق أصغر منه هو العملي، وصاحبه مرتكب لكبيرة من الكبائر. وقد ربطه الحافظ بالشرك الأصغر.

فقال في شرحه حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما المرفوع: «**أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كان فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر، وإذا عاهد غدر**» خرجاه في الصحيحين، قال:

«... والذي فسره أهل العلم المعتبرون: أن النفاق في اللغة هو من جنس الخداع والمكر وإظهار الخير وإبطان خلافه، وهو في الشرع ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: النفاق الأكبر، وهو أن يظهر الإنسان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويبطن ما يناقض ذلك كله

أو بعضه، وهذا هو النفاق الذي كان على عهد رسول الله ﷺ، ونزل القرآن بذم أهله وتكفيرهم، وأخبر أن أهله في الدرك الأسفل من النار.

والثاني: النفاق الأصغر، وهو نفاق العمل، وهو أن يظهر الإنسان علانية صالحة، ويبطن ما يخالف ذلك.

وأصول هذا النفاق يرجع إلى الخصال المذكورة في هذه الأحاديث...»[1]. اهـ.

وهذا يوجب الحذر من النفاق بنوعيه، ومن أهلهما وشدة خطرهم على الدين والمعتقد والإيمان.

فإن تنج منها تنجو من ذي عظيمة وإلاَّ فإني لا إخالك ناجيًا

وردَّ الحافظ على أهل النفاق بالتحذير منهم، ومن أفعالهم، وما يقرب إلى سلوكهم فقال في شرح حديث: «**ليس صلاة أثقل على المنافقين من صلاة الفجر والعشاء**».

«وإنما ثقلت هاتان الصلاتان في المساجد على المنافقين أكثر من غيرهما من الصلوات؛ لأن المنافقين كما وصفهم الله في القرآن ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٤٢ ﴾ [النساء: ١٤٢]، والمراد إنما ينشط للعمل إذا رآه الناس، فإذا لم يشاهدوه ثقل عليه العمل...»[2]. اهـ.

---

(١) من شرح الأربعين: جامع العلوم والحكم، شرح حديث رقم (٤٨)، ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠.

(٢) من فتح الباري شرح صحيح البخاري «مصورة الصديقية بالحرم المكي»، ق ٦٣، ٧٠.

واهتم الحافظ ببيان كيف كان السلف الصلح، وأولهم الصحابة، بل فضلاؤهم يخافون النفاق على أنفسهم، ليس الأصغر فقط، بل الأكبر أيضًا أشد الخوف، ويخافون أن يكونوا من أهله، وهم من هم في صلاحهم وتقاهم، ولهذا كان عمر بن الخطاب يسأل حذيفة بن اليمان رضي الله عنهم صاحب سر رسول الله ﷺ في المنافقين، هل أخبره الرسول بأنه منهم، فإذا كان عمر يخاف ذلك على نفسه فكيف من هو دونه؟!

وقد ساق الحافظ أقوالاً وأخبارًا في خوف السلف النفاق على أنفسهم كثيرة[1]، نعوذ بالله من النفاق والمنافقين، ونسأله أن يطهر قلوبنا من النفاق والشك والحيرة، وأعيننا من الخيانة، وألسنتنا من الكذب، وجوارحنا من معاصيه، آمين. اللّٰهم صلِّ وسلِّم على رسولك محمد وآله وصحبه.

ومن النفاق الحادث بصور أخرى الزندقة التي ظهرت في أواخرالقرون المفضلة وما بعدها كما هو عند أهل الحلول والاتحاد، والذين استغلوا ظواهر النصوص المتشابهة لأغراضهم، قال ابن رجب على حديث أبي هريرة رضي الله عنه، الذي رواه الإمام البخاري: «**من عادى لي وليًّا فقد بارزني بالمحاربة...**»: «فمتى امتلأ القلب بعظمة الله تعالى محا ذلك من القلب كل ما سواه ولم يبق للعبد شيء من نفسه وهواه، ولا إراده إلاَّ لما يريده منه مولاه، فحينئذٍ لا ينطق العبد إلاَّ

(١) كما نقله في جامع العلوم والحكم، ص ٤٣٢ ــ ٤٣٣، والخشوع في الصلاة، ص ١٩ ــ ٢٠.

بذكره، ولا يتحرك إلاَّ بأمره، فإن نطق نطق بالله، وإن سمع سمع به، وإن نظر نظر به، وإن بطش بطش به، فهذا هو المراد بقوله: **«كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها»** ومن أشار إلى غير هذا فإنما يشير إلى الإلحاد من الحلول والاتحاد، والله ورسوله بريئان منه. . . ». اهـ[1].

* * *

(١) شرح الحديث الثامن والثلاثين من جامع العلوم والحكم، ص ٣٦٥.

ثانيًا :

موقفه من مناهج المتكلمين

كانت من آيات النبي ﷺ، وتحذيره لأمته قوله: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. . .**».

وتبلور هذا بشكل واضح في العقيدة، من خلال تأثير المناهج الوافدة على المسلمين ومذاهبهم، ففي القرن الثالث لما ترجمت فلسفة اليونانيين الإغريق وفلسفة الهنود والفرس والوثنيين إلى لغة المسلمين، بدأت تؤثر في عقولهم وأقيستهم حتى ظهر معها ما يسمى **بعلم الكلام**، وهو مأخوذ إما من البحث في صفة الكلام لله سبحانه وتعالى والقرآن، أو لكثرة الكلام والبحث والجدال والقيل والقال في المسائل العقدية.

ومفهوم علم الكلام هو: دراسة مسائل الاعتقاد بالأقيسة والمقدمات العقلية، والمنطقية المجردة.

وقد جرَّ هذا العلم بلاء عظيمًا على عقائد المسلمين، كان سببًا في زيادة تفرقهم واختلافهم، فطرأت فرق جديدة على الساحة الإسلامية تمثلت في مذاهب الكلابية والماتردية والأشاعرة الذين يسمون بالمتكلمين أو الصفاتية، مع البدع السابقة عليها عند المعتزلة

والجهمية والخوارج والرافضة، وإن كانت أصولهم قد ظهرت قبل ذلك في القرن الهجري الأول.

إلاَّ أن التأصيل والتقعيد لهذه الطوائف كان قد اكتمل في القرن الثالث الهجري تقريبًا، وقُعدت الطريقة الكلابية لدى الأشاعرة والماتريدية في القرن الخامس الهجري.

ولما كانت هذه الفرق ممن تأثر بتلك المناهج الوافدة، وكونها بدعًا وإحداثًا في دين الإسلام، ومناهج أهواء، لا حق وصواب، نفر منها المسلمون، السائرون على شريعة الرسول ﷺ وصحابته، مع مخالفتها الصريحة لعقيدة الإسلام وأصولها الثابتة.

فرفضها علماء السلف الصالح، وعارضوها بالوحيين، وناوؤوها بكشف آثارها وتناقضها، والرد عليها.

وهذا ما حدث عند زين الدين ابن رجب الحنبلي، وهو المتبع للسلف الصالح، فركز في كتابه «فضل علم السلف على الخلف» على تفنيد هذه البدع والمحدثات التي تسمى علومًا، بل عدها من العلوم الضارة، كما قارنها بعلوم السلف، ومناهجها بمناهج السلف، وبين تناقض تلك العلوم وتهافتها.

كما عدها من الأسباب التي حادت بعقول بعض الناس، وضعاف الإيمان إلى الزندقة، والإلحاد عن دين الله وفطرته، كما اعتبرها من فتن آخر الزمان، التي يمسي فيها المؤمن كافرًا، أو يصبح كافرًا، والتي تواترت معاني النصوص في حصولها في آخر الزمان.

قال الحافظ في تحديد بداية تلك المناهج المحدثة: «. . . وكان أول هذه الفتن ما حدث بهم ـ أي بالمسلمين من الصحابة ـ من مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ونشأ من تلك الفتن مقتل عثمان رضي الله عنه وما ترتب عليه من إراقة الدماء، وتفرق القلوب، وظهور فتن الدين، كبدع الخوارج المارقين، وإظهارهم ما أظهروا، ثم ظهر بدع أهل القدر والرفض ونحوهم، وهذه هي الفتن التي تموج كموج البحر المذكورة في حديث حذيفة رضي الله عنه المشهور. . .»(1). اهـ. وما زالت هذه البدع تتطور وتتأصل ويقوم عليها رجال وجماعات حتى أضحت لها مدارس وأصول وقواعد يجمعها علم واحد هو «علم الكلام».

---

(1) من كتاب: اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى، ص ١٠٦.
وحديث حذيفة رواه البخاري ومسلم ولفظه «كنا عند عمر فقال: أيكم يحفظ حديث رسول الله ﷺ في الفتنة؟ فقلت: أنا أحفظه كما قال، قال: هات، إنك لجريء، وكيف قلت؟ قلت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**فتنة الرجل في أهله وماله ونفسه وولده وجاره يكفرها الصيام والصدقة والصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**». فقال عمر: ليس هذا أريد، إنما أريد التي تموج كموج البحر. قال: قلت ما لك ولها يا أمير المؤمنين؟ إن بينك وبينها بابًا مغلقًا. قال: فيكسر الباب أو يفتح؟ قال: قلت: لا، بل يُكسر، قال: ذاك أحرى أن لا يغلق أبدًا. قال: فقلنا لحذيفة: هل كان عمر يعلم من الباب؟ قال: نعم، كما يعلم أن دون غدٍ الليلة، إني حدثته حديثًا ليس بالأغاليط. قال: فهبنا أن نسأل حذيفة: من الباب؟ فقلنا لمسروق يسأله فسأله، فقال: عمر.
أخرجه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلاة كفارة، ومواضع أخرى، ومسلم في كتاب الفتن، باب الفتنة التي تموج كموج البحر، ص ٢٢١٨.

وعليه فقد كثر ذم الأئمة من متقدمي علماء السلف الصالح وأتباعهم بإحسان على ذم الكلام، ونقده، وذم أهله ومناهجهم؛ لأنهم وقفوا على مقاصدهم، ووسائلهم:

فبان لهم خطرهم على العقيدة والشريعة، وضلالهم للناس، فشمروا سواعدهم في التحذير منهم، وكشف عورهم، وتبيين شرورهم للناس لئلا يغتروا ببريق كلامهم ورونقه، وممن سار على هذه الجادة الحافظ زين الدين ابن رجب، فقد ذم هذه العلوم حتى في فروع الفقه، فكيف في أصول الدين؟ قال رحمه الله: «. . . ومن ذلك ــ أعني محدثات العلوم ــ ما أحدثه فقهاء أهل الرأي من ضوابط وقواعد عقلية، ورد فروع الفقه إليها.

وسواء خالفت السنن أم وافقتها طردًا لتلك القواعد المقررة، وإن كان أصلها مما تأولوه على نصوص الكتاب والسنَّة بتأويلات يخالفهم غيرهم فيها. وهذا هو الذي أنكره أئمة الإسلام على من أنكروه من فقهاء أهل الرأي بالحجاز والعراق وبالغوا في ذمه وإنكاره. . .»[1]. اهـ.

وعده علمًا ضارًّا مفسدًا للعقول والقلوب مفضيًّا إلى لوازم شنيعة، ظهرت بعضها على ألسنة أهل الكلام، وتدارك بعض كبارهم نفسه من الموت عليها فأعلن توبته والبراءة منها، بل أعلنوا حيرتهم وشكهم، ووصل حالهم إلى التذبذب والتيه والجهل، نقل ذلك عنهم الشيخ تقي الدين ابن تيمية في درء تعارض العقل والنقل، حيث نقل

(١) من كتاب: فضل علم السلف على الخلف، ص ١٤٠.

هذه الحال عن أبـي عبد الله الشهرستاني، وأبـي المعالي الجويني، والغزالي، وأبـي عبد الله الرازي، وابن أبـي الحديد، وابن رشد الحفيد.. وذكر رجوع بعضهم إلى طريقة الكتاب والسنَّة كما فعل الغزالي؛ فمات وهو مشتغل بهما وصحيح البخاري على صدره، وبعضهم بالرجوع إلى الفطرة بتمني الموت على عقائد العجائز(١)... نسأل الله العفو والعافية والسلامة.

وابن رجب الحنبلي نبَّه إلى هذا الأمر بنقده لكبار علماء مذهبه ومن انتهى إليهم العلم فيه ـ ولم يتعصب لهم والحالة هذه ـ، نقدهم لما تأثروا بمناهج أهل الكلام مناهجهم الفاسدة، بسبب المجالسة والمباحثة.

فمن ذلك ما وقع له في الكلام على الشيخ أبـي الوفاء بن عقيل الحنبلي حيث قال في ترجمته: «وذلك أن بعض أصحابنا كانوا ينقمون على ابن عقيل تردده إلى ابن الوليد وابن التبان شيخي المعتزلة، وكان يقرأ عليهما سرًّا علم الكلام، ويظهر منه بعض الأحيان نوع انحراف عن السنة، وتأول لبعض الصفات، ولم يزل فيه بعض ذلك إلى أن مات رحمه الله.

ففي سنة إحدى وستين اطلعوا ـ أي الحنابلة ـ له على كتب فيها شيء من تعظيم المعتزلة، والترحم على الحلاج وغير ذلك... فاشتد

---

(١) في درء التعارض ١/١٥٨ ـ ١٦٦، وبين بعدها عاقبة من أعرض عن هدى الله وما بعث به رسوله ﷺ. ونقل تلك الاعترافات عنه شارح الطحاوية فيها، ص ٢٠٨ ـ ٢١٠. وليتك ـ أيها المحب ـ تراجعها وتتأملها.

ذلك عليهم وطلبوا أذاه فاختفى»[1]. اهـ.

ثم شاهدٌ لما قبل هذا من توبة كبار علماء الكلام أشار الحافظ في ترجمته إلى توبة ابن عقيل، وبراءته من مذاهب مبتدعة الاعتزال وغيرهم، ومن صحبتهم، وذكر أنه ما وجد بخطه من مذاهبهم وضلالاتهم أنه تائب منه، وأنه لا تحلُّ كتابته ولا قراءته ولا اعتقاده، كما أعلن توبته مما قاله في مدح الحلاج أبي منصور، وإنه عمل في ذلك جزءًا نصر فيه الإجماع على قتله وأنهم مصيبون في ذلك، وأن الحنابلة صائبون في إنكارهم عليه، وشهد أنه كان مخطئًا وتبرأ إلى الله من ذلك.

ومثله ما انتقد على الشيخ أبي الفرج ابن الجوزي في ترجمته ١/ ٣٩٩ ـ ٤٣٣، وبالخصوص ١/ ٤١٤، وقد أثنى عليه لما رد على المبتدعة والمتعصبة للمذاهب، وإظهار السنَّة في مجالسه ومدح أهلها، وبالخصوص الإمام أحمد. وغير ذلك مما سيأتي في ملحق الكلام على كتاب الحافظ: ذيل طبقات الحنابلة.

ومن أوضح ذمه وعيبه لكلام المتكلمين ومناهجهم عبارة له حق لها أن تكتب بماء الذهب، حيث قال في «فضل علم السلف» بعد إلزامه العناية بأقوال أئمة السلف: «... فأما الدخول مع ذلك في كلام المتكلمين أو الفلاسفة، فشر محض، وقل من دخل في شيء من ذلك إلاَّ وتلطخ ببعض أوضارهم ـ أو أوساخهم ـ كما قال أحمد: لا يخلو من نظر في الكلام إلاَّ تجهم.

---

(١) من ترجمته في الذيل ١٣/ ١٤٤ وما بعدها.

وكان هو وغيره من أئمة السلف يحذرون من أهل الكلام، وإن ذبوا عن السنَّة.

وأما ما يوجد في كلام من أحب الكلام المحدث واتبع أهله من ذم من لا يتوسع في الخصومات والجدال، ونسبته إلى الجهل، وإلى الحشو ــ كما يطلقه المعطلة على أهل السنَّة والجماعة ــ، أو إلى أنه غير عارف بالله، أو غير عارف بدينه، فكل ذلك من خطرات الشيطان، نعوذ بالله منه.

ومما أحدث من العلوم: الكلام في العلوم الباطنة من المعارف، وأعمال القلوب وتوابع ذلك، بمجرد الرأي والذوق أو الكشف، وفيه خطر عظيم»[1]. اهـ.

نماذج
من نقد الحافظ لمناهج المتكلمين

١ ــ وصف منهجهم بكثرة الجدال والخصام والمراء والقيل والقال، وأنه يخالف منهج صالحي السلف، ولا يثمر خيرًا، بل يؤدي إلى الشر العميم في الشريعة والإيمان، وأن هذا من مداخل الشيطان على هؤلاء فقال: «وقد فتن كثير من المتأخرين بهذا، وظنوا أن من كثر كلامه وجداله وخصامه من مسائل الدين فهو أعلم ممن ليس كذلك، وهذا جهل محض. وانظر إلى أكابر الصحابة وعلمائهم، كأبي بكر وعمر وعلي ومعاذ وابن مسعود وزيد بن ثابت كيف كانوا؟ كلامهم أقل

(١) فضل علم السلف، ص ١٤٩.

من كلام ابن عباس وهم أعلم منه، وكذلك كلام التابعين أكثر من كلام الصحابة، والصحابة أعلم منهم.

وكذلك تابعو التابعين كلامهم أكثر من كلام التابعين، والتابعون أعلم منهم، فليس العلم بكثرة الرواية، ولا بكثرة المقال، ولكنه نور يقذف في القلب يفهم به العبد الحق، ويميز به بينه وبين الباطل، ويعبر عن ذلك بعبارات وجيزة محصلة للمقاصد.

وقد كان النبي ﷺ أُوتي جوامع الكلم، واختصر له الكلام اختصارًا. ولهذا ورد النهي عن كثرة الكلام والتوسع في القيل والقال، وقد قال النبي ﷺ: «**إن الله لم يبعث نبيًا إلاَّ مبلغًا، وأن تشقيق الكلام من الشيطان**» يعني أن النبي ﷺ إنما يتكلم بما يحصل به البلاغ، وأما كثرة القول وتشقيق الكلام فإنه مذموم.

فيجب أن يعتقد أنه ليس كل من كثر بسطه للقول وكلامه في العلم كان أعلم ممن ليس كذلك.

وقد ابتلينا بجهلة من الناس يعتقدون في بعض من توسع في القول من المتأخرين أنه أعلم ممن تقدم.

وهذا تنقص عظيم بالسلف الصالح وإساءة ظن بهم ونسبة لهم إلى الجهل وقصور العلم، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله...»[(١)]. اهـ.

ونقده هذا يتكرر منه بعبارات مختلفة ومناسبات متعددة، وقد أعمله رحمه الله في نفسه، فقد قل كلامه إلاَّ في تبيان آية أو حديث

---

(١) من كتاب: فضل علم السلف على الخلف، ص ١٤٤، ١٤٦.

أو قول صحابـي أو حال سلفي. فترك تلك تعبر عن مقصوده، وهكذا ديدن أهل السنَّة والجماعة، فلا يتكلمون إلاَّ بالنصوص، ولا يستدلون إلاَّ بها، ولا يعولون إلاَّ عليها، ولذا لا تجد كتابًا أو مقالاً لأحدهم يخلو من ذلك أبدًا والحمد لله.

٢ ــ وصف الحافظ علم الكلام بكونه مصدر مصائب، ووصف صاحبه بعدم الفلاح، وأنه يؤدي إلى الحيرة أحيانًا، والشك أحيانًا أخرى، قال ذلك بمناسبةٍ في ترجمة صدقة بن الحسن الحداد (٥٧٣هـ) برقم ١٥٩ في ٣/ ٣٤٢ في رؤيا منام رُؤي فيها، حيث: «قال علي الفاخراني: رأيت صدقة الناسخ ــ وكان قد قرأ علم الجدل والكلام والمنطق والفلسفة ــ في المنام، فقلت له: ما فعل الله بك؟

قال: غفر لي بعد شدة، فسألته عن علم الأصول ــ يعني المنطق والكلام ــ؟ فقال: لا تشتغل به، فما كان شيء أضر عليَّ منه، وما نفعني إلاَّ خمس قصيبات، أو قال: غير أن تصدقت بها على أرملة.

قلت: ــ القائل ابن رجب ــ هذا المنام حق، وما كانت مصيبة إلاَّ من علم الكلام. ولقد صدق القائل: ما ارتدى أحد بالكلام فأفلح.

وبسبب شبه المتكلمين والمتفلسفة كان يقع له أحيانًا حيرة وشك يذكرها في أشعاره[1]، ويقع له من الكلام والاعتراض ما يقع.

---

(١) كما وقع لغير واحد ممن مرت الإشارة إليهم، وممن قال شعرًا منهم أبو عبد الله الشهرستاني فقال:

لعمـري لقـد طفـت المعـاهـد كلهـا ... وسيـرت طـرفـي بيـن تلـك المعـالـم
فلــم أرَ إلاَّ واضعًــا كــف حــائــر ... علــى ذقــن أو قــارعًــا ســن قــادم =

وقد رأيت له مسألة في القرآن، قرر فيها: أن ما في المصحف ليس بكلام الله حقيقة، وإنما هو عبارة عنه، ودلالة عليه، وإنما يسمى كلام(١) الله مجازًا.

قال: ولا خلاف بيننا، وبين مخالفينا في ذلك، إلاَّ أن عندنا أن مدلوله هو كلام الله الذي هو الحروف والأصوات، وعندهم مدلول

= ورد عليه ابن الأمير الصنعاني:

لعلك أهملت الطواف بمعهد الـ ... رسول ومن لاقاه من كل عالم
فما حار من يهدي بهدي محمد ... ولست تراه قارعًا سن نادم

وأيضًا قول أبي عبد الله الرازي:

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾ [طه: ٢٠]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، وإقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، و﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ۝﴾ [طه: ١١٠]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝﴾ [البقرة: ٦٥]، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي. اهـ. ملخصًا من درء تعارض العقل والنقل ١/ ١٥٩ فما بعدها.

وقد نص شيخ الإسلام تقي الدين لما استطرد في إيراد الشواهد على حيرة أساطين الكلام والفلسفة وشكهم، وتغلق الأمور عليهم، نص على أنه لو جمع ما بلغه في هذا الباب عن أعيان هؤلاء، كفلان وفلان لكان شيئًا كثيرًا، وما لم يبلغه عن حيرتهم وشكهم أكثر وأكثر.

هذا، وإن العاقل من اعتبر بغيره، وضده من لم يعتبر بهم واعتبر الناس به.

(١) هذا قول الأشاعرة في مسألة كلام الله عزَّ وجلّ.

الكلام هو المعنى القديم بالذات»[1]. اهـ.

فانظر إلى التناقض منه بعدم الفرق بين قول الأشاعرة بأن الموجود في المصحف ليس كلام الله بل عبارة عنه، وقول أهل السنَّة إن الموجود بالمصحف هو كلام الله حقيقة؟ فهذا ممن وقع عليه التناقض، والاعتراض على كلامه كما ذكر الحافظ رحمه الله.

٣ ـ وكان من نقده أيضًا للمناهج والطرق الكلامية، أنها لم تكن معهودة ولا معروفة في عهد السلف الصالح، بل جاءت بعد ابتعاد الناس عن منهج الكتاب والسنَّة. ولو كانت طريقه نافعة في معرفة الله ودينه لسلكوها، ولكن تركوها عمدًا وخالفوها قصدًا؛ لأنها سبيل من سبل غواية الشيطان للمؤمن.

قال رحمه الله: «ومما أنكره أئمة السلف: الجدال والخصام والمراء في مسائل الحلال والحرام أيضًا ـ مع مسائل الصفات والإيمان ـ ولم يكن ذلك طريقة أئمة الإسلام، وإنما أحدث ذلك بعدهم، كما أحدثه فقهاء العراقيين في مسائل الخلاف بين الشافعية والحنفية، وصنفوا كتب الخلاف ووسعوا البحث والجدال فيها. وكل ذلك محدث لا أصل له، وصار ذلك علمهم حتى شغلهم عن العلم النافع، وقد أنكر ذلك السلف، وورد في الحديث المرفوع في السنن: «**ما ضل قوم بعد هدي إلاّ أوتوا الجدل**»، ثم قرأ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزخرف: ٥٨][2]. اهـ.

---

(١) من ذيل طبقات الحنابلة ٣/ ٣٤٢.

(٢) من فضل علم السلف عن الخلف، ص ١٤١.

٤ ــ كذلك مناهج المتكلمين المبنية على الأقيسة العقلية والمقدمات السفسطية تستلزم اللوازم الفاسدة، التي هرب منها أولئك المتكلمون، وهي تشبيه صفات الخالق بالمخلوق، مع ما تتضمنه من المخالفة للنصوص والقواعد الشرعية.

قال الحافظ ابن رجب في رده على المعتزلة والعقلانية وأتباعهم: «ومنها ــ أي من العلوم المحدثة المنهي عنها ــ الخوض في القدر إثباتًا ونفيًا بالأقيسة العقلية، لقول القدرية، لو قدر وقضي ثم عذب كان ظالمًا، وقول من خالفهم: إن الله جبر العباد على أفعالهم، ونحو ذلك.

ومنها الخوض في سر القدر، وقد ورد النهي عنه عن علي وغيره من السلف، فإن العباد لا يطلعون على حقيقة ذلك.

ومن ذلك ــ أعني محدثات الأمور ــ ما أحدثه المعتزلة، ومن حذا حذوهم، من الكلام في ذات الله تعالى، وصفاته بأدلة العقول، وهو أشد خطرًا من الكلام في القدر، لأن الكلام في القدر كلام في أفعاله، وهذا في ذاته وصفاته. وانقسم هؤلاء إلى قسمين:

أحدهما: من نفى كثيرًا مما ورد به الكتاب والسنَّة من ذلك؛ لاستلزامه عنده التشبيه بالمخلوقين، كقول المعتزلة: لو رُؤي لكان جسمًا، لأنه لا يرى إلَّا في جهة.

وقولهم: لو كان له كلام يُسمع لكان جسمًا، ووافقهم من نفى الاستواء، فنفوه لهذه الشبهة، وهذا طريق المعتزلة والجهمية، وقد اتفق السلف على تبديعهم وتضليلهم. وقد سلك سبيلهم في بعض الأمور كثير ممن انتسب إلى السنَّة والحديث من المتأخرين.

والثاني: من رام إثبات ذلك بأدلة العقول التي لم يرد بها الأثر، ورد على أولئك مقالتهم...»[1]. اهـ.

وهؤلاء المعتزلة يسمون مشبهة في الأفعال، لأنهم في هذا الباب شبهوا أفعال الله بأفعال خلقه، ثم هم يطلبون تعطيل الله عن صفاته تنزيهًا عن تلك المشابهة، فوقعوا في نقيض ما قصدوه، وهكذا مناهج الباطل تؤدي إلى التناقض والتمانع، وإلاَّ فإلى الحيرة والشك فهؤلاء لم تستقم طريقتهم في الصفات والأفعال الإلـٰهية، بطريقة واحدة.

وأما أهل السنة والجماعة، أتباع السلف فلما كانت طريقتهم واحدة، واضحة تتسم بالتسليم التام للوحيين، إثبات ما أثبته الله ورسوله، ونفي ما نفاه الله ورسوله، وعدم الخوض في ذلك بعقولهم سلموا من ذلك التعارض، ومن التناقض ومن الحيرة والشك، بل أضحوا مطمئنين بإيمانهم، عارفين لربهم، عابدين له عبادته الواجبة.

٥ ــ رد الحافظ ابن رجب على المتكلمين في تفسيرهم للأحد في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١]، وفصل فيه مجمل مذهبهم الذي يعتمد على النفي في موضع الإجمال. كما يقولون: ليس جسم ولا جوهر ولا خارج العالم ولا داخله.. فالنفي العام دون تفصيل سمة ومعلم بارز في مذهب المتكلمين، أما أهل السنَّة والجماعة فيتميزون عليه بضبط ألفاظهم ودقة عباراتهم فلا يثبوت إلاَّ ما يستحق الإثبات ولا ينفون إلاَّ ما يستحق النفي.

---

(١) من كتاب: فضل علم السلف على الخلف، ص ١٣٧ ــ ١٣٩.

قال رحمه الله في تفسيره أول سورة الإخلاص:

«والأحد هو الواحد في ألوهيته وربوبيته. وفسره أهل الكلام بما لا يتجزأ ولا ينقسم فإن أريد بذلك أنه ليس مؤلفًا مركبًا من أجزاء متفرقة فصحيح، أو أنه غير قابل للقسمة فصحيح.

وإن أريد أنه لا يتميز منه شيء عن شيء وهو المراد بالمجسم عندهم فباطل...».

لأن الذي يتميز منه شيء عن شيء يكون بصفاته، حيث صفة القدرة غير صفة الرحمة، والكلام غير المعية وهكذا.

وانظر ـ وفقك الله ـ إلى إنصافه رحمه الله لأهل الكلام وهم خصومه حيث لم يظلمهم، ولم يرد جميع قولهم ونفيهم، بل استفصل فيه، فقبل ما يتضمنه من حق، ورد باطله.

وهذا هو منهج أهل السنة وبالجماعة، أتباع السلف مع جميع الناس: أهل البدع ومن هو شر منهم، يقبل منهم الحق الذي عندهم ومعهم، ويرد باطلهم. ويظهر منهجهم جليًّا في ألفاظ الإجمال التي ينفيها أولئك.

وهذا المنهج أخذوه عن الله وعن رسوله ﷺ.

فإن الله قبل من المشركين ما صدقوا فيه من دعواهم كما قال سبحانه عنهم في أول الأعراف: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾ [الآية: ٢٨]، فقبل سبحانه منهم الأولى بأنهم وجدوا آباءهم على هذه العادة، فاطردوا عليها، ونفى الثانية بقوله سبحانه

بعـدهـا مبـاشـرة: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الآية: ٢٨] الآيات بعدها.

٦ ــ كما حذر الحافظ من مجالسة أهل الأهواء والبدع، ومنهم المتكلمون، وأنه يجب نصح الأمة ببيان عيوبهم وفضحها لا تعييرهم بها، حتى يسلم الدين، وتدحر الشبهة قال رحمه الله في «الفرق بين النصيحة والتعيير»:

«وهذا كله ــ يعني عدم تتبع عورات العلماء وفضح شذوذهم تعييرًا لهم ــ في حق العلماء المقتدى بهم في الدين.

فأما أهل البدع والضلالة، ومن تشبه بالعلماء وليس منهم، فيجوز بيان جهلهم، وإظهار عيوبهم تحذيرًا من الاقتداء بهم. وليس كلامنا الآن في هذا القبيل، والله أعلم»[1]. اهـ.

ونحوه ما قرره العلماء في رواية العلم عنهم، وقد أشار إليه في شرح العلل بذكر خلاف العلماء فيه، وقال بعده:

«فيخرج من هذا أن البدع الغليظة كالتجهم يرد بها الرواية مطلقًا، والمتوسطة كالقدر، إنما يرد رواية الداعي إليها. والخفيفة كالإرجاء هل تقبل معها الرواية مطلقًا أو يرد على الداعية؟ على روايتين»[2]. اهـ.

مـع سـوقـه كـلام الأئمـة فـي التحـذيـر منهـم ومـن مجـالستهـم ومساءلتهم والبحث معهم.. لما يورثه من الشبه التي تقرُّ في القلب،

(١) من الفرق بين النصيحة والتعيير، ص ٣٣.

(٢) من شرح العلل للإمام الترمذي، ص ٦٦. وانظر جامع العلوم والحكم، ص ٢٦٦ وما بعدها.

ومن إعطائهم الفرصة في التمادي فيما هم عليه من البدع، وبترك الواجب شرعًا من هجرهم، وبغضهم والبراءة مما هم فيه من البدع.

والحقيقة أن عناية الحافظ بهذا الموضوع ـ مما يتعلق بالمبتدعة ـ عناية فائقة، لا لغرض شخصي، وإنما صيانة للديانة عن شائبة الخيانة، وتمحيصًا لمسائل الإيمان والعقائد من دواخل الأهواء والشياطين الصارفة عن الله وما يقرب إليه، وحفظًا للشريعة عن هدم أصولها ونخرها. فللَّه درهم!.

وأيضًا النبي ﷺ قبل الحق من أهل الكتاب، فقبله من اليهودية التي قالت لعائشة: «**أعاذك الله من عذاب القبر**» الحديث مخرج في الصحيحين.

وقبل الحق من الحبر اليهودي الذي قال: إن الله يضع السموات على إصبع، والأرض على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرىٰ على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقًا لقول الحبر، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧]، الحديث أيضًا مخرج فيهما ونظائرهما كثيرة.

هذا، وقد حذر الحافظ المسلمين من تلك المناهج والسبل في فهم العقيدة، ودعاهم إلى ما كان عليه سلفنا الصالح، فهو المنهج السديد، والصراط المستقيم الذي خطه رسوله ﷺ، وسار عليه صحابته في حياته ومن بعده ثم تابعوهم فتابعوهم بإحسان إلى أن يشاء الله،

فقال: «إنما الاقتداء بأئمة الإسلام كابن المبارك ومالك والثوري والأوزاعي والشافعي وأحمد وأبـي عبيد ونحوهم»[1]. اهـ.

وقال مؤكدًا ما سبق ومحذرًا من مناهج أهل الأهواء والبدع المخالفة لهدى الصحابة والتابعين: «وفي زماننا يتعين كتابة كلام أئمة السلف المقتدى بهم إلى زمن الشافعي وأحمد وإسحاق وأبـي عبيد. وليكن الإنسان على حذر مما حدث بعدهم، فإنه حدث بعدهم حوادث كثيرة، وحدث من انتسب إلى متابعة السنَّة والحديث من الظاهرية ونحوهم، وهو أشد مخالفة لها، لشذوذ عن الأئمة وانفراده عنهم بفهم يفهمه. أو يأخذ ما لم يأخذ به الأئمة من قبله.

فأما الدخول مع ذلك في كلام المتكلمين أو الفلاسفة فشر محض...»[2]. اهـ.

* موازنة سريعة بين علم السلف وعلم المتكلمين:

أبان الحافظ عن علامات العلم النافع، وهو علم السلف الصالح، وعن العلم الضار ــ وهو ضد الأول ــ علم الكلام والبدع. ذكر فيها بعضًا من هذه العلامات لكنها مهمة في التمييز بين العلمين، وأهلهما، وآثارهما. وهي مستقاة من كتابه «فضل علم السلف على الخلف» في آخره.

* وقد عرف العلم النافع فقال: «فأصل العلم: العلم بالله الذي يوجب خشيته ومحبته والقرب منه والأنس به والشوق إليه، ثم يتلوه العلم بأحكام الله وما يحبه ويرضاه من قول أو عمل أو حال أو اعتقاد».

(١) من كتابه: فضل علم السلف على الخلف، ص ١٤٠.
(٢) من كتابه: فضل علم السلف على الخلف، ص ١٤٨ ــ ١٤٩.

١ ــ فالأول هو علم التوحيد وهو الفقه الأكبر. والثاني هو علم الشريعة وهو المعروف بالفقه.

وقال: «فمن تحقق بهذين العلمين كان علمه علمًا نافعًا، وحصل له العلم النافع والقلب الخاشع والنفس القانعة، والدعاء المسموع».

ــ وعرف ضد ذلك من العلم الضار فقال:

«هذا إن كان علمه علمًا يمكن الانتفاع به، وهو المتلقى عن الكتاب والسنَّة.

فإن كان متلقى من غير ذلك فهو علم غير نافع في نفسه، ولا يمكن الانتفاع به بل ضره أكثر من نفعه». اهـ.

وهو علم المتكلمين والمتفلسفة والباطنية والرافضة وأهل الشهوات.

٢ ــ العلم النافع يدعو أهله إلى الإخبات والخفاء فلا يرون لأنفسهم حالاً ولا مقامًا، ويكرهون التزكية والمدح.

ــ والعلم الضار يدعو أهله إلى الظهور واكتساب الزهو والفخر والخيلاء وطلب العلو والرفعة في الدنيا.

٣ ــ صاحب العلم النافع لا يدعي به ولاية ولا فخرًا ولا مباهاة به لأحد.

ــ وصاحب العلم الضار يدعى به الولاية والإمامة ويطلب التقدم في قلوب الناس والذكر عندهم، والتباهي به عند الملوك وأهل الولايات.

٤ ـ العلم النافع يدل صاحبه على الهرب من الدنيا، والتباعد عن زخارفها والاجتهاد في ذلك. فيكون صاحبه في خوف ووجل من ذلك لا سيما عند شهرته وذيوع صيته.

ـ والعلم الضار يرغب صاحبه بالدنيا ويحب الذكر، ويزهده، بل يغفله عن الآخرة والاستعداد لها.

٥ ـ العلم النافع يلزم صاحبه بقبول الحق والانقياد له، والخضوع للدليل واتباعه كيفما توجه.

ـ والعلم الضار يكسب أتباعه عدم قبول الحق، والتكبر على من يقوله، والإصرار على الباطل، والرياء وحب المدح والثناء.

٦ ـ صاحب العلم النافع لا يدعي العلم، ولا يفخر به على أحد، ولا ينسب غيره إلى الجهل إلاَّ من خالف السنَّة وأهلها غضبًا لله لا لنفسه وشهوتها.

ـ والعلم الضار صاحبه يدعي كمال العلم، وينسب مخالفه إلى الجهل بل غيره أيًّا كان، ويظهر فضله على الناس ترفعًا عليهم.

٧ ـ صاحب العلم النافع دائم إساءة الظن بنفسه، وإحسانه الظن بمن سبقه من العلماء، مع الإقرار بفضل السابقين عليه، وعجزه عن بلوغه مرتبتهم بل مقاربتها.

ـ وصاحب العلم الضار على الضد من ذلك، يعظمون أنفسهم، ويحسنون الظن بها ويتهمون من سبقهم من العلماء بالجهل والسلامة من الخوض في مصاعب العلم ودقائقه، ويرون لأنفسهم بلوغ رتب من العلم لم يبلغها أولئك.

٨ ــ وبيَّن فضل علم السلف الصالح في طريقة تعلمه وتعليمه، ومقصده ومؤدَّاه، فقال في «الرد على من اتبع غير المذاهب الأربعة»:

«وإياك أن تتكلم في كتاب الله أو في حديث رسول الله بغير ما قاله السلف كما أشار إليه إمامك، فيفوتك العلم النافع وتضيع أيامك.

ــ فإن العلم النافع إنما هو ما ضُبط في الصدور، وهو عن الرسول أو عن السلف مأثور.

ــ وليس العلم النافع: أرأيت وأرأيت، فقد نهى عن ذلك الصحابة ومن بعدهم ممن إذا اقتديت بهم فقد اهتديت، وكيف يصح لك دعوى الانتساب إلى إمام ــ إن كنت تنتسب إلى إمام حقًا ــ وأنت على مخالفاته مُصرٌّ، ومن علومه وأعماله وطريقته تفرٌّ». اهـ[1].

٩ ــ ومقارنة أخرى ضمنها كلامه في موضع آخر، فقال على وجه النصيحة المشفقة:

«ولا تكن حاكمًا على جميع فرق المؤمنين، كأنك قد أُوتيت علمًا لم يؤتوه أو وصلت إلى مقامٍ لم يصلوه.

فرحم اللّـهُ من أساء الظنّ بنفسه علمًا وعملاً وحالاً، وأحسن الظن بمن سلف، وعرف من نفسه نقصًا ومن السلف كمالاً، ولم يهجم على أئمة الدين ولا سيّما مثل الإمام أحمد وخصوصًا إنْ كان إليه من المُنتسبين.

---

(١) الرد على من اتبع غير المذاهب الأربعة، ص ٥١.

وإنْ أنت أبيت النصيحةَ وسلكت طريقة الجدال والخصام، وارتكبت ما نُهيتَ عنه من التشدّق والتفيهق وشقشقة الكلام، وصار شغلك الرد على أئمة المسلمين والتفتيش عن عيوب أئمة الدين: فإنك لا تزداد لنفسك إلاَّ عُجبًا، ولا لطلب العلو في الأرض إلاَّ حُبًّا، ومن الحق إلاَّ بُعدًا وعن الباطل إلاَّ قُربًا، وحينئذٍ فتقول: ولم لا أقول وأنا أولى من غيري بالقول والاختيار، ومن أعلم مني وأفقه مني، كما ورد في الحديث: هذا يقوله من هذه الأمة من هو وقود النار». اهـ[1].

١٠ ــ العلم النافع يحث صاحبه على العمل بما علم، وبالجد في العبادة والتأله لله عزَّ وجلّ، والعلم الضار داعٍ لصاحبه إلى ترك العمل، والتشدق بالكلام والخصام والقيل والقال، وعنده العمل لا تجده، أو تجده آخر الناس فيه.

قال الحافظ ابن رجب بعد ذلك: «وفي الجملة: ففي هذه الأزمان الفاسدة إما أن يرضى الإنسان لنفسه أن يكون عالمًا عند الله، أو لا يرضى إلاَّ بأن يكون عند أهل الزمان عالمًا.

فإن رضي بالأول فليكتف بعلم الله فيه. ومن كان بينه وبين الله معرفة اكتفى بمعرفة الله إياه.

ومن لم يرض إلاَّ بأن يكون عالمًا عند الناس دخل في قوله ﷺ: «**من طلب العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه فليتبوأ مقعده من النار**».

---

(١) الرد على من اتبع غير المذاهب الأربعة، ص ٥٢ ــ ٥٣.

قال وهيب بن ورد: رب عالم يقول له الناس: عالم، وهو معدود عند الله من الجاهلين.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: **«إن أول من تسعر به النار ثلاثة، أحدهم من قرأ القرآن وتعلم العلم ليقال هو قارىء، وهو عالم، ويقال له: قد قيل ذلك، ثم أمر به فيسحب على وجهه حتى ألقى في النار»**. فإن لم تقنع نفسه بذلك حتى تصل درجة الحكم بين الناس، حيث كان أهل الزمان لا يعظمون من لم يكن كذلك، ولا يلتفتون إليه، فقد استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، وانتقل من درجة العلماء إلى درجة الظلمة.

ولهذا قال بعض السلف لما أريد على القضاء فأباه: إنما تعلمت العلم لأحشر به مع الأنبياء لامع الملوك. فإن العلماء يحشرون مع الأنبياء، والقضاة يحشرون مع الملوك.

ولا بد للمؤمن من صبر قليل حتى يصل به إلى راحة طويلة، فإن جزع ولم يصبر فهو كما قال ابن المبارك، من صبر فما أقل ما يصبر، ومن لم يصبر فما أقل ما يتمتع.

وكان الإمام الشافعي رحمه الله ينشد:

يا نفسي ما هي إلاَّ صبر أيام ... كأن مدتها أضغاث أحلام
يا نفسي جوزى عن الدنيا مبادرة ... وخلِّي عنها فإن العيش قدام

فنسأل الله تعالى علمًا نافعًا. ونعوذ به من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعاء لا يسمع. اللّٰهم إنا نعوذ بك من هؤلاء الأربع.

الحمد لله رب العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمد وآله وصحبه أجمعين»[1]. اهـ.

آمين، ولله در الحافظ على هذا الدواء لتلك القروح، وهذه الجمل الجامعة النافعة، لمن وُفق لفهمها، والعمل بها، والصبر عليها.

* * *

---

(١) من كتابه: فضل علم السلف على الخلف، ص ١٦١ ــ ١٦٣.

ثالثًا:
ردّه على المبتدعة

والمقصود بهم أولئك الذين أحدثوا أنواعًا من العبادة وابتدعوها تقربًا بها إلى الله عزَّ وجلّ، على غير عمل الرسول ﷺ ولا سبيل المؤمنين من أصحابه رضي الله عنهم.

تعريف المبتدعة:

وبهذه المناسبة عرَّف الحافظ ابن رجب البدعة فقال في شرح الأربعين: «والمراد بالبدعة: ما أحدث مما لا أصل في الشريعة يدل عليه.

أما ما كان له أصل من الشرع يدل عليه فليس بدعة شرعًا، وإن كان بدعة في اللغة».

وقال: «فكل من أحدث شيئًا ونسبه إلى الدين ولم يكن له أصل من الدين يرجع إليه فهو ضلالة والدين بريء منه.

وسواء في ذلك مسائل الاعتقادات أو الأعمال أو الأقوال الظاهرة والباطنة.

وأما ما وقع في كلام السلف من استحسان بعض البدع، فإنما ذلك من البدع اللغوية لا الشرعية...»[1]. اهـ.

---

(١) جامع العلوم والحكم، ص ٢٦٥، بشرح حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه رقم ٢٨. وانظر: ص ٢٦٦، ٢٦٧.

ولـم يـرتـض الحـافـظ تقسيـم البـدعـة إلـى قسميـن: محمـودة ومذمومة، ووجه كلام الشافعي وغيره في البدعة المحمودة إلى البدعة اللغوية ولها أصل في الشرع يدل عليها، كالأصل الدال على قيام الليل وفعل النبـي عليه الصلاة والسلام له جماعة عدة ليال، على قول عمر رضي الله عنه: «نعمت البدعة هذه».

وعليه فالبدع كلها مذمومة، ومنهى عنها شرعًا، ومؤكد على ذلك، وعليه فلا مستمسك للمبتدعة بقول عمر رضي الله عنه في تسويغ محدثاتهم في العبادات وتحسينها؛ لأن كلام السلف الصالح رحمهم الله معروض على الدليل ويحمل بعضه على بعض فيما يوافق القواعد الشرعية.

وقد حكم الحافظ على المبتدعة عمومًا بأنهم مفترون على الله، وحسبك أن تعلم أن الافتراء على الله من أنواعه الشرك بالله في ربوبيته وألوهيته.

قال رحمه الله في «الحكم الجديرة بالإذاعة»: «وأهل الأهواء والبدع كلهم مفترون على الله، وبدعتهم تتغلظ بحسب كثرة افترائهم عليه.

وقد جعل الله من حرم ما أحله الله، وحلل ما حرمه الله مفتريًا عليه الكذب.. فمن قال على الله ما لا يعلم فقد افترى على الله الكذب.. ومن نسب إلى الله ما لا يجوز نسبته إليه من تمثيل أو تعطيل أو كذب بأقداره فقد افترى على الله الكذب.

فلهذا تغلظت عقوبة المبتدع على عقوبة العاصي؛ لأن المبتدع مفتر على الله، مخالف لأمر رسوله لأجل هواه»[1]. اهـ.

ومن نماذج بدع العبادات التي عطف عليها الحافظ ابن رجب بدعة الرافضة وغيرهم من اتخاذ يوم عاشوراء عيدًا ومأتمًا، فانظر رعاك الله إلى هذا التناقض. قال رحمه الله:

«وأما اتخاذه مأتمًا كما تفعله الرافضة، لأجل قتل الحسين بن علي رضي الله عنهما، فهو عمل من ضل سعيه في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا. ولم يأمر الله ولا رسوله باتخاذ أيام مصائب الأنبياء وموتهم مأتمًا فكيف بمن دونهم؟»[2]. اهـ.

ونموذج آخر من تلك المحدثات في العبادات: قراءة القرآن الكريم بالألحان الموسيقية وأوتارها...[3] على طريقة سذَّاج الصوفية وأضرابهم.

هذا والبدع التي ذكرها الحافظ في هذا الموضوع كثيرة نصَّ على بدعيتها وحذَّر منها.

ومن البدع المشهورة حتى زمننا هذا الصلاة المعروفة بصلاة

---

(١) من كتابة الحكم الجديرة بالإذاعة من قول النبي ﷺ: بعثت بالسيف بين يدي الساعة، ص ٤٠.

(٢) من لطائف المعارف، ص ١١٣.

(٣) من نزهة الأسماع في مسألة السماع، ص ٨٤. وانظر أيضًا، ص ٦٨ ــ ٧٠، و ٨٠ ــ ٨٣ و ١٠١ ــ ١٠٥، فقد أطال في المقارنة بين التقرب إلى الله بسماع الأغاني، وسماع القرآن، وهي من بدع المتصوفة الدارجة عندهم قديمًا وحديثًا.

الرغائب في أول ليلة جمعة من رجب، حيث نص الحافظ ابن رجب وغيره على أنه لم يصح في رجب صلاة مخصوصة.

قال رحمه الله في اللطائف: «. . . فأما الصلاة فلم يصح في شهر رجب صلاة مخصوصة تختص به، والأحاديث المروية في فضل صلاة الرغائب في أول ليلة جمعة من شهر رجب كذب وباطل لا تصح.

وهذه الصلاة بدعة عند جمهور العلماء. وممن ذكر ذلك من أعيان العلماء المتأخرين من الحفاظ أبو إسماعيل الأنصاري، وأبو بكر بن السمعاني، وأبو الفضل بن ناصر، وأبو الفرج بن الجوزي، وغيرهم.

وإنما لم يذكرها المتقدمون؛ لأنها أحدثت بعدهم. وأول ما ظهرت بعد الأربعمائة؛ فلذلك لم يعرفها المتقدمون، ولم يتكلموا فيها. . .»[1]. اهـ.



(١) من لطائف المعارف، ص ٢٢٨.

رابعًا:

نقده الغلوّ في الدين

إنَّ الغلو في الدين يقابل التفريط فيه، فكلا الظاهرتين على طرفي نقيض.

والغلو في الدين خطره أشد من التفريط فيه ويشهد له الواقع، والنص، فمن أظهر النصوص قوله ﷺ في حديث ابن عباس رضي الله عنهما في لقط حصى الجمار، «**إياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين**» رواه أحمد والنسائي وابن ماجه والحاكم وصححه.

ولحديث البخاري: «**إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلاَّ غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة**».

وقبلهما قوله تعالى في أهل الكتاب محذرًا لهم ومن بعدهم في آيتي النساء والمائدة، ففي الأولى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ [النساء: ١٧١]، وقال في الثانية: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة: ٧٧].

والحافظ ابن رجب قعَّد المعنى هذا بلزوم التوسط في الأمر بين الغلو والتفريط في كتابه «المحجة في سير الدلجة» فقال:

«وقوله ﷺ: «**القصد القصد تبلغوا**» حث على الاقتصاد في العبادة، والتوسط فيها بين الغلو والتقصير ولذلك كرره مرة بعد مرة.

وفي مسند البزار من حديث حذيفة رضي الله عنه مرفوعًا: «**ما أحسن القصد في الفقر، وما أحسن القصد في الغنى، وما أحسن القصد في العبادة**»، وكان لمطرف بن عبد الله بن الشخير ابن قد اجتهد في العبادة، فقال له أبوه: خير الأمور أوسطها، الحسنة بين السيئتين، وشر السير الحقحقة. قال أبو عبيدة: يعني أن الغلو في العبادة سيئة، والتقصير سيئة، والاقتصاد بينهما حسنة، قال: والحقحقة أن يلح في شدة السير حتى تقوم عليه راحلته، وتعطب فيبقى منقطعًا به سفره. اهـ. ويشهد لهذا المعنى الحديث المروي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعًا: «**إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله، فإن المنبت لا سفرًا قطع ولا ظهرًا أبقى. فاعمل عمل امرىء يظن أنه لن يموت إلاَّ هرمًا، واحذر حذر امرىء يخشى أن يموت غدًا**» أخرجه حميد بن زنجويه وغيره.

وفي تكريره أمره بالقصد إشارة إلى المداومة عليه، فإن شدة

السير والاجتهاد مظنة السآمة، والانقطاع والقصد أقرب إلى الدوم، ولهذا جعل عاقبة القصد البلوغ كما قال: «**من أدلج بلغ المنزل**»[1]. اهـ.

وبيَّن الحافظ أن طريق الغلو في الدين والتشدد فيه يفضي إلى ضده من التفريط والتقصير؛ لأنه خالف سبيل المؤمنين وصراط الله في التوسط، وإن دين الله مبنى على الحذر من الغلو وضده، وتلك وسطية الإسلام هاهنا.

قال رحمه الله: «فقوله ﷺ في حديث أبي هريرة وعائشة رضي الله عنهما: «**سددوا وقاربوا**». المراد بالتسديد: العمل بالسداد وهو القصد، والتوسط في العبادة، فلا يقصد فيما أمر به، ولا يتحمل منها ما لا يطيقه.

قال النضر بن شميل: السداد والقصد في الدين والسبيل، وكذا المقاربة، والمراد التوسط بين الإفراط والتفريط، فهما كلمتان بمعنى واحد أو متقارب. وهو المراد بقوله ﷺ في الرواية الأخرى: «**عليكم هديًا قاصدًا**»، وقوله: «**وأبشروا**»، يعني أن من مشى في طاعة الله على التسديد والمقاربة فليبشر، فإنه يصل ويسبق الدائب المجتهد في الأعمال.

فإن طريق الاقتصاد والمقاربة أفضل من غيرها، فمن سلكها فليبشر بالوصول فإن الاقتصاد في السنة خير من الاجتهاد في غيرها.

---

(١) من كتابه: المحجة في سير الدلجة، ص ٦٨، ٧٠.

وخير الهدي هدي محمد ﷺ، فمن سلك طريقه كان أقرب إلى الله من غيره.

وليست الفضائل بكثرة الأعمال البدنية، لكن بكونها خالصة لله عز وجل، صوابًا على متابعة السنَّة، وبكثرة معارف القلوب وأعمالها. فمن كان بالله أعلم وبدينه وأحكامه وشرائعه، وله أخوف وأحب وأرجى فهو أفضل ممن ليس كذلك، وإن كان أكثر منه عملاً بالجوارح، وإلى هذا المعنى الإشارة في حديث عائشة رضي الله عنها بقول النبي ﷺ: «**سددوا وقاربوا واعلموا أنه لن يدخل أحدًا منكم عمله الجنة، وإن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل**». فأمر بالاقتصاد في العمل، وأن يضم إلى ذلك العلم بأحب الأعمال إلى الله، وبأن العمل وحده لا يدخل الجنة»[1]. اهـ.

والغلاة عندنا من جاوز الحد في العبادة أو الاعتقاد أو السلوك. ومن يغلو في دينه فهو من جهله بالشرع، وقلة عقله غالبًا، أو من أغراضه وحنقه على الدين. وكلا الحالين تنطبق على أهل الحلول والاتحاد ووحدة الوجود، والرافضة والباطنية وغلوهم في آل البيت وغيرهم.

ويكون الغلو متابعة لمن قبلنا كما جاء في حديث ابن عباس المتقدم، من الغلاة قبلنا من أهل الكتاب النصارى، كما في آخر سورة النساء حيث قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ

(١) من المحجة في سير الدلجة، ص ٥١، ٥٣.

﴿أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ [النساء: ١٧١].

قال الحافظ ابن رجب في هذا الصدد:

«وأما النصارى فذمهم الله بالجهل والضلالة، وبالغلو في الدين بغير حق، ورفع المخلوق إلى درجة لا يستحقها، حتى يُدَّعى فيه الألوهية، وكل هذا يوجد في جهال المنتسبين إلى العبادة من هذه الأمة، فمنهم من يعبد الله بالجهل «بغير العلم»، بل يذم العلم وأهله، ومنهم من يغلو في بعض الشيوخ فيدعي فيه الحلول، ومن يدعي الحلول المطلق والاتحاد، ومنهم من يغلو فيمن يعتقده من الشيوخ كما يغلو النصارى في رهبانهم ويعتقدون أن لهم أن يغلوا في الدين ما شاءوا، وأن من رضي عنه غفر له، ولا يبالي بما عمل من عمل، وأن محبتهم لا يضر معها ذنب.

وقد كان الشيوخ العارفون ينهون عن صحبة الأشرار، وأن ينقطع العبد عن الله بصحبته الأخيار، فمن صحب الأخيار بمجرد التعظيم لهم، والغلو فيهم غلوًّا زائدًا عن الحد، وعلق قلبه بهم فقد انقطع عن الله بهم، وإنما المراد من صحبة الأخيار أن يوصلوا من صحبهم إلى الله، ويسلكوا طريقه ويعلموه دينه»[١]. اهـ.

وقد أبان ابن رجب رحمه الله خطر الغلو في الدين وما يوصل

---

(١) من كتاب: الحكم الجديرة بالإذاعة، ص ٥٢ ــ ٥٣ و ٥٥ ــ ٥٦.

إليه، وما فعله بأهله فقال: «. . . وفي الجملة فهذه الأشياء فتنة للمعظِّم وللمعظَّم لما يخشى عليه من الغلو المدخل إلى البدعة.

وربما يترقى إلى نوع من الشرك. كل هذا إنما جاء من الشبه بأهل الكتاب والمشركين الذي نهيت عنه هذه الأمة، وفي الحديث الذي في السنن «**إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم، والسلطان المقسط، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه**» فالغلو من صفات النصارى، والجفاء من صفات اليهود، والقصد هو المأمور به»[1]. اهـ.

* * *

(١) من كتاب: الحكم الجديرة بالإذاعة، ص ٥٢ ــ ٥٣ و ٥٥ ــ ٥٦.

موقفه من بدع المتصوفة

والحافظ ابن رجب أكثر الانتقاد على أولئك المتصوفة والزهاد الذين جاوزوا الحد فيهما، وطبع عليهم الجهل، فوقعوا في البدع، وانحدروا إلى ضحائل الأقوال والأحوال المذمومة[1]، ومن الذين يدَّعون رفع التكاليف، وبلوغ الحقيقة، وحصول المكاشفة ثم الحلول والاتحاد فوحدة الوجود، عياذًا بالله من الغواية بعد الهداية. فقال رحمه الله ذامًّا ومحذرًا: «وقد كثر في المنتسبين إلى السلوك تجريد الكلام في المحبة وتوسيع القول فيها بما لا يساوي على الحقيقة مثقال حبة؛ إذ هو عار عن الاستدلال بالكتاب والسنَّة، وخال عن ذكر كلام من سلف من سلف الأمة وأعيان الأئمة.

وإنما هو مجرد دعاوى قد تشرف بأصحابها مهاو، وربما استشهدوا بأشعار عشاق الصور، وفي ذلك ما فيه من عظيم الخطر...»[2]. اهـ.

وقال في موضع آخر وفي كتاب آخر مقررًا الذم بنوع آخر، على أنواع من التصوف أُخر: «ومما أحدث من العلوم، الكلام في العلوم الباطنة من المعارف وأعمال القلوب وتوابع ذلك بمجرد الرأي والذوق

(١) هذا ما سبق الوعد به عند الكلام على تصوفه، من تحذيره من غلاة المتصوفة وذمهم.

(٢) من استنشاق نسيم الأنس، ص ٨٧.

أو الكشف وفيه خطر عظيم، وقد أنكره أعيان الأئمة كالإمام أحمد وغيره.

وقال الجنيد: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنَّة، من لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يُقتدى به في علمنا هذا.

وقد اتسع الخرق في هذا الباب، ودخل فيه قوم بأنواع الزندقة، والنفاق، ودعوى أن أولياء الله أفضل من الأنبياء، أو أنهم مستغنون عنهم، وإلى التنقص بما جاءت به الرسل من الشرائع، وإلى دعوى الحلول والاتحاد أو القول بوحدة الوجود وغير ذلك من أصول الكفر والفسوق والعصيان، كدعوى الإباحة، وحل محظورات الشرائع.

وأدخلوا في هذا الطريق أشياء كثيرة ليست من الدين في شيء، فبعضها زعموا أنه يحصل به ترقيق القلوب كالغناء والرقص، وبعضها زعموا أنه يراد لرياضة النفوس كعشق الصور المحرمة ونظرها، وبعضها زعموا أنه لكسر النفوس والتواضع كشهرة اللباس[١] وغير ذلك مما لم تأت به الشريعة، وبعضه يصد عن ذكر الله وعن الصلاة كالغناء والنظر المحرم، وشابهوا بذلك الذين اتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا»[٢]. اهـ.

وبدَّع الحافظ من قسم الدين إلى حقيقة وشريعة، كما يفعله غلاة المتصوفة، ومن وصل إلى الحقيقة أو عرفها أغنته عن التعبد لله بالشريعة. وربما يقولون: الشريعة للعوام والحقيقة للخواص، وهذا يشبه قول الفلاسفة في أن ما أخبر به الرسول ﷺ من أمور الغيب كالمعاد

---

(١) كلبس الصوف والمخرق، ولون معين، وشكل معين.. مما يدل على زهدهم شهرة بين الناس به.

(٢) من كتاب: فضل علم السلف على الخلف، ص ١٤٩، ١٥٠.

والقبر والقيامة والجنة والنار، كلها أمور تخيلية لا حقيقة بها، لجلب أنظار العوام إليه، وترغيبهم وترهيبهم بها للإيمان به، نسأل الله العافية.

قال الحافظ زين الدين رحمه الله في شرح الأربعين:

«ومما حدث بعد ذلك الكلام في الحقيقة بالذوق والكشف، وزعم أن الحقيقة تنافي الشريعة، وأن المعرفة وحدها تكفي مع المحبة، وأنه لا حاجة إلى الأعمال وأنها حجاب، أو أن الشريعة إنما يحتاج إليها العوام، وربما انضم إلى ذلك الكلام في الذات والصفات بما يعلم قطعًا مخالفته الكتاب والسنَّة وإجماع سلف الأمة: ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ٢١٣﴾ [البقرة: ٢١٣]»[1].

كذلك بدّع القائلين بمثل ذلك في العلم الباطن والعلم الظاهر وهي من دعاواهم المتفرعة عن التفريق بين علم الحقيقة الذي هو علم الباطن وعلم الشريعة الذي هو علم الظاهر. ذكر ذلك في شرح حديث أبـي الدرداء رحمه الله: «**من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا**...»[2].

والمقصود أن هذه النماذج من تأصيلات الحافظ تدل ــ فيما تدل عليه ــ على نبذه الغلو في الدين والتصوف الذي هذا مُؤداه، وعَدُّه ذلك من مخالفة منهج السلف الصالح، ومن القوادح في دين الإسلام، وسبل الكفر به، وهو ما يعكس موقفه منهما ونقده لهما ولأهلهما.

* * *

(١) من جامع العلوم والحكم، ص ٢٦٧، شرح الحديث الثامن والعشرين، حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

(٢) مخطوط من ١٠٦ ــ ١٠٧ فلم الجامعة الإسلامية رقم ٩٤١.

خامسًا:

الوسطية في المنهج

جعل الله المسلمين وسطًا بين الأمم في شرائعهم وأحوالهم، وجعلهم شهداء عليهم كما قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ...﴾ [البقرة: ١٤٣] الآية.

وإن أهل السنَّة والجماعة وسط بين فرق الإسلام وشهداء عليهم. كما قال شيخ الإسلام في الواسطية: «بل هم الوسط في فرق الأمة، كما أن الأمة هي الوسط في الأمم.

فهم وسط في باب صفات الله سبحانه وتعالى بين أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشبهة، وهم وسط في باب أفعال الله بين الجبرية والقدرية وغيرهم.

وفي باب وعيد الله بين المرجئة والوعيدية من القدرية وغيرهما.

وفي باب أسماء الإيمان والدين بين الحرورية والمعتزلة وبين المرجئة والجهمية.

وفي باب أصحاب رسول الله ﷺ بين الرافضة والخوارج». اهـ.

وعليه فإن من خصائص أمة الإسلام الوسطية، ثم من خصوصيات أهل السنة والجماعة الوسطية أيضًا، لكن بين فرق الأمة الإسلامية وطوائفها.

وكان من الأسباب التي أبعدت المتكلمين وغيرهم من الطوائف المبتدعة عن الجادة السديدة، والمنهج الحق، والصراط القويم، عدم نهجهم المنهج الوسط الذي جعل الله شريعته عليه، وأرشد نبيه إليه فسلكه هو وصحابته ثم تخصص به أتباعهم بإحسان من أتباع السلف الصالح، وهم أهل السنة والجماعة.

والحافظ زين الدين ابن رجب سلك هذا المنهج الوسط تبعًا لأسلافه من أهل السنَّة والجماعة، أهل الحديث، فسار على طريقتهم في عموم أمة الإسلام، وفي خصوص أتباع منهج السلف الصالح.

وقد نقم وأنكر على من لم يلتزم هذه الوسطية في العقيدة والعبادة، فمن ذلك قوله رحمه الله:

«وقد علم أن العبادة إنما تبنى على ثلاثة أصول: الخوف والرجاء والمحبة. وكل منها فرض لازم والجمع بين الثلاثة حتمٌ واجبٌ، فلهذا كان السلف يذمون من تعبد بواحد منها، وأهمل الأمرين.

فإن بدع الخوارج ومن أشبههم إنما حدثت من التشديد في الخوف والإعراض عن المحبة والرجاء.

وبدع المرجئة نشأت من التعلق بالرجاء وحده والإعراض عن الخوف، وبدع كثير من أهل الإباحة والحلول ممن ينتسب إلى التعبد

نشأت من إفراد المحبة، والإعراض عن الخوف والرجاء». اهـ.[1].

وهذه الكلمة في الحقيقة كلمة جامعة في التنظير للوسطية المقصودة، وفي رد الغلو وابتداع المبتدعة ممن أشار إليهم ومن شابههم وهي توافق كلمات الشيخ تقي الدين في الواسطية الآنفة الذكر.

هذا وإن هذه الكلمة من الحافظ ابن رجب تصلح قاعدة وشاهدًا على جميع مسائل هذا الفصل الثالث لمن تأملها. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وأهل السنَّة والجماعة يتعبدون الله بالخوف والرجاء والمحبة جميعًا، أما من استقل بواحدة منها غلب عليه وصف من استقل بها من أهل البدع ــ كما قال الحافظ ــ ولهذا يقولون:

من عبد الله بالخوف فهو حروري، ومن عبد الله بالرجاء فهو مرجي، ومن عبده بالمحبة فهو زنديق، ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو مؤمن صديق.

وأهل السنن مع هذا يغلبون في جانب الصحة الخوف على الرجاء حتى يبقى العبد حذرًا من محارم الله، وفي حال المرض وقرب الموت يغلبون جانب الرجاء على الخوف، إحسانًا للظن بالله، وكريم ما عنده، وهكذا درج الحافظ ابن رجب، ففي كتابيه: «أهوال القبور» و «التخويف من النار»، غلب جانب الترهيب والتهديد والخوف.

---

(١) من كتابه: استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس، ص ٨٧. وانظر ما سبق نقله في ذم الغلو في الدين من: الحكم الجديرة بالإذاعة، ص ٥٢، ٥٣ و ٥٥، ٥٦، فهما يؤكدان هذه المسألة هنا.

سادسًا:

موقفه من المجاز

تباين قول المتقدمين في المجاز مع المتأخرين، علمًا بأن الصدر الأول من عصر الصحابة ومن بعدهم لم يتكلموا في المجاز على هذه الصفة، بل لم يفرقوا الكلام إلى حقيقة ومجاز، وهذا إنما طرأ من المعتزلة اللغويين ونحوهم من عامة المعتزلة والمتكلمين.

والمجاز عند المتقدمين ــ وخصوصًا في القرن الثالث ــ من السلف يريدون به: ما يجوز في اللغة، أي أن إطلاق الأسد على الرجل الشجاع، جائز في لغة العرب، ولكن المجاز عند المتأخرين له عدة مرادات أشهرها: استخدام اللفظ في غير الحقيقة التي وضع لها أولاً، ومن هنا جاء التفريق بين الحقيقة والمجاز عندهم.

والمجاز عدَّه ابن القيم الطاغوت الثالث الذي وضعته الجهمية وأذنابهم لتعطيل حقائق الأسماء والصفات، وهو الذي لهج به متأخروهم، والتجأ إليه المعطلون، يردون به من حقائق الوحي ما لا يوافقهم؟!

وانبرى لتفنيد اصطلاح المتكلمين به من واحد وخمسين وجهًا[1].

(١) كما في مختصر الصواعق المرسلة الجزء الثاني، ص ٢٣١ ــ ٤٥٣، بما حوى من فروع تلك الأوجه وتفصيلاتها، وتطبيقاتها، في صفات الله العلىٰ، وهذا الكتاب لابن القيم يقوم على إبطال طواغيت المعطلة الأربع التي اعتمدوها في الأسماء =

والحافظ ابن رجب رحمه الله تناول قضية المجاز عرضًا ــ فيما وقفت عليه من كلامه ــ في أثناء ترجمة علي بن المبارك بن الفاعوس الحنبلي (٥٢١هـ) برقم ٧٤ في ٣/ ١٧٤ وفيه: «وقال ــ أي ابن الجوزي ــ: كان أبو القاسم بن السمرقندي يقول: إن أبا بكر بن الخاضبة كان يسمى ابن الفاعوس الحجري، لأنه كان يقول: الحجر الأسود يمين الله حقيقة.

قلت ــ هو ابن رجب ــ إن صح عن ابن الفاعوس أنه كان يقول: الحجر الأسود يمين الله حقيقة، فأصل ذلك أن طائفة من أصحابنا وغيرهم[1]، نفوا وقوع المجاز في القرآن، ولكن لا يعلم منهم من نفى المجاز في اللغة، كقول أبي إسحاق الإسفراييني.

ولكن قد يسمع بعض صالحيهم إنكار المجاز في القرآن، فيعتقد إنكاره مطلقًا.

= والصفات وهي:

١ ــ أن كلام الله ورسوله أدلة لفظية لا تفيد علمًا ولا يقينًا.

٢ ــ تقديم العقل على النقل عند التعارض.

٣ ــ القول: إن آيات الأسماء والصفات مجازية.

٤ ــ أخبار الآحاد لا يُحتج بها في الاعتقاد.

(١) هو قول ابن حامد وأبي الحسن الجزري وأبي الفضل التميمي من الحنابلة، وقابلهم قوم منهم قالوا بوقوعه في القرآن كأبي يعلي وابن عقيل وأبي الخطاب الكلوذاني. وقد ذكر ابن القيم أن قول الإسفراييني له غور لم يفهمه كثير من المتأخرين، وأن مذهبه أسد وأصح عقلاً ولغة من مذهب أصحاب المجاز. ويجنح هو وشيخه شيخ الإسلام ابن تيمية إلى عدم المجاز ــ كما عند المتكلمين ــ في القرآن واللغة.

ويؤيد ذلك: أن المتبادر إلى فهم أكثر الناس من لفظ الحقيقة والمجاز: المعنى والحقائق دون الألفاظ.

فإذا قيل: إن هذا مجاز، فهموا أنه ليس تحته معنى، ولا له حقيقة، فينكرون ذلك، وينفرون منه.

ومن أنكر المجاز من العلماء فقد ينكر إطلاق اسم المجاز؛ لئلا يوهم هذا المعنى الفاسد، ويصير ذريعة لمن يريد جحد حقائق الكتاب والسنَّة، ومدلولاتهما. ويقول: غالب من تكلم بالحقيقة والمجاز هم المعتزلة ونحوهم من أهل البدع، وتطرقوا بذلك إلى تحريف الكلم عن مواضعه، فيمنع من التسمية بالمجاز، ويجعل جميع الألفاظ حقائق، ويقول: اللفظ إن دل بنفسه فهو حقيقة لذلك المعنى، وإن دل بقرينة فدلالته بالقرينة حقيقة للمعنى الآخر، فهو حقيقة في الحالين.

وإن كان المعنى المدلول عليه مختلفًا فحينئذٍ يقال: لفظ اليمين في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]، حقيقة، وهو دال على الصفة الذاتية. ولفظ اليمين في الحديث المعروف: «الحجر الأسود يمين الله في الأرض، فمن صافحه فكأنما صافح الله عزَّ وجلّ»[1].

---

(١) الحديث ضعيف رفعه. أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه ٦/٣٢٨، وابن عدي في الكامل ٢/١٧، وعزاه في الضعيفة لابن خلاد في الفوائد، وابن بشران في الأمالي. (وانظر الضعيفة ١/٢٥٧). وفيه إسحاق بن بشر متكلم فيه، بروايته للمناكير والموضوعات. وانظر الميزان ١/١٨٦ عن حاله، وكذا تاريخ بغداد والكامل. وضعفه به ابن الجوزي وغيره، انظر فيض القدير للمناوي ٣/٤٠٩ وما بعدها، وكشف الخفاء للعجلوني ١/٤١٧، وقد نص شيخ الإسلام على ضعفه =

وقيل، يمينه يُراد به ــ مع هذه القرائن المتحفة به ــ محل الاستلام والتقبيل. وهو حقيقة في هذا المعنى في هذه الصورة وليس فيه ما يوهم الصفة الذاتية أصلاً، بل دلالته على معناه الخاص قطعية لا تحتمل النقيض بوجه، ولا تحتاج إلى تأويل ولا غير.

وإذا قيل: فابن الفاعوس لم يكن من أهل هذا الشأن، أعني البحث عن مدلولات الألفاظ؟

قيل: ولا ابن الخاضبة كان من أهله، وإن كان محدثًا! وإنما سمع من ابن الفاعوس، أو بلغه عنه أن يكون هذا مجازًا؛ لما سمعه من إنكار لفظ المجاز، فحمله السامع ــ لقصوره أو لهواه ــ على أنه إذا كان حقيقة لزم أن يكون هو يد الرب عزَّ وجلّ التي هي صفته. وهذا باطل، والله أعلم». اهـ[1].

وهذ النص مقتضب في الواقع لا يحدد موقف الحافظ ابن رجب

= مرفوعًا، بل على عدم ثبوته كذلك، وأنه المشهور وقفه على ابن عباس في الفتاوى ٦/ ٣٩٧ والتدمرية ٧٠ ــ ٧٢، وقال: «وأما الحديث (فذكره) صريح في أن الحجر الأسود ليس هو صفة لله، ولا هو نفس يمينه، لأنه قال «يمين الله في الأرض» وقال: «فمن قبله وصافحه فكأنما صافح الله وقبّل يمينه»، ومعلوم أن المشبّه غير المشبَّه به، ففي نص الحديث بيان أن مستلمه ليس مصافحًا لله، وأنه ليس هو نفس يمينه». اهـ.

على أن روايته عن ابن عباس فيها إبراهيم بن يزيد الخوزي، وهو متروك، قاله أحمد والنسائي، وانظر الميزان ١/ ٧٥، واللسان ١/ ١٢٥، ورواه ابن قتيبة في الغريب، وانظر الضعيفة ١/ ٢٥٧.

(١) الذيل على طبقات الحنابلة ٣/ ١٧٤، ١٧٥.

من المجاز، وإن كان حكى عن الحنابلة القولين وقوع المجاز في القرآن أو عدمه، ولكن يمكن أن يستشف من كلامه أنه لا ينكر المجاز في اللغة مطلقًا، كما أنه لا يوافق المتأخرين من الكلاميين وغيرهم في إعمال المجاز في نصوص الأسماء والصفات، وهذا مربط الفرس ومحك الخلاف.



سابعًا:
التبرُّك

وهو موضوع جليل مهم متشعب المسائل والفروع، حيث يشترك فيه الاعتقاد والقول والعمل، وهو بالنسبة لأولياء الله الصالحين يدور على مسألتين كبيرتين.

١ ـ التبرك بذات الشخص وآثاره، ومن أجلى مظاهرة التبرك بذات النبي ﷺ ـ وهو سيد بني آدم وأشرفهم ـ والتبرك بآثاره.

فإن التبرك بذاته عليه الصلاة والسلام يجوز في حياته فقط، ليس بعد موته؛ لأن ذلك سبيل المؤمنين الذي أمرنا بانتهاجه في قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

أما آثاره فكذلك. ومن يدعي بقاء شيء من آثار النبي ﷺ المنفصلة عن جسده الشريف إلى اليوم؟!

وفي هذا يقول الحافظ في كتاب «الحكم الجديرة بالإذاعة»:

«... وكذلك التبرك بالآثار فإنما كان يفعله الصحابة رضي الله عنهم مع النبي ﷺ، ولم يكونوا يفعلونه مع بعضهم ببعض، ولا يفعله التابعون مع الصحابة مع علو قدرهم.

فدلَّ على أن هذا لا يُفعل إلاَّ مع النبي ﷺ، مثل التبرك بوضوئه وفضلاته وشعره، وشرب فضل شرابه وطعامه». اهـ.

٢ ـ التبرك بدعاء العبد الصالح: وهذا مشروع أيضًا في حياته فقط، دون موته، ومن شواهد ذلك الكثيرة طلب الصحابة رضي الله عنهم الدعاء منه ﷺ في حياته، ومن بعضهم البعض في حياتهم كالاستسقاء بالعباس في عهد عمر رضي الله عنهما في عام الرمادة الذي هو من أقوى الإجماعات الإقرارية على مشروعيته.

وكالاستسقاء بيزيد بن الأسود الجرشي في زمن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

وأطال الحافظ في ذيله على طبقات الحنابلة في التراجم بذكر أشياء من هذا تقع من العلماء في حياتهم.

والموضوع له ذيول كثيرة علمية وعملية، والله المستعان.

* * *

ثامنًا:

قاعدة في مسائل الخلاف في الدين

تناول الحافظ زين الدين ابن رجب في هذه القاعدة أمورًا نفيسة لها دور فعال في مسائل الحكم على الناس وبغضهم ومحبتهم وتصنيفهم، وهي مناسبة جدًّا في هذا المقام، الذي كثر الخوض به، وكثر تناول مسائل الأسماء والأحكام فيه.

وهكذا ترى آثار هذا الخلاف حتى بين الطائفة الواحدة، إذا اختلف أتباعها حول مسألة من المسائل، وما يثمره هذا الخلاف من الافتراق والتباغض والتشاحن والتلاعن، وربما يكونون من أهل الصلاح والاستقامة، وسبب ما جرى بينهم يكون حظُّه من دواخل النفس وحبِّ الذات.

قال رحمه الله في شرح الأربعين على حديث أبي هريرة: «**ولا تباغضوا**».

«. . . ولما كثر اختلاف الناس في مسائل الدين، وكثرة تفرقهم؛ كثر بسبب ذلك تباغضهم وتلاعنهم.

وكل منهم يظهر أنه يبغض لله، وقد يكون في نفس الأمر معذورًا،

وقد لا يكون معذورًا، بل يكون متبعًا لهواه، مقصرًا في البحث عن معرفة ما يبغض عليه.

ـ فإن كثيرًا من البغض كذلك إنما يقع لمخالفة متبوع يظن أنه لا يقول إلاَّ الحق. وهذا الظن خطأ قطعًا.

ـ وإن أريد أنه لا يقول إلاَّ الحق فيما خولف فيه، فهذا الظن قد يخطىء ويصيب.

وقد يكون الحامل على الميل إليه مجرد الهوى، والألفة أو العادة، وكل هذا يقدح في أن يكون هذا البغض لله.

فالواجب على المؤمن أن ينصح لنفسه، ويتحرز في هذا غاية التحرز، وما أشكل منه فلا يدخل نفسه فيه خشية أن يقع فيما نهي عنه من البغض المحرم.

وها هنا أمر خفي ينبغي التفطن له، وهو أن كثيرًا من أئمة الدين قد يقول قولاً مرجوحًا، ويكون مجتهدًا فيه مأجورًا على اجتهاده فيه، موضوعًا عنه خطؤه فيه، ولا يكون المنتصر لمقالته تلك بمنزلته في هذه الدرجة؛ لأنه قد لا ينتصر لهذا القول إلاَّ لكون متبوعه قد قاله بحيث لو أنه قد قاله غيره من أئمة الدين، لما قبله ولا انتصر له، ولا والى من يوافقه، ولا عادي من خالفه.

ولا هو مع هذا يظن أنه إنما انتصر للحق بمنزلة متبوعه، وليس كذلك، فإن متبوعه إنما كان قصده الانتصار للحق، وإن أخطأ في اجتهاده.

وأما هذا التابع فقد شابه انتصاره لما يظنه الحق إرادة علو متبوعه، وظهور كلمته، وأنه لا ينسب إلى الخطأ.

وهذه دسيسة تقدح في قصده الانتصار للحق، فافهم هذا فإنه مهم عظيم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم». اهـ[1].

* * *

(١) من جامع العلوم والحكم، ص ٣٢٩، شرح الحديث الخامس والثلاثين.

تاسعًا:

موقف الحافظ من التمذهب

تناول الحافظ رحمه الله هذه المسألة في رسالته «الرد على من اتبع غير المذاهب الأربعة»، والمراد بها: المذهب الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي، حيث قعدها بما لا يظنه المتعجل دعوة للجمود على المذاهب والتعصب لها، وترك ما سواها، بقدر ما فيها من التأكيد على الانضباط في مسائل الديانة الفقهية، ورفض العبث فيها بدعوى الاجتهاد أو التحرر من التقليد؛ لأن التحرر والتقليد من غير حجة ـ الذي هو التعصب ـ طرفا نقيض، والحق وسط بينهما:

لا تغل في شيء من الأمر واقتصد ... كلا طرفي قصد الأمور ذميمُ

لذا أتى تناول الحافظ رحمه الله لهذه القضية المهمة بنظر العالم الرباني علمًا وعملاً وعاقبة على الجميع علماء وطلبة وعوام.

ولولا الإطالة لضمنت رسالته كلها ها هنا.

ولكن وقوفًا على المقصود والمراد من كلامه أنقل عنه أهمه في نقاط مختصرة أرجو وفاءها بمقصود البحث:

* تسويغ المذاهب الأربعة، واتباعها:

فقد أورد رحمه الله في أول بحثه تسويغ جمع الناس على حرف واحد في قراءة القرآن، وترك ما سواه، وحمل الناس على ذلك بإجماع الصحابة رضي الله عنهم تحقيقًا لمقاصد الشريعة في وحدة الدين والاجتماع.

ثم تسويغ تدوين الحديث النبوي وجمعه وتبويبه وتمييز صحيحه من سقيمه... كلا الأمرين ساقهما رحمه الله وصولاً لمسائل الدين العملية، مسائل الحلال والحرام، وهي المباحث الفقهية، حيث قال رحمه الله:

«وأما الأحكام ومسائل الحلال والحرام: فلا ريب أنَّ الصحابة والتابعين ومن بعدهم اختلفوا في كثير من هذه المسائل اختلافًا كثيرًا، وكان في الأعصار المتقدمة كلٌّ من اشتهر بالعلم والدين يُفتي بما ظهر له أنَّه الحق في هذه المسائل، مع أنَّه لم يخل من كان يشذ منهم عن الجمهور عن إنكار العلماء عليه.

كما كان يُنكر على ابن عبَّاس رضي الله عنه مسائل متعددة تفرَّد بها. وأُنكر ذلك على أتباعه أشدُّ من الإنكار عليه، حتى كان ابنُ جُريج لمَّا قدم البصرة إذا رآه الناسُ دخل المسجد الجامع رفعوا أيديَهم ودعوا الله عليه لشذوذه بتلك المسائل التي تلقَّى عن أصحاب ابن عبَّاس، حتى أنَّه رجع عن بعضها قبل أنْ يخرج من عندهم. وهذا مع أنَّ النَّاس حينئذٍ كان الغالبُ عليهم الدين والورع.

فكان ذلك يُريحهم عن أن يتكلَّم أحدُهم بغير علم، أو ينصب نفسَه للكلام وليس هو لذلك بأهل.

ثم قلَّ الدينُ والورع، وكثُر من يتكلم في الدين بغير علم ومن ينصب نفسَه لذلك وليس هو له بأهل.

فلو استمر الحالُ في هذه الأزمان المتأخِرة على ما كان عليه في الصدر الأول بحيث أنَّ كلَّ أحدٍ يُفتي بما يدّعي أنَّه يظهر به أنَّه الحق، لاختل به نظامُ الدين لا محالة، ولصار الحلالُ حرامًا، والحرام حلالاً.

ولقال كلُّ من شاء ما يشاء، ولصار دينُنا بسبب ذلك مثلَ دين أهل الكتابين من قبلنا.

فاقتضت حكمةُ الله سبحانه أنْ ضبطَ الدين وحفظه: بأنْ نصب للناس أئمةً مجتمعًا على علمهم ودرايتهم وبلوغِهم الغاية المقصودة في مرتبة العلم بالأحكام والفتوى، من أهل الرأي والحديث.

فصار النّاس كلُّهم يعوِّلون في الفتاوى عليهم، ويرجعون في معرفة الأحكام إليهم.

وأقام مَن يضبط مذاهبَهم ويحرر قواعدَهم، حتى ضُبط مذهبُ كل إمام منهم وأصوله وقواعدُه وفصوله، حتى تُرد إلى ذلك الأحكام ويُضبط الكلامُ في مسائل الحلال والحرام.

وكان ذلك مِن لُطف الله بعباده المؤمنين، ومن جُملة عوائده الحسنة في حفظ هذا الدين.

ولولا ذلك: لرأى الناسُ العجبَ العُجاب، من كلِّ أحمق متكلِّف مُعجبٍ برأيه جَريء على الناس وثَّاب.

فيدَّعي هذا أنَّه إمامُ الأئمة، ويدّعي هذا أنَّه هادي الأمة وأنَّه هو الذي ينبغي الرجوعُ دون الناس إليه والتعويل دون الخلق عليه.

ولكن بحمد الله ومنَّته انسدَّ هذا الباب الذي خطرُه عظيم وأمره جسيم، وانحسمت هذه المفاسدُ العظيمة وكان ذلك من لُطف الله تعالى لعباده وجميل عوائده وعواطفه الحميمة.

ومع هذا فلم يزل يظهر مَن يدَّعي بلوغَ درجة الاجتهاد، ويتكلَّم في العلم من غير تقليدٍ لأحد من هؤلاء الأئمة ولا انقياد.

فمنهم مَن يَسوغ له ذلك لظهور صِدقه فيما ادّعاه، ومنهم مَن رُدَّ عليه قولُه وكُذِّب في دعواه.

وأمَّا سائرُ النَّاس ممن لم يصل إلى هذه الدرجة فلا يسعهُ إلاَّ تقليدُ أولئك الأئمة، والدخول فيما دخل فيه سائرُ الأئمة.

فإن قال أحمق متكلّف: كيف يُحصر النّاسُ في أقوال علماء معينين ويُمنع من الاجتهاد أو مِن تقليد غير أولئك من أئمة الدين؟[1]

قيل له: كما جَمع الصحابةُ رضي الله عنهم النّاسَ على حرفٍ واحد من حُروف القرآن، ومنعوا النّاس من القراءة بغيره في سائر البُلدان، لمَّا رأوا أنَّ المصلحةَ لا تتم إلاَّ بذلك، وأنَّ الناس إذا تُركوا يقرؤون على حروفٍ شتّى وقعوا في أعظم المهالك.

فكذلك مسائلُ الأحكام وفتاوى الحلالِ والحرامِ، لو لم تُضبط النّاسُ فيها بأقوال أئمة مَعدودين: لأدَّى ذلك إلى فساد الدين، وأنْ يُعد

(١) هذه شبهة دارجة في وسط طلبة العلم، أوردها الحافظ وأجاب عنها.

كلُّ أحمق متكلّف طلبت الرياسةَ نفسُه من جملة المجتهدين وأنْ يبتدع مقالةً ينسبها إلى بعض مَن سلف من المتقدمين، فربّما كان بتحريف يُحرِّفه عليهم كما وقع ذلك كثيرًا من بعض الظاهرين. وربّما كانت تلك المقالة زلّةً من بعض مَن سلف قد اجتمع على تركها جماعةٌ من المسلمين.

فلا تقتضي المصلحةُ غيرَ ما قدَّره الله وقضاه من جمع النّاس على مذاهب هؤلاء الأئمة المشهورين رضي الله عنهم أجمعين.

فإن قيل: الفرقُ بين جمع النّاس على حرفٍ واحد من الحروف السبعة من أحرف القرآن وبين جمعهم على أقوال فقهاء أربعة، أنَّ تلك الحروف السبعة كانت يُقال: معناها واحد أو متقارب والمعنى حاصل بهذا الحرف. وهذا بخلاف قول الفقهاء الأربعة، فإنه يجوز أن يتفقوا على شيء ويكون الحق خارجًا عنهم.

قيل: هذا قد منعه طائفةٌ من العلماء. وقالوا: إنَّ الله لم يكن ليجمع هذه الأمة على ضلالة.

وفي ذلك أحاديثُ تعضد ذلك.

وعلى تقدير تسليمه: فهذا إنما يقع نادرًا ولا يطلّع عليه إلاَّ مجتهد وصل إلى أكثر مما وصلوا إليه، وهذا أيضًا مفقود أو نادر.

وذلك المجتهدُ على تقدير وجوده: فرضُه اتباع ما ظهر له من الحق. وأما غيره: ففرضُه التقليد.

وتقليد هؤلاء الأئمة سائغٌ بلا ريب، ولا إثم عليهم ولا مَن قلّدهم ولا بعضهم.

[**فإن قيل**]: فهذا يُفضي إلى اتباع لأئمة على الخطأ.

[**قيل**]: لا يقول القولَ الحق [جميعُ الخلق]، لا بُد أنْ يكون مذمومًا به أحد من [المخالفين].

فلم يتفق للأمة الخطأ، وأكثر ما يقع هذا إنْ كان واقعًا فيما قلّ وقوعه.

فأمَّا المسائلُ التي يحتاج المسلمون إليها عمومًا فلا يجوز أن يعتقد أنَّ الأئمة المُقتدى بهم في الإسلام في هذه الأعصار المستطالة اجتمعوا فيها على الخطأ، فإنَّ هذا قدحٌ في هذه الأمة قد أعاذها الله منه.

فإن قيل: نحن نسلم منعَ عُموم النّاس من سلوك طريق الاجتهاد، لما يُفضي ذلك إلى أعظم الفساد.

لكن لا نسلّم منعَ تقليد إمام مُتّبع من أئمة المجتهدين غير هؤلاء الأئمة المشهورين.

قيل: قد نبَّهنا على علّة المنع من ذلك وهو أنَّ مذاهب غير هؤلاء لم تشتهر ولم تنضبط، فربما نُسب إليهم مالم يقولوه أو فُهم عنهم ما لم يُريدوه، وليس لمذاهبهم مَن يذب عنها ويُنبّه على ما يقع من الخلل فيها بخلاف هذه المذاهب المشهورة.

فإن قيل: فما تقولون في مذهب إمام غيرهم قد دُوّن مذهبُه وضُبط وحفظ كما حُفظ مذاهب هؤلاء.

قيل: أولاً: هذا لا يُعلم وجودُه الآن. وإن فُرض وقوعه الآن وسُلِّم جوازُ اتباعه والانتساب إليه، فإنَّه لا يجوز ذلك إلاَّ لمن أظهر الانتساب إليه والفتيا بقوله والذبَّ عن مذهبه.

فأمَّا من أظهر الانتسابَ إلى بعض الأئمة المشهورين وهو في الباطن منتسبٌ إلى غيرهم معتقدٌ سواه: فهذا لا يسوغ له ذلك البتة، وهو من نوع النفاق والتقيّة، ولا سيما من أخذ الأموالَ المختصة بأصحاب ذلك الإمام المشهور من الأوقاف أو غيرها.

أو لبّس على الناس، فأوهمهم أنَّ ما يُفتي به من مذهب مَن ينتسب إليه في الباطن هو مذهب ذلك الإمام المشهور.

فهذا غير سائغ قطعًا، وهو تلبيسٌ على الأمة وكذبٌ على علماء الأمة.

ومَن نسب إلى أئمة الإسلام ما لم يقولوه، أو ما عُلم أنَّهم يقولون خلافه فإنّه كاذب يستحق العقوبة على ذلك...

فإن ادعى مع ذلك الاجتهاد كان أدهى وأمرُّ وأعظم فسادًا وأكثر عنادًا، فإنه لا يسوغ ذلك مطلقًا إلَّا لمن كملت فيه أدوات الاجتهاد: من معرفة الكتاب والسنة وفتاوى الصحابة والتابعين، ومعرفة الإجماع والاختلاف وبقية شرائط الاجتهاد والمعرفة...

ولهذا كان الإمام أحمد يُشدد أمر الفُتيا، ويمنع منها مَن يحفظ مائة ألف حديث ومائتي ألف حديث وأكثر من ذلك.

وعلامةُ صحة دعواه: أن يستقل بالكلام في المسائل كما استقل غيرُه من الأئمة، ولا يكون كلامُه مأخوذًا من كلام غيره.

فأمَّا مَن اعتمد على مجرَّد نقل كلام غيره، إمَّا حكمًا أو حكمًا ودليلاً: كان غايةُ جهده أنْ يفهمه، وربّما لم يفهمه جيدًا أو حرَّفه

وغيَّره. فما أبعد هذا عن درجة الاجتهاد، كما قيل:

فـدع عنـك الكتـابـةَ لسـت منهـا ... ولـو سـوَّدت وجهـك بـالمـداد

فإن قيل: فما تقولون في نهي الإمام أحمد وغيره من الأئمة عن تقليدهم وكتابة كلامهم، وقول الإمام أحمد: لا تكتب كلامي ولا كلام فلان وفلان، وتعلّم كما تعلمنا. وهذا كثيرٌ موجود في كلامهم.

قيل: لا ريب أنَّ الإمام أحمد رضي الله عنه كان ينهى عن آراء الفقهاء والاشتغال بها حفظًا وكتابة، ويأمر بالاشتغال بالكتاب والسنّة حفظًا وفهمًا وكتابة ودراسة، وبكتابة آثار الصحابة والتابعين دون كلام مَن بعدهم ومعرفة صحة ذلك من سقمه والمأخوذ منه والقول الشاذ المطرح منه.

ولا ريب أنَّ هذا مما يتعين الاهتمامُ به والاشتغال بتعلّمه أولاً قبل غيره.

فمن عرف ذلك وبلغ النهاية من معرفته كما أشار إليه الإمام أحمد، فقد صار علمُه قريبًا من علم أحمد.

فهذا لا حجر عليه ولا يتوجه الكلام فيه، إنما الكلام في منع من لم يبلغ هذه الغاية ولا ارتقى إلى هذه النهاية ولا فهم من هذا إلاَّ النزر اليسير، كما هو حال أهل هذا الزمان...». اهـ[1].

* * *

(١) من رسالته: الرد على من اتبع غير المذاهب الأربعة (٢٧ ــ ٣٨).

نصيحة من الحافظ لمبتغي المذهب الحنبلي

حيث قال رحمه الله معتمدًا على فهمك وعلمك لما قدمه حول ضرورة انتساب العامي والطالب لمذهب يتدين لله به، إلى أن يبلغ المكانة المؤهلة له عن هذه الرتبة، ويحضُّه على اتباع الإمام المبجل أحمد بن حنبل إمام أهل السنَّة والجماعة:

«فهذه نصيحةٌ لك أيها الطالب لمذهب هذا الإمام أؤديها إليك خالصةً لوجه الله تعالى، فإنَّه لا يؤمن أحدُكم حتى يُحب لأخيه ما يحب لنفسه:

إياك ثم إياك أن تحدّث نفسك أنّك قد اطلعت على ما لم يطلع عليه هذا الإمام، ووصلت من الفهم إلى ما لم يَصل إليه هذا الذي ظهر فضلُ فهمه على من بعده من أولي الأفهام.

ولتكن همّتك كلُّها مجموعة على فهم ما أشار إليه، وتعلُّم ما أرشد إليه من الكتاب والسنّة على الوجه الذي سبق شرحُه.

ثم بعد ذلك: ليكن همك في فهم كلام هذا الإمام في جميع مسائل العلم، لا مسائل الإسلام. أعني: مسائل الحلال والحرام.

وفي **علم الآفاق**، أعني: مسائل الإيمان بالله وملائكته وكُتبه ورسله واليوم الآخر، وهو العلم المسمَّى في اصطلاح كثير من العلماء بعلم السُّنة.

فإنَّ هذا الإمام كان غايةً في هذا العلم، وقد امتُحن بسبب مسائل منه وصبر لله على تلك المحنة، ورضي المسلمون كلُّهم بقوله الذي قاله ومَقامه الذي قامه، وشهدوا أنَّه إمامُ السنَّة وأنَّه لولاه لكفر النّاس.

فمن كانت هذه منزلتُه في علم السنَّة، كيف يُحتاج إلى تلقي هذا العلم من كلام أحدٍ من العلماء غيره، لا سيّما لمن ينتسب إلى مذهبه؟

فليتمسّك بكلامه في عامة هذا الباب، ويُعرض عمّا أُحدث من فضول المسائل التي أُحدثت. وليس للمسلمين فيما أُحدث حاجة، بل تُشغل عن العلم النافع، وتُوقع العداوةَ والبغضاء بين المسلمين، وتُوجب كثرةَ الجدل والخصومات في الدنيا مما هو منهيٌّ عنه عند هذا الإمام وغيره من السلف الماضين.

وكذلك **علم الإحسان**: وهو علم المُراقبة والخشية، كان هذا الإمام فيه غاية كما كان في علم الإسلام والإيمان آية. ولكن كان الغالبُ عليه في هذا العلم تحقيق الأعمال دون تزويق الأحوال، فلذلك كان لا يطلق إلاَّ المأثور عن السلف دون ما أخذته المتأخرون عن الخلف.

ولقد كان رضي الله عنه في جميع علومه مستندًا بالسنّة، لا يرى إطلاقَ ما لم يُطلقه السلفُ الصالح من الأقوال ولا سيما في علم الإيمان والإحسان.

وأمَّا علم الإسلام: فكان يُجيب فيه عن الحوادث الواقعة مما لم يسبق فيها كلامٌ، للحاجة إلى ذلك. مع نهيه لأصحابه أنْ يتكلموا في مسائل ليس لهم فيها إمام.

وإنَّما كان يُجيب غالبًا عمّا سبق الكلامُ فيه، وفيما يحتاج ولا بُد لوقوعه ومعرفة حُكمه.

فأمَّا ما يولِّده الفقهاءُ من المسائل التي لا تقع أو لا تكاد تقع إلاَّ نادرًا، فكان ينهى كثيرًا عن الكلام فيها؛ لأنه قليلُ الفائدة ويُشغل عمَّا هو أهم منه مما يحتاج إلى معرفته.

وكان رضي الله عنه لا يرى كثرة الخصام والجدال، ولا توسعة لقيل أو لقال في شيء من العلوم والمعارف والأحوال.

إنّما يرى الاكتفاءَ في ذلك بالسنَّة والآثار، ويُحث على فهم معاني ذلك من غير إطالةٍ للقول والإكثار.

ولم يترك توسعةَ الكلام بحمد الله عجزًا ولا جهلاً، ولكن ورعًا وفضلاً واكتفاءً بالسنّة فإنّ فيها كفاية، واقتداء بالسلف الصالح من الصحابة والتابعين فبالاقتداء بهم تحصل الهداية». اهـ[1].

* * *

(١) من رسالته: الرد على من اتبع غير المذاهب الأربعة، ص ٤٥ ــ ٤٩.

الطريقة المثلى
في الطلب لبلوغ غايته

وبناها رحمه الله على قبولك ــ وفقك الله ــ للنصيحة التي ساقها لك في منهجك في طلب فقه مذهب الإمام أحمد بن حنبل، وهذه الطريقة برنامج عملي وتربوي تأديبـي، ينحو بالطالب في مسالك العليا، المدركة له الانتهاء في الطلب وبلوغ الكمال فيه، كما تضمنت موقفه من التقليد الجامد على الأقوال، المتحرر عن ضوابط الشريعة ومقاصدها، وفي هذا يخاطبك الحافظ ــ رفع الله قدره ــ قائلاً:

«فإن أنت قبلت هذه النصيحة وسلكت الطريقة الصحيحة، فلتكن همتك: حفظَ ألفاظ الكتاب والسنَّة، ثم الوقوف على معانيها بما قال سلف الأمَّة وأئمتها، ثم حفظ كلام الصحابة والتابعين وفتاويهم وكلام أئمة الأمصار، ومعرفةَ كلام الإمام أحمد وضبطه بحروفه ومعانيه والاجتهاد على فهمه ومعرفته.

وأنت إذا بلغت مِن هذه الغاية: فلا تظن في نفسك أنّك بلغت النهاية، وإنّما أنت طالبٌ متعلّم من جملة الطلبة المتعلّمين.

ولو كنت بعد معرِفتك ما عرفتَ موجودًا في زمن الإمام أحمد، ما كنت حينئذٍ معدودًا من جملة الطالبين.

ـ فإن حدّثت نفسَك بعد ذلك أنّك قد انتهيت أو وصلت إلى ما وصل إليه السلفُ فبئس ما رأيت.

وإيّاك ثم إيّاك: أنْ تترك حفظ هذه العلوم المشار إليها وضبطَ النصوص والآثار المعوّل عليها، ثم تشتغل بكثرةِ الخصام والجدال وكثرة القيل والقال وترجيح بعض الأقوال على بعض الأقوال مما استحسنه عقلُك، ولا تعرف في الحقيقة مَن القائل لتلك الأقوال وهل هو من السلف المُعتبر بأقوالهم أو من غير أهل الاعتدال.

وإيّاك أن تتكلّم في كتاب الله أو في حديث رسول الله بغير ما قاله السلفُ كما أشار إليه إمامُك، فيفوتك العلمُ النافعُ وتضيع أيامُك.

فإنَّ العلم النافع: إنّما هو ما ضُبط في الصدور، وهو عن الرسول أو عن السلف الصالح مأثور.

وليس العلم النافع: أرأيت ورأيت، فقد نهى عن ذلك الصحابةُ ومَن بعدهم ممن إذا اقتديت بهم فقد اهتديت.

وكيف يصح لك دعوى الانتساب إلى إمام، وأنت على مخالفته مُصر ومن علومه وأعماله وطريقته تفر.

واعلم وفَّقك الله: أنك كلّما اشتغلت بتلك الطريقة، وسلكت السُّبلَ الموصلة إلى الله على الحقيقة، واستعملت الخشية ونفسها، المراقبة، ونظرتَ في أحوال مَن سلف من الأئمة بإدمان وبأمره علمًا وازددت لنفسك احتقارًا وهضمًا، وكان لك من نفسك شغلٌ شاغل عن أنْ تتفرغ لمخالفة المسلمين.

ولا تكن حاكمًا على جميع فرق المؤمنين، كأنك قد أُوتيت علمًا لم يؤتوه أو وصلت إلى مقامٍ لم يصلوه.

فرحم اللّـٰهُ من أساء الظنّ بنفسه علمًا وعملاً وحالاً وأحسن الظن بمن سلف، وعرف من نفسه نقصًا ومن السلف كمالاً، ولم يهجم على أئمة الدين، ولا سيَّما مثل الإمام أحمد، وخصوصًا إنْ كان إليه من المُنتسبين.

ـ وإنْ أنت رأيت النصيحةَ وسلكت طريقة الجدال والخصام، وارتكبت ما نُهِيتَ عنه من التشدق والتفيهق وشقشقة الكلام، وصار شغلك الرد على أئمة المسلمين والتفتيش عن عيوب أئمة الدين؛ فإنك لا تزداد لنفسك إلاَّ عُجبًا، ولا لطلب العلو في الأرض إلاَّ حُبًّا، ومن الحق إلاَّ بُعدًا، وعن الباطل إلاَّ قُربًا، وحينئذٍ فتقول: ولم لا أقول وأنا أولى من غيري بالقول والاختيار، ومَن أعلم مني ومن أفقه مني، كما ورد في الحديث. هذا يقوله من هذه الأمّة من هو وقود النار.

أعاذنا الله وإيَّاكم من هذه الفضائح، ووفّقنا وإياكم لقبول النصائح، بمنّه وكرمه إنّه أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين.

ـ فإن أبيت إلاَّ الإصرار على أنَّ العلم والتفقّه هو نقلُ الأقوال وكثرة البحث عليها والجدال، وأنَّ من اتسع في ذلك ونقّب عن عيوب الأئمة بالنظر والاستدلال أعلم ممن لم يكن كذلك، وأنّ من قلّ كلامُه في هذا فليس هنالك.

فنقول لك: من هنا اعتقد طوائفُ من أهل الضلال أنَّ الخلف أعلم من السَّلَف؛ لما امتازوا به من كثرة القيل والقيل.

ونحن براء إلى الله من هذه الأقوال، ولو كان الأمرُ على هذا لكان شيوخُ المعتزلة والرافضة أعلم من سلف الأمة وأئمتها». اهـ[1].

ثم استطرد رحمه الله ممايزًا بين علوم السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان، ومن بعدهم من الخلف في قلة الكلام وكثرته، وبركته ونفعه، ثم معقبًا على الاشتغال بفضول العلم ومضرته.

ومن ذلك: تتبع المسائل اليسيرة التي غلط فيها الأئمة والانتصاب لنشرها، وما يشغل القلب عن الله، أو يُقَسِّيه، ومن ذلك التصدي لرد البدع ببدع مثلها ـ كحال أهل الأهواء والبدع ـ، وتحذيره من المجالات والخصومات العقيمة، مدلالاً عليه باندراج علم الأئمة، واندراس علم المتكلمة، في كلام يصف فيه الداء، ثم يصب عليه الدواء، صبَّ الله عليه وابل فضله ومرضاته صبًّا، آمين.

* * *

(١) من رسالته: الرد على من اتبع غير المذاهب الأربعة، ص ٤٩ ـ ٥٤.

عاشرًا:

موقفه من التقليد

إنَّ موقف الحافظ ابن رجب من التقليد متصور من كلامه السابق ضمن نصيحته لطالب العلم وما قبله وما بعده، بل وواضح من خلال عرضه للمسائل العلمية: العقدية والحديثية والفقهية.. من كتبه وشروحه وتصانيفه؛ إذ من خلالها تظهر ميزته رحمه الله في التجرُّد العلمي المنضبط، والاتباع للإمام أحمد أو غيره من الأئمة اتِّباعًا معتبرًا بحيثياته اللائقة به.

ومن هنا أرى الحافظ رحمه الله ينظر إلى التقليد بمنظارين، أو من جهتين اعتباريتين:

١ ــ أن المجتهد والعالم الذي ظهر له الحق بدلائله، وقام عنده الدليل سالمًا عن معارضه أو صوارفه، فإنَّ فرضه الواجب عليه بلا شك اتِّباع الحق الذي ظهر له، ليس إلاَّ، وإن خالف فيه من خالف.

وعلى هذا الاعتبار حُمل ويُحمل حال العلماء المجتهدين في تاريخ المسلمين بدءًا من الصحابة والتابعين وتابعيهم، ومرورًا بعلماء الإسلام الكبار رضي الله عنهم ورحمهم إلى أن يشاء الله بعد ذلك.

٢ ــ العاميُّ من المسلمين وطلاَّب العلم فرضهم التقليد، أي: اتِّباع قول من يرضونه في دينهم بسبب ما له من العلم والديانة والفضل.

وأنزل على هؤلاء تقليد الأئمَّة الأربعة حيث سوَّغه بهذا الاعتبار بلا ريب.

وعلى كل حال ففرض كل مكلف في هذا يُعرف من حاله بعينه. والله أعلم.

ولذلك حثَّ طالب العلم الجاد على أمور تحقق موقفه من محض التقليد دائمًا في كل حال، منها:

١ ــ حفظ القرآن الكريم.

٢ ــ حفظ ألفاظ السنَّة النبوية.

٣ ــ الوقوف على معانيهما بما قاله سلف الأمَّة وأئمَّتها.

٤ ــ حفظ كلام الصحابة والتابعين والأئمة وضبطه، والاجتهاد في فهمه ومعرفته.

٥ ــ عدم الاغترار بتحصيل ذلك ــ إن حصلته ــ على أنك بلغت الغاية والمنتهى في العلم.

٦ ــ الاشتغال بما ينفع من الأقوال المعتبرة بأصحابها وبموافقتها للحق، لا بالقيل والقال والخصام والجدال.

٧ ــ قبل ذلك كله وأثناءه وبعده تحقيق العبودية لله بهذا الطلب، ومراقبته وخشيته سبحانه؛ إذ المقصود السير في الطريق

الموصل إلى الله، ليس إلاَّ ذلك[1].

ـ وبالمناسبة، فإنَّ للاجتهاد عند الحافظ ابن رجب الحنبلي شرائط لا بدَّ من تحصيلها لبلوغ رتبة الاجتهاد، ذكر منها:

١ ـ معرفة الكتاب الكريم، وهو ما يُعبَّر عنه عندهم بحفظ القرآن، أو معرفة معانيه ـ أو حفظ آيات الأحكام منه عند بعضهم ـ .

٢ ـ معرفة السنَّة النبويَّة.

٣ ـ معرفة فتاوى الصحابة والتابعين.

٤ ـ معرفة الإجماع والاختلاف، والخاص والعام، والمطلق والمقيد، والناسخ والمنسوخ، ولا سيَّما في المسائل مناط الاجتهاد.

ومن ذلك بقيَّة شرائط الاجتهاد المعتبرة في نوعها ـ وإن تفاوتت عندهم في مقدارها ـ من علوم الآلة التي يستطيع بها المجتهد استنباط الحكم الشرعي، ومعرفة الواقع لتنزيل أحكامه الاجتهاديَّة عليه ـ .

ومبحثا التقليد والاجتهاد من مباحث أصول الفقه الكبار، التي تبحث في آخر كتب هذا الفن بعد مباحث الأدلة: الكتاب ثم السنَّة ثم الإجماع ثم القياس.

* * *

---

(١) انظر في هذه الوصايا كتابيه رحمه الله:
١ ـ فضل علم السلف.
٢ ـ والرد على من اتبع غير المذاهب الأربعة.
مع اختصار كثير لجمل غيرها متشعبة منها، أغفلتها لئلا يُنسي آخر الكلام أوله.

حادي عشر:

موقفه من التأويل والتفويض

التأويل له عند الإطلاق ثلاثة معاني يراد بها:

١ ـ **ففي القرآن يراد بالتأويل**: الحقيقة التي يرجع إليها الكلام.

فتأويل قوله تعالى في سورة النصر: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾ [النصر: ٣]، ما صحَّ في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها أنَّ النبي ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده: «**سبحانك اللَّهُمَّ ربّنا وبحمدك اللَّهُمَّ اغفر لي**» يتأول القرآن.

وتأويل الخبر في القرآن: وقوع عين المُخبر به، كما في آية الأعراف: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣].

فإن تأويل المحشر والبعث والجنة والنار والحور... وقوع ذلك كله حقيقة في الآخرة.

وتأويل الأمر والنهي في القرآن: نفس المأمور به، والمنهي عنه.

ومنه قوله تعالى عن حقيقة رؤيا يوسف في آخر السورة: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ﴾ [يوسف: ١٠٠] في سجود أبويه وإخوته له سجود تحيَّة.

ولهذا نظائر في القرآن الكريم متعددة.

٢ ـ التأويل في كلام المفسرين ولا سيَّما المتقدِّمون منهم: هو التفسير والبيان.

ومنه قول النبي ﷺ في دعائه لابن عباس: «**اللَّـٰهُمَّ فقهه في الدين وعلمه التأويل**»[(١)].

وكلا المعنيين للتأويل ها هنا حق لا مريَّة في ذلك.

٣ ـ التأويل في اصطلاح المتكلِّمين وغيرهم من المتأخرين هو: «صرف الكلام عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح بقرينة أو دلالة على ذلك».

وهذا الاصطلاح مع كونه حادثًا ومبتدعًا، إلاَّ أنَّ فيه حقًّا وباطلاً:

(أ) فإن كانت القرينة والدلالة ـ الصارفة للمعنى عن ظاهره إلى معنًى آخر يحتمله اللفظ ـ صحيحة وواضحة فلا إشكال في صرفه، ويكون المعنى المصروف إليه والحالة هذه هو ظاهر هذا اللفظ الذي يجب حمله عليه.

(ب) وإن لم تكن القرينة أو الدلالة صحيحة، فالتأويل ها هنا مذموم وهو تحريف في الواقع، وهو محط ذم العلماء له واستهجانه.

ومثاله تأويل المتكلمين لصفات الله سبحانه وتعالى وأفعاله إلى معانٍ غير مرادة ولا مقصودة، وبعضها معانٍ باطلة.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بهذا اللفظ ١/٢٦٦ و ٣٣٥، ورواه الطبراني في الكبير والصغير كذا. وهو في الصحيحين بألفاظ: الأول: «**اللَّـٰهُمَّ علِّمه الكتاب**». والثاني: «**اللَّـٰهُمَّ علِّمه الحكمة**»، والثالث: «**اللَّـٰهُمَّ فقهه في الدِّين**».

والتأويل بهذا الاعتبار جرَّ على المسلمين ودينهم مصائب في عقائدهم وعباداتهم لا تحصى سوءةً وباطلاً.

حتى عدَّ ابنُ القيم ــ التأويل المذموم هذا ــ أساس بلاء الملحدين في أسماء الله وصفاته وأفعاله، وبسط ذلك مبينًا لوازمه وآثاره من أول الصواعق المرسلة، ونظمه في الكافية الشافية «النونيّة»[1].

* * *

(١) في الصواعق المرسلة، المجلد الأول والثاني، ص ١٧٠، ٥١٨؛ ومختصر الصواعق المرسلة للموصلي، ص ١١ ــ ٦٢؛ والنونية ص ١٤٧ ــ ١٨٢، في نحو ٦٣٩ بيتًا، وألزم رحمه الله كل مدّعٍ للتأويل بأربعة أمور لتقبل دعواه:
١ ــ أن يأتي بدليل صارف للفظ عن موضوعه إلى ما يريد تأويله به.
٢ ــ أن يكون اللفظ المؤوَّل محتملٌ للمعنى الذي يريد أن يأول به.
٣ ــ أن يعين الدليل على أنَّ المعنى الذي أوله به هو المراد من اللفظ لا غيره.
٤ ــ الجواب عن معارضه، موردًا لحجته: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٢﴾ [سبأ: ٥٢].

* **أما التفويض، فمراده**: إحالة علم نصوص الصفات والمعاد وغيرها إلى الله سبحانه، فلا يعلم معناها أحد سواه، وبذلك تكون نصوص الصفات والأفعال من المتشابه الكلي الذي خفي علمه على المخاطبين بالوحي.

فلا يعلم معنى علمه ولا قدرته ولا استوائه ولا نزوله ومجيئه. . . إلخ، أحدٌ سواه.

وهذان المسلكان: التأويل والتفويض، درج عليهما المتكلِّمون.

فما استطاعوا تأويله من أخبار الصفات والأفعال والمعاد أوَّلوه، وما عجزوا عن تأويله فوَّضوه، على حد قول ناظمهم:

وكل نص أوهم التشبيها   أوِّله أو فوِّض ورم تنزيهًا

أما أهل السنَّة والجماعة، وأتباع السلف الصالح ـ وعلى جادتهم الحافظ ابن رجب ـ فإنَّهم في باب التفويض علموا معاني ما خوطبوا به من أسماء مولاهم سبحانه وصفاته وأفعاله وأخبار معاده. علموها معنىً وفهمًا ولغةً وخطابًا.

لكنهم جهلوها حالاً وكيفية وماهيَّةً وحقيقةً.

أي أنهم لم يفوِّضوا معناها، وإنما فوَّضوا علم كيفيتها، كما قال إمام من أئمَّتهم ـ وهو الإمام مالك بن أنس الأصبحي، إمام دار

الهجرة ــ لمّا سأله سائل في مسجد النبي ﷺ عن كيفية استواء الله فقال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٢٠]، كيف استوى؟

فأطرق رحمه الله مليًّا ثم قال: أين السائل؟ الاستواء معلوم ــ أي معناه ــ ، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

هذا.. وإن موقف الحافظ ابن رجب من التأويل ومن التفويض عند المتكلِّمين ليبرز جليًّا في مواقفه من صفات الله تعالى بالخصوص ــ والتي سيرد تدليل على منهجه فيها من كلامه ــ حيث جنح بها عن مسلكيهما إلى جادة أهل السنَّة والجماعة بإثباته لها وإقراره بمعناها، وقطعه الاستشراف عن بلوغ حقيقتها وكيفيّاتها، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى نقد رحمه الله مجمل مسالك المتكلِّمين في النصوص الغيبية من الصفات والأفعال والمعاد، نقدًا مجملاً متضمِّنًا لأسسهم، ومنها التأويل والتفويض، جاء ذلك في كتابه الماتع «فضل علم السلف على علم الخلف» حيث يقول:

«ومن ذلك ــ أعني محدثات الأمور ــ ما أحدثه المعتزلة، ومن حذا حذوهم من الكلام في ذات الله تعالى، وصفاته، بأدلة العقول، وهو أشدُّ خطرًا من الكلام في القدر؛ لأنَّ الكلام في القدر كلام في أفعاله، وهذا كلام في ذاته وصفاته.

وانقسم هؤلاء إلى قسمين:

أحدهما: من نفى كثيرًا مما ورد به الكتاب والسنَّة من ذلك؛ لاستلزامه عنده التشبيه بالمخلوقين، كقول المعتزلة: لو رُؤي لكان جسمًا لأنه لا يُرى إلاَّ في جهة.

وقولهم: لو كان له كلام يسمع لكان جسمًا. ووافقهم من نفى الاستواء، فنفوه لهذه الشبهة، وهذا طريق المعتزلة والجهمية.

وقد اتفق السلف على تبديعهم وتضليلهم. وقد سلك سبيلهم في بعض الأمور كثير ممن انتسب إلى السنَّة والحديث من المتأخرين.

والثاني: من رام إثبات ذلك بأدلَّة العقول التي لم يرد بها الأثر، وردًّ على أولئك مقالتهم، كما هي طريقة مقاتل بن سليمان ومن تابعه كنوح بن أبـي مريم، وتابعهم طائفة من المحدثين قديمًا وحديثًا.

وهو أيضًا مسلك الكرَّاميَّة[1]، فمنهم من أثبت لإثبات هذه الصفات الجسم، إمّا لفظًا وإمّا معنًى.

ومنهم من أثبت لله صفات لم يأت بها الكتاب والسنَّة كالحركة وغير ذلك مما هي عنده لازم الصفات الثابتة.

وقد أنكر السلف على مقاتل قوله في ردِّه على جَهم بأدلَّة العقل وبالغوا في الطعن عليه، ومنهم من استحل قتله. منهم مكي بن إبراهيم شيخ البخاري وغيره.

والصـواب مـا عليـه السلـف الصـالـح مـن إمـرار آيـات الصفـات وأحاديثها كما جاءت من غير تفسير لها ولا تكييف ولا تمثيل، ولا يصح عن أحد منهم خلاف ذلك ألبتَّة، خصوصًا الإمام أحمد، ولا خوضًا في معانيها ولا ضرب مثل من الأمثال لها.

---

(١) نسبة إلى محمد بن كرَّام السجستاني. انظر لمعرفة حالهم: الفَرق بين الفِرَق، ص ٢١٥، والملل والنحل (١/ ١٤٤) للشهرستاني، وأطروحتي: ابن الحنبلي وكتابه الرسالة الواضحة.

وإن كان بعض من كان قريبًا من زمن أحمد فيهم من فعل شيئًا من ذلك اتباعًا لطريقة مقاتل، فلا يُقتدى به في ذلك، إنما الاقتداء بأئمة الإسلام كابن المبارك ومالك والثوري والأوزاعي والشافعي وأحمد وإسحاق وأبـي عبيد ونحوهم.

وكل هؤلاء لا يوجد في كلامهم شيء من جنس كلام المتكلِّمين فضلاً عن كلام الفلاسفة، ولم يدخل ذلك من كلامه مَن سَلِمَ من قَدْحٍ وجرحٍ. وقد قال أبو زرعة الرازي: كل من كان عنده علم فلم يَصُن علمَه واحتاج في نشره إلى شيء من الكلام فلستم منه.

ومن ذلك ــ أعني محدثات العلوم ــ ما أحدثه فقهاء أهل الرأي من ضوابط وقواعد عقليَّة ورد فروع الفقه إليها.

وسواء خالفت السنن أم وافقتها طردًا لتلك القواعد المقررة، وإن كان أصلها مما تأوَّلوه على نصوص الكتاب والسنَّة لكن بتأويلات يخالفهم غيرهم فيها. وهذا هو الذي أنكره أئمة الإسلام على من أنكروه من فقهاء أهل الرأي بالحجاز والعراق وبالغوا في ذمِّه وإنكاره.

فأما الأئمَّة وفقهاء أهل الحديث، فإنَّهم يتبعون الحديث الصحيح حيث كان، إذا كان معمولاً به عند الصحابة ومن بعدهم أو عند طائفة منهم. فأما ما اتفق السلف على تركه فلا يجوز العمل به لأنَّهم ما تركوه إلاَّ على علم أنه لا يعمل به». اهـ[1].

* * *

(١) من فضل علم السلف، ص ١٣٨ ــ ١٤٠.

ملحق بموارده

مناسبة هذا الملحق بأهم موارد الحافظ هو عكس منهجه رحمه الله بما اعتمد عليه من الكتب والموارد في نقل الأقوال، واعتبارها وتوثيقها.

ونحن نلاحظ في الدراسات المعاصرة اعتماد قوائم المصادر والمراجع، وإن نظرة في تلك القوائم تعطي تصورًا على منهج الباحث وتوجهه.

كذلك موارد المؤلف هاهنا رافد مهم في بيان منهجه وتوضيحه لهذا صار بهذا الملحق تكميل الصورة في الخطوط العامة للمنهج الذي سلكه الحافظ ابن رجب رحمه الله.

وبهذه المناسبة سأذكر هنا الأصول التي صرح الحافظ ابن رجب بالنقل عنها، والعزو إليها، وذلك من خلال مطالعة كتبه مع يقيني بأنه قد فاتني كثير منها، ولو تتبعت كتبه بقصد جمع ذلك لخرجت بأسماء مؤلفات كثيرة، ولكن لما كان مقصودي التأكيد بهذه القرينة على منهجه اكتفيت بما جمعته خلال المطالعة فقط.

أما الأصول الستة ومسند الإمام أحمد وصحيح ابن حبان والحاكم وكبار مدوّنات حديث النبي ﷺ، فلم أوردها هنا؛ لكثرة ورودها.

وهذه الكتب على نوعين، فإما أن يكون ذكر مؤلفه وكتابه بقوله: وذكر فلان في كتابه كذا، أو ذكر فلان في كذا، وهذا الأغلب، أو بذكر اسم المُؤلِّف أو المؤلَّف، وهذا أقل من الأول بكثير:

عنوان الكتاب/ المؤلف	مكان وروده وصفحته
[أ]	
ــ الأباطيل، للجوزجاني	أحكام الخواتم ص١٧٢، ١٧٤
ــ اختلاف العلماء، لزكريا بن يحيى الساجي	نزهة الأسماع ص٨٠
ــ أخلاق العلماء وآراؤهم، للآجري	نزهة الأسماع ص١٩
ــ الآداب، لمحمد بن جرير الطبري	أهوال القبور ص١٢٤
ــ أسماء من روى عن النبي من القبائل لمحمد بن جرير الطبري	أحكام الخواتم ص٣٩
ــ الأم، للشافعي	لطائف المعارف ص٣٤٠ وفتح الباري ص٤٢٠ من التيمورية
ــ أمالي أبي الحسين بن سمعون	أحكام الخواتم ص١١١
[ب]	
ــ البعث والنشور، للبيهقي	التخويف من النار ص١٨٣
[ت]	
ــ تاريخ أصبهان، لأبي نعيم	البشارة العظمى ص١٨٣
ــ تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي	لطائف المعارف ص١١٠ وأحكام الخواتم ص٧٩، ١١٧
ــ التاريخ الكبير، للبخاري	أحكام الخواتم ص٤٨
ــ تاريخ ابن عساكر	لطائف المعارف ص٤٤١
ــ تاريخ ابن أبي شيبة	لطائف المعارف ص١٨٢
ــ تاريخ خليفة بن خياط	لطائف المعارف ص١١٢

عنوان الكتاب/ المؤلف	مكان وروده وصفحته
ـ الترغيب والترهيب، لابن موسى المديني	شرح حديث يتبع الميت ص٣٨
ـ تعظيم قدر الصلاة، لمحمد بن نصر المروزي	الخشوع في الصلاة ص٤٤ ولطائف المعارف ص٣٧٣، ٥٦٠
ـ تفسير آدم بن أبـي إياس	شرح حديث لبيك اللهم لبيك ص٤، ٥ وفتح الباري «دار الكتب» ق٣٢ في كتاب الاستفسار باب قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾
ـ تفسير ابن أبـي حاتم	المحجة في سير الدلجة ص٩١ وتفسير الإخلاص ص٨٦، ٩٠، ٩١ والتخويف من النار ص٧١
ـ تفسير الثعلبـي	آخر صدقة السر وفضلها واللطائف ص٣٦٢، ٣٦٥
ـ تفسير سنيد	التخويف من النار ص٢٠٧، ٢١٣
ـ تفسير ابن جرير الطبري	المحجة ص٧٤ واللطائف ص٤٨٧ وتفسير النصر ص٤٧ والإخلاص ص٨٥، ٩١
ـ تفسير عبد بن حميد	لطائف المعارف ص٤٣، ٣٣٠، ٥٠٣
ـ تفسير عبد الرزاق بن همام	تفسير سورة النصر ص٤١
ـ تفسير النسائي	جامع العلوم والحكم ص٢٠٢ وشرح حديث مثل الإسلام لوحة ٢
ـ التفكر والاعتبار، لابن أبـي الدنيا	ذم قسوة القلوب ق٥٠
ـ تلخيص المتشابه، للخطيب البغدادي	أحكام الخواتم ص١٢٩
ـ التوبة، لابن أبـي الدنيا	تفسير سورة النصر ص٥٠
ـ التوحيد، لابن منده	لطائف المعارف ص٤٨٩

عنوان الكتاب/ المؤلف	مكان وروده وصفحته
ـ التنبيه، لأبـي بكر عبد العزيز غلام الخلال	أحكام الخواتم ص٢٠٥
ـ تهذيب المدونة	فتح الباري ص٤٢٠، ٤٢٨ التيمورية
[ج]	
ـ الجامع، للخلال	أحكام الخواتم ص١٧٣
ـ الجامع الكبير، لمحمد بن الحسن الشيباني	تفسير سورة الإخلاص ص٨٩
ـ جامع العلوم، لمحمد بن معمر الأصبهاني	أحكام الخواتم ص١٢٨
ـ جزء ابن عرفة	اللطائف ص٢٥٤
ـ جزء أبـي علي الخالدي	أحكام الخواتم ص١٠٢
ـ كتاب الجعال والأقسام، لأبـي علي ابن البنا	أحكام الخواتم ص١٩٧
ـ كتاب الجوع، لابن أبـي الدنيا	اللطائف ص٨٣
[ح]	
ـ الحكايات، لأبـي عمرو أحمد النيسابوري	اللطائف ص٤٦٠ وأهوال القبور ص١١٨
ـ حسن الظن بالله، لابن أبـي الدنيا	التخويف من النار ص٢٦١
[خ]	
ـ الخصال والأنام، لرزق الله التميمي	أحكام الخواتم ص٢٠٥
ـ الخلاف الكبير، لأبـي يعلى القاضي	أحكام الخواتم ص٢٠٢، ٢١٦، ٢١٧، ٢٤٤
ـ كتاب الخائفين، لابن أبـي الدنيا	أهوال القبر ص١٤٠
[د]	
ـ الدعاء، للخطابـي	شرح حديث زيد بن ثابت ص٤٢

عنوان الكتاب/ المؤلف	مكان وروده وصفحته
[ذ]	
ـ ذم السماع، لأبي الطيب الطبري	نزهة الأسماع ص٧١
ـ ذم الكلام وأهله، لأبي عبد الرحمن السلمي	فتح الباري، الظاهرية ٦٠٨ ـ ٦١٢ والمصرية ١١٢ ـ ١١٧ كتاب الأذان ـ باب فضل السجود
[ر]	
ـ الروح، لابن القيم	أهوال القبور ص٦٦
ـ كتاب الرهبان، لعاصم بن محمد الرازي	أهوال القبور ص١١٠
ـ الروضة، لأبي الحسن العبدي	أهوال القبور ص١٦، ٣٦، ٤٢
ـ الرسالة، للشافعي	الفرق بين النصيحة والتعيير ص٢٧
ـ رياضة المتعلمين، لأبي نعيم	فضل علم السلف ص١٣٠
ـ رؤوس المسائل، لأبي الخطاب الكلوذاني	أحكام الخواتم ص٢٠٠، ٢٢٥، ٢٤٤
[ز]	
ـ الزهد، للإمام أحمد	الخشوع في الصلاة ص٢١ واللطائف ص٥٦١ واختيار الأولى ص٢٨
ـ الزهد، لابنه عبد الله	ذم قسوة القلوب ص٤٧ وغاية النفع ص٢٧ واللطائف ص٣٧٣
ـ الزهد، لهناد بن السري	التخويف من النار ص١٨٠
ـ زاد المسير، لابن الجوزي	سورة النصر ص٤٢ وتفسير الإخلاص ص٨٨

عنوان الكتاب/ المؤلف	مكان وروده وصفحته
[س]	
ـ السنَّة، لعبد الله بن أحمد	التخويف من النار ص٢٤٩
ـ السنَّة، للطبراني	التخويف من النار ص٢٤٩
ـ السنَّة، للخلال	أهوال القبور ص٢٦، ٣٨، ١٢، ٧٨
ـ السنَّة، لأبـي بكر عبد العزيز بن جعفر	اللطائف ص١٦٤
[ش]	
ـ الشافي في الفقه، لأبـي بكر عبد العزيز بن جعفر	أهوال القبور ص١١٨
ـ شرح السنَّة، للالكائي	أهوال القبور ص٣٧، ٦٥
ـ شرح المذهب، القاضي أبـي يعلى	فتح الباري ق٣٤٨ التيمورية
ـ شرح معاني الآثار، للطحاوي	أحكام الخواتم ص٦٥
ـ الشريعة، للآجري	كشف الكربة ص١٢ ولطائف المعارف ص١٦٠
ـ شعب الإيمان، للبيهقي	اللطائف ص٢٨٦
ـ كتاب الشكر، للخرائطي	المحجة ص٣٧ وتفسير سورة النصر ص٤٥
ـ كتاب الشكر، لابن أبـي الدنيا	المحجة ص٣٨
ـ الشمائل، للترمذي	أحكام الخواتم ص٣٩، ١٣٩، ١٤٤
[ص]	
ـ الصحيح، لمحمد بن يحيـى الهمذاني	نزهة الأسماع ص٣٧
ـ كتاب الصيام، لابن أبـي عاصم	اللطائف ص٣٢٥
[ض]	
ـ الضعفاء الكبير، للعقيلي	فتح الباري ق٣٢٨ التيمورية

عنوان الكتاب/ المؤلف	مكان وروده وصفحته
[ط]	
ـ طبقات ابن سعد	الخشوع في الصلاة ص٥٠ وأحكام الخواتم ص١٣٤ واللطائف ص١٦١، ١٦٢، ١٧٢، ٢١٠، ٣٢٨، ٣٦٤، ٤٢٩
[ع]	
ـ عدُّ الآي، لابن شاذان الرازي	أحكام الخواتم ص١٨٧
ـ العلل لابن المديني	لطائف المعارف ص٣٦٥
ـ العلل الواهية، لابن الجوزي وهو كتاب الموضوعات أو الواهيات	أحكام الخواتم ص١٣٩ وذم قسوة القلوب ق٤٧
ـ العلل، للدارقطني	أحكام الخواتم ص٥٨ وفتح الباري ق٣٢٨ التيمورية
ـ العلل، للخلال	البشارة العظمى ص١٨٨
ـ العيدين، لجعفر الفريابـي	لطائف المعارف ص٤٧٥
[غ]	
ـ غريب الحديث، لإبراهيم الحربـي	جامع العلوم والحكم ص١١٦
ـ غريب الحديث، لابن قتيبة	أحكام الخواتم ص١٨٣
[ف]	
ـ فضائل رمضان، لسلمة بن شبيب النيسابوري	اللطائف ص٣٦٧، ٣٧٤، ٣٨٠
ـ فضائل العشر، لابن أبـي الدنيا	اللطائف ص٨٠
ـ فضائل القرآن، لخلف	أهوال القبور ص٢٩
ـ فضائل القرآن، لأبـي عبيد	أهوال القبور ص٢٩
ـ فضائل القرآن، لأبـي القاسم الأزهري	أهوال القبور ص٣٧
ـ الفنون، لابن عقيل	أحكام الخواتم ص٢٤٤

عنوان الكتاب/ المؤلف	مكان وروده وصفحته
[ق]	
ـ كتاب القبور، لابن أبـي الدنيا	ذم القلوب ق٥٠ وأحكام الخواتم ص١٨٩ وأهوال القبور ص١٦، ٨٧، ١٤١
ـ قتلى القرآن، للواحدي	لطائف المعارف ص٥٨١
[ك]	
ـ الكافي، للموفق ابن قدامة	أحكام الخواتم ص١٧٦، ٢٠٠، ٢٣٩
ـ الكافي شرح الوافي، لأبـي البركات النسفي	لطائف المعارف ص٣٩٠
ـ الكامل، لابن عدي	لطائف المعارف ص٣٠٦ وأحكام الخواتم ص٤٣، ٩٣، ١٠٢، ١٠٦، ١٣٤، ١٤٢، ١٥١، ١٧٠، ١٧٤
ـ كتاب اللباس، لوكيع بن الجراح	أحكام الخواتم ص١٠٢
ـ كتاب مجابـي الدعوة، لابن أبـي الدنيا	لطائف المعارف ص٢٣٣
ـ كتاب الرقة والبكاء، لابن أبـي الدنيا	أهوال القبور ص٨٩
ـ كتاب الأولياء، لابن أبـي الدنيا	أهوال القبور ص٨٩
ـ كتاب الموت، لابن أبـي الدنيا	لطائف المعارف ص٣٨٣، ١٧، ٣٧، ٥٣، ١٤٠
ـ كتاب المحتضرين، لابن أبـي الدنيا	أحكام الخواتم ص١٩١ وأهوال القبور ص١٦
ـ كتاب المنامات، لابن أبـي الدنيا	أحكام الخواتم ص١٦٨
ـ كتاب من عاش بعد الموت، لابن أبـي الدنيا	أهوال القبور ص١٥، ١٧، ٦٣، ١١٤، ١١٥

عنوان الكتاب/ المؤلف	مكان وروده وصفحته
ـ كتاب العجائب، ابن المنذر الهروي «يشكر»	أهوال القبور ص١٢٩
ـ كتاب المؤتلف والمختلف، للخطيب	التخويف من النار ص٢٦٠
[م]	
ـ المحرر، للمجد بن تيمية	أحكام الخواتم ص١٧٩، ٢٠٠، ٢٣٠
ـ المجرد، لأبـي يعلي	أحكام الخواتم ص٢٢٦
ـ مختلف الحديث، للشافعي	لطائف المعارف ص٢٧٠
ـ مراسيل أبـي داود	لطائف المعارف ص١٣٩، ١٤٤، ٤١٢
ـ مسائل حرب الكرماني، عن الإمام أحمد	لطائف المعارف ص٢٦٣
ـ مسائل صالح، عن الإمام أحمد	أحكام الخواتم ص١٢٤، ٢٣٢
ـ مسائل البرزانطي، عن الإمام أحمد	أحكام الخواتم ص٢٣٠
ـ مسائل الأثرم، عن الإمام أحمد	أحكام الخواتم ص١٠٤ فتح الباري ق٣٤٧ التيمورية
ـ مسائل المروذي، عن الإمام أحمد(١)	جامع العلوم والحكم ص٣٥٥
ـ معاني الآثار، للطحاوي	لطائف المعارف ص٢٦٠، ٣٦١
ـ المغازي، للواقدي	لطائف المعارف ص٣٠٧
ـ مكارم الأخلاق، للخرائطي	التخويف من النار ص١٨٢
ـ مناقب الشافعي، للآبري	نزهة الأسماع ص٥٤
ـ مناقب الحسن بن علي، لأبـي حيان التوحيدي	اللطائف ص٤٥٤
ـ مسند بقي بن مخلد	البشارة العظمى ص١٨٤ ولطائف المعارف ص١٠٢ فتح الباري ق٣٥٦ التيمورية

(١) ففي فتح الباري وحده عدد موارد الحافظ من مسائل أصحاب الإمام أحمد، من خلال اثنان وثلاثين روايًا.

عنوان الكتاب/ المؤلف	مكان وروده وصفحته
ـ مسند ابن وهب	اللطائف ص١٤٣
ـ مسند يعقوب بن شيبة	لطائف المعارف ص٣٦٢ وأحكام الخواتم ص٦٧
ـ مسند الهيثم بن كليب	أحكام الخواتم ص١٤٣، ١٥٨
ـ المصنف لعبد الرزاق	فتح الباري ق٣٢٨ التيمورية
ـ المغني، لابن قدامة	أحكام الخواتم ص١٧٣، ٢١٠، ٢٢١، ٢٢٧، ٢٣٠، ٢٤٢
ـ كتاب الموت، لأبي مجلز	لطائف المعارف ص٥٧٣
ـ الموطأ، لمالك	فتح الباري ق٣٤٧ التيمورية
[و]	
ـ كتاب الورع، للمروذي	ذم قسوة القلوب ق٤٧ وأحكام الخواتم ص٤٢، ٨٨، ٩٤ ولطائف المعارف ص٢٧٦
ـ الورع، لأسد بن موسى	الخشوع في الصلاة ص٣٣
[ن]	
ـ النذور، للوليد بن مسلم	لطائف المعارف ص٣٤١

* * *

وبعد، فهذه أسماء أشهر موارده، ومؤلفها، وهي تعكس تعلق الحافظ ابن رجب بالمأثور وكتب الأسانيد، كما تعكس أصالته برجوعه إلى مؤلفات المتقدمين حتى في الفقه والوعظ والرقائق.

وكما نلاحظ أن غالب مؤلفي موارده من رجال القرنين الثالث والرابع وهما عصور التأليف والتصنيف الأولى عند المسلمين.

* * *

مَنْهَج
الحافظ ابن رجب الحنبلي
في كتابه ذيل طبقات الحنابلة

ويشمل :

* تعريف بـه .
* منهجه العام في تراجمه .
* طريقة نموذجية للتراجم .
* أثر العقيدة في تراجم الحافظ ابن رجب .
* إشادة الحافظ بعلماء أهل السنَّة ومحقِّقيهم .
* نقده وحكمه على أحوال بعض العلماء .
* موقفه من عرض تصانيف المترجمين .
* موارده فيه .
* الملاحظات عليه فيه .

التعريف بكتاب
ذيل طبقات الحنابلة

قد تنوَّعت تصانيف الحافظ ابن رجب الحنبلي في الفنون الشرعية وأدواتها، فألف في الحديث والتفسير والفقه والعقيدة.. ومن ذلك التراجم والسير، حيث كتب في تراجم العلماء الحنابلة وطلاَّبهم، وهو الخبير بهم، في كتابه الذي جعله ذيلاً على طبقات الحنابلة للقاضي أبـي الحسين بن أبـي يعلى الحنبلي (٤٥١ ــ ٥٢٦هـ).

وكتابه رحمه الله «الذيل على طبقات الحنابلة» لم يجىء من عالم تراجم ومؤرخ فحسب، بل جاء معلَّقًا من عالم فقيه محدِّث له قدم راسخة في العلم، ظهر أثرها في باقي تصانيفه عمومًا، وهذا الكتاب على جهة الخصوص، بدت هذه السمة في تراجمه وفي مدحه وذمِّه، واستطراده وتعقُّباته، وفي عرضه لأقوال العلماء في المترجَم له، وفي تتبع غرائبه وزلاّته واجتهاداته والكلام عليها، وفي البحوث الإسنادية والكلام على روايات الإمام أحمد وأوجه الأصحاب وطريقة عرضها.. كل هذا أظهر الميِّزة الفريدة لكتاب الذيل.

وهذه الناحية تراها جليَّة إذا ما كتب العلماء الراسخون في فنِّ التراجم، فكان أصله المُذيل عليه من كتاب طبقات الحنابلة للقاضي

أبـي الحسين بن أبـي يعلى الحنبلي على هذا النسق حيث حوى مع تراجم أصحاب أحمد ومن بعدهم رسائل مهمة مروية عن الإمام، ومسائل سئل عنها الإمام أبو عبد الله، ونقولاً لأحواله وفتاويه، وعن كبار تلامذته لما توجد إلاَّ في هذا الكتاب.

ثم صار الذيل على جادتها العلمية، ومتواصلاً للمنهج الشمولي في صياغة تراجم أهل العلم(١)، مكملاً لحلقة طويلة في سلسلة علماء المذهب امتدَّت نحوًا من ثلاثة قرون. فقال الحافظ في مقدمة ذيله الموجزة جدًّا:

«هـذا كتـاب جمعتـه، وجعلتـه ذيـلاً علـى كتـاب «طبقـات فقهـاء أصحـاب الإمـام أحمـد» للقـاضـي أبـي الحسيـن محمـد بـن القـاضـي

---

(١) فقد تضمَّن الكتابان مقالات ورسائل عن الإمام أحمد وتلاميذه عنه، ونقولاً من مطولات متأخِّري الأصحاب كثيرة منها في عداد المفقود، إذا علمنا أنَّ الذين جمعوا مسائل الإمام أكثر من ١٢٠ تلميذًا كما عدَّهم ووصف مسائلهم وجودتها الجمال يوسف بن عبد الهادي ابنُ المبرد في أول معجم الكتب، في حين لم يصلنا من هذا الكم سوى أقل من عشرة كتب في مسائل الإمام، هي: ١ ــ مسائل عبد الله بن أحمد، ٢ ــ ومسائل صالح، ٣ ــ ومسائل ابن هاني، ٤ ــ ومسائل أبـي داود السجستـانـي، ٥ ــ ومسـائـل البغـوي أبـي القـاسـم، ٦ ــ ومسـائـل إسحاق بن منصور الكوسج، ٧ ــ والمسائل لغلام الخلال عبد العزيز بن جعفر، ٨ ــ والمسائل التي حلف عليها الإمام أحمد للقاضي أبـي يعلى، وأكثرها قد طُبع أو في طريقه إلى الطبع. كذلك آثار العلماء من الحنابلة التي لم تصنف بل تناقلها الرواة، أو كتب فُقدت مع امتداد الزمن. . !!

ومثلهما كتب التراجم التي صاغها العلماء من نحو «طبقات الشافعية الكبرى» لتاج الدِّين ابن السبكي ولابن كثير في طبقات الشافعية، وقبلهما ابن الصلاح والذهبـي في «سِيَر أعلام النبلاء»، وأيضًا مطولات التراجم الفردية.

أبـي يعلى، رحمهم الله تعالى، وابتدأت فيه بأصحاب أبـي يعلى، وجعلتُ ترتيبه على الوفيات. والله المسؤول أن ينفع به في الدنيا والآخرة بمنِّه وكرمه». اهـ.

ثم شرع بأولى التراجم من وفيات المائة الخامسة.

فهو ــ رحمه الله ــ بهذه الجمل ألمح إلى ظاهر عمله والذي بدأ من النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، إلى النصف الأول من القرن الثامن تقريبًا، أي من سنة ٤٦٠ ــ ٧٥١هـ ضم في تلك السنين ٥٥٢ ترجمة في مجلدين. وفي آخر المجلد الثاني ضمَّ فيه جماعة من شيوخه كابن القيم وابن النباش وغيرهما.

ولما قرأت هذه التراجم أفدت منها كثيرًا وفي مباحث متنوعة: عقدية وحديثية وفقهية ووعظية وتأريخية.. وبدت لي عدة نقاط انتهجها الحافظ في صياغة تراجمه تمثل الخطوط الرئيسة في المنهج العام.



المنهج العام في التراجم[1]

١ ــ لم يطرد الحافظ منهجًا موحدًا في تطويل الترجمة أو تقصيرها أو بين ذلك. حيث نجده يطيل في تراجم المشهورين من العلماء بالعلم والديانة والزهد إطالة تناسب حالهم وشهرتهم؛ بل وما اتَّصفوا به من العلم. ومن أولئك شيخ الإسلام الهروي، وابن الجوزي، والوزير المظفر ابن هبيرة، وعبد الغني المقدسي، وابن تيمية.. وهي فيهم ليست متساوية؛ بل كل بما يتناسب ومقامه والكلام على حاله.

فمثلاً جاءت ترجمة الهروي الأنصاري رقم (٢٧) في ١٩ صفحة، وترجمة أبي الوفاء بن عقيل رقم (٦٦) في ٢٠ صفحة، وترجمة الوزير ابن هبيرة رقم (١٣١) في ٣٩ صفحة، وترجمة أبي الفرج بن الجوزي برقم (٢٠٥) في ٣٥ صفحة، وترجمة عبد الغني المقدسي في نحو ٢٩ صفحة، وترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية برقم (٤٩٥) في ٢١ صفحة.

في حين جاءت ترجمة شيخه وأستاذه ابن قيِّم الجوزية برقم (٥٥١) في نحو ثلاث عشرة صفحة.

---

(١) ستكون الإحالة إلى الطبعة المشهورة والمتداولة للطبقات وذيلها حتى وقت إعداد البحث وهي التي بتصحيح محمد حامد الفقي، من مطبوعات جمعية أنصار السنَّة المحمدية بمصر، والمصوَّرة عنها.

والمقصود من هذا تفاوت التراجم في التطويل والإسهاب بالاستطراد في أمور تفصيلية في بعضها دون بعض، حتى ربما تصل أحيانًا لأناس مغمورين من الحنابلة إلى عدة أسطر في الترجمة كلها، كما في الترجمة رقم (١٣٦) في خمسة أسطر، وفي الترجمة رقم (٤٢٠) في ثلاثة أسطر، وهكذا.

بل إنَّ تراجم المجلَّد الأول في الغالب أطول منها في المجلَّد الثاني.

وهذا يرجع لعدة أسباب، منها: مع ما ذكرت آنفًا توفّر المعلومات والمصادر الإخبارية عن المترجم له لدى الحافظ ابن رجب؛ لأنَّ هذا الفن لا يقوم على مجرد الاستنباط والنظر، بل على معطيات كتب التواريخ والأخبار والرواة، فطول الترجمة يتناسب مع هذا تناسبًا طرديًّا. وعليه فمهمة المؤلف تكمن في انتقاء الخبر المناسب والموافق، واستخراج الفوائد المتعلِّقة منه، والتمييز بين النقول، والتحكيم بين أقوالهم. وهذا صنيع الحافظ في ذيله.

٢ ــ عامة ما يذكره الحافظ في المترجم له لا سيَّما من المناقب والممادح أو ضدّها من المثالب، فإنه يعزوها إلى من نقلها باسمه أو اسم كتابه(١)، وأحيانًا بإسناده إليه، وكذا بقيَّة ما في المترجم من الأخبار، وهذا يدل على تحرِّي الحافظ ابن رجب وتثبُّته وتوثيقه لما ينقل.

ومن شواهد هذا ما في ترجمة جعفر بن أحمد بن السراج (٤١٧ ــ ٥٠٠هـ) برقم (٤٧) ذكر فيها من أشعاره مدح التعلُّم والعلم

(١) وانظر إلى موارد الحافظ في الذيل في آخر البحث.

ومدح الإمام أحمد ما تنوَّعت طرق نقله كما سبق. وانظره في ١/ ١٠١ ــ ١٠٢ من الذيل.

وأحيانًا يغفل هذه الأساليب في الأداء، فيحتمل أنه يذكر ما يعرفه عن المترجَم له أو قد سمعه عنه، وهو غالب في الأمور المتكررة من الولادة والنشأة والشيوخ والمحفوظات ونحوها.

وربما جمع بين النقل وما يعرفه، ثم يختم ذلك بتعديل المترجَم له أو جرحه بعبارة قصيرة جامعة حاوية لمجمل ما قبلها، كما قال في ترجمة أبي الحسن علي بن عبيد الله بن الزاغوني (٤٥٥ ــ ٥٢٧هـ) رقم (٨١) قال: «... وكان ثقة صدوقًا صحيح السماع، حدث بالكثير»، وقال عن الحافظ أبي العقل محمد البغدادي (٥٥٠هـ) ٣/ ٢٢٦: «... وهو ثبت إمام» من بعد أن ذكر تحوله من المذهب الشافعي والعقيدة الأشعرية إلى الحنبلية مذهبًا وعقيدة.

٣ ــ أحيانًا في التراجم المطولة نسبيًّا يتعرَّض الحافظ ابن رجب للإشارة إلى تلاميذ المترجَم له ممن عُرفوا بالعلم واشتُهروا به، ويعلو بذكرهم هذا العلم، وهذا غالب على التراجم الطويلة والمتوسطة دون القصيرة، ولكنه ليس مطردًا فربما مرَّ على ترجمة العالم المشهور ولم يذكر أحدًا من طلبته.

وهذا أيضًا يرد في ذكر شيوخ المترجَم، ولكن تعداد أسماء الشيوخ يكاد يكون عامًّا في جميع التراجم مع الاختلاف بكثرتهم حسب الترجمة طولاً وقصرًا، بل وربما ذكر عن الشيخ ما قرأه عليه أو سمعه منه. وانظر ترجمة شيخ المذهب بدمشق وناشره في الشام أبي الفرج

عبد الواحد بن محمد الشيرازي المقدسي (٤٨٦هـ) برقم (٢٨) في ١/ ٦٩ ـ ٧٠.

٤ ـ يعتني الحافظ ابن رجب بضبط اسم المترجَم له ونسبته ويتحرَّى ذلك بالحروف[1] مع تمييزه على عادة المحدثين.

كما يعتني كثيرًا بتحرِّي سنة ولادة المترجَم ووفاته أو أحدهما إذا وجد إلى ذلك سبيلاً، ولهذا يجزم به في موضع الجزم، ويصرح في الظن. ولكن ربما أخَّر ذكر الولادة عن تقدمة الترجمة، كما يقدم سنة الوفاة عن آخرها.. بدون إطراد محدَّد في هذا.

٥ ـ يذكر ما تميز به المترجَم له في فنِّه الذي اشتهر به، كالإقراء في القراءات، أو التحديث أو الفقه أو الوعظ أو اللغة أو الزهد والقبول عند الناس.. وأحيانًا باجتماعها أو أكثرها عند عالم واحد، كأبي الفرج ابن الجوزي في ترجمته رقم (٢٠٥). ومع هذا يورد من كلام المترجَم له فيما اشتهر به شعرًا أو نظمًا أو نثرًا، وفي اللغة وعلومها، انظر كلامه في ترجمة عبد الله بن الحسين العكبري النحوي في ٤/ ١١٤ وما بعدها.

٦ ـ يعتني رحمه الله بذكر الفوائد العلمية المأثورة عن المترجَم له في فنِّه الذي أجاده أو اشتغل به، وربما استطرد بإيراد الفوائد عنه مع تنوعها بحسب تلك الفوائد والمترجَم له، مع عناية بتتبع أشهر غرائبه التي خالف بها المذهب أو المشهور فيه، أو خالف عامة الأصحاب.

---

(١) وفائدة كتابته بالحروف بدلاً من الأرقام أنه يدفع احتمال التصحيف فيها، أو التحريف والخلط إلى حدٍّ كبير، ومثله ضبط العلماء للكلمات بالشكل يضبطون ذلك بالحروف مع الشكل على الكلمة المضبوطة.

وهذه الغرائب أكثر ما تكون في المسائل الفقهية التفصيلية.

ونموذج لهذا ما في ترجمة الوزير يحيى بن هبيرة (٤٩٩ ـ ٥٦٠هـ) برقم (١٣١) فقال في أثناء الترجمة: «وللوزير رحمه الله تعالى من الكلام الحسن والفوائد المستحسنة والاستنباطات الدقيقة من كلام الله ورسوله ما هو كثير جدًّا، وله من الحكم والمواعظ والكلام في أصول السنَّة وذم من خالفها شيء كثير أيضًا، ونذكر هنا بعض ذلك إن شاء الله تعالى...». اهـ.

فبدأ بذكر فوائد في التفسير، ثم نكتًا في شروح أحاديث النبي ﷺ، ثم في كلامه في السنَّة والعقيدة والصفات والمبتدعة والفتن.. ثم في الأعمال العامة والحكم، وختمه بذكر ما «في الإفصاح عن معاني الصحاح»[1] من الفوائد الجليلة الغريبة ـ كله من ٢٦٤ ـ ٢٨٢.

---

(١) هذا كتاب حافل بدأ فيه مؤلفه في شرح الصحيحين من خلال كتاب الحميدي أبي عبد الله الأندلسي المسمى بـ «الجمع بين الصحيحين»، حيث رتَّب جمعه لأحاديثهما على مسانيد الصحابة.

وهذا الكتاب ـ أعني «الإفصاح» ـ لم يطبع إلى الآن كاملاً، بل الموجود منه والمشهور هو ما يتعلق بالمسائل الفقهية بين المذاهب الأربعة، وهو مطبوع في مجلدين، وهو في الأصل ضمن كتاب «الإفصاح عن معاني الصحاح» الذي هو شرح للجمع بين الصحيحين، لكن الوزير ابن هبيرة لما بلغ في شرحه إلى حديث معاوية: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**» بدأ بمسائل الفقه من كتاب الطهارة على ترتيب الفقهاء إلى آخر كتب الفقه، أما الكتاب في الحقيقة على ما تركه عليه مؤلفه فهو كبير في تسعة عشر جزءًا ويوجد منه في المكتبة المحمودية الملحقة بمكتبة الملك عبد العزيز العامة بالمدينة النبوية خمسة مجلدات برقم (٦٦) فيها على النحو التالي:

الأول في ٣٢٣ ورقة في القرن الثامن، والثاني ٢٨٨ ورقة، والثالث في ٢٢٩ ورقة في سنة ٧٢٦هـ، والرابع في ١١٩ ورقة في ٢٧٦هـ، والخامس في ١٩٦ ورقة =

٧ ـ وإذا كان المترجَم له من ذوي التصانيف فإن الحافظ يعتني بذكرها بأسمائها كما يصفها وموضوعها وربما حجمها من عدد المجلدات أو الأجزاء، وربما يذكر أنه اطلع عليها، وربما يمدحها أو يثني عليها(١).

وهذا في غالب التراجم وفي جميع المطولات منها.

= القرن الثامن.

وهناك نسخًا أخرى فيها مفرقة أرقامها كالتالي: رقم (٤١٠) في ١٢٥ ورقة، و ٤١١ في ١٢٨ ورقة و ٤١٢ في ١٣٩ ورقة و ٤١٦ في ١٠٣ ورقات و ٤١٧ في ٢٤٧.

وفي مكتبة جامعة الإمام عن تشستربتي بدبلن ثلاثة مجلدات هي كالتالي:

١ ـ في ٧٨ ورقة برقم (٣١٨٥).

٢ ـ برقم (٣٣٥٥) في ٢٢٣ ورقة.

٣ ـ برقم (٣٢٦٦) في ١٧١ ورقة.

ونسخة المحمودية عنها فلم بجامعة الإمام، أرقامه من ٢٧٧ إلى ٢٨٠. وفي مكتبة جامع يوسف آغا بقونية بتركيا مجلد مكتوب سنة ٧٧٨هـ رقمه (٩٦)، وفي متحف طبقوا سراي بتركيا خمس مجلدات أرقامها من ٢٦٢٤ ـ ٢٦٢٨ في ١٢٨ق سنة ٧٥٩هـ و ١٤٢ق و ١١٩ق و ١٤٠ ورقة سنة ٨٨٢هـ و ١٩٦ ورقة في القرن الثامن الهجري تقديرًا على الترتيب، وفي دار الكتب العلمية أربعة مجلدات، وفي مكتبة الأوقاف العامة ببغداد ثلاثة مجلدات، وفي معهد الاستشراق في لينغراد مجلدان، ومكتبة الدولة ببرلين مجلدان، وكذا في جامعة لايبزج، وفي الوطنية بباريس مجلد هو الحادي عشر من الكتاب وغيرها، عندي أرقامها ووصفها، وطبع من أصل الكتاب جزءان بوزارة الأوقاف بقطر هي أول المسانيد العشرة.

(١) اقترح بالمناسبة أن تستخرج أسماء تلك المصنفات سواء عند تحقيق الكتاب، أو مفردة، فهي مهمة من ناحية جمع تصانيف العلماء.. وقد جمعت أسماء المؤلفات في المجلد الأول من الذيل في فهرس فأضحت كثيرة العدد.

ومن ذلك ما في ترجمة أبـي عبد الله عبد الرحمن بن مندة (٤٧٠هـ) برقم (١٢) قال في ٣/ ٢٩: وله تصانيف كثيرة، منها كتاب «حرمة الدين»، وكتاب «الرد على الجهمية» بيَّن فيه بطلان ما روي عن الإمام أحمد في تفسير حديث: «**خلق الله آدم على صورته**» بكلام حسن. وله كتاب «صيام يوم الشك»، وانظر تعداده مؤلفات ابن عقيل وابن الجوزي وابن الزاغوني وغيرهم.

هذا وربما تعقّب صاحب التصانيف فيذكر ما فاته كما جاء في ترجمته لعبد الله بن الخشاب (٥٦٧هـ) برقم (١٤٥) في ٣/ ٣١٨ ــ ٣١٩ حيث قال: «ولابن الخشاب تصانيف، منها كتاب «المرتجل في شرح الجمل» للزجاجي، وقد ترك فيه أبوابًا من وسط الكتاب لم يشرحها.. ويقال: إنه كان ضيق العطن في تصانيفه لا يتمها، وأن كلامه كان أجود من قلمه..». اهـ.

٨ ــ للحافظ اهتمام بذكر مناقب المترجمين كمسألة رئيسة في تراجمهم فلا تخلو ترجمة من تعداد مدائح ومناقب المترجَم له، وهي تختلف حسب حاله وشهرته ومبلغ علمه وفضله.

ومع هذا الاهتمام إذا وجد زلَّة أو سقطة أو خطأ في المنقبة يراها كذلك فإنه لا يتركها دون أن يتعقَّبها ويرد على المترجَم له بها، ولا يُقرّه عليها إما تصريحًا أو تلميحًا.

فمن التصريح ما جاء في ترجمة الحسن العطار شيخ همدان (٥٦٩هـ) برقم (١٤٨) فنقل في مدحه ٣/ ٣٢٧: «.. وكان حسن الصلاة لم أر أحدًا من مشايخنا أحسن صلاة منه. وكان مشددًا في أمر

الطهارة، لا يدع أحدًا يمس مداسه (نعله)، قلت: هذه زلة من عالم. . .». اهـ.

ومن الإنكار الإشاري ما ضمنه لترجمة إبراهيمَ بنِ عبد الواحد المقدسي (٦١٤هـ) أخي الحافظ عبد الغني المقدسي فنقل في ٤/ ٩٩، «. . وكان يقضي صلوات، فربما قضى في اليوم والليلة صلوات أيام عديدة حتى كان بعض من يحكي يقول: ربما قضى الشيخ في عمره صلاة كذا وكذا مائة، وقال رحمه الله: فاتتني صلاة العصر، وكنت قبل أن أبلغ، وقد أعدتها مائة مرة، وأنا أريد أن أعيدها أيضًا.

قلت: الكلام في هذا: هل هو مشروع أم لا؟!». اهـ.

فأفهم من هذا الاستفهام نوع إنكار لطيف على ذلك الصالح، رحم الله الجميع.

٩ ــ من ثنايا طريقة الحافظ في التراجم أنه إذا مرَّ في ترجمة ما على اسم عالم من العلماء عرضًا، وكان من المشاهير بفن من الفنون؛ لا سيَّما الحديث، فإنه يذكر ما يعبر عن منزلة ذلك العلم بوصف أو نعت يناسب مكانته أو بيان ونحوه.

فقال في ترجمة الحافظ محمد بن ناصر البغدادي: «إنه من أصحاب أبي بكر الخطيب الحافظ» يعني الخطيب البغدادي، وقال: من ثم صحب أبي زكريا اللغوي. . وكانت له إجازات قديمة من أبي الحسين بن النقور والصريفي وأبي القاسم بن عليك وأبي صالح المؤذن وابن ماكولا الحافظ وغيرهم انظر في ترجمته رقم (١١٣) في ٣/ ٢٢٥ وما بعدها.

١٠ ــ هذا ومن أوضح معالم منهج الحافظ في سوق التراجم؛ عنايته الظاهرة في أواخر التراجم بالمسائل الفقهية، حيث يذكر فوائد علمية عن المترجَم له في الفنون والعلوم التي تميَّز بها، عقيدةً أو تفسيرًا أو حديثًا أو لغة أو وعظًا وحكمًا. . وهذا في العلماء الكبار عادة، ثم غرائب المترجَم الفقهية التي خالف فيها المذهب، إما مخالفة المروي عن إمامه الإمام أحمد أو جمهور أصحابه أو قياسه وتخريجه على قول الإمام وفيه إغراب، أو الإتيان بما يخالف أوجه كبار الأصحاب. . وربما طول في تعداد ذلك حسب ترتيب كتب الفقه بدءًا من الطهارة في العبادات ثم العقود والمعاملات ثم الجنايات والحدود. .

وأحيانًا بتعداد الغرائب يذكر اعتراضات كبار الأصحاب وعلماء المذهب، ومناقشة هذه الغريبة، خصوصًا إذا وجد تصنيفًا لأحدهم حول مسألة بعينها يرد بها على آخر؛ فيذكر خلاصة ما عند المترجَم له من القول الغريب وخلاصة الاعتراض عليه.

وربما ذكر عن نفسه تحريرًا للمسألة بالتدليل والتعليل وردّها إلى نظائرها مما نُصَّ عليه في المذهب أو اتفق عليه أو نصَّ عليه من الرسول ﷺ وصحابته.

ونماذج هذا كثيرة، منها ما جاء في ترجمة الفقيه القاضي المبارك بن علي المخرمي (٥١٣هـ) برقم (٦٧) في ٣/ ١٦٦ ــ ١٧٠ حيث قال: «ولأبـي سعد المخرمي مع ابن عقيل مناظرة في مسألة بيع الوقف إذا خرب وتعطَّل، ونحن نذكر مضمون المناظرة ملخَّصًا».

ثم ذكر قول ابن عقيل واعتراض المخرمي عليه، وردَّ كُلٍّ على

صاحبه معقبًا برأيه على اعتراض كل منهما مصحِّحًا ومضعِّفًا وموجِّهًا، وأطال فيها إلى نظائر تلك المسألة مما خرَّجاه عليه ابنُ عقيل والمخرميُّ.

ومنها استنكاره قضاء الصلوات قبل البلوغ كما في ٢/ ٩٩.

وبالجملة فهذه وأمثالها بحوث مهمة في تلك المسائل قلَّما توجد في كتب المطولات ما لم تكن هي بعينها ردودًا، وهي ميزة الذيل الكبرى، وإن جمع تلك الغرائب والمناقشات حولها وتصنيفها لمما يُذكي النظر الفقهي في المسائل الاجتهادية، ويضبط أصول الاختلاف فيها. والله أعلم!!

كما أنه هو رحمه قد أغرب في مسائل كثيرة، أشار إلى ذلك ابن عبد الهادي في ذيله على طبقات الحافظ ص ٣٩.

١١ ـ الحافظ ابن رجب الحنبلي له عناية بما يُرى للعالم من المنامات شهادة على تزكيته أو قبوله أو استئناسًا بها على صلاحه وفضله. فإذا وقع للمترجم له منامات رؤيت له فهو يذكرها في معرض مدحه ومناقبه في آخر الترجمة غالبًا بعد ذكر وفاته. وهو كثير، ولا سيَّما في تراجم كبار العلماء والزهَّاد ممن ذكرهم في كتابه، وربما رواها بإسناده إلى من رأى الرؤية أو من سمعها ممن رآها. وكذا الرؤى التي رآها المترجَم له.

ومن نماذجه ما جاء في المنامات التي رؤيت للحافظ عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي الحافظ صاحب عمدة الحديث

(٥٤١ ــ ٦٠١هـ) برقم (٢١٤) في أول المجلد الرابع، وهو الثاني من الذيل. فذكر فيه النوعين، أولها الرؤى التي رآها الحافظ عبد الغني بنفسه للنبي ﷺ يسأله أو يشكو له شيئًا، في ص ١٧، ومن ذلك ما نقله عن الضياء المقدسي عن الحافظ عبد الغني يقول: «رأيت النبي ﷺ في النوم يمشي وأنا أمشي خلفه، إلاَّ أن بيني وبينه رجلاً».

ثم ذكر مرائي من غيره له على تلك الصفة وفي آخر الترجمة المرائي التي رؤيت له عند موته وبعده في ص ٣١ وما بعدها.

وأحيانًا ربما ذكر كرامات وقعت للمترجَم له في حياته أو بعد موته من غير المنامات، وهذا ليس كثيرًا.

ولا شك أنَّ الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له من الكرامات التي تكون للصالحين من أولياء الله المتَّقين؛ لما في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا إلى النبي ﷺ قوله: «**رؤيا المؤمن جزء من ست وأربعين جزءًا من النبوَّة**». وفي رواية أخرى في البخاري عن أبي سعيد مرفوعًا: «**الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة**»، فهي حق؛ لأنَّ ما يراه النائم إما أن يكون خيرًا صالحًا أو شرًّا، كما ورد في حديث أبي قتادة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**الرؤيا الصالحة من الله، والحلم من الشيطان، فإذا حلم فليتعوَّذ منه وليبصق عن شماله فإنها لا تضرّه**». أخرجه البخاري.

وثمَّ نوع ثالثٌ هو حديث النفس، وربما رجع أحيانًا إلى أحد القسمين، وانظر بحث المسألة في «الهدي» لابن القيم في المجلد الثاني

في أواخره، فالحمد لله الذي جعل هذه المبشرات سرورًا وخيرًا للمؤمنين.

١٢ ـ في آخر أكثر التراجم ـ التي أصحابها من أهل الحديث ـ يسند الحافظ ابن رجب شيئًا مما رواه بواسطة المترجَم له عن النبي ﷺ ولا يكثر من الأسانيد، إذ الغالب أنه يسوق إسنادًا وإسنادين، ولعله بهذا يشير إلى اتصال سنده إلى المترجَم له، وبيانًا لكون المترجَم له من أهل الحديث والأثر، وهكذا فعل الذهبي في تراجمه في «السير».

١٣ ـ للحافظ ذوق واهتمام بالشعر، يظهر في تراجمه، أيضًا له ملكة نقدية في معاني الشعر وحسنه ومدحه، بدا هذا فيما يورده في تراجمه من انتقاء أشعار المترجمين، وجيد نظمه، فتراه يقول: ومن جيد شعره، ومن أشعاره الحسنة. وهو يُعنى بالأغراض ذات الصلة باهتمامه من أغراض الشعر كشعر الزهد والرقائق فغالبًا ما يورد من أطيب شعر المترجم فيه كما فعل في ترجمة الشيخ رزق الله التميمي (٤٨٨هـ) برقم (٣١) في ٣/ ٧٧، حيث نقل عنه فقال: «ولأبي محمد التميمي شعرٌ حسن. قال ابن السمعاني: أنشدنا هبةُ الله ابن طاوس بدمشق، أنشدنا التميمي لنفسه:

وما شنآن الشيب من أجل لونه ... ولكنه حادٍ إلى البين مسرعُ
إذا ما بدتْ منه الطليعةُ آذنتْ ... بأنَّ المنايا خلفها تتطلعُ
فإن قصَّها المقراضُ صاحت بأختها ... فتظهر تتلوها ثلاثٌ وأربعُ

وإن خضبتْ حالَ الخضابُ لأنَّه ... يغـالـبُ صُنـع الله، والله أصنـعُ
فيُضْحِي كريش الديك فيه تلمُّعٌ ... وأقطـع مـا يُكسـاه ثـوبٌ ملمَّـعُ
إذا ما بلغت الأربعين فقل لمن ... يـودك فيمـا تشتهيـه وتسـرعُ
هَلمـوا لنبكـي قبـل فـرقـة بيننـا ... فما بعدها عيش لذيذ ومجمعُ
وخَلِّ التصابي، والخلاعة، والهوى ... وأمَّ طريق الحق، فالحقُّ أنفعُ
وخُذ جُنَّةً تنجي وزادًا من التقى ... وصحبة مأمون، فقصدك مفزعُ

قـال: وأنشدنـا إسمـاعيـل بـن السمـرقنـدي، أنشـدنـا التميمي لنفسه:

مررْنا على رسم الديار فسلّمنا ... وقلنا له: يا ربعُ أين نَأَوْا عَنَّا؟
وجُدنا بدمع كالرذاذ على الثّرى ... فَصُمَّ المنادَى، فانصرفنا كما كنّا
ومـا ذاك إلَّا أنَّ رسـم ديـارهـم ... به كالذي نلقى فقد زادنا حزنًا
فلما أيسنا من جواب رُسُومِهم ... نزلنا فقبلنا الثرى قبل أن رُحنا

ومن شعره:

يـا ويـح هـذا القلـب مـا حَـالُـه ... مشتغـلاً فـي الحـي بلبـالُـه
سكـران لـو يصحـو لعـاتبـه ... وكيـف بـالعتـب لمـن حـالُـه
دمـع غـزيـر، وجـوى كـامـنٌ ... يـرحمـه مـن ذاك عُـذَّالُـه
مـا ينثنـي بـاللـوم عـن حُبِّـه ... تغيّـرت فـي الحـب أحـوالُـه

قال: وأنشدنا لنفسه:

ولـم أستَطـع يـومَ الفـراقِ وداعَه ... بلفظي فنابَ الدَمعُ مِنّي عن القول

وَشيّعَهُ صبري ونومي كلاهما ... فعُدتُ بلا أنسٍ نهاري ولا ليلي
فلما مضى أقبلتُ أسعى مُوَلَّها ... يَديّ على رأسي وناديتُ: يا ويلي
تَبَدَّلتُ يوم البين بالأنس وحشة ... وجرَّرتُ بالخسران يوم النوى ذَيْلي»

اهـ(١).

وقال الحافظ: «وللشيخ أبي الفرج ــ ابن الجوزي ــ أشعار كثيرة حسنة. قال أبو شامة: قيل: إنها تبلغ عشر مجلدات»، ومما نقل في ترجمته من شعره في الغزل:

«ألا هل إلى شم الخزامي وعرعر ... وشيخ بوادي الأثل أرض تسيرها
ألا أيها الركب العراقي بلغوا ... رسالة محزون حواه سطورها
إذا كتبت أنفاسه بعضَ وَجْدِها ... على صفحة الذكرى محاه زفيرها
ترفق رفيقي، هل بدت نار أرضهم ... أم الوجد يذكي ناره ويثيرها؟
أعد ذكرهم فهو الشفا وربما ... شفى النفس أم ثم عاد يضيرها
ألا أين أيام الوصال التي خلت ... وحيث خلت حلت وجا مريرها
سقى الله أيامًا مضت ولياليًا ... تضوع رياها وفاح عبيرها

قال: وأنشدنا لنفسه:

إذا جزت بالفور عرج يمينًا ... فقد أخذ الشوق منا يمينًا
وسلَّم على بانة الواديين ... فإن سمعت أوشكت أن تبينا

(١) من ترجمته في ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٨١.

وَمِلْ نحو غصن بأرض النقى وما يشبه الأيك تلك الغصونا
وصح في مغانيهم: أين هم؟ وهيهات أموا طريقًا شطونا
وروّ ثرى أرضهم بالدموع وخل الضلوع على ما طوينا
أراك يشوقك وادي الأراك أللدارتبكي أم الظاعينا؟
سقى الله مرتعنا بالحمى وإن كان أورث دآءً دفينا
وعاذله فوق داء المحب رويدًا رويدًا بنا قد بلينا
لمن تعذلين أما تعذرين فلو قد تبعت دفعت الأنينا
إذا غلب الحب ضاع العتاب تعبت وأتعبت لو تعلمينا

ومما ينسب إليه من الشعر:

تملكوا واحتكموا وصار قلبي لهم
تصرفوا في ملكهم فلا يقال: ظلموا
إن واصلوا محبهم أو قطعوا فهم هم
أصبر لما شاءوا وإن ساء الذي قد حكموا
يا أرض سلع خبري وحدثيني عنهم
يا ليت شعري إذْ حدوا أأنجدوا أم اتهموا
تشتاقهم أرض منى وتشكيهم زمزمُ»

ومن الرقائق والمواعظ:

«أخبرنا أبو الفتح الميدومي ـ بمصر ـ أخبرنا أبو الفرج الحراني ـ سماعًا ـ قال: قرىء على الإمام أبي الفرج ابن الجوزي ـ وأنا أسمع ـ لنفسه.

يـا نـادبًا أطـلال كـل نـادي | وبـاكيًـا فـي إثـر كـل حـادي
مستلـب القلـب بحـب غـادة | غـدت فـإن البيـن بـالفـؤادِ
مهـلاً فمـا اللـذات إلاَّ خـدع | كـأنهـا طيـف خيـال غـادي
أيـن المحـب الحبيـب بعـدا | وأنـذرا مـن بعـد بـالبعـاد
فكـل جمـع فـإلـى تفـرق | وكـل بـاق فـإلـى نفـاد
مـواعـظ بليغـة فيـالهـا | مـواعـظ واريـة الـزنـاد»

اهـ[1].

وفي غرض الرثاء أورد الحافظ ابن رجب في رثاء ناصح الإسلام ابن المنّى قال:

«قال: ورثاه رفيقنا النجم عبد المنعم بن علي بن الصقال الحراني، أحد أصحابه، وأملاه عليَّ من لفظه:

إلام يشجيك ذكر الربع والطلل | ويستخف بهاك الفنج في المقل
فـإن دعـاك دَدِدٌ لبيـت دعـوتـه | مـدلهًـا غيـر منقـاد إلـى العـذل
ذر الهـوى فعطـايـاه معـاطبـه | وجوده بالمنى شر من البخل
ولا تُصِـخْ لقريض بعدها أبدًا | وإن توحد في مدح وفي غزل
ما لم تَرْثَ قوافيه التي جمعت | صفاتُه الغر بين: العلم والعمل
ومن غدا ناصر الإسلام يحرسه | بهمة لم يقصر عن سما زُحَل
وطال ما خدم الرحمن معتكفًا | على العبادة لا ينصاغ للكسل

(١) من ذيل الطبقات ١/ ٤٢٤، ٤٢٥.

إن روق الليل جافى الحبر مضجعه يتلو بدمع غزير واكفٍ هطل
أو أتحف الجو أنوار الضيا ابن ذكا غدا لتدريس علم واسع جلل
وإن بدا مشكل في الشرع متعلق أتى به ظاهرًا حقًّا على عجل
واهًا لما حاز من علم وكم قدمت إلى خصائصه مهما من رجل
فيشهد الفضل مبذولاً لطالبه ويدرك الفضل في أحلى من العسل
فما انثنى عمره المحروس عن زلل واعتناقه الخير عن قول وعن عمل
حتى أفاد صحابًا كلهم بطل يوم الجدال عريق الأصل في الجدل
إن تـأتـه تلـق ليثًـا فـي عـرينتـه ذا همـة غيـر نـزاع إلـى الفشـل
يريك قس أياد من فصاحته ويحسن القول في الأحكام والعلل
يفرقون جموع الخصم في دعةٍ تفريق شمل جموع الكفر سيف علي»

اهـ[1].

نقل عنه أيضًا من التمني والتأسف على ما مضى:

«قال سبطه أبو المظفر: جلس جدي يوم السبت سابع شهر رمضان ـ يعني سنة سبع وتسعين وخمسمائة ـ تحت تربة أم الخليفة المجاورة لمعروف الكرخي، وكنت حاضرًا، فأنشد أبياتًا قطع عليها المجلس، وهي هذه:

الله أســأل أن تطــول مــدتــي وأنــال بــالإنعــام مــا فــي نيتــي

(١) من كتابه: ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٣٦٤، ٣٦٥.

لي همة في العلم ما من مثلها — وهي التي جَنت النحول هي التي
حلفت من الفلق العظيم إلى المنى — دعيت إلى نيل الكمال فلبَّت
كم كان لي من مجلس لو شبهت — حــالاتــه لتشبهــت بــالجنــة
أشتــاقــه لمــا مضــت أيــامــه — علــلاً وتُعــذر نــاقــةٌ إنْ حَنَّــتِ
يــا هــل لليــلات بجمــع عــودة — أم هل إلى وادي منى من نظرة؟
قد كان أحلى من تصاريف الصبا — ومن الحمام مغنيًّا في الأيكة
فيــه البــديهــات التــي مــا نــالهــا — خلــق بغيــر مخمــر ومبيــت
بــرجــاحــة وفصــاحــة ومــلاحــة — تقضــي لهــا عــدنــان بــالعــربيــة
وبــلاغــة وبــراعــة ويــراعــة — ظــن النبــاتــي أنهــا لــم تنبــت
وإشــارة تبكــي الجنيــد وصحبــه — فــي رقــة مــا نــالهــا ذو الــرمــة

قال أبو شامة: هذه الأبيات أظنها كان نظمها في أيام محنته، إذْ كان محبوسًا بواسط؛ فمعانيها دالة على ذلك. والله أعلم.

ثم قال أبو المظفر: ثم نزل عن المنبر، فمرض خمسة أيام، وتوفى ليلة الجمعة بين العشائين في داره يقطتفنا». اهـ[1].

وكما في ترجمة الشيخ أبـي الفرج ابن الجوزي في ٣/ ٤٢٣ وما بعدها.

وأيضًا من الأغراض المهمة لدى الحافظ: عنايته بما للمترجم له من قصائد في السنَّة والدعوة إليها، ومدح علمائها وأصحاب المواقف فيها، وسيأتي لذلك بيان في أثر العقيدة في تراجمه.

---

(١) من الذيل ١/ ٤٢٨.

ومن أغراضه: الرثاء، وهو كثير كما في ترجمة الناصح: نصر بن فتيان بن المنَّى برقم (١٧٥) في ٣/ ٣٦٤.

هذا مع ما تجود به قريحته هو من الشعر والحكم، ولأنه لا يصرح إليه بل ربما يقول: ولبعضهم أو قال أحدهم. . . مخفيًّا بذلك نفسه، وأظن هذا طلبًا للإخبات، ولئلا يؤثر عنه قول ذلك.

لأن من عادته نسبة الأقوال والأشعار إلى أصحابها رحمة الله عليه، وجازاه على خفائه وإخباته الرفقة في المؤمنين دنيا وآخرة ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المعارج: ٣٤، ٣٥].

ومن شعره مما صرَّح به متوكلاً على الله طالبًا التوفيق منه في رسالته في ذم قسوة القلوب، حيث قال رحمه الله:

«وقلتُ والله الموفَّق:

أفـي دار الخـراب تظـل تبنـي ... وتعمـر مـا لعمـران خُلقتـا
ومـا تـركـت لـك الأيـامُ عـذرًا ... لقـد وعظتـك لكـن مـا اتعظتـا
تُنـادي للـرحيـل بكـل حيـن ... وتُعلـن إنّمـا المقصـودُ أنتـا
وتُسمعـك النـداءَ وأنـت لاهٍ ... عن الداعي كأنَّك ما سمعتا
وتعلـم أنَّـه سفـرٌ بعيـد ... وعـن إعـداد زادٍ قـد غفلتـا
تنـام وطـالـب الأيـام سـاعٍ ... وراءك لا ينـام فكيـف نمتـا
معـائـب هـذه الـدنيـا كثيـر ... وأنـت علـى محبّتهـا طُبعتـا
يضيـع العمـرُ فـي لعـبٍ ولهـو ... ولـو أعطيـت عقـلاً مـا لعبتـا

فما بعد الممات سوى جحيمٍ ... لعــاصٍ أو نعيــم إنْ أطعتــا
ولســت بــآمــلٍ ردًّا لــدنيــا ... فتعمــلُ صــالحًــا فيمــا تــركتــا
وأوّل مــن ألــوم اليــوم نفســي ... فقــد فعلــتْ نظــائــرَ مــا فعلتــا
أيا نفسي أخوضًا في المعاصي ... وبعــد الأربعيــن وغــب ستــا
وأرجــو أنْ يطــول العمــرُ حتــى ... أرى زاد الــرحيــل وقــد تــأتّــى
أيا غُصن الشباب تميل زهوًا ... كــأنــك قــد مضــى زمــن وعشتــا
علمت فدع سبيل الجهل واحذر ... وصحح قد علمت وما عملتا
ويا من يجمع الأموال قل لي ... أيمنعــك الــرّدي مــا قــد جمعتــا
ويــا مــن يبتغــي أمــرًا مطــاعًــا ... يُسمــع نــافــذ مَــن قــد أمــرتــا
عججت إلى الولاية لا تُبالي ... أجــرت علــى البــريــة أم عــدلتــا
ألا تــدري بــأنــك يــوم صــارت ... إليــك بغيــر سكيــن ذُبحتــا
وليــس يقــوم فــرحــةُ قــد تــولّــى ... بتــرحــة يــوم تسمــع قــد عُــزلتــا
ولا تُهمــل فــإن الــوقــت يســري ... فــإنْ لــم تغتنمــه فقــد أضعتــا
تــرى الأيــام تُبلــي كــل غُصــن ... وتطوي مِن سرورك ما نشرتا
وتعلــم إنّمــا الــدنيــا منــام ... فــأحلــى مــا تكــون إذا انتبهتــا
فكيف تصدّ عن تحصيل باق ... وبــالفــانــي وزخــرفــه شُغلتــا
هــي الــدنيــا إذا ســرتــك يــومًــا ... تسؤوك ضعف ما فيها سُررتا
تغرّك كالسراب فأنت تسري ... إليــه وليــس تشعــر إن غُــررتــا
وأشهــدكُــمْ أبــادت مــن حبيــب ... كــأنــك آمــن ممــا شهــدتــا
وتــدفنهــم وتــرجــع ذا سُــرور ... بما قد نلت من إرثٍ وحزتا
وتنســاهــم وأنــت غــدًا ستفنــى ... كــأنــك مــا خُلقــت ولا وجــدتــا

تُحـدِّث عنهـمُ وتقـول كـانـوا — نعـم كـانـوا كمـا واللهِ كنتـا
حديثك هم وأنت غدًا حديث — لغيـرهـمُ فـأحسـن مـا استطعتـا
يعـود المرء بعـد المـوت ذكـرًا — فكن حسن الحديث إذا ذكرتا
سـل الأيـام عـن عـم وخـال — ومـا لـك والسـؤال وقـد علمتـا
ألـســن تــرى ديـارهـم خـلاء — فقـد أنكـرت منهـا مـا عـرفتـا»

اهـ[1].

ونقل الحافظ في ترجمة نصر بن منصور النميري (٥٨٨هـ) رقم (١٨٠) في السنّة، قال:

«ومن شعره، وقد سئل عن مذهبه واعتقاده؟ فأنشد:

أحـب عليًّـا والبتـول وولـدهـا — ولا أجحد الشيخين حق التقدم
وأبرأ ممن نال عثمان بالأذى — كمـا أبـرأ مـن ولاء ابـن ملجـم
ويعجبني أهل الحديث لصدقهم — فلست إلى قوم سواهم بمنتمي

وقد روي البيت الثالث على وجه آخر.

ومن شعره وقرأته بخط السيف بن المجد الحافظ:

سبـرت شـرائـع العلمـاء طـرًّا — فلـم أر كـاعتقـاد الحنبلـي
فكـن مـن أهلـه سـرًّا وجهـرًا — تكـن أبـدًا علـى النهـج السـوي
هم أهل الحديث وما عرفنا — سـوى القـرآن والنـص الجلـي

ومما أنشده عنه ابن القطيعي، وقال: أنشدني لنفسه:

وكفـى مـؤذنًـا بـاقتـراب الأجـل — شبــاب تــولــى وشيــب نــزل

(١) رسالة في ذم قسوة القلوب ق (٥٠، ٥١).

ومـوت اللـذات، وهـل بعـده بقـاء يـؤملـه مـن عقـل؟
إذا ارتحلـت قـرنـاء الفتـى على حكم ريب المنون ارتحل
هـو المـوت لا تحتمـي للنفـوس مـن خطبـه بـالـرقـى والحيـل
إذا صـال كـان سـواءً عليـه مَـن عـز مـن كـل حـي وذل
فيـا ويـح نفسـي أمـا تـرعـوي وقـد ذهـب العمـر إلاَّ الأقـل»

اهـ[1].

ونقل أيضًا في المدح في مدح الوزير يحيى بن هبيرة الحنبلي قال:

«ومن قول الحيص بيص في مدحه رحمه الله تعالى:

يفل عزب الرزايا وهي باسلة ويوسع الجار نصرًا وهو مخذول
ويشهد الهول بسامًا وقد دمعت شوس العيون فذم القوم إحفيل
ويتقي مثل ما ترجى فواضله وجوده، فهو مرهوب ومأمول
عارٍ من العار كاسٍ من مناقبه كأنه مرهف الخدين مسلول
سهل المكارم صعب في حفيظته فبـأسـه والنـدى مـر ومعسـول
قالي الدنايا وصبوان العلى كلف فالعار والمجد مقطوع وموصول
الملك يحيى الذي قول ومعترك إذا تشـابـه مقطـوع ومفلـول
يمضي الأسنة والأقوال ماضية فالحبر والقرن مطرود ومفصول
جواد مجد له في فخره شبه وفيه من واضح العلياء تحجيل
يصيد وحش المعالي وهي نافرة كـأن مسعـاه للعليـاء أحبـول

(١) من ذيل الطبقات ١/ ٣٧٥.

ومما أنشده أبو الفتح بن الأديب في أول يوم جلس فيه الوزير وقرىء عهده:

إذا قلت: ليث فهو أمضى عزيمة وإن قلت: غيث فهو أندى وأجود
القوم ما أبقوا سوى حسن ذكرهم وما عمروه بالجميل وشيدوا
وصية موروث إلى خير وارث إذا سيد منهم خلا قام سيد
سيحييهم يحيى وما غاب غائب إليه أحاديث المكارم تسند
مناقب تحصى دونها عدد الحصى بها يغبط الحر الكريم ويحسد
ليهن أمير المؤمنين اعتضاده برأيك والآراء تهدي وترشد
هو المقتفي أمر الإله وإنه ليصدر عن أمر الإله ويورد
تمنى وزيرًا صالحًا يكتفى به وأفكاره في مثله تتردد
دعاء زكريا النبي كما دعا إمام الهدى، والأمر بالأمر يعضد
فخص بيحيى بعدما خص بعده بيحيى أمير المؤمنين محمد

وهي طويلة.

ومن قصيدة لأبي علي بن الفلاس الشاعر أولها:

الحب يهجر والطيوف تزور وكأنما أصل الصبابة زور
ظلت الملوك وقصورًا عن غاية ما نالها كسرى ولا سابور
وعدلت حتى لم تدع من ظالم يده على المستضعفين تجور
فالأرض مشرقة بعدلك والندى وصباح عدلك ماله ديجور
قد روضت بالمكرمات كأنما كل البلاد خورنق وسدير

ولنصر النميري:

أعلقت من يحيى رجائي لمن ... تحتكم الآمال في وفره
وكان عون الدين أحرى الورى ... بنصرة الحر على دهره
وزير صدق عم إحسانه ... فأجمع الناس على شكره
أبهة الملك على وجهه ... وخشية الرحمن في سره
يُربي على الغيث ندى كفه ... ونائل المرء على قدره

قال ابن الجوزي: كان الوزير يتأسف على ما مضى من زمانه، ويندم على ما دخل فيه. ثم صار يسأل الله عزَّ وجلّ الشهادة، ويتعرض بأسبابها». اهـ[1].

ومن أغراض الألغاز ما نقله الحافظ ابن رجب «ترجمة عبد الله بن الخشاب النحوي اللغوي»: «وله لغزًا في الشمعة:

صفراء لا من سقم بها ... كيف وكانت أمها الشافية
عارية باطنها مكتس ... فاعجب لها عارية كاسية

ومنه ــ أنشده ابن القطيعي ــ في المديح:

تلقاه إما عالمًا أو متعلمًا ... يومى حجاج أو عجاج الهبا
فمجادل يهدي غويًّا مشغبًا ... ومجدل يردى كميًّا محربا

وينسب إليه قصيدة طويلة في الألغاز والعويص في جميع أنواع العلوم. قيل: إنه كتبها إلى بعض فضلاء عصره ممتحنًا له ومعجزًا، وأظنه ابن الدهان.

---

(١) من ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٢٨٤، ٢٨٥.

ومما ينسب إليه قصيدة نونية، منها:

واذكـر إذا قمـت يـوم العـرض منتفضًـا
مـن التـراب بـلا قطـن ولا كفـن

وجـيء بـالنـار قـد مـد الصـراط علـى
حـافـاتهـا تتلظـى فعـل مغتبـن

وتنشـر الصحـف فيهـا كـل محتقـب
مـن المخـازي ومـا قـدمـت مـن حسـن

قـد كنـت تنسـى وتلـك الصحـف محصيـة
مـا كنـت تـأتـي، ولـم تظلـم ولـم تخـن

هنـاك إن كِنـت قـدمـت مـدخـرًا
تُسقـى مـن الحـوض مـاء غيـر ذي أسـن

عنـد الجـزاء تعـض الكـف مـن نـدم
علـى تخطيـك فـي سـر وفـي علـن

لا تـركنـن إلـى الـدنيـا؛ ففـي جـدث
يكـون دفنـك بيـن الطيـن واللبـن

واستـن بـالسلـف المـاضـي وكـن رجـلاً
مبـرأ مـن دواعـي الغَـيِّ والفتـن

فـودع مـذهـب قـوم أحـدثـت إثمًـا
فيهـا خـلاف علـى الآثـار والسنـن»

اهـ(١).

---

(١) من ذيل الطبقات ١/ ٣٢٢.

وهي في الزهد.

وفي ترجمة مكي بن محمد بن هبيرة البغدادي، الأديب أبو جعفر (٥٦٧هـ) برقم ١٤٦ قال في ابن الوزير يحيى بن هبيرة الذي نظم «مختصر الخرقي»:

«شرف الدين ظفر، ناب عن والده في الوزارة أيضًا: وكان أديبًا بارعًا له نظم حسن جدًا. قبض عليه، وقتل في صفر سنة اثنتين وستين.

ومن نظمه:

أخلف الغيث مواعيد الخزامي ... فقف الأنضاء تستقى الغماما
وأبحني ساعة من عمري ... نملأ الدار شكاة وسلامًا
وخُذ اليمنة من أعلا الحمى ... تلق بالفور حميمًا وحمامًا
أصف الأشواق في تلك الربى ... وأعاطى الترب سقيًا والتثامًا»

اهـ[1].

ومن أغراضه أيضًا الغزل العذري، حيث يستحسن من المترجمين جميل ما قالوه فيه، كما نقله في ترجمة محيي بن نجاح اليوسفي (٥٦٩هـ) برقم (١٥٢) في ٣/ ٣٣١ وترجمة الأديب نصر بن منصور الثميري (٥٨٨هـ) برقم (١٨٠) في ٣/ ٣٧٦. وأيضًا من فنونه شعر الألغاز والأحاجي الذي يقوله العلماء، مستحثين به العقول على النظر والفكر كما نقله ابن الخشاب (٥٦٧هـ) في ترجمته برقم (١٤٥) في ٣/ ٣٢١.

* * *

---

(١) من الذيل على الطبقات ١/ ٣٢٣.

طريقة الحافظ ابن رجب في التراجم

هي في متوسطي التراجم لا القصيرة ولا المطولة وذلك أنه يجعلها كالتالي:

١ ـ يبدأ بذكر اسم المترجم له كاملاً مع نسبته وبلده أو قبيلته، وألقابه المشعرة بمدحه وعلمه كالفقيه والحافظ. . . ثم كنيته، ثم منزلته في الفقه أو العلم كشيخ الحنابلة، وشيخ الإسلام. . . ونحو ذلك.

٢ ـ يذكر سنة ولادته وربما اليوم والشهر في الغالب مع مكانها.

٣ ـ يورد نشأة المترجم له العلمية بدءًا من حفظه القرآن، ومشائخه، ورحلاته، ومسموعاته من العلماء وتسميتهم، وما يقع له في سفره من القراءة أو التدريس أو الرواية والإجازات ونحوها.

٤ ـ يذكر وظيفة المترجم له التي تقلدها أو منصبه، كما يذكر ما انقطع إليه من التدريس أو الإقراء أو الإسماع أو التجارة أو الصناعة مع ذلك، مع تعداد أشهر تلاميذه الآخذين عنه.

٥ ـ ينقل أقوال العلماء في المترجم له، ممن ذكروه في كتبهم، أو جالسوه وعاصروه أو أخذوا عنه، وربما نقل بالسند إلى أمثالهم من متقدمي الأصحاب، وكذا ينقل مناقبه وممادحه، وما برز فيه من العلوم، وما قد يصاحب هذا من النوادر عنه، والأحوال المرضية.

وربما توسع في ذكر منامات رآها هو أو رؤيت له أو كلاهما في حياته أو بعد موته.

٦ ــ يعدد تصانيفه ــ إن كان المترجم له من المؤلفين ــ ولا يشترط استيعابها بل يذكر أكثرها وأشهرها مع وصفها في حجمها وحسنها وجودتها، وللحافظ عناية بهذا واضحة في كتابه، فتميز بها عن كثير من المترجمين. كما يذكر ــ عند المناسبة ــ ما تميَّز من محفوظاته من المتون أو الكتب المطولة والمتوسطة مُشيدًا بذلك.

٧ ــ لا تخلو الترجمة أحيانًا من وصف خَلق المترجم له وحجمه، ووصف أخلاقه ومكارمه وسجاياه، التي وصف بها وعرف بها.

٨ ــ كما يشير إلى ما تميز به المترجم له من سرعة كتابة أو حفظ، أو جودة قلم، أو ثقة خط، أو حرص على العلم أو الوقت، أو عناية بالتلاميذ أو عنايته بالأمثال والحكم... في كلٍّ حسب ما يقع منه ويناسب ذكره.

* * *

أثر العقيدة
في تراجم الحافظ ابن رجب

سبق النظر في عقيدة الحافظ ابن رجب ثم تتبع منهجه فيها، من طريق الدلائل، وسيأتي ـ إن شاء الله ـ طريق المسائل، فخرجنا بنتيجة هي أن الحافظ ابن رجب ـ رحمه الله ـ من أهل السنة والجماعة، بل من أئمتهم في القرون المتوسطة، وأنه سلفي العقيدة بالإجماع لم يُؤثر عنه ما يشوب هذا أو يقدح في أصله.

وأن ميله إلى الزهد والزِّهاد وتخففه من الولايات والدنيا، وخوضه في أحوال العارفين والمتنسكة، ودندنته حول أحوالهم، لا تؤثر في هذا الأصل، وعلى كل حال ما من شرط العالم ألا يخطىء أبدًا.

ولما كان الحافظ عبد الرحمن بن رجب الحنبلي من كبار العلماء والحنابلة ومن ذوي الرسوخ في العلم، والأمانة والثقة فيه، ظهرت آثار ذلك كله في تناوله لتراجم أكثر من خمسين وخمسمائة عالم من علماء الأمة من الحنابلة في مدحهم أو نقدهم وتتبع مؤخذاتهم التي لا يسوغ السكوت عليها.

هذا وقد عنَّت لي معالم شخصية الحافظ العقدية من خلال النظر

في التراجم التي ساقها، وظهر عدم تساهله فيما يمسُّ العقيدة وأهلها، مع التزام وصف أهلها بما يناسبهم حيالها، مما أحسب أنه أثر واضح من آثار مكانة الحافظ العقدية لدى أهل السنة والجماعة، أهل الحديث.

وهو ــ رحمه الله ــ يسمى العقيدة والتوحيد في كتابه هذا ــ على جهة الخصوص ــ بالسنة، كما كان يسمِّيها السلف. فتجده يقول في التراجم: له قصيدة في السنة، ويعنى بها الاعتقاد، أو يقول: كان شديدًا في السنة أي متمسكًا بها، مظهرًا لها.

هذا وإن هذا الأثر له شواهد يمثلها ما يلي:

١ ــ أنه يعتني بذكر فوائد المترجم له مما يتعلق بالعقيدة، فإنه يحرص على إيراده ولو جمل منه، كما في ترجمة الوزير ابن هبيرة ٣/ ٢٦٤ وما بعدها حيث قال: «وله من الحكم والمواعظ والكلام في أصول السنة، وذم من خالفها، شيء كثير أيضًا، ونذكر هنا بعض ذلك إن شاء الله تعالى». اهـ. ثم ذكر ما استلطفه من ذلك، ويدل على رسوخ فهم الوزير وسلامة معتقده، ونقل عنه الحافظ إلى ص ٢٧٧ فانظر فيه إن شئت!

٢ ــ كان رحمه الله يعقب على ما ينقله من القضايا الموهمة بما يرفع إيهامها، ويزيل إشكالها خصوصًا في العقيدة ففي ترجمة شيخ الإسلام أبي إسماعيل الهروي الأنصاري ٣/ ٢، أورد قول أبي إسماعيل الهروي: «إن السلطان محمود بن سبكتكين لما دخل الرَّي قتل الباطنية، ومنع سائر الفرق من الكلام على المنابر غير أبي حاتم (هو ابن خاموش حافظ الرَّي). وكان من دخل الري من سائر

الفرق يعرض اعتقاده عليه، فإن رضيه أذن له في الكلام على الناس، وإلاَّ منعه، فلما قربت من الري كان معي في الطريق رجل من أهلها، فسألني عن مذهبـي؟ فقلت (القائل هو الهروي): أنا حنبلي. فقال: مذهب ما سمعت به[1]، وهذه بدعة، وأخذ بثوبـي وقال: لا أفارقك حتى أذهب بك إلى الشيخ أبـي حاتم. فقلت له: خيرة، فإني كنت أتعب إلى أن ألتقي به، فذهب بـي إلى داره. وكان له ذلك اليوم مجلس عظيم.

فقال: أيها الشيخ، هذا الرجل الغريب، سألته عن مذهبه، فذكر مذهبًا لم أسمع به قط، قال: ما قال؟ قال: أنا حنبلي، فقال: دعه!، فكل من لم يكن حنبليًّا فليس بمسلم. فقلت: الرجل كما وصف لي، ولزمته أيامًا وانصرفت». اهـ.

وإنما عنى أبو حاتم: في الأصول، أي: في الاعتقاد وأصول

---

(١) قد يُشكل هذا في خفاء المذهب الحنبلي وعدم شهرته في ذلك الوقت في تلك الجهة، والجواب عنه من وجوه:

(أ) أن هذا الرجل يحكي حال نفسه فقط، فهي قضية عين لا أثر لها في ذلك!

(ب) غلبة المذهب الأشعري في تلك الجهة من بلاد المشرق وما وراء النهر، بعد صولة المعتزلة على الأشاعرة حيث لازم ذلك خفاء مناوئيهم وهم بالخصوص الحنابلة السلفية، كيف والهروي نفسه يقول: عرضت على السيف خمس مرات لا يقال لي ارجع عن مذهبك، ولكن اسكت عمن خالفك!

(ج) غلبة المذهب الحنفي بالخصوص، ثم المذهب الشافعي في تلك النواحي غلبة ظاهرة.

(د) ربما أن مذهب الحنابلة كان له اسم غير هذا، اشتهر به هناك: كأهل الحديث. . .

السنة، إذ كل من ليس على مذهب أحمد فيها، فليس على مذهب السلف الصالح من الرسول ﷺ وصحابته وتابعيهم بإحسان.

أما كون المراد المذهب الفقهي والاجتهادي فليس بمراد هنا أصلاً، بل ليس بمتصور في ديننا أنه من لم يكن حنبليًّا في الفروع ليس مسلمًا، وهذا معلوم بالضرورة من كلام أبـي حاتم وسياق القصَّة، ونظير هذا انظر إلى ما ذكره الصرصري عن شيخه أنه سأل عبد القادر الجيلي المعروف بالجيلاني: «هل كان لله وليٌّ على غير اعتقاد أحمد بن حنبل؟ فقال: ما كان ولا يكون». اهـ. من الذيل ٣/ ٢٩٦.

٣ ـ ومن شواهد عنايته بالدفاع عن العقيدة وإعزازها أنه رحمه الله يورد في تراجمه عن العلماء ما قالوه في الدفاع عن السنة ضد المبتدعة من الرافضة والمعتزلة والجهمية والمؤولة الصفاتية، ونصرة مذهب السلف نثرًا وشعرًا، وكذا ثناءهم على الأئمة أهل الحديث وتأييدهم فيما فتنوا به كالإمام أحمد بن حنبل في فتنة القول بخلق القرآن، كما نقله في ترجمة الشيخ أحمد بن علي المقرىء الصوفي المؤدب رقم (٢٢) في ٤٦ ـ ٤٨ وقد كان شافعيًّا أشعريًّا فتحول إلى الحنبلية السُّنية وقال في ذلك قصيدة ميمية عرَّض فيها باعتقاده وإيمانه في مسائل العقيدة، نقل ابن رجب منها جملاً عديدة حتى أضحت ثلثي الترجمة.

ومما في هذا، الاعتزاز بالانتساب إلى السنة وإمامها الإمام أحمد بن حنبل، وضدها التعريض بالمبتدعة وكبارهم.

٤ ـ الحافظ ابن رجب يُلْحظ عليه اهتمامه ببيان جانب الدِّيانة

والتقوى والصلاح، وصفاء عقيدة وسلامة المترجمين في المنهج والسلوك، ويذكر في تراجمهم ما يؤيد هذا ويؤكده من سنتهم وزهدهم وتواضعهم، وعنايتهم بنشر العقيدة والتصريح بها ــ ولو خالفت عامة الموجودين أو السلطان ومراسيمه ــ كذا الحرص على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على ما قد يجره ــ كما في ترجمة الشريف ابن أبـي موسى العباسي عبد الخالق بن عيسى (٤٧٠هـ) برقم (١١) في ٣/ ١٦، وما بعدها، فمما جاء في ذلك أنه: «كان عالمًا بالفرائض، وأحكام القرآن والأصول، وكان شديد القول واللسان على أهل البدع، ولم تزل كلمته عالية عليهم ولا يردُّ يده عنهم أحد، وانتهى إليه في وقته الرحلة لطلب مذهب الإمام أحمد.

وكان معظمًا عند الخاصة والعامة، زاهدًا في الدنيا إلى الغاية، قائمًا في إنكار المنكرات بيده ولسانه مجتهدًا في ذلك.

وكذلك أنكر الشريف أبو جعفر على ابن عقيل تردده إلى ابن الوليد ــ من المعتزلة ــ وغيره فاختفى مدة ثم تاب ــ أي ابن عقيل ــ وأظهر توبته، وسنذكر مضمون ذلك في ترجمة ابن عقيل إن شاء الله[1].

---

(١) انظر ترجمة ابن عقيل برقم ٦٦ في ٣/ ١٤٢ ــ ١٦٣، ومضمون توبته في ص ١٤٤ وما بعدها، حيث ذكر إنكار الشريف أبـي جعفر عليه هناك. وتوبة ابن عقيل هذه طبعت مستقلة في رسالته «رسائل في القرآن وإثبات الحرف والصوت ردًا على الأشاعرة» طبعة المستشرق جورج مقدسي في مجلة المعهد الفرنسي رقم ٢٤ (٥٥ ــ ٩٦) ونشر أيضًا رسالة ابن قدامة من تحريم النظر في علمي علم الكلام والجدل، وأورد كلامًا طويلاً في توبة ابن عقيل، نشره سنة ١٩٥٦م. وقد أجمل =

وآخر ذلك كله: فتنة ابن القشيري[1]، قام فيها الشريف قيامًا كليًّا

= شيخ الإسلام ابن تيمية حال ابن عقيل بقوله من المجموع ٤/ ١٦٤ «. . . لكن ابن عقيل الغالب عليه إذا خرج عن السنة أن يميل إلى التجهم والاعتزال في أول أمره، بخلاف آخر ما كان عليه، فقد خرج إلى السنة المحضة». اهـ.

(١) أشار ابن رجب إلى فتنة ابن القشيري في ٣/ ١٩ وما بعدها، ومما قال فيها: إن أبا نصر بن القشيري ــ سيأتي التعريف به ــ ورد بغداد سنة ٤٦٩هـ وجلس في النظامية، وأخذ يذم الحنابلة وينسبهم إلى التجسيم، وكان المتعصب له أبو سعد الصوفي، ومال إلى نصرة أبـي إسحاق الشيرازي وكتب إلى نظام الملك الوزير يشكو الحنابلة ويسأله المعونة، فاتفق جماعة من أتباعه على الهجوم على الشريف أبـي جعفر ــ شيخ الحنابلة ــ في مسجده والإيقاع به، فرتب الشريف جماعة أعدهم لرد خصومه إن وقعت، فلما وصل أولئك إلى باب المسجد رماهم هؤلاء بالآجر، فوقعت الفتنة، وقتل من أولئك رجل من العامة. . . وأصل هذه الفتنة ما بين الحنابلة والأشاعرة من الخلاف خصوصًا في صفات الله عز وجل، ومسألة كلام الله، والتي ما زالت تتطور منذ كتب المعتزلة وخصوصًا في القرنين الخامس والسادس فكثرت تصانيف كُلٍّ فيها، وأفرد لها الحنابلة تصانيف مشهورة أكثرها لا زال مخطوطًا. منها الرسالة الواضحة في الرد عليهم للشيخ عبد الوهاب بن الحنبلي (٥٣٧هـ) ــ والتي قيد الطبع ــ ، مع رسالة أبيه شيخ المذهب وناشره في الشام الشيخ عبد الواحد بن محمد الشيرازي الحنبلي (٤٨٦هـ). وانظر في فتنة ابنه القشيري، التمهيد من كتاب ابن الحنبلي وكتاب الرسالة الواضحة حيث بسطت الفتنة نارها.

أما أبو نصر فهو عبد الرحيم بن أبـي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري إمام الشافعية والأشعرية، ولذا عرف بابن القشيري (توفي سنة ٥١٤هـ) فهو تلميذ أبيه، وإمام الحرمين الجويني.

قال الذهبـي في السير ١٩/ ٤٢٥: فوعظ ببغداد وبالغ في التعصب للأشاعرة والغض من الحنابلة، فقامت الفتنة على ساق واشتد الخطب. . .

ومما قال أبو نصر بن القشيري في مدى تعصبه للأشعرية: =

ومات في عقبها.

٥ ــ والحافظ يُصدِّرُ من محامد المترجم له ما يُبيِّن مناقبه وديانته وجهوده في إعزاز الدين وأهله ومن ذلك. أنه: أمَّارٌ بالمعروف نهَّاءٌ عن المنكر، قوَّالٌ للحق ممن لا تأخذه في الله لومة لائم ــ كما في رقم (٥٢) في ٣/ ١١٠ ــ ويذكر عن مترجمه قوته في السنة وهي العقيدة، وإذ قال عن أحد أنه كان شديدًا في السنة فلا يعني التشدد المذموم شرعًا وعرفًا، بل يريد صلابته فيها، وتمسكه بها، وصبره على ما يلقاه في سبيلها كما في ٣/ ١٧٧ و ٣/ ٢٠٩، وأنه من المحامين عن السنة المدافعين عنها.

ويعتني بذكر انتماء الرجل المترجم له إلى أهل السنة والجماعة أو من أتباع الإمام أحمد (عقيدة وفروعًا) وانظر ترجمة أبي منصور الجواليقي شيخ أهل اللغة (٥٤٠هـ) برقم ٩٣ في ٣/ ٢٠٥. وانظر أثرها، ترجمته للموفق ابن قدامة ٢/ ١٤١ وتقريره عقيدته.

وكما في ترجمة يحيى بن يوسف الصرصري (٦٥٦هـ) برقم (٣٦٩) في ٤/ ٢٦٢، وما بعدها، وانظر أيضًا من ترجمة العطار برقم (١٤٨) في ٣/ ٣٢٧. وكذا في ترجمة عبد الغني المقدسي الحافظ صاحب العمدة في ٢/ ١٢ وما بعدها.

= شيئان من يعذلني فيهما ... فهو على التحقيق مني بري
حب أبي بكر أمام النفس ... ثم اعتقادي مذهب الأشعري

نقلها السُّبكي في طبقات الشافعية في أثناء ترجمته ٧/ ١٥٩ ــ ١٦٦ والبيتان في ص ١٦٣ منه.

٦ ــ ومن آثار العقيدة وحبها في قلبه عنايته بذكر منافحة العلماء المترجمين ــ لا سيما البازين منهم ــ عن العقيدة ضد المبتدعة والزنادقة، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، ومناصحتهم الناس والولاة في شأنها، كما ترجمه ابن عقيل ١/ ١٤٨ ــ ١٥٠ في مناصحته السلطان جلال الدولة ملكشاه عن الباطنية وبيان زيغهم وزندقتهم.

هذا مع أمور أخرى مماثلة تدل على قوة ابن عقيل في إنكار المنكر، ولو على من كان! انظرها قبل ففيها هذا.

٧ ــ ومن آثار العقيدة في منهجه: استغلاله للحوادث والمناسبات التي تكون علامة على تعظيم السنة بتعظيم أهلها ضد أعدائهم أهل الأهواء والبدع، ومن ذلك جنائز أهل السنة، وارتفاع أحد علمائهم في الوعظ، واعتلاؤه كرسي التعليم والإرشاد، كما في ترجمة أبي الحسن بن الفاعوس (٥٢١هـ) برقم (٧٤) في ٣/ ١٧٥ ــ ١٧٦، ففي يوم وفاته كان يومًا مشهودًا غلقت فيه أسواق بغداد عاصمة الإسلام، وأن الناس كانوا يصيحون في جنازته، هذا يوم سنِّي حنبلي لا قشيري ولا أشعري.

وكذا ما نقله في وفاة وجنازة شيخ الإسلام ابن تيمية في ٤/ ٤٠٧ وقال «... وظهر بذلك قول الإمام أحمد: بيننا وبين أهل البدع يوم الجنائز» هذا مع ما يسوقه مما وقع للمترجمين من الكرامات شاهدة لهم على فضلهم وصلاحهم، ومثنيًا بها عليهم، كما في ترجمته لابن الخشاب (٥٦٧هـ) ٣/ ٣٢٢ (٣٢٣)، وترجمة عبد الغني المقدسي برقم (٢١٤) في ٤/ ١٥ وما بعدها. وانظر ترجمته للموفق

ابن قدامة برقم (٢٧٢) في ٤/ ١٣٧ وما بعدها، ومعلوم أن أهل السنة والجماعة يعتقدون بوقوع الكرامات بعباد الله الصالحين، وأنها من الخوارق للعادات التي يجريها الله عليهم بما لا يدَّعون بها صلاحًا أو منزلة فوق منزلتهم. وقد صاغ عقيدة أهل السنة فيها الشيخُ ابنُ تيمية فقال في آخر الواسطية:

«ومن أصول أهل السنة التصديق بكرامات الأولياء، وما يجري الله على أيديهم من الخوارق في أنواع العلوم والمكاشفات وأنواع القدرة والتأثيرات، والمأثور عن سالف الأمم في سورة الكهف وغيرها وعن صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين وسائر قرون الأمة وهي موجودة فيها إلى يوم القيامة...».

وفي سوق الشيخ لتلك الكرامات لهؤلاء العلماء رد ضمني على نفاتها من المعتزلة ومن تبعهم من الأشاعرة، ورد أيضًا على الغلاة في الكرامات والمكاشفات من الصوفية والرافضة في حق أئمتهم وعلمائهم.

٨ ـ وللحافظ مسلك مهم في تعامله مع العلماء، ومن أثر عنهم بدع أو مخالفة عن منهج السنة، وكانوا ممن تابوا أو رجعوا أو خطأهم مغفور بجانب فضلهم وجهادهم، حيث يذكرهم بالدعاء لهم بالمغفرة من الله والرحمة والمسامحة والعفو من خلال التنبيه على مخالفاتهم أو بدعهم. وهو والله منهج ينبىء عن نصحه الصادق للأمة ولهم، والمحبة للمسلمين وعلمائهم.

٩ ـ ومن منهج الحافظ ابن رجب: إحسانه الظن بالعلماء، وحمل ما يصدر عنهم على أحسن محامله، استصحابًا للبراءة الأصلية، وتغليبًا لجانب الديانة والسلامة، ولما يتطرق إلى تفسير قوله الظاهر من المخالفات الشرعية في المعتقد والعمل.

ففي ترجمة الشيخ أبـي عمرو عثمان بن مرزوق (٥٦٤هـ) والذي تنتسب إليه طائفة المرازقة من الصوفية بمصر، برقم ١٣٩ في ٣/ ٣٠٨ حيث نقل عن الشيخ قوله: «يجيء أسد الدين شيركوه إلى هذه البلاد ـ مصر ـ ويروح ولا يحصل له شيء، ثم يعود يجيء ويروح ولا يأخذ البلد، ثم يجيء فيأخذ. . . فيملك مصر، فجرى الأمر كما ذكر.

فقلت: يا سيدي من أين لك هذا؟ فقال: والله ـ يا ولدي ـ ما أعلم الغيب، وإنما لي عادة أن أرى رسول الله ﷺ، أراه في بعض الجمع فيخبرني.

قال الحافظ: قلت، لعله أراد في المنام». اهـ.

ولا بد من هذا التوجيه، وإلاَّ لأدَّى إلى الجنوح لمعتقد جهلة الصوفية في حضرة الرسول ﷺ وما إليها. . .

ولا شك أن هذا بمجرده من عدم إتباع الظن بكل ما يؤدي إليه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾ [الحجرات: ١٢].

وكذا من منهجه: الحكم على المسائل محل الخلاف بين العلماء بما عليه هو من معتقد السلف الصالح كما في قضية أفعال العباد في ص ٣٠٩ من ترجمة الشيخ عثمان بن مرزوق.

وللموضوع بقية في نقده وحكمه على أحوال بعض العلماء.

١٠ ــ أيضًا من آثار العقيدة عليه، أنه ينقل من شعر المترجم له ونظمه ما يخدم هذا الغرض، ويدعو إليه، حيث يورد ــ بل ينتقي ــ من شعره في السنة والدعوة إليها والثناء على أئمة السلف. بل وذكر اعتقاد المترجمين الذي نظموه في ذلك، يحرص على ذكره في تراجمهم منبهًا به على عقائدهم. هذا النمط له شواهد كثيرة جدًا وقد انتقيت من عيون ما في المجلد الأول من الذيل بعض الشواهد كما يلي:

عقيدة الشيخ أحمد بن علي بن عبد الله المقرىء (٤٧٦هـ) في ترجمته برقم٢٢، ٣/ ٤٦ ــ ٤٨ ومما جاء فيها ــ وهي قصيدة عينية ــ:

حقيقة إيماني أقول لتسمعوا ... لعلي به يومًا إلى الله أرجع
بأن لا إله غير ذي الطَّول وحده ... تعالى بلا مثل له الخلق خُضَّع

إلى آخرها.

وأيضًا ما ذكره عن شيخ الإسلام الهروي الأنصاري (٤٨١هـ) برقم ٢٧ في ٣/ ٥٢ وما بعدها، منها قصيدته النونية التي ذكر فيها أصول السنة، ومدح فيها الإمام أحمد، ومن آخر ما نقله منها ابن رجب قوله:

أنا حنبلي ما حييت وإن أمت ... فوصيتي ذاكم إلى إخواني
إذ دينه ديني وديني دينه ... ما كنت إمّعة له دينان

وكذا ما أورده في ترجمة المحدث، جعفر بن أحمد السراج (٥٠٠هـ) برقم ٤٧ في ٣/ ١٠٠ وما بعدها، فذكر من ذلك قوله في مدح أحمد على الصبر في فتنة خلق القرآن:

دَعَوْهُ إلى خلق القرآن كما دَعَوْا		سـواه فلـم يسمـع ولـم يتـأول
ولا ردّه حزب السياط وسجنه		عن السنة الغراء والمذهب الجلي
ولما يزدهم في السياق تنوشه		فشلت يمين الضارب المتبتل
على قوله القرآن وليشهد الورى		كلامك يا ربُّ الورى كيفما تلي

إلى آخر ما نقله منها وهي قصيدة لامية جميلة.

وأيضًا قصيدة نونية وغيرها لابن الخشاب (٥٦٧) برقم ١٤٥ في ٣/ ٣٢٢ وما بعدها، ومن آخر ما نقل قوله:

واستـنَّ بـالسلـف المـاضـي وكـن رجـلاً
مبـــرأ مـــن دواعـــي الغـــي والفتـــن
ودع مـــذاهـــب قـــوم أحـــدثـــت إثمـــا
منهـــا خـــلافٌ علـــى الآثـــار والسنـــن

ومثله قصيدة المحدث عبد المغيث بن زهير الحربـي (٥٨٣هـ) في ترجمته برقم ١٧٤، ٣٧/ ٣٥٨ في السنة، ذكر الحافظ مطلعها في آخر ترجمته ومنها:

هل أنت إلا كآحاد الذين مضوا		بحسرة الفوت لما استيقن الخبرا
وأنت تحرص فيما أنت تاركه		إن كنت تعقل يومًا حقق النظرا

وأيضًا ذكر أبياتًا من قصائد لأبـي الفتح نصر بن منصور النميري (٥٨٨هـ) ترجمته برقم ١٨٠ في ٣/ ٣٧٥، وما بعدها، فقد ذكر الحافظ أن له ديوان شعر حدَّث به، وكان فصيح القول، حسنَ المعان، ذا دين وصلاح وتصلُّبٍ في السنة، فمن عقيدته التي سئل عنها فأنشد:

أحـب عليًّـا والبتـول وولـدهـا ... ولا أجحد الشيخين حق التقدمِ
وأبرأ ممن نال عثمان بالأذى ... كمـا أبـرأ مـن ولاء ابـن ملجـمِ
ويعجبني أهلُ الحديث لصدقهم ... فلست إلى قوم سواهم بمنتمي

وغير هذا كثير، وهو كله ينبـي عن محبة للعقيدة السلفية، وإشادة بها، وعناية بسوق محاسن المترجمين، وعقائدهم على السنة من أول ذلك. وهذا بلا شك من آثار عقيدته، ومحبته لعقيدة السلف ويقينه بها ودعوته إليها رحمهم الله وأعلى ذكرهم.

* * *

إشادة الحافظ ابن رجب
بعلماء أهل السنَّة ومحققيهم

وهذا كثيرًا جدًّا مثبوت في أكثر التراجم ممن لهم يد طُولى في بثّ السنَّة والدعوة إليها والمنافحة عنها. وهو يبيِّن أيضًا عن أثر العقيدة التي يعتقدها الحافظ ابن رجب، وينتسب إليها، ومنهجه الذي انتهجه؛ لأنه لن يثني أو يشيد بأحد من العلماء في عقيدته إلَّا بمن توافق معه فيها، واتَّحد المشرب بها عندهما، وتقرر لديه وجوب ذلك بيقين.

ومن إشادته بعلماء السلف أختار نماذج متنوعة تدل عليه، وإلَّا فهو ـ كما أسلفت ـ من الكثرة بمكان يصعب حصره، وفي التمثيل غنية عن كثرة النقل والتطويل.

ـ فذكر الحافظ في ترجمة الشيخ الشهير عبد القادر الجيلي ـ المشهور عند الناس بالجيلاني[1] ـ (٤٩٠ ـ ٥٦١هـ) برقم (١٣٤) في ٣/ ٢٩٠ ـ ٣٠١.

فقال بعد أن وقف على بعض الشطحات مما تُنقل عنه مما سيأتي لها بيان في ص ٢٩٦.

---

(١) وهما نسبتان إلى مكان ولادته كيل أو كيلان، والمتقدِّمون كالذهبي والحافظ ابن رجب وابن الجوزي ينسبونه إلى كيل، وتُقلَب الكاف جيمًا عندها فتكون: الجيلي!

«وللشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى كلام حسن في التوحيد، والصفات والقدر، وفي علوم المعرفة موافق للسنَّة.

وله كتاب «الغنية لطالبي طريق الحق»[1]، وهو معروف.. وكان متمسِّكًا في مسائل الصفات والقدر، ونحوهما بالسنة، بالغًا في الردِّ على من خالفهما.

قال في كتابه «الغنية» المشهور: وهو بجهة العلو، مستوٍ على العرش، محتوٍ على الملك، محيط علمه بالأشياء ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝﴾ [السجدة: ٥]، ولا يجوز وصفه بأنه في كل مكان، بل يقال: إنه في السماء على العرش كما قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾ [طه: ٥]، وذكر آيات وأحاديث إلى أن قال: وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل، وأنه استواء الذات على العرش.

قال: وكونه على العرش مذكور في كل كتاب أنزل على كل نبي أرسل، بلا كيف.

وذكر كلامًا طويلاً، وذكر نحو هذا في سائر الصفات...». اهـ.

ـ ومما تكرَّر كثيرًا في تمييزه في الثناء لعلماء أهل السنَّة تضمين مناقبهم الأوصاف الدالة على هذه الإشادة، نحو:

ناصر السنَّة، إمام أهل الحديث، ... كان شديدًا في السنَّة، صاحب سنَّة، موافق للسنَّة، متمسِّكًا بالسنَّة على قانون السلف، شديد

---

(١) في الغنية جملٌ مستدركة، استدركها شيخ الإسلام ابن تيمية في مواضع من كتبه.

القيام بالسنَّة والذَّبّ عنها والقمع لمن خالفها، . . . كما في ترجمة عبد الغني المقدسي ٤/ ٩ و ٣/ ٥١ وغيرها.

ـ ومن مواطن الإشادة بهم: عند الفتن والمحن التي تجري عليهم بسبب اعتقادهم وطريقتهم فيه.

كما وقع للشريف أبـي جعفر ابن أبـي موسى، إمام الحنابلة في زمنه، في فتنة ابن القشيري، ومرَّ طرفٌ منها. وانظرها في ترجمته برقم (١١) في ٣/ ١٩ ـ ٢٢.

وأطال في هذا الباب فيما جرى لشيخ الإسلام أبـي إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي، في ترجمته برقم (٢٧) في ٣/ ٥٥ وما بعدها.

فذكر أنه كان شديد الانتصار لمذهب أحمد وتعظيمه، وجرت له بسبب عقيدته محن عظيمة، فقال في ص ٥٦:

«وقد جرت لشيخ الإسلام محن في عمره، وشرد عن وطنه مدَّة».

وذكر ابن رجب قصيدته المشهورة بالنونية في أصول السنَّة، ومدح أحمد وأصحابه، ثم روى بإسناده طرفًا منها، عشرة أبيات، ونقل عنه: أنه عرض على السيف خمس مرات، لا يُقال له: ارجع عن مذهبك، لكن يقال له: اسكت عمن خالفك، فلا يسكت!

وقال في ترجمة شيخ الإسلام تقيِّ الدِّين أحمد بن تيمية (٦٦١ ـ ٧٢٨هـ) برقم (٤٩٥) في ٤/ ٣٩٦.

أما محن الشيخ فكثيرة، وشرحها يطول جدًّا. . . اهـ، وذكر طرفًا منها في ٣٩٦ ـ ٤٠٣.

وانظر أيضًا في ترجمة شيخ الحافظ ابن رجب أبـي عبد الله ابن قيِّم الجوزية برقم (٥٥١) في ٤/ ٤٤٧ وما بعدها.

وأيضًا ترجمة الموفق أبـي عبد الله ابن قدامة ٤/ ١٣٣ ـ ١٤٨، وترجمته لعبد الغني المقدسي في أول المجلد الرابع، وفي ترجمة أبـي الوفاء ابن عقيل وأوبته إلى السنَّة في ٣/ ١٤٥ وما بعدها، وفي ثنايا ترجمة ابن الجوزي في ٣/ ٤٠٠ وما بعدها، وترجمة ابن الزاغوني وابن حامد وعبد القادر الجيلاني وغيرهم كثير.

ـ والإشادة بأهل السنَّة، حتى المغمورين وغير المشهورين بالعلم والبروز فيه في مقابل الأكابر، إذا كان ذلك في سبيل تحقيق المعروف وإنكار المنكر، أو الدفاع عن العقيدة وحماية جنابها.

ومثل هذا في ترجمة الحافظ ابن رجب لإسحاق بن أحمد بن غانم العلثي (٦٣٤هـ)، حيث أرسل رسالة إلى أبـي الفرج ابن الجوزي منكرًا عليه مسلكه في الاعتقاد، داعيًا له للرجوع إلى مناط وعظه وتديّنه وعقيدة إخوانه من الحنابلة إلى عقيدة أهل السنَّة.

وإليك قول جماعة من العلماء مثنين عليه، ثم رسالته التي قيدها الحافظ ابن رجب في ترجمته إعزازًا له وثناءً بها عليه، فقال في ذيل الطبقات ٢/ ٢٠٥ وما بعدها:

«قال ناصح الدين ابن الحنبلي ـ وقرأته بخطّه ـ هو اليوم شيخ

العراق، والقائم بالإنكار على الفقهاء والفقراء وغيرهم فيما ترخَّصوا فيه.

وقال المنذري: قيل: إنه لم يكن في زمانه أكثر إنكارًا للمنكر منه، وحبس على ذلك مدة.

قلت: وله وسائل كثيرة إلى الأعيان بالإنكار عليهم والنصح لهم. ورأيت بخطه كتابًا أرسله إلى الخليفة ببغداد. وأرسل أيضًا إلى الشيخ علي بن إدريس الزاهد ـ صاحب الشيخ عبد القادر ـ رسالة طويلة، تتضمَّن إنكار الرقص والسماع والمبالغة في ذلك.

وله في معنى ذلك عدة رسائل إلى غير واحد.

وأرسل رسالة طويلة إلى الشيخ أبـي الفرج ابن الجوزي بالإنكار عليه فيما يقع في كلامه من الميل إلى أهل التأويل يقول فيها:

«من عبيد الله إسحاق بن أحمد بن محمد بن غانم العلثي، إلى عبد الرحمن بن الجوزي، حمانا الله وإياه من الاستكبار عن قبول النصائح، ووفقنا وإيّاه لاتِّباع السلف الصالح، وبصرنا بالسنَّة السنية، ولا حرمنا الاهتداء باللفظات النبوية، وأعاذنا من الابتداع في الشريعة المحمدية، فلا حاجة إلى ذلك، فقد تركنا على بيضاء نقيَّة، وأكمل الله لنا الدين، وأغنانا عن آراء المتنطِّعين، ففي كتاب الله وسنَّة رسوله مقنع لكل من رغب أو رهب، ورزقنا الله الاعتقاد السليم، ولا حرمنا التوفيق، فإذا حرمه العبد لم ينفع التعليم.

وعرفنا أقدار نفوسنا، وهدانا الصراط المستقيم، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله العليّ العظيم، وفوق كل ذي علم عليم.

وبعد حمد الله سبحانه، والصلاة على رسوله: فلا يخفى أنَّ: «**الدِّين النصيحة**» خصوصًا للمولى الكريم، والرب الرحيم. فكم قد زلَّ قلم، وعثر قدم، وزلق متكلم، ولا يحيطون به علمًا. قال عزَّ من قائل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨﴾ [الحج: ٨].

وأنت يا عبد الرحمن، فما يزال يبلغ عنك ويسمع منك، ويشاهد في كتبك المسموعة عليك، تذكر كثيرًا ممن كان قبلك من العلماء بالخطأ، اعتقادًا منك: أنك تصدع بالحق من غير محاباة، ولا بد من الجريان في ميدان النصح: إما لتنتفع إن هداك الله، وإما لتركيب حجَّة الله عليك، ويحذِّر الناس قولك الفاسد، ولا يغرك كثرة اطِّلاعك على العلوم، فرُبَّ مبلَّغ أوعى من سامع، ورُبَّ حامل فقه لا فقه له، ورب بحر كَدِر ونهر صاف، فلستَ بأعلم من الرسول، حيث قال له الإمام عمر: «أتصلِّي على ابن أُبَيٍّ؟ أنزل القرآن: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم﴾» [التوبة: ٨٤]، ولو كان لا ينكر من قلَّ علمه على من كثر علمه إذًا لتعطل الأمر بالمعروف، وصرنا كبني إسرائيل حيث قال تعالى: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ﴾ [المائدة: ٧٩]، بل ينكر المفضول على الفاضل وينكر الفاجر على الولي، على تقدير معرفة الولي، وإلا فابن التنقا ليطلب وابن السمندل ليجلب» إلى أن قال:

«واعلم أنه قد كثر النكير عليك من العلماء والفضلاء، والأخيار في الآفاق، بمقالتك الفاسدة في الصفات. وقد أبانوا وَهاءَ مقالتك، وحكوا عنك أنك أبيت النصيحة، فعندك من الأقوال التي لا تليق بالسنَّة

ما يضيق الوقت عن ذكرها، فذُكر عنك: أنك ذكرت من الملائكة المقرَّبين، الكرام الكاتبين، فصلاً زعمت أنه مواعظ، وهو تشقيق وتفهيق، وتكلف بشع، خلا أحاديث رسول الله ﷺ، وكلام السلف الصالح الذي لا يخالف سنة، فعمدت وجعلتها مناظرة معهم. فمن أذن لك في ذلك؟ وهم مستغفرون للذين آمنوا، ولا يستكبرون عن عبادة الله، وقد قرن شهادته بشهادتهم قبل أولي العلم، وما علينا كان الآدمي أفضل منهم أم لا، فتلك مسألة أخرى.

فشرعت تقول: إذا ثارت نار الحسد فمن يطفيها؟ وفي الغيبة ما فيها، مع كلام غث. أليس منّا فلان؟ ومنّا فلان؟ ومنّا الأنبياء والأولياء؟

من فعل هذا من السلف قبلك؟ ولو قال لك قائل من الملائكة: أليس منكم فرعون وهامان؟ أليس منكم من ادَّعى الربوبية؟

فعمَّن أخذت هذه الأقوال المحدثة، والعبارات المزوقة، التي لا طائل تحتها وقد شغلت بها الناس عن الاشتغال بالعلم النافع. أحدُهم قد أُنسي القرآن وهو يعيد فضل الملائكة ومناظرتهم، ويتكلَّم به في الآفاق.

فأين الوعظ والتذكير من هذه الأقوال الشنيعة البشعة؟

ثم تعرَّضت لصفات الخالق تعالى، كأنها صدرت لا من صدر سكن فيه احتشام العلي العظيم، ولا أملاها قلب مليء بالهيبة والتعظيم، بل من واقعات النفوس البهرجية الزيوف. وزعمت أن طائفة من أهل السنَّة والأخيار تلقّوها وما فهموا. وحاشاهم من ذلك؛ بل كفوا عن الثرثرة والتشدُّق، لا عجزًا ــ بحمد الله ــ عن الجدال والخصام،

ولا جهلاً بطرق الكلام، وإنما أمسكوا عن الخوض في ذلك عن علم ودراية، لا عن جهل وعماية.

والعجب ممن ينتحل مذهب السلف، ولا يرى الخوض في الكلام. ثم يقدم على تفسير ما لم يره أوَّلاً، ويقول: إذا قلنا كذا أدَّى إلى كذا، ويقيس ما ثبت من صفات الخالق على ما لم يثبت عنده. فهذا الذي نهيتُ عنه. وكيف تنقض عهدك وقولك بقول فلان وفلان من المتأخِّرين؟ فلا تشمت بنا المبتدعة فيقولون: تنسبوننا إلى البدع وأنتم أكثر بدعًا منّا، أفلا تنظرون إلى قول من اعتقدتم سلامة عقده، وتثبتون معرفته وفضله؟ كيف أقول ما لم يقل، فكيف يجوز أن تتبع المتكلِّمين في آرائهم، وتخوض مع الخائضين فيما خاضوا فيه، ثم ننكر عليهم؟ هذا من العجب العجيب.

ولو أنَّ مخلوقًا وصف مخلوقًا مثله بصفات من غير رؤية ولا خبر صادق، لكان كاذبًا في إخباره، فكيف تصفون الله سبحانه بشيء مما وقفتم على صحته، بل بالظنون والواقعات، وتنفون الصفات التي رضيها لنفسه، وأخبر بها رسوله بنقل الثقات الأثبات، بيحتمل، ويُحتمل.

ثم لك في الكتاب الذي أسميته «الكشف لمشكل الصحيحين» مقالات عجيبة، تارةً تحكيها عن الخطابي وغيره من المتأخِّرين، اطَّلع هؤلاء على الغيب؟ وأنتم تقولون: لا يجوز التقليد في هذا، ثم ذكره فلان، ذكره ابن عقيل، فنريد الدليل من الذاكر أيضًا، فهو مجرد دعوى، وليس الكلام في الله وصفاته بالهيِّن ليُلقى إلى مجاري الظنون ــ إلى أن قال:

إذا أردت: كان ابن عقيل العالم، وإذا أردت: صار لا يفهم، أوهيت مقالته لما أردت. ثم قال:

وذكرت الكلام المحدث على الحديث، ثم قلت: والذي يقع لي. فبهذا تقدم على الله، وتقول: قال علماؤنا، والذي يقع لي. تتكلَّمون في الله عزَّ وجلّ بواقعاتكم تخبرون عن صفاته؟ ثم ما كفاك حتى قلت: هذا من تحريف بعض الرواة. تحكمًا من غير دليل. وما رويت عن ثقة آخر أنه قال: قد غيَّره الراوي فلا ينبغي بالرواة العدول: أنهم حرفوا، ولو جوَّزتم لهم الرواية بالمعنى، فهم أقرب إلى الإصابة منكم.

وأهل البدع إذًا كلما رويتم حديثًا ينفرون منه، يقولون: يحتمل أنه من تغيير بعض الرواة. فإذا كان المذكور في الصحيح المنقول من تحريف بعض الرواة، فقولكم ورأيكم في هذا يحتمل أنه من رأى بعض الغواة.

وتقول: قد انزعج الخطابي لهذه الألفاظ. فما الذي أزعجه دون غيره؟ ونراك تبني شيئًا ثم تنقضه، وتقول: قد قال فلان وفلان، وتنسب ذلك إلى إمامنا أحمد رضي الله عنه، ومذهبه معروف في السكوت عن مثل هذا، ولا يفسِّره، بل صحح الحديث، ومنع من تأويله.

وكثير ممن أخذ عنك العلم إذا رجع إلى بيته علم بما في عَيبته من العيب، وذمَّ مقالتك وأبطلها.

وقد سمعنا عنك ذلك من أعيان أصحابك المحبوبين عندك، الذين مدحتهم بالعلم، ولا غرض لهم فيك، بل أدوا النصيحة إلى

عباد الله ولك، القول وضدّه منصوران. وكل ذلك بناء على الواقعات والخواطر.

وتدَّعي أن الأصحاب خلطوا في الصفات، فقد قبحت أكثر منهم، وما وسعتك السنَّة.

فاتَّق الله سبحانه. ولا تتكلم فيه برأيك، فهذا خبر غيب، لا يسمع إلا من الرسول المعصوم، فقد نصبتم حربًا للأحاديث الصحيحة. والذين نقلوها نقلوا شرائع الإسلام.

ثم لك قصيدة مسموعة عليك في سائر الآفاق، اعتقدها قوم، وماتوا بخلاف اعتقادك الآن فيما يبلغ عنك، وسمع منك منها:

ولو رأيت النار هبَّت، فعدت ... تحرق أهل البغي والعناد
وكلما ألقي فيها حطمت ... وأهلكته، وهي في ازدياد
فيضع الجبَّار فيها قدمًا ... جلت عن التشبيه بالأجساد
فتنزوي من هيبته، وتمتلي ... فلو سمعت صوتها ينادي
حسبي حسبي، قد كفاني ما أرى ... من هيبة أذهبت اشتداد
فاحذر مقال مبتدع في قوله ... يروم تأويلاً بكل وادي

فكيف هذه الأقوال: وما معناها؟ فإنا نخاف أن تحدث لنا قولاً ثالثًا، فيذهب الاعتقاد الأول باطلاً. لقد آذيت عباد الله وأضللتهم، وصار شغلك نقل الأقوال فحسب.

وابن عقيل سامحه الله، قد حكي عنه: أنه تاب بمحضر من علماء وقته من مثل هذه الأقوال، بمدينة السلام ـ عمَّرها الله بالإسلام

والسنَّة ــ فهو بريء ــ على هذا التقدير ــ مما يوجد بخطه، أو يُنسب إليه، من التأويلات، والأقوال المخالفة للكتاب والسنَّة.

وأنا وافدة الناس والعلماء والحفاظ إليك، فإما أن تنتهي عن هذه المقالات، وتتوب التوبة النصوح، كما تاب غيرك، وإلا كشفوا للناس أمرك، وسيروا ذلك في البلاد وبينوا وجه الأقوال الغثة، وهذا أمر تُشُورِ فيه، وقضى بليل، والأرض لا تخلو من قائم لله بحجة، والجرح لا شك مقدم على التعديل، والله على ما نقول وكيل، وقد أعذر من أنذر.

وإذا تأولت الصفات على اللغة، وسوَّغته لنفسك، وأبيت النصيحة، فليس هو مذهب الإمام الكبير أحمد بن حنبل قدَّس الله روحه، فلا يمكنك الانتساب إليه بهذا، فاختر لنفسك مذهبًا، إن مُكنت من ذلك، وما زال أصحابنا يجهرون بصريح الحق في كل وقت ولو ضُربوا بالسيوف، لا يخافون في الله لومة لائم، ولا يبالون بشناعة مشنع، ولا كذب كاذب، ولهم من الاسم العذب الهني، وتركهم الدُّنيا وإعراضهم عنها اشتغالاً بالآخرة: ما هو معلوم معروف.

ولقد سوَّدت وجوهنا بمقالتك الفاسدة، وانفرادك بنفسك، كأنك جبَّار من الجبابرة، ولا كرامة لك ولا نعمى، ولا نمكنك من الجهر بمخالفة السنَّة، ولو استقبل من الرأي ما استدبر: لم يحك عنك كلام في السهل، ولا في الجبل، ولكن قدَّر الله، وما شاء فعل، بيننا وبينك كتاب الله وسنَّة رسوله، قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، ولم يقل: إلى ابن الجوزي.

وترى كل من أنكر عليك نسبته إلى الجهل، ففضل الله أُوتيته وحدك؟ وإذا جَهَّلت الناس فمن يشهد لك أنَّك عالم؟ ومن أجهل منك؟ حيث لا تصغي إلى نصيحة ناصح؟ وتقول: من كان فلان، ومن كان فلان؟ من الأئمَّة الذين وصل العلم إليك عنهم، من أنت إذًا؟ فلقد استراح من خاف مقام ربه، وأحجم عن الخوض فيما لا يعلم، لئلا يندم.

فانتبه يا مسكين قبل الممات، وحَسِّن القول والعمل، فقد قرب الأجل، لله الأمر من قبل ومن بعد، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم»[1]. اهـ.



(١) من الذيل على طبقات الحنابلة ٢/ ٢٠٥ ــ ٢١٢.

نقده وحكمه
على أحوال بعض العلماء

لمَّا كان من صنَّف فقد استُهدف، كان البحث في سير الناس وتراجمهم وأحوالهم وعلومهم. . . ، وأهم ذلك العلماء مظنة الوقوف على خطأ أو زلل أو نقص؛ لأن الله جبل البشر على النقص والجهل والظلم ولذا كانت مدافعة هذه هي مناط التعبد لله عز وجل، ولم يكتب سبحانه وتعالىٰ العصمة إلاَّ لرسله، وفيما يبلغون عنه من وحيه وشرعه.

ولما كان ما من شرط العالم ألا يخطىء، وكان رد الخطأ على المخطىء سجية العلماء وجادتهم في كل زمان، كانت هذه الخصوصية سمة أمة محمد ﷺ، وهي في عموم قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقبول الحق من قائله ورد خطئه عليه من أولى ما يدخل في مدلول الآية.

هذا ولم يزل العلماء منذ صدر الإسلام مرورًا بالقرون المفضلة ومن بعدهم حتى زماننا هذا يرد بعضهم على بعض، ويتعقب اللاحق السابق ويستدرك عليه، دون نقص في مراتبهم، أو تحقير لشأنهم؛ لأن الغاية عند الجميع واحدة ومحمودة، وهي ابتغاء الحكمة والصواب،

وهي ضالتهم المنشودة، الموصلة بهم إلى مرضاة ربهم ومحبته. ولهم فيه أدب رفيع وخلق كريم يتناسب وما هم بصدده من العلم بالله وبدينه وشريعته وما انطوت عليه مقاصدهم. ولهم نماذج عديدة منها ما هذا البحث بصدده، ومنها مواقف الشيخين ابن تيمية وتلميذه ابن القيم مِنَ العلماء كأبي حامد الغزالي والهروي وعبد القادر الجيلاني في غيرهم.

ولهذا كله ولغيره تعرض الحافظ في هذا الباب الواسع من الكتابة إلى ما انتقد على بعض المترجمين أو تعقبوا فيه، أو هو بنفسه استدركه عليهم، ولحظه في أقوالهم أو أحوالهم.

وهو كله منه نصيحة لهم ولدين الله وللمسلمين... كما في حديث أبي رقية تميم الداري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة**» قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «**لله ــ عز وجلّ ــ ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**» رواه مسلم في صحيحه[1].

هكذا صنع، ولأجل هذه الغاية فعل كما نحسبه ولا نزكيه على الله، وهو أمر لا بد أن يفعله رحمه الله لما يواجهه في مضامين التراجم مما لا يحسن سكوت مثله عليه، لا سيما ــ رحمك الله ــ إن عرفت أن تلك المؤاخذات والملاحظات ــ إن صح التعبير ــ في المسائل العلمية الدينية، مسائل العقيدة والتهمة في سلامتها... ومسائل الفقه المعتمدة

---

(١) أتمنى عليك ــ أخي القارىء ــ قراءة شرح هذا الحديث في جامع العلوم والحكم للحافظ ص ٧٦ ــ ٨١، في الحديث السابع.

على الأدلة والنظر الصحيح، لا هوى نفس أو شهوة رياسة أو تعالم أو سمعة. . . إلخ.

ولا أظنه فعله إلَّا عبادة الله تعالى وقربة لديه في هذا الباب الذي لا يُحسن كلُّ أحد ولوجَه:

وعبادة الرحمن غاية حبه مع ذل عابده هما قطبان
وعليهما فلك العبادة دائر ما دار حتى قامت القطبان
ومداره بالأمر أمر رسوله لا بالهوى والنفس والشيطان

وناحية أخرى أن هذه القضية مما تبين عن أثر العقيدة السنية السلفية ــ التي اعتقدها الحافظ ابن رجب وانتهجها ــ، على عمله، ومنه تراجمه، وهو الموضوع الذي أدندن حوله «منهج الحافظ ابن رجب في العقيدة».

ولأنه يرسم الخطى الواضحة الراسخة للوالجين هذا الباب في الكلام على أخطاء العلماء وزلاتهم قديمًا وحديثًا، ومنهجه وأسلوبه، ولا أحسن من عرض ذلك من خلال منهج إمام ربَّاني فيه، وهم ــ والحمد لله ــ كثير، منهم شيخًا الحافظ ابن رجب: ابن القيم وابن تيمية، عليهم سحائب الرحمة والرضوان.

والحافظ من خلال التراجم يرد على المخالف له في عقيدته خطأه أو ابتداعه في مسائل محددة، أو يناقش غيره فيما تختلف فيه دلالات النصوص الشرعية والفقهية، ووجهات النظر. ومن أهمية النوع الأول طالع ما كتبه الشيخ بكر أبو زيد في «الرد على المخالف».

وشيخنا الحافظ ابن رجب نفسه أبان عن هذا الأصل في شرح الأربعين في آخر كلامه على حديث تميم الداري رضي الله عنه، ص ٨٠ فقال: «ومن أنواع النصح لله تعالى وكتابه ورسوله ــ وهو ما يختص به العلماء ــ رد الأهواء المضلة بالكتاب والسنة على موردها، وبيان دلالتهما على ما يخالف الأهواء كلها. وكذلك رد الأقوال الضعيفة من زلات العلماء، وبيان دلالة الكتاب والسنة على ردها...». اهـ.

وقد بيَّن الحافظُ في رسالته الحافلة «الفرق بين النصيحة والتعيير» عن أن قصد العلماء من الرد على أصحاب المقالات الخاطئة أو الضعيفة أو الأقوال المجانبة الصواب قصد مشروع وأنه في محله؛ لأن المقصود منه في الظاهر رد مقالته الخاطئة لئلا يغترَّ الناس، وإن بالغ في الرد والإنكار كما مانع به جماعةٌ من السلف.

أما في الباطن فإنه ليس مقصودهم من ذلك إلَّا مجرد بيان الحق والدعوة إليه ولئلا يغترَّ الناس بمقالاته أو أغلاطه، وهذا لا ريب أنه مثاب عليه بنيته وداخل في الناصحين لله تعالى ولرسوله ﷺ وأئمة المسلمين وعامتهم.

أما إن كان مراده إظهار عيب من ردَّ عليه وتنقَّصه وتبيَّن جهله وقصوره في العلم ونحو ذلك كان محرمًا... اهـ[1].

ومن الشواهد المبينة لمنهجه رحمه الله في النقد والحكم هاك بعضها من خلال تراجم الذيل:

---

(١) ص ٢٩ ــ ٣٣، فراجعه فإنه مهم جدًا ولم أنقل منه إلَّا المقصود هاهنا وبتصرف.

١ ـ هو ما نسب إلى الشيخ أبـي الوفاء علي بن عقيل (٤٣١ ـ ٥١٣هـ) من الميل إلى المعتزلة، وما أثر عنه من تأويل في صفات الباري سبحانه، ما صاغه الحافظ في أول ترجمته له ٣/ ١٤٤ فقال:

«والأذية التي ذكرها من أصحابه له ـ أي من أصحاب ابن عقيل ـ ، وطلبهم منه هجران جماعة من العلماء، نذكر بعض شرحها، وذلك: أن أصحابنا ـ يعني الحنابلة ـ كانوا ينقمون على ابن عقيل تردده إلى ابن الوليد، وابن التبان، شيخي المعتزلة(١)، وكان يقرأ عليهما في السرِّ علَم الكلام، ويظهر منه في بعض الأحيان نوع انحراف عن السنة، وتأويل لبعض الصفات، ولم يزل فيه ذلك إلى أن مات رحمه الله».

ففي سنة إحدى وستين اطلعوا له على كتب فيها شيء من تعظيم المعتزلة والترحم على الحلاج وغير ذلك.

---

(١) تكرر ذكرهما عدة مرات، وهما من أخص تلاميذ شيخ الاعتزال في وقته أبـي الحسين محمد بن الطيب البصري (٤٣٦هـ) صاحب «المعتمد في أصول الفقه».

وابن الوليد: هو أبو علي محمد بن أحمد بن الوليد الكرخي رأس الاعتزال (٣٩٣ ـ ٤٧٨هـ)، وأبو الوفاء ابن عقيل من خواص الأخذين عنه، وبسببه انحرف، وكان منه وتمنطق، قال الذهبـي: «وما تنفع الآداب والبحث والذكاء، وصاحبها هاوٍ بها في جهنم».

ترجمه من طبقات المعتزلة ١١٨، والميزان ٣/ ٤٦٤، ولسان ٥/ ٥٦، والمغني في الضعفاء ٢/ ٥٤٨، والعبر ٣/ ٢٩١، والكامل ١٠/ ١٤٥، والسير ١٨/ ٤٨٩، وتاريخ الإسلام، حوادث سنة ٤٧٨هـ، والوافي ٢/ ٨٤، والمنتظم لابن الجوزي ٩/ ٢٠.

فمضى ابن عقيل إلى بيت الشريف (ابن أبـي جعفر الحنبلي)، وصالحه وكتب بخطه: يقول علي بن عقيل بن محمد، إني أبرأ إلى الله تعالى من مذاهب مبتدعة الاعتزال وغيره، ومن صحبة أربابه، وتعظيم أصحابه، والترحم على أسلافهم، والتكثر بأخلاقهم، وما كنت علَّقته، ووجد بخطى من مذاهبهم وضلالتهم، فأنا تائب إلى الله تعالى من كتابته، ولا تحل كتابته، ولا قراءته، ولا اعتقاده.

واعتقدت في الحلاج أنه من أهل الدين والزهد والكرامات، ونصرت ذلك في جزء عملته. وأنا تائب إلى الله تعالى منه، وأنه قتل بإجماع علماء عصره، وأصابوا في ذلك وأخطأ هو. ومع ذلك فإني أستغفر الله تعالى وأتوب إليه من مخالطة المعتزلة والمبتدعة وغير ذلك، والترحم عليهم، والتعظيم لهم، فإن ذلك كله حرام. . . » إلخ.

وأرخت التوبة في يوم الأربعاء من ١٠/ ١/ ٤٦٥هـ وقال: «وكان ابن عقيل رحمه الله من أفاضل العالم، وأذكياء بني آدم، مفرط الذكاء، متسع الدائرة في العلوم، وكان خبيرًا بالكلام، مطلعًا على مذاهب المتكلمين، وله بعد ذلك في ذم الكلام وأهله شيء كثير، كما ذكر ابن الجوزي وغيره أنه قال: أنا أقطع أن الصحابة ماتوا، وما عرفوا الجوهر والعَرض. فإن رضيت أن تكون مثلهم فكن، وإن رأيت أن طريقة المتكلمين أولى من طريقة أبـي بكر وعمر فبئس ما رأيت. وذكر عنه أنه قال: لقد بالغت في الأصول طول عمري، ثم عدت القهقرى إلى مذهب المكتب (أي القرآن)، وقد حكى هذا عنه القرطبـي في شرح مسلم، وله من الكلام في السنة والانتصار لها والرد على المتكلمين

شيء كثير. وقد صنف في ذلك مصنفًا»[1]. اهـ.

وانظر وصفه للحنابلة في ص١٥٢، وذكره طريقهم في الزهد والديانة وموقفهم من الصفات والبدع، وأنه لا يعتقد طائفة محقة في الإسلام خالية من البدع غيرهم.

كما كان الحافظ ابن رجب ينصفه، ويذكر حسناته ويلتمس له العذر فيما وقع فيه لا سيما لمثله في العلم والفهم، وبعد رجوعه عن البدعة وتوبته منها، فقال في ص ١٥٧: «وكان يقول: الواجب اتباع الدليل، لا اتباع أحمد. وكان يخونه قلة بضاعته في الحديث، ولو كان متضلعًا من الحديث والآثار ومتوسعًا في علومهما لكملت له أدوات الاجتهاد[2]. وكان اجتماعه بأبي بكر الخطيب ومن كان في وقته من أئمة الحفاظ، كأبي نصر بن ماكولا والحميدي وغيرهما، أنفع له من الاجتماع بابن الوليد وابن التبان، وتركه لمجالسة مثل هؤلاء هو الذي حرمه علمًا نافعًا في الحقيقة ولكن الكمال لله».

فالحافظ ابن رجب رحمه الله لم يسلك في مناقشته مسلك التعنيف أو التشديد عليه؛ لأمرين:

أحدهما: توبته مما نسب إليه بعدما أثبت عليه ورجوعه عن ذلك، وهذه أولاها.

---

(١) ومن ذلك رسالته في القرآن والرد على المتكلمين من الأشاعرة وغيرهم. مخطوط باسم جزء من الأصول من مسألة القرآن.
وله أيضًا رسالة في الثناء على أهل الحديث عنوانها «منهاج أهل الحديث».

(٢) نحو ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره عن أبي حامد الغزالي لما آب عن ضلالاته إلى السنة.

وثانيهما: أنه من كبار العلماء في المذهب، بل من أكبر فقهاء المذهب في عصره، ولا أدل عليه من الألقاب التي لقبه بها الحافظ في تقديمه لترجمته حيث وصفه بالمقرىء الفقيه، الأصولي، الواعظ، المتكلم، أبو الوفاء، أحد الأئمة الاعلام، وشيخ الإسلام.

فلم يغفل عنه كونه متكلمًا، وهكذا كان ابن عقيل مدته مخالطته المبتدعة.

ومن فقه الحافظ أن ذكر نص التوبة المشهورة عن ابن عقيل، ولم يذكر نص بدعته التي أخذ بها من تأويل الصفات على طريقة الصفاتية وما علق به من أصول الكلام، وإن كان قد صنف في توبته الأجزاء المشهورة وهما النصيحة و «رسالة إثبات الحرف والصوت ردًا على الأشاعرة»[١].

ولاحظ أن الحافظ لم يغفل ما علق به من آثار البدعة بمجالسته للمعتزلة وأخذه عنهم الكلام سرًا عندما قال: «ولم يزل فيه بعض ذلك إلى أن مات رحمه الله».

وهي إشارة إلى النصح للأمة بأنه لما رجع إلى السنة لم يخلص من شوائب ما شابه من البدعة.

---

(١) النصيحة التي ألفها ابن عقيل، ضمنها الموفق ابن قدامة في رسالته «تحريم النظر في علم الكلام» وسماها فضيحة ابن عقيل، ولرسالة الموفق طبعتان إحداهما بتحقيق المستشرق جورج مقدسي سنة ١٣٨٢هـ والثانية بتحقيق عبد الرحمن دمشقية سنة ١٤١٠هـ، ولابن عقيل جزء في إثبات الحرف والصوت والقرآن ردًا على الأشاعرة في ٢١ ورقة عن الظاهرية وقد طبع!

ومع هذا لم يزل الحافظ في ترجمته في كل مناسبة يلهج له بالدعاء بالرحمة والمغفرة وما يناسب مقامه من الثناء.

ولم يُغفل أيضًا في مواطن أخرى ذكر أنه سبب من أسباب انحراف الشيخ ابن الجوزي في بعض مسائل العقيدة كما سيأتي؛ لأن ابن الجوزي أخذ عن أبي الحسن بن الزاغوني عنه.

وما أخال هذا العمل من الحافظ ابن رجب إلَّا دالاً على رجاحة عقله، وحسن نظره، فلم يسكت عند تلك البدع عن أبي الوفاء ويتعداها وقد تاب منها ـ والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ـ ويتعداها إلى ما يرفع به من شأنه، ولكن بيَّن التوبة تفصيلاً ـ والبدعة إجمالاً، وصان مكانة هذا الإمام فلم يتنقصه أو يحابي فيه، وإنما استصحب توبته وفضله وعلمه في كل ترجمته!

* * *

فصل

«كلام جامع في أبي الوفاء ابن عقيل من قريحة شيخ الإسلام ابن تيمية»

جاء هذا التقرير من شيخ الإسلام أبي العباس أحمد بن تيمية في معرض ما شهد به أذكياء العلماء وأساطينهم في ذم علم الكلام والتحذير منه وبيان عاقبته، ولا سيما ممن سلف له قبلُ الخوض في ذلك العلم ومعرفته وسبر أغواره.

فلذا جاء النقل من الشيخ ابن تيمية عن الشيخ ابن عقيل من كتابه الكبير «الفنون» به مقدمًا ذلك وخاتمه بكلام جامع في حاله، عفا الله عنه.

هذا النقل عن هذا الكتاب الكبير بحد ذاته مكسب علمي، يزداد أهمية ووثوقًا بنقله عن عالم متمكن محل الثقة وهو شيخ الإسلام رحمه الله لا سيما وقد نقله من خط أبي الوفاء بن عقيل نفسه. حيث قال في كتابه «درء تعرض العقل والنقل» ٨/ ٦٠ وما بعد: «وابن عقيل لما خَبَرَ كلام المعتزلة لم يرض طريقهم فلهذا ذكر أن الناس ثلاث طوائف:

١ ــ طائفة شكَّت لما رأت وجود الشر والضرر في العالم.

٢ ــ وطائفة قالت بالأصلين وهم الثنوية.

٣ ــ والطائفة الثالثة علّلوا ما انخرم بعلل لم تشف غليل العقل ــ كما فعلت المعتزلة ــ فلما لم يستقم لهم التعليل، جنحوا وقالوا: خَفِيَ علينا وجه الحكمة فيما عرض في العالم من الفساد، فسلّموا لمن استحق التسليم، وهو الصانع.

قال: «وهذه طائفة أهل الحديث» وهذا بناءً على إثبات الحكمة والغاية والتعليل من حيث الجملة، والاعتراف بجهله من جهة التفصيل، وذكر أن هذا منتهى كل عالم محق، وهذا مبلغ علم من انتهى إلى هنا.

ولابن عقيل أنواع من الكلام، فإنه كان من أذكياء العالم، كثير الفكر والنظر في كلام الناس، فتارة يسلك مسلك نفاة الصفات الخبرية، وينكر على من يسميها صفات، ويقول: إنما هي إضافات، موافقةً للمعتزلة، كما فعله في كتابه «ذم التشبيه وإثبات التنزيه» وغيره من كتبه، واتّبعه على ذلك أبو الفرج بن الجوزي في كتابه «كف التشبيه بكف التنزيه» وفي كتابه «منهاج الوصول»، وتارة يثبت الصفات الخبرية، ويرد على النفاة والمعتزلة بأنواع من الأدلة الواضحات، وتارة يوجب التأويل كما فعله في «الواضح»[1] وغيره، وتارة يحرِّم التأويل ويذمّه وينهى عنه، كما فعله في كتاب «الانتصار لأصحاب الحديث»[2]،

(١) هو «الواضح في أصول الفقه» مخطوط، وقد حقق في أطروحات دكتوراه من عدة من الباحثين، وهو قيد الطباعة من غيرهم.

(٢) هذا الكتاب لا أعلم عن وجوده الآن شيئًا، لكنه من مؤلفات ابن عقيل المشكورة والتي أثنى عليها الشيخ ابن تيمية كثيرًا.

فيوجد في كلامه من الكلام الحسن البليغ ما هو معظَّم مشكور، ومن الكلام المخالف للسنة والحق ما هو مذموم مدحور.

وكذلك يوجد هذا وهذا في كلام كثير من المشهورين بالعلم، مثل أبـي محمد بن حزم، ومثل أبـي حامد الغزالي، ومثل أبـي عبد الله الرازي وغيرهم.

ولابن عقيل من الكلام في ذم من خرج عن الشريعة من أهل الكلام والتصوف ما هو معروف، كما قال في «الفنون»[1]، ومن خطه نقلت، قال:

«فصل: المتكلمون وقفوا النظر في الشرع بأدلة العقول فتفلسفوا، واعتمد الصوفية المتوهمة على واقعهم فتكهَّنوا؛ لأن الفلاسفة اعتمدوا على كشف حقائق الأشياء بزعمهم، والكهَّان اعتمدوا على ما يُلقى إليهم من الاطِّلاع، وجميعًا خوارج على الشرائع، هذا يتجاسر أن يتكلم في المسائل التي فيها صريح نقل بما يخالف ذلك المنقول، بمقتضى ما يزعم أنه يجب في العقل، وهذا يقول: قال لي قلبـي عن ربِّـي، فلا على هؤلاء أصبحت، ولا على هؤلاء أمسيتُ، لا كان مذهب جاء على غير طريق السفراء والرسل، يريد تعلّم بيان الشرائع، وبطلان المذاهب والتوهمات، والطرايق المخترعات: هل لعلم الصوفية عمل في إباحة دمٍ أو فرجٍ، أو تحريم معاملة، أو فتوى

(١) من المصنفات العظيمة، حوى فنونًا كثيرة، فكان اسمه موافقًا لمسماه، وأقل ما ذكروا فيه أنه مائتا مجلد، وأكثر ما ذكر فيه أنه ثمانمائة مجلد، ولكن لم يوجد منه إلى الآن سوى قطعة في باريس طبعت في مجلدين لطيفين. قال الذهبـي في تاريخه: «كتاب الفنون لم يصنف في الدنيا أكبر منه».

معمول بها في عبادة أو معاقدة؟ أو للمتكلمين بحكم الكلام حاكم ينفذ حكمه في بلدٍ أو رستاق؟ أو تصيب للمتوهمة فتاوى وأحكام؟

إنما أهل الدولة الإسلامية والشريعة المحمدية المحدِّثون والفقهاء: هؤلاء يروون أحاديث الشرع، وينفون الكذب عن النقل، ويحمون النقل عن الاختلاف. وهؤلاء المفتون ينفون عن الأخبار تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، هم الذين سمَّاهم النبي ﷺ: الحملة العدول، فقال: «يحمل هذا العلم من كل خَلَف عُدُولُهُ، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين»[1]. فالخارج ــ وإن خفقت بنوده، وكثرت جموعه، وسُمِّيَ بالملك ــ يبعد أن يُضرب له دينار أو درهم، أو يخطب له على منبر، أو تكون أموره إلاَّ على المغالطة والمخالسة، بينا هو على حاله يتضعضع لكتاب الملك، ويتخشّى من أن

---

(١) قال المحقق: ذكره أبو عبد الله التبريزي في «مشكاة المصابيح» ١/ ٨٢ رقم (٢٤٨) وفي آخره.. المبطلين، وتأويل الجاهلين. رواه البيهقي. وذكر الشيخ محمد ناصر الدين الألباني في تعليقه: أنَّ الحديث مرسل؛ لأن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري (راوي الحديث) تابعي مثل كما قال الذهبي، ورواويه عنه معاذ بن رفاعة ليس بعمدة. لكن الحديث قد روى موصولاً من طريق جماعة من الصحابة وصحح بعض طرقه الحافظ العلائي في «بغية الملتمس» (٣ ــ ٤). وروى الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (٣٥/ ٢) عن مهنا بن يحيى قال: سألت أحمد ــ يعني ابن حنبل ــ عن حديث معاذ بن رفاعة عن إبراهيم هذا، فقلت لأحمد: كأنه كلام موضوع؟ فقال: لا، هو صحيح. فقلت له: ممن سمعته أنت؟ قال: من غير واحد. قلت: من هم؟ قال: حدثني به مسكين إلاَّ أنه يقول: معاذ عن القاسم بن عبد الرحمن. قال أحمد: معاذ بن رفاعة لا بأس به. وانظر ما ذكره السيوطي عنه في «الجامع الكبير».

يقابله بقتالٍ، أو يصافَّه بحربٍ؛ لأن في نفس الخارجي بقية من انخساس الباطل، وللملك ـ وإن قلّ جمعه ـ صولة الحق.

وكذلك البرخشتي مع الطبيب المقيم: هذا مختار يطلب من الأدوية ما يسكّن الألم في الحال، ويضع على الأمراض الأدوية الجواد العاملة بسرعة، فيأخذ العطية والخلعة لسكون الألم وإزالة المرض، ويصبح على أرض أخرى، ومنزل بعيد، وطبّه مجازفة؛ لأنه يأمن الموافقة والمعاينة.

والأطباء المقيمون يلامون على تطويل العلاج، وإنما سلكوا الملاطفة بالأدوية المتركبة دون الحادة؛ لأن الحادة من الأدوية، وإن عجَّلت سكون الألم، فإنها غير مأمونة الغوائل، ولا سليمة العواقب؛ لأن ما تعطي الأدوية الحادة من السكون إنما هو لغلبة المرض، وحيثما غلبت الأمراض أوهت قوى المحل الذي حلّته الأمراض، فهو كما قيل: الدواء للبدن كالصابون للثوب ينقِّيه ويبليه، كذلك كلما احتد الصابون وجاد أخلق الثوب.

فكذلك الفقهاء والمحدِّثون يقصِّرون عن إزالة الشبه؛ لأنهم عن النقل يتكلمون، وللخوف على قلوب العوام من الشكوك يقصرون القول ويقلِّلون، فهم حال الأجوبة ينظرون في العاقبة، والمبتدعة والمتوهمة يتهجمون، كتهجّم البرخشتي، فعلومهم فرح ساعة، ليس لعلومهم ثبات، فإن اشتبه على قوم ما دلَّسه الصوفية عليهم من قول النبي ﷺ: إن في أمتي محدَّثين ومكلَّمين، وهو ما يُلقى من الفراسات والدرايات، كما نطق به عمر.

قيل لهم: لو نطق عمر برأيه ولم يصدِّقه الوحي على لسان السفير، لما التُفت إلى واقعته، ولا يُبتنى الشرع على فراسته. ألا تراه لمَّا مات السفير قال من هو أعلى طبقة منه: أي سماء تظلُّني، وأي أرض تقلّني، إذا قلت في كتاب الله برأيـي؟ وقال في الكلالة ما قال. يقول الصديق هذا، وأسلّم اليوم لشيخ رباط يخلو بأمرد في سمعه، ويسمع الغناء من أمرد وحرّة، ويأكل من الحرام شبعة، ويرقص كما تشمس الخيل، لا يسأل الفقهاء، ولا يبني أمره على النقل، يقول بواقعةٍ، ويقول أتباعه: الشيخ يسلَّم إليه طريقته، وأي طريقة مع الشرع!؟

وهل أبقت الشريعة لقائل قولاً؟ وها جاءت إلاَّ بهدم العوايد ونقض الطرايق؟

ما على الشريعة أضر من المتكلمين والمتصوفين. هؤلاء يفسدون العقول بتوهمات شبهات العقول، وهؤلاء يفسدون الأعمال ويهدمون قوانين الأديان، يحبون البطالات، والاجتماع على اللذات، وسماع الأصوات المشوشات للمعايش والطاعات، وأولئك يجرِّئون الشباب والأحداث، على البحث وكثرة السؤال والاعتراضات، وتتبع الشرع بالمناقضات. وما عرفنا للسلف الصالح أعمال هؤلاء الصوفية، بل كانت أحوالهم الجدّ لا الهزل، ولا أحوال المتكلمين: لا التكشّف ولا البحث، بل كانوا عبيد تسليم وتحكيم في المعتقدات، وجِد وتشهير في الأعمال والطاعات. فنصيحتي لأخواني من المؤمنين الموحّدين: أن لايقرع أبكار قلوبهم كلام المتكلمين، ولا تصغي مسامعهم إلى خرافات المتصوفين، بل الشغل بالمعايش أولى من بطالة المتصوفة، والوقوف

مع الظواهر أوْلى من توغل المنتحلة للكلام. وقد خبرت طريقة الفريقين: غاية هؤلاء الشك، وغاية هؤلاء الشطح.

والمتكلمون عندي خير من المتصوفة؛ لأن المتكلمين مرادهم مع التحقيق مزيد الشكوك في بعض الأشخاص، ومؤدى المتصوفة إلى توهم الإشكال، والتشبيه هو الغاية في الإبطال، بل هو حقيقة المحال، مما يسقط المشايخ من عيني، وإن نَبُلُوا في أعين الناس أقدارًا وأنسابًا، وعلومًا وأخطارًا، إلاَّ قول القائل منهم إذا خوطب بمقتضى الشرع: عادتي كذا وكذا، يشير إلى طريقةٍ قد قنَّنها لنفسه، تخرج عن سمت الشرع، فذاك مختلق طريقة، وكل مختلق مبتدع، ولو كان في ترك النوافل؛ لأن الاستمرار على ترك السنن خذلان. قال أحمد رضي الله عنه وقد سئل عن رجل استمر على ترك الوتر: هذا رجل سوء.

أنا أنصح بحكم العلم والتجارب: إياك أن تتبع شيخًا يقتدي بنفسه، ولا يكون له إمام يُعزى إليه ما يدعوك إليه، ويتصل ذلك بشيخ إلى شيخ إلى السفير ﷺ، الله الله، الثقة بالأشخاص ضلال، والركون إلى الآراء ابتداع. اللين والانطباع في الطريقة مع السنَّة، أحب إليَّ من الخشونة والانقباض مع البدعة، الله لا يُتقرَّب إليه بالامتناع مما لم يمنع منه، كما لا يُتقرب إليه بأعمال لم يَأمر بها. أصحاب الحديث رسل السفير: الفقهاء المترجمون لما أراد السفير من معاني كتابه، ولا يتم اتّباع إلاَّ بمنقول، ولا يتم فهم المنقول إلاَّ بترجمان، وما عداهما تكلف لا يفيد.

وإلى هذين القسمين انقسم أصحاب رسول الله ﷺ: نقلةً

وفقهاء، ولا نعرف فيهم ثالثًا، أصحاب أسواق وصفقات وتجارات، لا رُبَط ولا مناح للبطالات، يا أصحاب المخالطات والمعاملات، عليكم بالورع، يا أصحاب الزوايا والانقطاعات عليكم بحسم موادّ الطمع. يا طرَّاق المبتدئين إياكم واستحسان طرائق أهل التوهم والخُدَع، ليس السُّنيُّ عندي المحب لمعاوية ويزيد، ولا لأبي بكر وعمر، ولا الشيعة عندي من زار المشاهد، وأنشد المراثي والقصايد.

السُّنيّ عندي من تتبع آثار الرسول فعمل بها بحسب ما يفتيه الفقهاء، واحتذى الرسم، واتّبع الأمر، وكف عن النهي، وتنزَّه عن الشُبَه، ووقف عند الشك، وتفرَّغ من كل علم خالف النقل، وإن كانت له طلاوة في السمع، وقبول في القلب، ليس قلبك معيارًا على الشرع، ما لله طائفة أجل من قوم حدَّثوا عنه، وما أحدثوا وعوَّلوا على ما رووا، ولا على ما رأوْا، الصبر على الرواية مقام الصدِّيقين. قال الخضر للسفير: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝٧٥﴾ [الكهف: ٧٥] لأن مستحسِنًا برأيه ومستقبحًا برأيه لا يُتّبع؛ لأنه قد بان لك بنص القرآن أن استحسان عقل السفير الكليم واستقباحه ما كان على القانون الصحيح، حتى كشف له عن العذر فيما كان استقبحه».

قلت: ولابن عقيل من هذا الجنس في تعظيم الشرع، وذم من يخالفه من أهل النظر والكلام، وأهل الإرادة والعبادة، كلام كثير من هذا الجنس، كما قد تكلم في ذلك طوائف من أهل العلم والدين، لكن من غلب عليه طريق النظر والكلام، كان ذمُّه لمنحرفة العبَّاد أكثر من ذمه لمنحرفة أهل الكلام، وهذا كثير في أهلِ الكلامِ والفقهاء، لا سيما في

المعتزلة، وهؤلاء قد لا يعرفون ما في طريق أهل العبادة والتصوف من الأمور المحمودة في الشرع.

ومن غلب عليه طريقة أهل الإرادة والعبادة، كان ذمه لمنحرفة أهل الكلام والنظر أكثر من ذمه لمنحرفة أهل التصوف. وهذا يوجد كثيرًا في كلام أهل الزهد والعبادة، لا سيما المعظِّمين لطريق الصوفية، فمثل أبي عبد الرحمن السلمي، وأبي طالب المكّي، وأبي إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري، وأبي حامد الغزالي، وإن كانوا يذمّون من منحرفة الصوفية ما يذمون، فذمهم لجنس أهل الكلام والبحث والنظر أعظم. ومثل أبي بكر بن فورك، وابن عقيل، وأبي بكر الطرطوشي، وأبي عبد الله المازري، وأبي الفرج بن الجوزي، وإن كانوا يذمّون من بدع أهل الكلام والفلسفة ما يذمون، فذمهم لما يذمونه من بدع أهل التصوف والتألّه أعظم.

وقد قال الله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]. وقد قال النبي ﷺ: «**اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون**». رواه الترمذي وصححه.

وكان طائفة من السلف يقولون: من فسد من الفقهاء ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من العبّاد ففيه شبه من النصارى.

فمن كان فيه بدعة من أهل الكلام والنظر والفقه كالمعتزلة تجدهم يذمّون النصارى أكثر مما يذمون اليهود، واليهود يقرأون كتبهم ويعظّمونهم.

ومن كان فيه بدعة، من أهل العبادة والتصوف والزهد، تجدهم يذمّون اليهود أكثر مما يذمّون النصارى، وتجد النصارى يميلون إليهم، وقد يحصل من مبتدعة الطائفتين من موالاة اليهود والنصارى بحسب ما فيهم من مشابهتهم، وهذا موجود كثيرًا، كما دلّ عليه الكتاب والسنَّة.

وهذه الطريقة الأولى التي يعتمد عليها من يعتمد، مثل ابن عقيل، وصدقة بن الحسن، وغيرهما، هي التي ذكرها أبو الحسن الأشعري في «رسالته إلى أهل الثغر»، وهي التي اعتمد عليها في كتابه المشهور المسمّى: بـ «اللمع في الرد على أصحاب البدع» وهو أشهر مختصراته، وقد شرحوه شروحًا كثيرة، من أجلها شرح القاضي أبي بكر له». اهـ. كلام الشيخ ابن تيمية ونقله، ولولا الإطالة في الموضوع لتتبعت كلام شيخ الإسلام عمومًا في تصانيفه عن أبي الوفاء علي بن عقيل الحنبلي، إذ للشيخ ابن تيمية عناية به واهتمام بكلامه، ولا سيما في مواضع ردِّه على الفخر الرازي، ومناقشته للمتكلمين عمومًا، والحنابلة منهم خصوصًا، إذ ابن عقيل في أول أمره كان منهم ثم منَّ الله عليه فرجع إلى جادة أهل السنَّة والجماعة، فالحمد لله على ذلك.

٢ ــ الحافظ ابن رجب له شخصية ظاهرة في نقده وحكمه على أحوال العلماء فلا يقلد الجارح والناقد في نقده دون تبصر، ولا يوافق المادح المتساهل، لذا يجنح في العلماء الكبار عند نقد أحوالهم إلى التحقيق والحكم العام المجمل الذي يتضمن ما عليه هذا العالم من المخالفة أو البدعة.

وهو مع هذا تراه يحمل كلام العالم على أحسن محامله، مغلبًا حسن الظن به ما وجد إليه سبيلاً من دون التعصب له، أو السكوت عن خطئه، وهذا ما تراه من كبار علماء المذهب وأئمتهم.

وأيضًا يعتذر لما يقع للعالم من الخطأ بما يناسب المقام، دون الرضا بخطئه أو قبول زلته، ويحكم على آثاره وكتبه بما يعرف، وإذا قرر على العالم ما فيه مما ينافي الحق الصواب في العقيدة والفقه فهو يذكره ولا يبالي بمكانة المنقود، ولكن بأدب العلماء وتحفظ عبارتهم عن التزيد ـ لأن التزيد في النقد كالسكوت عنه، على قاعدة: كلا طرفي قصد الأمور ذميم ـ وسؤال الله أن يتسامح عما وقع منهم وأن يرحمهم.

وتطبيقًا لهذا في تحقيق الحافظ ابن رجب لمقام الشيخ أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي (٥١٠ ـ ٥٩٧هـ) لما كثر كلام الناس على زلاته، قال في ترجمته بعد أن ساق ما يناسبه من الثناء والمناقب نقلاً وإنشاء ٣/ ٤١٤ وما بعدها:

«. . . ومع هذا فللناس فيه ـ رحمه الله ـ كلام من وجوه:

(أ) **منها**: كثرة أغلاطه في تصانيفه، وعذره فيها واضح وهو أنه كان مكثرًا من التصانيف، فيصنف الكتاب ولا يعتبره، بل يشتغل بغيره، وربما كتب في الوقت الواحد في تصانيف عديدة، ولولا ذلك لم يجتمع له هذه المصنفات الكثيرة.

ومع هذا فكان تصنيفه في فنون من العلوم بمنزلة الاختصار من كتب في تلك العلوم، فينقل من التصانيف من غير أن يكون متقنًا لذلك

العلم من جهة الشيوخ والبحث، ولهذا نُقل عنه أنه قال: أنا مرتب، ولست بمصنف[1].

(ب) ومنها: ما يوجد في كلامه من الثناء والترفع والتعاظم وكثرة الدعاوى،، ولا ريب أنه كان عنده من ذلك طرف، والله يسامحه.

(ج) **ومنها**: وهو الذي من أجله نقم جماعة من مشايخ أصحابنا وأئمتهم من المقادسة والعلثيين، من ميله إلى التأويل في بعض كلامه، واشتد نكيرهم عليه في ذلك.

ولا ريب أن كلامه في ذلك مضطرب مختلف، وهو وإن كان مطلعًا على الأحاديث والآثار في هذا الباب، فلم يكن خبيرًا بحل شبه المتكلمين، وبيان فسادها، وكان معظمًا لأبـي الوفاء بن عقيل يتابعه في أكثر ما يجد في كلامه، وإن كان قد رد[2] عليه في بعض المسائل، وكان ابن عقيل بارعًا في الكلام، ولم يكن تام الخبرة بالحديث والأثر، فلهذا يضطرب في هذا الباب، وتتلون فيه آراؤه. وأبو الفرج تابع له في هذا التلون». اهـ.

---

(١) تردد الحافظ في حصر كتب ابن الجوزي فقال ص ٤١٥: «وأما تصانيفه فكثيرة جدًا» وقد تقدم عنه أنه ذكر أنها مائة وأربعون، أو مائة وخمسون، أو زيادة على ثلاثمائة وأربعين، وقد قيل إنها أكثر من ذلك.
ونقل عن ابن تيمية أنها أكثر من ألف مصنف. ومن الدراسات المعاصرة حول مؤلفات ابن الجوزي ما كتبه عبد الحميد العلوجي في ذلك وأوصل حصرها إلى ٥٧٤ مؤلفًا بالجمع لها من بطون كتب التراجم وذكر المؤلفات، فلله درّ ابن الجوزي.

(٢) في الذيل: قد (ورد)، وما أثبته هو المناسب للسياق.

وأنت تلمس من العرض الهدوء في النقد، ، والقوة في بيان البدع عنده، وعدم مجاملة أبـي الفرج وهو مَنْ هو في المذهب؛ بل وفي الأمة؟

كما تلحظ بُعده عن الإسفاف والتحقير، واعتداله في تحقيق حال أبـي الفرج في الجملة دون التفصيل، مقابل بعض الحنابلة الذين أغلظوا على ابن الجوزي في بدعه تلك، خصوصًا في بدعه الصفاتية الكلامية.

ولعلك ــ أخي القارىء ــ إن طالعت رسالة الحافظ «الفرق بين النصيحة والتعيير» تصورت هذا النفس المتوازن من ابن رجب رحمه الله في معالجة هذه القضايا الحساسة، فرحمة الله عليه كيف يعطينا أنموذج الغيور ــ حقًا ــ والمدافع عن جناب العقيدة ولو كان الخطر من جهة عالم من كبار العلماء.

ومن حمله لحال العالم على خير ما يجد من المحامل، مستصحبًا لحسن الظن به، دافعًا عن نفسه اتهامه، ما قدح به الشيخ عبد القادر الجيلي في ترجمته ٣/ ٢٩٥، وما بعدها. وسيأتي إيرادها إن شاء الله في آخر البحث.

٣ ــ الحافظ ابن رجب الحنبلي ليس غرًّا يتلقف أقوال كبار العلماء في بعضهم دون تدقيق وتأمل وتحرٍّ، بل هو رحمه الله يلاحظ كلام العلماء، حتى لو كانوا من كبار أهل السنة والجماعة في بعضهم، ويُنزله منزلته، مع اعتباره الواضح لحال المتكلمين منهم من ناحية التشدد أو التساهل، في المسائل التي ينكرونها.

ومما يوضح هذه النظرة من الحافظ معالجته لما اتهم به الحافظ الإمام عبد الرحمن بن الحافظ الكبير الإمام محمد بن إسحاق بن منده (٣٨٣ ـ ٤٧٠هـ) في ترجمته له في الذيل ٣/ ٢٦ ـ ٣١ حيث نقل في عرض ما نقل من القدح فيه ـ قول شيخ الإسلام الهروي فقال ص ٢٨ «قلت: قد ذكر عن شيخ الإسلام الأنصاري أنه قال: كانت مضرته ـ يعني عبد الرحمن بن منده ـ ، في الإسلام أكثر من منفعته. وعن إسماعيل التيمي ـ وهو قوام السنة الأصبهاني ـ أنه قال: خالف أباه في مسائل، وأعرض عنه مشايخ الوقت، وما تركني أبـي أسمع منه، وكان أخوه خيرًا منه.

وهذا ليس بقادح! ـ إن صح ـ فإن الأنصاري والتيمي وأمثالهما يقدحون بأدنى شيء ينكرونه من مواضع النزاع؟!، كما هجر التيمي عبد الجليل الحافظ كوباه على قوله: «ينزل بالذات» وهو في الحقيقة يوافقه على اعتقاده، لكن أنكر إطلاق اللفظ لعدم الأثر به».

وقال: «وبأصبهان طائفة من أهل البدع ينتسبون إلى ابن منده هذا، وينسبون إليه أقوالاً في الأصول والفروع هو منها بريء».

ومثل هذا ما ادَّعى به ابن السمعاني علي محمد بن ناصر الحافظ (٥٥٠هـ) في ترجمته برقم ١١٣ في ٣/ ٢٢٧، فهو من قبيل سابقه، بسبب التعصب والتشدد.

٤ ـ وفي مجال النقد، لا يعتبره ابن رجب بغير حجة من ناقله أو قائله، بل ربما لا يرفع به رأسًا، إذا كان عارفًا ناقله أو قائله بعدم ضبطه أو جرحه في نفسه. . وكان عارفًا بحال المتكلم فيه.

كما يصوره دفاعه عن الحسن بن أحمد بن البنَّا[1] (٣٩٦ ـ ٤٧١هـ) في ٣/ ٣٥ برقم ١٤ فقال:

«وذكر ابن النجار: أن تصانيفه تدل على قلة علمه، وسوء تصرفه، وقلة معرفته بالنحو واللغة، كذا قال، وابن النجار أجنبي من هذه العلوم فما باله يتكلم فيها؟ وقد وقع لنا الكثير من حديثه عاليًا». اهـ.

وانظر ما قبله وبعده.. ومثله ما في ترجمة عبد الله بن عطاء الهروي (٤٧٦هـ) برقم ٢١ في ٣/ ٤٥. قال «وقد تكلم فيه هبة الله السقطي، والسقطي مجروح لا يقبل قوله في مقابلة هؤلاء الحفاظ وقد رد كلامه فيه ابن السمعاني وابن الجوزي وغيرهما..» اهـ.

وقريب منه ما ادعى على شيخ الإسلام الهروي في كتابه «المنازل» كما في ترجمته ص ٦٧.

٥ ـ كما لا يعتبر النقد والجرح إن كان مبعثه الحقد أو الحسد والتحامل على المتكلم فيه، بل ولا يعده جرحًا، بل ينقضه وينصح للمسلمين بنصرة المظلوم كما في ترجمة الحافظ الشيخ عبد الغني المقدسي الجماعيلي في المجلد الرابع من الذيل ٤/ ٢٣ وما بعدها، من أن مخالفيه في الاعتقاد اجتمعوا عند الأمير وأجمعوا على الفتوى بكفره

(١) له كتاب «المختار في أصول السنة» وهو مختارات من الشريعة للآجري وغيره بإسناده و «الرد على المبتدعة» من الأشاعرة خصوصًا وغيرهم، مخطوط في الظاهرية في نحو خمسين ورقة برقم توحيد ١٠٢/١، وله «بيان العيوب» عند القراء، حقق في مجلة معهد المخطوطات وغيرها.

وأنه مبتدع، لا يجوز أن يترك بين المسلمين، ولا يحل لولي الأمر أن يمكنه من المقام معهم وسأل أن يمهل ثلاثة أيام.

فقال الحافظ:

«فأما قولهم: أجمع الفقهاء على الفتوى بكفره، وأنه مبتدع، فيالله العجب! كيف يقع الإجماع، وأحفظ أهل وقته للسنة، وأعلمهم بها هو المخالف؟

وما أحسن ما قاله أبو بكر قاضي القضاة الشامي الشافعي لما عقد له مجلس ببغداد، وناظره الغزالي، واحتج بأن الإجماع منعقد على خلاف ما علمت به، فقال الشامي: إذا كنت أنا الشيخ في هذا الوقت أخالفكم على ما تقولون، فبمن ينعقد الإجماع؟ بك: وبأصحابك؟!

هذا مع مخالفة فقيه الإسلام في وقته الذي يقال: «إنه لم يدخل الشام بعد الأوزاعي أفقه منه»[1]، ومعه خلق من أئمة الفقهاء والمناظرين والمحدثين، هذا في الشام خاصة، دع المخالفين لهؤلاء، المجتمعين في سائر بلاد المسلمين ـ بغداد ومصر وغيرهما من أمصار المسلمين ـ مع إجماع السلف المنعقد على موافقة هؤلاء المخالفين لهم. ولم يكن في المخالفين للحافظ من له خبرة بالسنة والحديث والآثار...».

ثم ذكر مما ادعوا عليه من أنه يقول عن الله «ولا أنزهه تنزيهًا ينفي عنه حقيقة النزول» فقال:

---

(١) يعني الموفق ابن قدامة صاحب المغني وغيره، وهذه العبارة مشتهرة عن شيخ الإسلام ابن تيمية فيه.

«فإن صح هذا عنه، فهو حق، وهو كقول القائل: لا أنزهه تنزيهًا ينفي حقيقة وجوده، أو حقيقة كلامه، أو حقيقة علمه، أو سمعه وبصره، ونحو ذلك».

ثم ناقش كل ما ادعوه عليه من القول في صفات الله كالحرف والصوت وكلام الله، ومسألة الانتقال.

ثم قال: «والمقصود ههنا: الإشارة إلى ما وقع في حق الحافظ من التحامل عليه والتعصب». اهـ.

وهذا يبين عن منهج للحافظ ابن رجب في التعامل في مثل هذه الظروف، التي يخالف فيها الجماهير واحدًا بسبب مفارقته لهم باعتقاده ـ كما حصل للشيخ ابن تيمية مع علماء عصره حول الحموية والواسطية ـ حتى في دعواهم الإجماع، لم يبطلها استنادًا إلى تحاملهم عليه وضيقهم منه، بل تنزَّل معهم إلى مناقشة الإجماع، والوقوف على مدى اعتباره، فأبطل قولهم ورده عليهم، بإبطال حجتهم ومستندهم.

وكذا انظر في رد التحامل على عبد الله بن علي التيمي ابن المارستانية (٥٩٩هـ) برقم ٢١٢ في ٣/ ٤٤٣ وما بعدها، وتعقَّب من كذَّبه من العلماء وأجاب عن سبب سجنه، وما ادعي عليه من تركيب الأسانيد، والاختلاق في كتبه. . كل هذا والحافظ ابن رجب لا يُسلِّم بأقوال الناقدين فيه دون ظهور حجتهم، بل ويخالفهم فيما يدعونه على المترجم له من دون بينة؛ لأنه وقف على كتاب المذكور فلم يجد فيه ما ينكر من دعاوى منتقديه، لذلك فقد أنصفه رحمه الله.

٦ ـ للحافظ ابن رجب منهج ـ عُلم بالاستقراء ـ وهو عدم تساهله مع العالم إن جاهر ببدعة تمس العقيدة، بأن كانت من البدع المغلظة، وإن كانت مكانة العالم وشهرته لم تظهر ذلك، لكنه يفضحه بها، ولا يزال يُعنفها عليه؛ لأنه لم يذكر عنه توبة أو أوبة، وإلَّا لكان من المسارعين إلى الدفاع عنه.

بل مثل هذا المتظاهر ببدعته، لا تجد الحافظ يسمه بالألقاب المادحة له ويثني عليه، بل يظهر بغضه له وبراءته منه بما يُصدره في حقه من معايب، ولا يذكر هذا عنه رجمًا بالظن، بل وعنده أقوال المترجم له الشاهدة على انحرافه، وهذا من تمام عدله وإنصافه له، وشاهده ما وقع في ترجمة سليمان بن عبد القوي الطوفي الأصولي المشهور (٦٥٧ ـ ٧١٦هـ) صاحب «**البلبل في اختصار الروضة**» للموفق صاحب المصنفات الكثيرة وشرحها، قال في ترجمته برقم **٤٧٦** في **٤/ ٣٦٨** «وله نظم كثير رائق، وقصائد في مدح النبي ﷺ، وقصيدة طويلة في مدح الإمام أحمد. وكان مع ذلك كله شيعيًا منحرفًا في الاعتقاد عن السنة، حتى قال عن نفسه:

حنبلي رافضي أشعري؟ هذه إحدى العبر

ووجد له في الرفض قصائد، وهو يلوح في كثير من تصانيفه، حتى إنه صنف كتابًا سماه «العذاب الواصب على أرواح النواصب».

ومن دسائسه الخبيثة، أنه قال في «شرح الأربعين للنووي»: (ثم ذكر مأخذ له على كتابة الصحابة للسُّنة يطعن فيه على عمر فقال الحافظ بعد سوق كلامه) فانظر إلى هذا الكلام الخبيث المتضمن أن أمير

المؤمنين عمر رضي الله عنه هو الذي أضل الأمة قصدًا منه وتعمدًا. ولقد كذب في ذلك وفجر.

قال: «وقد كان الطوفي أقام بالمدينة النبوية مدة يصحب شيخ الرافضة: السكاكني المعتزلي، ويجتمعان على ضلالتهما، وقد هتكه الله وعجل الانتقام منه بالديار المصرية».

ثم قال: «وقد ذكر بعض شيوخنا عمن حدثه عن آخر، أنه أظهر له التوبة وهو محبوس. وهذا من تقيته ونفاقه، فإنه في آخر عمره لما جاور بالمدينة كان يجتمع هو والسكاكني شيخ الرافضة، ويصحبه، ونظم في ذلك ما يتضمن السب لأبـي بكر الصديق رضي الله عنه». اهـ.

وبعد هذا التطواف في هذه القضية المهمة ـ الدالة على سلفية الحافظ وتجرده للحق ـ فإنه من المناسب تذكير الأخوة من طلاب العلم وغيرهم ممن تطمع أنفسهم إلى ولوج هذا الباب ـ نقد العلماء ـ والكتابة فيه، أو الخوض فيه في مجالسهم، حتى أضحى بعضهم يتلذذون بالحديث فيه، ويكون كأسًا يُدار في نواديهم...

أوصيهم بتقوى الله سبحانه وتعالى وخشيته ومراقبته في السر والعلن، وأن يتذكروا وقوفهم بين يدي الله تعالى، وقد خاضوا في صفوة الناس نقدًا وجرحًا وحكمًا على أحوالهم وعقائدهم...

حتى بدا لك من الأسئلة الواضحة والمتكررة على علمائنا: ما عقيدة فلان؟ ما منهج فلان من العلماء أو غيرهم؟ والقضية ـ كما لا يخفى ـ ذات جانبين كلاهما مرٌّ يتمثلان بالافراط والتفريط، والجادة المطروقة هي الوسطية بملاحظة النية عند الخوض في الموضوع،

والـدافـع إليهـا، وبـإتبـاع سبيـل المـؤمنيـن فـي طـرقهـا وهـم علمـاؤنـا الراسخون، وأظن أن الحافظ ابن رجب الحنبلي من جمعهم المبارك.

لذا فالوقوف على مناهجهم رحمهم الله وطرائقهم في طرق الموضوع والبحث فيه أمر أساسٌ ومهم في الوصول إلى سلامة الحكم، وإلَّا فإن الله لا يكلف نفسًا إلَّا وسعها، وما جعلنا في عنت وحرج، وما وقف أمر الدين والاعتقاد والعمل عليه. ولأن يقدم العبد على ربه خفيف الحمل من أعراض العلماء وذممهم، أسلم له في عاقبته، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله.

وقبل ختم هذا البحث لعلنا نتأمل هذه الكلمات من الحافظ ابن رجب الحنبلي في قولٍ نُسب للشيخ عبد القادر الجيلي أنه قال: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله.

قال في ٣/ ٢٩٥: «فأما الحكاية المعروفة عن الشيخ عبد القادر أنه قال: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله، فقد ساقها هذا المصنف عنه من طرق متعددة.

وأحسـن مـا قيـل فـي هـذا الكـلام: مـا ذكـره الشيـخ أبـو حفـص السهروردي في عوارفه: أنه من شطحات الشيوخ التي لا يقتدى بهم فيها، ولا يقدح في مقاماتهم ومنازلهم، فكل أحد يؤخذ عليه من كلامه ويترك، إلَّا المعصوم ﷺ.

ومن ساق الشيوخ المتأخرين مساق الصدر الأول، وطلبهم بطرائقهم، وأراد منهم ما كان عليه الحسن البصري وأصحابه مثلاً من العلم العظيم، والعمل العظيم، والورع العظيم، والزهد العظيم، مع

كمال الخوف والخشية، وإظهار الذل والحزن، والانكسار، والازدراء على النفس، وكتمان الأحوال والمعارف، والمحبة والشوق ونحو ذلك، فلا ريب أنه يزدري المتأخرين، ويمقتهم، ويهضم حقوقهم. فالأولى تنزيل الناس منازلهم وتوفيتهم حقوقهم، ومعرفة مقاديرهم، وإقامة معاذيرهم، وقد جعل الله لكل شيء قدرًا.

ولما كان الشيخ أبو الفرج بن الجوزي عظيم الخبرة بأحوال السلف، والصدر الأول، وقلّ من كان في زمانه يساويه في معرفة ذلك. وكان له أيضًا حظ من ذوق أحوالهم، وقسط من مشاركتهم في معارفهم. كان لا يعذر المشايخ المتأخرين في طرائقهم المخالفة لطرائق المتقدمين، ويشتد إنكاره عليهم.

وقد قيل: إنه صنف كتابًا، ينقم فيه على الشيخ عبد القادر أشياء كثيرة، ولكن قد قل في هذا الزمان من له الخبرة التامة بأحوال الصدر الأول، والتمييز بين صحيح ما يذكر عنهم من سقيمه.

فأما من له مشاركة لهم في أذواقهم، فهو نادر النادر. وإنما يلهج أهل هذا الزمان بأحوال المتأخرين، ولا يميزون بين ما يصح عنهم من ذلك من غيره، فصاروا يخبطون خبط عشواء في ظلماء. والله المستعان.

وللشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى كلام حسن في التوحيد، والصفات والقدر، وفي علوم المعرفة، موافق للسنة.

وله كتاب «الغنية لطالبي طريق الحق» وهو معروف، وله كتاب «فتوح الغيب» وجمع أصحابه من مجالسه في الوعظ كثيرًا، وكان

متمسكًا في مسائل الصفات والقدر ونحوهما بالسنة، بالغًا في الرد على من خالفها.

قال في كتابه «الغنية» المشهور: وهو بجهة العلو، مستو على العرش، محتو على الملك، محيط علمه بالأشياء ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾، ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝﴾، ولا يجوز وصفه بأنه في كل مكان، بل يقال: إنه في السماء على العرش، كما قال ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾... ـ وذكر آيات وأحاديث، إلى أن قال ـ: وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل، وأنه استواء الذات على العرش.

قال: وكونه على العرش مذكور في كل كتاب أنزل على كل نبي أرسل، بلا كيف... وذكر كلامًا طويلاً، وذكر نحو هذا في سائر الصفات.

وذكر الشيخ أبو زكريا يحيى بن يوسف الصرصري، الشاعر المشهور، عن شيخه العارف علي بن إدريس: أنه سأل الشيخ عبد القادر، فقال: يا سيدي، هل كان لله ولي على غير اعتقاد أحمد بن حنبل؟ فقال: ما كان، ولا يكون.

وقد نظم ذلك الشيخ يحيى في قصيدته». اهـ.

ثم قال: «... وأحسن ما قيل في هذا الكلام: ما ذكره الشيخ أبو حفص السهروردي في عوارفه: أنه من شطحات الشيوخ التي لا يقتدى بهم فيها، ولا يقدح في مقاماتهم، ومنازلهم، فكل أحد يؤخذ من كلامه ويترك، إلاَّ المعصوم ﷺ».

ثم قال بعد ذلك مُقعِّدًا: «ومن ساق الشيوخ المتأخرين مساق الصدر الأول، وطالبهم بطرائقهم، وأراد منهم ما كان عليه الحسن البصري وأصحابه مثلاً من العلم العظيم، والعمل العظيم، والورع العظيم، والزهد العظيم، مع كمال الخوف والخشية، وإظهار الذل والحزن والانكسار، والازدراء على النفس، ، وكتمان الأحوال والمعارف، والمحبة والشوق ونحو ذلك فلا ريب أنه يزدري المتأخرين، ويمقتهم، ويهضم حقوقهم.

فالأولى تنزيل الناس منازلهم، وتوفيتهم حقوقهم، ومعرفة مقاديرهم، وإقامة معاذيرهم، وقد جعل الله لكل شيء قدرًا»[1]. اهـ.

* * *

(١) الذيل على طبقات الحنابلة ٣/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦.

موقف الحافظ
من عرض تصانيف المترجمين

المؤلفات والتصانيف والآثار العلمية التي يخلفها العالم هي المصدر الأساس ـ وربما الوحيد ـ لمعرفة علمه وعقيدته وفقهه. . وهي الصِّلة الباقية الحافظة لعلومه، فمن أين لنا أن نعرف فضل ابن جرير وعلمه لولا مؤلفاته؟ وكذا الطحاوي والنووي وابن تيمية وابن القيم وابن حجر، ومن قبلهم وبعدهم من العلماء.

وكانت ـ على هذا ـ عناية المترجمين بذكر تصانيف مترجميهم شاهدة على ذلك.

وللحافظ ابن رجب الحنبلي نصيب من هذا في تراجمه من خلال الذيل حيث له حرص على تعداد ما يعرف من مؤلفات العلم ووصفها بالحسن والجودة والتحرير وضدّ ذلك، أيضًا وصفها بالطول والقصر حجمًا: بأنها في مجلد أو أكثر، أو في جزء، ما تراه بينًا في غالب التراجم، كذلك عرضه وتقديمه للتصانيف. وهي ناحية تبرز مكانة الحافظ النقدية، وملكته في معرفة طرائق العلماء في التصانيف والتأليف. كما تبين عن أثر منهجه ومسلكه فيهما مع أثر عقيدته في تناوله لما كتب العلماء مدحًا وجرحًا.

فقال في تقديمه لتصانيف موفق الدين ابن قدامة الحنبلي (٥٤١ ـ ٦١٥هـ) برقم (٢٧٢) في ٤/ ١٣٩ :

«**ذكر تصانيفه**: صنَّف الشيخ الموفَّق رحمه الله التصانيف الكثيرة الحسنة في المذهب، فروعًا وأصولاً. وفي الحديث واللغة والزهد والرقائق.

وتصانيفه في أصول الدين في غاية الحسن، أكثرها على طريقة أئمة المحدثين، مشحونة بالأحاديث والآثار، وبالأسانيد، كما هي طريقة الإمام أحمد وأئمة الحديث. ولم يكن يرى الخوض مع المتكلمين في دقائق الكلام، ولو كان بالردّ عليهم. وهذه طريقة أحمد والمتقدِّمين.

وكان كثير المتابعة للمنقول في باب الأصول وغيره، لا يرى إطلاق ما لم يؤثر من العبارات.

ويأمر بالإقرار والإمرار لما جاء في الكتاب والسنَّة من الصفات، من غير تفسير ولا تكييف، ولا تمثيل ولا تحريف، ولا تأويل ولا تعطيل».

ثم ذكر من مؤلفاته خمسة وعشرين كتابًا بدأها بكتب السنَّة والاعتقاد، فقال:

«فمن تصانيفه في أصول الدين:

* «البرهان في مسألة القرآن» جزء.
* «جواب مسألة وردت من صرخد في القرآن» جزء.

* «الاعتقاد» جزء.
* «مسألة العلوّ» جزءان.
* «ذم التأويل» جزء.
* «كتاب القدر» جزءان.
* «فضائل الصحابة» جزءان، وأظنه: «منهاج القاصدين في فضل الخلفاء الراشدين».

ثم ذكر تصانيفه في الحديث، ثم الفقه، ثم أصول الفقه، ثم اللغة والأنساب، ثم في الفضائل والرقائق، كلها بترتيب بديع وتناسق في الوصف والتقديم والتأخير.

وذكر أمرًا مهمًّا يدلُّ على تعظيمه لمآثر العلماء وحسن نظرته إليهم، فقال في مؤلفاته:

«وانتفع بتصانيفه المسلمون عمومًا، وأهلُ المذهب خصوصًا، وانتشرت واشتهرت بحسن قصده وإخلاصه في تصنيفها، ولا سيَّما كتاب «المغني»، فإنه عَظُم النفع به، وأكثر الثناء عليه». اهـ. وقد صدق في ذلك وبرَّ فلقد حظي «المغني» بمكانة عظيمة لدى الحنابلة خصوصًا وغيرهم عمومًا، فلا تكاد تخلو مكتبة فقيه بل ولا طالب علم منه!

وذكر للموفق رسالة أرسلها إلى الفخر ابن تيمية (٦٢٢هـ) في مسألة إطلاق خلود أهل البدع المحكوم بكفرهم في النار من عدمه، وهي مما وقع بين الشيخين فيها مرادَّات لخَّصها ابن رجب في ترجمة الفخر ابن تيمية ٤/ ١٥٤ ــ ١٥٧ حيث قال رحمه الله:

«ووقع بين الشيخين أيضًا تنازع في مسألة تخليد أهل البدع المحكوم بكفرهم في النار. وكان الشيخ الموفق لا يطلق عليهم الخلود. فأنكر ذلك عليه الشيخ الفخر. وقال: إن كلام الأصحاب مخالف لذلك. وأرسل يقول للشيخ موفق الدين: انظر كيف تستدرك هذه الهفوة؟

فأرسل إليه الشيخ موفق الدين كتابًا، أوله:

أخوه في الله عبد الله بن أحمد يسلم على أخيه الإمام الكبير فخر الدين جمال الإسلام، ناصر السنة، أكرمه الله بما أكرم به أولياءه وأجزل من كل خير عطاءه، وبلغه أمله ورجاءه وأطال في طاعة الله بقاءه ــ إلى أن قال ــ إنني لم أنهَ عن القول بالتخليد نافيًا له، ولا عبت القول به منتصرًا لضده، وإنما نهيت عن الكلام فيها من الجانبين إثباتًا أو نفيًا، كَفًّا للفتنة بالخصام فيها، واتباعًا للسنة في السكوت عنها، إذ كانت هذه المسألة من جملة المحدثات، وأشرت علَى من قبل نصيحتي بالسكوت عما سكت عنه رسول الله ﷺ وصحابته، والأئمة المقتدى بهم من بعده ــ إلى أن قال ــ وأما قوله ــ وفقه الله ــ إني كنتُ مسألة إجماع، فصرت مسألة خلاف. فإنني إذا كنت مع رسول الله ﷺ في حزبه، متبعًا لسنته، ما أبالي من خالفني، ولا من خالف فيَّ، ولا أستوحش لفراق من فارقني. وإني لمعتقد أن الخلق كلهم لو خالفوا السنة وتركوها، وعادوني من أجلها، لما ازددت لها إلاَّ لزومًا، ولا بها إلاَّ اغتباطًا، إن وفقني الله لذلك. فإن الأمور كلها بيديه، وقلوب العباد بين إصبعيه.

وأما قوله: إن هذه المسألة مما لا تخفى: فقد صدق وبرّ، ما هي

بحمد الله عندي خفية، بل هي منجلية مضية ولكن إن ظهر عنده بسعادته تصويب الكلام فيها، تقليدًا للشيخ أبـي الفرج وابن الزاغوني، فقد تيقنت تصويب السكوت عن الكلام فيها، اتباعًا لسيد المرسلين، ومن هو حجة على الخلق أجمعين، ثم لخلفائه الراشدين، وسائر الصحابة والأئمة المرضيين، لا أبالي من لامني في اتباعهم، ولا من فارقني في وفاقهم، فأنا كما قال الشاعر:

أجد الملامة في هواك لذيذة حبًّـا لـذكـرك فليلمنـي اللُّـوَمُ

فمن وافقني على متابعتهم، وأجابني إلى مرافقتهم وموافقتهم فهو رفيقي وحبيبـي وصديقي، ومن خالفني في ذلك فليذهب حيث شاء، فإن السبل كثيرة، ولكن خطرة.

وقوله بسعادته: إن تعلقه بأن لفظ «التخليد» لم ترد: ليس بشيء. فأقول: لكني عندي أنا هو الشيء الكبير، والأمر الجليل الخطير، فأنا أوافق أئمتي في سكوتهم، كموافقتي لهم في كلامهم، أقول إذا قالوا، وأسكت إذا سكتوا، وأسيروا إذا ساروا، وأقف إذا وقفوا، وأحتذي طريقهم في كل أحوالهم جهدي، ولا أنفرد عنهم خيفة الضيعة إن سرت وحدي.

فأما قوله: إن كتب الأصحاب القديمة والحديثة فيها القول بتكفير القائل بخلق القرآن: فهذا متضمن أن قول الأصحاب هو الحجة القاطعة. وهذا عجب!

أترى لو أجمع الأصحاب على مسألة فروعية. أكان ذلك حجة يقتنع بها، ويكتفى بذكرها؟ فإن كان فخر الدين يرى هذا فما يحتاج في

تصنيفه إلى ذكر دليل سوى قول الأصحاب. وإن كان لا يرى ذلك حجة في الفروع، فكيف جعله حجة في الأصول؟

وهَبْ أنا عذرنا العامة في تقليدهم الشيخ أبا الفرج وغيره من غير نظر في دليل. فكيف يعذر من هو إمام يرجع إليه في أنواع العلوم؟ ثم إن سلمنا ما قال، فلا شك أنه ما اطلع على جميع تصانيف الأصحاب.

ثم إن ثبت أن جميعهم اتفقوا على تكفيرهم، فهو معارض بقول من لم يكفرهم. فإن الشافعي وأصحابه لا يرون تكفيرهم، إلاَّ أبا حامد، فبم يثبت الترجح؟ ثم إن اتفق الكل على تكفيرهم، فليس التخليد من لوازمه. فإن النبـي ﷺ قد أطلق التكفير في مواضع لا تخليد فيها، وذكر حديث «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر» وغيره من الأحاديث.

وقال: قال أبو نصر السجزِي: اختلف القائلون بتكفير القائل بخلق القرآن. فقال بعضهم: كفر ينقل عن الملة. وقال بعضهم: كفر لا ينقل عن الملة، ثم إن الإمام أحمد ــ الذي هو أشد الناس على أهل البدع ــ قد كان يقول للمعتصم: يا أمير المؤمنين، ويرى طاعة الخلفاء الداعين إلى القول بخلق القرآن، وصلاة الجمع والأعياد خلفهم، ولو سمع الإمام أحمد من يقول هذا القول، الذي لم يرد عن النبـي ﷺ، ولا عن أحد قبله: لأنكره أشد الإنكار. فقد كان ينكر أقل من هذا.

ثم إن علمتم أنتم هذا، أفيحل لي ولمثلي ممن لم يعلم صحة هذا القول أن يقول به؟ وهل فرض الجاهل بشيء إلاَّ السكوت عنه؟ فأنا ما أنكرت هذا إلاَّ على الجاهل به.

أما من قد اطلع على الأسرار، وعلم ما يفعله الله تعالى على

جليته فما أنكرت عليه ولا ينبغي له أن يأمرني أن أقول بمقالتي، مع جهلي بما قد علمه، لكن إذا اعتقدتم هذا، فينبغي أن يظهر عليكم آثار العمل به في ترك مصادقتهم، وموادتهم وزيارتهم، وأن لا تعتقدوا صحة ولايتهم، ولا قبول كتاب حاكم من حكامهم، ولا من ولاه أحد منهم. وأنتم تعلمون أن قاضيكم إنما ولايته من قبل أحد دعاتهم.

وأما قولك بسعادتك «انظر كيف تتلافى هذه الهفوة وتزيل تكدير الصفوة» فإن قنع مني بالسكوت فهو مذهبي وسبيلي، وعليه تعويلي، وقد ذكرت عليه دليلي. وإن لم يرض مني إلاَّ أن أقول ما لا أعلم، وأسلك السبيل الذي غيره أسدّ وأسلم، وأخلع عذاري في سلوك ما فيه عثاري، ويسخط علي الباري: ففي هذا التلافي تلافي، وتكدير صافي أوصافي، لا يرضاه لي الأخ المصافي، ولا من يريد إنصافي، ولا من سعي في إسعافي؛ وما أتابعه ولو أنه بشر الحافي.

إلى أن قال: واعلم أيها الأخ الناصح أنك قادم على ربك، ومسؤول عن مقالتك هذه، فانظر من السائل، وانظر ما أنت له قائل، فأعد للمسألة جوابًا، وادرع للاعتذار جلبابًا. ولا تظن أنه يقنع منك في الجواب بتقليد بعض الأصحاب.

ولا يكتفي منك بالحوالة على الشيخ أبي الفرج وابن الزاغوني وأبي الخطاب.

ولا يخلصك الاعتذار بأن الأصحاب اتفقوا على أنهم من جملة الكفار، ولازم هذا الخلود في النار، فإن هذا الكلام مدخول، وجواب غير مقبول.

إلى أن قال: فأنتم إن كنتم أظهركم الله على غيبه، وبرأكم من الجهل وعيبه، وأطلعكم على ما هو صانع بخلقه: فنحن قوم ضعفاء، قد قنعنا بقول نبينا عليه السلام، وسلوك سبيله، ولم نتجاسر على أن نتقدم بين يدي الله ورسوله. فلا تحملوا قوتكم على ضعفنا، ولا علمكم على جهلنا.

وهي رسالة طويلة، لخصت منها هذا القدر» اهـ[1].

كان هذا نموذجًا لطريقة عرضه وتعداده تصانيف الأئمة، وما يتخلَّله من الدعاء لهم والثناء عليهم بها.

ولما ذكر مصنفات الشيخ أبـي الفرج ابن الجوزي ٣/ ٤١٥ ــ ٤٢١، ذكرها بأسمائها معدِّدًا أجزاءها ومجلداتها.

ونقل قبل ذلك قول الموفَّق ابن قدامة رحمة الله عليه فيه وفيها، فقال: «كان ابن الجوزي إمام أهل عصره في الوعظ، وصنَّف في العلم تصانيف حسنة، وكان صاحب قبول، وكان يدرس الفقه ويصنِّف فيه. وكان حافظًا للحديث، وصنَّف فيه، إلا أننا لم نرض تصانيفه في السنَّة، ولا طريقته فيها». اهـ.

ونقل فيها عن ابن تيمية من كتابه «أجوبة الاعتراضات المصرية» قال: «كان الشيخ أبو الفرج مفتيًا كثير التصنيف والتأليف، وله مصنفات في أمور كثيرة، حتى عددتها فرأيتها أكثر من ألف مصنف، ورأيت بعد ذلك له ما لم أره». اهـ.

---

(١) ٤/ ١٣٩ وما بعدها.

ونقل عن الذهبـي، وغيرهما من كبار النقَّاد.

ونقـل عـن الشيـخ ابـن تيميـة واصفًـا لأحسنهـا ومميِّزًا لهـا عـن المصنفات مثلها: «ومن أحسن تصانيفه، ما يجمعه من أخبار الأولين مثل «المناقب» التي صنفها[1]، فإنه ثقة كثير الاطِّلاع على مصنفات الناس، حسن الترتيب والتبويب، قادر على الجمع والكتابة.

وكان من أحسن المصنفين في هذه الأبواب تمييزًا، فإنَّ كثيرًا من المصنفين فيه لا يميز الصدق فيه من الكذب.

وكان الشيخ أبو الفرج فيه من التمييز ما ليس في غيره، وأبو نعيم له تمييز وخبرة، لكن يذكر في الحلية أحاديث كثيرة موضوعة، فهذه المجموعات التي يجمعها الناس في أخبار المتقدِّمين من أخبار الزهّاد ومناقبهم، وأيام السلف وأحوالهم مصنفات أبـي الفرج أسلم فيها من مصنفات هؤلاء، ومصنفات أبـي بكر البيهقي أكثر تحريرًا لحقٍّ ذلك من باطله من مصنفات أبـي الفرج؛ فإنَّ هذين كان لهما معرفة بالفقه والحـديـث، والبيهقـي أعلـم بـالحـديـث، وأبـو الفـرج أكثـر علـومًـا وفنونًا»[2].

---

(١) منها مناقب العمرين ابن الخطاب، وابن عبد العزيز، وسعيد بن المسيب، والحسن، والفضيل، كلها في مجلد، ومناقب الحافي، وابن أدهم، والكرخي، والعدوية، في أجزاء، ومناقب الثوري وأحمد في مجلد، وأحسنها وأجمعها مناقب الإمام أحمد، فقد أثنى عليه العلماء كثيرًا واعتمدوا عليه وصدروا عنه وعولوا عليه، وهو مطبوع في مجلد كبير، وفيه من مناقبه رحمه الله ما ليس في غيره.

(٢) من ذيل طبقات الحنابلة ٣/ ٤١٦.

فانظر رعاك الله هذه النظرة النقدية الشمولية عند الحافظ، والموازنة بين تصانيف العلماء في الفن الواحد، مما يدل على سعة اطِّلاعه وعنايته ودقته في معرفة مناهجهم وتميز بعضهم على بعض، وانظر كيف وازن بين كتب أبي نعيم وابن الجوزي ثم بينه وبين كتب البيهقي، وقد تعودنا هذا الأسلوب من الشيخ ابن تيمية خصوصًا بين موازنات كتب المتكلِّمين بعضهم مع بعض!

ولكن الحافظ ابن رجب لما أجمل الانتقاد على أبي الفرج ابن الجوزي في ثلاث جهات. لم يتطرق من خلال عرض تأليفه لما فيها من البدع والزيغ، ولعله اكتفى بما أجمله! وإن كان المقام يناسب التنبيه بما وقع فيها.

* والحافظ من منهجه أنه إذا وقف على مصنف فيه وهم أو خطأ أو مخالفات لا تتناسب والمؤلف أو الفن المكتوب فيه المصنف فإنه ينبه على ذلك ويوضحه.

كل هذا يقوله نصحًا وتحذيرًا، لا عن هوى أو غرض نفسي أو تحكُّم، بل اعتمادٌ على القواعد العلمية في النقد، بذكر النقد وموجبه، والعيب وسببه. ولا يقول ذلك أو يتورط فيه عن جهل أو عدم تروٍّ وإنما على وقوف على أصل الكتاب وتأمله، أو رؤية بعضه. بل ويظهر أثر الصناعة الحديثية على نقده، ومثله قبوله لما فيه من كون مضمونه مروي عن الأعلام أو المجاهيل ونحو ذلك:

ومن ذلك بحثه في ترجمة الشيخ عبد القادر الجيلي (٥٨٦هـ) تعرض لكتاب جمع فيه أخبار الشيخ ومناقبه فقال في ٣/ ٢٩٣،

«. . . وكان الشيخ عبد القادر رحمه الله في عصره معظمًا، يعظمه أكثر مشايخ الوقت من العلماء والزهاد، وله مناقب وكرامات كثيرة، ولكن جمع المقرىء أبو الحسن الشطنوفي المصري في أخبار الشيخ عبد القادر ومناقبه ثلاثة مجلدات وكتب فيها الطمَّ والرَّم، وكفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع.

وقد رأيت بعض هذا الكتاب، ولا يطيب على قلبي أن أعتمد على شيء مما فيه، فأنقل منه، إلاَّ ما كان مشهورًا معروفًا من غير هذا الكتاب.

وذلك لكثرة ما فيه من الرواية عن المجهولين، وفيه من الشطح، والطَّامات والدعاوى، والكلام الباطل ما لا يحصى، ولا يليق نسبة مثل ذلك إلى الشيخ عبد القادر رحمه الله.

ثم وجدت الكمال جعفر الأدفوي قد ذكر أن الشطنوفي نفسه كان متهمًا فيما يحكيه في هذا الكتاب بعينه». اهـ.

ثم نقل منه الحافظ أحسن ما فيه مما يوافق شرطه منه.

ـ ونحوه ما قاله على بعض كتب سليمان بن عبد القوي الطوفي (٧١٦هـ) في ٤/ ٣٦٨.

ـ وآخر لما حكى ما لعبد المؤمن القطيعي (٦٥٨ ـ ٧٣٩هـ) من المؤلفات ووصفها برقم ٥٢٣ في ٤/ ٤٢٨ ـ ٤٣٢ قال:

«وله رحمه الله أوهام كثيرة في تصانيفه، حتى في الفرائض، من حيث توجيه المسائل وتعليلها رحمه الله تعالى وسامحه، فلقد كان من محاسن زمانه في بلده». اهـ.

ـ وإذا كان المؤلف من إمام، لكن الكلام فيه يحتمل الحق والباطل، وكان يُحسن الظن بكاتبه فإنه يحمل ما في كلامه على أحسن المحملين، كما فعل في كتاب أبـي إسماعيل الهروي منازل السائرين ٣/ ٦٧. فانظره.

ـ وأيضًا على كتاب «نهاية المطلب في علم المذهب»، للشيخ يحيـى بن يحيـى الأزجي الحنبلي فراجعه بترجمته رقم ٢٦١ في ٤/ ١٢٠.

* ولئن كان الحافظ ابن رجب الحنبلي لا يترك مثالب المصنفات فإنه أيضًا في المقابل لا ينسى محاسنها والثناء عليها بما فيها والإشادة بما حوته من التحقيق، والتمييز، والتحرير.

وهذا منهج تميز به الحافظ، وظهر في كتابه واضحًا حيث يذكر له فيشكر ولا يجحد، حيث هذا المناسب للترجمة المتضمنة حكمًا عامًا على صاحبها، عدلاً وإنصافًا ومعرفة للحق من ذويه، لا جهلاً وتصنعًا، أو تعالمًا، أو رجمًا بالظن، أو إلقاءً بالقول على عواهنه!

وقد ذكر في ترجمة عبد الباقي بن حمزة الحداد الفرضي (٤٩٣هـ) برقم ٤٠ في ٣/ ٩٠ كتابه في الفرائض فقال: «قلت: له كتاب. . . «الإيضاح في الفرائض» رأيت منه المجلد الأول وهو حسن جدًا. صنفه على مذهب الإمام أحمد، وحرَّر فيه نقل المذهب تحريرًا جيدًا. . .». اهـ.

ومن ثنائه على مصنفات الشيخ تقي الدين بن تيمية وشهرتها وذيوعها في ٤/ ٤٠٣ وما بعدها قال: «وأما تصانيفه رحمه الله فهي أشهر من أن تذكر وأعرف من أن تنكر، سارت سير الشمس في الأقطار،

وامتلأت بها البلاد والأمصار، وقد جاوزت حد الكثرة فلا يمكن لأحد حصرها، ولا يتسع هذا المكان لعد المعروف منها، ولا ذكرها». اهـ.

وأيضًا على مؤلفات شيخه أبـي عبد الله بن القيم في ٤/ ٤٤٩ وما بعدها قال: «صنف تصانيف كثيرة جدًا في أنواع العلم، كان شديد المحبة للعلم وكتابته ومطالعته وتصنيفه، واقتناء الكتب، واقتنى من الكتب ما لم يحصل لغيره». اهـ.

ومؤلفات ابن قدامة وعبد الغني المقدسي وابن أبـي موسى الهاشمي وغيرهم كثير.



موارد ابن رجب في ذيله

سبق القول أن المصنف في التراجم والسير لن تكون مادته في تأليفه من محض نظره واجتهاده وتأمله، ولكن غالبًا بنقول عن مصادره الموردة له، والاعتبار بنوع هذه الموارد ودرجتها في العلم والعناية، وإنما يكون جهد المصنف بعد ذلك التحليل والاستنباط والانتقاء والتأليف.

وهكذا حال الحافظ ابن رجب في ذيله على طبقات ابن أبي يعلى للحنابلة، فإن أكثر مادته منقولة عن جماعة من المؤلفين في التاريخ والتراجم، ومن العلماء على مدى قرون التراجم، حيث يأخذ من كل زمان ما يذكره مؤرخوه في علمائه، وربما أخذ من مقارني كل طبقة من العلماء ممن كتبوا في التاريخ عمومًا.

وها هنا أسرد لك أكثر من صرح الحافظ بالنقل عنهم من كتبهم أو أسماء أعيانهم وهم كالتالي:

١ ــ القاضي أبو الحسين محمد بن القاضي أبي يعلى (٥٢٦هـ)، صاحب طبقات الحنابلة. نقل عنه كثيرًا في تراجم طبقته، وأهل عصره.

٢ ــ أبو الحسن علي بن عبيد الله بن الزاغوني الحنبلي

(٥٢٧هـ) له تاريخ على السنين إلى وفاته، وهو من كبار الحنابلة في وقته. وله ترجمة في الذيل برقم ٨١.

٣ ـ أبو الوفاء علي بن عقيل الحنبلي (٥١٣هـ)، وأكثر ما ينقل عنه الحافظ ابن رجب الحنبلي من كتابه الكبير «الفنون» الذي أقل ما قيل في حجمه إنه مائتا مجلد، وأكثر ما قيل فيه إنه ثمانمائة مجلد، وقال فيه الذهبي: لم يصنف في الدنيا أكبر من هذا الكتاب. انظر ترجمته في الذيل برقم ٦٦.

٤ ـ أبو الفرج عبد الواحد بن محمد الحنبلي الشيرازي (٤٨٦هـ)، ناشر مذهب الحنابلة بدمشق، وصاحب كتاب «الجواهر في التفسير» في ثلاثين مجلد، ترجم له ابن رجب برقم ٢٨.

وهو والد الشيخ عبد الوهاب بن عبد الواحد ابن الحنبلي (٥٣٦هـ) صاحب الرسالة الواضحة في الرد على الأشاعرة، ورسالة التوحيد وغيرها[١] وجد أبي الناصح ابن الحنبلي (٦٣٤هـ).

٥ ـ الحافظ محمد بن ناصر السلامي (٥٥٠هـ) محدث العراق.

٦ ـ أبو المعالي حمزة بن أسد بن القلانس المحدث (٥٥٥هـ)، صاحب ذيل تاريخ دمشق، وهو مطبوع قديمًا في مجلد متوسط.

---

(١) والرسالة الواضحة حققتها وعلقت عليها في أطروحتي للماجستير وقد طبعت قريبًا، أما رسالة التوحيد، فقد حققتها أيضًا، نفع الله بذلك آمين.

٧ ــ الحافظ عبد الكريم بن محمد السمعاني (٥٦٢هـ) صاحب الأنساب، وتواريخ: مرو والرواة، وذيل تاريخ بغداد.

٨ ــ الحافظ أحمد بن شافع (٥٦٥هـ)، له تاريخ على السنين بدأه من وفاة الخطيب البغدادي سنة (٤٦٣هـ) إلى ما بعد سنة (٥٦٠هـ) ولم يبيضه، وابن شافع تلميذ للموفق بن قدامة شيخ مذهب الحنابلة.

وقد ترجمه الحافظ برقم ١٤٠ وقال مصرحًا بالنقل عنه ٣/ ٣١٢: «وأنا فقد نقلت من تاريخ ابن شافع في هذا الكتاب فوائد مما وقع لي منه فإنه وقع لي منه عدة أجزاء من منتخبه لابن نقطة». اهـ. يعني تاريخه، وقوله: وقع لي، أي: بالإجازة.

٩ ــ الحافظ أبو الفرج صدقة بن الحسين بن الحداد (٥٧٣هـ)، صاحب الذيل على تاريخ ابن الزاغوني من سنة (٥٢٧هـ) إلى قرب وفاته. ونقل منه الحافظ في مواضع كثيرة. وترجم له برقم ٣٣٩.

١٠ ــ الإمام الحافظ المحدث أبو طاهر أحمد بن محمد السِّلفي (٥٧٦هـ) صاحب معاجم الشيوخ المتعددة.

١١ ــ الحافظ أبو موسى محمد بن عمر المديني (٥٨١هـ)، ويسميه الحافظ: ابن المديني، له كتاب «النوادر والزيادات» جعله ذيلاً على كتاب الأنساب للقرشي.

١٢ ــ الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي (٥٩٧هـ)، صاحب التواريخ والمناقب الكثيرة، وهو من أكثر من نقل عنه الحافظ ابن رجب، وقد ترجم له ترجمة مطولة برقم ٢٠٥ في المجلد الثالث من ٣٩٩ إلى ٤٣٢.

١٣ ــ الحافظ الضياء المقدسي، محمد بن عبد الواحد (٦٤٣هـ)، وهو معتمد ابن رجب في سيرة المقادسة ومناقبهم لا سيما الحافظ عبد الغني المقدسي، وكذا للحنابلة في وقته وقبله.

١٤ ــ الحافظ المؤرخ ابن النجار محمد بن محمود (٦٤٣هـ)، له ذيل على تاريخ بغداد كبير في ستة عشر مجلدًا، وله الكمال في معرفة الرجال وغيرها؛ إذ جل تصانيفه في التواريخ والتراجم، وهو ممن اعتمد عليهم الحافظ كثيرًا. وهو من أخص تلاميذ شيخ الشام الموفق بن قدامة المقدسي.

١٥ ــ الإمام الحافظ ابن نقطة، محمد بن عبد الغني الحنبلي (٦٢٩هـ)، صاحب الاستدراك والأنساب والتقييد وغيرها. وأكثر ابن رجب النقل عنه.

١٦ ــ الشيخ ناصح الدين عبد الرحمن بن نجم الدين بن الحنبلي الفقيه (٦٣٤هـ)، هو العمدة في تراجم أسرته آل ابن الحنبلي وحنابلة الشام في وقتهم، ترجمه الحافظ في ٢/ ١٩٣. وقد نص الحافظ في ترجمته تلك ٣/ ١٩٩ على نقله من كتابه فقال: «وكتاب «الاستسعاد بمن لقيت من صالحي العباد في البلاد». فقد وقفت عليه بخطه، ونقلت منه في هذا الكتاب كثيرًا». اهـ. وهو من تلامذة الموفق بن قدامة؛ بل من أقرانه وقد خلفه على إمامة ورئاسة الحنابلة مدة خمس عشرة سنة في الشام.

١٧ ــ الإمام الموفق أبي محمد عبد الله بن قدامة المقدسي (٦١٥هـ) شيخ المذهب الحنبلي ومقدمه. وقد ترجمه الحافظ برقم ٢٧٢.

١٨ ــ المحدث ابن الدبيثي، محمد بن سعيد (٦٣٧هـ)، صاحب الذيل على تاريخ ابن السمعاني الذي جعله ذيلاً على تاريخ بغداد. وتاريخ ابن الدبيثي في أربعة مجلدات.

١٩ ــ الإمام الحافظ عبد العظيم بن عبد القوي المنذري (٦٥٦هـ)، صاحب التكملة لوفيات النقلة. وهو من مصادر الحافظ المعتبرين.

٢٠ ــ سبط ابن الجوزي الشيخ يوسف بن قز أوغلي (٦٥٤هـ)، المؤرخ المشهور، من كتبه الكبار «مرآة الزمان، تاريخ الأعيان» ثمانية مجلدات، وهو من تلامذة الموفق ابن قدامة.

٢١ ــ الشيخ الفقيه أحمد بن حمدان الحراني (٦٩٥هـ)، نقل عنه ابن رجب كثيرًا، غرائب الأئمة مع إغرابه هو أيضًا، وهو صاحب الرعايتين الكبرى والصغرى في الفقه، والكبرى مخطوطة، وعنها نسخة مكتوبة سنة (٧٠٦هـ)، بجامعة الإمام، رقم ٣٥٤١ عن دبلن بإيرلندا، وأظنها قيد التحقيق بجامعة أم القرى بمكة!

٢٢ ــ شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية (٧٢٨هـ) نقل عنه ابن رجب في مواضع التحقيق للمسائل أو الحكم على الرجال ومؤلفاتهم، ومنها ما في ترجمة الشيخ عبد القادر الجيلي ٣/٢٩٦، وترجمة عثمان بن مرزوق ٣١٠ وترجمة ابن الجوزي وغيرهم، كما نقل عن كتبه العديدة ومنها «أجوبة لاعتراضات المعدية على الحموية».

٢٣ ــ المحدث علم الدين قاسم بن محمد البرزالي (٧٣٩هـ)، صاحب التاريخ الذي جعله ذيلاً على تاريخ أبـي شامة، وكتبه إلى سنة

٧٣٨هـ، وحوى ٣٠٠٠ ترجمة. وأكثر النقل عنه ابن رجب في متأخري تراجمه، خصوصًا في ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية.

٢٤ ـ الحافظ الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد (٧٤٨هـ)، وهو غني عن التعريف به وكتبه، وأشهرها «سير إعلام النبلاء» و «تاريخ الإسلام»، وهو أيضًا من مصادر الحافظ ابن رجب المعتمدة في القرن السابع والثامن على وجه الخصوص.

٢٥ ـ الإمام الفرضي عبد المؤمن بن عبد الحق القطيعي (٧٣٩هـ)، صاحب التاريخ، وينقل عنه ابن رجب، ويسميه بابن القطيعي.

٢٦ ـ الشيخ المحدث المؤرخ محمد بن رافع السلامي (٧٧٤هـ)، صاحب التاريخ المعروف والمطبوع باسم الوفيات، وينقل عنه ابن رجب في مواطن عدة ويعزو إليه ناسبًا له إلى أبيه فيقول: قال ابن رافع.

ولعلك إذا نظرت في هؤلاء الأعلام وثقلهم العلمي ومؤلفاتهم حيث هم أئمة هذا الشأن، ومظنة الصدق في نقولهم وتواريخهم، إذ هؤلاء أوثق أهل تلك القرون تصنيفًا في هذا الفن. إذا علمت هذا تبين لك قيمة ذيل ابن رجب الحنبلي، الذين هؤلاء هم مصادره وموارده.

* * *

الملاحظات

هي وجهات نظر أو قل مؤخذات بدت لي من خلال قراءة الذيل خصوصًا وسائر مؤلفات الحافظ.

وبادىء ذي بدء أذكر بأنه ما من شرط العالم أنه لا يخطىء، واستدراك الصغير على الكبير، واللاحق على السابق، أمر معتاد وطبيعي ولا ينقص من قدر المُتعقَب أبدًا، كما لا يرفع بذلك شأن المتعقب، ولربما يرى جواز بعضها.

هذه المسائل محل الملاحظة لولا الأمانة العلمية والنصح ما أوردتها، فمن أنا بجنب الحافظ رحمه الله؟!

ومجمل الملاحظات كالآتي:

١ ـ الحافظ يتساهل في نقل مصطلحات الصوفية وألفاظهم كثيرًا نحو: شهود الحضرة والأحوال كما في ٣/ ٧٩. أو في مدح المترجم له نحو: صاحب المقامات وسيد أهل الطريقة، وصاحب المعارف والأحوال، نحو ما في ترجمة عبد القادر ص ٢٩٠.

أو اشتهرت مكاشفاته، ولبس الخرقة، وأهل الطريقة ٣/ ٣٠٦، أو التعبير بالأوتاد وأشباه هذه الألفاظ في ٣/ ٣٠٧ و ٤/ ٤٤٨ وغيرها.

وتلك العبارات بعضها محتمل وبعضها ليس كذلك!

وهذا وأمثاله هو الذي جعل بعض أهل العلم يصفون الحافظ بالتصوف.

* ومن تساهله مع أحوال الصوفية ــ الذي لا يجوز ــ ما نقله في ترجمة ابن الدجاجي أو ابن الحيواني (٥٦٤هـ) ٣/ ١٠٣ من مناقبه عن ابن النجار: «أنه كان يخالط الصوفية، ويحضر معهم مجالس الغناء». وهو منكر لا يجوز في حقِّ عامة الناس فكيف بعلمائهم؟ وأعجب منه نقل الحافظ له، وأعجب منه سكوته عليه رحمه الله، لا سيما وقد أنكر عليهم في مسألة السماع، وله فيها مصنف مشهور.

٢ ــ كما أن الحافظ ابن رجب يتساهل في موضوع الرؤى والمنامات على أنها شواهد على مناقب المترجم له وصلاحه.

إذ يرويها أحيانًا عن مجاهيل، أو بدون سند، أو يطنب فيها كثيرًا، أو ما فيه تعسف أو خروج عن طبيعة تلك الكرامات، كما في التراجم المطولة لكبار العلماء، وفي ٤/ ١٥٩ و ٤/ ١٤٠، وكما في ترجمة الحافظ عبد الغني المقدسي والموفق والشيخ عبد القادر وابن الجوزي وغيرهم.

وإن كان الأصل في منهجه ألا ينقل من الرؤى إلاَّ ما وافق أصول الشرع، ومن كتاب يعرفه أو بإسناد يذكره.

٣ ــ ربما تساهل في بعض المسائل فأوردها في التراجم دون تعقيب منه أو إشارة إلى بدعيتها ومخالفتها، وهو المعروف عنه من منهجه عدم التساهل في البدع.

* ومن ذلك ما في ترجمة الوزير ابن هبيرة ٣/ ٢٧٧ حيث قال:

«وكتاب الإفصاح فيه فوائد جليلة غريبة. وقال فيه: الخضر الذي لقيه موسى عليه السلام، قيل: كان ملكًا، وقيل: كان بشرًا، وهو الصحيح، ثم قيل: إنه عبد صالح ليس بنبي، وقيل: بل نبي، وهو الصحيح. والصحيح عندنا، أنه حي، وأنه يجوز أن يقف على باب أحد مستطيعًا له، وغير ذلك؛ لما حدثني محمد بن يحيى الزبيدي. وذكر عنه حكايات تتضمن رؤية الخضر والاجتماع به». وفي ترجمة أبي الفرج الحنبلي ذكر أنه لقيه مرتين ولم يتعقبه في ذلك ٣/ ٧٠.

قلت: هذا الذي ذهب إليه الوزير قول لبعض العلماء في الخضر عليه السلام لكن ليس حيًّا كما ذكر، بل ميت؛ لحديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال في آخر عمره: «**أرأيتكم ليلتكم هذه، فإنه على رأس مائة سنة منها لا يبقى على وجه الأرض ممن هو عليها اليوم أحد**» رواه البخاري. وعلى فرض حياته لكان لقي النبي ﷺ ولم ينقل هذا ألبتة، ولأن النبي ﷺ خاتم النبيين وآخرهم، فلا يصح بقاء الخضر بعده ـ هو نبي ـ فالصحيح أنه مات قبل النبي ﷺ.

* أنه ذكر عن الشيخ رزق الله التميمي (٤٨٨هـ) أنه يخرج إلى مقبرة أحمد أربع دفعات في السنة، في رجب، وشعبان، ويوم عرفة وعاشوراء، ويعقد هنالك مجلسًا للوعظ في ٣/ ٧٨. ولم يتعقبه أو ينكره، إذ هو من البدع الإضافية.

* ذكر في جنازة الشيخ أبي منصور الخياط (٤٩٩هـ) ٣/ ٩٧

قول ابن خيرون: «ما رأيت مثل يوم صلي علي أبـي منصور الخياط، من كثرة الخلق والتبرك بالجنازة».

ذكر هذا ولم ينكره، وحقه تعجيل الإنكار في موضعه، بل عدم نقله أصلاً؛ لأن التبرك بهذا وغيره من وسائل الشرك الأكبر، إن لم يصاحبه اعتقاد في المتبرك فيه، فكيف إن صاحبه؟!

* في ترجمة ابن الجوزي ذكر ما وقع من استطالة الرافضة في العراق، وما جرى فيها من تعظيم الإمام أحمد حيث جعل على قبر الإمام أحمد لوح كتب عليه آية الكرسي وألقاب الإمام، ورفع القبر بالآجر الجديد، ذكر هذا كله ولم يتعقبه بشيء وهذا ليس من عادته رحمه الله، فربما نسيه! وهذا في ٣/ ٤٠٨.

* أيضًا نبش قبر الشيخ سعد الله بن الحيواني، ذكر مناقب العلاَّمة أبـي عمر بن قدامة ٤٧/ ٥٤، ٥٥: أنه كان يصلي بين العشاءين بأربع ركعات يقرأ فيهن بالسجدة ويس وتبارك والدخان... ويوم الجمعة ركعتين يقرأ بمائة مرة لسورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١] وأشياء أخرى.

وسكوته رحمه الله على هذه التخصيصات مشكل على عام نهجه في مثلها.

٤ ــ أمر آخر لاحظته متكررًا وهو اعتباره واستحسانه لعمل وقراءة ختمات القرآن للأموات على قبورهم وجنائزهم وبعدها، خصوصًا على كبار العلماء.

كما في ٣/٤٠٩ و ٤٢٩ و ٤٠٧ وغيرها.

وكأن الحافظ يرى جواز إهداء الميت ثواب ختمات القرآن، ويتوسع في هذا، والله أعلم.

هذا، وإن هذه المؤخذات لقليلة جدًّا في كثير فضله ودينه وعلمه وحسن اعتقاده ومنهجه، والله سبحانه وتعالى وعد عباده بغلب الحسنات للسيئات، ومن ذا الذي ليست له سيئات؟! فقال تعالى في آخر هود: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [هود: ١١٤]، وقال في آخر الفرقان في عبادة المؤمنين الأوَّابين: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان: ٧٠].

جعلنا الله والحافظ والمسلمين منهم، اللهم صَلِّ على محمد وآله وسلِّم تسليمًا.

هذا وإن غض الطرف عن مآخذ الإمام وإن علا شأنه وارتفع أمره، وطار فضله وصيته، تقليدًا له وسكوتًا على خطئه، وربما عدم عقد القلب على نكران زلته.

أقول: إنَّ غض الطرف عن هذه المآخذ، هو مثل الغلو في تتبع عثراته الساكنة، وإحياء غلطاته البائدة، وبعث منكراته الطاوية في بحر النسيان أو الخذلان، فما بالك بالتكلف في استخراج حسناته غير المقصودة، أو التقعر في نبش أخطائه المدفونة، وليِّ أطراف كلامه ليصب في البدعة أو الضلالات غصبًا... وإن كان من أهل الإيمان

صدقًا! وربما عنفوه وأغلظوا عليه في الشعرة الصغيرة، وكفروه على السريرة أو الجريرة، وبُعدًا إلى الحكم عليه بما انطوى عليه قلبه، وانعقدت عليه نيته بما لا يعلمه إلاَّ ربه الذي انقلب إليه عبده.

ودافع هذا الهوى والشيطان وبواطن النفس كثير. وقلة المعرفة والحرص والديانة قليل.

لا تغل في شيء من الأمر واقتصد   كلا طرفي قصد الأمور ذميم

قال العلامة ابن القيم:

«. . . وخير الأمور أوساطها، والأخلاق الفاضلة كلها وسط بين طرفي إفراط وتفريط. . . كذلك الدين المستقيم وسط بين انحرافين. وكذلك السنَّة وسط بين بدعتين، وكذلك الصواب في مسائل النزاع إذا شئت أن تحظى به فهو القول الوسط بين الطرفين المتباعدين»(١).

أقول هذا لإخواني طلاب العلم تبصرة ونصحًا، وربما فيهم من يتحمسون أو يستلذون الخوض في باب النقد والحكم على أقوال العلماء وأحوالهم، وربما يحكم بعضهم على نياتهم ومقاصدهم، ومن طريف مناسبة المقام ما جرى بين الموفق بن قدامة وناصح الدين بن الحنبلي من المُرادَّة في مسألة السماع المذموم، والأول أضلع في العلم من الثاني، وخلف الثاني الأول في إمامة المذهب في الشام بعد موته نحوًا من خمس عشرة سنة، فقد كتب الأول للثاني على ظهر رده عليه هذه الجملة:

---

(١) من آخر كلامه على الباب الثامن عشر في كتابه «روضة المحبين»، ص ٢٣٠.

«. . . كنت أتخيل في الناصح: أنه يكون إمامًا بارعًا، وأفرح به للمذهب؛ لما فضله الله به من شرف بيته، وإعراق نسبه في الإمامة، وما آتاه الله تعالى من بسط اللسان، وجراءة الجنان، وحدة الخاطر، وسرعة الجواب وكثرة الصواب، وظننت أنه يكون في الفتوى مبرزًا على أبيه وغيره، إلى أن رأيت له فتاوى، غيره فيها أسد جوابًا وأكثر صوابًا، وظننت أنه ابتلي بذلك لمحبته تخطئة الناس، واتباعه عيوبهم، ولا يبعد أن يعاقب الله العبد بجنس ذنبه ـ إلى أن قال ـ والناصح قد شغل كثيرًا من زمانه بالرد على الناس في تصانيفهم وكشف ما استتر من خطاياهم، ومحبة بيان سقطاتهم.

ولا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يحب للناس ما يحب لنفسه، أفتراه يحب لنفسه بعد موته من ينتصب لكشف سقطاته، وعيب تصانيفه وإظهار أخطائه؟ وكما لا يحب ذلك لنفسه ينبغي ألَّا يحبه لغيره، سيما للأئمة المتقدمين، والعلماء المبرزين، وقد أرانا الله تعالى آية في ذهابه عن الصواب من أشياء تظهر لمن هو دونه». اهـ.

ذكره الحافظ ابن رجب في ذيله ١٩٦/٤ في ترجمة ناصح الدين بن الحنبلي.

ألا فليستحضر الناقدون والمتعقبون هذه المعاني وتلك المواقف.

* * *

الباب الثاني

أقوال الحافظ ابن رجب الحنبلي في أبرز مسائل العقيدة

وفيه فصول :

الفصل الأول : الإيمان بالله تعالى :

- توحيد الربوبية .
- توحيد الأسماء والصفات .
- توحيد الألوهية .

الفصل الثاني : بقية أركان الإيمان الستة :

- الإيمان بالملائكة .
- الإيمان بالكتب .
- الإيمان بالأنبياء والرسل .
- الإيمان باليوم الآخر .
- الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره .

الفصل الثالث : بعض مسائل الإيمان :

- تعريف الإيمان .
- الإسلام والإيمان والعلاقة بينهما .
- زيادة الإيمان ونقصانه .
- أثر المعاصي والكبائر على الإيمان .

الباب الثاني
موقفه من أبرز مسائل العقيدة الإسلامية

في هذا الباب سأتعرض لذكر أقوال الحافظ ابن رجب في أبرز مسائل العقيدة التي دل عليها حديث جبريل المشهور الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفيه: «**فسأله على الإيمان فقال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره، قال صدقت. . .**» الحديث[1].

فقد دل الحديث العظيم على أصول العقيدة والإيمان الستة، التي درج علماء السلف ــ عند بحثهم العقيدة ــ في الكلام عليها.

وأنا ــ إن شاء الله ــ سأذكر أقوال الحافظ ابن رجب على تلك المسائل، مع مسائل آخر وقع فيها الخلاف والافتراق، مع أصحاب المذاهب المنحرفة، كالقول في الصفات الإلٰهية، وتعريف الإيمان. . . ولم أستوعب جميع مسائل الدين والإيمان المختلف فيها؛

(١) هذا حديث مشهور متلقى بالقبول عند الأئمة. هو متفق على صحته، أخرجه الإمام مسلم بطوله في كتاب الإيمان ــ باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ــ رقم ٩، ١٠، وأخرجه البخاري بعضه ــ الشاهد ــ في مواضع من الصحيح، منها كتاب الإيمان ــ باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإحسان وعن علم الساعة.

لأن المراد من تخصيص هذا الباب بكامله هو موافقة أقوال الحافظ ابن رجب ـ التي في العقيدة ـ ، لمنهجه الذي نهجه فيها.

إذًا هذا الباب بتمامه شاهد ودليل من كلام الحافظ على مضامين منهجه العام في تلقي العقيدة والاستدلال، وهو ما سبق في الباب الأول.

وعليه فهو تطبيق للباب السابق، وتأييد له في التدليل على سلوك الحافظ ذاك المنهج بأصوله العامة.

على أن طابع هذا الباب هو الاختصار بالنظر إلى تشعب مسائل العقيدة وتداخلها. . . والاكتفاء بالنموذج الواحد، والنموذجين عند الحاجة لزيادة معنى، من كلام ابن رجب الحنبلي في المسألة.

أما جمع أقوال ابن رجب الحنبلي في العقيدة فهو أمر آخر كفتنا كتبه الشهيرة به ففي أركان الإيمان الخمسة الأولى تجد مظنتها عنده في جامع العلوم والحكم، وفضل علم السلف على الخلف، وشرح كتاب الإيمان[1] من صحيح البخاري وهو أول كتابه «فتح الباري». . .

أما الركن المتعلق باليوم الآخر فمظنته على الترتيب كتابيه: أهوال القبور وأحوال أهلها إلى النشور، والتخويف من النار والتعريف بحال دار البوار.

مع استصحاب تداخل بعض المسائل بين الكتب المشار إليها، وأيضًا مع باقي كتبه ورسائله.

---

(١) وهذا الشرح لم أجده كاملاً فيما لدي من قطع المخطوط المشار إليه.

وسأعمل على ذات المنهج السابق ـ ما أمكن ـ من جعل الحافظ يعبر عن نفسه بنقل كلامه، دون التطويل بالتقديم أو التعقيب، إلَّا مع الحاجة إلى التعليل.

وهذا الباب مقسم إلى فصول ثلاثة: في الإيمان بالله، والإيمان ببقية أركان الإيمان، وببعض مسائل الإيمان المتعلقة بها.

* * *

الفصل الأول

الإيمان بالله تعالى

الفصل الأول

الإيمان بالله تعالى

وفيه أقوال الحافظ زين الدين ابن رجب الحنبلي على الركن الأول من أركان الإيمان الستة، وأساسها، وأسُّها الذي عليه تعتمد بقية الأركان، حيث سيكون كلامه رحمه الله على الإيمان بوجود الله، وخلقه، واستحقاقه المطلق للعبادة، والإيمان بما له من الأسماء والصفات. . .

وهو الكلام على أنواع التوحيد الثلاثة المشتملة على هذه المسائل: توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد الألوهية.

هذا والحافظ رحمه الله في عموم كتبه يجنح إلى هذا التقسيم للتوحيد، ويستسيغه، كما يفهم ذلك من كتابه: «فضل علم السلف على الخلف». وهذا التقسيم اصطلاحي، كالتقسيم المشهور قبله للتوحيد إلى نوعين:

١ ــ **التوحيد العلمي الخبري**: أو توحيد المعرفة والإثبات أو العلم والقول.

٢ ــ **التوحيد القصدي**: وهو توحيد القصد والإرادة والعمل والطلب؛ بتوحيده سبحانه بأفعال العباد.

ففي الأول توحيدا الربوبية، والأسماء والصفات، وفي الثاني توحيد الألوهية وأنواع التوحيد هذه هي للعلم بالله، ومعرفته، وعبادته التي هي أصل العلم وثمرته.

قال شيخ ابن رجب، ابن القيم في الكافية الشافية النونية[١]:

فاسمع إذًا توحيد رسل الله ثم اجعلـه داخـل كفَّـة الميـزان
مـع هـذه الأنـواع وانظـر أيهـا أولى لدى الميزان بالرجحان
توحيدُهم نوعان قوليٌّ وفعـ ـلـيٌّ كـلا نـوعيـه ذو بـرهـان

قال الحافظ ابن رجب في أصل العلم، الذي هو العلم النافع:

«فأصل العلم، العلم بالله الذي يوجب خشيته، ومحبته، والقرب منه والأنس به والشوق إليه، ثم يتلوه العلم بأحكام الله، وما يحبه ويرضاه من العبد من قول أو عمل أو حال أو اعتقاد. . .»[٢]. اهـ.

وقال في موضع قبله: «فالعلم النافع ما عرف به العبد ربه ودل عليه حتى عرف ربه، ووحَّده وأنس به، واستحيا من قربه وعبده كأنه رآه، ولهذا قالت طائفة من الصحابة: إن أول العلم يرفع من الناس الخشوع. . .»[٣]. اهـ.

---

(١) وهي التي قرأها الحافظ ابن رجب الحنبلي على شيخه العلاَّمة ابن القيم في نحو سنة، لما لازمه فيها.

(٢) من فضل علم السلف على الخلف، ص ١٥٤ و ١٥٣؛ ونحوه في ١٥٠ وما بعدها.

(٣) نفس المرجع السابق.

وقد سعد أهل السنة والجماعة بهذا العلم فأورثهم عملاً صالحًا وخشية وخشوعًا لله سبحانه وتعالى وطمأنينة، وتلذذًا بعبادته . . .

لم تحصل تلك المعرفة وما أورثته لأولئك الذين ما عرفوا الله حق معرفته حيث عطلوه عن صفاته أو بعضها، فغاب عنهم ذلك أو بعضه بقدر ما عطلوا معرفة بالله.

ولا عرفه كذلك من شبهوه بخلقه حتى زالت عن قلوبهم عظمة الألوهية وتنزيه الذات المقدسة، فغاب عنهم بقدر ذلك معرفة الله. ولا أولئك المدعين للذوق والكشف ومعرفة الحقيقة حيث تصور الشيطان في شهواتهم وأهوائهم على أنه ربهم، فغابوا بقدر ما انغمسوا فيه عن حقيقة معرفة ربهم.

فكان أسعد الناس بهذه المعرفة بالله، والأنس به والشوق إليه، وعبادته حسن العبادة أتباع رسوله ﷺ وصحابته ممن سار على دربهم واقتفى أثرهم وهم أهل السنَّة والحديث.

وعلى هذا نبدأ في الكلام على النوع الأول وهو توحيد الله بالربوبية، لأنه أقل التوحيد اختلافًا بين الناس(١).

(١) الناس على مر التاريخ اتفقوا على قضية توحيد الرب والخالق، لكنهم لم يتفقوا على توحد الله بهذه الربوبية. حيث وقع الشرك عند الثنوية، وعند الدهرية، وعند النمرود بن كنعان ببابل، وفرعون بمصر، فهذه منازعة لله في ربوبيته، ومع هذا فالشرك فيها قليل جدًا؛ لأن الربوبية قضية مسلمة عند جماهير الناس، وقد اعتمدها الله في القرآن كذلك، فانطلق منها لتقرير نوعي التوحيد: توحيد العبادة، وتوحيد الأسماء والصفات، وتقرير البعث؛ ولأن توحيد الله بالربوبية مستلزم لتوحيده بالعبادة والأسماء والصفات.

وتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الله بالأسماء والصفات، وكلا التوحيدين يستلزمان التوحيد الأعظم، توحيد الإلـٰهية، بتحقيق العبادة لله وحده، الذي هو المقصود من الخلق والجزاء والحساب والرسل والكتب.



أولاً:
توحيد الربوبية

وهو إفراد الله تعالى بالخلق والملك والتدبير والأمر. فلا يكون شيء إلَّا بقدرته، ولا يتم بمشيئته. وهو توحيد الله بأفعاله سبحانه وتعالى.

وقد تكلم الحافظ ابن رجب على هذا النوع من التوحيد فلم يطل فيه البحث؛ لأنه قضية مسلمة، ولم يكن سلفنا الصالح يتطرقون إليه أصلاً، لا إهمالاً له، ولكن من تمام تسليمهم به واستسلامهم له. وإنما كثر البحث فيه من قبل المتكلمين حتى صار منهجًا لهم، وسمة بارزة للبحث في تقرير التوحيد، توحيد الربوبية، فيفنون أوقاتهم وأعمارهم في تحصيله، وهو ــ والحمد لله ــ مُحصَّل واضح معروف. ومن شدة ذلك عرَّفوا توحيد الله الواجب بتوحيد الربوبية، وغفلوا أو تغافلوا عن المقصد الأعظم وهو توحيد الألوهية الذي لأجله كان الخلق ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

والحافظ ابن رجب دلَّل على هذا التوحيد بما ورد في القرآن الكريم من الآيات المُقررة له، وليتوصل منه إلى توحيد الله بالعبادة. ومر معنا هذا من خلال منهجه في دلالة الفطرة فراجعه.

قال رحمه الله في شرح حديث زيد بن ثابت: «وينبغي أن تقدم المشيئة على كل قول، وحلف يحلفه، ونذر ينذره، ليخرج بذلك من عمدة الاستقلال عنه (كذا قرأتها)، وليتحقق العبد أنه لا يكون مما لم يعزم عليه العبد بقوله، ومن حلف ونذر وغيرها إلاَّ ما شاء الله وأراده. ولهذا قال بعده: «**ما شئت كان، وما لم تشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلاَّ بك أنت على كل شيء قدير**» فتبرأ من حوله وقوته ومشيئته، بدون مشيئة ربه وحوله وقوته.

فإن العبد عاجز عن كل شيء إلاَّ ما قواه عليه ربه. ففي هذا الكلام إفراد الرب بالحول والقوة والقدرة والمشيئة، وأن العبد غير قادر من ذلك كله، إلاَّ بما يُقدِّره منه مولاه. وهذه نهاية توحيد الربوبية»[1]. اهـ.

فترى الحافظ هاهنا لا يجعل الكلام على توحيد الربوبية مستقلاً، بل يربطه بعبادة الله تعالى، والتعلق به، والالتجاء إليه... وهذا هو معنى الإِيمان بربوبية الله، وهذا تطبيقه عند أهل السنَّة والجماعة عليهم رحمة الله، فلم يستطردوا فيه مع عقولهم بقالوا وقلنا، وبالدور في حلقة مفرغة، لا ينتج عنها علم وعمل!

وقال رحمه الله في تحقيق كلمة الإِخلاص بوضوح في هذه العلاقة: «من علم أن الإِلـٰه ومعبوده فرد، فليفرده بالعبودية ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ۝١١٠﴾»[2] [الكهف: ١١٠].

---

(١) شرح حديث زيد بن ثابت، ق ٤٢، ٤٣؛ وقد أشكلت عليّ قراءة بعض الكلمات.

(٢) كما في تحقيق كلمة الإِخلاص، ص ٢١.

وقارن بين ما يفعله بعض الناس من الحرص على الشرف ونفوذ الأمر. . . وما يكون منه من مزاحمة ربوبية الله في بعض معانيها من إظهار حاجة الناس إليه وتعاظمه عليهم، كمن يتعالى على الناس ويتكبر عليهم أو يدعى علم الغيب. . . فكل هذا منازعه لتوحيد الله بالربوبية.

قال رحمه الله: «واعلم أن حب الشرف بالحرص على نفوذ الأمر والنهي وتدبير أمر الناس إذا قصد بذلك مجرد علو المنزلة على الخلق، والتعاظم عليهم، وإظهار صاحب هذا الشرف حاجة الناس وافتقارهم إليه، وذلهم له في طلب حوائجهم منه، فهذا نفسه مزاحمة لربوبية الله وإلـٰهيته.

وربما تسبب بعض هؤلاء إلى إيقاع الناس في أمر يحتاجون فيه إليه؛ ليضطرهم بذلك إلى رفع حاجاتهم إليه، وظهور افتقارهم واحتياجهم إليه، ويتعاظم بذلك ويتكبر به، وهذا لا يصلح إلاَّ لله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٢]، وقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٩٤].

وفي بعض الآثار: إن الله تعالى ليبتلي عبده بالبلاء ليسمع تضرعه وفي الآثار أيضًا: أن العبد إذا دعا الله تعالى وهو يحبه قال الله تعالى: يا جبريل، لا تعجل بقضاء حاجته، فإني أحب أن أسمع تضرعه، فهذه الأمور أصعب وأخطر من مجرد الظلم، وأدهى وأمر من الشرك،

والشرك أعظم الظلم عند الله»[1]. اهـ.

وقال ابن رجب مستدلاً على توحيد الألوهية، بتوحيد الربوبية: «وإنما يعبد سبحانه بعد العلم به ومعرفته، فلذلك خلق السموات والأرض، وما فيها؛ للاستدلال بها على توحيده وعظمته كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾[2] [الطلاق: ١٢]». اهـ.

فها هو الحافظ رحمه الله يُوظِّف توحيد الربوبية في مكانه المفيد علمًا وعملاً بالتعرف على الله وذاته، وما يستحقه من التعظيم وحسن العبادة وإخلاصها... وهذا لعمري ثمرة الإيمان بربوبية الله التي ضلَّ عنها المشركون بالله في كل زمان ومكان!

* * *

(١) من شرح حديث ما ذئبان جائعان، ص ٢٤.

(٢) من استنشاق نسيم الأنس، ص ٨٧.

ثانيًا:
توحيد الأسماء والصفات

وهو أن تسمِّي الله بما سمَّىٰ به نفسه، أو سماه به رسوله ﷺ وأن تصفه بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، على حد قوله سبحانه عن نفسه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى: ٤٢]، ومعنى ذلك أن تجعله في ذاته وأسمائه وصفاته واحدًا لا يشركه بهما أحد ولا يشبهه بهما أحد.

وقد صرح الحافظ ابن رجب بهذا في صفات الله التي وقع فيها الافتراق بين طوائف المسلمين، وكثر تناولهم لها في النزاع، فقال: «والصواب ما عليه السلف الصالح من إمرار آيات الصفات وأحاديثها كما جاءت من غير تفسير(١) لها، ولا تكييف ولا تمثيل، ولا يصح عن أحد منهم خلاف ذلك ألبتة، خصوصًا الإمام أحمد.

---

(١) قوله رحمه الله: من غير تفسير لها، محمولة على تفسير كتفسير النفاة من المعطلة وغيرهم للصفات بأن معناها معاني صفات البشر، بقرينة ما بعده، ومنهجه الذي اتضح لنا في صفات الله وسيأتي تطبيقه له فيها. وإلاَّ فالسلف رحمهم الله يفسرون معاني الصفات دون حقائقها وكيفياتها، حيث يكلون علمها إلى الله كما قال مالك في الاستواء: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

ولا خوضًا في معانيها، ولا ضرب مثل من الأمثال لها»[1] . اهـ.

ومنهجه في الأسماء الحسنى كمنهجه في الصفات، وكلامه فيهما أكثر من كلامه في توحيد الربوبية؛ لبلوى أهل البدع فيه.

وقال في الصفات خاصة: «وأمَّا ما وصف النبي ﷺ لربه عز وجل بما وصفه به، فكل ما وصف النبي ﷺ ربه عزَّ وجلّ به حق وصدق، يجب الإيمان والتصديق به، كما وصف الله عز وجل به نفسه، مع نفي التمثيل عنه، ومن أشكل عليه فهم شيء من ذلك واشتبه عليه، فليقل كما مدح الله به الراسخين في العلم، وأخبر عنهم أنهم يقولون عند المتشابهة ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، وكما قال النبي ﷺ في القرآن: «**وما جهلتم منه فكلوه إلى عالمه**» خرَّجه الإمام أحمد والنسائي وغيرهما، ولا يتكلف ما لا علم له به، فإنه يخشى عليه من ذلك إلى ملكه...»[2] . اهـ.

* إثباته أسماء الله، وحكم التسمي بها:

كما سبق فإن منهج الحافظ ابن رجب من أسماء الله كمنهجه من صفاته، وذلك أنه أثبت الله الأسماء الحسنى، وفصَّل في حكم التسمي بها أو ببعضها فقال:

«الأحد: اسم من أسماء يسمى الله به، ولا يسمى به غيره من الأعيان.

---

(١) من فضل علم السلف على الخلف، ص ١٣٩، ١٤٠.

(٢) من اختيار الأولى، ص ١١، ١٢.

فلا يُسمىٰ شيء من الأشياء أحدًا، الإثبات إلاَّ في الأعداد المطلقة.

وإنما يُسمىٰ به في النفي وما أشبهه من الاستفهام، والنهي، والشرط كقوله: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٤][1]، وقوله: ﴿هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ﴾ [مريم: ٩٨]، وقوله: ﴿فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ۝١٨﴾ [الجن: ١٨]، وقوله: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ﴾ [التوبة: ٦] ونحوه». اهـ.

وقال: «وحرم التسمي بأسمائه المختصة به كالله والرحمن والرب.

وإنما يجوز التسمية به مضافًا إلى غير من يعقل[2]، وكذلك الجبار والمتكبر والقهار، ونحو ذلك كالخلاق والرزاق والدائم[3]،

---

(١) من تفسير سورة الإخلاص، ص ٨٧.

(٢) أي مضافًا لغير العاقل كرب الدابة، ورب الدار ورب المزرعة.

(٣) هذا الاسم محل إشكال حيث لم يرد لفظه إلاَّ في حديث أبي هريرة في سرد الأسماء الحسنى عند الترمذي برقم ٣٥٠٧، وقال: غريب جدًا، وابن ماجه برقم ٣٨٦١. وابن حبان في صحيحه برقم ٢٣١٤، والحاكم في مستدركه ١/١٦، والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/٢٧، وفي الاعتقاد ص ٥١ وفي الأسماء والصفات رقم ٦، والحديث في أكثر طرقه من طريق الوليد بن مسلم عن شعيب بن أبي حمزة عن أبي الزناد عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأيضًا أخرجه من طريقه البغوي، في شرح السنَّة ٥/٣٢، والطبراني في الدعاء برقم ١١١، وفي التلخيص الحبير ٤/٣٢ وذكر أن ابن خزيمة أخرجه به في صحيحه. وقد نص العلماء على أن سرد الأسماء فيه مدرجة ليست من متن الحديث، وإلاَّ فصدر الحديث [إن لله تسعة وتسعين اسمًا...] الحديث، مخرج في الصحيحين، والإدراج من قبل الوليد بن مسلم. =

ومنه ملك الملوك. وقد جعل ابن عقيل التسمية بهذا مكروهة.

قال ابن عقيل: كل ما انفرد به الله كالله ورحمٰن وخالق، لا يجوز التسمِّي به، وكلما وجد معناه في الآدمي، فإن كان يوجد تكبرًا،

= قال ابن حزم في المحلى ٨/ ٣١: «وقد جاءت أحاديث في إحصاء التسعة والتسعين اسمًا مضطربة، لا يصح منها شيء أصلاً، فإنما تؤخذ من نص القرآن ومما صح عن النبي ﷺ».

وقال الشيخ ابن تيمية ٢٢/ ٤٨٢: «وحفاظ أهل الحديث يقولون: هذه الزيادة مما جمعه الوليد بن مسلم عن شيوخه من أهل الحديث، وفيها حديث أضعف من هذا رواه ابن ماجه». اهـ. نعم رواه من طريق عبد الملك بن محمد الصنعاني عن زهير بن محمد التيمي عن موسى بن عقبة، عن عبد الرحمن الأعرج عن أبي هريرة. وعبد الملك الصنعاني لين الحديث، قال البوصيري في الزوائد: «إسناد طريق ابن ماجه ضعيف لضعف عبد الملك الصنعاني». اهـ.

وذكر ابن كثير في تفسيره لآية الأعراف (ولله الأسماء الحسنى) [البقرة: ٢٦٩]، فقال: «والذي عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم، وعبد الملك بن محمد الصنعاني عن زهير بن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك، أي أنهم جمعوها من القرآن، كما روي عن جعفر بن محمد، وسفيان بن عيينة، وأبي زيد اللغوي، والله أعلم». اهـ. والحافظ ابن حجر في فتح الباري ١١/ ٢١٤ وما بعدها، جمع الطرق وتكلم عليها مبينًا عللها، وقبله جمعها الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في جزء له.

واسم الدائم إنما ثبت فيها، ولا شك أنه يجوز أن يخبر عن الله به؛ لأن معناه الباقي وهو من أسمائه الحسنى، لكن القاعدة المقررة في أسماء الله التوقيف فيها على ما صح به النص عن الله أو عن رسوله ﷺ، وأن باب الخبر أوسع من باب التسمية والصفة، وما ورد في النص فإنه يكفي في معناه ويغني عما سواه والحمد لله، والله تعالى أعلم.

كـالملـك والعظيـم والأعظـم، وملـك الملـوك والجبـار، فمكـروه، والصواب الجزم بتحريمه.

فأما ما يتسمى به المخلوقون من أسمائه كالسميع والبصير والقدير والعليم والرحيم، فإن الإضافة قاطعة للشركة[1].

وكذلك الوصفية، فقولنا: زيد سميع بصير لا يفيد إلاَّ صفة المخلوق. وقولنا: الله سميع بصير يفيد صفته اللائقة به. فانقطعت المشابهة بوجه من الوجوه.

ولهذا قال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥]. وفيه قولان: أحدهما: نفي التسمية. والثاني: نفي المساواة.

وقد نفى الله عن نفسه المثليّة بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

ونفـى عنـه العـدل والتسـوية بقـولـه: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام: ١]، وقوله: ﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٦ ـ ٩٨].

ونفى عنه الندَّ بقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

---

(١) والاسم والوصف قبل الإضافة والتخصيص مطلقان كليان لا يختصان بموجود حتى تكون الإضافة والتخصيص، وهي إما إلى خالق فتكون من أسمائه وصفاته، وإما إلى مخلوق فتكون من أسماء المخلوق وصفاته. وبسط تقرير ذلك بسطًا شافيًا أبو العباس ابن تيمية في أوائل التدمرية، فرحمهم الله وجزاهم عن الإسلام وأهله خير الجزاء.

[البقرة: ٢٢]، وقوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ [فصلت: ٩] ». اهـ[1].

فالحافظ بهذا أثبت لله عز وجل الأسماء الثابتة له. وقعّد قاعده فيما يجوز أن يُتسمى به من أسماء الله المشتركة، مع اختصاص الخالق والمخلوق كُلٌّ باسمه وما هو إلاَّ من قبيل المتواطىء اللفظي.

وما لا يجوز أن يتسمى به إلاَّ الله؛ لما فيها من المعاني المختصة بالألوهية وربوبيته.

وما يرد عليه الاحتمال، ولاحظنا أنه استصوب تحريم التسمي بها، كما عقبه على قول ابن عقيل، ولا شك أن هذا أحوط وأبرأ لسلامة الأسماء الحسنى من تطرق الاشتراك فيما هو محتمل! وعرفنا كيف بين أن الإضافة إلى الأسماء تقطع اشتراك المخلوقين بأسماء الله، كما قطعت الوصفية للمخلوقين بالسمع والبصر اشتراكهم بسمع الله وبصره، فلكلٍّ صفة تخصه، أي: أن الاشتراك في الاسم والصفة لا يدل ألبتة على التساوي فيهما. وهذا المعنى مشاهد في مخلوقات الله بعضها مع بعض فالنور صفة للصباح وصفة للشمس ولا تساوي بينهما أبدًا، فالشأن بين المخلوق وخالقه أعظم وأولى. ومن تدبر ذلك اعتبر عن مثل قول المعاندين انزجر.

* إثبات صفات الكمال لله عزَّ وجلّ، وتنزيهه عن العيوب:

قال ابن رجب في صفة الصمد لله عزَّ وجلّ: «فأتى فيه بالألف

---

(١) من تفسير سورة الإخلاص، ص ١٠٢، ١٠٣.

واللام ليدل على أنه المستحق لكمال الصَّمديَّة. فإن الألف واللام تأتي لاستغراق الجنس تارة، ولاستغراق خصائص أخرى، كقوله: زيد هو الرجل، أي الكامل في صفات الرجولة، فكذلك قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾، أي الكامل في صفات الصمدية.

وأما الأحد فلم يتسم به غير الله فلم يحتج فيه إلى الألف واللام»[1]. اهـ.

وفي إثبات صفات الكمال قال في تفسير سورة النصر: «واعلم أن التسبيح والتحميد فيه إثبات صفات الكمال، ونفي النقائص والعيوب...»[2]. اهـ.

* نفي المشابهة لله تعالى في صفاته:

قال الحافظ بعد جواز التسمي ببعض أسماء الله كالسميع والبصير، قال: «فأما ما يتسمَّىٰ به المخلوقون من أسمائه كالسميع والبصير والقدير والعليم والرحيم، فإن الإضافة قاطعة الشركة. وكذلك الوصفية، فقولنا: زيد سميع بصير لا يفيد إلَّا صفة المخلوق، وقولنا: الله سميع بصير، يفيد صفته اللائقة به، فانقطعت المشابهة بوجه من الوجوه، ولهذا قال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [مريم: ٦٥].

وفيه قولان:

أحدهما: نفي التسمية.

(١) من تفسير سورة الإخلاص، ص ٨٩.
(٢) تفسير سورة النصر، ص ٤٧.

والثاني: نفي المساواة، وقد نفى سبحانه عن نفسه المثلية بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

ونفى عنه العدل والتسوية بقوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام: ١]، وقوله: ﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۝٩٦ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٦ ــ ٩٨].

ونفى عنه الندّ بقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البقرة: ٢٢]، وقوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ [فصلت: ٩]، وفي الحديث: «**أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل الله ندًّا وهو خلقك**»، وقال للذي قال له: ما شاء الله وشئت: «**أجعلتني لله ندًّا؟**» وفي رواية: «**أجعلتني لله عدلاً؟**».

وقال كعب: السموات السبع، والأرضون السبع، أسست على هذه السورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١].

ومعنى هذا والله أعلم أن السموات والأرض، إنما خلقت بالحق، والعدل، والتوحيد كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝١٦﴾ [الأنبياء: ١٦]، ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٩]. . .». اهـ[1].

* بعض الصفات الإلـٰهية التي ذكرها ابن رجب:

وهي نماذج من كلامه على هاتيك الصفات، وسأكتفي بالتمثيل لنوعي الصفات:

---

(١) من فضل علم السلف على الخلف ص ١٠٣، ١٠٤.

الصفات الذاتية: المتعلقة بذات الله سبحانه وتعالى الملازمة لها فلا تنفك عنها بحال: كوجهه ويديه وقدمه وأصابعه وعيناه وقيوميته.

والصفات الفعلية الاختيارية: وهي المتعلقة بفعله سبحانه ومشيئته، فيفعلها سبحانه متى شاء؛ كرؤيته ونزوله وعجبه وضحكه وكاستوائه.

* الصفات الذاتية:

كصفة الوجه والإصبع والمعية والغنى.

١ ــ صفة الإصبع:

الإصبع في اللغة لها عشرة لغات، فهي مثلثة الهمزة ومثلثة الباء، هذه تسع، والعاشرة أُصُبوع بالضم في أوليه.

وقد أثبت لله الأصابع، قال الحافظ ابن رجب في المحجة: «والشأن كل الشأن في الاستقامة على الصراط المستقيم من أول السير إلى آخره ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [الحديد: ٢١]، ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: ٢٥]، وما أكثر من يرجع أثناء الطريق وينقطع، فإن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

خليليَّ قطاع الفيافي إلى الحما   كثير وأما الواصلون قليل»[(١)]

وهو مأخوذ من الحديث الذي في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**إن قلوب بني آدم كلها**

---

(١) من المحجة في سر الدلجة، ص ٧٥، ٧٦.

بين أصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد، يُصَرِّفه حيث شاء» ثم قال رسول الله ﷺ: «**اللهم مصرف القلوب صَرِّف قلوبنا على طاعتك**».

وأيضًا لما في الصحيحين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه في الحبر الذي جاء إلى النبي ﷺ وقال: يا أبا القاسم، إن الله يمسك السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال والشجر على إصبع، والماء والثرى يوم القيامة على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك، أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ تعجبًا مما قال الحبر، تصديقًا له، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧].

وهذا لفظ مسلم، والأصابع صفة ذاتية من صفات الله لا تشبه أصابع المخلوقين، ولا تماثلها، بل صفات تليق بجلال الله وعظمته وكبريائه.

٢ ــ صفة الغنى:

وهو من الصفات الذاتية الخبرية، قال ابن رجب في إثباتها لله في شرحه حديث أبي ذر الغفاري، وفيه قوله: «**يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا**».

وهو إشارة إلى أن ملكه لا يزيد بطاعة الخلق، ولو كانوا كلهم بررة أتقياء قلوبهم على قلب أنقى رجل منهم، ولا ينقص ملكه بمعصية

العاصين، ولو كان الجنُّ والإنس كلهم عصاة فجرة قلوبهم على قلب أفجر رجل منهم، فإنه سبحانه الغني بذاته عمن سواه، وله الكمال المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله، فملكه ملك كامل لا نقص فيه بوجه من الوجوه على أيِّ وجه كان»[1]. اهـ.

وهو مأخوذ من اسم الله الغني، حيث كل اسم من أسماء الله متضمن صفة، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥)﴾ [فاطر: ١٥] في آيات أخر.

ولما في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري أن ناسًا من الأنصار سألوا الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى إذا نفد ما عنده قال: «**ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يصبر يصبره الله، وما أعطي أحد من عطاء خير وأوسع من الصبر**» وهذا لفظ مسلم.

قال ابن القيم في نونيته:

وهو الغني بذاته فغناه ذا … تيٌّ له كالجود والإحسان

٣ ـ صفة المعية:

وهي معية الله لخلقه، كما دلت على نصوص الوحيين، وقد قسمها الحافظ بحسب تلك الدلالات إلى قسمين: معية خاصة وعامة. فقال في شرح حديث ابن عباس: «**احفظ الله تجده أمامك**»، وفي رواية «**تجاهك**».

---

(١) جامع العلوم والحكم، ص ٢٢٧.

معناه: أن من حفظ حدود الله، وراعى حقوقه وجد الله معه في جميع الأحوال يحوطه وينصره ويوفقه ويؤيده ويسدده، فإنه قائم على كل نفس بما كسبت، وهو تعالى ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

قال قتادة: ومن يتق الله يكن معه، ومن يكن الله معه فمعه الفئة التي لا تغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل.

كتب بعض السلف إلى أخ له، أما بعد: إن كان الله معك فمن تخاف؟! وإن كان عليك فمن ترجو؟! والسلام.

وهذه المعية الخاصة بالمتقين، غير المعية العامة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ [الحديد: ٤]، وقوله: ﴿وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ [النساء: ١٠٨]، فإن المعيّة الخاصة تقتضي النصر والتأييد والحفظ والإعانة، كما قال تعالى لموسى وهارون عليهما الصلاة والسلام: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ٤٦﴾ [طه: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: ٤٠]، وكان النبي ﷺ قد قال لأبي بكر الصديق رضي الله عنه في تلك الحال: «**ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟**».

فهذا غير المعنى المذكور في قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٧﴾

[المجادلة: ٧][1]، فإن ذلك عام لكل جماعة.

ومن هذا المعنى الخاص الحديث الإلـٰهي، وقوله فيه: «**ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها**».
إلى غير ذلك من نصوص الكتاب والسنَّة الدالة على قرب الرب سبحانه ممن أطاعه وأتقاه، وحفظ حدوده ورعاه...»[2]. اهـ.

فزين الدين ابن رجب هاهنا ذكر أن المعية قسمان:

ـ معية عامة لكل الخلق، واستدل لها بآية الحديد والنساء والمجادلة.

ـ ومعية خاصة، لأوليائه، واستدل لها بآية طه وآخر النحل وحديث أبـي هريرة: «**من عادى لي وليًا**...» والحديث المشروح عن ابن عباس.

وأنه ليس معناها المخالطة والممازجة والحلول والاتحاد وكما يفهمه زنادقة الجهمية والصوفية، وإنما مقتضاها: الإحاطة والحفظ والتأييد والنصرة والعناية، وكلها بعلم الله وإرادته سبحانه وتعالى.

وقد فصّل ذلك الحافظ في شرح حديث ابن عباس رضي الله

(١) قال ابن كثير في تفسيره لآية المجادلة هذه ٤/٣٢٣: «ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علمه تعالى، ولا شك في إرادة ذلك، ولكن سمعه أيضًا مع علمه محيط بهم، وبصره نافذ فيهم فهو سبحانه وتعالى مطلع على خلقه لا يغيب عنه من أمورهم شيء». اهـ.
(٢) من نور الاقتباس من مشكاة وصية النبـي لابن عباس ص ٤٠ ــ ٤٢.

عنهما «**احفظ الله يحفظك**» ــ وهو التاسع عشر من جامعه ــ فقال:

«وقال ﷺ: «**احفظ الله تجده تجاهك**» وفي رواية «**أمامك**» معناه: أن من حفظ حدود الله وراعى حقوقه وجد الله معه في كلّ أحواله حيث توجه يحوطه وينصره ويحفظه ويوفقه ويسدده ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ [النحل: ١٢٨]، قال قتادة: من يتق الله يكن معه، ومن يكن الله معه فمعه الفئة التي لا تغلب والحارس الذي لا ينام والهادي الذي لا يضلّ. كتب بعض السلف إلى أخ له: أما بعد، فإن كان الله معك فمن تخاف؟! وإن كان عليك فمن ترجو؟!

وهذه المعية الخاصة هي المذكورة في قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ٤٦﴾ [طه: ٤٦]، وقول موسى: ﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢﴾ [الشعراء: ٦٢]، وفي قول النبيّ ﷺ لأبي بكر وهما في الغار: «**ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ لا تحزن إن الله معنا**»، فهذه المعية الخاصة تقتضي النصر والتأييد والحفظ والإعانة، بخلاف المعية العامة المذكورة في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٧﴾ [المجادلة: ٧]، وقوله: ﴿وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ [النساء: ١٠٨]، فإن هذه المعية تقتضي علمه واطلاعه ومراقبته لأعمالهم، فهي مقتضية لتخويف العباد منه. والمعية الأولى تقتضي حفظه وحياطته ونصره فمن حفظ الله وراعى حقوقه وجده أمامه وتجاهه على كلّ حال، فاستأنس به واستغنى به عن

خلقه، كما في حديث «**أفضل الإيمان أن يعلم العبد أن الله معه حيث كان**»[1] وقد سبق»[2].

وصفة المعيّة تتضمن صفة أخرى هي القرب، والقرب من صفات الله الفعلية الاختيارية التي تكون عند مشيئته لها وإرادته، وأيضًا فالمعية الخاصة كالقرب؛ من الصفات الفعلية الاختيارية، لكن عموم المعيَّة من صفات الذاتية، التي لا تنفك عن ذاته المقدسة كعلوه وقيوميته.

ولهذا استدل لصفة القرب مع قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ...﴾ الآية [البقرة: ١٨٦]، بالحديث الذي في الصحيحين وهو حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **يقول الله عزَّ وجلّ، أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، إذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ هم خير منهم، وإن تقرب إليَّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إليَّ ذراعًا تقربت منه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة**».

---

(١) الحديث مروي عن عبادة بن الصعب، وحسنه شيخ الإسلام في الواسطية، والحديث أخرجه الطبراني في الأوسط، والكبير حتى قال في المجمع ١/ ٦٠: «تفرد به عثمان بن كثير ولم أرى من ذكره بثقة ولا جرح».
وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٦/ ١٢٤ والبيهقي في الأربعين الصغرى (٢٤) من طريق نعيم بن حماد وهو صدوق يخطىء كثيرًا، وضعفه السيوطي في الجامع الصغير ١/ ٤٩، وانظر نور الاقتباس لابن رجب ص ٥٤، والسلسلة الضعيفة للألباني ٢٥٨٩.

(٢) من جامع العلوم والحكم، ص ١٨٧.

وبحديث ابن عباس الذي في المسند وبعض السنن، منه: «**احفظ الله تجده أمامك**»[1].

* * *

(١) وهو الحديث التاسع عشر المشروح في جامع العلوم والحكم، وشرحه الحافظ في رسالته: «نور الاقتباس من مشكاة وصية النبـي لابن عباس»، فانظره فهو من نوادر الشروح!

الصفات الفعلية الاختيارية

وهي صفاته سبحانه التي أخبر بها عن نفسه أو أخبر عنه بها رسوله ﷺ، مما يتعلق بمشيئة الله وإرادته واختياره، أي يفعلها إذا شاء سبحانه واختار، ومضى منها صفة القرب: قربه من عباده، ومنها صفة الرؤية، والعجب والنزول.

١ ـ صفة الرؤية:

الله سبحانه وتعالى لا يُرى في الدنيا، وإنما يراه عباده المؤمنون في الموقف وفي الجنة، نظرة رضوان منه عليهم، وتلذذ منهم به سبحانه وتعالى إذا شاء ذلك وأراده.

وقد أثبت الحافظ ابن رجب رؤية الله في الجنة، في اليوم المشهود: يوم المزيد، قال رحمه الله:

«ومن سلك على درجة الإحسان إلى أن يموت عليها، وصل بعد الموت إلى الله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وفي الحديث الصحيح: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى منادٍ: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يبيّض وجوهنا؟ ألم يثقل موازيننا؟ ألم يدخلنا الجنة ويجرنا من النار؟ فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئًا أحب إليهم، ولا أقر**

لأعينهم من النظر إليه، وهو الزيادة» ثم تلا ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

كل أهل الجنة يشتركون في الرؤية، لكن يتفاوتون في القرب في حال الرؤية، وفي أوقات الرؤيا.

عموم أهل الجنة يرونه يوم المزيد، وهو الجمعة. وخواصهم ينظرون إلى وجه الله في كل يوم مرتين بكرة وعشيًّا.

وعموم أهل الجنة لهم رزقهم فيها بكرة وعشيًّا، وخواصهم يرون الله بكرة وعشيًّا...»[1]. اهـ. جعلنا الله منهم برحمته وفضله آمين.

وكما قال سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وفي الحديث المخرج في الصحيحين عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها، فافعلوا**» ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ۝٣٩﴾ [ق: ٣٩].

وقرر هذه العقيدة أيضًا في كتابه «التخويف من النار» بطريقة أخرى هي طريقة التقابل بين أهل النار في عذابهم وأهل الجنة في نعيمهم، مضمنًا لها الدليل العقلي النظري المنطقي على تحقق رؤية الله في الآخرة حيث قال رحمه الله: «**فصلٌ**: وأعظم عذاب أهل النار حجابهم عن الله عزَّ وجلّ وإبعادهم عنه، وإعراضه عنهم، وسخطه

---

(١) من المحجة، سير الدلجة، ص ١٨ ــ ٨٢، وانظر: ص ٤٣. وكذلك فتح الباري ق ٣٧ ــ ٣٩ و ٣٤.

عليهم، كما أن رضوان الله على أهل الجنة أفضل من كل نعيم الجنة، وتجليه لهم، ورؤيتهم إياه أعظم من جميع أنواع نعيم الجنة.

قال الله تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧) ﴾ [المطففين: ١٤ ـ ١٧].

فذكر الله تعالى لهم ثلاثة أنواع من العذاب: حجابهم عنه، ثم صليهم الجحيم، ثم توبيخهم بتكذيبهم به في الدنيا، ووصفهم بالران على قلوبهم، وهو صدأ الذنوب الذي سود قلوبهم، فلم يصل إليها بعد ذلك في الدنيا شيء من معرفة الله ولا من إجلاله ومهابته وخشيته ومحبته، فكما حجبت قلوبهم في الدنيا عن الله حجبوا في الآخرة عن رؤيته.

وهذا بخلاف حال أهل الجنة، قال تعالى: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ ﴾ [يونس: ٢٦]، والذين أحسنوا هم أهل الإحسان، والإحسان أن يعبد العبد ربه كأنه يراه، كما فسره النبي ﷺ لما سأله عنه جبريل عليه السلام، فجعل جزاء الإحسان الحسنى وهو الجنة، والزيادة وهي النظر إلى وجه الله عزَّ وجلّ، كما فسره بذلك رسول الله ﷺ في حديث صهيب(١) وغيره.

قال جعفر بن سليمان: سمعت أبا عمران الجوني قال: إن الله لم ينظر إلى إنسان قط إلاَّ رحمه، ولو نظر إلى أهل النار لرحمهم، ولكن قضى أن لا ينظر إليهم.

---

(١) رواه مسلم رقم (١٨١) في الإيمان: باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم عزَّ وجلّ.

وقال أحمد بن أبـي الحواري: حدّثنا أحمد بن موسى عن أبـي مريم، قال: يقول أهل النار: إلـٰهنا ارض عنا، وعذبنا بأي نوع شئت من عذابك، فإن غضبك أشد علينا من العذاب الذي نحن فيه.

قال أحمد، فحدثت سليمان بن أبـي سليمان، فقال: ليس هذا كلام أهل النار، هذا كلام المطيعين لله، قال: فحدثت به أبا سليمان، فقال: صدق سليمان بن أبـي سليمان، وسليمان وهو ولد أبـي سليمان الداراني وكان عارفًا كبير القدر رحمه الله، وما قاله حق، فإن أهل النار جهال لا يتفطنون لهذا وإن كان في نفسه حقًّا، وإنما يعرف هذا من عرف الله وأطاعه، ولعل هذا يصدر من بعض من يدخل النار من عصاة الموحدين، كما أن بعضهم يستغيث بالله لا يستغيث بغيره فيخرج منها، وبعضهم يخرج منها برجائه لله وحده، وبعض من يؤمر به إلى النار يتشفع إلى الله بمعرفته فينجيه منها». اهـ[1].

٢ ــ صفتا العجب والضحك:

وهما صفتان ثابتتان لله عزَّ وجلّ، وهي من صفات أفعاله واختياره قال تعالى: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الصافات: ١٢]، على قراءة الضم. ولحديث أبـي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا «**عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل**» أخرجه البخاري وغيره.

وفي إثبات الضحك حديث أبـي هريرة رضي الله عنه عن النبـي ﷺ قال: «**يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر، كلاهما يدخل الجنة**» متفق عليه.

---

(١) من التخويف من النار، ص ١٩٥ ــ ١٩٧.

قال الحافظ رحمه الله: «وقوله ﷺ في حديث أبي رزين العقيلي: «**ضحك ربنا من قنوط عبده وقرب غيره**» خرَّجه الإمام أحمد، وخرَّج ابنه عبد الله من حديث أبي رزين أيضًا: «**إنه ليشرف عليكم أزلين مشفقين، فيظل يضحك، علم أن غِيَرَكُم إلى قُرْب**».

والمعنى أنه سبحانه يعجب من قنوط عباده عند احتباس المطر عنهم، وخوفهم وإشفاقهم، ويأسهم من الرحمة، وقد قدر الله تغيير هذه الحال عن قريب، ولكنهم لا يشعرون...»[1]. اهـ.

ومن الشواهد لهذا الحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئًا، فقال رسول الله: ألا رجل يضيفه الليلة يرحمه الله؟ فقام رجل من الأنصار ـ وهو أبو طلحة ـ فقال: أنا يا رسول الله.

فذهب إلى أهله فقال لامرأته: ضيف رسول الله لا تدخري به شيئًا.

فقالت: والله ما عندي إلاَّ قوت الصبية. قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم، وتعالي فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة. ففعلت.

ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال: «**لقد عجب الله عزَّ وجلّ ـ أو ضحك ـ من فلان وفلانة**». فأنزل الله عزَّ وجلّ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] متفق عليه، وهذا لفظ

(١) من نور الاقتباس، ص ٦٦ ـ ٦٧.

البخاري، ولفظ مسلم بدون الشك، بل عجب فقط. وعند ابن أبي الدنيا من حديث أنس: «**ضحك**» من غير شك[1].

٣ ـ صفة النزول:

وهو نزول الباري جلّ وعلا آخر الليل، في ثلثه الأخير إلى السماء الدنيا كما ثبت بذلك حديث أبي هريرة في الصحيحين من أنه سبحانه ينزل في الثلث الأخير من الليل فيقول: «**هل من داعٍ فأستجيب له، هل من مستغفر فأغفر له...**» الحديث.

قال الحافظ رحمه الله: «... وكذلك آخر الليل أفضل من أوله، كذا قال السلف. واستدلوا بحديث النزول الإلـٰهي.

وهذا كله مما يُرجح به قول من قال إن صلاة العصر هي الوسطى. وأما الوقت الثالث فهو الدلجة، والإدلاج، سير آخر الليل، والمراد به هاهنا العمل في آخر الليل، وهو وقت الاستغفار، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ١٨]، وهو آخر أوقات النزول الإلـٰهي، المتضمن لاستعراض حوائج السائلين، واستغفار المذنبين، وتوبة التائبين...»[2]. اهـ.

وقد استقبح الحافظ إيراد بعض أهل الهيئة على حديث النزول في ثلث الليل الآخر، بأن ثلث الليل يختلف باختلاف البلدان، فلا يمكن النزول في وقت معين.

---

(١) كما في فتح الباري ٨/ ٥٠٠، ٥٠١.

(٢) من المحجة في سير الدلجة، ص ٦٤، ٦٥.

فقال: «وقد اعترض بعض من كان يعرف هذا على حديث النزول ثلث الليل الآخر، وقال: ثلث الليل يختلف باختلاف البلدان، فلا يمكن أن يكون النزول في وقت معين.

ومعلوم بالضرورة من دين الإسلام قبح هذا الاعتراض، وأن رسول الله ﷺ وخلفاءه الراشدين لو سمعوا من يعترض به لما ناظروه، بل بادروا إلى عقوبته وإلحاقه بزمرة المخالفين المنافقين المكذبين»[1]. اهـ.

لأن هذا المعترض مسكين، تصور كيفية نزول الله بعقله، وقال مقالته، غير مدرك لعظمة الله، وجهله بكيفية نزوله، بل ألحقه بنزول مخلوقاته، وهذا وأمثاله غير مُسلِّمين لأمر الله وخبره عن نفسه، فهو الذي خلق الليل والنهار، وجعله يتعاقب في البلدان، وهو الذي أخبرنا بنزوله في ثلث الليل الآخر إمَّا يكون كاذبًا، أم شارعًا لنا المحالات؟! كلا وسبحانه عن ذلك كله.

ومن جهة أخرى، لما كان نزول الله يليق به وبعظمته وجلاله، ولا نعرف كيفيته، فلا يستغرب نزوله في كل بلد كما يليق به، وإن وافق ذلك نهارًا عند بلد ثان.

والمقصود من هذه النماذج التدليل على صحة مسلك الحافظ في هذا التوحيد، وجريه فيه على جادة اتِّباع السلف أهل السنَّة والجماعة.

وأيضًا ما امتاز به عرضه لهذا التوحيد، بمفرداته، حيث يؤكد دائمًا على الثمرة من معرفة الأسماء والصفات، وهو معرفة معناها

---

(١) من فضل علم السلف، ص ١٣٤.

واستشعار عظمتها وآثارها على القلوب والجوارح والسلوك، ولم يشغله موضوع تقرير توحيد الأسماء والصفات، والخوض في جدال أهل البدع فيها ورد شبهاتهم، عن التنويه بثمار الأسماء والصفات، وفوائدها على القلوب والسلوك، وما يجب أن يُورثه العلم بها من تمام معرفة الله وخشيته ومراقبته، وفهم كل اسم وصفة بما يناسبه.

وقليل في الحقيقة من العلماء من يتناول ذلك.

*** إضافة المخلوقات إلى الله:**

بالتتبع للمضافات إلى الله تعالى في القرآن والسنَّة نجدها على نوعين:

١ ـ **إضافة معان**: كعلم الله وكلام الله وسمع الله وبصر الله. وهذه المعاني لا تقوم بذواتها فلا يعرف علم قائم بذاته ولا كلام ولا سمع ولا بصر فهذه المضافات إضافة صفات إلى الموصوف بها.

٢ ـ **إضافة مخلوقات**: وهي القائمة بذواتها، نحو بيت الله، وناقة الله، وأمة الله، وهذه الإضافة لمعنى، تتضمنها الإضافة من التشريف أو التعظيم والتحريم.

ومن ذلك ما قاله الحافظ ابن رجب في «لطائف المعارف» فقال: «وقد سمَّى النبي ﷺ المحرم: شهر الله، وإضافته إلى الله تدل على شرفه وفضله، فإن الله تعالى لا يضيف إليه إلاَّ خواص مخلوقاته، كما نسب محمدًا وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وغيرهم من الأنبياء وصلوات الله عليهم وسلامه إلى عبوديته، ونسب إليه بيته وناقته.

ولما كان هذا الشهر مختصًا بإضافته إلى الله تعالى، وكان الصيام من بين الأعمال مضافًا إلى الله تعالى، فإنه له من بين الأعمال، ناسب أن يختص هذا الشهر المضاف إلى الله بالعمل المضاف إليه المختص به وهو الصيام.

وقد قيل في معنى إضافة هذا الشهر إلى الله عزَّ وجلّ: إنه إشارة إلى أن تحريمه إلى الله عزَّ وجلّ، ليس لأحد تبديله، كما كانت الجاهلية يحلونه ويحرمون مكانه صفر. فأشار إلى أنه شهر الله الذي حرمه، فليس لأحد من خلقه تبديل ذلك وتغييره»(١) اهـ.

وهذا من إضافة المخلوقات إلى الله؛ لأن الشهر زمان، والزمان مخلوق، والله خالقه.



(١) من لطائف المعارف، ص ٨١، ٨٢.

ثالثًا:

تـوحـيـد الألـوهـيـة

وهو إفراد الله تعالى بالعبادة وحده لا شريك له، أو هو توحيد الله بأفعال العباد.

وقد أطال رحمه الله النفس في هذا النوع من التوحيد، ويدندن عليه في كل مناسبة تأتي له. وقد أصله بتأصيل الكتاب والسنَّة له. وفرَّع عليه أنواع العبادة، ونواقضها، ونواقض كمالها.

وسبب التوسُّع هاهنا والإطالة، أهمية هذا التوحيد وجلالته، فهو المقصود من الخلق وإرسال الرسل وإنزال الكتب، وتشريع الشرائع، ولأنَّ التوحيدين السابقين، توحيدي الربوبية والأسماء والصفات يستلزمان هذا التوحيد، ويوجبانه.

قال الحافظ في معنى اسم الله الواحد: «الأحد هو الواحد في إلـٰهيَّته وربوبيَّته». اهـ.

* تعريفه الإسلام:

عرَّف الحافظ زين الدين ابن رجب الإسلام بمعناه العام فقال: «والإسلام يقتضي الاستسلام والانقياد والطاعة»[1]. اهـ.

---

(١) من تحقيق كلمة الإخلاص، ص ٤٠.

وعرف الإسلام في موضع آخر من رسالته «مقدمة تشتمل على أن جميع الرسل كان دينهم الإسلام» فقال ص ١٨ :

والإسلام هو: الاستسلام والانقياد، وهو متضمن لعبادة الله وحده، لا شريك له.

والعبادة: تجمع كمال الحب، وكمال الخضوع والذل.

وعبادة الله: هي الغاية التي لأجلها خلق الخلق، وبها سعد من سعد منهم في الدنيا والآخرة. فأما في الآخرة فظاهر معروف، وأما في الدنيا فقد بسط في موضع آخر.

كما ذكر اختلاف الناس في المقصود بالتأله والعبادة، وبين ما في تلك الأقوال من الباطل، وأن الصحيح من ذلك أنه **لا صلاح ولا فلاح ولا سرور ولا نعيم ولا قرة أعين إلاَّ بأن يكون كمال إرادتهم ومحبتهم وخشيتهم وتعظيمهم وتألهم لله وحده لا شريك له، وأن ضد ذلك هو عين الفساد**. ولا يتسع هذا المكان لبسط هذه الأمور». اهـ.

وأيضًا فسَّر الإسلام بمعناه الخاص، من حيث العلاقة بينه وبين الإيمان فقال: «فأما الإسلام، فقد فسَّره النبي ﷺ بأعمال الجوارح الظاهرة من القول والعمل، وأول ذلك شهادة أن لا إلـه إلَّا الله وأنَّ محمدًا رسول الله، وهو عمل اللسان، ثم إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً. وهي منقسمة إلى عمل بدني كالصلاة والصوم، وإلى عمل مالي وهو إيتاء الزكاة، وإلى ما هو مركَّب منها كالحج بالنسبة إلى البعيد عن مكة، وفي رواية ابن حبان أضاف إلى ذلك الاعتمار والغسل من الجنابة وإتمام والوضوء، وفي

هذا تنبيه على أن جميع الواجبات الظاهرة داخلة في مسمى الإسلام.

وإنما ذكرنا هاهنا أصول أعمال الإسلام التي ينبني عليها كما سيأتي شرح ذلك في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «**بني الإسلام على خمس**» في موضعه إن شاء الله تعالى.

وقوله في بعض الروايات: «**فإذا فعلت ذلك فأنا مسلم؟ قال: نعم**» يدلُّ على أنَّ من أكمل الإتيان بمباني الإسلام الخمس، صار مسلمًا حقًّا، مع أنَّ من أقرَّ بالشهادتين صار مسلمًا حكمًا، فإذا دخل في الإسلام بذلك ألزم بالقيام ببقيَّة خصال الإسلام، ومن ترك الشهادتين خرج من الإسلام...»[1]. اهـ.

* من هو الإلـه المعبود، ومكانة كلمة التوحيد:

معبود بمعنى مألوه، قال الحافظ ابن رجب في قول: لا إلـه إلاَّ الله: «يقتضي أن لا يحب سواه، فإنَّ الإلـه هو الذي يُطاع فلا يُعصى، محبَّةً له وخوفًا ورجاء، ومن تمام محبته محبَّة ما يحبّه، وكراهة ما يكرهه، فمن أحبَّ شيئًا مما يكرهه الله، أو كره شيئًا مما يحبّه الله لم يكمل توحيده وصدقه في قول لا إلـه إلاَّ الله، وكان فيه من الشرك الخفي بحسب ما كرهه مما أحبَّه الله، وما أحبَّه مما يكرهه الله. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾[2] [محمد: ٢٨]». اهـ.

---

(١) جامع العلوم والحكم، ص ٢٤.

(٢) من تحقيق كلمة الإخلاص، ص ٢١ ــ ٢٢، و ص ٣٦.

وقال: «ومن صدق في قول لا إلـه إلاَّ الله لم يحب سواه، ولم يرجُ سواه، ولم يخف أحدًا إلاَّ الله، ولم يتوكل إلاَّ على الله، ولم يبق له بقية من آثار نفسه وهواه. ومع هذا فلا تظنوا أن المحب مطالب بالعصمة، وإنما هو مطالب كلما زلَّ أن يتلافى تلك الوصمة..»[1]. اهـ.

ومكانة كلمة التوحيد عظيمة، فهي أصل الإسلام ومفتاح الولوج فيه وفي جنات عدن.

قال الحافظ ابن رجب في شرح حديث أبـي هريرة: «**مثل المؤمن كمثل خامة الزرع من حيث أتاها الريح كفأتها، فإذا اعتدلت تكفأ بالبلاء، والفاجر كالأرزة، صمّاء معتدلة حتى يقصمها الله إذا شاء**» متفق عليه. قال رحمه الله:

«فإن التمثيل بالزرع لجسده، لتوالي البلاء عليه، والتمثيل بالنخلة لإيمانه وعمله وقوله، يدل عليه قوله عزَّ وجلّ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، فجعلها مثلاً لكلمة الشهادتين التي هي أصل الإسلام، وثبوتها في قلب المؤمن كثبوت أصل النخلة في الأرض، وارتفاع عمل المؤمن إلى السماء كارتفاع النخلة، وتجدد عمل المؤمن كل حين كإتيان النخلة أكلها كل حين»[2]. اهـ.

وقال في تحقيق كلمة الإخلاص ــ بعد سوقه أحاديث فضل لا إلـه إلاَّ الله، وأنها تنجي من النار، وعذاب الله ــ: «وقالت طائفة

---

(١) المرجع السابق نفسه.

(٢) من غاية النفع بتمثيل المؤمن بخامة الزرع، ص ٢٦.

من العلماء: المراد من هذه الأحاديث أن لا إلـه إلاَّ الله سبب لدخول الجنَّة والنجاة من النار، ومقتضٍ لذلك. ولكن المقتضي لا يعمل عمله إلا باستجماع شروطه وانتفاء موانعه، فقد يتخلف عنه مقتضاه لفوات شرط من شروطه أو لوجود مانع. وهذا قول الحسن ووهب بن منبه، وهو الأظهر»[1]. اهـ.

* متى تنفع كلمة التوحيد قائلها:

بسط الحافظ هذه المسألة في تحقيقه لمعنى كلمة الإخلاص:

«ونظير هذا أنَّ النبي ﷺ قال: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلـه إلاَّ الله، وأنَّ محمدًا رسول الله**»، ففهم عمر وجماعة من الصحابة أن من أتى بالشهادتين امتنع من عقوبة الدنيا بمجرَّد ذلك، فتوقفوا في قتال مانعي الزكاة، وفهم الصديق رضي الله عنه أنه لا يمتنع قتاله إلاَّ بأداء حقوقها؛ لقوله ﷺ: «**فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاَّ بحقِّها، وحسابهم على الله**»، وقال: الزكاة حقّ المال.

وهذا الذي فهمه الصديق رضي الله عنه قد رواه عن النبي ﷺ صريحًا غير واحد من الصحابة، منهم ابن عمر وأنس وغيرهما رضي الله عنهم، وأنه قال: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلـه إلاَّ الله، وأنَّ محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة**»، ودلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْۚ﴾ [التوبة: ٥]، كما دلَّ قوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ

---

(١) من تحقيق كلمة الإخلاص، ص ٩. وانظر مثله: جامع العلوم والحكم، ص ٢٥.

﴿ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِۗ﴾ [التوبة: ١١] على أنَّ الأُخوة في الدين لا تثبت إلَّا بأداء الفرائض مع التوحيد، فإن التوبة من الشرك لا تحصل إلَّا بالتوحيد.

ولما قرَّر أبو بكر رضي الله عنه هذا للصحابة رجعوا إلى قوله، ورأوه صوابًا، فإذا علم أنَّ عقوبة الدنيا لا ترتفع عمَّن أدَّى الشهادتين مطلقًا، بل يعاقب بإخلاله بحق من حقوق الإسلام، فكذلك عقوبة الآخرة.

ـ وقد ذهب طائفة إلى أنَّ هذه الأحاديث المذكورة أوَّلاً وما في معناها كانت قبل نزول الفرائض والحدود، منهم الزهري والثوري وغيرهما، وهذا بعيد جدًّا، فإن كثيرًا منها كانت بالمدينة بعد نزول الفرائض والحدود، وفي بعضها أنه كان في غزوة تبوك، وهي في آخر حياة النبي ﷺ، وهؤلاء منهم من يقول: هذه الأحاديث منسوخة، ومنهم من يقول: هي محكمة، ولكن ضم إليها شرائط، ويلتفت هذا إلى أنَّ الزيادة على النص: هل هي نسخ أم لا؟ والخلاف في ذلك بين الأصوليين مشهور، وقد صرَّح الثوري وغيره بأنها منسوخة وأنه نسختها الفرائض والحدود، وقد يكون مرادهم بالنسخ البيان والإيضاح، فإنَّ السلف كانوا يطلقون النسخ على مثل ذلك كثيرًا، ويكون مرادهم أن آيات الفرائض والحدود تبين بها توقف دخول الجنة والنجاة من النار على فعل الفرائض واجتناب المحارم فصارت تلك النصوص منسوخة، أي مبيّنة مفسَّرة، ونصوص الحدود والفرائض ناسخة، أي مفسِّرة لمعنى تلك، موضحة لها.

ـ وقالت طائفة: تلك النصوص المطلقة قد جاءت مقيدة في أحاديث أُخر، ففي بعضها: من قال: «**لا إلـه إلاَّ الله مخلصًا**»، وفي بعضها: «**مستيقنًا**»، وفي بعضها: مصدِّقًا بها قلبه ولسانه، وفي بعضها: «**يقولها حقًّا من قلبه**»، وفي بعضها: «**قد ذلَّ بها لسانه واطمأنَّ بها قلبه**».

وهذا كله إشارة إلى عمل القلب وتحققه بمعنى الشهادتين، فتحققه بمعنى شهادة أن لا إلـه إلاَّ الله: أن لا يأله قلبه غير الله حبًّا ورجاءً، وخوفًا وطمعًا وتوكُّلاً واستعانةً، وخضوعًا وإنابة، وطلبًا؛ وتحققه بأنَّ محمدًا رسول الله: ألا يعبد الله بغير ما شرعه على لسان نبيّه محمد ﷺ، وهذا المعنى جاء مرفوعًا إلى النبي ﷺ صريحًا أنه قال: «**من قال لا إلـه إلاَّ الله مخلصًا دخل الجنة**». قيل: ما إخلاصها يا رسول الله؟ قال: «**أن تحجزك عما حرَّم الله عليك**». وهذا يروى من حديث أنس بن مالك وزيد بن أرقم، ولكن إسنادهما لا يصح[1]، وجاء أيضًا من مراسيل الحسن نحوه.

وتحقيق هذا المعنى وإيضاحه: أن قول العبد: (لا إلـه إلاَّ الله)

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط، وفيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان وهو وضّاع. قاله في المجمع ١/ ١٨. ويعرف أبوه بـ «مُرَاد» من أهل بغداد، يروي عن أبيه وغيره من الشيوخ العجائب التي لا يشك من هذا الشأن صناعته أنها معمولة أو مقلوبة. قاله ابن حبان في المجروحين، وقال الدارقطني: كان يضع الحديث. وقال ابن عدي: له عن ثقات الناس بواطيل. ترجمه في المجروحين ٢/ ٣٠٥، والميزان ٣/ ٦٢٥، وقال العقيلي: جاء بأحاديث منكرة ليس منها شيء محفوظ. وقال ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج به، منكر. التهذيب وغيرها.

يقتضي أن لا إلـه له غير الله، والإلـه هو الذي يُطاع فلا يُعصى هيبةً له وإجلالاً، ومحبَّة وخوفًا ورجاء، وتوكُّلاً عليه وسؤالاً منه ودعاء له، ولا يصلح ذلك كله لغير الله عزَّ وجلّ، فمن أشرك مخلوقًا في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلـٰهية كان ذلك قدحًا في إخلاصه في قوله: لا إلـه إلاَّ الله، ونقصًا في توحيده، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك، وهذا كله من فروع الشرك.

ولهذا ورد إطلاق الكفر والشرك على كثير من المعاصي التي منشؤها من طاعة غير الله أو خوفه أو رجائه، أو التوكُّل عليه أو العمل لأجله، كما ورد إطلاق الشرك على الرياء، وعلى الحلف بغير الله، وعلى التوكل على غير الله والاعتماد عليه، وعلى من سوى بين الله وبين المخلوق في المشيئة، مثل: أن يقول ما شاء الله وشاء فلان، وكذا قوله: ما لي إلاَّ الله وأنت، وكذلك ما يقدح في التوحيد وتفرُّد الله بالنفع والضرّ كالطيرة والرقى المكروهة، وإتيان الكهَّان وتصديقهم بما يقولون، وكذلك اتباع هوى النفس فيما نهى الله عنه قادح في تمام التوحيد وكماله.

ولهذا أطلق الشرع على كثير من الذنوب التي منشؤها من هوى النفس أنها كفر وشرك، كقتال المسلم ومن أتى حائضًا أو امرأة في دبرها. ومن شرب الخمر في المرة الرابعة، وإن كان ذلك لا يخرجه من الملة بالكلية. ولهذا قال السلف: كفر دون كفر وشرك دون شرك.

وقد ورد إطلاق الإلـه على الهوى المتبع. قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣]. قال الحسن: «هو الذي لا يهوى

شيئًا إلاَّ ركبه». وقال قتادة: «هو الذي كلما هوى شيئًا ركبه، وكلما اشتهى شيئًا أتاه، لا يحجزه عن ذلك ورع ولا تقوى» وروي من حديث أبـي أمامة مرفوعًا بإسناد ضعيف: «**ما تحت ظل السماء إلـٰه يعبد أعظم عند الله من هوى متبع**».

وفي حديث آخر: «**لا تزال لا إلـٰه إلاَّ الله تدفع عن أصحابها حتى يؤثروا دنياهم على دينهم، فإذا فعلوا ذلك رُدَّت عليهم، ويقال لهم: كذبتم**».

ويشهد لهذا الحديث الصحيح عن النبـي ﷺ: «**تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم وعبد الخميصة، إن أُعطي رضي وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش**».

فدلَّ هذا على أنَّ من أحبَّ شيئًا وأطاعه، وكان غاية قصده ومطلوبه، ووالى لأجله، وعادى لأجله، فهو عبده، وكان ذلك الشيء معبوده وإلـٰهه.

ويدل عليه أيضًا أن الله تعالى سمى طاعة الشيطان في معصيته عبادة للشيطان، كما قال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [يس: ٦٠].

وقال تعالى حاكيًا عن خليله إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿ يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ ﴾ [مريم: ٤٤]. فمن لم يتحقق بعبودية الرحمن وطاعته فإنَّه يعبد الشيطان بطاعته له، ولم يخلص من عبادة الشيطان إلاَّ من أخلص عبودية الرحمن، وهم الذين قال فيهم: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ [الحجر: ٤٢]،

فهم الذين حققوا قول: «لا إلـه إلاَّ الله»، وأخلصوا في قولها، وصدقوا قولهم بفعلهم، فلم يلتفتوا إلى غير الله محبَّة ورجاءً وخشية وطاعة وتوكلاً، وهم الذين صدقوا في قول: «لا إلـه إلاَّ الله»، وهم عباد الله حقًّا، فأما من قال: «لا إلـه إلاَّ الله» بلسانه، ثم أطاع الشيطان وهواه في معصية الله ومخالفته، فقد كَذَّب فعلُه قولَه، ونقص من كمال توحيده بقدر معصية الله في طاعة الشيطان والهوى، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]، ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

فيا هذا! كن عبدًا لله لا عبدًا للهوى، فإنَّ الهوى يهوي بصاحبه في النار: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ [يوسف: ٣٩].

تعس عبد الدرهم! تعس عبد الدينار! والله لا ينجو غدًا من عذاب الله إلاَّ من حقق عبودية الله وحده، ولم يلتفت إلى شيء من الأغيار. ومن علم أنَّ إلـهه ومعبوده فرد فليفرده بالعبودية ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

كان بعض العارفين يتكلم على أصحابه، على رأس جبل، فقال في كلامه: لا ينال أحد مراده حتى ينفرد فردًا لفرد؛ فانزعج واضطرب، حتى رأى أصحابه أنَّ الصخور قد تدكدكت وبقي على ذلك ساعة، فلما أفاق فكأنما نشر من قبره.

قوله: «لا إلـه إلاَّ الله» يقتضي أن لا يحب سواه، فإنَّ الإلـه هو الذي يُطاع، فلا يُعصى محبة له وخوفًا ورجاء، ومن تمام محبته محبة ما

يحبه وكراهة ما يكرهه، فمن أحبَّ شيئًا مما يكرهه الله أو كره شيئًا مما يحبّه الله لم يكمل توحيده وصدقه في قوله: «لا إلـه إلاَّ الله»، وكان فيه من الشرك الخفي بحسب ما كرهه مما أحبَّه الله، وما أحبّه مما يكرهه الله. قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٢٨ ﴾ [محمد: ٢٨].

قال الليث عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿ لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ ﴾ [النور: ٥٥]، قال: «لا يحبُّون غيري».

وفي صحيح الحاكم عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب الذرة على الصفا في الليلة الظلماء، وأدناه أن تحب على شيء من الجور، وأن تبغض على شيء من العدل، وهل الدين إلاَّ الحبّ والبغض؟ قال الله عزَّ وجلّ: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾»[1] [آل عمران: ٣١]، وهذا نصٌّ في أنَّ محبة ما يكرهه الله وبغض ما يحبه الله متابعة للهوى، والموالاة على ذلك والمعاداة عليه من الشرك الخفي.

وقال الحسن: اعلم أنك لن تحبَّ الله حتى تحب طاعته!

وقال الحسن: قال أصحاب رسول الله ﷺ: إنا نحب ربّنا حبًّا شديدًا، فأحب الله أن يجعل لحبه علمًا، فأنزل هذه الآية.

ومن هنا يُعلم أنه لا تتم شهادة أن لا إلـه إلاَّ الله إلاَّ بشهادة أنَّ محمدًا رسول الله، فإذا علم أنه لا تتم محبَّة الله إلاَّ بمحبَّة ما يحبّه

(١) في إسناده: عبد الأعلى بن أعين. قال الدارقطني: غير ثقة، ذكره الذهبي في تلخيصه على المستدرك (٢/ ٢٩١). وقال فيه العقيلي: جاء بأحاديث منكرة.

وكراهة ما يكرهه، فلا طريق إلى معرفة ما يحبّه ويكرهه إلاَّ من جهة محمد ﷺ المبلِّغ عن الله ما يحبه وما يكرهه باتِّباع ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، فصارت محبته مستلزمة لمحبَّة رسوله ﷺ وتصديقه ومتابعته، ولهذا قرن الله محبَّته ومحبَّة رسوله ﷺ في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[1]. كما قرن طاعته وطاعة رسوله ﷺ مواضع كثيرة». اهـ[2].

* * *

(١) سورة التوبة: الآية ٢٤، والآية بتمامها: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

(٢) من تحقيق كلمة الإخلاص، ص ١٣ ــ ٢٥.

*** ولمَّا عدَّد الحافظ فضائل التوحيد جعلها في أربع وعشرين فضيلة، هي باختصار:**

١ ــ هي كلمة التقوى.

٢ ــ هي كلمة الإخلاص وشهادة الحق.

٣ ــ لأجلها أرسلت الرسل وأنزلت الكتب.

٤ ــ لأجلها أعدت دار الثواب والعقاب.

٥ ــ لأجلها أمرت الرسل بالجهاد، وهي العاصمة للدم ومن المال.

٦ ــ هي مفتاح الجنة ودعوة الرسل، وبها كلَّم الله موسى كفاحًا.

٧ ــ هي ثمن الجنة.

٨ ــ ومن كانت آخر كلمة دخل الجنة.

٩ ــ هي نجاة من النار.

١٠ ــ وهي الموجبة للمغفرة.

١١ ــ وهي أحسن الحسنات.

١٢ ــ وهي التي تمحو الذنوب والخطايا.

١٣ ــ وهي التي تجدد ما اندرس من الإيمان.

١٤ ــ ولا يعدلها شيء في الوزن، وترجح بالسموات والأرض ومن فيهما سوى الله.

١٥ ــ وهي التي تخرق الحجب حتى تصل إلى الله عزَّ وجلّ.

١٦ ــ وهي التي ينظر الله إلى قائلها، ويجيب دعاءه.

١٧ ــ وهي الكلمة التي يصدق الله قائلها.

١٨ ــ وهي أفضل ما قاله النبيُّون.

١٩ ــ وهي أفضل الذكر.

٢٠ ــ وهي أكثر الأعمال وأكثرها تضعيفًا، وتعدل عتق الرقاب. وهي حرز من الشيطان.

٢١ ــ وهي أمان من وحشة القبر وظلمته، وهول المحشر وكربته.

٢٢ ــ وهي شعار المؤمنين إذا قاموا من قبورهم.

٢٣ ــ أنها تفتح لقائلها أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء.

٢٤ ــ أن أهلها وإن دخلوا النار بتقصيرهم في حقوقها، فإنهم لا بدَّ أن يخرجوا منها.

واستدلَّ لكل هذا بأنواع من الأحاديث والآثار الدالَّة عليها[١].

وهذا التعداد من الحافظ يدل على فقهٍ، وعلى ارتباطه الوثيق بمنهج السلف الصالح ومأثورهم.

* ما هما شرطا العبادة؟

نص الحافظ على شرطي العبادة، وهما:

١ ــ الإخلاص بها لله تعالى.

٢ ــ ومتابعة هدي النبــي ﷺ فيه، بأن تكون موافقة لسنَّته.

---

(١) من تحقيق كلمة الإخلاص، ص ٤٣ ــ ٦٢.

قال رحمه الله:

«وليست الفضائل بكثرة الأعمال البدنيَّة، لكن بكونها خالصة لله عزَّ وجلّ صوابًا على متابعة السنَّة، وبكثرة معارف القلوب وأعمالها. فمن كان بالله أعلم، وبدينه وأحكامه وشرائعه، وله أخوف وأحب وأرجى، فهو أفضل ممن ليس كذلك، وإن كان أكثر منه عملاً بالجوارح، وإلى هذا المعنى الإشارة في حديث عائشة رضي الله عنها بقول النبي ﷺ: «**سدِّدوا وقاربوا، واعلموا أنه لن يدخل أحدًا منكم بعمله الجنة، وإنَّ أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلَّ**»، فأمر بالاقتصاد في العمل، وأن يضم إلى ذلك العلم بأحب الأعمال إلى الله، وبأن العمل وحده لا يدخل الجنة..»[1]. اهـ.

وأكَّد رحمه الله على شرط الإخلاص في شرحه للبخاري فقال: «فالإخلاص شرط لحصول الثواب في جميع الأعمال، فإن الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى.

فإن كان الباعث على عمله ابتغاء وجه الله صار له هنا الأجر.

وإن كان الباعث عليه الرياء، والسمعة، والمباهاة، فصاحبه معرض لمقت الله وعقابه، كسائر من عمل من أعمال البر يريد به الدنيا»[2]. اهـ.

وهذان الأصلان عبَّر عنهما ابن القيم في تعريفه للعبادة بنظمه من

---

(١) من المحجَّة في سير الدلجة، ص ٥٢.

(٢) من فتح الباري «الظاهرية»، ق ١٣٢.

النونية فقال:

وعبـادة الـرحمٰـن غـايـة حبّـه ... مـع ذلّ عبـاده همـا قطبـان
وعليهمـا فلـك العبـادة دائـر ... مـا دار حتـى قـامـت القطبـان
ومـداره بـالأمـر أمـر رسـولـه ... لا بـالهـوى والنفـس والشيطـان

❊ ❊ ❊

بعض أنواع العبادة

على سبيل الاختصار، هذه نماذج من أنواع العبادة التي تعرَّض لها الحافظ ابن رجب، في التمثيل لتوحيد الإلـٰهية. والاستشهاد ببعضها، مطرد على بقيتها. وقد تكلم على أنواع من العبادة منها:

١ ـ الدعاء:

والدعاء أجلى وأظهر أنواع العبادة، حتى عبر عنه في الحديث بأنه هو العبادة كما أخرج الترمذي وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «**الدعاء هو العبادة**»، وقال: حديث حسن صحيح.

وعليه، فقال زين الدين ابن رجب:

«واعلم أن سؤال الله تعالى دون خلقه هو المتعيّن عقلاً وشرعًا، وذلك من وجوه متعدِّدة:

منها أنَّ السؤال فيه بذل لماء الوجه، وذلَّة للسائل، وهذا لا يصلح إلاَّ لله وحده، فلا يصلح الذل إلاَّ له بالعبادة، والمسألة.

وذلك غاية المحبَّة الصادقة.

وهذا الذلّ، وهذه المحبَّة لا تصلح إلاَّ لله وحده، وهذه هي حقيقة العبادة التي يختص بها الإلـٰه الحق.

كان الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ يقول في دعائه: اللَّـٰهُمَّ كما صنت وجهي عن السجود لغيرك، فصنه عن المسألة لغيرك»[1]. اهـ.

وقال في كتاب آخر: «ومن أنواع العبادات التي يظهر فيها الذل والخضوع لله عزَّ وجلّ: الدعاء، قال الله تعالى: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقال: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، فمما يظهر فيه الذل: رفع اليدين...»[2]. اهـ.

ثم ذكر بعدها بعضًا من شرائط دعاء العبادة وآدابه.

٢ ـ **الخوف والرجاء:**

من الله تعالى، وهما جناحا المؤمن. قال الحافظ ابن رجب: «وكان بعض السلف يقول: من عبد الله بالرجاء وحده فهو مرجىء، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد مؤمن.

وسبب هذا أنه يجب على المؤمن الإيمان بهذه الوجوه الثلاثة: المحبة، والخوف، والرجاء. ولا بدَّ له من جميعها.

ومن أخلَّ ببعضها فقد أخلَّ ببعض واجبات الإيمان، وكلام هذا الحكيم يدلُّ على أنَّ الحب ينبغي أن يكون أغلب من الخوف والرجاء، فأما الخوف والرجاء فأكثر السلف على أنهما يستويان لا يرجح أحدهما على الآخر.. قاله مُطرف والحسن وأحمد وغيرهم، ومنهم من رجح

---

(١) من نور الاقتباس، ص ٥٢ ـ ٥٣.

(٢) من الخشوع في الصلاة، ص ٤٦ وما بعدها.

الخوف على الرجاء وهو محكي عن الفضيل وأبـي سليمان الداراني».

وقال: «فصل في القدر الواجب من الخوف: والقدر الواجب من الخوف ما حمل على أداء الفرائض واجتناب المحارم، فإن زاد على ذلك بحيث صار باعثًا للنفوس على التشمير في نوافل الطاعات، والانكفاف عن دقائق المكروهات والتبسُّط في فضول الحاجات؛ كان ذلك فضلاً محمودًا.

فإن تزايد على ذلك بأن أورث مرضًا أو موتًا أو همًّا لازمًا بحيث يقطع عن السعي في اكتساب الفضائل المطلوبة المحبوبة لله عزَّ وجلّ لم يكن ذلك محمدًا.

ولهذا كان السلف يخافون على عطاء السليمي من شدَّة خوفه الذي أنساه القرآن وصار صاحب فراش، وهذا لأنَّ خوف العقاب ليس مقصودًا لذاته، إنما هو سوط يساق به المتواني عن الطاعة إليها.

ومن هنا كانت النار من جملة نِعم الله على عباده الذين خافوه واتَّقوه، ولهذا المعنى عدَّها الله سبحانه من جملة آلائه على الثقلين في سورة الرحمـٰن». اهـ[1].

وقال بعبارة أخرى:

«فإذا أحسَّ منها بتوقُّف ــ أي نفسه ــ في السير تعاهدها تارة بالتشويق وتارة بالتخويف حتى تسير.

قال بعض السلف: الرجاء قائد، والخوف سائق، والنفس بينهما

(١) من كتابه: التخويف من النار، ص ٢٥ و ٢٨ ــ ٢٩.

كالدابة الحروف فمتى فتر قائدها وقصَّر سائقها وقفت فتحتاج إلى الرفق بها، والحدو لها حتى يطيب لها السير كما قال حادي الإبل بالوادي:

بشَّــرهــا دليلهــا وقــال لهــا غــدًا تــريــن الطلــح والجبــالا

ولما كان الخوف كالسوط فمتى ألحَّ بالضرب بالسوط على الدابة تلفت، فلا بدَّ لها مع الضرب من حادي الرجاء يطيِّب لها السير بحدائق حتى تقطع.

قال أبو زيد: ما زلت أقود نفسي إلى الله وهي تبكي حتى سقتها وهي تضحك»[1].

وهذا معناه أن الخوف والرجاء كجناحي الطائر للمؤمن، لا يسير إلا بهما سويًا، ولا منافاة لقول بعضهم: في حال الصحة والرخاء يغلب جانب الخوف قليلاً لترتدع عن الغيّ، وفي حال الخوف والمرض يغلب جانب الرجاء وحسن الظنّ بالله، حتى إذا مات مات وهو يحسِّن الظنّ بربه فيدخل الجنَّة.

والخوف والرجاء عبادتان قلبيَّتان من أعمال القلوب، وتظهر آثارهما على الجوارح وتتداخلان مع أنواع عديدة من العبادات كالصلاة والصيام والزكاة والحج والتوكُّل والخشوع والخضوع والإنابة والاستقامة.

٣ ـ الخشوع:

وهو عبادة قلبية من أفعال القلوب، وهي تتفاوت بحسب الخاشع

(١) المحجَّة في سير الدلجة، ص ٧١ ـ ٧٢.

وخوفه من المخشوع وتتفاوت حسب الدافع إليها. قال رحمه الله في الخشوع في الصلاة:

«وأصل الخشوع الحاصل في القلب: إنما هو من معرفة الله، ومعرفة عظمته، وجلاله وكماله، فمن كان بالله أعرف فهو له أخشع.

ويتفاوت الخشوع في القلوب بحسب تفاوت معرفتها لمن خشعت له، وبحسب تفاوت مشاهدة القلوب للصفات المقتضية للخشوع:

(أ) فمن خاشع لقوة مطالعته لقرب الله من عبده، واطِّلاعه على سره وضميره المقتضي للاستحياء من الله تعالى، ومراقبته في الحركات والسكنات.

(ب) ومن خاشع لمطالعته لكماله وجماله المقتضي للاستغراق في محبته والشوق إلى لقائه ورؤيته.

(ج) ومن خاشع لمطالعته شدَّة بطشه وانتقامه وعقابه المقتضي للخوف منه.

وهو سبحانه وتعالى: جابر المنكسرة قلوبهم من أجله..». اهـ[1].

وقال في سبب حصول الخشوع لله رب العالمين من طريق العلم النافع، فقال:

«وسبب ذلك أن هذا العلم النافع يدل على أمرين:

---

(١) الخشوع في الصلاة، ص ٢٠ ـ ٢١.

أحدهما: على معرفة الله وما يستحقه من الأسماء الحسنى والصفات العلى والأفعال الباهرة، وذلك يستلزم إجلاله وإعظامه وخشيته ومهابته ومحبَّته ورجاءه والتوكُّل عليه والرضا بقضائه والصبر على بلائه.

والأمر الثاني: المعرفة بما يحبّه ويرضاه وما يكرهه ويسخطه من الاعتقادات والأعمال الظاهرة والباطنة والأقوال.

فيوجب ذلك لمن علمه المسارعة إلى ما فيه محبة الله ورضاه والتباعد عما يكرهه ويسخطه، فإذا أثمر العلم لصاحبه هذا فهو علم نافع، فمتى كان العلم نافعًا ووقر في القلب فقد خشع القلب لله وانكسر له وذلَّ هيبة وإجلالاً وخشية ومحبَّة وتعظيمًا، ومتى خشع القلب لله وذلَّ وانكسر له قنعت النفس بيسير الحلال من الدنيا وشبعت به فأوجب لها ذلك القناعة والزهد في الدنيا». اهـ[1].

وحذَّرنا الحافظ من خشوع النفاق، وهو الخشوع رياءً وسمعة، فقال: «ومتى تكلَّف الإنسان تعاطي الخشوع في جوارحه وأطرافه مع فراغ قلبه من الخشوع وخلوه منه كان ذلك خشوع النفاق، وهو الذي كان السلف يستعيذون منه.

كما قال بعضهم: استعيذوا بالله من خشوع النفاق. قالوا: ما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعًا والقلب ليس بخاشع.

ونظر عمر إلى شاب قد نكس رأسه، فقال له: يا هذا، ارفع

---

(١) من فضل علم السلف على الخلف، ص ١٥٢.

رأسك، فإنَّ الخشوع لا يزيد على ما في القلب، فمن أظهر خشوعًا غير ما في قلبه فإنما هو نفاق على نفاق». اهـ[1].

٤ ـ التوكُّل:

وهو أيضًا من عبادات القلوب، فالتوكُّل عمل قلب، عرَّفه الحافظ زين الدِّين ابن رجب وبيَّنه بقوله:

«فإن التوكُّل هو قطع الاستشراف باليأس من المخلوقين، كما قال الإمام أحمد واستدلَّ عليه بقول إبراهيم عليه السلام لما عرض له جبرائيل في الهواء وقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا.

والتوكُّل من أعظم الأسباب التي تطلب بها الحوائج، فإنَّ الله يكفي من توكَّل عليه، كما قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣] ». اهـ[2].

وقال في شرح حديث زيد بن ثابت: «فمن حقق التوكُّل على الله لم يكله إلى غيره وتولاَّه. . . ».

«وحقيقة التوكُّل تفويض الأمور إلى من هي بيده. فمن توكَّل على الله في هدايته، وحراسته، ورزقه. . وغير ذلك من مصالح دينه ودنياه تولَّى الله مصالحه كلها، وهذا حقيقة الوثوق بالله، وبرحمته، كما في هذا الدعاء «ولا أثق إلا برحمتك» فمن وثق برحمته، فقد حقق التوكُّل به في توفيقه وتسديده. . »[3]. اهـ.

---

(١) من الخشوع في الصلاة، ص ١٩ ـ ٢٠.

(٢) من نور الاقتباس، ص ٧٦، ومثله تمامًا في جامع العلوم والحكم، ص ٤٣٩.

(٣) من شرح حديث زيد بن ثابت، ق (٤٦ ـ ٤٧).

* قاعدة في تحقيق التوكل:

وتناول الحافظ هذه العبادة بالتفصيل تقعيدًا وتفريعًا في شرحه حديث عمر بن الخطاب: «**لو أنَّكم توكلون على الله حقَّ توكُّله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا**» رواه أحمد وأهل السنن، حيث قال فيه: «واعلم أنَّ تحقيق التوكُّل لا ينافي السعي في الأسباب التي قدر الله سبحانه وتعالى المقدورات بها، وجرت سنَّته في خلقه بذلك، فإن الله أمر بتعاطي الأسباب، مع أمره بالتوكل، فالسعي في الأسباب بالجوارح طاعة له، والتوكُّل بالقلب عليه إيمان به، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

قال سهل التستري: من طعن في الحركة ـ يعني: في السعي والكسب ـ فقد طعن في السنَّة، ومن طعن في التوكُّل فقد طعن في الإيمان، فالتوكُّل حال النبيّ ﷺ والكسب سنَّته، فمن عمل على حاله فلا يتركنَّ سنَّته.

ثمَّ إنَّ الأعمال التي يعملها العبد ثلاثة أقسام:

أحدها: الطاعات التي أمر الله عباده بها وجعلها سببًا للنجاة من النار ودخول الجنَّة، فهذا لا بدَّ من فعله مع التوكُّل على الله فيه والاستعانة به عليه، فإنَّه لا حول ولا قوَّة إلاَّ به، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فمن قصر في شيء مما وجب عليه من ذلك استحقَّ العقوبة في

الدنيا والآخرة شرعًا وقدرًا.

قال يوسف بن أسباط: يقال: اعمل عمل رجل لا ينجِّيه إلاَّ عمله، وتوكَّل توكُّل رجل لا يصيبه إلاَّ ما كتب له.

والثاني: ما أجرى الله العادة به في الدنيا وأمر عباده بتعاطيه، كالأكل عند الجوع، والشرب عند العطش، والاستظلال من الحرّ، والتدفِّي من البرد، ونحو ذلك، فهذا أيضًا واجب على المرء تعاطي أسبابه، ومن قصر فيه حتى تضرَّر بتركه مع القدرة على استعماله فهو مفرط يستحق العقوبة، لكنَّ الله سبحانه وتعالى قد يقوِّي بعض عباده من ذلك على ما لا يقوِّي عليه غيره، فإذا عمل بمقتضى قوَّته التي اختصَّ بها عن غيره فلا حرج عليه. ولهذا كان النبيّ ﷺ يواصل في صيامه وينهى عن ذلك أصحابه ويقول لهم: «**إني لست كهيئتكم، إني أُطعَم وأُسقى**». وفي رواية: «**إنِّي أظلّ عند ربي يطعمني ويسقيني**». وفي رواية: «**إنَّ لي مطعمًا يطعمني وساقيًا يسقيني**» والأظهر أنه أراد بذلك أنَّ الله يقوِّيه ويغذِّيه بما يورده على قلبه من الفتوح القدسية والمنح الإلـٰهية والمعارف الربّانية التي تغنيه عن الطعام والشراب برهة من الدهر، كما قال القائل:

لها أحاديث من ذكراك تشغلها ... عن الشراب وتلهيها عن الزاد
لها بوجهك نور تستضيء به ... وقت المسير وفي أعقابها حادي
إذا اشتكت من كلال السير أوعدها ... روح القدوم فتحيا عند ميعاد

وقد كان كثير من السلف لهم من القوَّة على ترك الطعام والشراب ما ليس لغيرهم ولا يتضرَّرون بذلك، وكان ابن الزبير يواصل ثمانية

أيام، وكان أبو الجوزاء يواصل في صومه بين سبعة أيام ثم يقبض على ذراع الشاة فيكاد يحطِّمها، وكان أبو إبراهيم التيمي يمكث شهرين لا يأكل شيئًا غير أنه يشرب شربة حلوى، وكان حجاج بن فرافصة يبقى أكثر من عشرة أيام لا يأكل ولا يشرب ولا ينام، وكان بعضهم لا يبالي بالحرّ ولا بالبرد، كما كان عليّ رضي الله عنه يلبس لباس الصيف في الشتاء ولباس الشتاء في الصيف، وكان النبي ﷺ دعا له أن يُذهب الله عنه الحرَّ والبرد، فمن كان له قوَّة على مثل هذه الأمور فعمل بمقتضى قوَّته ولم يضعفه عن طاعة الله فلا حرج عليه، ومن كلَّف نفسه ذلك حتى أضعفها عن بعض الواجبات فإنه ينكر عليه ذلك، وكان السلف ينكرون على عبد الرحمن بن غنم حيث كان يترك الأكل مدة حتى يعاد من ضعفه.

القسم الثالث: ما أجرى الله العادة به في الدنيا في الأعمّ الأغلب، وقد يخرق العادة في ذلك لمن شاء من عباده، وهو أنواع:

منها: ما يخرقه كثيرًا ويغني عنه كثيرًا من خلقه كالأدوية بالنسبة إلى كثير من البلدان وسكان البوادي ونحوها.

* وقد اختلف العلماء هل الأفضل لمن أصابه المرض التداوي أم تركه لمن حقق التوكُّل على الله؟

فيه قولان مشهوران، وظاهر كلام أحمد أن التوكُّل لمن قوي عليه أفضل لما صحَّ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفًا بغير حساب، ثم قال: هم الذين لا يتطيَّرون ولا يسترقون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكَّلون**»، ومن رجح التداوي قال: إنه حال

النبيّ ﷺ الذي كان يداوم عليه وهو لا يفعل إلَّا الأفضل[1]، وحمل الحديث على الرقى المكروهة التي يخشى منها الشرك بدليل أنه قرنها بالكي والطيرة وكلاهما مكروه.

ومنها: ما يخرقه القليل من العامة كحصول الرزق لمن ترك السعي في طلبه، فمن رزقه الله صدق يقين وتوكّل وعلم من الله أن يخرق له العوائد ولا يحوجه إلى الأسباب المعتادة في طلب الرزق ونحوه؛ جاز له ترك الأسباب ولم ينكر عليه ذلك، وحديث عمر هذا الذي نتكلَّم عليه يدلُّ على ذلك، ويدلُّ على أنَّ الناس إنما يؤتون من قلَّة تحقيق التوكُّل ووقوفهم مع الأسباب الظاهرة بقلوبهم ومساكنتهم لها، فلذلك يتعبون أنفسهم في الأسباب ويجتهدون فيها غاية الاجتهاد ولا يأتيهم إلَّا ما قُدِّر لهم، فلو حقَّقوا التوكُّل على الله بقلوبهم لساق إليهم أرزاقهم مع أدنى سبب كما يسوق إلى الطير أرزاقها بمجرَّد الغدوِّ والرواح، وهو نوع من الطلب والسعي لكنه سعي يسير، وربما حُرِمَ الإنسان رزقه أو بعضه بذنب يصيبه كما في حديث ثوبان عن النبي ﷺ قال: «**إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه**»، وفي حديث جابر عن النبي ﷺ: «**لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتَّقوا الله وأجملوا في الطلب خذوا ما حلّ ودعوا ما حرّم**»، وقال عمر: بين العبد وبين رزقه حجاب، فإن قنع ورضيت نفسه آتاه الله رزقه، وإن اقتحم وهتك الحجاب لم يزد فوق رزقه. وقال بعض السلف: توكَّل تسق إليك الأرزاق بلا تعب ولا تكلُّف.

---

(١) وإلى هذا كان يجنح سماحة شيخنا عبد العزيز بن باز ـ رحمه الله تعالى ـ .

قال سالم بن أبـي الجعد: حدَّثت أن عيسى عليه السلام كان يقول: اعملوا لله ولا تعملوا لبطونكم، وإياكم وفضول الدنيا، فإنَّ فضول الدنيا عند الله رجز، هذا طير السماء يغدو ويروح ليس معه من أرزاقه شيء لا يحرث ولا يحصد ويرزقه الله. فإن قلتم إن بطوننا أعظم من بطون الطير، فهذه الوحوش من البقر والحمير تغدو وتروح ليس معها من أرزاقها شيء لا تحرث ولا تحصد يرزقها الله. خرَّجه ابن أبـي الدنيا، وخرَّج بإسناده عن ابن عباس قال: كان عابد يتعبَّد في غار، وكان غراب يأتيه كلّ يوم برغيف يجد فيه طعم كل شيء حتى مات ذلك العابد. وعن سعيد بن عبد العزيز عن بعض مشيخة دمشق قال: أقام إلياس هاربًا من قومه في جبل عشرين ليلة ــ أو قال: أربعين ــ تأتيه الغربان برزقه.

وقال سفيان الثوري: قرأ واصل الأحدب هذه الآية: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]، فقال: ألا إنَّ رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض، فدخل خربة فمكث ثلاثًا لا يصيب شيئًا، فلما كان اليوم الرابع إذا هو بدوخلة من رطب، وكان له أخ أحسن نية منه فدخل معه فصارتا دوخلتين، فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرَّق الموت بينهما.

ومن هذا الباب من قوي توكُّله على الله ووثوقه به[١]، فدخل

---

(١) كذا قرَّره أيضًا في لطائف المعارف ١٣٨ ــ ١٤٢، ومما قاله: «فإذا قوي التوكُّل على الله تعالى بقضائه وقدره، فقويت النفس على مباشرة بعض الأسباب اعتمادًا على الله ورجاءً منه ألا يحصل به ضرر، ففي هذه الحال تجوز مباشرة ذلك، لا سيَّما إذا كان فيه مصلحة عامة أو خاصة». ثم ذكر أكل المجذوم مع النبـي ﷺ في قصعته، وشرب خالد للسم، ومشي سعد ومن معه على الماء. . وغير ذلك، =

المفاوز بغير زاد، فإنه يجوز لمن هذه صفته دون من لم يبلغ هذه المنزلة، وله في ذلك أسوة بإبراهيم الخليل عليه السلام، حيث ترك هاجر وابنها إسماعيل بواد غير ذي زرع وترك عندهما جرابًا فيه تمر وسقاء فيه ماء، فلما تبعته هاجر وقالت له: إلى من تدعنا؟ قال لها: إلى الله، قالت: رضيت بالله.

وهذا كان يفعله بأمر الله ووحيه، فقد يقذف الله في قلوب بعض أوليائه من الإلهام الحقّ ما يعلمون أنه حقّ ويثقون به.

قال المروزي: قيل لأبي عبد الله: أيُّ شيء صدق التوكُّل على الله؟ قال: أن يتوكَّل على الله ولا يكون في قلبه أحد من الآدميين يطمع أن يجيبه بشيء، فإذا كان كذلك كان الله يرزقه وكان متوكلاً.

قال: وذكرت لأبي عبد الله التوكُّل، فأجازه لمن استعمل فيه الصدق.

قال: وسألت أبا عبد الله عن رجل جلس في بيته ويقول: أجلس وأصبر ولا أطلع على ذلك أحدًا وهو يقدر أن يحترف، قال: لو خرج فاحترف كان أحبّ إليّ، وإذا جلس خفت أن يحوجه إلى أن يكون يتوقع

= قال: «... فهذا كله لا يصح إلا لخواصِّ الناس، قوي إيمانهم بالله وقضائه وقدره، وتوكُّلهم عليه وثقتهم به، ونظير ذلك دخول المفاوز بغير زاد.. كل ذلك يجوز عند الإمام أحمد لمن قوي توكُّله، فإنَّ التوكُّل أعظم الأسباب التي تستجلب بها المنافع، وتستدفع بها المضار...». اهـ. ثم ذكر أنَّ الأسباب نوعان:

١ ــ أسباب خيرٍ، يُفرح بها ولا يسكن إليها، بل إلى خالقها ومسببها.

٢ ــ وأسباب شرٍّ، لا تضاف إلاَّ إلى الذنوب، فلا يُشرع اتِّقاؤها إلاَّ الظاهر منها، كالقدوم على بلد الطاعون...

أن يرسلوا إليه بشيء. قلت: فإذا كان يبعث إليه بشيء فلا يأخذه، قال: هذا جيِّد.

قلت لأبي عبد الله: إنَّ رجلاً بمكة قال: لا آكل شيئًا حتى يطعمني ربي. ودخل في جبل أبي قبيس، فجاء إليه رجلان وهو متزر بخرقة، فألقيا إليه قميصًا وأخذا بيده، فألبساه القميص ووضعا بين يديه شيئًا فلم يأكل حتى وضعا مفتاحًا حديديًّا في فيه وجعلا يدسان في فمه، فضحك أبو عبد الله وجعل يتعجَّب.

قلت لأبي عبد الله: إنَّ رجلاً ترك البيع والشراء وجعل على نفسه أن لا يقع في يده ذهب ولا فضّة، وترك دوره فلم يأمر فيها بشيء، وكان يمرّ في الطريق فإذا رأى شيئًا مطروحًا أخذ بيده مما قد ألقي. قال المروزي: فقلت للرجل: ما لك حجّة على هذا غير أبي معاوية الأسود، قال: بل أويس القرني، وكان يمر بالمزابل فيلتقط الرقاع، فصدقه أبو عبد الله، وقال: قد شدَّد على نفسه. ثم قال: لقد جاءني البقلي ونحوه، فقلت لهم: لو تعرضتم للعمل تشهرون أنفسكم، قال: وإيش ينالني من الشهرة؟

وروى أحمد بن الحسين بن حسان عن أحمد أنه سُئل عن رجل يخرج إلى مكة بغير زاد، فقال: إن كنت تطيق، وإلا فلا تخرج إلاَّ بزاد وراحلة لا تخاطر.

قال أبو بكر الخلال: يعني إن أطاق وعلم أنه يقوى على ذلك ولا يسأل ولا يستشرف نفسه لأن يأخذ أو يُعطى فيقبل؛ فهو متوكِّل على الصدق.

وقد أجاز العلماء التوكُّل على الصدق.

قال: وقد حجَّ أبو عبد الله وكفاه في حجَّته أربعة عشر درهمًا.

وسُئل إسحاق بن راهويه: هل للرجل أن يدخل المفازة من غير زاد؟ فقال: إن كان الرجل مثل عبد الله بن جبير فله أن يدخل المفازة بغير زاد، وإلاَّ لم يكن له أن يدخل، ومتى كان الرجل ضعيفًا وخشي على نفسه أن لا يصبر أو يتعرَّض للسؤال أو أن يقع في الشكّ والسخط؛ لم يجز له ترك الأسباب حينئذ، وأنكر عليه غاية الإنكار كما أنكر الإمام أحمد وغيره على من ترك الكسب وعلى من دخل المفازة بغير زاد وخشي عليه التعرُّض للسؤال. وقد روي عن ابن عباس قال: كان أهل اليمن يحجُّون ولا يتزوَّدون ويقولون: نحن متوكِّلون، فيحجُّون فيأتون مكة فيسألون الناس، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وكذلك قال مجاهد وعكرمة والنخعي وغير واحد من السلف، فلا يرخص في ترك السبب بالكلية إلاَّ لمن انقطع قلبه عن الاستشراف إلى المخلوقين بالكلية.

وقد رُوي عن أحمد أنه سُئل عن التوكُّل فقال: قطع الاستشراف باليأس من الخلق، فسُئل عن الحجة في ذلك، فقال: قول إبراهيم عليه السلام لما عرض له جبريل وهو يرمى في النار، فقال له: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا.

وظاهر كلام أحمد أن الكسب أفضل بكلّ حال، فإنه سُئل عمَّن

يقعد ولا يكتسب ويقول: توكَّلت على الله، فقال: ينبغي للناس كلهم يتوكَّلون على الله، ولكن يعودون على أنفسهم بالكسب.

وروى الخلال بإسناده عن الفضيل بن عياض أنه قيل له: لو أنَّ رجلاً قعد في بيته زعم أنه يثق بالله فيأتيه رزقه، قال: إذا وثق بالله حتى يعلم منه أنه قد وثق به؛ لم يمنعه شيء أراده، لكن لم يفعل ذلك الأنبياء ولا غيرهم.

وقد كانت الأنبياء يؤجرون أنفسهم، وكان النبي ﷺ يؤجر نفسه وأبو بكر وعمر، ولم يقولوا: نقعد حتى يرزقنا الله عزَّ وجلّ. وقال الله عزَّ وجلّ: ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، ولا بُدَّ من طلب المعيشة.

وقد رُوي عن بشر ما يشعر بخلاف هذا، فروى أبو نعيم في الحلية أنَّ بشرًا سُئل عن التوكُّل، فقال: اضطراب بلا سكون وسكون بلا اضطراب، فقال له السائل: فسِّره لنا حتى نفقه، فقال بشر: اضطراب بلا سكون؛ رجل تضطرب جوارحه وقلبه ساكن إلى الله لا إلى عمله، وسكون بلا اضطراب؛ رجل ساكن إلى الله بلا حركة، وهذا عزيز، وهو من صفات الأبدال، وبكل حال فمن لم يصل إلى هذه المقامات العالية فلا بدَّ له من معاناة الأسباب لا سيَّما من له عيال لا يصبرون.

وقد قال النبي ﷺ: «**كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت**».

وكان بشر يقول: لو كان لي عيال لعملت واكتسبت. وكذلك من ضيع بتركه الأسباب حقًّا له ولم يكن راضيًا بفوات حقه، فإنَّ هذا عاجز مفرط، وفي مثل هذا جاء قول النبيّ ﷺ: «**المؤمن القويّ خير وأحبّ**

إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كُلٍّ خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، فإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا، ولكن قُل: قدَّر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان» خرَّجه مسلم بمعناه من حديث أبي هريرة.

وفي سنن أبي داود عن عوف بن مالك: أن النبي ﷺ قضى بين رجلين، فقال المقضي عليه لمّا أدبر: حسبُنا الله ونِعم الوكيل، فقال النبيّ ﷺ: «**إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس، فإذا غلبك أمر فقل: حسبي الله ونعم الوكيل**».

وخرَّج الترمذي من حديث أنس قال: قال رجل: «**يا رسول الله، أعقلها وأتوكَّل، أو أطلقها وأتوكَّل؟ قال: اعقلها وتوكَّل**».

وذكر عن يحيى القطَّان أنه قال: هو عندي حديث منكر. وخرَّجه الطبراني من حديث عمرو بن أميَّة عن النبي ﷺ.

وروى الوضين بن عطاء عن محفوظ بن علقمة عن ابن عابد أنَّ النبي ﷺ قال: «**إنَّ التوكُّل بعد الكيس**» وهذا مرسل، ومعناه أنَّ الإنسان يأخذ بالكيس والسعي في الأسباب المباحة ويتوكَّل على الله بعد سعيه، وهذا كله إشارة إلى أنَّ التوكُّل لا ينافي الإتيان بالأسباب، بل قد يكون جمعهما أفضل.

قال معاوية بن قرَّة: لقي عمر بن الخطاب ناسًا من أهل اليمن فقال: من أنتم؟ قالوا: نحن المتوكِّلون، قال: بل أنتم المتأكلون، إنما المتوكِّل الذي يلقي حبَّه في الأرض ويتوكَّل على الله.

قال الخلَّال: أخبرنا محمد بن منصور قال: سأل المازني بشر بن الحارث عن التوكُّل، فقال: المتوكِّل لا يتوكَّل على الله ليُكفى، ولو حلَّت هذه القصة في قلوب المتوكِّلين لضجُّوا إلى الله بالندم والتوبة، ولكن المتوكِّل يحلّ بقلبه الكفاية من الله تبارك وتعالى فيصدق الله فيما ضمن.

ومعنى هذا الكلام أن المتوكِّل على الله حقَّ التوكُّل لا يأتي بالتوكُّل ويجعله سببًا لحصول الكفاية له من الله بالرزق وغيره، فإنه لو فعل ذلك لكان كمن أتى سائر الأسباب لاستجلاب الرزق والكفاية بها، وهذا نوع نقص في تحقيق التوكُّل، وإنما المتوكِّل حقيقة من يعلم أنَّ الله قد ضمن لعبده برزقه وكفايته، فيصدق الله فيما ضمنه ويثق به بقلبه ويحقِّق الاعتماد عليه فيما ضمنه من الرزق، من غير أن يخرج التوكُّل مخرج الأسباب في استجلاب الرزق به، والرزق مقسوم لكلّ أحد من برّ وفاجر ومؤمن وكافر، كما قال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، هذا مع ضعف كثير من الدوابّ وعجزها عن السعي في طلب الرزق، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

فما دام العبد حيًّا فرزقه على الله، وقد ييسِّره الله له بكسب وبغير كسب، فمن توكَّل على الله لطلب الرزق فقد جعل التوكُّل سببًا وكسبًا، ومن توكَّل عليه لثقته بضمانه فقد توكَّل عليه ثقة به وتصديقًا بوعده.

وما أحسن قول المثنى الأنباري وهو من أعيان أصحاب الإمام أحمد: لا تكونوا بالمضمون مهتمِّين فتكونوا للضامن متَّهمين وبرزقه غير راضين.

واعلم أنَّ ثمرة التوكُّل الرضاء بالقضاء، فمن وكل أموره إلى الله ورضي بما يقضيه له ويختاره فقد حقَّق التوكُّل، ولذلك كان الحسن والفضيل وغيرهما يفسِّرون التوكُّل على الله بالرضا.

قال ابن أبـي الدُّنيا: بلغني عن بعض الحكماء قال: التوكُّل على ثلاث درجات: أولها: ترك الشكاية. والثانية: الرضا. والثالثة: المحبَّة بترك الشكاية. ودرجة الصبر والرضا وسكون القلب بما قسم الله له، وهي أرفع من الأولى، والمحبَّة أن يكون حبَّه لما يصنع الله به. فالأولى للزاهدين، والثانية للصادقين، والثالثة للمرسلين. انتهى.

المتوكِّل على الله إن صبر على ما يقدِّره الله له من الرزق أو غيره فهو صابر، وإن رضي بما يقدر له بعد وقوعه فهو الراضي، وإن لم يكن له اختيار بالكلية ولا رضا إلا فيما يقدر له فهو درجة المحبين العارفين، كما كان عمر بن عبد العزيز يقول: أصبحت وما لي سرور إلاَّ في مواضع القضاء والقدر»[(١)].

٥ ــ المحبَّة:

وهي محبَّته سبحانه وتعالى محبَّة تتضمَّن حب توحيده ــ الذي هو شرط من شروط كلمة التوحيد ــ وحب لدينه ولرسوله ﷺ ولأوامره، وبغض لضد ذلك، محبة مشتملة على الذل والخضوع للمحبوب ومراداته؛ إذ المحبَّة شرط العبادة كما قال ابن القيم:

وعبادة الرحمٰن غاية حبِّه ... مع ذلّ عابده هما قطبان

---

(١) من كتابه: جامع العلوم والحكم، في بحث نفيس حول موضوع التوكُّل وتحقيقه عبادة لله، ص ٤٣٦ ــ ٤٤١.

وعليهمـــا فلـــك العبـــادة دائـــر ما دار حتـــى قـــامـــت القطبـــان

وقد أبان الحافظ أن محبَّة الله على درجتين:

١ ــ بأن تكون فرض، وهي المحبَّة المقتضية لفعل الأمر واجتناب النهي والدافعة للصبر على المقدَّر.

٢ ــ وتكون مستحبَّة، وهي الدافعة للنوافل من العبادات والطاعات، والحاجبة عن المكروهات ودقائق الشبهات.

وسيأتي لها زيادة بيان في محبَّته ﷺ.

* * *

نواقض التوحيد، ونواقض كماله

أي أن النواقض على نوعين: ما ينقض أصل التوحيد، كالشرك الأكبر، والنفاق الاعتقادي، وترك الصلاة عمدًا أو تهاونًا على الصحيح من قولي العلماء.

والنوع الثاني، نواقض كمال التوحيد، مع بقاء أصله، كالشرك الأصغر بصوره، والنفاق العملي.

* **فأما الشرك** ففيه كلمة جامعة، في «تحقيق كلمة الإخلاص» هي قوله رحمه الله: «فمن أشرك مخلوقًا في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلـٰهية، كان ذلك قدحًا في إخلاصه في قوله: لا إلـٰه إلاَّ الله، ونقصًا في توحيده، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك. وهذا كله من فروع الشرك.

ولهذا ورد إطلاق الكفر والشرك على كثير من المعاصي التي منشؤها من طاعة غير الله، أو خوفه، أو رجائه، أو التوكل عليه، أو العمل لأجله. كما ورد إطلاق الشرك على الرياء، وعلى الحلف بغير الله، وعلى التوكل على غير الله، والاعتماد عليه، وعلى من سوى بين الله وبين المخلوق في المشيئة.

مثل أن يقول: ما شاء الله وشاء فلان، وكذا قوله: مالي إلاَّ الله

وأنت، وكذلك ما يقدح في التوحيد، وتفرد الله بالنفع والضر كالطيرة والرقى المكروهة، وإتيان الكهان وتصديقهم بما يقولون، وكذلك اتباع هوى النفس فيما نهى الله عنه قادح في تمام التوحيد وكماله، ولهذا أطلق الشرع على كثير من الذنوب التي منشؤها من هوى النفس أنها كفر وشرك، كقتال المسلم، ومن أتى حائضًا أو امرأة في دبرها، ومن شرب الخمر في المرة الرابعة، وإن كان ذلك لا يخرجه من الملة بالكلية.

ولهذا قال السلف، كفر دون كفر، وشرك دون شرك»[1]. اهـ.

وأكده أيضًا بعبارة مختصرة جامعة فقال:

«وأما توحيد الإلهية فالشرك فيه تارة يوجب الكفر والخروج من الملة، والخلود في النار.

ومنها ما هو أصغر كالحلف بغير الله، والنذر له، وخشية غير الله، ورجائه، والتوكل عليه، والذلِّ له، وقول القائل: ما شاء الله وشئت، ومنه ابتغاء الرزق من عند غير الله، وحمد غيره على ما أعطى، والغنية بذلك عن حمده، ومنه العمل لغير الله وهو الرياء. وهو أقسام»[2]. اهـ.

فهذه الجمل حددت أنواعًا من الشرك أصلها العلماء في أبواب من كتب التوحيد، كما فعله شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب.

* **وأما النفاق** فكذا طريقته فيه كطريقة الشرك في تقسيمه، وحكم كل قسم. فقال في «جامع العلوم والحكم»:

---

(١) من تحقيق كلمة الإخلاص، ص ١٧، ١٨.

(٢) تفسير سورة الإخلاص، ص ١٠٢.

«. . . وهو في الشرع ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: النفاق الأكبر، وهو أن يظهر الإنسان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويبطن ما يناقض ذلك كله أو بعضه، وهذا هو النفاق الذي كان على عهد رسول الله ﷺ، ونزل القرآن بذم أهله وتكفيرهم، وأخبر أن أهله في الدرك الأسفل من النار.

والثاني: النفاق الأصغر، وهو نفاق العمل، وهو أن يظهر الإنسان علانية صالحة ويبطن ما يخالف ذلك.

وأصول هذا النفاق يرجع إلى الخصال المذكورة في هذه الأحاديث وهي خمس»(١). اهـ.

*** ومن نواقض التوحيد: ترك الصلاة:**

فقد تعرض لهذه المسألة الحافظ ابن رجب في شرحه حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه في أركان الإسلام فقال: «وأما إقام الصلاة فقد وردت أحاديث متعددة تدل على أن من تركها فقد خرج من الإسلام، ففي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**بين الرجل وبين الكفر والشرك ترك الصلاة**» وروي مثله من حديث بريدة وثوبان وأنس وغيرهم. . . »(٢). اهـ.

---

(١) جامع العلوم والحكم، ص ٤٢٩، ٤٣٠، شرح حديث ابن عمرو: «أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا. . . » الحديث، ورقمه الثامن والأربعون.

(٢) جامع العلوم والحكم، شرح الحديث الثالث، ص ٤٢، ٤٣.

* **ومن نواقض التوحيد وكماله: الرياء:**

حيث يَرد على أصل التوحيد فيكون رياء محضًا وهو النفاق، وقد يَرِدُ على الأعمال فيكون ناقصًا لكمال التوحيد لا أصله.

وبين الحافظ ابن رجب حقيقة الرياء بقوله: «أول من تسعر به النار من الموحدين: المراؤون بأعمالهم، وأولهم العالم والمتصدق والمجاهد للرياء؛ لأن يسير الشرك ما تظاهر المرائي إلى الخلق بعمله إلاَّ بجهله بعظمة الخالق. المرائي يُزوِّر التوقيع على اسم الملك ليأخذ البراطيل (الرشاوي) لنفسه ويوهمهم أنه من خاصة الملك، وهو ما يعرف الملك بالكلية.

نقش المرائي على الدرهم الزائف اسم الملك ليروج، والبهرج لا يجوز إلاَّ على غير الناقد». اهـ[1].

وهذه الحقيقة قد تكتمل فتكون في الرياء المحض المحقق للكفر والشرك الأكبر، وقد تضعف لتكون من العمل اليسير الذي شابهه شك، والمحل في كُلٍّ على المقاصد والاعتقادات، عياذًا بالله.

وقد تناوله الحافظ بالتحقيق في شرح حديث عمر: «**إنما الأعمال بالنيات**»، فقال:

«واعلم أن العلم لغير الله أقسام:

١ ـ فتارة يكون رياء محضًا، بحيث لا يُراد به سوى مرئيات المخلوقين لغرض دنيوي كحال المنافقين في صلاتهم، قال الله عزَّ وجلّ: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء: ١٤٢]،

(١) من تحقيق كلمة الإخلاص، ص ٣١، ٣٢.

وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤﴾ . . . الآية [الماعون: ٤]، وكذلك وصف الله تعالى الكفار بالرياء المحض في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ [الأنفال: ٤٧]. وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر من مؤمن في فرض الصلاة والصيام، وقد يصدر في الصدقة الواجبة والحج وغيرهما من الأعمال الظاهرة، والتي يتعدى نفعها.

فإن الإخلاص فيها عزيز، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة.

٢ ـ وتارة يكون العمل لله ويشاركه الرياء:

(أ) فإن شاركه من أصله فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه أيضًا وحبوطه، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**يقول الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**». . .

(ب) وأما إن كان أصل العمل لله ثم طرأت عليه نية الرياء فلا يضره، فإن كان خاطر ودفعه فلا يضره بغير خلاف.

فإن استرسل معه فهل يحبط عمله أم لا يضره ذلك، ويجازى على أصل نيته؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف، قد حكاه الإمام أحمد وابن جرير الطبري، وأرجوا أن عمله لا يبطل بذلك، وأنه يجازى بنيته الأولى. . .»[1]. اهـ.

---

(١) من جامع العلوم والحكم، ص ١٥، ١٧، والبحث طويل، هذا مقصودنا منه. وقد نقله الشيخ سليمان بن عبد الله في تيسير العزيز الحميد بطوله، ص ٥٢٨، ٥٣١.

* **ومن نواقض كمال التوحيد: التسمي بقاضي القضاه، وشاهنشاه، ونحوها:**

قال في ذيل الطبقات في ترجمة رزق الله التميمي رقم ٣١ في آخرها:

«وذكر ابن الجوزي في تاريخه: أن جلال الدولة أمره أن يكتب شاهنشاه الأعظم ملك الملوك، وخطب له بذلك، فنفر العامة، ورجموا الخطباء، ووقعت فتنة، وذلك سنة تسع وعشرين وأربعمائة، فاستفتى الفقهاء، فكتب الصَّيمري:

أن هذه الأسماء يعتبر فيها القصد والنية.

وكتب أبو الطيب الطبري: أن إطلاق ملك الملوك جائز، ويكون معناه ملك ملوك الأرض. وإذا جاز أن يقال: قاضي القضاة، وكافي الكفاة، جاز أن يقال: ملك الملوك. وكتب التميمي نحو ذلك. وذكر محمد بن عبد الملك الهمذاني أن القاضي الماوردي منع من جواز ذلك.

قال ابن الجوزي: والذي ذكره الأكثرون هو القياس إذا قصد به ملوك الدنيا، إلاَّ أني لا أرى إلاَّ ما رآه الماوردي؛ لأنه قد صح في الحديث ما يدل على المنع، لكنهم عن النقل بمعزل. ثم ساق حديث أبي هريرة الذي في الصحيحين[1].

---

(١) إشارة لحديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك، لا مالك إلاَّ الله**»، وفي رواية: «**أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه**». قال سفيان: مثل شاهنشاه.

وابن الجوزي وافق على جواز التسمية بقاضي القضاة ونحوه.

وقد ذكر شيخنا أبو عبد الله بن القيم قال: وقال بعض العلماء: ومن معنى ذلك ــ يعني: ملك الملوك ــ كراهية التسمية بقاضي القضاة، وحاكم الحكام، فإن حاكم الحكام في الحقيقة هو الله تعالى.

وقد كان جماعة من أهل الدين والفضل يتورعون عن إطلاق لفظ قاضي القضاة، وحاكم الحكام، قياسًا على ما يبغض الله ورسوله من التسمية بملك الملوك. وهذا محض قياس.

قلت: وكان شيخنا أبو عمر عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم بن جماعة الكناني الشافعي قاضي الديار المصرية، وابن قاضيها، يمنع الناس أن يخاطبوه بقاضي القضاة أو يكتبوا له ذلك، وأمرهم أن يبدلوا ذلك بقاضي المسلمين، وقال: إن هذا اللفظ مأثور عن علي رضي الله عنه.

يوضح ذلك: أن التلقيب بملك الملوك إنما كان من شعائر ملوك الفرس من الأعاجم المجوس ونحوهم. وكذلك كان المجوس يسمون قاضيهم «مُوَبذ مُوَبذان» يعنون بذلك: قاضي القضاة.

فالكلمتان من شعائرهم، ولا ينبغي التسمية بها، والله أعلم»[1]. اهـ.

فالحافظ ابن رجب كأنه يميل إلى المنع منه، ولكنه لم يصرح بخلاف العلماء فيه، لا سيما وذكر الخلاف مما يحد من هيبة المسألة في النفوس ويقلل النظر في عواقبها.

(١) من ذيل طبقات الحنابلة، ٣/ ٨٤، ٨٥.

كما أن النصوص النبوية ليست صريحة في مثل «قاضي القضاة» «شاهنشاه»، مع أنها صريحة في «ملك الأملاك» أو «ملك الملوك».

ولذا لم يجزم بالتحريم، وهذا ملمح مهم، يُنبيء عن خشية وحذر، وخوف من القول على الله بلا علم أو جزم وتثبت.

والله سبحانه وتعالى يقول في آخر سورة النحل: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [النحل: ١١٦]، فرحمة الله عليه.

* **ومن نواقض التوحيد وكماله: التطير والطيرة**: وهي من أعمال الجاهلية التي جاءت الشريعة بالتحذير منها، والحكم فيها متردد بين الشرك الأكبر والأصغر بحسب مقصد المتطير وما قام بنيته، حيث أطال على ذلك الحافظ ابن رجب في «لطائف المعارف» فقال:

«والطيرة من أعمال أهل الشرك والكفر، وقد حكاها الله تعالى في كتابه عن قوم فرعون وقوم صالح وأصحاب القرية التي جاءها المرسلون. وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**ولا طيرة**».

وفي حديثٍ: «**من ردته الطيرة فقد قارف الشرك**»[1]. وفي حديث ابن مسعود المرفوع: «**الطيرة من الشرك، وما منا إلاّ، ولكن الله يذهبه**

---

(١) أخرج الإمام أحمد في «مسنده» ٢/ ٢٢٠ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**من ردته الطيرة من حاجة فقد أشرك**»، قالوا: يا رسول الله ما كفارة ذلك؟ قال: «**أن يقول أحدهم: اللهم لا خير إلاّ خيرك، ولا طير إلاّ طيرك، ولا إله غيرك**». وانظر المجمع ٥/ ١٠٥ في شواهده، وكشف الأستار للبزار (٣٠٤٦ ـ ٣٠٤٨).

بالتوكل»[1]. والبحث عن أسباب الشر من النظر في النجوم ونحوها هو من الطيرة المنهي عنها؛ والباحثون عن ذلك غالبًا لا يشتغلون بما يدفع البلاء من الطاعات، بل يأمرون بلزوم المنزل وترك الحركة، وهذا لا يمنع نفوذ القضاء والقدر. ومنهم من يشتغل بالمعاصي، وهذا مما يقوي وقوع البلاء ونفوذه.

والذي جاءت به الشريعة هو ترك البحث عن ذلك، والإعراض عنه، والاشتغال بما يدفع البلاء، من الدعاء، والذكر، والصدقة، وتحقيق التوكل على الله عزَّ وجلّ، والإيمان بقضائه وقدره.

وفي «مسند ابن وهب»[2] أن عبد الله بن عمرو بن العاص التقى هو وكعبٌ، فقال عبد الله لكعب: علم النجوم؟ قال كعب: لا خير فيه، قال عبد الله: لم؟ قال: ترى فيه ما تكره، يريد الطيرة. فقال كعب: فإن مضى، وقال: اللهم لا طير إلاَّ طيرك، ولا خير إلاَّ خيرك، ولا رب غيرك. فقال عبد الله: ولا حول ولا قوة إلاَّ بك. فقال كعب: جاء بها عبد الله، والذي نفسي بيده أنها لرأس التوكل وكنز العبد في الجنة، ولا يقولهن عبد عند ذلك ثم يمضي إلاَّ لم يضره شيءٌ. قال عبد الله: أرأيت إن لم يمض وقعد؟ قال: طعم قلبه طعم الإشراك.

---

(١) أخرجه أبو داود رقم (٣٩١٠) في الطب، باب في الطيرة، والترمذي رقم (١٦١٤) في السير، وابن ماجه رقم (٣٥٣٨) في الطب، باب من كان يعجبه الفأل ويكره الطيرة.

(٢) انظر الجامع ق ١/ ١١٠ و ٢/ ١٨١.

وفي «مراسيل»[1] أبـي داود أن النبـي ﷺ قال: «**ليس عبد إلَّا سيدخل قلبه طيرة، فإذا أحس بذلك، فليقل، أنا عبد الله، ما شاء الله، لا قوة إلَّا بالله، لا يأتي بالحسنات إلَّا الله، ولا يذهب بالسيئات إلَّا الله، أشهدُ أن الله على كل شيءٍ قديرٌ، ثم يمضي لوجهه**».

وفي مسند الإمام أحمد[2] عن عبد الله بن عمر مرفوعًا: «**من رجعته الطيرة من حاجته فقد أشرك، وكفارة ذلك أن يقول أحدهم: اللهم لا طير إلَّا طيرك، ولا خير إلَّا خيرك، ولا إلـٰه غيرك**»، وخرج الإمام أحمد، وأبو داود[3] من حديث عروة بن عامر القرشي، قال: ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: «**أحسنها الفأل، ولا ترد مسلمًا، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلَّا أنت، ولا يدفع السيئات إلَّا أنت، ولا حول ولا قوة إلَّا بك**». وخرَّجه أبو القاسم البغوي، وعنده: «**ولا تضر مسلمًا**».

وفي صحيح ابن حبان عن أنس رضي الله عنه، عن النبـي ﷺ قال: «**لا طيرة، والطيرة على من تطير**»، وقال النخعي: قال عبد الله بن مسعود: لا تضر الطيرة إلَّا من تطير. ومعنى هذا أن من تطير تطيرًا منهيًّا عنه، وهو أن يعتمد على ما يسمعه أو يراه مما يتطير به حتى يمنعه مما يريد من حاجته، فإنه قد يصيبه ما يكرهه. فأما من توكل على الله، ووثق به، بحيث علق قلبه بالله خوفًا ورجاءً، وقطعه عن الالتفات إلى هذه

---

(١) مراسيل أبـي داود ص ٣٦٢، باب (١١٤) ما جاء في الطيرة.

(٢) مسند أحمد ٢/ ٢٢٠، وقد مضى تخريجه.

(٣) أخرجه أبو داود رقم (٣٩١٩) في الطب: باب في الطيرة، من حديث حبيب بن أبـي ثابت، عن عروة بن عامر القرشي.

الأسباب المخوفة، وقال ما أمر به من هذه الكلمات، ومضى، فإنه لا يضره ذلك.

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان إذا سمع نعق الغراب قال: اللهم لا طير إلاَّ طيرك، ولا خير إلاَّ خيرك.

* وكذلك أمر النبي ﷺ عند انعقاد أسباب العذاب السماوية المخوفة، كالكسوف، بأعمال البر؛ من الصلاة، والدعاء، والصدقة، والعتق، حتى يكشف ذلك عن الناس. وهذا كله مما يدل على أن الأسباب المكروهة إذا وجدت فإن المشروع الاشتغال بما يرجى به دفع العذاب المخوف منها؛ من أعمال الطاعات، والدعاء، وتحقيق التوكل على الله والثقة به، فإن هذه الأسباب كلها مقتضيات لا موجبات، ولها موانع تمنعها، فأعمال البر والتقوى والدعاء والتوكل من أعظم ما يستدفع به.

ومن كلام بعض الحكماء المتقدمين: ضجيج الأصوات في هياكل العبادات بأفنان اللغات تحلل ما عقدته الأفلاك الدائرات؛ وهذا على زعمهم واعتقادهم في الأفلاك.

وأما اعتقاد المسلمين فإن الله وحده هو الفاعل لما يشاء، ولكنه يعقد أسبابًا للعذاب، وأسبابًا للرحمة؛ فأسباب العذاب يخوف الله بها عباده ليتوبوا إليه ويتضرعوا إليه، مثل كسوف الشمس والقمر؛ فإنهما آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده؛ لينظر من يحدث له توبة، فدل على أن كسوفهما سببٌ يخشى منه وقوع عذاب. وقد أمر عائشة رضي الله عنها أن تستعيذ من شر القمر، وقال: هو الغاسق إذا وقب.

وقد أمر الله تعالى بالاستعاذة من شر غاسق إذا وقب، وهو الليل إذا أظلم؛ فإنه ينتشر فيه شياطين الجنّ والإنس. والاستعاذة من القمر؛ لأنه آية الليل، وفيه إشارةٌ إلى أن شر الليل المخوف لا يندفع بإشراق القمر فيه، ولا يصير بذلك كالنهار، بل يستعاذ منه وإن كان مقمرًا.

وخرج الطبراني من حديث جابر مرفوعًا: «**لا تسبوا الليل، ولا النهار، ولا الشمس، ولا القمر، ولا الريح؛ فإنها رحمة لقوم، وعذاب لآخرين**»[١]. ومثلُ اشتداد الرياح، **فإن الريح** كما قال النبي ﷺ «**من روح الله، تأتي بالرحمة، وتأتي بالعذاب**». وأمر إذا اشتدت الريح أن يسأل الله خيرها وخير ما أُرسلت به، ويستعاذ به من شرها وشر ما أرسلت به[٢]. وقد كان النبي ﷺ إذا رأى ريحًا أو غيمًا تغير وجهه، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سري عنه، ويقول: «**قد عذب قوم بالريح، ورأى قومٌ السحاب فقالوا:** ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]»[٣].

وأسباب الرحمة يرجى بها عباده، مثل الغيم الرطب والريح الطيبة، ومثل المطر المعتاد عند الحاجة إليه، ولهذا يقال عند نزوله: اللهم سقيا رحمةٍ ولا سقيا عذاب.

---

(١) الحديث متفق عليه. أخرجه البخاري ٦/ ٢١٦ في بدء الخلق، ومسلم رقم (٨٩٩) في الاستسقاء، باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم؛ «**أن رسول الله ﷺ كان إذا عصفت الريح، قال: اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به**».

(٢) متفق عليه عند البخاري ٨/ ٥٧٨ في تفسير سورة الأحقاف، ومسلم رقم (٨٩٩) في الاستسقاء.

(٣) قال الهيثمي في المجمع ٨/ ٧١: «رواه الطبراني في الأوسط، وفيه سعيد بن بشير، وثقه جماعة، وضعفه جماعة، وبقية رجاله ثقات، ورواه أبو يعلى بإسناد ضعيف».

وأمـا من اتقى أسباب الضرر بعد انعقادها بالأسباب المنهي عنها، فإنه لا ينفعه ذلك غالبًا، كمن ردته الطيرة عن حاجته خشية أن يصيبه ما تطير به، فإنه كثيرًا ما يصاب بما خشي منه، كما قال ابن مسعود، ودل عليـه حديث أنس المتقدم. وكمن اتقى الطاعون الواقع في بلده بالفرار منه، فإنه قـل أن ينجيه ذلـك. وقد فر كثير من المتقدمين والمتأخرين مـن الطـاعـون فأصابهم، ولـم ينفعهم الفرار، وقد قال الله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ﴾ [البقرة: ٢٤٣]. وقد ذكر كثير من السلف أنهم كانوا قد فروا من الطاعون فأصابهم. وفر بعض المتقدمين من طاعون وقع، فبينا هو يسير بالليل على حمار له إذ سمع قائلاً يقول:

لـن يسبـق الله علـى حمـار ... ولا علـى ذي ميعـة مطـار

أو يـأتـي الحتـف علـى مقـدار ... قـد يصبـح الله أمـام السـاري

فأصابه الطاعون، فمات.

وأمَّا قوله ﷺ: «**لا هامة**» فهو نفي لما كانت الجاهلية تعتقده أن الميت إذا مات صارت روحه، أو عظامه، هامة وهو طائر يطير. وهو شبيه باعتقاد أهل التناسخ؛ أنَّ أرواح الموتى تنتقل إلى أجساد حيوانات من غير بعثٍ ولا نشورٍ، وكل هذه اعتقادات باطلة جاء الإسلام بإبطالها وتكذيبها. ولكن الذي جاءت به الشريعة «**أنَّ أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تأكل من ثمار الجنة، وترد من أنهار الجنة، إلى أن يردها الله**

تعالى إلى أجسادها يوم القيامة»[1]. [وروي أيضًا: «**إن نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعها الله إلى أجسادها يوم القيامة**»][2]. اهـ. ومن التطير فعل الجاهلين عند دخول صفر، قال رحمه الله:

«وأما قوله ﷺ: «**ولا صفر**» فاختلف في تفسيره؛ فقال كثير من المتقدمين: الصفر داءٌ في البطن، يقال: إنه دود فيه كبار كالحيات، وكانوا يعتقدون أنه يعدي، فنفى ذلك النبي ﷺ.

وممن قال هذا من العلماء ابن عيينة، والإمام أحمد وغيرهما. ولكن لو كان كذلك لكان هذا داخلاً في قوله «**لا عدوى**». وقد يقال: هو من باب عطف الخاص على العام، وخصه بالذكر؛ لاشتهاره عندهم بالعدوى. وقالت طائفة: بل المراد «بصفر» شهر صفر، ثم اختلفوا في تفسيره، على قولين:

أحدهما: أن المراد نفي ما كان أهل الجاهلية يفعلونه في النسيء، فكانوا يحلون المحرم ويحرمون صفر مكانه، وهذا قول مالك.

والثاني: أن المراد أن أهل الجاهلية كانوا يستشئمون بصفر ويقولون: أنه شهر مشؤوم، فأبطل النبي ﷺ ذلك؛ وهذا حكاه

---

(١) رواه أبو داود وتمامه: «فإذا رأيتموها فلا تسبوها، وسلوا الله من خيرها واستعيذوا بالله من شرها» رواه في كتاب الأدب ــ باب ما يقوله إذا هاجت الريح ــ عن أبي هريرة رضي الله عنه (٥٠٩٧).

(٢) أخرجه مسلم رقم (١٨٨٧) في الإمارة، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون.

أبو داود[1] عن محمد بن راشد المكحولي، عمن سمعه يقول ذلك، ولعل هذا القول أشبه الأقوال.

وكثير من الجهال يتشاءم بصفر، وربما ينهى عن السفر فيه. والتشاؤم بصفر هو من جنس الطيرة المنهي عنها، وكذلك التشاؤم بيوم من الأيام كيوم الأربعاء.

وقد روي أنه يوم نحسٍ مستمرٍ؛ في حديثٍ لا يصح، بل في «المسند» عن جابر رضي الله عنه أن النبـي ﷺ دعا على الأحزاب يوم الاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، فاستجيب له يوم الأربعاء بين الظهر والعصر؛ قال جابر: فما نزل بـي أمرٌ مهمٌّ غائظ إلاَّ توخيت ذلك الوقت، فدعوتُ الله فيه، فرأيت الإجابة، أو كما قال.

وكذلك تشاؤم أهل الجاهلية بشوالٍ في النكاح فيه خاصةً. وقد قيل: إن أصله أن طاعونًا وقع في شوال في سنةٍ من السنين، فمات فيه كثيرٌ من العرائس، فتشاءم بذلك أهل الجاهلية.

وقد ورد الشرع بإبطاله، قالت عائشة رضي الله عنها: «تزوجني رسول الله ﷺ في شوال وبنى بـي في شوال، فأي نسائه كان أحظى عنده مني! وكانت عائشة تستحب أن تدخل نساءها في شوال»[2]، وتزوج

---

(١) الحديث رواه أحمد في «مسنده» ٦/ ٣٨٦، والنسائي ٤/ ١٠٨ في الجنائز، باب أرواح المؤمنين، وابن ماجه رقم (٤٢٧١) في الزهد، باب ذكر القبر والبلى، من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود رقم (٣٩١٥) في الطب، باب في الطيرة، ومحمد بن راشد المكحولي الخزاعي، الدمشقي، نزل البصرة، صدوق يهم، ورمي بالقدر، مات بعد ١٦٠هـ.

النبـي ﷺ أم سلمة في شوال أيضًا»[1]. اهـ.

ولا إخاله ﷺ فعل ذلك إلاَّ ليبطل اعتقاد الجاهلية في نكاح شوال ويفسد عليهم تطيرهم به؛ لأن من دينه عليه الصلاة والسلام مخالفة عوائد وعقائد وعادات الجاهلية الممقوتة، بالحنيفية السمحة؛ بل يقرر ويعلن في مواطن ومراسم العقائد الجاهلية أعلام التوحيد وشعائره كما هنا، وشعائر الحج، كما في قوله تعالى من سورة الحج ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ۝٣٢ ﴾ [الحج: ٣٢]، فالحمد لله على نعمائه وآلائه، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.



(١) رواه مسلم في النكاح (١٤٢٣).

الفصل الثاني

بقيَّة أركان الإيمان الستَّة

الفصل الثاني
بقيَّة أركان الإيمان الستَّة

مضى في الفصل السابق الكلام على الركن الأول من أركان الإيمان الستّة، وهو الإيمان بالله، وكان له حق التقديم، وذكر ما يناسبه من التطويل؛ لأنه أساس بقيّة الأركان، وإليه مردّها، وعليه معولها ومنشؤها.

وجميع هذا الفصل في الكلام على بقية الأركان الستّة: الإيمان بالملائكة، والكتب، والرسل، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، والمسائل المتعلقة بكلٍّ.

وبالجملة، مسائل العقيدة تدور عند أهل السنة ــ وغيرهم ــ على هذه الأركان الستّة؛ لأنها تقوم بالقلوب، ومسائلها مسائل الغيب، وأيضًا أركان الإسلام أركان ظاهرة، وبابها الفقه.

وهذه المسائل في الأركان الستّة هي التي خاض بها المخالفون لأهل السنّة من أصناف الفرق الإسلامية، والملل من غيرهم كتابية أو وثنية.

والحافظ ابن رجب تناول الكلام على الأركان الستة تقريرًا عامًّا للإيمان بها خلال شرحه لحديث جبرائيل في جامع العلوم والحكم،

وهو الحديث الثاني، فمما قاله في ذلك:

«وأما الإيمان فقد فسَّره النَّبـي ﷺ في هذا الحديث بالاعتقادات الباطنة، فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت، وتؤمن بالقدر خيره وشره».

وقد ذكر الله في كتابه الإيمان بهذه الأصول الخمسة[1] في مواضع؛ كقوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣﴾ [البقرة: ٣].

الإيمان بالرسل يلزم منه الإيمان بجميع ما أخبروا به، من الملائكة والأنبياء والكتاب والبعث والقدر، وغير ذلك من تفاصيل ما أخبروا به، وغير ذلك من صفات الله، وصفات اليوم الآخر كالصراط والميزان والجنة والنار.

وقد أُدخل في هذه الآيات الإيمان بالقدر خيره وشره، ولأجل هذه الكلمة روىٰ ابن عمر رضي الله عنهما هذا الحديث محتجًّا به على من أنكر القدر، وزعم أن الأمر أُنف، يعني أنه مستأنف لم يسبق به سابق قدر الله عزَّ وجلّ، وقد غلَّظ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عليهم

(١) أي مجتمعة، دون ذكر الإيمان بالقضاء والقدر، فلم يذكر معها، بل ذكر في مواضع على حدة، منها قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ٢﴾، وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ٤٩﴾، وهو من لوازم الإيمان بالله.

وتبـرأ منهـم، وأخبـر أنـه لا تقبـل منهـم أعمـالهـم بـدون الإيمـان بالقدر»[1]. اهـ.

وقال الحافظ في «اللطائف»: «الإيمان بالله ورسوله، وهو التصديق الجازم بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، كما فسَّر النبي ﷺ الإيمان بذلك في حديث سؤال جبريل له، وفي غيره من الأحاديث. وقد ذكر الله تعالى الإيمان بهذه الأصول في مواضع كثيرة من كتابه، كأول البقرة، ووسطها، وآخرها»[2]. اهـ.

* الإيمان بالملائكة:

لـم أقـف علـى كـلام للحـافـظ يفيـد ضـد ذلـك، مـن إنكـارهـم أو بعضهم أو التشكيك بهم أو بعضهم، بل جرى كلامه في بعضهم من خلال الآيات والأحاديث، مجرى التصديق بهم، والإيمان بوجودهم وأسمائهم وأعمالهم.

ومن ذلك ما جاء عرضًا في الكلام على أحاد الملائكة وبعضهم حيث قال رحمه الله:

«لما أهبط آدم من الجنة بكى على تلك المعاهد ـ فيما يروى: ثلاثمائة عام ـ وحق له ذلك. كان في دار لا يجوع فيها ولا يعرى، ولا يظمأ فيها ولا يضحى. فلما نزل إلى الأرض، أصابه ذلك كله، فكان إذا رأى جبريل عليه السلام يتذكَّر ربه برؤيته تلك المعاهد، فيشتد بكاؤه

(١) جامع العلوم والحكم، ص ٢٥ ـ ٢٦.
(٢) لطائف المعارف، ص ٤٠١.

حتى يبكي جبريل عليه السلام ببكائه، ويقول له: ما هذا البكاء يا آدم؟ فيقول: وكيف لا أبكي وقد أُخرجت من دار النعمة إلى دار البؤس. فقال له بعض ولده: لقد آذيت أهل الأرض ببكائك، فقال: إنما أبكي على أصوات الملائكة حول العرش. وفي رواية قال: إنما أبكي على جوار ربي في دار تربتها طيبة، أسمع فيها أصوات الملائكة...»[1]. اهـ.

وكلامه على جبرائيل يصدق الإيمان بجميع الملائكة وأعمالهم؛ لأنَّ جبرائيل أفضل الملائكة وأكرمهم وسيِّدهم.

كما جاء في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى، وفيه: «**يقول الله: يا محمد، أتدري فيما يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري ــ ثلاثًا ــ**». قال الحافظ في شرحه هذا الحديث.

«... وفيه دلالة على أنَّ الملأ الأعلى، وهم الملائكة أو المقرَّبون منهم، يختصمون فيما بينهم، ويتراجعون القول في الأعمال التي تقرِّب بني آدم إلى الله عزَّ وجلّ وتكفِّر بها عنهم خطاياهم.

وقد أخبر الله عنهم بأنهم يستغفرون للذين آمنوا، ويدعون لهم. وفي الحديث الصحيح: «**وإن الله إذا أحب عبدًا، نادى: يا جبريل إني أحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء إن الله يحب فلانًا فأجبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض**».

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: إذا مات ابن آدم قال الناس: ما خلف؟ وقالت الملائكة: ما قدم؟

---

(١) لطائف المعارف، ص ١١٦. وانظر نحوه في ص ٣٧٨ و ٥٠٨.

فالملائكة يسألون عن أعمال بني آدم، ولهم اعتناء بذلك واهتمام به»[1]. اهـ.

وأعمال الملائكة ووظائفهم كثيرة، ومختلفة، منها ما ذكره الله في القرآن من الوحي، وكتابة الأعمال، وقبض الأرواح وحفظ الناس ونصرة المجاهدين، ومنها ما جاء في السنّة من صفات ذلك تفصيلاً. وقد ذكر الحافظ ابن رجب بعض ذلك في كتابيه: «أهوال القبور» و «التخويف من النار»، مما هو بصدده من أعمالهم في تلك المقامات.

وفي الواقع الانحراف في هذا الباب، باب الإيمان بالملائكة إنما يؤثر عن المشركين الداعين أن الملائكة إناثًا، وهي بنات الله.

وعن اليهود الذين كفروا بجبرائيل وغيرهم واتخذوهم أعداءً، كما ذمهم الله بذلك في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [البقرة: ٩٧، ٩٨].

والفلاسفة الذين زعموا أن الملائكة أرواح خفيفة تخيلية، ربما يتخيلها النبي ﷺ أو غيره.

وليس بعيد عن معتقدهم في الملائكة اعتقاد كثير من الملحدين والوثنيين في أن الملائكة أرواحٌ شريرة أو طيبة تتصرف في الكون، وترهب أو ترغب البشر.

---

(١) اختيار الأولى ص ١٢ ــ ١٣، والحديث فيه مخرج في الصحيحين عن أبي هريرة.

والرافضة ـ وإن كان هو اعتقاد فرق منهم ـ عادوا جبرائيل واعتقدوا أنه خان الأمانة بإنزاله الوحي على محمد ﷺ، وكان علي أحق بها منه؛ لأنه عند الغرابية منهم مشابهة عليٍّ محمدًا مشابهة الغراب للغراب.

وسوى ذلك فإن جماهير المسلمين والديانات السماوية على فرض الإيمان بالملائكة والتصديق بهم، على تفاوت بينها في ذلك، والله أعلم.

*** الإيمان بالكتب:**

والكتب هي التي أنزلها الله على رسله، وتكلَّم بها وحيًا إلى الناس، ومن التي أخبرنا بها في كتابه: صحف إبراهيم والتوراة والزبور والإنجيل، ثم المهيمن عليها والناسخ لها القرآن الكريم.

ومن الإيمان بالكتب، الإيمان بأنَّ الله تكلَّم بها، فتضمَّن ذلك صفة الكلام لله سبحانه وتعالى حقيقة له، كما أن إنزالها يتضمن صفة العلو لله عز وجل حقيقة.

وسبق وجوب التصديق بالإيمان بالكتب من جملة أركان الإيمان الستة.

قال الحافظ عن القرآن لما تكلم على قوله تعالى: ﴿رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، «يعني: يتلو عليهم ما أنزل الله عليه من آياته المَتْلُوَّة، وهو القرآن وهو أعظم الكتب السماوية، وقد تضمَّن من العلوم والحكم والمواعظ والقصص، والترغيب

والترهيب، وذكر أخبار من سبق، وأخبار ما يأتي من البعث والنشور والجنة والنار، ما لم يشتمل عليه كتاب غيره، حتى قال بعض العلماء: لو أنَّ هذا الكتاب وُجد مكتوبًا في مصحف، في فلاة من الأرض، ولم يُعلم من وضعه هناك؛ لشهدت العقول السليمة أنه منزَّل من عند الله، وأنَّ البشر لا قدرة لهم على تأليف ذلك، فكيف إذا جاء على يدي أصدق الخلق، وأبرهم وأتقاهم.

وقال: إنه كلام الله، وتحدَّى الخلق كلهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، فكيف يبقى مع هذا شك فيه؟! ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢] »[1]. اهـ.

وقال عن الكتب الواردة مثبِّتًا له مصدِّقًا بها، وفي وقت نزولها: «وشهر رمضان له خصوصية بالقرآن كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنه أنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزَّة ليلة القدر، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ [القدر: ١]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣]. وقد سبق عن عبيد بن عمير أن النبي ﷺ بدىء بالوحي ونزول القرآن عليه في شهر رمضان.

وفي المسند عن واثلة بن الأسقع، عن النبي ﷺ أنه قال: «**نزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من شهر رمضان، وأنزلت التوراة لستٍّ**

---

(١) لطائف المعارف، ص ١٦٧.

مضين من رمضان، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان. . . »[1]. اهـ.

وها هنا يختار الحافظ أن الليلة المباركة المنزَّل فيها القرآن: المذكور في صدر سورة الدخان هي ليلة القدر، لا ليلة النصف من شعبان.

والمقصود من ذلك أنَّ الحافظ رحمه الله جرى مجرى علماء المسلمين في الإيمان بالكتب السماوية، وأنها من كلام الله حقيقة، ويتضمَّن ذلك أيضًا أنها من عند الله، وأنها تتفاضل.

هذا ولم يُؤثرْ عنه تفريق في الإيمان بين بعض الكتب وآخر، وغاية ما قرَّره فضل القرآن على بقيَّة الكتب، وتقديمه عليها[2]، هذا ما نصَّ به القرآن الكريم في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ... ﴾ [المائدة: ٤٨] الآية.

وهو الكتاب الذي تكفَّل الله بحفظه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]، ولم يوكل حفظه إلى أهله كما فعل في التوراة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ

---

(١) من لطائف المعارف، ص ٣١٥ ــ ٣١٦. والحديث في مسند واثلة رضي الله عنه من مسند الإمام أحمد ٤/١٠٧، قال: ثنا أبو سعيد مولى ابني هاشم، ثنا عمران أبو العوام عن قتادة، عن أبي المليح، عن واثلة رضي الله عنه به مرفوعًا. بلفظ: «أنزلت. . .» فذكره.

(٢) كما في لطائف المعارف أيضًا، ص ١٦٨ ــ ١٦٩.

أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ﴾ [المائدة: ٤٤] الآية.

كما أنَّ الحافظ ابن رجب لم يتكلَّف ما تكلَّفه المبتدعة بالتقعر بنفي الحرف والصوت أو إيراد إشكالات أهل البدع، وإنما مضى على عقيدة الفطرة والشرع والعقل بالإيمان بأن الله تكلم حقيقة ـ لا مجازًا أو خلقًا ـ بالكتب السماوية التي أنزل على رسله صلَّى الله عليهم وآلهم وسلَّم.

* * *

الإيمان بالرسل

وهم الذين اصطفاهم الله من عباده، فأرسلهم إليهم لمهمة سامية، مبلِّغين توحيده وشرائعه، منذرين عقابه ووعيده. فهذا هو المقصود من إرسال الأنبياء والرسل.

قال زين الدين ابن رجب: «ثم بعث الرسل مبشِّرين ومنذرين، يبشِّرون بالجنة من آمن وعمل صالحًا، وينذرون بالنار من كفر بالله وأعرض، وأقام البراهين، والأدلة التي دلَّت على صدق رسله فيما أخبروا به عن ربهم. . .»[1]. اهـ.

ولما تكلَّم على قول النبـي ﷺ: «**بعثت بالسيف بين يدي الساعة، حتى يعبد الله وحده لا شريك له**» رواه أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما، بيَّن المقصود الأعظم من إرسالهم بقوله:

«. . . وهذا هو المقصود الأعظم من بعثته ﷺ، بل من بعثة الرسل من قبله كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦]. بل هذا هو المقصود من خلق الخلق وإيجادهم، كما

---

(١) البشارة العظمى، ص ١٨١.

قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فما خلقهم إلا ليأمرهم بعبادته، وأخذ عليهم العهد لما استخرجهم من صلب آدم على ذلك كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ ﴾ [الأعراف: ١٧٢] الآية. وقد تكاثرت الأحاديث المرفوعة والآثار الموقوفة في تفسير هذه الآية: أنه يقال: استنطقهم حينئذٍ، فأقرُّوا كلهم بوحدانيته، وأشهدهم على أنفسهم وأشهد عليهم أباهم آدم والملائكة.

ثم إنه تعالى هداهم في كل زمان بإرسال رسله وإنزال الكتب يذكرهم بالعهد الأول، ويجدِّد عليهم العهد الميثاق على أن يوحدوه ويعبدوه ولا يشركوا به شيئًا...»[1]. اهـ.

ويتبع هذا المقصد الأعظم من دعوة الرسول، الجهاد في سبيل ذلك لتحقيق هذا الأصل الأعظم، وهو توحيد الله والإيمان به، ولذا يقول الحافظ في اللطائف: «... فالجهاد به تعلو كلمة الإيمان، وتتَّسع رقعة الإسلام، ويكثر الداخلون فيه، وهو وظيفة الرسل وأتباعهم، وبه تصير كلمة الله هي العليا.

والمقصود منه أن يكون الدين كله لله والطاعة له كما قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ ﴾ [البقرة: ١٩٣]، والمجاهد في سبيل الله هو المقاتل لتكون كلمة الله هي العليا خاصة»[2].

---

(١) الحكم الجديرة بالإذاعة، ص ١٣ ـ ١٤.

(٢) من لطائف المعارف، ص ٤٠٣.

وقد ذكر الحافظ ابن رجب بعض الرسل، وهم أولو العزم منهم، وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، صلَّى الله عليهم وسلَّم. وهم المشار إليهم في قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ۝٧﴾ [الآية: ٧]، وبقوله في سورة الشورى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ﴾ [الآية: ١٣].

قال الحافظ الزين ابن رجب: «. . . ولهذا سمى الله تعالى خواص الرسل أولي العزم وهم خمسة، وهم أفضل الرسل. . .»(١). اهـ.

وقال: «فكان أول رسول بعث إلى أهل الأرض يدعوهم إلى التوحيد وينهاهم عن الشرك نوح عليه السلام، فإنَّ الشرك قد فشا في الأرض من بني آدم قبل نوح، فلبث في قومه ألف سنة إلاَّ خمسين عامًا يدعوهم إلى الله إلى عبادته وحده لا شريك له.

ثمَّ إنَّ اللَّـهَ تعالى بعث إبراهيم خليله عليه السلام، فدعا إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، وناظر على ذلك أحسن مناظرة، وأبطل شبه المشركين بالبراهين الواضحة، وكسر أصنام قومه حتى جعلهم جذاذًا، فأرادوا تحريقه فأنجاه الله من النار وجعلها عليه بردًا وسلامًا، ووهب الله له إسماعيل وإسحاق، فجعل عامَّة الأنبياء من ذرِّيَّة

(١) من شرح حديث شداد بن أوس رضي الله عنه، ص ١٦٢، وانظر فتح الباري، ورقة ١٢٠.

إسحاق، فإنَّ إسرائيل هو يعقوب بن إسحاق، وأنبياء بني إسرائيل كلهم من ذرِّيَّة يعقوب، كيوسف وموسى وداود وسليمان عليهم السلام، وآخرهم المسيح ابن مريم عليه السلام، وإنما دعا إلى توحيد الله كما قال تعالى: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ [المائدة: ١١٧].

ثم طبق الشرك الأرض بعد المسيح، فإنَّ قومه الذين ادعوا اتباعه بالإيمان به أشركوا غاية الشرك، فجعلوا المسيح هو الله أو ابن الله وجعلوا أمه ثالث ثلاثة...

فلما طبق الشرك في أقطار الأرض، واستطار شره في الآفاق من المشرق إلى المغرب بعث الله محمَّدًا ﷺ بالحنيفية المحضة، التوحيد الخالص، دين إبراهيم عليه السلام، وأمره أن يدعو الخلق كلهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له...»(١). اهـ.

وكرر المقصود من بعثة الرسل في موضع آخر، وبمعنى آخر فقال: «والإيمان بالرسل يلزم منه الإيمان بجميع ما أخبروا به، من الملائكة والأنبياء والكتاب والبعث والقدر وغير ذلك من تفاصيل ما أخبروا به، وغير ذلك من صفات الله، وصفات اليوم الآخر كالصراط والميزان والجنة من النار، وقد أدخل الله في هذه الآيات الإيمان بالقدر وخيره وشره»(٢). اهـ.

(١) الحكم الجديرة بالإذاعة، ص ١٤ ــ ١٨.
(٢) جامع العلوم والحكم، ص ٢٦.

فكلام الحافظ المتنوع يدل دلالة واضحة على الإيمان بالرسل تفصيلاً بعد الإجمال، وبالإيمان بكل ما جاءوا به من العقيدة والشريعة، وقبل كل ذلك الإيمان بالمقصد الأعظم من بعثهم وهو تحقيق التوحيد والدعوة إليه والجهاد فيه. . .

* * *

دعوة الرسل واحدة، وهم «أخوة علات»

تناول الحافظ هذه القضية في شرحه لحديث «مثل الإسلام» في معرض تفريقه بين الإسلام بمعناه العام ومعناه الخاص، واتحاد الأنبياء جميعًا في معنى الإسلام العام حيث قال:

«والإسلامُ العام: هو دين الله الذي كان عليه جميع الرسل؛ كما قال نوح: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝٧٢﴾ [يونس: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٣٢﴾ [البقرة: ١٣٢]، وقال عن يوسف أنَّه قال: ﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ۝١٠١﴾ [يوسف: ١٠١]، وقال تعالى عن ملكة سبأ: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]، وقال عن الحواريين أنهم قالوا: ﴿آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ۝١١١﴾ [المائدة: ١١].

وقد وصف الله في سورة الفاتحة الصِّراطَ بأنَّه: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الآية: ٧].

ثم سمَّى الذين أنعم عليهم في سورة النساء، وجعلهم أربعة أصناف: النبيِّين، والصِّدِّيقين، والشُّهداء، والصالحين. فدلَّ على أنَّ هؤلاء كلَّهم على هذا الصراط المستقيم، فلا يخرج عنهم إلاَّ: إمَّا مغضوبٌ عليه، وهو من عَرف الصراط وسلك غيره عمدًا كاليهود والمشركين. وإمَّا ضالٌّ جاهل يسلك غير الصِّراط جهلاً، ويظن أنَّه الصِّراط.

وحقيقةُ الإسلام: الاستسلام لله تعالى والانقياد لطاعته.

وأمَّا الإسلام الخاص، فهو دين محمَّد ﷺ.

ومُنذ بَعث الله محمَّدًا ﷺ لم يقبل من أحد دينًا غير دينه، وهو الإسلام الخاص، وبقيَّة الأديان كفر؛ لما تضمَّن اتِّباعها من الكفر بدين محمد والمعصية لله في الأمر باتِّباعه، فإنَّه ليس هناك إلاَّ أحد أمرين:

إمَّا الاستسلام لله والانقياد لطاعته وأوامره، وهو دين الإسلام الذي أمر الله تعالى به، وإمَّا المعصية لله والمخالفة لأوامره، وذلك يستلزم طاعة الشيطان»[1]. اهـ.

وقال الحافظ مبيِّنًا أن دعوة الرسل واحدة:

«ثم إن الله تعالى كان يتعاهد الخلق بالأنبياء والرسل كلما بَعُد عهد نبوة ورسالة أتبعها بأخرى.

وكان الذي اتفقت عليه دعوة جميع الأنبياء والرسل هو دين الإسلام كما قال نوح أول الرسل: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢)﴾ [يونس: ٧٢].

---

(١) من شرح حديث مثل الإسلام، ق ١٨٩ وما بعدها (فاتح).

وقال الحواريون للمسيح وهو آخر أنبياء بني إسرائيل: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [آل عمران: ٥٢]».

وقال موضحًا الحكمة من إرسال الرسل وكون الإسلام والتوحيد هو دينهم، ودعوتهم جميعًا:

«ولما كان النفع الحاصل بإرسال الرسل، وإنزال الكتب أمرًا لا نظير له، قرر الله تعالى الرسالة على المنكرين لها بهذه الطريقة، وهي شدة الحاجة إليها في غير موضع من القرآن كما في قوله: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

ولهذا نسب تعالى منكري إرسال الرسل وإنزال الكتب إلى القدح في كماله وعظمته وحكمته، وإلى الجهل به وبأسمائه وصفاته، وأنهم ما قدروه حق قدره.

* الإسلام هو دين الرسل جميعًا:

والمقصود ها هنا: أن جميع الرسل كان دينهم الإسلام، ولهذا ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد**» فإنهم كلهم متفقون على أصول التوحيد وتوابعه، وإنما تختلف شرائعهم في الأحكام العملية، التي يسميها كثير من الناس، الفروع، وتنوع الشرائع في ذلك كتنوع الشريعة الواحدة التي فيها ناسخ ومنسوخ. كما كانت القبلة في أول الإسلام إلى صخرة بيت المقدس، ثم صارت إلى الكعبة.

والدين واحد، ثم ختم الله الشرائع والملل بالشريعة العامة الكاملة الحنيفية المحمدية، المحتوية على جميع محاسن الشرائع المتضمنة لجميع مصالح العباد في المعاش والمعاد، فأكمل الله بها دينه الذي ارتضاه لنفسه وختم بها العلم الذي أنزله من السماء على رسله، فلذلك تضمنت جميع محاسن الشرائع المتقدمة، وزادت عليها أمورًا عظيمة وأشياء كثيرة من العلوم النافعة والأعمال الصالحة التي خص بها هذه الأمة، وفضلهم بها على من قبلهم من الأمم.

ولذلك أوجب الله على جميع من بلغته هذه الدعوة من جميع الأمم الانقياد إليها ولم يقبل من أحد منهم دينًا سواها.

ولما كانت هذه الشريعة خاتمة الشرائع وعليها تقوم الساعة، ولم يكن بعدها شريعة ولا رسالة أخرى، تبين ما تبدل منها وتجدد ما درس من آثارها، كما كانت الشرائع المتقدمة تجدد بعضها آثار بعض، وتبين بعضها ما تبدل من بعض، تكفل الله بحفظ هذه الشريعة، ولم يجمع أهلها على ضلالة، وجعل منهم طائفة قائمة بالحق لا تزال ظاهرة على من خالفها حتى تقوم الساعة، وأقام لها من يحملها ويذب عنها بالسيف واللسان والحجة والبيان، فلهذا أقام الله تعالى لهذه الأمة من خلفاء الرسل وحملة الحجة في كل زمان من يعتني بحفظ ألفاظ الشريعة وضبطها، وصيانتها عن الزيادة والنقصان ومن يعتني بحفظ معانيها، ومدلولات ألفاظها، وصيانتها عن التحريف والبهتان». اهـ[1].

---

(١) من مقدمة تشتمل على أن جميع الرسل كان دينهم الإسلام، ص ١٧ ـ ٢١.

* نبوّة نبيّنا محمد ﷺ:

أخبر الله عن نبوّة عبده ورسوله محمد ﷺ قبل أن يخلقه، بل قبل خلق كثير من الناس والأنبياء. قال الحافظ ابن رجب: «والمقصود من هذا الحديث[1] أنَّ نبوّة النبي ﷺ كانت مذكورة معروفة من قبل أن يخلقه الله ويخرجه إلى دار الدنيا حيًّا، وأنَّ ذلك كان مكتوبًا في أمِّ الكتاب من قبل نفخ الروح في آدم عليه السلام، وفُسِّر «أم الكتاب» باللوح المحفوظ، وبالذكر في قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: ٣٩]. . .». اهـ.

وعن وظيفة النبي ﷺ وأنه مبلغ محض لوحي ربه، قام بهذه المهمة خير قيام، حتى أكمل الله به الملة ورضي به الشريعة، وأتمَّ به النعمة، وختم به الرسالات.

قال الحافظ في هذا:

«. . . وقد سُئل النبي ﷺ عن المعوذتين، فقال: قيل لي فقلت. وذلك إشارة منه إلى أنه ﷺ مبلغ محض لما يُوحى إليه، ليس فيه تصرف لما أوحاه الله إليه بزيادة ولا نقص، وإنما هو مبلغ لكلام ربه كما أوحاه إليه، فإذا قال: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ [الإخلاص: ١]، كان امتثالاً للقول الذي قيل له بلفظه لا بمعناه».

(١) الحديث الذي أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم، وصححاه عن العرباض بن سارية رضي الله عنه مرفوعًا: «**إني عند الله في أم الكتاب، لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسوف أنبئكم بتأويل ذلك، دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى قومه، ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، وكذلك أمهات الأنبياء يرين**».

هذا، والحافظ رحمه الله شديد التأدُّب مع أنبياء الله ورسله، وخصوصًا محمد، صلَّى الله عليهم جميعًا وسلَّم، فلا يمر ذكر لأحدهم أو بعضهم أو جميعهم إلا ويصلِّي عليهم ويُسَلِّم.

وهذا شعار المؤمنين بالرسل جميعًا، وهم لذلك أهل، وجديرون به من هذه الأمة التي آمنت بجميع الأنبياء والرسل، ولم تفرق بين رسل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٥٢﴾ [النساء: ١٥٢].

* وجوب محبته ﷺ وكونها من محبة الله:

وقال الحافظ ابن رجب في تقرير محبَّة النبي ﷺ وبيان وجوبها مبيِّنًا ارتباط الإِيمان بالله بها في «فتح الباري» وهو شرحه على البخاري في شرحه على كتاب الإِيمان ق ١٨٣ ــ ١٨٤ من أوله قال:

«خرَّج البخاري ومسلم من حديث: أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: **«والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده»**.

وخرَّج البخاري ومسلم أيضًا من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين»**.

محبَّة النبـي ﷺ من أصول الإِيمان، وهي مقارنة لمحبَّة الله عزَّ وجلّ، وقد قرنها الله بها، وتوعد من قدَّم عليهما محبَّة شيء من الأمور المحبوبة طبعًا من الأقارب والأموال والأوطان وغير ذلك، فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [التوبة: ٢٤].

ولما قال عمر للنبـي ﷺ: أنت أحبُّ إليَّ من كل شيء إلَّا من نفسي، فقال: «**لا يا عمر حتى أكون أحبَّ إليك من نفسك**»، فقال عمر: واللَّـهِ أنت الآن أحبُّ إليَّ من نفسي، قال: «**الآن يا عمر**».

فيجب تقديم محبَّة الرسول ﷺ على النفوس والأولاد والأقارب والأهلين والأموال والمساكن، وغير ذلك مما يحبُّه الناس غاية المحبة، وإنما تتمُّ المحبَّة بالطاعة كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١].

وسُئل بعضهم عن المحبَّة، فقال: الموافقة في جميع الأحوال.

فعلامة تقديم محبة الرسول على محبة كل مخلوق: أنه إذا تعارض طاعة الرسول ﷺ في أوامره وداعٍ آخر يدعو إلى غيرها من هذه الأشياء المحبوبة؛ فإن قدَّم المرء طاعة الرسول وامتثال أوامره على ذلك الداعي: كان دليلاً على صحة محبَّته للرسول وتقديمها على كلِّ شيء؛ وإن قدَّم على طاعته وامتثال أوامره شيئًا من هذه الأشياء المحبوبة طبعًا: دلَّ ذلك على عدم إتيانه بالإِيمان التامِّ الواجب عليه.

وكذلك القول في تعارض محبَّة الله ومحبة داعي الهوى والنفس؛ فإنَّ محبة الرسول تبعٌ لمحبَّة مرسله عزَّ وجلّ. هذا كله في امتثال الواجبات وترك المحرمات.

فإن تعارض داعي النفس ومندوبات الشريعة؛ فإن بلغت المحبَّة إلى تقديم المندوبات على دواعي النفس كان ذلك علامة كمال الإيمان وبلوغه إلى درجة المقرَّبين المحبوبين المتقربين بالنوافل بعد الفرائض؛ وإن لم تبلغ هذه المحبة إلى هذه الدرجة فهي درجة المقتصدين أصحاب اليمين الذين كملت محبَّتهم الواجبة ولم يزيدوا عليها».

إلى أن قال:

«**ومحبَّة الله على درجتين:**

إحداهما: فرض، وهي المحبَّة المقتضية لفعل أوامره الواجبة والانتهاء عن زواجره المحرمة، والصبر على مقدوراته المؤلمة؛ فهذا القدر لا بدَّ منه في محبَّة الله، ومن لم تكن محبَّته على هذا الوجه فهو كاذب في دعوى محبة الله، كما قال بعض العارفين: من ادعى محبة الله ولم يحفظ حدوده فهو كاذب، فمن وقَع في ارتكاب شيء من المحرمات أو أخلَّ بشيء من فعل الواجبات فلتقصيره في محبَّة الله حيث قدم محبة نفسه وهواه على محبَّة الله، فإنَّ محبَّة الله لو كملت لمنعت من الوقوع فيما يكرهه.

وإنما يحصل الوقوع فيما يكرهه الله لنقص محبَّته الواجبة في

القلوب وتقديم هوى النفس على محبَّته، وبذلك ينقص الإيمان؛ كما قال ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**» الحديث.

والدرجة الثانية من المحبَّة ــ وهي فضل مستحب ــ: أن ترتقي المحبَّة من ذلك إلى التقرُّب بنوافل الطاعات والانكفاف عن دقائق الشبهات والمكروهات، والرضى بالأقضية المؤلمات، كما قال عامر بن عبد قيس: أحببتُ اللَّـهَ حبًّا هوَّن عليَّ كل مصيبة ورضَّاني بكل بليَّة، فما أبالي مع حبِّي إيَّاه على ما أصبحت، ولا على ما أمسيت.

وقال عمر بن عبد العزيز: أصبحت وما لي سرور إلاَّ في مواقع القضاء والقدر، ولما مات ولده الصالح قال: إنَّ اللَّـهَ أحبَّ قبضه، وأعوذُ باللَّـهِ أن تكونَ لي محبَّة تخالف محبَّة الله. وقال بعض التابعين في مرضه: أحبُّه إليَّ أحبُّه إليه.

وأما محبَّة الرسول: فتنشأ عن معرفته ومعرفة كماله وأوصافه وعظم ما جاء به؛ وينشأ ذلك من معرفة مرسله وعظمته ــ كما سبق ــ؛ فإنَّ محبَّة الله لا تتمُّ إلاَّ بطاعته، ولا سبيل إلى طاعته إلا بمتابعة رسوله، كما قال تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ**﴾ [آل عمران: ٣١].

ومحبَّة الرسول على درجتين أيضًا:

إحداهما: **فرض**؛ وهي ما اقتضى طاعته في امتثال ما أمر به من الواجبات، والانتهاء عما نهى عنه من المحرمات، وتصديقه فيما أخبر به من المخبرات، والرضا بذلك، وأن لا يجد في نفسه حرجًا مما جاء

به ويسلم له تسليمًا، وأن لا يتلقَّى الهدى من غير مشكاته ولا يطلب شيئًا من الخير إلاَّ مما جاء به.

الدرجة الثانية: فضل مندوب إليه؛ وهي: ما ارتقى بعد ذلك إلى اتِّباع سنَّته وآدابه وأخلاقه، والاقتداء به في هديه وسمته وحسن معاشرته لأهله وإخوانه وفي التخلُّق بأخلاقه...»[1]. اهـ.

* من دلائل نبوة محمد ﷺ:

ذكر الحافظ ابن رجب بعضًا من دلائل النبوَّة لمحمد ﷺ، منها هذه الثلاث:

الدليل الأول: دعوة إبراهيم عليه السلام، وأشار بذلك إلى ما قصَّ الله في كتابه عن إبراهيم وإسماعيل أنهما قالا عند بناء البيت الذي بمكة: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١٢٧ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٢٨ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٢٩﴾ [البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٩].

فاستجاب الله دعاءهما، وبعث في أهل مكة منهم رسولاً بهذه الصفة من ولد إسماعيل.

الدليل الثاني: بشارة عيسى به، وعيسى آخر أنبياء بني إسرائيل، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، وقد

---

(١) فتح الباري لابن رجب ق ١٨٣ ـ ١٨٤.

كان المسيح عليه السلام يحضُّ أتباعه على اتِّباعه ويقول: إنه يبعث بالسيف، فلا يمنعنكم ذلك منه، وروي عنه أنه قال: سوف أذهب أنا ويأتي الذي بعدي، لا يتحمَّدكم بدعواه، ولكن يسل السيف فتدخلون طوعًا وكرهًا.

وفي المسند عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ، أنَّ الله عزَّ وجلّ أوحى إلى عيسى عليه السلام: «**إني باعث بعدك أمَّة، إن أصابهم ما يحبُّوا حمدوا وشكروا، وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا، ولا حلم ولا علم. قال ربِّ: كيف هذا ولا حلم ولا علم؟ قال: أعطيهم من حلمي وعلمي**».

الدليل الثالث: مما دلَّ على نبوَّته ﷺ قبل ظهوره رؤيا أمه التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، وذكر أن أمهات النبيِّين كذلك يرين.

والرؤيا هنا إن أريد بها رؤيا المنام، فقد روى أنَّ آمنة بنت وهب رأت في أول حملها بالنبي ﷺ أنها بُشِّرت وبأنه يخرج منها عند ولادتها نور تضيء له قصور الشام[(١)].

* أثر دعوة محمد ﷺ على الناس:

ذكرها الحافظ ابن رجب عند قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ

---

(١) لخصتها من لطائف المعارف، المجلس الأول من مجالس شهر ربيع الأول، ص ١٥٨ ــ ١٨١، وانظر في غيرها: الحكم الجديرة بالإذاعة، ص ٦ ــ ١٠.

﴿ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤]، فقال:

«وقوله: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ إشارة إلى ما كان الناس عليه قبل إنزال هذا الكتاب من الضلال، فإنَّ الله تعالى نظر حينئذ إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلاَّ بقايا من أهل الكتاب تمسَّكوا بدينهم الذي لم يبدل ولم يغير، وكانوا قليلاً جدًّا.

فأما عامة أهل الكتاب فكانوا قد بدَّلوا كتبهم وغيَّروها وحرَّفوها، وأدخلوا في دينهم ما ليس منه فضلّوا وأضلّوا.

وأما غير أهل الكتاب فكانوا في ضلال مبين، فالأُمِّيُّون أهل شرك يعبدون الأوثان، والمجوس يعبدون النيران ويقولون بإلـٰهية اثنين، وكذلك غيرهم من أهل الأرض، منهم من كان يعبد النجوم، ومنهم من كان يعبد الشمس أو القمر، فهدى الله المؤمنين بإرسال محمد ﷺ إلى ما جاء به من الهدى ودين الحق، وأظهر الله دينه حتى بلغ مشارق الأرض ومغاربها، فظهرت فيها كلمة التوحيد والعمل بالعدل بعد أن كانت الأرض كلها ممتلئة من ظلمة الشرك والظلم، فالأُمِّيُّون هم العرب، والآخرون هم الذين لم يلحقوا بهم أهل فارس والروم، فكانت أهل فارس مجوسًا، والروم نصارى.

فهدى الله تعالى الجميع، فهذه أشرف منزلة لمحمد عليه السلام عند المؤمنين؛ لأنه سبب هدايتهم لإيمان هؤلاء برسالة محمد ﷺ إلى التوحيد»[1]. اهـ.

---

(١) من لطائف المعارف، ص ١٦٩.

وهذا التدرج التاريخي العقدي الذي تناوله الحافظ ابن رجب رحمه الله ينمّ عن إدراك متمكّن وفهم بعيد للدعوة الإيمانية وآثارها، وأبعادها الدينية والخلقية، فانظر كيف جاءت دعوة النبي ﷺ نورًا وسراجًا منيرًا، هدى الله بها من الضلالة، وأنار بها من الظلمة، وكشف بها من الغمة التي أطبقت على الدنيا إلاَّ أفرادًا ممن كانوا على الحنيفية ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.



الإيمان باليوم الآخر

موضوع الإيمان باليوم الآخر هو قضية القضايا التي كرر القرآن الكريم الآيات عنها، وربطها بالإيمان بالله وتوحيده.

عُنِي الحافظ ابن رجب بالبحث والتأصيل في الموضوع فأفرد فيه مصنفين من كتبه هما: «أهوال القبور وأحوال أهلها إلى دار النشور»، في أولى منازل الآخرة، وكتابه الآخر: «التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار» من الوعيد بالنار إلى أهوال المحشر إلى حال المعذبين بالنار في أكلهم وشربهم ولباسهم وصورهم.

مع ما تناوله من قضايا البعث التفصيلية في باقي كتبه.

وركن الإيمان باليوم الآخر من خلال دراسة أهل السنَّة له يقوم على ثلاثة أمور رئيسة هي:

١ ـ أشراط الساعة وعلامتها الكبرى والصغرى.

٢ ـ الحياة البرزخية في القبور وما فيها من النعيم والعذاب.

٣ ـ الحياة الآخرة السرمدية من الوقوف في المحشر إلى الخلود في الجنة والنار.

وفي هذا المقام أعرض لنماذج من تقريرات الحافظ لهذه الأمور الثلاثة:

١ ـ أشراط الساعة:

درج الحافظ ابن رجب على تقسيم السلف الصالح لهذه الأمارات إلى كبرى وهي العشر الواردة حديث حذيفة بن أسيد رضي الله عنه، والمخرج عند مسلم وغيره.

وعلامات صغرى قبل الكبرى وأثناءها وبعدها.

ولنمثل بعلامتين لكل نوع من الأشراط: الكبرى والصغرى من كلام الحافظ رحمه الله.

فمن العلامات الكبرى: خروج المسيح الدَّجال، وافتتان الناس به، قال الحافظ في حديث تعوذ النبـي ﷺ من الأربع؛ من عذاب جهنم، وعذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال، الثابت في الصحيحين، قال:

«ففتنة المحيا تدخل فيها فتن الدين والدنيا كلها، كالكفر والبدع والفسوق والعصيان. وفتنة الممات يدخل فيه سوء الخاتمة، وفتنة الملكين في القبر، فإن الناس يفتنون قبورهم مثل أو قريب من فتنة الدجال.

ثم خصَّ فتنة الدجال بالذكر لعظيم موقعها، فإنه لم يكن في الدنيا فتنة قبل يوم القيامة أعظم منها، وكلما قرب الزمان من الساعة كثرت الفتن»[١]. اهـ.

ومن الآيات الصغرى ــ وهي كثيرة ومتنوعة ــ النار التي تخرج

---

(١) من اختيار الأولى، ص ١٠٥.

من أرض الحجاز فتضيء لها أعناق الأبل ببصرى الشام، قال رحمه الله:

«وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز فتضيء لها أعناق الإبل ببصرى**» وقد خرجت هذه النار بالحجاز بقرب المدينة، ورئيت أعناق الإبل من ضوئها ببصرى في سنة أربع وخمسين وستمائة (٦٥٤هـ)، وعقبها جرت واقعة بغداد وقتل بها الخليفة وعامة من كان ببغداد، وتكامل خراب العراق على أيدي التتار، وهاجر خيار أهلها إلى الشام من حينئذٍ.

فأما شِرار الناس فتخرج نار من آخر الزمان تسوقهم إلى الشام قهرًا، حتى يجتمع الناس كلهم بالشام قبل قيام الساعة. . .»[١]. اهـ.

ومن العلامات المتنقلة في الزمان من بعثة الرسول إلى قيام الساعة، وهي الفتن، لكنها كلما قربت إلى الساعة اشتدت الفتن، قال رحمه الله في بيانها:

«. . . وكلما قرب الزمان من الساعة كثرت الفتن، وفي حديث معاوية عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنه لم يبق من الدنيا إلاَّ بلاء وفتنة**»[٢]، وأخبر النبي ﷺ عن الفتن كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل فيها مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا.

(١) من لطائف المعارف، ص ١٧٥، ١٧٦.

(٢) خرّجه أحمد في مسنده ٤/ ٩٤، وابن ماجه رقم ٤٠٣٥، وقال البوصيري: إسناده صحيح ورجاله ثقات.

وكان أول هذه الفتن ما حدث بهم من مقتل عمر رضي الله عنه، ونشأ من تلك الفتن مقتل عثمان رضي الله عنه، وما ترتب عليه من إراقة الدماء، وتفرق القلوب، وظهور فتن الدين، كبدع الخوارج المارقين، وإظهارهم ما أظهروا، ثم ظهور بدع أهل القدر، والرفض، ونحوهم، هذه هي الفتنة التي تموج كموج البحر المذكورة في حديث حذيفة رضي الله عنه المشهور حين سأله عنها عمر رضي الله عنه، وكان حذيفة رضي الله عنه من أكثر الناس سؤالاً للنبي ﷺ عن الفتن خوفًا من الوقوع فيها...»[1]. اهـ.

٢ ـ الحياة البرزخية بعد الموت:

ملأ الحافظ كتابه «أهوال القبور» في الكلام على تفاصيل ذلك، ومما قاله بعبارة جامعة في تقرير عذاب القبر ونعيمه:

«وقد تواترت الأحاديث عن النبي ﷺ في عذاب القبر والتعوذ منه، وفي الصحيحين عن مسروق عن عائشة أنها سألت النبي ﷺ عن عذاب القبر، قال: «**نعم، عذاب القبر حق**». قالت عائشة: فما رأيت رسول الله ﷺ بعد ذلك صلّى صلاة إلّا تعوذ من عذاب القبر...

فصل: وقد ورد في عذاب القبر أنواع، منها الضرب إما بمطارق من حديد أو غيره، وقد سبق في ذلك أحاديث متعددة...

فصل: وأما نعيم القبر فقد دل عليه قوله تعالى: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الواقعة: ٨٩]، كما سبق، وقد تقدم في حديث البراء

(١) اختيار الأولى، ص ١٠٦، ١٠٧.

وغيره ذكر بعض نعيم القبر. . .»[1] . اهـ.

والمقصود أن كتابة ذلك شاهد بتقريره لتفاصيل الحياة البرزخية بما فيها من النعيم وصوره والعذاب وأشكاله، ومسائل القبور الأخرى، كل ذلك جريًا وموافقة لظواهر آي الكتاب وبيان النبي ﷺ، منتهجًا منهج السلف الصالح من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام والتابعين لهم بإحسان، تأصيلاً وتفريعًا وتفصيلاً.

*** مسألة مستقر الأرواح بعد الموت:**

وهي مسألة مهمة عظيمة تباين فيها كلام الناس وتنوع بحسب مشاربهم ومعتقداتهم، وعلى كل حال هذه المسألة إنما تُتلقى من الشرع المعصوم فقط، وقد أطال الكلام فيها العلماء في تضاعيف تصانيفهم في الروح والقبر والبرزخ. . .

ومن الأقوال المنقولة في المسألة:

١ ـ أن أرواح المؤمنين بفناء الجنة، يأتيهم من روحها ونعيمها، وهو مروي عن مجاهد بن جبر.

٢ ـ أنها على أفنية القبور، قاله ابن عبد البر في أرواح المؤمنين، أما الشهداء فإنها في الجنة.

٣ ـ أنها مرسلة تذهب حيث شاءت، وهو قول مالك، وخصها سلمان رضي الله عنه بأرواح المؤمنين في برزخ من الأرض تذهب حيث شاءت.

---

(١) من أهوال القبور، ص ٤٣ و ٥٠ و ٥٨.

٤ ــ أن أرواح المؤمنين في الجنة تنعم، والكفار في النار تعذب، ولم يزيدوا على ذلك، وهذا القول رواه عبد الله بن أحمد عن أبيه الإمام، ورواه الخلال في السنة من طرق عن حنبل عن الإمام، نقله ابن رجب في الأهوال ١٠٦.

٥ ــ أن أرواح المؤمنين عند الله، ونقله ابن مندة عن جماعة من الصحابة والتابعين، ولم يزيدوا عليه.

٦ ــ أن أرواح المؤمنين بالجابية بدمشق، والكفار ببئر برهوت بحضرموت، ونقله ابن منده أيضًا عن جماعة من الصحابة منهم عبد الله بن عمر وعلي رضي الله عنهما، وعن جماعة من التابعين.

٧ ــ أن أرواح المؤمنين في عليين، والكافرين في سجين تحت خدِّ إبليس، وهو مروي عن كعب الأحبار، وهو قول جماعة من السلف والخلف وغيره.

٨ ــ أن أرواح المؤمنين ببئر زمزم، والكفار ببئر برهوت.

٩ ــ أن أرواح المؤمنين عن يمين آدم، والكفار عن شماله.

١٠ ــ أن مستقر الأرواح حيث كانت قبل خلق أجسادها، وهو قول من يقول بتقدّم خلق الروح قبل الجسد كابن حزم وغيره.

١١ ــ أن مستقرها العدم المحض، وهو قول ابن الباقلاني وأتباعه.

تلك أقوال أهل الإسلام التي ساقها ابن القيم في الروح، وشارح الطحاوية، وكل قول فيه من الحق بقدر موافقته لما ورد من النصوص الشريفة خلا القول الأخير.

وربما يقع في الأقوال من التداخل ما يظن معه تكرار الأقوال، وانتبه إلى ترتيبها عند ابن رجب كما يأتي.

والكلام في هذه المسألة فرع من الكلام في مسائل الغيب، لا تجترأ عليها إلاَّ بدليل، وتأمل ـ أيها المحب ـ القول الرابع المروي عن الإمام أحمد، ترى فقهه فيه!

١٢ ـ قول التناسخية، ومنكرة البعث، أن مستقر الروح بعد الموت بدن آخر تناسب أخلاقها وصفاتها السابقة.

وابن القيم رحمه الله أطال في هذه الأقوال مُدللاً وراداً ومناقشاً في كتابه: الروح ٣٧٤ ـ ٤٣٤ في المسألة الخامسة عشرة وقال بعد عرضها جملة ٣٧٨:

«... فهذا ما تلخص لي من جمع أقوال الناس في مصير أرواحهم بعد الموت، ولا تظفر به مجموعًا في كتاب واحد غير هذا البتة، ونحن نذكر مأخذ هذه الأقوال وما لكل قول وما عليه، وما هو الصواب من ذلك الذي دل عليه الكتاب والسنَّة على طريقتنا التي منَّ الله بها وهو مرجو الإعانة والتوفيق». اهـ[1].

وكذلك أبو الفرج ابن رجب الحنبلي في «أهوال القبور» أطال في عرضها ومناقشتها وعزوها إلى أصحابها في الباب التاسع (ص ٩٥ ـ ١٢٧) وخلاصة عرضه:

١ ـ أرواح الأنبياء فليس شك أنها عند الله في أعلى عليين.

---

(١) انظر: شرح الطحاوية، ص ٥٨٢ ـ ٥٨٤.

٢ ــ أرواح الشهداء في الجنة.

٣ ــ أرواح بقية المؤمنين فقسمان:

(أ) غير المكلفين، فالأطفال في الجنة، وحكاه الإمام أحمد إجماعًا، وإنما الخلاف فيه بينهم هل يشهد لآحادهم بها أو يكتفى بالعموم؟

(ب) أما المكلفين، ففيهم خلاف:

١ ــ أنها في الجنة، وأما الكفار ففي النار، وهو المروي من غير وجه عن الإمام أحمد.

٢ ــ أرواح العصاة ممن عليهم حقوق للآدميين أو كبائر تستوجب العقوبة فهم محبوسون عن الجنة لذلك.

٤ ــ الأرواح كلها في الأرض، مؤمنها وكافرها، واختلفوا فيها:

(أ) فقيل على أفنية القبور، ونسبه ابن حزم لعامة أهل الحديث، وهو المشهور عن ابن عبد البر.

(ب) أنها مرسلة وتذهب حيث شاءت، وهو قول ابن سلام ومالك وابن المسيب ومجاهد.

(ج) أنها تجتمع في موضع من الأرض: فقيل: أرواح المؤمنين بالجابية بالشام، والكفار ببرهوت بحضرموت، وهو مروي عن جماعة من الصحابة والتابعين.

الأرواح المؤمنة ببئر زمزم، والكافرة في برهوت.

(د) أرواح المؤمنين عن يمين آدم، والكافرين عن شماله.

(هـ) الأرواح تعود إلى برزخها التي هي فيه قبل خلق أجسادها، وهو المشهور عن ابن حزم، وتعقبه ابن رجب فيه وفي حكايته الإجماع عليه!

(و) أن الأرواح لا تبقى بل تزول وتضمحل إلى العدم المحض لأنها عرض، وهو قول المتكلمين كابن الباقلاني، وقال الحافظ: ولا يصح هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما... والله أعلم. اهـ.

وبحث كلام ابن حزم في الفصل ٤/ ٥٧ ــ ٦٠ و ٥/ ٤٢ وما بعدها.

هذا، والتطويل في هذه المسألة صار مني في عرضه لجلالتها!

٣ ــ الحياة الآخرة يوم القيامة:

وتبدأ من خروج الناس من قبورهم كأنهم جراد منتشر، إلى أهوال المحشر وفتنته، وفصل القضاء والحساب والجزاء، والميزان الصراط والحوض وشفاعة محمد ﷺ، وظل عرش الرحمن، ثم الجنة والنار وما فيهما مما أعد لأهلهما من النعيم والعذاب المقيم.

وأوسع كتبه في ذلك: «التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار»، وإليه أحيل القارىء الكريم في الوقوف على تقرير الحافظ لمسائل اليوم الآخر والتفصيل، وأعفيه عن التطويل بنقل كثير تقريراته في هذا الركن المهم من أركان الإيمان هاهنا.

ومن جملة كلامه رحمه الله، أختار من الأحداث العظيمة في يوم المحشر شفاعة رسول الله ﷺ.

فقال في فتح الباري: «وأما الشفاعة التي اختص بها النبي ﷺ من بين الأنبياء، فليست هي الشفاعة في خروج العصاة من النار فإن هذه الشفاعة شارك فيها الأنبياء والمؤمنون أيضًا، كما تواترت بذلك النصوص.

وأما الشفاعة التي خُصَّ بها من دون الأنبياء أربعة أنواع:

أحدها: شفاعته في فصل القضاء بينهم.

الثاني: شفاعته لأهل الجنة في دخول الجنة.

الثالث: شفاعته في أهل الكبائر من أهل النار، فقد قيل: إن هذه يختص[1] [به].

الرابع: كثرة من يشفع له من أمته، فإنه وفرَّ شفاعته وادخرها إلى يوم القيامة»[2]. اهـ.

ـ وأيضًا مما اختص به ﷺ شفاعته في تخفيف العذاب عن عمه أبي طالب ـ لا بخروجه من النار ـ بل ليكون في منزلة أقل أهل النار عذابًا، بوضعه في ضحضاح من نار يغلي منه دماغه، كما ثبت في الصحيح.

---

(١) بعدها كلمة غير مقروءة، لكثرة الحبر في المصورة أو هكذا «قدر كلمتين»، الثانية منهما: «بها».

(٢) فتح الباري «الظاهرية» ق ٩١، والصديقية ق ٢٣، ٢٤، كتاب الأذان ـ باب الدعاء عند الآذان.

فهذه الشفاعات خُصَّ بها نبينا محمد ﷺ. ومن التي شاركه غيره:

١ ـ شفاعته لأهل الجنة في الترفع في درجاتها.

٢ ـ شفاعته فيمن تساوت حسناتهم وسيئاتهم لدخول الجنة، وقيل باختصاصها به عليه الصلاة والسلام.

٣ ـ شفاعته في قوم أمر بهم إلى النار ألا يدخلوها.

٤ ـ شفاعته فيمن يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب[١].

والنوع الثالث الذي ذكره الحافظ من شفاعته بأهل الكبائر من أمته، الصواب أنها ليست خاصة به، وقد أومأ هو إلى ذلك، حيث جاء أن الملائكة والمؤمنين والنبيين يشاركونه فيها.

هذا وقد نقل السُّفاريني[٢] أن الشفاعات الخاصة بالرسول هي اختصارًا:

١ ـ الشفاعة العظمى.

٢ ـ الشفاعة في قوم من أمته يدخلون الجنة بغير حساب ولا عقاب، وهم السبعون ألفًا.

٣ ـ الشفاعة في قوم استحقوا النار بأعمالهم، فيشفع فيهم فلا يدخلونها، وذكر الخلاف في خصوصيّتها.

٤ ـ الشفاعة في رفع درجات ناس في الجنة، والصواب عدم خصوصيتها، لظاهر آية الطور، وهي قوله تعالى:

---

(١) انظر: التخويف من النار، ص ١٨٤.

(٢) من لوامع الأنوار البهية، في الجزء الثاني منه.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ٢١﴾ [الطور: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣﴾ [الرعد: ٢٣].

* مسألة أطفال المشركين وحكمهم:

وهي من المسائل القليلة العقدية الثانوية التي وقع فيها الخلاف بين العلماء، اعتمادًا على موارد النقل عند كل، وفهومهم له، وصحة النقل وضعفه...

وإليك الأقوال في المسألة، وهي على سبيل الإجمال:

١ ــ التوقف فيهم، وتعقبه ابن القيم.

٢ ــ أن أطفال المشركين في النار، ونسبه إلى جماعة من المتكلمين وأهل التفسير، وحكاه القاضي أبو يعلى نصًّا عن أحمد، وتعقبه ابن القيم!

٣ ــ أن الجميع في الجنة، وهو قول طائفة من المفسرين والمتكلمين وغيرهم.

٤ ــ أن أطفال المشركين في منزلة بين الجنة والنار، وهم أهل الأعراف، وهو قول طائفة من المفسرين، وتعقبه ابن القيم مستفصلاً فيه.

٥ ــ أنهم تحت المشيئة، ونسبه ابن القيم للجبرية نفاة الحكمة وإلى كثير من مثبتة القدر وغيرهم.

٦ ــ أن أطفال المشركين خدم لأهل الجنة ومماليك لهم، وهذا الذي اختاره الشيخ عبد الوهاب بن الحنبلي (٥٣٦هـ)، ولكن ابن القيم تعقبه.

٧ ــ أن حكمهم حكم آبائهم، وفيه فرق بينه وبين القول الثاني، وتعقبه ابن القيم.

٨ ــ أنهم يمتحنون في عرصات القيامة، ورجحه ابن القيم وقال: «وبهذا يتألف شمل الأدلة كلها، وتتوافق الأحاديث».

واختاره من المحققين المعاصرين الشيخ عبد الرحمن بن سعدي فيما نقله لي بعض تلامذته، ويختاره الشيخ عبد العزيز بن باز ــ رحمهما الله تعالى ــ.

وفي المسألة قولان أيضًا:

٩ ــ أنهم يصيرون ترابًا، وهو قول عامر بن أشرس من المعتزلة.

١٠ ــ كراهية الكلام في المسألة جملة، وهو منقول عن ابن عباس ومحمد بن الحنفية والقاسم بن محمد بن أبي بكر وغيرهم رضي الله عنهم[١].

أما أطفال المؤمنين فقد نقل ابن رجب في الأهوال ص ١٠١ الإجماع عن الإمام أحمد أنهم في الجنة، وفي رواية لميمون عنه: ليس فيهم خلاف أنهم في الجنة.

---

(١) وانظر هذه الأقوال في: ابن الحنبلي وكتابه الرسالة الواضحة، ٢/ ٩٥٨ وما بعدها.

هذا وهنا دليل يدل لقول ابن الحنبلي، وهو القول السادس، وهو حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه الطويل في رؤياه ﷺ وفيه قال: «. . . **فانطلقنا فأتينا على روضة معتمة، فيها من كل لون الربيع، وإذا بين ظهري الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولاً في السماء، وإذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قط. . . وأما الرجل الطويل الذي في الروضة، فإنه إبراهيم ﷺ، وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة**» فقال بعض المسلمين: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ فقال ﷺ: «**وأولاد المشركين. . .**» الحديث متفق عليه.

ورواه البخاري موصولاً في التعبير ــ باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح (٦٤٤٠) ومسلم في الرؤيا ــ باب رؤيا النبـي ﷺ (٢٢٧٥).

وانظر بقية الأدلة في طبقات المكلفين من «طريق الهجرتين» لهذا القول (ص ٣٩١)، وما بعدها، وأهوال القبور لابن رجب ١٠٢ ــ ١٠٦، ومما يؤيد ما سبق مما ذكروا من أن أطفال المشركين في الجنة أحاديث منها:

١ ــ ما رواه أبو نعيم في أخبار أصبهان (٢/ ٢٦٣)، والحاكم وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٩/ ٢١٩) من طريق سفيان الثوري عن عبد الرحمن الأصبهاني عن أبـي حازم عن أبـي هريرة رضي الله عنه يرفعه: «**أطفال المشركين في جبل في الجنة يكفلهم إبراهيم وسارة حتى يدفعونهم إلى آبائهم يوم القيامة**».

وعزاه الألباني في الصحيحة (٨٤٦٧) إلى الديلمي وعبد الغني المقدسي في تخريج حديثه.

وقال الحافظ ابن رجب في الأهوال ١٠٣: «ورواه ابن مهدي وأبو نعيم عن سفيان موقوفًا، قال الدارقطني: والموقوف أشبه». اهـ.

وحديث أبي هريرة صححه البيهقي في البعث والنشور، ورواه الحاكم في مستدركه عن أبي هريرة ١/ ٣٨٤، من طريقه وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه...». اهـ، ووافقه الذهبي.

وانظر الحاوي للسيوطي ٢/ ٣٠٧ وعزاه لأحمد في المسند، ولم أجده فيه، وكشف الخفاء ١/ ٣١٠، وإتحاف السادة المتقين ٨/ ٥٦٧، ومجمع الزوائد ٣/ ٣٩ ـ ٤٠، وأهوال القبور للحافظ ابن رجب.

٢ ـ ما رواه الطبراني في الكبير ٧/ ٢٤٤ من طريق عباد بن منصور عن أبي رجاء عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: سألنا رسول الله ﷺ عن أطفال المشركين؟ فقال: «**هم خدم أهل الجنة**».

ورواه البزار كما في كشف الأستار ٢/ ١٩٩، والطبراني في الأوسط، قال في المجمع ٧/ ٢١٩: «وفيه عباد بن منصور وثقه يحيى القطان وفيه ضعف». اهـ. وانظر مجمع البحرين له ٢٨٧.

ورواه البخاري في التاريخ الكبير ٦/ ٤٠٧ في ترجمة عيسى بن شعيب عنه به.

٣ ـ حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن ذراري المشركين لم يكن لهم ذنوب يعاقبون بها فيدخلون النار، ولم تكن لهم حسنة يجازون بها فيكونون من ملوك الجنة، فقال ﷺ: «**هم خدم أهل الجنة**».

رواه الطبراني في الأوسط ومن طريق أبو نعيم في الحلية ٦/ ٣٠٨، والبزار كما في الزوائد ٢٣٢، وأبو يعلى في مسنده (١٠١١، ١٠١٢) من طريق يزيد الرقاشي عنه به، قال في المجمع ٧/ ٢١٩: وفي إسناد أبي يعلى يزيد الرقاشي وهو ضعيف، وقال فيه ابن معين: «رجل صدق»، ووثقه ابن عدي، وبقية رجالهم رجال الصحيح». اهـ.

٤ ـ وعن أنس أيضًا يرفعه إليه ﷺ قال: **«سألت ربي عن اللاهين من ذرية البشر أن لا يعذبهم فأعطانيهم، فهم خدم أهل الجنة»**.

قال في المجمع ٧/ ٢١٩: «رواه أبو يعلى من طرق ورجال أحدها رجال الصحيح غير عبد الرحمن بن المتوكل وهو ثقة». اهـ.

ونقل ابن القيم في طريق الهجرتين ٣٩٤ الحديث عنه من ثلاثة طرق كلها ضعيفة.

واللاهون هم الصبيان.

٥ ـ وفيه حديث أبي مالك الأنصاري بمثله، وعن خديجة وأبي هريرة ـ رضي الله عنهم ـ بنحوه.

وانظر تخريج العراقي والزبيدي للإحياء كما في الاستخراج (٣٣١٢) والسلسلة الصحيحة (١٤٦٨) و (١٨٨١). وبحثت المسألة في أطروحتي: ابن الحنبلي وكتابة الرسالة الواضحة ٢/ ٩٦٢ وما بعدها.

* * *

الإيمان بقضاء الله وقدره

وهو الإيمان بقدرة الله التامة والشاملة على خلقه، وهذا الإيمان يتضمن أربعة أمور:

١ ــ اعتقاد علم الله السابق لكل شيء مقدر.

٢ ــ كتابة الله لما قدره في كتاب عنده فوق العرش.

٣ ــ أن كل شيء مقدر فهو بإرادة الله ومشيئته، أي أنه لا يكون إلاَّ ما يريد سبحانه.

٤ ــ أن كل مقدر فهو مخلوق لله، أي أن الله خالق لكل شيء.

والإيمان بالقدر داخل في توحيد الربوبية؛ لأن تقدير الأمور وتدبيرها وإرادتها في القدم لا تكون إلاَّ من مقدر مريد مدبر أول ليس قبله شيء، وهذه هي معاني الربوبية لله سبحانه وتعالى، فالكلام في القدر كلام في الربوبية.

قال الحافظ ابن رجب: «... ومن ذلك ــ أعني محدثات الأمور ــ ما أحدثه المعتزلة ومن حذا حذوهم من الكلام في ذات الله وصفاته بأدلة العقول، وهو أشد خطرًا من الكلام في القدر؛ لأن الكلام في القدر كلام في أفعاله، وهذا كلام في ذاته وصفاته»[1]. اهـ.

(١) فضل علم السلف على الخلف، ص ١٣٨.

والقدر نظام التوحيد، أي ينتظم التوحيد به ويستوي، وهو سر من أسرار الله تعالى، قال الحافظ: «وحقيقة الكفؤ هو المساوي والمقاوم، فلا كفؤ له تعالى في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أسمائه، ولا في أفعاله، ولا في ربوبيته، ولا في إلاهيته، ولهذا كان الإيمان بالقدر نظام التوحيد كما قال ابن عباس؛ لأن القدرية جعلوا له كفوًا في الخلق»(١). اهـ.

والقدر هو سر من أسرار الله تعالى، قال رحمه الله:

«ومنها: الخوض في سر القدر، وقد ورد النهي عنه وعن علي وغيره من السلف، فإن العباد لا يطلعون على حقيقة ذلك»(٢).

فهذه النقول عنه تبين أهمية الإيمان بالقضاء والقدر، ولهذا عدَّ العلماء الإيمان بالقضاء والقدر ثمرة من ثمرات الإيمان بالله، فالراضي بالقضاء والقدر راضٍ بالله، والساخط من القدر ساخط على الله، وهذه النكتة في عطف الفعل «تؤمن» لما عد النبي ﷺ أركان الإيمان فقال: «**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**» في حديث جبرائيل المشهور.

الخوض في القدر:

اعتبر الحافظ ابن رجب هذا من الإحداث في الدين، ومن البدع الواقعة بعد الصحابة، ومن الأشياء التي توسع فيها أهلها وسموها علومًا، وظنوا أن من لم يكن عالمًا بها فهو جاهل أو ضال، وكلها من البدع التي حذرنا منها النبي ﷺ في غير ما حديث.

---

(١) من تفسير سورة الإخلاص، ص ١٠٢.

(٢) من فضل علم السلف على الخلف، ص ١٣٨.

قال في فضل علم السلف على الخلف:

«. . . فمن ذلك ما أحدثته المعتزلة من الكلام في القدر، وضرب الأمثال لله. وقد ورد النهي عن الخوض في القدر، ففي صحيحي ابن حبان والحاكم عن ابن عباس مرفوعًا: «**لا يزال أمر هذه الأمة موافيًا ومقاربًا ما لم يتكلموا في الولدان والقدر**»[(١)].

والنهي عن الخوض في القدر يكون على وجوه:

١ ـ **منها**: ضرب كتاب الله بعضه ببعض فينزع المثبت للقدر بآية، والنافي له بأخرى، ويقع التجادل في ذلك. وهذا قد روي أنه وقع في عهد النبي ﷺ، وأن النبي ﷺ **غضب من ذلك ونهى عنه**، وهذا من جملة الاختلاف في القرآن، والمراء فيه وقد نهى عن ذلك.

٢ ـ **ومنها**: الخوض في القدر إثباتًا ونفيًا بالأقيسة العقلية، كقول القدرية: لو قدر وقضى ثم عذَّب كان ظالمًا، وقول من خالفهم: إن الله جبر العباد على أفعالهم ونحو ذلك.

٣ ـ **ومنها**: الخوض في سر القدر، وقد ورد النهي عنه، عن علي وغيره من السلف فإن العباد لا يطلعون على حقيقة ذلك»[(٢)]. اهـ.

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه ١/ ٣٣ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولا نعلم له علة، ولم يخرجاه، وسكت عليه الذهبي. وأخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٩٣ وصححه، وعزاه في مجمع الزوائد إلى البزار والطبراني في الكبير ثم قال: «ورجال البزار رجال الصحيح». اهـ. ٧/ ٢٠٢.

(٢) من فضل علم السلف ص ١٣٦ ـ ١٣٨.

فالخوض في هذا الباب طريقة أهل الأهواء والمراء، وهي طريقة وعرة ودحضُ مزلة، مع نهي الشرع عنها أصلاً وفرعًا.

كما أنه قدح في فعل الرب سبحانه وتنقّص لحكمته، وتحكّم في إرادته بمحض القياس العقلي الناقص، المتضمن لتنقص الشرع وصاحبه.

لخطر هذه الأبعاد والمضامين، ومناهضتها لأصل الإيمان والدين، وقف السلف الصالح من المبتدعين في باب القدر موقفًا واضحًا صلبًا في مناوءتهم، والتبري منهم وتأديبهم، مع ما انضاف إلى ذلك من دلائل النصوص الشرعية المجلية لقضية القضاء والقدر، والمحذرة أشد التحذير من الدخول فيها، والتهاون في الإيمان به، حيث تبرأ النبي ﷺ وصحابته ممن لم يؤمن بأن ما أصابه لم يكن ليخطأه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

وانظر كيف قَرَنَ ربنا سبحانه وتعالى الإيمان بالقدر بالإيمان به بقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى: ١ ـ ٣]، وفي حديث جبريل كيف عطف فعل الإيمان بالقدر على فعل الإيمان به سبحانه في قوله عليه الصلاة والسلام: «**الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**»؛ لأن القدر من علم الله وكتابته، كما قال تعالى في آية الحج: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧٠﴾ [الحج: ٧٠]، وهو من إرادة الله ومن خلق الله.

قال الحافظ مبينًا هذه النكتة في جامع العلوم والحكم (ص ٢٦) على حديث الإيمان:

«وقد قال كثير من أئمة السلف: ناظروا القدرية بالعلم، فإن أقروا به خصموا، وإن جحدوا فقد كفروا، يريدون أن من أنكر العلم القديم السابق بأفعال العباد، وأن الله تعالى قسمهم قبل خلقهم إلى شقي وسعيد، وكتب ذلك عنده في كتاب حفيظ، فقد كذّب بالقرآن فيكفر بذلك، وإن أقروا بذلك وأنكروا أن الله خلق أفعال العباد وشاءها وأرادها منهم إرادة كونية قدرية فقد خصموا؛ لأن ما أقروا به حجة عليهم فيما أنكروه، وفي تكفير هؤلاء نزاع مشهور بين العلماء، وأما من أنكر العلم القديم، فنص الشافعي وأحمد على تكفيره وكذلك غيرهما من أئمة الإسلام»[١]. اهـ.

* مراتب الإيمان بالقضاء والقدر:

مضى الزين ابن رجب على طريقة السلف بتقسيم مراتب القدر إلى درجتين كل درجة تتضمن مرتبتين، حيث قول متأخري أتباع السلف أنها أربع مراتب، فهو تقسيم اصطلاحي يجعل العلم والكتابة درجة، والمشيئة والخلق درجة، قال رحمه الله:

«والإيمان بالقدر على درجتين:

إحداهما: الإيمان بأن الله تعالى سبق علمه ما يعمله العباد من خير وشر، وطاعة ومعصية، قبل خلقهم وإيجادهم، ومن هو منهم من أهل الجنة، ومن هو منهم من أهل النار، وأعدَّ لهم الثواب والعقاب جزاء لأعمالهم قبل خلقهم وتكوينهم.

(١) جامع العلوم والحكم، شرح حديث جبريل ص ٢٦.

وأنه كتب ذلك عنده وأحصاه، وأن أعمال العباد تجري على ما سبق في علمه وكتابه.

والدرجة الثانية: أن الله خلق أفعال العباد كلها من الكفر والإيمان والطاعة والعصيان، وشاءها منهم.

فهذه الدرجة التي يثبتها أهل السنَّة والجماعة، وتنكرها القدرية، والدرجة الأولى أثبتها كثير من القدرية، ونفاها غلاتهم كمعبد الجهني الذي سئل ابن عمر عن مقالته، وكعمرو بن عبيد وغيره...»[1]. اهـ.

وهذه المراتب الأربع دلت عليها الأدلة من الكتاب والسنَّة، منها: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: ٧٠]، على الدرجة الأولى بمرتبتيها.

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] على المرتبة الثالثة، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩] على المرتبة الرابعة.

* * *

---

(١) من جامع العلوم والحكم، ص ٢٦، في الكلام على حديث جبرائيل المشهور، وهو الحديث الثاني.

لطيفة:

في مسألة احتجاج آدم وموسى

استدل آدم على موسى عليهما الصلاة والسلام بقدر الله في خروجه من الجنة وأكله من الشجرة، في الحديث الذي رواه البخاري بسنده عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**حاجَّ موسى آدم فقال: أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك، وأشقيتهم؟ قال آدم: يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه؟ أتلومني على أمر كتبه الله عليَّ قبل أن يخلقني، أو قدره الله علي قبل أن يخلقني**»؟

فقال رسول الله ﷺ: «**فحجَّ آدم موسى**».

قال الحافظ في هذا الاحتجاج من كتابه لطائف المعارف: «لما التقى آدم وموسى عليهما السلام عاتبه موسى على إخراجه نفسه وذريته من الجنة، فاحتج آدم بالقدر السابق.

والاحتجاج بالقدر على المصائب حسن، كما قال النبي ﷺ: «**إن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا كان كذا، ولكن قل: قدَّر الله وما شاء فعل**» كما قيل:

والله لولا سابق الأقدار ... لم تبعد قط داركم عن داري
من قبل النأي حرية المقدار ... هل يمحو العبد ما قضاه الباري»[1]

---

(١) لطائف المعارف، ص ١١٧.

ومع هذا قرر أن الاحتجاج على ما فات من المصائب ـ وهي هنا خروج آدم وأهله من الجنة ـ بقدر الله، فقال: هو الواجب، كما يوافقه الحديث.

أما الاستدلال على المعايب ـ كمن يسرق أو يزني أو يقتل النفس بغير حق ـ بالقدر، فهذا نقص في العقل والشرع، وجزاؤه التأديب، كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما سأل السارق لِمَ سرق؟ فقال: سرقت بقدر الله! فقال عمر: وأنا أقطع يدك بقدر الله.

ففرق شاسع بين الاستدلالين، لمن تأمله واستوضحه.

وفي الحس والفطرة يفرق الناس بين فعل القبائح والمعاصي من اختيارهم ومشيئتهم، ومن وقعت عليه المصائب والنوازل من غير اختيار له، لا قصد إليها.

حتى القدرية نفاة القدر، والجبرية الغلاة في إثباته، يسلمون بهذا شاءوا أم أبوا.

لأن القدري لا يستسلم ولا يرضى لمن يقتله أو يسرقه أو يضربه، فهو يعتقد أن ذلك بفعل القاتل والسارق والضارب... فهو من قدر ذلك وخلقه بفعله، ولكنهم يُخلون وينفون قدر الله من فعله، فعندهم أن الله لم يقدر فعله، فأوقعوا في ملك الله ما لم يقدره، وأنقصوا حكمته وقدرته وعلمه.

والجبري أيضًا لا يسلم لمن صال عليه ولا يقبله، بناء على عقيدته أنه مجبور على فعله، بل يدفعه عنه بما استطاع، حيث ناقض فعله اعتقاده.

* **فائدة مهمة في حديث «الشؤم في ثلاث»:**

قررها الحافظ رحمه الله في أثناء كلامه على فعل الجاهلية في التطير، من كتابه اللطائف، حيث قال:

«فأمَّا قول النبي ﷺ «**لا عدوى ولا طيرة، والشؤُم في ثلاثٍ؛ في المرأة، والدار، والدابة**» خرَّجاه في «الصحيحين» مِن حديث ابن عمر، عن النبي ﷺ، فقد اختلف الناس في معناه أيضًا، فروي عن عائشة رضي الله عنها أنها أنكرت هذا الحديث، أن يكون من كلام النبي ﷺ، وقالت: إنما قال: كان أهلُ الجاهلية يقولون ذلك. خرَّجه الإمام أحمد. وقال معمر: سمِعت من يفسر هذا الحديث، يقول: شؤم المرأة إذا كانت غير ولود، وشؤم الفرس إذا لم يكن يغزى عليه في سبيل الله، وشؤم الدار جار السوء. روي هذا المعنى مرفوعًا من وجوه لا تصح.

ومنهم من قال: قد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا شؤم، وإن يكن اليمن في شيء ففي ثلاثة**»، فذكر هذه الثلاثة[1]. وقال: هذه الرواية أشبه بأصول الشرع؛ كذا قاله ابن عبد البر، ولكن إسناد هذه الرواية لا يقاوم ذلك الإسناد.

والتحقيق أن يقال في إثبات الشؤم في هذه الثلاث، ما ذكرناه في النهي عن إيراد المريض على الصحيح، والفرار من المجذوم، ومن أرض الطاعون؛ إن هذه الثلاث أسباب يقدر الله تعالى بها الشؤم واليمن

(١) أي المرأة والدابة والدَّار، أخرجه ابن ماجه رقم (١٩٩٣) في النكاح، باب ما يكون فيه اليمن والشؤم، والترمذي رقم (٢٨٢٦) في الأدب، باب ما جاء في الشؤم، من حديث حكيم بن معاوية رضي الله عنه.

ويقرنه بها، ولهذا يشرع لمن استفاد زوجةً، أو أمةً، أو دابةً، أن يسأل الله تعالى من خيرها وخير ما جبلت عليه، ويستعيذ به من شرها وشر ما جبلت عليه، كما في حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ الذي خرَّجه أبو داود وغيره.

وكذا ينبغي لمن سكن دارًا أن يفعل ذلك. وقد أمر رسول الله ﷺ قومًا سكنوا دارًا فقل عددهم، وقل مالهم، أن يتركوها ذميمةً[1].

فترك ما لا يجد الإنسان فيه بركةً من دارٍ أو زوجةٍ أو دابةٍ غير منهيٍّ عنه.

وكذلك من اتَّجر في شيءٍ فلم يربحْ فيه ثلاث مراتٍ، فإنه يتحول عنه. روي ذلك عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فإن بورك له في شيء فلا يتغير عنه. ففي «المسند» و «سنن ابن ماجه» عن عائشة رضي الله عنها مرفوعًا: «**إذا كان لأحدكم رزق في شيء فلا يدعه حتى يتغير له، أو يتنكر له**»[2].

وأما تخصيص الشؤم بزمان دون زمانٍ، كشهر صفر أو غيره، فغير صحيحٍ، وإنما الزمان كله خلق الله تعالى، وفيه تقع أفعال بني آدم. فكل زمان شغله المؤمن بطاعة الله، فهو زمان مبارك عليه، وكل زمانٍ

---

(١) أخرجه أبو داود في «سننه» رقم (٣٩٢٤) في الطب، باب في الطيرة، وفي الموطأ ٢/ ٩٧٢ في الاستئذان، باب ما يتقى من الشؤم.

(٢) رواه أحمد في «المسند» ٦/ ٢٤٦، وابن ماجه رقم (٢١٤٨) في التجارات، باب إذا قسم للرجل رزق من وجه فليلزمه. وفي إسناده مقال، كما في زوائد ابن ماجه للبوصيري ولفظه عند ابن ماجه: «**إذا سبب الله لأحدكم رزقًا من وجه، فلا يدعه حتى يتغير له، أو يتنكر له**».

شغله العبد بمعصية الله تعالى فهو مشؤوم عليه. فالشؤم في الحقيقة هو معصية الله تعالى، كما قال ابن مسعودٍ رضي الله عنه: إن كان الشؤم في شيءٍ ففيما بين اللحيين، يعني اللسان. وقال: ما من شيء أحوج إلى طول سجنٍ من لسانٍ.

وقال عدي بن حاتم: أيمن أمر وأشأمه بين لحييه، يعني لسانه، وفي سنن أبـي داود عن النبـي ﷺ، قال: «**حسن الملكة نماء، وسوء الملكة شؤم، والبر زيادةٌ في العمر، والصدقة تمنع ميتة السوء**»[1] فجعل سوء الملكة شؤمًا.

وفي حديث آخر: «**لا يدخل الجنة سيِّىء الملكة**[2]»، وهو من يُسيءُ إلى مماليكه ويظلمهم.

وفي الحديث: «**إن الصدقة تدفع ميتة السوء**»[3].

ويروى من حديث علي مرفوعًا: «**باكروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطاها**»[4] خرجه الطبراني.

---

(١) سنن أبـي داود رقم (٥١٦٢) و (٥١٦٣) في الأدب، باب في حق المملوك، ورواه أيضًا أحمد في «المسند» ٣/ ٥٠٢.

(٢) أخرجه الترمذي رقم (١٩٤٧) في البر والصلة، باب ما جاء في الإحسان إلى الخدم، في سنده فرقد بن يعقوب السبخي، وهو لين الحديث، كما في التقريب، قال الترمذي: هذا حديث غريب، وأخرجه أيضًا ابن ماجه، رقم (٣٦٩١) في الأدب، باب الإحسان إلى المماليك.

(٣) أخرجه الترمذي رقم (٦٦٤) في الزكاة، باب ما جاء في فضل الصدقة، عن أنس رضي الله عنه بلفظ: «**إنَّ الصدقة تطفىءُ غضب الرَّبِّ، وتدفع ميتة السوء**».

(٤) رواه الطبراني في الأوسط، وفيه عيسى بن عبد الله بن محمد وهو ضعيف، قاله في =

وفي حديثٍ آخر: «**إن لكل يومٍ نحسًا، فادفعوا نحس ذلك اليوم بالصدقة**»[1] فالصدقة تمنع وقوع البلاء بعد انعقاد أسبابه، وكذلك الدعاء.

وفي الحديث: «**إن البلاء والدعاء يلتقيان بين السماء والأرض، فيعتلجان إلى يوم القيامة**» خرّجه البزار والحاكم وصححه الحاكم.

وخرَّج الترمذي من حديث سلمان مرفوعًا: «**لا يردُّ القضاء إلاَّ الدعاء**»[2].

وقال ابن عباس: لا ينفع الحذر من القدر، ولكن الله يمحو بالدعاء ما يشاء من القدر، وعنه قال: «الدعاء يدفع القدر، وهو إذا دفع القدر فهو من القدر». وهذا كقول النبي ﷺ لما سئل عن الأدوية

= المجمع ٣/ ١٨٠، ورواه كذلك البيهقي في الكبرى ٤/ ١٨٩ من طريق أخرى عن ابن المصفىٰ، ثنا يحيى بن سعيد عن المختار بن فلفل عن أنس رضي الله عنه به موقوفًا.

قال البيهقي: وكان في كتاب شيخنا أبي نصر القافي ــ وهو قد رواه من طريقه ــ مرفوعًا وهو وهم، وروي عن أبي يوسف القاضي عن المختار بن فلفل مرفوعًا.

وتتمة البحث في الحديث في: الكامل لابن عدي ٣/ ١٩٩، وتذكرة الموضوعات ٦٤، والموضوعات لابن الجوزي ٢/ ١٥٣، وتنزيه الشريعة ٢/ ١٣١، وكشف الخفا ١/ ٣٢٩، والأسرار المرفوعة ١٤٦، والترغيب والترهيب ٢/ ١٩، واللآلىء المصنوعة ٢/ ٤٨.

(١) انظره في الدر المنثور ٥/ ٢٣٩، وفي كنز العمال رقم (٤٥٥٩) من حديث علي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي رقم (٢١٤٠) في القدر، باب ما جاء لا يرد القدر إلاَّ الدعاء، وتمامه: «**ولا يزيد في العمر إلاَّ البر**»، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

والرقى: هل ترد من قدر الله شيئًا؟ فقال: «**هي من قدر الله تعالى**»[(١)]. وكذلك قال عمر رضي الله عنه لما رجع من الطاعون، فقال له أبو عبيدة: أفرارًا من قدر الله؟ فقال عمر: نفر من قدر الله إلى قدر الله. فإن الله تعالى يقدر المقادير ويقدر ما يدفع بعضها قبل وقوعه، وكذلك الأذكار المشروعة تدفع البلاء.

وفي حديث عثمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**من قال حين يصبح ويمسي: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم، لم يصبه بلاء**»[(٢)]. وفي «المسند»[(٣)] عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ، قال: «**الشؤم سوء الخلق**»، وخرَّجه الخرائطي[(٤)]، ولفظه: «**اليمن حسن الخلق**».

---

(١) أخرجه ابن ماجه رقم (٣٤٣٧) في الطب، باب ما أنزل الله داء إلَّا أنزل له شفاء، والترمذي رقم (٢٠٦٦) في الطب، باب ما جاء في الرقى والأدوية، ورقم (٢١٤٩) في القدر، باب ما جاء لا ترد الرقى ولا الدواء من الله شيئًا، من حديث أبي خزامة. وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٢) أخرجه الترمذي رقم (٣٣٨٥) في الدعوات، باب ما جاء إذا أصبح وإذا أمسى، وأبو داود رقم (٥٠٨٨) و (٥٠٨٩) في الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، وابن ماجه رقم (٣٨٦٩) في الدعاء، باب ما يدعو به الرجل إذا أصبح أو إذا أمسى، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب صحيح.

(٣) المسند ٦/ ٨٥، وسنن أبي داود رقم (٥١٦٢) و (٥١٦٣) في الأدب، باب في حق المملوك، ولفظه: «**حسن الملكة نماء، وسوء الخلق شؤم**».

(٤) مكارم الأخلاق، ص ٨، والجامع الصغير للسيوطي، وعزاه إلى الخرائطي في «مكارم الأخلاق» عن عائشة رضي الله عنها. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم ٣٤٢٦.

وفي الجملة: فلا شؤم إلاَّ المعاصي والذنوب؛ فإنها تسخط الله عزَّ وجلّ، فإذا سخط الله عزَّ وجلّ على عبده شقي في الدنيا والآخرة، كما أنه إذ رضي عن عبده سعد في الدنيا والآخرة.

قال بعضُ الصالحين، وقد شُكي إليه بلاءٌ وقع في الناس، فقال: ما أرى ما أنتم فيه إلاَّ بشؤم الذنوب. وقال أبو حازم: كل ما شغلك عن الله من أهلٍ أو ولدٍ أو مالٍ فهو عليك مشؤومٌ.

وقد قيل:

فلا كان ما يلهي عن الله إنه ... يضر ويؤذي إنه لمشؤوم

فالشؤم في الحقيقة هو المعصية، واليمن هو طاعة الله وتقواه، كما قيل:

إن رأيًا دعا إلى طاعة الله ... لرأي مبارك ميمون

والعدوى التي تهلك من قاربها هي المعاصي؛ فمن قاربها وخالطها وأصر عليها هلك، وكذلك مخالطة أهل المعاصي، ومن يحسن المعاصي، ويزينها ويدعو إليها، من شياطين الإنس، وهم أضر من شياطين الجن...»[1]. اهـ.

ويؤيد هذا الذي ذكره الحافظ القرآنُ الكريم في آيات عديدة، منها قوله تعالى في غير ما آية، ومنها آية النساء: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٧٩ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ٨٠﴾.

---

(١) من لطائف المعارف، ص ١٤٩ ــ ١٥٣.

وقوله تعالى في الروم: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾.

وقوله تعالى في يس، عن جواب الظالمين لأنفسهم: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على شؤم المعاصي ومفاسدها.

* * *

الفرق بين الصبر
والرضا بالقضاء والقدر

وهو من المباحث المتعلقة بالإيمان بالقضاء والقدر، من آثار الإيمان به، والصبر والرضا درجتان متعاقبتان في الإيمان بالقدر، وموقف المؤمن مما يتعرض له من المصائب.

والمؤمنون يتفاوتون في الصبر تفاوتًا كبيرًا، وقليل منهم من يحقق بعد الصبر الرضا بالمكروه، وأقلّهم بعده من يصل إلى مرتبة شكره وحمده.

وفي هذا الموضوع يقول الحافظ ابن رجب في شرح حديث ابن عباس رضي الله عنهما في نور الاقتباس:

«والمقصود أنَّ النبي ﷺ أمر ابن عباس رضي الله عنهما بالعمل بالرضا إن استطاعه، ثم قال له: فإن لم تستطع فإنَّ في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا».

وهذا يدلُّ على أنَّ الرضا بالأقدار المؤلمة ليس بحتم واجب، وإنما هو فضل مندوب إليه، فمن لم يستطع الرضا فليلزم الصبر، فإنَّ الصبر واجب لا بُدَّ منه، وفيه خير كثير، فإن الله تعالى أمر بالصبر ووعد

عليه جزيل الأجر. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ۝١٥٧﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ [الحج: ٣٤ ـ ٣٥].

قال الحسن: الرضا عزيز ولكن الصبر مُعَوَّلُ المؤمن.

وقال سليمان الخواص: الصبر دون الرضا، فالرضا أن يكون الرجل قبل نزول المصيبة راضيًا بأي شيء كان، والصبر أن يكون بعد نزول المصيبة يصبر.

وحقيقة الفرق بين الصبر والرضا، أن الصبر: كفّ النفس وحبسها عن التسخط مع وجود الألم، والرضا يوجب انشراح الصدر وسعته، وإن وجد الإحساس بأصل الألم، لكن الرضا يخفف الإحساس بالألم لما يباشر القلب من روح اليقين والمعرفة، وقد يزيل الإحساس بالكلية كما سبق تقرير لهذا.

وقال طائفة من أكثر السلف ـ منهم عمر بن عبد العزيز، والفضيل، وأبو سليمان، وابن المبارك.. وغيرهم ـ: إن الراضي لا يتمنَّى غير حاله التي هو عليها بخلاف الصابر.

وقد رُوي عن طائفة من الصحابة هذا المعنى أيضًا وأنهم كانوا

لا يتمنون غير ما هم عليه من الحال، منهم: عمر، وابن مسعود رضي الله عنهما».

قال عبد العزيز بن أبـي رواد: كان عابد يتعبَّد في بني إسرائيل، فرأى في منامه أنَّ فلانة زوجته في الجنة فاستضافها ثلاث ليال لينظر عملها، فكانت تنام وهو يقوم، وتفطر وهو يصوم، فلما فارقها سألها عن أوثق عملها عندها، قالت: هو ما رأيت، إلا خصيلة واحدة، إن كنت في شدة لم أتمنّ أني في رخاء، وإن كنت في مرض لم أتمن أني في صحة، وإن كنت جائعة لم أتمن أني شبعانة، وإن كنت في شمس لم أتمن أني في فيء.

قال العابد: هذه والله خصلة يعجز عنها العباد». اهـ[1].

* * *

(١) نور الاقتباس، ص ٥٦ ــ ٥٧.

قاعدة في أحكام
وأحوال تمنِّي الموت

حيث ذكر الحافظ حكم خمس حالات مع دلائلها، والبحث فيها مناسب عقب ذكر مسائل منهجه في الإيمان باليوم الآخر، ثم الإيمان بالقدر، لتداخل مسألة تمنِّي الموت معهما.

قال في اللطائف:

«خرَّج الإمام أحمد[1] من حديث جابر عن النبي ﷺ قال: **«لا تمنَّوا الموت؛ فإنَّ هول المطلع شديد، وإنَّ من السعادة أن يطول عمر العبد ويرزقه الله الإنابة»**. تمنِّي الموت يقع على وجوه[2]:

١ ــ منها: تمنِّيه لضرٍّ دنيوي ينزل بالعبد، فيُنهى حينئذ عن تمنِّي الموت.

وفي «الصحيحين»: عن أنس عن النبي ﷺ قال: **«لا يتمنَّيَنَّ**

(١) في المسند ٣/ ٣٣٢، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٠/ ٢٠٣ و ٣٣٤ وقال: «رواه أحمد والبزار وإسنادهما جيد». وذكره المنذري في «الترغيب» ٤/ ٢٥٧ وقال: «رواه أحمد بإسناد حسن والبيهقي». وبمعناه حديث أنس في الصحيحين ويأتي.

(٢) انظر شرح حديث زيد بن ثابت، ق ٧ وما بعدها.

أحدُكم الموت لضُرٍّ نزل به، فإن كان لا بُدَّ فاعلاً، فليقل: اللَّـهُمَّ أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفَّني إذا كان الوفاة خيرًا لي». ووجه كراهته في هذه الحال أن المتمنِّي للموت لضُرٍّ نزل به، إنَّما يتمنَّاه تعجيلاً للاستراحة من ضُرِّه، وهو لا يدري إلى ما يصير بعد الموت، فلعله يصير إلى ضُرٍّ أعظم من ضُرِّه، فيكون كالمستجير من الرَّمضاء بالنار. وفي الحديث: عن النبـي ﷺ قال: «**إنما يستريح من غُفر له**»[1].

فلهذا لا ينبغي له أن يدعو بالموت إلا أن يشترط أن يكون خيرًا له عند الله عزَّ وجلّ، وكذلك كل ما لا يعلم العبد فيه الخيرة له، كالغنى والفقر وغيرهما، كما يشرع له استخارة الله تعالى فيما يريد أن يعمله مما لا يعلم وجه الخيرة فيه، وإنما يسأل الله عزَّ وجلّ على وجه الجزم والقطع مما يُعلم أنه خير محض، كالمغفرة والرحمة والعفو والعافية والتُّقى والهدى ونحو ذلك.

٢ ـ **ومنها**: تمنِّيه خوف الفتنة في الدين، فيجوز حينئذ. وقد تمنَّاه ودعا به خشية فتنة الدين خلق من الصحابة وأئمة الإسلام. وفي حديث المنام: «**وإذا أردت بقوم فتنةً فاقبضني إليك غير مفتون**»[2]. [3]

---

(١) الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٢/ ٣٣٠ وقال: «رواه أحمد والطبراني في الأوسط، وفيه ابن لهيعة وفيه كلام». وقال: «وعنها توفِّيت امرأة كان أصحاب النبـي ﷺ يضحكون منها ويمازحونها، فقلت: استراحت، فقال رسول الله ﷺ: «**إنما يستريح من غُفر له**». رواه البزار ورجاله ثقات. ورواه أحمد في «المسند» ٦/ ٦٩.

(٢) رواه الترمذي رقم (٣٢٣٣) و (٣٢٣٤) في التفسير عن ابن عباس، ورواه الإمام أحمد في المسند ١/ ٣٦٨.

(٣) انظر اختيار الأولى ص ١٠٧ ـ ١٠٩. وفيه ذكر الابتلاء وأنواعه بالضرَّاء والسرَّاء، =

٣ ــ **ومنها**: تمنِّي الموت عند حضور أسباب الشهادة اغتنامًا لحصولها، فيجوز ذلك أيضًا. وسؤال الصحابة الشهادة وتعرُّضهم لها عند حضور الجهاد كثير مشهور، وكذلك سؤال معاذ لنفسه وأهل بيته الطاعون لمَّا وقع بالشام.

٤ ــ **ومنها**: تمنِّي الموت لمن وثق بعمله شوقًا إلى لقاء الله عزَّ وجلّ، فهذا يجوز أيضًا، وقد فعله كثير من السلف.

قال أبو الدرداء: أحب الموت اشتياقًا إلى ربِّي. وقال أبو عنبة الخولاني: كان من قبلكم لقاء الله أحبُّ إليه من الشهد ــ وهو العسل ــ. وقال بعض العارفين: طالت علي الأيام والليالي بالشوق إلى لقاء الله عزَّ وجلَّ. وقال بعضهم: طال شوقي إليك فعجِّل قدومي عليك. وقال بعضهم: لا تطيبُ نفسي بالموت إلاَّ إذا ذكرت لقاء الله عزَّ وجلّ؛ فإنَّني أشتاق حينئذ إلى الموت، كشوق الظمآن الشديد ظمؤُه في اليوم الحارّ الشديد حرُّه إلى الماء البارد الشديد برده، وفي هذا يقول بعضهم:

أشتاق إليك يا قريبًا نائي ... شوق ظامٍ إلى زُلال الماء

وقد دلَّ على جواز ذلك قولُ الله عزَّ وجلّ: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [البقرة: ٩٤].

= ونصَّ عن غير واحد من الأئمة أن البلاء بالسرَّاء أشد، حتى إنَّ الإمام أحمد لما بلي بالضرَّاء صبر، ولما فتن بالسرَّاء جزع وتمنَّى الموت مخافة على نقص دينه.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ [الجمعة: ٦].

فدلَّ ذلك على أنَّ أولياء الله لا يكرهون الموت بل يتمنّونه، ثم أخبر أنهم ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [الجمعة: ٧]، فدلَّ على أنَّه إنما يكره الموت من له ذنوب يخاف القدوم عليها، كما قال بعض السلف: ما يكره الموت إلاَّ مريب. وفي حديث عمَّار بن ياسر عن النبي ﷺ: «**أسألُك لذَّة النظر إلى وجهك وشوقًا إلى لقائك، في غير ضرَّاء مُضرَّة، ولا فتنة مُضلَّة**»[1].

فالشوق إلى لقاء الله تعالى إنما يكون بمحبة الموت، وذلك لا يقع غالبًا إلاَّ عند خوف ضرَّاء مُضرَّة في الدنيا، أو فتنة مُضلَّة في الدِّين. فأما إذا خلا عن ذلك، كان شوقًا إلى لقاء الله عزَّ وجلّ، وهو المسؤول في هذا الحديث. وفي «المسند»[2] عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «**لا يتمنين الموت إلاَّ من وثق بعمله**».

فالمطيع لله مستأنس بربِّه، فهو يحبُّ لقاء الله، والله يحبُّ لقاءه. والعاصي مستوحش، بينه وبين مولاه وحشة الذنوب، فهو يكره لقاء ربِّه ولا بدَّ له منه. قال ذو النون: كلُّ مطيعٍ مستأنس، وكلُّ عاصٍ مستوحش. وفي هذا يقول بعضهم:

---

(١) رواه النسائي ٣/ ٥٤، ٥٥ في السهو، باب نوع آخر من الدعاء. ورواه أحمد في «مسنده» ٤/ ٢٦٤، وأخرجه الحاكم في «المستدرك» ١/ ٥٢٤ وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) مسند أحمد ٢/ ٣٥٠. وذكره الزبيدي في «الإتحاف» وقال: «رواه ابن عساكر بلفظ: «**لا يتمنين أحدكم الموت حتى يثق بعمله**».

أمستوحشٌ أنت مما جنيت فأحسن إذا شئت وٱستأنس

قال أبو بكر الصديق لعمر رضي الله عنهما في وصيَّته له عند الموت: إن حفظت وصيَّتي لم يكن غائب أحبَّ إليك من الموت ولا بُدَّ لك منه، وإن ضيعتها لم يكن غائب أكره إليك من الموت ولن تُعجزه. قال أبو حازم: كلُّ عملٍ تكره الموت من أجله فاتركه، ثم لا يضرُّك متى مُتَّ. العاصي يفرُّ من الموت لكراهية لقاء الله، وأين يفرُّ من هو في قبضة من يطلبه.

أيـن المفـرُّ والإلـه الطَّـالـب والمجرِمُ المغلوبُ ليس الغالِب

سُئل أبو حازم: كيف القدوم على الله؟ قال: أمَّا المطيع فكقدوم الغائب على أهله المشتاقين إليه، وأمَّا العاصي فكقدوم الآبق على سيِّده. رؤي بعض الصالحين في النوم، فقيل له: ما فعل اللّٰهُ بك؟ قال: خيرًا، لم تر مثل الكريم إذا حلَّ به المطيع. الدنيا كلُّها شهر صيام المتقين، وعيد فطرهم يوم لقاء ربِّهم، كما قيل:

وقد صُمتُ عن لذَّات دهري كلِّها ويـوم لقـاكُـم ذاك فِطـرُ صيـامـي

٥ ــ **ومنها**: تمنِّي الموت على غير الوجوه المتقدِّمة، فقد اختلف العلماء في كراهته واستحبابه، وقد رخَّص فيه جماعة من السلف، وكرهه آخرون، وحكى بعض أصحابنا عن أحمد في ذلك روايتين ولا يصحُّ؛ فإنَّ أحمد إنما نصَّ على كراهة تمنِّي الموت؛ لضرر الدنيا، وعلى جواز تمنِّيه خشية الفتنة في الدِّين. وربما أدخل بعضهم في هذا الاختلاف القسم الذي قبله، وفي ذلك نظر.

واستدلَّ من كرهه بعموم النَّهي عنه، كما في حديث جابر الذي ذكرناه، وفي معناه أحاديث أُخر يأتي بعضها إن شاء الله تعالى. وقد عُلِّل النهي عن تمنِّي الموت في حديث جابر بعلَّتين:

إحداهما: أنَّ هول المُطَّلع شديد، وهول المُطَّلع هو ما يُكشف للميت عند حضور الموت من الأهوال التي لا عهد له بشيء منها في الدنيا؛ من رؤية الملائكة، ورؤية أعماله من خيرٍ أو شرٍّ، وما يُبشَّر به عند ذلك من الجنَّة والنَّار، هذا مع ما يلقاه من شدَّة الموت وكربه وغُصصه...». اهـ[1].

* بعض الحكم والمنافع في البلايا:

وفي ختام الكلام على موضوع الإيمان بالقضاء والقدر، وما يجب أن يكون عليه موقف المؤمن من المصائب ناسب أن أختم بما ختم به الحافظ ابن رجب شرحه حديث ابن عباس «نور الاقتباس» من ذكره لشيء من الحكم والمنافع العائدة للمؤمن مما يصيبه من البلايا، حيث قال:

«**ولنختم الكتاب بذكر نبذة يسيرة من لطائف البلايا وفوائدها وحكمها**:

١ ــ **فمنها**: تكفير الخطايا بها، والثواب على الصبر عليها، وهل يُثاب على البلاء نفسه؟ فيه اختلاف بين العلماء. ومنها تذكير العبد بذنوبه فربما تاب منها إلى الله عزَّ وجلّ، ومنها زوال قسوة القلوب وحدوث رقتها.

---

(١) من لطائف المعارف، ص ٥١٠ ــ ٥١٣.

قال بعض السلف: إن العبد ليمرض فيذكر ذنوبه فيخرج منه مثل رأس الذباب من خشية الله فيغفر له.

٢ ــ **ومنها**: انكساره لله عزَّ وجلّ وذلّه له، وذلك أحبّ إلى الله من كثير من طاعات الطائعين.

٣ ــ **ومنها**: أنها توجب للعبد الرجوع بقلبه إلى الله عزَّ وجلّ، والوقوف ببابه والتضرُّع له والاستكانة، وذلك من أعظم فوائد البلاء، وقد ذمَّ الله من لا يستكين له عند الشدائد، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [المؤمنون: ٧٦].

وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنعام: ٤٢].

وفي بعض الكتب السابقة: إنَّ الله ليبتلي العبد هو يحبّه ليسمع تضرُّعه.

وقال سعيد بن عبد العزيز: قال داود عليه السلام: سبحان مستخرج الدعاء بالبلاء، وسبحانه مستخرج الشكر بالرخاء.

ومرَّ أبو جعفر محمد بن علي بمحمد بن المنكدر وهو مغموم، فسأل عن سبب غمّه، فقيل له: الذي قد فدحه، فقال: أفتح له في الدعاء؟ قيل: نعم، قال: لقد بورك لعبد في حاجة أكثر فيها من دعاء ربه كائنة ما كانت.

وكان بعضهم إذا فتح له في الدعاء عند الشدائد لم يحب تعجيل إجابته خشية أن يقطع عما فتح له.

وقال ثابت: إذا دعا الله المؤمن بدعوة وكَّل الله جبريل بحاجته فيقول الله: لا تعجل بإجابته، فإنِّي أحب أن أسمع صوت عبدي المؤمن.

وروي مرفوعًا من وجوه ضعيفة.

رأى بعض السلف ربّ العزَّة في نومه فقال: يا رب، كم أدعوك ولا تجيبني؟ قال: إني أحب أن أسمع صوتك.

٤ ــ **ومنها**: أنَّ البلاء يوصل إلى قلبه لذَّة الصبر عليه، والرضا به، وذلك مقام عظيم جدًّا وقد تقدَّمت الإشارة إلى فضل ذلك وشرفه.

٥ ــ **ومنها**: أنَّ البلاء يقطع قلب المؤمن عن الالتفات إلى المخلوق ويوجب له الإقبال على الخالق وحده.

وقد حكى الله عن المشركين إخلاص الدعاء له عند الشدائد، فكيف بالمؤمن؟

فالبلاء يوجب للعبد تحقيق التوحيد بقلبه، وذلك أعلى المقامات وأشرف الدرجات». اهـ.

وقال ــ في صدد اقتراب الفرج بعد شدَّة الكرب، وما في اجتماعهما وتعاقب الفرج للكرب من الفوائد ــ في شرحه لحديث ابن عباس:

«وإذا اشتدَّ الكرب وعظم الخطب كان الفرج حينئذ قريبًا في الغالب.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].

وأخبر عن يعقوب عليه السلام أنه لم ييأس من لقاء يوسف، وقال لإخوته: ﴿ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧].

وقال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ﴾ [يوسف: ٨٣].

ومن لطائف أسرار اقتران الفرج باشتداد الكرب:

١ ـ أنَّ الكرب إذا اشتدَّ وعظم وتناهى ووجد الإياس من كشفه من جهة المخلوق ووقع التعلق بالخالق، استجاب له وكشف عنه. فإنَّ التوكُّل هو قطع الاستشراف باليأس من المخلوقين، كما قال الإمام أحمد، واستدلَّ عليه بقول إبراهيم عليه السلام لما عرض له جبريل في الهواء وقال له: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا.

والتوكُّل من أعظم الأسباب التي تطلب بها الحوائج، فإنَّ الله يكفي من توكَّل عليه، كما قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ﴾ [الطلاق: ٣].

قال الفضيل: والله لو يئست من الخلق حتى لا تريد منهم شيئًا لأعطاك مولاك كل ما تريد.

٢ ـ **ومنها**: أنَّ العبد إذا اشتدَّ عليه الكرب فإنَّه يحتاج حينئذٍ إلى مجاهدة الشيطان؛ لأنَّه يأتيه فيقنطه ويسخطه فيحتاج العبد إلى مجاهدته ودفعه فيكون في مجاهدة عدوّه ودفعه دفع البلاء عنه ودفعه.

ولهذا في الحديث الصحيح:

«**يُستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يُستجب لي، فيدع الدعاء**».

٣ ــ **ومنها**: أنَّ المؤمن إذا استبطأ الفرج وأيِسَ منه ولا سيَّما بعد كثرة دعائه وتضرُّعه ولم يظهر له أثر الإجابة، رجع إلى نفسه باللائمة ويقول لها: إنما أُتيت من قِبلك ولو كان فيك خير لأجبت.

وهذا اللوم أحب إلى الله من كثير من الطاعات، فإنه يوجب انكسار العبد لمولاه، واعترافه له بأنه ليس بأهل لإجابة دعائه، فلذلك يسرع إليه حينئذ إجابة الدعاء وتفريج الكرب، فإنه تعالى عند المنكسرة قلوبهم من أجله، على قدر الكسر يكون الجبر». اهـ[١].



(١) من الاقتباس، ص ٧٤ ــ ٧٧.

الفصل الثالث

بعض المسائل المتعلقة بالإيمان

الفصل الثالث
بعض المسائل المتعلقة بالإيمان

وفيه كلام الحافظ الحنبلي زين الدين ابن رجب على بعض مسائل الإيمان التي وقع فيها الخلاف بين أهل السنَّة ومخالفيهم من المرجئة والخوارج والجهمية... في زمن أئمة السلف، في القرنين الثاني والثالث الهجريين، كمسألة تعريف الإيمان، وزيادة الإيمان ونقصانه، ودخول الأعمال في مسمى الإيمان، وحكم صاحب الكبيرة.

وهي المسائل التي تسمى مسائل الأسماء والأحكام، أي أسماء الناس في الدنيا من الإيمان والإسلام أو الكفر والنفاق، وحكمهم في الآخرة بما ترتب على أسمائهم.

قال الحافظ ابن رجب مظهرًا أهمية مسائل الأسماء والأحكام، وأثرها البالغ على الاعتقاد:

«وهذه المسائل، أعني مسائل الإسلام والإيمان، والكفر والنفاق، مسائل عظيمة جدًا».

فإن الله عزَّ وجلّ علق بهذه الأسماء السعادة والشقاوة، واستحقاق الجنة والنار.

والاختلاف في مسمياتها أول اختلاف وقع في هذه الأمة، وهو خلاف الخوارج للصحابة حيث أخرجوا عصاة الموحدين من الإسلام بالكلية، وأدخلوهم في دائرة الكفر، وعاملوهم معاملة الكفار، واستحلوا بذلك دماء المسلمين، وأموالهم.

ثم حدث بعدهم خلاف المعتزلة، وقولهم بالمنزلة بين المنزلتين.

ثم حدث خلاف المرجئة وقولهم: إن الفاسق مؤمن كامل الإيمان.

وقد صنف العلماء قديمًا وحديثًا في هذه المسائل تصانيف متعددة، وممن صنف في الإيمان من أئمة السلف الإمام أحمد، وأبو عبيد القاسم بن سلام، وأبو بكر بن أبي شيبة، ومحمد بن أسلم الطوسي، وكثرت فيه التصانيف بعدهم، من جميع الطوائف، وقد ذكرنا هاهنا نكتة جامعة لأصول كثيرة من هذه المسائل والاختلاف فيها، وفيه إن شاء الله كفاية»[(١)]. اهـ.

* * *

(١) من جامع العلوم والحكم، ص ٣٠، في شرح حديث جبريل عليه السلام.

أولاً :
تعريف الإيمان

وهو عند أهل السنَّة والجماعة، الطائفة الناجية المنصورة: قول باللسان وعمل بالجوارح والأركان، واعتقاد بالقلب والجنان، يزيد بطاعة الرحمن وينقص بمعصية الشيطان.

هذه العبارة الجامعة لهم حملت تعريف الإيمان ومسماه عندهم ودخول العمل فيه وزيادته ونقصانه، وعند اقتصارهم على التعريف وحده فإنهم يقولون: الإيمان قول وعمل ونية. وهي العبارة المتواردة عن كثير من السلف الصالح.

وقد درج الحافظ ابن رجب على نهج من سبقه من العلماء فقال في بيان المعنى الشرعي للإيمان:

«أما زينة الإيمان فالإيمان قول وعمل ونية. فزينة الإيمان تشمل زينة القلب بتحقيق الإيمان له، وزينة اللسان بأقوال الإيمان، وزينة الجوارح بأعمال الإيمان، وسمَّى الله تعالى التقوى لباسًا، وأخبر أنها من لباس الأبدان، قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌۚ ذَٰلِكَ﴾ [الأعراف: ٢٦]»[١]. اهـ.

---

(١) شرح حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما «اللهم بعلمك الغيب»، ص ٤٨.

ونـص علـى أن هـذا هـو المشهـور عـن السلـف الصـالـح فقـال: «والمشهور عن السلف وأهل الحديث أن الإيمان قول وعمل ونية، وأن الأعمال كلها داخلة في مسمى الإيمان»[1]. اهـ.

وقد كان السلف يعبرون عن الإيمان بعبارة جامعة لمسائله هي قولهم: إنه اعتقاد بالجنان وقول باللسان وعمل بالأركان، يزيد بطاعة الرحمن وينقص بطاعة الشيطان.

فهذه العبارة جمعت تعريف الإيمان الاصطلاحي، وجمعت قولهم في مسألة زيادة الإيمان ونقصانه.

وزين الدين ابن رجب تناول التعريف الاصطلاحي بتمامه هاهنا، ونصَّ على قولهم الآخر في زيادة الإيمان ونقصانه، وسيأتي كلامه في محله بعد قليل إن شاء الله.

ولهذا التعريف للإيمان ثمرة اعتنى ببيانها الحافظ ابن رجب، والذي يحرص في منهجه على العلم والعمل، قال في ذلك:

«فمن استقام قلبه ولسانه، استقام شأنه كله، فالقلب السليم هو الذي ليس فيه شيء من محبة ما يكرهه الله.

فدخل في ذلك سلامته من الشرك الجلي والخفي، ومن الأهواء والبدع، ومن الفسوق والمعاصي، كبائرها وصغائرها، الظاهرة والباطنة، كالرياء والعجب والغل والغش والحقد والحسد وغير ذلك.

---

(١) من جامع العلوم والحكم، ص ٢٦، وفيه نص على أن السلف لم يكونوا يفرقون بين القول والاعتقاد، حيث يعدون الجميع إيمانًا. وما التفريق بينها إلاَّ قول المبتدعة بعدهم.

هذا هو القلب السليم، هو الذي لا ينفع يوم القيامة سواه، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩] إذا سلم القلب لم يسكن فيه إلَّا الرب»[١]. اهـ.

فعليه تعريف الإيمان عند أهل السنَّة، ليس مجرد تنظير فقط، ولكن كمبناه، لم يهمل قول الإيمان، ولا فعله، بل عدهما ركنان من أركانه التي عليها يقوم، وهو فرق بينهم وبين المبتدعة، المخلفين لأحدهما، أو الغالين فيهما أو أحدهما.

إن هذا التنظير للإيمان والتقعيد له أثر في العمل والمعتقد عند أهل السنَّة والجماعة، فصار سلوكهم وفهمهم وسط بين سلوك الخوارج ومن تبعهم على طرف، وبين سلوك أهل الإرجاء على تنوع مشاربهم وطوائفهم على طرف آخر.

* * *

(١) شرح حديث شداد بن أوس رضي الله عنه، ص ١٦٩.

ثانيًا:

الإسلام والإيمان والعلاقة بينهما

أوضح النبي ﷺ في حديث جبرائيل معنى الإسلام والإيمان والإحسان، فالإسلام: هو شهادة ألا إله إلاَّ الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً.

والإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره.

لكن ما العلاقة بين الإيمان والإسلام؟

قال الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم»: «. . . فإن قيل: فقد فرق النبي ﷺ في هذا الحديث بين الإسلام والإيمان، وجعل الأعمال كلها من الإسلام لا من الإيمان، والمشهور عن السلف وأهل الحديث أن الإيمان قول وعمل ونية.

وأن الأعمال كلها داخلة في مسمى الإيمان، وحكى الشافعي على ذلك إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم ممن أدركهم.

وأنكر السلف على من أخرج الأعمال عن الإيمان إنكارًا شديدًا. . .»(١).

---

(١) جامع العلوم والحكم، ص ٢٦، ٢٧.

ومن أنكر ذلك على قائله وجعله قولاً محدثًا سعيد بن جبير وميمون بن مهران وقتادة وأيوب السختياني والنخعي والزهري وإبراهيم ويحيى بن أبي كثير وغيرهم.

وقال الثوري: وهو رأي محدث أدركنا الناس على غيره. وقال الأوزاعي: وكان من مضى من السلف لا يفرقون بين العمل والإيمان. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل الأمصار: أما بعد: فإن الإيمان فرائض وشرائع، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان، ذكره البخاري في صحيحه قبل الأمر على ما ذكره.

وقد دلّ على دخول الأعمال في الإيمان قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ﴾ [الأنفال: ٢] الآية.

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال لوفد عبد القيس: **«آمركم بأربع: الإيمان بالله وحده، وهل تدرون ما الإيمان بالله؟: شهادة أن لا إلـه إلاَّ الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخمس»**.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إلـه إلاَّ الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»** ولفظه لمسلم.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين**

يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن» فلولا أن ترك هذه الكبائر من مسمى الإيمان لما انتفى اسم الإيمان عن مرتكب شيء منها؛ لأن الاسم لا ينتفي إلاَّ بانتفاء بعض أركان المسمى أو واجباته».

فذكر جماعة من كبار السلف وأقوالهم في أولئك المنكرين.

ولكن لما وردت نصوص في الوحيين تطلق الإسلام على الإيمان، والإيمان على الإسلام، أي على شعائرهما. أوجد ذلك تعارضًا ظاهريًا مع حديث جبرائيل الذي فرق بينهما.

عندئذٍ وجه الحافظ ابن رجب هذا الإشكال، ودفع التعارض بقوله: «وأما وجه الجمع بين هذه النصوص وبين حديث سؤال جبريل عليه السلام عن الإسلام والإيمان، وتفريق النبي ﷺ بينهما، وإدخاله الأعمال في مسمى الإسلام دون الإيمان، فإنه يتضح بتقرير أصل، وهو أن من الأسماء ما يكون شاملاً لمسميات متعددة عند إفراده وإطلاقه، فإذا قرن ذلك الاسم بغيره صار دالاً على بعض تلك المسميات.

والاسم المقرون به دال على باقيها. وهذا كاسم الفقير والمسكين، فإذا أفرد أحدهما دخل فيه كل من هو محتاج، فإذا قرن أحدهما بالآخر دل أحد الاسمين على بعض أنواع ذوي الحاجات، والآخر على باقيها.

هكذا الإسلام والإيمان، إذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر، ودل بانفراده على ما يدل عليه الآخر بانفراده.

فإذا قورن بينهما دل أحدهما على بعض ما يدل عليه بانفراده ودل الآخر على الباقي.

وقد صرح بهذا المعنى جماعة من الأئمة.

قال أبو بكر الإسماعيلي في رسالته إلى أهل الجبل: قال كثير من أهل السنَّة والجماعة: إن الإيمان قول وعمل، والإسلام فعل ما فرض الله على الإنسان أن يفعله إن ذكر كل اسم على حدته مضمومًا إلى الآخر، فقيل: المؤمنون والمسلمون جميعًا مفردين؛ أريد بأحدهما معنى لم يرد به الآخر، وإذا ذكر أحد الاسمين شمل الكل وعمهم.

وقد ذكر هذا المعنى أيضًا الخطابي في كتابه: معالم السنن، وتبعه عليه جماعة من العلماء من بعده، ويدلّ على صحة ذلك أن النبي ﷺ فسر الإيمان عند ذكره مفردًا في حديث وفد عبد القيس بما فسر به الإسلام المقرون بالإيمان في حديث جبريل، وفسر في حديث آخر الإسلام بما فسر به الإيمان، كما في مسند الإمام أحمد عن عمرو بن عنبسة قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما الإسلام؟ قال: **أن تسلم قلبك لله وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك**، قال: فأي الإسلام أفضل؟ قال: **الإيمان**، قال: وما الإيمان؟ قال: **أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت**، قال: فأيّ الأعمال أفضل؟ قال: **الهجرة**، قال: فما الهجرة؟ قال: **أن تهجر السوء**، قال: فأي الهجرة أفضل؟ قال: **الجهاد**».

فجعل النبي ﷺ الإيمان أفضل الإسلام وأدخل فيه الأعمال.

وبهذا التفصيل يظهر تحقيق القول في مسئلة الإيمان والإسلام هل هما واحد أو مختلفان، فإن أهل السنَّة والحديث مختلفون في ذلك، وصنفوا في ذلك تصانيف متعددة، فمنهم من يدعي أن جمهور أهل السنَّة على أنهما شيء واحد، منهم محمد بن نصر المروزي وابن عبد البر. وقد روي هذا القول عن سفيان الثوري من رواية أيوب بن سويد الرملي عنه، وأيوب فيه ضعف.

ومنهم من يحكي عن أهل السنَّة التفريق بينهما كأبـي بكر بن السمعاني وغيره، وقد نقل هذا التفريق بينهما عن كثير من السلف: منهم قتادة وداود بن أبـي هند وأبو جعفر الباقر والزهري وحماد بن زيد وابن مهدي وشريك وابن أبـي ذئب وأحمد بن حنبل وأبو خيثمة ويحيـى بن معين وغيرهم، على اختلاف بينهم في صفة التفريق بينهما. وكان الحسن وابن سيرين يقولان مسلم ويهابان مؤمن».

وقال بعد ذلك: «وبهذا التفصيل الذي ذكرناه يزول الاختلاف.

فيقال: إذا أُفرد كل من الإسلام والإيمان بالذكر فلا فرق بينهما حينئذٍ، وإن قرن بين الاسمين كان بينهما فرق»[١]. اهـ.

وهذا معنى الجملة المشهورة في ذلك: إن الإسلام والإيمان إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا. وبهذا القول تجتمع دلالات الأدلة وتتوافق وحديث وفد عبد القيس الذي مر في كلام الحافظ، وهو المخرج في الصحيحين: أنهم أتو إلى النبـي ﷺ، فقالوا: إن بيننا

(١) جامع العلوم والحكم، ص ٢٦، ٢٧، وانظر ما بعدها ٢٨ و ٢٩ و ٣٠، حيث جلب فيها الشواهد المؤيدة لما قرره.

وبينك هذا الحي من مضر ولا نستطيع إتيانك إلاَّ في الأشهر الحرام، فأمرهم بالإيمان بالله وحده؟ وقال: **أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟** قالوا: الله ورسوله أعلم قال: **تشهدوا أن لا إلـه إلاَّ الله وتقيموا الصلاة وتؤدوا الزكاة وخمس ما غنمتم**»: فعبر عن الإيمان بأركان الإسلام الظاهرة، مما كان دليلاً على أن الإيمان بمعنى الإسلام عند افتراقهما، كما قال تعالى: ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾**﴾ [آل عمران: ٨٥]، فمعناه أيضًا: (ومن يتبع غير الإيمان دينًا لن يقبل منه).

وعليه فعند إطلاقه، تكون الأعمال داخلة في مسمى الإيمان. فلذا قال بعد ذلك: «قد تقدم أن الأعمال تدخل في مسمى الإسلام ومُسمى الإيمان أيضًا، وذكرنا ما يدخل في ذلك من أعمال الجوارح الظاهرة، ويدخل في مسماها أيضًا أعمال الجوارح الباطنة. فيدخل في أعمال الإسلام إخلاص الدين لله تعالى، والنصح له ولعباده، وسلامة القلب لهم من الغش والحسد والحقد، وتوابع ذلك من أنواع الأذى.

ويدخل في مسمى الإيمان وجلّ القلوب من ذكر الله وخشوعها عند سماع ذكره وكتابه، وزيادة الإيمان بذلك، وتحقيق التوكل على الله عزَّ وجلّ وخوف الله سرًّا وعلانية، والرضا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولاً، واختيار تلف النفوس بأعظم أنواع الآلام على الكفر، واستشعار قرب الله من العبد ودوام استحضاره، وإيثار محبة الله ورسوله على محبة ما سواهما، والحب في الله والبغض فيه، والعطاء له والمنع له، وأن يكون جميع الحركات والسكنات له، وسماحة النفوس

بالطاعة المالية والبدنية، والاستبشار بعمل الحسنات والفرح بها، والمساءة بعمل السيئات والحزن عليها، وإيثار المؤمنين لرسول الله ﷺ على أنفسهم وأموالهم وكثرة الحياء وحسن الخلق ومحبة ما يحبه لنفسه ولإخوانه المؤمنين ومواساة المؤمنين، خصوصًا الجيران، ومعاضدة المؤمنين ومناصرتهم والحزن بما يحزنهم.

ولنذكر بعض النصوص الواردة بذلك:

* فأما ما ورد في دخوله في اسم الإسلام، ففي مسند الإمام أحمد والنسائي عن معاوية بن حيدة قال: «قلت: يا رسول الله، بالذي بعثك بالحق، ما الذي بعثك الله به؟ قال: **الإسلام**، قلت: وما الإسلام؟ قال: **أن تسلم قلبك لله تعالى، وأن توجه وجهك لله، وأن تصلي الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة**» وفي رواية: قلت: «وما آية الإسلام؟ فقال: **أن تقول أسلمت وجهي لله وتخليت، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة، وكل المسلم على المسلم حرام**».

وفي السنن عن جبير بن مطعم عن النبي ﷺ أنه قال في خطبته بالخيف من منى: «**ثلاث لا يغل عليهنّ قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمور، ولزوم جماعة المسلمين، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم**» فأخبر أن هذه الثلاث الخصال تنفي الغلّ عن قلب المسلم.

وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه سئل أي المسلمين أفضل؟ قال: «**من سلم المسلمون من لسانه ويده**».

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**المسلم أخو المسلم فلا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، بحسب**

امرىء من الشر أن يحقره أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام؛ دمه وماله وعرضه».

وأما ما ورد في دخوله في اسم الإيمان فمثل قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ . . .﴾ الآية [الأنفال: ٢]، وقوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ . . .﴾ الآية [الحديد: ١٦]، وقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢]، وقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقوله: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وفي صحيح مسلم عن العباس بن عبد المطلب عن النبي ﷺ قال: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا والإسلام دينًا وبمحمد رسولاً**».

والرضا بربوبية الله تتضمن الرضا بعبادته وحده لا شريك له، وبالرضا بتدبيره للعبد واختياره له، والرضاء بالإسلام دينًا يتضمن اختياره على سائر الأديان، والرضا بمحمد رسولاً يتضمن الرضا بجميع ما جاء به من عند الله وقبول ذلك بالتسليم والانشراح كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ . . .﴾ الآية [النساء: ٦٥]». اهـ[1].

* * *

(١) جامع العلوم والحكم، ص ٣٠، ٣١.

تحقيق الفرق بن الإسلام والإيمان

مع ما سبق إيراده من القاعدة العامة في التفريق بينهما، فصَّل زين الدين ابن رجب تحقيق الفرق في قوله:

«والتحقيق في الفرق بينهما:

أن الإيمان هو تصديق القلب وإقراره ومعرفته.

والإسلام هو استسلام العبد لله وخضوعه وانقياده، وذلك يكون بالعمل، وهو الدين، كما سمَّى الله في كتابه الإسلام دينًا، وفي حديث جبريل، وسمَّى النبي ﷺ الإسلام والإيمان والإحسان دينًا، وهذا أيضًا مما يدل على أن أحد الاسمين إذا أفرد دخل فيه الآخر، وإنما يفرق بينهما حيث قرن أحد الاسمين بالآخر.

فيكون حينئذٍ المراد بالإيمان جنس تصديق القلب. وبالإسلام جنس العمل.

وفي المسند للإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**الإسلام علانية، والإيمان في القلب**».

وهذا لأن الأعمال تظهر علانية، والتصديق في القلب لا يظهر.

وكان النبي ﷺ يقول: في دعائه إذا صلَّى على الميت: «**اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام، ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان**» لأن

الأعمال بالجوارح، وإنما يتمكن منه في الحياة. فإما عند الموت فلا يبقى غير التصديق بالقلب.

ومن هنا قال المحققون من العلماء: كل مؤمن مسلم، فإن من حقق الإيمان ورسخ في قلبه قام بأعمال الإسلام كما قال ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**». فلا يتحقق القلب بالإيمان إلاَّ وتنبعث الجوارح في أعمال الإسلام.

وليس كل مسلم مؤمنًا، فإنه قد يكون الإيمان ضعيفًا، فلا يتحقق القلب به تحققًا تامًا، مع عمل جوارحه أعمال الإسلام فيكون مسلمًا، وليس بمؤمن الإيمان التام.

كما قال تعالى: ﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا. . .﴾ الآية [الحجرات: ١٤]، فلم يكونوا منافقين بالكلية على أصح التفسيرين، وهو قول ابن عباس وغيره، بل كان إيمانهم ضعيفًا، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ. . .﴾ الآية،[الحجرات: ١٤]، يعني لا ينقصكم من أجورها. فدل على أن معهم من الإيمان ما يقبل له أعمالهم.

وكذلك قول النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص لما قال له: «لم تعطي فلانًا وهو مؤمن؟ فقال النبي ﷺ: **أو مسلم؟**» يشير إلى أنه لم يتحقق مقام الإيمان فإنما هو في مقام الإسلام الظاهر.

ولا ريب أنه متى ضعف الإيمان الباطن لزم منه ضعف أعمال

الجوارح الظاهرة أيضًا، لكن اسم الإيمان ينفى عمن ترك شيئًا من واجباته كما في قوله: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**».

وقد اختلف أهل السنَّة: هل يسمى مؤمنًا ناقص الإيمان، أو يقال: ليس بمؤمن، لكنه مسلم؟ على قولين وهما روايتان عن أحمد.

وأما اسم الإسلام فلا ينتفي بانتفاء بعض واجباته أو انتهاك بعض محرماته وإنما ينفى بالإتيان بما ينافيه بالكلية، ولا يعرف في شيء من السنَّة الصحيحة نفي الإسلام عمن ترك شيئًا من واجباته كما ينفى الإيمان عمن ترك شيئًا من واجباته، وإن كان قد ورد إطلاق الكفر على فعل بعض المحرمات وإطلاق النفاق أيضًا.

وقد اختلف العلماء: هل يسمى مرتكب الكبائر كافرًا كفرًا صغيرًا أو منافقًا النفاق الأصغر، ولا أعلم أن أحدًا منهم أجاز إطلاق نفي اسم الإسلام عنه، إلَّا أنه روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: ما تارك الزكاة بمسلم. ويحتمل أنه كان يراه كافرًا بذلك خارجًا عن الإسلام. وكذلك روي عن عمر فيمن تمكن من الحج ولم يحج أنهم ليسوا بمسلمين، والظاهر أنه كان يعتقد كفرهم، ولهذا أراد أن يضرب عليهم الجزية بقوله: لم يدخلوا في الإسلام بعد، فهم مستمرّون على كتابيتهم.

وإذا تبين أن اسم الإسلام لا ينتفي إلَّا بوجود ما ينافيه ويخرج عن الملة بالكلية، فاسم الإسلام إذا أطلق أو اقترن به المدح دخل فيه الإيمان كله من التصديق وغيره كما سبق في حديث عمرو بن عنبسة.

وخرج النسائي من حديث عقبة[1] بن مالك «أن النبي ﷺ بعث سرية فغارت على قوم، فقال رجل منهم: إني مسلم، فقتله رجل من السرية، فنمى الحديث إلى رسول الله ﷺ، فقال فيه قولاً شديدًا، فقال الرجل: إنما قالها تعوذًا من القتل، فقال النبي ﷺ: **إن الله أبى عليّ أن أقتل مؤمنًا ـ ثلاث مرات ـ** » فلولا أن الإسلام المطلق يدخل فيه الإيمان والتصديق بالأصول الخمسة لم يصر من قال: أنا مسلم، مؤمنًا بمجرد هذا القول، وقد أخبر الله تعالى عن ملكة سبأ أنها دخلت في الإسلام بهذه الكلمة و﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾، وأخبر عن يوسف عليه السلام أنه دعا بأن يموت على الإسلام. وهذا كله يدل على أن الإسلام المطلق يدخل فيه ما يدخل في الإيمان من التصديق.

وفي سنن ابن ماجه عن عدي بن حاتم قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عدي أسلم تسلم، قلت: وما الإسلام؟ قال: أن تشهد أن لا إلـه إلاَّ الله، وتشهد أني رسول الله، وتؤمن بالأقدار كلها خيرها وشرّها، وحلوها ومرّها» فهذا نصّ في أن الإيمان بالقدر من الإسلام.

ثم إن الشهادتين من خصال الإسلام بغير نزاع. وليس المراد الإتيان بلفظهما دون التصديق بهما، فعلم أن التصديق بهما داخل في الإسلام، وقد فسر الإسلام المذكور في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران: ١٩]، بالتوحيد والتصديق طائفةٌ من السلف منهم محمد بن جعفر بن الزبير.

---

(١) عبيد.

وأما إذا نفي الإيمان عن أحد وأثبت له الإسلام كالأعراب الذين أخبر الله عنهم، فإنه ينتفي رسوخ الإيمان في القلب، وتثبت لهم المشاركة في أعمال الإسلام الظاهرة مع نوع إيمان يصحح لهم العمل، إذ لولا هذا القدر من الإيمان لم يكونوا مسلمين، وإنما نفى عنهم الإيمان لانتفاء ذوق حقائقه ونقص بعض واجباته، وهذا مبني على أن التصديق القائم بالقلوب يتفاضل، وهذا هو الصحيح وهو أصح الروايتين عن أبي عبد الله أحمد بن حنبل، فإن إيمان الصديقين الذين يتجلى الغيب لقلوبهم حتى يصير كأنه شهادة بحيث لا يقبل التشكيك والارتياب، ليس كإيمان غيرهم ممن لا يبلغ هذه الدرجة بحيث لو شكك لدخله الشك. ولهذا جعل النبي ﷺ مرتبة الإحسان أن يعبد العبد ربه كأنه يراه، وهذا لا يحصل لعموم المؤمنين.

ومن هنا قال بعضهم: ما سبقكم أبو بكر رضي الله عنه بكثرة صوم ولا صلاة ولكن بشيء وقر في صدره، وسئل ابن عمر رضي الله عنهما: هل كانت الصحابة رضي الله عنهم يضحكون؟ فقال: نعم وإن الإيمان في قلوبهم أمثال الجبال. فأين هذا ممن الإيمان في قلبه ما يزن ذرة أو شعيرة كالذين يخرجون من أهل التوحيد من النار فهؤلاء يصح أن يقال: لم يدخل الإيمان في قلوبهم؛ لضعفه عندهم. اهـ[١].

* * *

(١) جامع العلوم والحكم، ص ٢٨، ٣٠.

ثالثًا:
زيادة الإيمان ونقصانه

لمَّا دخلت الأعمال في الإيمان، فإنَّ الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعات والإخلاص والصدق، وفعل الواجبات حتى يستكمل.

وينقص بارتكاب المنهيات والمحرمات، وفراغ القلب من معاني الألوهية حتى يزول الإيمان بالكلية إن لم يُتدارك. والواقع ــ مع الأدلة النقلية ــ يشهد بذلك، فإنَّ العاصي لا يعصي إلَّا بعد ضعف وازع الدين في قلبه. وهكذا المتقى لله يتَّقيه ويؤمن به لقوَّة الوازع في قلبه. وهذا معنى زيادة الإيمان ونقصانه. قال الحافظ ابن رجب في «اختيار الأولى»:

«ومتى أخلَّ العبد ببعض الواجبات أو ارتكب بعض المحرمات، فمحبَّته لربه غير تامَّة، فالواجب عليه المبادرة بالتوبة والاجتهاد في تكميل المحبَّة المقتضية لفعل الواجبات كلها، واجتناب المحرمات كلها.

وهذا معنى قول النبـي ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر**

حين يشربها وهو مؤمن»[1].

فإن الإيمان الكامل يقتضي محبّة ما يحبّه الله، وكراهة ما يكرهه الله عزَّ وجلّ، والعمل يقتفي ذلك...»[2]. اهـ.

وأكَّد هذا في موضع آخر في كتابه «جامع العلوم والحكم»، فقال:

وقد ثبت في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من نفسه وولده وأهله والناس أجمعين**» فلا يكون المؤمن مؤمنًا حتى يقدّم محبة الرسول على محبّة جميع الخلق، ومحبّة الرسول تابعة لمحبّة مرسله، والمحبّة الصحيحة تقتضي المتابعة والموافقة في حبّ المحبوبات وبغض المكروهات، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

قال الحسن: قال أصحاب النبي ﷺ: «يا رسول الله، إنا نحبّ ربّنا حبًّا شديدًا! فأحبّ الله أن يجعل لحبّه علمًا، فأنزل الله هذه الآية».

---

(١) هذا الحديث متفق عليه، أخرجه البخاري في الحدود، باب الزنا وشرب الخمر، ومسلم في الإيمان، باب نقصان الإيمان بالمعاصي رقم ٥٧ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) اختيار الأولى، ص ١١٥ ـ ١١٧.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «**ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، وأن يحبّ المرء لا يحبّه إلاَّ لله، وأن يكره أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار**» فمن أحبَّ الله ورسوله محبَّة صادقة من قلبه أوجب له ذلك أن يحبّ بقلبه ما يحبّه الله ورسوله، ويكره ما يكرهه الله ورسوله، ويرضى ما يرضى الله ورسوله، ويسخط ما يسخط الله ورسوله، وأن يعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحبّ والبغض، فإن عمل بجوارحه شيئًا يخالف ذلك، فإن ارتكب بعض ما يكرهه الله ورسوله أو ترك بعض ما يحبه الله ورسوله مع وجوبه والقدرة عليه، دلَّ ذلك على نقص محبَّته الواجبة، فعليه أن يتوب من ذلك ويرجع إلى تكميل المحبة الواجبة.

قال أبو يعقوب النهرجوري: كلّ من ادعى محبَّة الله تعالى ولم يوافق الله في أمره فدعواه باطلة، وكلّ محبّ ليس يخاف الله فهو مغرور. وقال يحيى بن معاذ: ليس بصادق من ادعى محبَّة الله ولم يحفظ حدوده. وسُئل رويم عن المحبّة فقال: الموافقة في جميع الأحوال، وأنشد:

ولو قلت لي مت متّ سمعًا وطاعة   وقلت لداعي الموت أهلاً ومرحبا

ولبعضهم:

تعصي الإله وأنت تزعم حبّه   هذا لعمري في القياس شنيع
لو كان حبّك صادقًا لأطعته   إنَّ المحبَّ لمن يحبُّ مطيع

فجميع المعاصي إنما تنشأ من تقديم هوى النفوس على محبَّة الله

ورسوله، وقد وصف الله المشركين باتباع الهوى في مواضع من كتابه فقال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ ﴾ [القصص: ٥٠]، وكذلك البدع إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع، ولهذا يسمى أهلها: أهل الأهواء. وكذلك المعاصي إنما تقع من تقديم الهوى على محبّة الله ورسوله ومحبّة ما يحبّه.

وكذلك حبّ الأشخاص الواجب فيه أن يكون تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ، فيجب على المؤمن محبّة الله ومحبّة من يحبّه الله من الملائكة والرسل والأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين عمومًا، ولهذا كان من علامات وجوده حلاوة الإيمان أن يحبّ المرء لا يحبّه إلّا لله، وتحريم موالاة أعداء الله وما يكرهه الله عمومًا وقد سبق ذلك في مواضع أُخَر، وبهذا يكون الدين كله لله.

ومن أحبَّ لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان، ومن كان حبّه وبغضه وعطاؤه ومنعه لهوى نفسه كان ذلك نقصًا في إيمانه الواجب، فيجب عليه التوبة من ذلك والرجوع إلى اتِّباع ما جاء به الرسول ﷺ من تقديم محبّة الله ورسوله وما فيه رضا الله ورسوله على هوى النفس ومراداتها كلها.

قال وهيب بن الورد: بلغنا ــ والله أعلم ــ أن موسى عليه السلام قال: يا ربّ أوصني؟ قال: أوصيك بي ــ قالها ثلاثًا ــ ، حتى قال في الأخرى: أوصيك بي أن لا يعرض لك أمر إلّا آثرت فيه محبّتي على ما سواها، فمن لم يفعل ذلك لم أزكِّه ولم أرحمه.

والمعروف في استعمال الهوى عند الإطلاق أنه الميل إلى خلاف الحقّ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠ ــ ٤١].

وقد يطلق الهوى بمعنى المحبة والميل مطلقًا، فيدخل فيه الميل إلى الحقّ وغيره، وربما استعمل بمعنى محبّة الحقّ خاصة والانقياد إليه. وسُئل صفوان بن عسال: هل سمعت من النبيّ ﷺ يذكر الهوى؟ فقال: سأله أعرابي عن الرجل يحبّ القوم ولم يلحق بهم قال: «المرء مع من أحبّ».

ولما نزل قوله تعالى: ﴿۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [الأحزاب: ٥١]، قالت عائشة للنبي ﷺ: «ما أرى ربك إلاّ يسارع في هواك»، وقال عمر في قصة المشاورة في أسارى بدر: فهوى رسول الله ﷺ الذي قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت. وهذا الحديث مما جاء في استعمال الهوى بمعنى المحبّة المحمودة. وقد وقع مثل ذلك في الآثار الإسرائيلية كثيرًا. وكلام مشايخ القوم وإشاراتهم نظمًا ونثرًا يكثر في هذا الاستعمال، ومما يناسب معنى الحديث من ذلك قول بعضهم:

إن هواك الذي بقلبي ... صيّرني سامعًا مطيعًا
أخذت قلبي وغمض عيني ... سلبتني النوم والهجوعا

فـــذر فـــؤادي وخـــذ رقـــادي فقـــال: لا بـــل همـــا جميعًـــا»

اهـ[1].

هذه نماذج من أقواله عليه رحمة الله، وصريح كلامه ومقتضاه ولوازمه، تؤكد اعتقاده أنَّ الإِيمان يزيد بالطاعة وبمعرفة الله، وينقص بفعل نواهيه.

* * *

---

(١) جامع العلوم والحكم، ص ٣٨٨ ــ ٣٨٩.

رابعًا:

أثر المعاصي والكبائر على الإيمان

وهي مسألة الأسماء والأحكام، ومن أول مسائل الخلاف وقوعًا في الأمة بعد موت النبي ﷺ، والتي جرت من الخوارج على علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وبقية أصحابه وغيرهم.

قال الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم»: «وهذه المسائل أعني مسائل الإسلام الإيمان، والكفر والنفاق، مسائل عظيمة جدًّا، فإن الله عزَّ وجلّ علَّق بهذه الأسماء السعادة والشقاوة، واستحقاق الجنة والنار.

والاختلاف في مسمياتها أول اختلاف وقع في هذه الأمة، وهو خلاف الخوارج للصحابة، حيث أخرجوا عصاة الموحدين من الإسلام بالكلية وأدخلوهم في دائرة الكفر، وعاملوهم معاملة الكفار، واستحلوا بذلك دماء المسلمين وأموالهم.

ثم حدث بعدهم خلاف المعتزلة، وقولهم بالمنزلة بين المنزلتين، ثم حديث خلاف المرجئة وقولهم إن الفاسق مؤمن كامل الإيمان»[1]. اهـ.

---

(١) جامع العلوم والحكم، ص ٣٠.

أما المعاصي والذنوب فإنها تؤثر على الإيمان، إلَّا أنها لا تخرج منه بالكلية، صغيرها وكبيرها، وأثرها فيه أنه مُنقصة للإيمان بقدر هذه الذنوب والدوام عليها.

ولأن حسنة التوحيد لا يفوقها حسنة، ولا تردها سيئة إلَّا الكفر والشرك بالله.

قال الحافظ ابن رجب على حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه المخرج في الصحيحين:

قال: كنا عند النبي ﷺ فقال: **«بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف. فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئًا ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه»**، فبايعناه على ذلك.

وفي رواية لمسلم: **«من أتى منكم حدًّا فأقيم عليه فهو كفارته»**، فهذا يدل على أن الحدود كفارات. قال الشافعي: لم أسمع في هذا الباب أن الحدّ يكون كفارة لأهله شيئًا أحسن من حديث عبادة بن الصامت وقوله: **«فعوقب»** يعمّ العقوبات الشرعية، وهي الحدود المقدّرة أو غير المقدرة كالتعزيزات، ويشمل العقوبات القدرية كالمصائب والأسقام والآلام، فإنه صحّ عن النبي ﷺ أنه قال: **«لا يصيب المسلم نصب ولا وصب ولا همّ ولا حزن حتى الشوكة يشاكها إلَّا كفر الله بها خطاياه»**.

وروي عن عليّ أن الحدّ كفارة لمن أقيم عليه. وذكر ابن جرير الطبري في هذه المسألة اختلافًا بين الناس ورجح أن إقامة الحدّ بمجرده كفارة، ووهن القول بخلاف ذلك جدًّا.

قلت: وقد روي عن سعيد بن المسيب وصفوان بن سليم أن إقامة الحد ليس بكفارة ولا بدّ معه من التوبة، ورجحه طائفة من المتأخرين منهم البغوي وأبو عبد الله بن تيمية في تفسيريهما، وهو قول ابن حزم الظاهري، والأوّل قول مجاهد وزيد بن أسلم والثوري وأحمد.

وأما حديث أبي هريرة المرفوع: «**لا أدري الحدود طهارة لأهلها أم لا؟**» فقد خرّجه الحاكم وغيره، وأعله البخاري وقال: لا يثبت وإنما هو من مراسيل الزهري وهي ضعيفة، وغلط عبد الرزاق فوصله.

قال: وقد صحّ عن النبي ﷺ «**أن الحدود كفارات**»، ومما يستدل به من قال الحد ليس بكفارة قوله تعالى في المحاربين: ﴿ **ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴿٣٣﴾ ﴾ [المائدة: ٣٣]. وظاهره أنه يجتمع لهم عقوبة الدنيا والآخرة. ويجاب عنه بأنه ذكر عقوبتهم في الدنيا وعقوبتهم في الآخرة ولا يلزم اجتماعهما. وأما استثناء من تاب فإنما استثناه من عقوبة الدنيا خاصة، فإن عقوبة الآخرة تسقط بالتوبة قبل القدرة وبعدها.

وقوله ﷺ: «**ومن أصاب شيئًا من ذلك فستره الله عليه فهو إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له**» صريح في أن هذه الكبائر من لقي الله بها كانت تحت مشيئته، وهذا يدلّ على أن إقامة الفرائض لا تكفرها ولا تمحوها، فإن عموم المسلمين يحافظون على الفرائض لا سيما من

بايعهم النبـي ﷺ، وخرج من ذلك من لقي الله وقد تاب عنها بالنصوص الدالة من الكتاب والسنَّة على أن من تاب إلى الله تاب الله عليه وغفر له، فبقي من لم يتب داخلاً تحت المشيئة.

وأيضًا فيدل على أن الكبائر لا تكفرها الأعمال، أن الله لم يجعل للكبائر في الدنيا كفارة واجبة، وإنما جعل الكفارة للصغائر ككفارة وطء المظاهر ووطء المرأة في الحيض على حديث ابن عباس الذي ذهب إليه الإمام أحمد وغيره، وكفارة من ترك شيئًا من واجبات الحج أو ارتكب بعض محظوراته، وهي أربعة أجناس: هدي وعتق وصدقة وصيام، ولهذا لا تجب الكفارة في قتل العمد عند جمهور العلماء ولا في اليمين الغموس أيضًا عند أكثرهم، وإنما يؤمر القاتل بعتق رقبة استحبابًا كما في حديث واثلة بن الأسقع «أنهم جاءوا إلى النبـي ﷺ في صاحب لهم قد أوجب فقال: **أعتقوا عنه رقبة يعتقه الله بها من النار**». ومعنى أوجب: عمل عملاً يجب له به النار، ويقال إنه كان قتل قتيلاً.

وفي صحيح مسلم عن ابن عمر أنه ضرب عبدًا له فأعتقه قال: ليس لي فيه من الأجر مثل هذا، وأخذ عودًا من الأرض وقال: إني سمعت النبـي ﷺ يقول: «من لطم مملوكه أو ضربه فإن كفارته أن يعتقه».

فإن قيل: فالمجامع في رمضان يؤمر بالكفارة، والفطر في رمضان من الكبائر، قيل: ليست الكفارة للفطر، ولهذا لا يجب عند الأكثرين على كل مفطر في رمضان عمدًا، وإنما هي لهتك حرمة رمضان بالجماع، ولهذا لو كان مفطرًا فطرًا لا يجوز له في نهار رمضان ثم جامع للزمته الكفارة عند الإمام أحمد لما ذكرنا.

ومما يدلّ على أن تكفير الواجبات مختصّ بالصغائر ما أخرجه البخاري عن حذيفة قال: بينما نحن جلوس عند عمر إذ قال: أيكم يحفظ قول رسول الله ﷺ في الفتنة؟ قال: قلت: «**فتنة الرجل في أهله وماله ولده وجاره يكفرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**» قال: ليس عن هذا أسألك. وخرجه مسلم بمعناه، وظاهر هذا السياق يقتضي رفعه.

وفي رواية البخاري أن حذيفة قال: سمعته يقول: الرجل... فذكره، وهذا كالصريح في رفعه، وفي رواية مسلم أن هذا من كلام عمر. وأما قول النبيّ ﷺ للذي قال له: أصبت حدًا فأقمه عليّ، فتركه حتى صلى ثم قال له: **إن الله غفر لك حدّك**»، فليس صريحًا في أن المراد به شيء من الكبائر؛ لأن حدود الله محارمه كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق: ١]، وقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ﴾ [النساء: ١٣]، قوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء: ١٤]».

ثم قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم:

«وقوله ﷺ: «**ومن أصاب شيئًا من ذلك فستر الله عليه فهو إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له**»، صريح في أن هذه الكبائر من لقي الله بها كانت تحت مشيئته، وهذا يدل على أن إقامة الفرائض، لا تكفرها ولا تمحوها، فإن عموم المسلمين يحافظون على الفرائض لا سيما من

بايعهم النبي ﷺ.

وخرج من ذلك من لقي الله وقد تاب عنها بالنصوص الدالة من الكتاب والسنَّة على أن من تاب تاب الله عليه وغفر له.

فبقي من لم يتب داخلاً تحت المشيئة»[1]. اهـ.

هذا مذهب ابن رجب أن صاحب الكبيرة حكمه أنه داخل تحت مشيئة الله تعالى يوم القيامة، إذا مات ولم يتب من كبيرته.

مع استصحاب تحقيق الوعيد المجمل من الله لأهل الكبائر بالنار.

والحافظ ابن رجب يختار أن الكبائر أيضًا لا تكفر بالأعمال الصالحات، وإنما تكفرها التوبة منها فقط، أما الأعمال الصالحة من حج وعمرة وصلاة تكفر صغار الذنوب.

قال رحمه الله: «وأيضًا فيدل على أن الكبائر لا تكفرها الأعمال، أن الله لم يجعل للكبائر في الدنيا كفارة واجبة، وإنما جعل الكفارة للصغائر...»[2]. اهـ.

ثم أطال النفس في المسألة والترجيح بين متعارض الشواهد فيها، وتحصل إلى أن الكبائر لا تكفر إلاَّ بالتوبة.

* * *

(١) جامع العلوم والحكم، ص ١٧٠، ١٧١ وما بعدها، فقرر فيه ذلك.

(٢) جامع العلوم والحكم، ص ١٧٠، ١٧١ وما بعدها، فقرر فيه ذلك.

خامسًا:
كلمة جامعة في تحقيق الإيمان وعلاماته

قال الحافظ ابن رجب في كلمة جامعة في الإيمان وعلاماته من كتابه «**لطائف المعارف**»:

«المجلس الثاني
في ذكر الحج وفضله والحث عليه

في «الصحيحين» عن أبـي هريرة رضي الله عنه، عن النبـي ﷺ، قال: «**أفضل الأعمال إيمان بالله ورسوله، ثم جهاد في سبيل الله، ثم حج مبرور**».

هذه الأعمال الثلاثة ترجع في الحقيقة إلى عملين:

أحدهما: الإيمان بالله ورسوله، وهو التصديق الجازم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، كما فسر النبـي ﷺ الإيمان بذلك في حديث سؤال جبريل له، وفي غيره من الأحاديث.

وقد ذكر الله تعالى الإيمان بهذه الأصول في مواضع كثيرة من كتابه، كأول البقرة، ووسطها، وآخرها.

والعمل الثاني: الجهاد في سبيل الله تعالى، وقد جمع الله بين

هذين الأصلين في مواضع من كتابه، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ﴾ [الصف: ١٠، ١١]، وفي قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝١٥﴾ [الحجرات: ١٥].

وقد صح عن النبي ﷺ من غير وجه أن أفضل الأعمال الإيمان بالله والجهاد في سبيل الله، فالإيمان المجرد تدخل فيه أعمال الجوارح عند السلف وأهلِ الحديث، والإيمان المقرون بالعمل يراد به التصديق مع القول، وخصوصًا إن قرن الإيمان بالله بالإيمان برسوله، كما في هذا الحديث. فالإيمان القائم بالقلوب أصل كل خير، وهو خير ما أوتيه العبد في الدنيا والآخرة، وبه يحصل له سعادة الدنيا والآخرة، والنجاة من شقاوة الدنيا والآخرة. ومتى رسخ الإيمان في القلب انبعثت الجوارح كلها بالأعمال الصالحة، واللسان بالكلم الطيب. كما قال النبي ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»(١).

ولا صلاح للقلب بدون الإيمان بالله، وما يدخل في مسماه من معرفة الله وتوحيده، وخشيته، ومحبته، ورجائه، وإجابته والإنابة إليه، والتوكل عليه.

---

(١) متفق على صحته: أخرجه الإمام البخاري في الإيمان: باب فضل من استبرأ لدينه، وفي البيوع: باب الحلال بين والحرام بين وبينهما مشتبهات (رقم ٥٢)، ومسلم في المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات (رقم ١٥٩٩)، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

قال الحسن: ليس الإيمان بالتمني، ولا بالتحلي، ولكنه بما وقر في الصدور وصدقته الأعمال، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٢، ٤]، وفي هذا يقول بعضهم:

ما كل من زوق لي قوله ... يغرني يا صاح تزويقه
من حقق الإيمان في قلبه ... لا بد أن يظهر تحقيقه

فإذا ذاق العبد حلاوة الإيمان، ووجد طعمه وحلاوته، ظهر ثمرة ذلك على لسانه وجوارحه، فاستحلى اللسان ذكر الله وما والاه، وأسرعت الجوارح إلى طاعة الله، فحينئذٍ يدخل حب الإيمان في القلب، كما يدخل حب الماء البارد الشديد برده في اليوم الشديد حره للظمآن الشديد عطشه، ويصيرُ الخروجُ من الإيمان أكره إلى القلوب من الإلقاء في النار، وأَمَرَّ عليها من الصبر.

ذكر ابن المبارك عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه دخل المدينة، فقال لهم: ما لي لا أرى عليكم يا أهل المدينة حلاوة الإيمان؟ والذي نفسي بيده، لو أن دب الغابة وجد طعم الإيمان لرؤي عليه حلاوة الإيمان:

لو ذاق طعم الإيمان رضوى ... لكاد من وجده يميد
قد حملوني تكليف عهد ... يعجز عن حمله الحديد

فالإيمان بالله ورسوله وظيفة القلب واللسان، ثم يتبعهما عمل

الجوارح، وأفضلها الجهاد في سبيل الله، وهو نوعان: أفضلهما: جهاد المؤمن لعدوه الكافر، وقتاله في سبيل الله؛ فإن فيه دعوة له إلى الإيمان بالله ورسوله، ليدخل في الإيمان، قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، قال أبو هريرة رضي الله عنه في هذه الآية: يجيئون بهم في السلاسل حتى يدخلونهم الجنة، وفي الحديث المرفوع: «**عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل**»(١).

فالجهاد في سبيل الله: دعاء الخلق إلى الإيمان بالله ورسوله بالسيف واللسان، بعد دعائهم إليه بالحجة والبرهان. وقد كان النبي ﷺ في أول الأمر لا يقاتل قومًا حتى يدعوهم. فالجهاد به تعلو كلمة الإيمان، وتتسع رقعة الإسلام، ويكثر الداخلون فيه. وهو وظيفة الرسل وأتباعهم، وبه تصير كلمة الله هي العليا، والمقصود منه أن يكون الدين كله لله، والطاعة له، كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، والمجاهد في سبيل الله هو المقاتل لتكون كلمة الله هي العليا خاصة.

والنوع الثاني من الجهاد: جهاد النفس في طاعة الله، كما قال النبي ﷺ: «**المجاهد من جاهد نفسه في الله**»(٢). وقال بعض الصحابة

---

(١) رواه البخاري في الجهاد: باب الأسارى في السلاسل (٣٠١٠)، ورقم (٤٥٥٧) في التفسير.

(٢) الحديث رواه الترمذي في جامعه وصححه في الجهاد، باب ما جاء في فصل من مات مرابطًا (١٦٢١)، ورواه الإمام أحمد في المسند ٦/ ٢١، والطبراني في الكبير ١٨/ ٣٠٩، وابن حبان وصححه.

لمن سأله عن الغزو: أبدأ بنفسك فأغزها، وأبدأ بنفسك فجاهدها، وأعظم مجاهدة النفس على طاعة الله عمارة بيوته بالذكر والطاعة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨]، وفي حديث أبـي سعيد المرفوع: «**إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فأشهدوا له الإيمان**» ثم تلا هذه الآية. خرَّجه الإمام أحمد(١) والترمذي وابن ماجه.

وقال الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ...﴾ [النور: ٣٦، ٣٧].

والنوع الأول من الجهاد أفضل من هذا الثاني، قال الله تعالى: ﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٩ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٢٠﴾ [النور: ١٩، ٢٠].

وفي صحيح مسلم، عن النعمان بن بشير، قال: كنت عند منبر النبـي ﷺ، فقال رجل: ما أبالي أن لا أعمل بعد الإسلام، إلاَّ أن أسقي الحاج. وقال آخر: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام، إلاَّ أن أعمر

---

(١) رواه أحمد في «المسند» ٣/٦٨ و ٧٦، والترمذي رقم (٣٠٩٢) في التفسير من سورة التوبة وحسنه، وابن ماجه رقم (٨٠٢) في المساجد والجماعات، باب لزوم المساجد وانتظار الصلاة، من حديث درَّاج أبـي السمح، عن أبـي الهيثم، عن أبـي سعيد الخدري رضي الله عنه.

المسجد الحرام. وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم: فزجرهم عمر، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ، وهو يوم الجمعة، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت فٱستفتيته فيما اختلفتم فيه، فأنزل الله عزَّ وجلّ: ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [النور: ١٩]. فهذا الحديث الذي فيه ذكر سبب نزول هذه الآية يبين أن المراد أفضل ما يتقرب به إلى الله تعالى من أعمال النوافل والتطوع، وأن الآية تدل على أن أفضل ذلك الجهاد مع الإيمان. فدل على أن التطوع بالجهاد أفضل من التطوع بعمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج، وعلى مثل هذا يحمل حديث أبي هريرة رضي الله عنه. هذا وإن الجهاد أفضل من الحج المتطوع به، فإن فرض الحج تأخر عند كثير من العلماء إلى السنة التاسعة، ولعل النبي ﷺ قال هذا الكلام قبل أن يفرض الحج بالكلية، فكان حينئذٍ تطوعًا.

وقد قيل: إن الجهاد كان في أول الإسلام فرض عين، فلا إشكال في هذا على تقديمه على الحج قبل افتراضه. فأما بعد أن صار الجهاد فرض كفايةٍ والحج فرض عينٍ؛ فإن الحج المفترض حينئذٍ يكون أفضل من الجهاد. قال عبد الله بن عمرو بن العاص: حجة قبل الغزو أفضل من عشر غزوات، وغزوة بعد حجة أفضل من عشر حجات، وروي ذلك مرفوعًا من وجوه متعددة، في أسانيدها مقالٌ. وقال الصبي بن معبد: كنت نصرانيًا فأسلمت، فسألت أصحاب محمدٍ ﷺ: الجهاد أفضل أم الحج؟ فقالوا: الحج. والمراد ــ والله أعلم ــ أنَّ الحج أفضل لمن لم يحج حجة الإسلام، مثل هذا الذي أسلم. وقد يكون المراد بحديث

أبي هريرة رضي الله عنه أن جنس الجهاد أشرف من جنس الحج، فإن عرض للحج وصف يمتاز به على الجهاد، وهو كونه فرض عين، صار ذلك الحج المخصوص أفضل من الجهاد، وإلاَّ فالجهاد أفضل، والله أعلم.

وقد دل حديث أبي هريرة رضي الله عنه على أن أفضل الأعمال بعد الجهاد في سبيل الله جنس عمارة المساجد، بذكر الله وطاعته، فيدخل في ذلك الصلاة والذكر والتلاوة والاعتكاف وتعليم العلم النافع واستماعه. وأفضل ذلك عمارة أفضل المساجد وأشرفها، وهو المسجد الحرام، بالزيارة والطواف، فلهذا خصه بالذكر وجعل قصده للحج أفضل الأعمال بعد الجهاد. وقد خرجه ابن المنذر ولفظه: «**ثم حجٌّ مبرورٌ أو عمرة**». اهـ[1].



(١) من كتابه لطائف المعارف ٤٠١ ــ ٤٠٥.

سادسًا:

مسألة صاحب الكبيرة، اسمه وحكمه

هذه المسألة لم يغفلها الحافظ ابن رجب، بل درج فيها على جادة أهل السنَّة في اسمه في الدنيا، وحكمه في الآخرة، ردد على المخالفين لأهل السنَّة فيه.

فأما اسمه في الدنيا فهو متردد عند أهل السنَّة بين الإيمان الناقص، وبين الإسلام، لا كما تقوله الخوارج من أنه كافر في الدنيا، أو تقوله المعتزلة بأنه في منزلة بين المنزلتين(١)، ولا بما تقوله المرجئة من أنه مؤمن كامل الإيمان.

قال رحمه الله مرددًا الخلاف بين أهل السنَّة، وهو خلاف في حقيقته لفظى لا ثمرة له في الأحكام:

---

(١) ويسمونه فاسقًا، ومعنى الفسق عندهم يغاير الفسق عند أهل السنَّة في حقيقته وحكمه، حيث عند أهل السنَّة والجماعة، الفاسق هو مرتكب الكبيرة، ولم يخرج عن حوزة الإسلام، وحكمه أنه تحت مشيئة الله يوم القيامة مع تحقق وعيد الله المجمل لأهل الكبائر بالنار، وإن دخلها لا يخلد فيها أبدًا.
أما عند المعتزلة: فهو ليس بمؤمن ولا كافر في الدنيا، بل بمنزلة بينهما ــ ولذا سماهم العلماء: مخانيث الخوارج، لأنهم لم يصيروا خُلَّصًا ــ وفي الآخرة هو خالد مخلد في النار، كما تقوله الخوارج.

«وأن المراد بنفي الإيمان نفي بلوغ حقيقته ونهايته، فإن الإيمان كثير ما ينتفي لانتفاء بعض أركانه، وواجباته، كقوله ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن**»، وقوله: «**لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه**».

وقد اختلف العلماء في مرتكب الكبائر، هل يسمى مؤمنًا ناقص الإيمان أم لا يسمى مؤمنًا، وإنما يقال هو مسلم، فليس بمؤمن؟ على قولين، وهما روايتان عن أحمد رحمه الله.

فأما من ارتكب الصغائر فلا يزول عنه اسم الإيمان بالكلية، بل هو مؤمن ناقص الإيمان، ينقص من إيمانه بحسب ما ارتكب من ذلك.

والقول بأن مرتكب الكبيرة يقال له مؤمن ناقص الإيمان، مرويٌّ عن جابر بن عبد الله، وهو قول ابن المبارك وإسحاق وابن عبيد وغيرهم.

والقول بأنه مسلم ليس بمؤمن مروي عن أبي جعفر محمد بن علي. وذكر بعضهم أنه المختار عند أهل السنة.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الزاني ينزع عنه نور الإيمان. وقال أبو هريرة: ينزع منه الإيمان فيكون فوقه كالظُّلة، فإن تاب عاد إليه. وقال عبد الله بن رواحة وأبو الدرداء: الإيمان كالقميص يلبسه الإنسان تارة ويخلعه تارة أخرى. وكذا قال الإمام أحمد رحمه الله وغيره.

والمعنى: أنه إذا كمَّل خصال الإيمان لبسه، فإذا نقص منها شيء نزعه، وكل هذا إشارة إلى الإيمان الكامل التام، الذي لا ينقص من واجباته شيء.

والمقصود أن من جملة خصال الإيمان الواجبة أن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، فإذا زال ذلك عنه فقد نقص إيمانه بذلك...»[1]. اهـ.

وهذا الكلام كله في كمال الإيمان، لا في أصله، حيث الزوال زوال الكمال، لا زوال الأصل كما تقوله الخوارج والمعتزلة.

أما عن حكمه في الآخرة، فقرر الحافظ ابن رجب فيه معتقد أهل الحديث قاطبة من أنه معرض لوعيد الله، وهو تحت مشيئته إن شاء عذبه في النار على قدر كبيرته، وإن شاء عفا عنه برحمته وجوده لكنه غير مخلدٍ في النار، كما نطقت به الأحاديث الشريفة، وعليه دل مجموعها، خلافًا للخوارج والمعتزلة اللذين جعلوه خالد مخلدًا في النار لأنه كافر، وخلافًا للمرجئة الذين حرموه على النار، وأوجبوا له دخول الجنة مباشرة، فقال رحمه الله:

«وأحاديث هذا الباب[2] نوعان: **أحدهما**:

أن من أتى بالشهادتين دخل الجنة ولم يحجب عنها، وهذا ظاهر.

(١) جامع العلوم والحكم، ص ١١٩، ١٢٠، شرح الحديث الثالث عشر عن أنس رضي الله عنه: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب...**» الحديث.

(٢) المقصود بهذا الباب، باب فضل لا إلـه إلاَّ الله.

فإن النار لا يخلد فيها أحد من أهل التوحيد الخالص، وقد يدخل الجنة ولا يحجب عنها إذا طهر من ذنوبه بالنار.

وحديث أبـي ذر معناه أن الزني والسرقة، لا يمنعان دخول الجنة مع التوحيد.

وهذا حق لا مرية فيه، ليس فيه أنه لا يعذب عليهما مع التوحيد، في مسند البزار عن أبـي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا «**من قال: لا إلـه إلَّا الله، نفعته يومًا من دهره، يصيبه قبل ذلك ما أصابه**»[1].

والثاني: ما فيه أنه يحرم على النار، وقد حمله بعضهم على الخلود فيها، أو على ما يخلد فيه أهلها وهي ما عدا الدرك الأعلى، فإن الدرك الأعلى يدخله كثير من الموحدين، من عصاتهم بذنوبهم، ثم يخرجون بشفاعة الشافعين، وبرحمة أرحم الراحمين.

وفي الصحيحين: أن الله تعالى يقول: «**وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال: لا إلـه إلَّا الله...**»[2]. اهـ.

وحديث أبـي ذر هو الذي خرجه الشيخان في صحيحهما أنه ﷺ قال: «**ما من عبد قال: لا إلـه إلَّا الله، ثم مات على ذلك إلَّا دخل الجنة. قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زني وإن سرق. قلت: وإن زنى وإن وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق... ثم قال في الرابعة:**

وإن زنى وإن سرقِ على رغم أنف أبـي ذر»، فخرج أبو ذر وهو

(١) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب ٢/ ٢٣٨: رواته رواة الصحيح.
(٢) من تحقيق كلمة الإخلاص، ص ٨، ٩.

يقول: وإن رغم أنف أبـي ذر. وكان رضي الله عنه يذكرها إذا حدَّث بالحديث.

وهنا مسلك مهم من مسالك أهل السنَّة والجماعة وهو أنهم يعملون جميع النصوص، فيأخذون بها كلها، ويؤالفون بينها، لا أن يأخذوا بعضها ويعارضوه بالباقي.

وفي هذا الكلام لابن رجب تقرير لمعتقد السلف الصالح، مسألة الأسماء والأحكام الجليلة، وما تضمنه كلامه من مخالفة المبتدعة من الخوارج والمعتزلة وطوائف المرجئة.

حيث أثر ذلك جليًّا في تعاملهم مع أهل المعاصي والكبائر فتوسطوا فيهم اعتقادًا ومعاملة وحكمًا في الآخرة واسمًا في الدنيا.

حيث لم يغلوا في البراءة منهم، وإخراجهم من اسم الإيمان في الدنيا، وتخليدهم في النار في الآخرة كما قالت الخوارج وأذنابهم من المعتزلة.

ولم يعطوهم كامل الولاء والمحبة، ويجعلونهم من أهل الإيمان الكامل في الدنيا ومن المحرمين على النار البتة في الآخرة كما قالت المرجئة بطوائفها القديمة والمعاصرة.

وإنما والوه وأحبوه لما معه من أصل الإيمان وبعض شعبه فلم يخلوه اسمه بالمرة، ورجوا أن ينجوا يوم القيامة من النار، مع قطعهم بعدم خلوده فيها.

وأيضًا عادوه وتبرؤا مما تلبسه من المعاصي والذنوب الكبيرة،

وخافوا عليه النار يوم القيامة؛ أن يعذب فيها على قدر ذنبه لا خلودًا مؤبدًا.

فانظر ـ وفَّقك الله ورعاك ـ منهج الوسطية والاعتدال في طريقه أهل السنَّة والجماعة ومسالكهم، لتعلم هداية الله لهم لما اختلف فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، والحمد لله رب العالمين.



الفصل الرابع
العذر في الخطأ والنسيان والإكراه

تناول الحافظ ابن رجب رحمه الله في هذا الفصل هذه المسائل الثلاث الجليلة وأحكامها من ناحية الإعذار فيها، وما يترتب على مصاحبتها للأقوال والأفعال من المؤاخذة أو العذر.

وقعَّد رحمه الله قاعدة أنه في الخطأ والنسيان يرفع الإثم والحرج في حالتهما، مع وجوب أداء الفعل بعد زوالهما، أي: أنه يُعفى عن المخطىء والناسي برفع الإثم عنهما، لترتبه على المقصد والنية، أما الأحكام المترتبة على الخطأ والنسيان فليستا مرتفعتين.

وذكر أمثلةً كثيرةً مُبينًا خلاف العلماء فيها حيث قال في آخر شرحه للحديث التاسع والثلاثين من كتاب «جامع العلوم والحكم» وهو حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا: «**إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**»، قال في فصل خاص عقده لذلك:

«الفصل الأول: في الخطأ والنسيان

الخطأ: هو أن يقصد بفعله شيئًا فيصادف فعله غير ما قصده، مثل أن يقصد قتل كافر فصادف قتله مسلمًا.

والنسيان: أن يكون ذاكرًا الشيء فينساه عند الفعل.

وكلاهما معفوّ عنه: يعني أنه لا إثم فيه.

ولكن رفع الإثم لا ينافي أن يترتب على نسيانه حكم، كما أن من نسي الوضوء وصلَّى ظانًّا أنه متطهر فلا إثم عليه بذلك، ثم إن تبين له أنه كان قد صلَّى محدثًا فإن عليه الإعادة، ولو ترك التسمية على الوضوء نسيانًا، وقلنا بوجوبها، فهل يجب عليه إعادة الوضوء؟ فيه روايتان عن الإمام أحمد.

وكذا لو ترك التسمية على الذبيحة نسيانًا فيه عنه روايتان، وأكثر الفقهاء على أنها تؤكل.

ولو ترك الصلاة نسيانًا ثم ذكر فإن عليه القضاء، كما قال النبي ﷺ: «**من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها لا كفارة لها إلَّا ذلك**»، ثم تلا: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [طه: ١٤]، ولو صلَّى حاملاً في صلاته نجاسة لا يعفى عنها ثم علم بها بعد أو في أثنائها فأزالها فهل يعيد صلاته أم لا؟ فيه قولان، وهما روايتان عن أحمد، وقد روي عن النبي ﷺ أنه خلع نعليه في صلاته وأتمها وقال: «**إن جبرائيل أخبرني أن فيهما أذى**» ولم يعد صلاته.

ولو تكلم في صلاته ناسيًا أنه في صلاة ففي بطلان صلاته بذلك قولان مشهوران، هما روايتان عن أحمد. ومذهب الشافعي أنها لا تبطل بذلك.

ولو أكل في صيامه ناسيًا فالأكثرون على أنه لا يبطل صيامه عملاً بقوله ﷺ: «**من أكل أو شرب ناسيًا فليتمّ صومه فإنما أطعمه الله وسقاه**». وقال مالك: عليه الإعادة لأنه بمنزلة من ترك الصلاة ناسيًا،

والجمهور يقولون إنه أتى بنية الصيام، وإنما ارتكب بعض محظوراته ناسيًا فيعفى عنه.

ولو جامع ناسيًا فهل حكمه حكم الآكل نسيانًا أم لا؟ فيه قولان:

أحدهما: وهو المشهور عن أحمد أنه يبطل صيامه بذلك وعليه القضاء، وفي الكفارة عنه روايتان.

والثاني: لا يبطل صيامه بذلك كالأكل وهو مذهب الشافعي، وحكي رواية عن أحمد. وكذا الخلاف في الجماع في الإحرام ناسيًا هل يبطل به النسك أم لا؟

ولو قتل مؤمنًا خطأ فإن عليه الكفارة والدِّية بنصّ الكتاب. وكذا لو أتلف مال غيره خطأ بظنه أنه مال نفسه، وكذا قال الجمهور في المحرم يقتل الصيد خطأ أو ناسيًا لإحرامه أن عليه جزاءه. ومنهم من قال: لا جزاء عليه إلاَّ أن يكون متعمدًا لقتله؛ تمسكًا بظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ . . .﴾ الآية [المائدة: ٩٥]، وهو رواية عن أحمد. وأجاب الجمهور عن الآية بأنه رتب على قاتله متعمدًا الجزاء وانتقام الله تعالى ومجموعهما يختص بالعامد، وإذا انتفى العمد انتفى الانتقام وبقي الجزاء ثابتًا بدليل الآخر.

والأظهر ــ والله أعلم ــ أن الناسي والمخطىء إنما عفي عنهما بمعنى رفع الإثم عنهما؛ لأن الإثم مرتب على المقاصد والنيات، والناسي والمخطىء لا قصد لهما فلا إثم عليهما. وأما رفع الأحكام عنهما فليس مرادًا من هذه النصوص فيحتاج في ثبوتها ونفيها إلى دليل آخر». اهـ.

ثم ذكر الحافظ التفصيل في حال المكره ومتى يعذر، وحرَّر محل النزاع بأنه في الاعتقاد غير معذور؛ لقوله تعالى في آية النحل: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾، والإكراه في القول معذور، وفي الفعل محل بحث، بعد أن تبين أن الإكراه نوعان حيث قال:

«الفصل الثاني: في حكم المكره

الإكراه بالفعل: وهو نوعان:

أحدهما: من لا اختيار له بالكلية ولا قدرة له على الامتناع، كمن حمل كرهًا وأدخل إلى مكان حلف على الامتناع من دخوله، أو حمل كرهًا وضرب به غيره حتى مات ذلك الغير ولا قدرة له على الامتناع، أو أضجعت ثم زني بها من غير قدرة لها على الامتناع، فهذا لا إثم عليه بالاتفاق، ولا يترتب عليه حنث في يمينه عند جمهور العلماء. وقد حكي عن بعض السلف كالنخعي فيه خلاف، ووقع في كلام بعض أصحاب الشافعي وأحمد، والصحيح عندهم أنه لا يحنث بحال. وروي عن الأوزاعي في امرأة حلفت على شيء وأحنثها زوجها كرهًا أن كفارتها عليه، وعن أحمد رواية كذلك فيما إذا وطىء امرأته مكرهة في صيامه أو إحرامها أن كفارتها عليه، والمشهور عنه أنه يفسد صيامها بذلك وحجها.

والنوع الثاني: من أكره بضرب أو غيره حتى فعل، فهذا الفعل يتعلق به التكليف، فإن أمكنه أن لا يفعل فهو مختار للفعل لكن ليس

غرضه نفس الفعل بل دفع الضرر عنه، فهو مختار من وجه غير مختار من وجه آخر. ولهذا اختلف الناس هل هو مكلف أم لا؟

واتفق العلماء على أنه لو أكره على قتل معصوم لم يصحّ له أن يقتله، فإنه إنما يقتله باختياره افتداءً لنفسه من القتل، هذا إجماع من العلماء المعتدّ بهم، وكان في زمن الإمام أحمد يخالف فيه من لا يعتدّ به، فإذا قتله في هذه الحال، فالجمهور على أنهما يشتركان في وجوب القود المُكرِّه والمُكرَّه لاشتراكهما في القتل، وهو قول مالك والشافعي في المشهور عنه وأحمد، وقيل: يجب على المُكرِّه وحده؛ لأن المُكرَّه صار كالآلة، وهو قول أبـي حنيفة وأحد قولي الشافعي. وروي عن زفر كالأول، وروي عنه أنه يجب على المُكرَّه لمباشرته وليس هو كالآلة لأنه آثم بالاتفاق. وقال أبو يوسف: لا قود على واحد منهما.

وخرَّجه بعض أصحابنا وجهان من رواية لا يوجب فيها قتل الجماعة بالواحد، وأولى لو أكره بالضرب ونحوه على إتلاف مال الغير المعصوم فهل يباح له ذلك؟ فيه وجهان لأصحابنا.

فإن قلنا: يباح له ذلك، فضمنه المالك، رجع بما ضمنه على المكره. وإن قلنا: لا يباح له ذلك، فالضمان عليهما معًا كالقود، وقيل: على المباشر المكره وحده. وهو ضعيف.

ولو أكره على شرب الخمر أو غيره من الأفعال المحرّمة ففي إباحته قولان:

أحدهما: يباح له ذلك استدلالاً بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ

عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [النور: ٣٣].

وهذه نزلت في عبد الله بن أبـي بن سلول كانت له أمتان وكان يكرههما على الزنا وهما يأبيان ذلك، وهذا قول الجمهور كالشافعي وأبـي حنيفة وهو المشهور عن أحمد وروي نحوه عن الحسن ومكحول ومسروق، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما يدلّ عليه، وأهل هذه المقالة اختلفوا في إكراه الرجل على الزنا؛ فمنهم من قال: لا يصحّ إكراههم عليه ولا إثم عليه، وهو قول الشافعي وابن عقيل من أصحابنا، ومنهم من قال: لا يصحّ إكراههم عليه، وعليه الإثم والحدّ، وهو قول أبـي حنيفة رحمه الله تعالى ومنصوص أحمد وروي عن الحسن.

والقول الثاني: أن التقاة تكون في الأقوال ولا تقاة في الأفعال ولا إكراه عليها، وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما وأبـي العالية وأبـي الشعثاء والربيع بن أنس والضحاك وهو رواية عن أحمد، وروي عن سحنون أيضًا.

وعلى هذا لو شرب الخمر أو سرق مكرهًا حدّ ولو على الأوّل، ولو شرب الخمر مكرهًا ثم طلق أو أعتق فهل يكون حكمه حكم المختار لشربها أم لا؟ بل يكون طلاقه وإعتاقه لغوًا، فيه لأصحابنا وجهان.

وروي عن الحسن فيمن قيل له: اسجد لصنم وإلاّ قتلناك، قال: إن كان الصنم تجاه القبلة فليسجد ويجعل نيته لله، وإن كان إلى غير القبلة فلا يفعل وإن قتلوه. قال ابن حبيب المالكي: وهذا قول حسن،

قال أبو عطية: وما يمنعه أن يجعل نيته لله، وإن كان لغير القبلة، وفي كتاب الله ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، وفي الشرع إباحة التنفل للمسافر إلى غير القبلة؟

وأما الإكراه على الأقوال: فاتفق العلماء على صحته، وأن من أكره على قول محرم إكراهًا معتبرًا أن له أن يفتدي نفسه به ولا إثم عليه، وقد دلّ عليه قول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦].

وقال النبيّ ﷺ لعمار: «**وإن عادوا فعد**» وكان المشركون قد عذّبوه ليوافقهم على ما يريدون من الكفر ففعل. وأما ما ورد عن النبيّ ﷺ أنه أوصى طائفة من أصحابه وقال: «**لا تشركوا بالله وإن قطعتم وحرّقتم**» فالمراد الشرك بالقلوب كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [لقمان: ١٥].

وسائر الأقوال متصوّر عليها الإكراه، فإذا أكره بغير حقّ على قول من الأقوال لم يترتب عليه حكم من الأحكام وكان لغوًا، فإن كلام المكره صدر منه وهو غير راض به فلذلك عفي عنه ولم يؤاخذ به في أحكام الدنيا والآخرة.

وبهذا فارق الناسي والجاهل، وسواء في ذلك العقود كالبيع والنكاح، أو الفسخ كالخلع والطلاق والعتاق، وكذلك الأيمان والنذور، وهذا قول جمهور العلماء، وهو قول مالك والشافعي وأحمد.

وفرّق أبو حنيفة بين ما يقبل الفسخ عنده ويثبت فيه الخيار كالبيع ونحوه فقال: لا يلزم مع الإكراه. وما ليس كذلك كالنكاح والطلاق والعتاق والإيمان فألزم بها مع الإكراه. ولو حلف لا يفعل شيئًا ففعله مكرهًا، فعلى قول أبـي حنيفة يحنث، وعلى قول الجمهور فيه قولان:

أحدهما: لا يحنث، كما لا يحنث إذا فعل به ذلك كرهًا ولم يقدر على الامتناع كما سبق، وهذا قول الأكثرين منهم.

والثاني: يحنث هاهنا؛ لأنه فعله باختياره، بخلاف ما إذا حمل ولم يمكنه الامتناع، وهو رواية عن أحمد وقول الشافعي، ومن أصحابه ــ وهو القفال ــ من فرّق بين اليمين والطلاق والعتاق وغيرهما كما قلنا نحن في الناسي. وخرجه بعض أصحابنا وجهان.

ولو أكره على أداء ماله بغير حقّ فباع عقاره ليؤدي ثمنه فهل يصحّ الشراء منه أم لا؟ فيه روايتان عن أحمد. وعنه رواية ثالثة: إن باعه بثمن المثل اشترى منه، وإن باعه بدونه لم يشتر منه. ومتى رضي المكره بما أكره عليه لحدوث رغبة له فيه بعد الإكراه، والإكراه قائم؛ صحّ ما صدر منه من العقود وغيرها بهذا القصد، هذا هو المشهور عند أصحابنا، وفيه وجه آخر: أنه لا يصح أيضًا، وفيه بعد.

وأما الإكراه بحقّ فهو غير مانع من لزوم ما أكره عليه، فلو أكره الحربـي على الإسلام فأسلم صح إسلامه. وكذا لو أكره الحاكم أحدًا على بيع ماله ليوفي دينه، أو أكره موليًا بعد مدة الإيلاء وامتناعه من الفيئة على الطلاق. ولو حلف لا يوفي دينه فأكرهه الحاكم على وفائه فإنه يحنث بذلك؛ لأنه فعل ما حلف عليه حقيقة على وجه لا يعذر فيه،

ذكره أصحابنا، بخلاف ما إذا امتنع من الوفاء فأدّى عنه الحاكم فإنه لا يحنث؛ لأنه لم يوجد منه فعل المحلوف عليه». اهـ[1].

وفي هذا الباب مما يتعلق بالكفر والإيمان مما يرد عليه الخطأ والنسيان والإكراه تقعيد مُعتبر، وهو: أن من عرف التوحيد والإيمان فتركه فهو كافر، ومن عرف الكفر والشرك وفعله فهو كافر أيضًا، إلاَّ من إكراه، فيرد عليه ما سبق. والله المستعان وعليه التكلان.

* * *

(١) من جامع العلوم والحكم، ص ٣٧٣ ــ ٣٧٧.

الفصل الخامس

في أنواع الكفر والظلم والفسق

وفيه أبان الحافظ ابن رجب انقسام هذه الألفاظ الثلاثة في الشريعة إلى نوعين:

١ ـ نوع أكبر ينقل عن الملة ويوجب الردة عنها.

٢ ـ نوع أصغر لا يخرج من الملة.

قرّر ذلك في شرحه لباب «ظلم دون ظلم» في الفتح من كتاب الإيمان من صحيح البخاري حيث قال في الفتح له ق ١٩٩، ٢٠٠:

«خرج البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود قال: لما نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، قال أصحاب رسول الله ﷺ: أينا لم يظلم نفسه؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣].

معنى هذا: أن الظلم يختلف:

فيه ظلم، ينقل عن الملة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة: ٢٥٤].

فإذًا: الظلم: وضع الشيء في غير موضعه، وأعظم ذلك: أن يوضع المخلوق في مقام الخالق ويجعل شريكًا له في الربوبية وفي الإلهية سبحانه وتعالى عما يشركون.

وأكثر ما يرد في القرآن وعيد الظالمين يراد به الكفار كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الشورى: ٤٤] ومثل هذا كثير.

ويراد بالظلم: ما لا ينقل عن الملة، كقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر: ٣٢]، وقوله: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وحديث ابن مسعود هذا صريح في أن المراد بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] أن الظلم هو الشرك. وجاء في بعض رواياته زيادة: قال: «**إنما هو الشرك**».

وروى حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس أن عمر بن الخطاب كان إذا دخل بيته نشر المصحف فقرأ، فدخل ذات يوم فقرأ فأتى على هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، فانتعل وأخذ رداءه ثم أتى أُبي بن كعب فقال: يا أبا المنذر! أتيت قبل على هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، وقد ترى أنا نظلم ونفعل، فقال: يا أمير المؤمنين! إن هذا ليس بذلك، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ

﴿ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣]، إنما ذلك الشرك. خرجه محمد بن نصرٍ المروزي.

وخرجه أيضًا من طريق حماد بن زيد، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب أن عمر أتى على هذه الآية، فذكره.

وحماد بن سلمة مقدم على حماد بن زيد في علي بن زيد خاصة.

وروى أيضًا بإسناده، عن سفيان، عن ابن جريج، عن عطاء قال: كفر دون كفر، وظلمٌ دون ظلم، وفسقٌ دون فسقٍ.

يعني: أن الفسق قد يكون ناقلاً عن الملة كما قال في حق إبليس ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ [الكهف: ٥٠]، وقال: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ [السجدة: ٢٠].

وقد لا يكون الفسق ناقلاً عن الملة كقوله تعالى: ﴿ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقوله في الذين يرمون المحصنات: ﴿ وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٤]، وقوله: ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وفسرت الصحابة الفسوق في الحج بالمعاصي كلها، ومنهم من خصها بما ينهى عنه في الإحرام خاصة.

وكذلك الشرك: منه ما ينقل عن الملة، واستعماله في ذلك كثير في الكتاب والسنة.

ومنه: ما لا ينقل، كما جاء في الحديث: «**من حلف بغير الله فقد**

أشرك»، وفي الحديث: «**الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل**»، وسمي الرياء: شركًا.

وتأول ابن عباس على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾ [يوسف: ١٠٦]، قال: إن أحدهم يشرك حتى يشرك بكلبه: لولا الكلب لسرقنا الليلة، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ۝١١٠﴾ [الكهف: ١١٠].

وقد روي أنها نزلت في الرياء في العمل.

وقيل للحسن: «يشرك بالله؟ قال: لا؛ ولكن أشرك بذلك العمل عملاً يريد به الله والناس، فذلك يرد عليه». اهـ.

وقال مثل ذلك على الكفر، وأن يكون كفر دون كفر.

* * *

الخاتمة

وبعد، فالحمد لله الذي وفَّق لإتمامه، بحسب الجهد والطاقة، مع وضوح التقصير فيه. أحمده حمد الشاكرين وحده سبحانه لا شريك له، وأستغفره عما فيه من الخطأ أو التقصير حمدًا يكافىء نعم ربي، ويوافي مزيده.

ولقد استفدتُ من خلال هذا البحث كثيرًا، فوقفت على شخصية جليلة القدر، رفيعة الشأن. شخصية عالم منافح عن عقيدته رباني له أثره في وقته وبعده، هو حافظ زمانه، وإمام من جاء بعده زين الدين عبد الرحمن بن رجب الحنبلي.

ولعدم الإسهاب والإطالة، أرتِّب النتائج التي توصلتُ إليها في البحث، وهي النتائج المجملة على النحو التالي:

١ ــ من خلال دراسة لسيرته الذاتية، تبيَّن لي إعراض الرجل عن الشهوات الدنيوية وهمّته في المقامات العلوية عند رب العالمين. كما لمستُ منه مشابهة السلف من قبله من الأئمة، زهد وعلم مجتمعان، مع تقوى لله وديانة على سنَّة رسول الله ﷺ.

٢ ــ سلوكه مسلك السلف في التعلُّم والتعليم بالرحلة إلى العلم والتدرُّج فيه بعد في الجلوس للتعليم، مع تصنيف المصنفات

لأهل زمانه ومن بعده نشرًا للعلم ودعوته إلى العقيدة والشريعة الصحيحة.

٣ ــ مكانته العلمية البارزة عند علماء الحنابلة والحديث فضلاً عن مكانته الرفيعة بين علماء السلف المتأخِّرين.

٤ ــ تأمَّلت القول في تصوُّفه، وما اتهم به، فوجدته التصوُّف العذري المعتدل، ــ إن صحَّ التعبير ــ وما هو إلَّا الزهد في الدنيا والإعراض عنها والإقبال عن الآخرة والارتباط بها، وما وجد في كلامه من ألفاظ التصوُّف ومصطلحاتهم وأحوالهم فهو محمول على أحسن محامله، وعلى التصوف المقبول المعتدل، وما هي إلا عبارات محتملة غالبًا.

٥ ــ أن مصادر تلقِّي العقيدة، والأحكام الشرعية عند ابن رجب هي الكتاب العزيز، والسنَّة المطهَّرة، والإجماع المؤيد بهما، وبالفطرة السليمة، وقد علمت كيف كان منهجه في الاستدلال منها مقدمًا للكتاب والسنَّة على الترتيب الذي ذكرته، جامعًا بينهما في الاستدلال، عاملاً بجميع الأدلة، غير مطرح لبعضها، مقدمًا فهم السلف الصالح وعلمهم على فهمه وفهم من بعدهم. فهو بهذا نهج منهج أهل الحديث، أهل السنَّة والجماعة.

٦ ــ كان يفهم تلك المصادر الأصلية بأقوال السلف الصالح من الصحابة والتابعين، أهل القرون المفضلة وأحوالهم، ففهمهم هو الفهم المقدم، وعلمهم هو العلم النافع دينًا ودُنيا وأُخرى، وأن طلب العلم والأحكام عند غيرهم، سبيل المضلين، المبتعدين عن جادة الرشاد.

٧ ـ تبيَّن لي موقف العقل ودوره عند الحافظ ابن رجب حيث كان يعول عليه وبه يفهم العقيدة، لكن لا يعول عليه في الاستدلال عليها، بمعنى لا يجعله مصدرًا يتلقى منه أمر المعتقد، بل كان عقله في فهم النصوص والأدلة الكونية العامّة وربطها بدلالات الوحي، فلم يتدخل بعقله ليعارض الوحي ودلالاته، أو يجعله محتجًّا به كنصوص الوحيين، أو يرد بالعقل ظواهر النصوص، ويصرفها إلى معاني بعيدة بحجة العقل وحده.

٨ ـ ربطه رحمه الله بين العلم والعمل، وهذا هو دين العلماء الربّانيِّين الراسخين في العلم، وهو منهجهم الناصح في كل التاريخ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الكهف: ١٠٧].

٩ ـ سلوكه مسلك السلف في بيان العقيدة بالأدلة وتأصيلها والرد على مخالفيها ومناقشتهم ورد باطلهم كما وضح هذا في موقفه من أهل الشرك والنفاق، ونقده لمناهج المتكلِّمين، وأهل الابتداع، والغلاة في الدين.

١٠ ـ ظهر لي أنَّ منهجه رحمه الله هو منهج السلف، الوسطية بين الناس الغالين والجافين في كل القضايا، وهو منهج نسبي في الحقيقة، كما ظهر أنَّ موقفه من المجاز يحتاج إلى تحرير، إذ بان لي أن يميل إلى أنه لا ينكر المجاز في اللغة، لكن هل يقر المجاز كما عند المتكلِّمين؟ الظاهر لي أنه ليس كذلك.

١١ ـ بقراءة كتبه وتحرير أقواله في العقيدة وجدته رحمه الله

سلفيًّا صرفًا وحديثيًّا مُحنكًا. فلم أجد له مسألة واحدة خالف فيها السلف أبدًا. وبهذا أقطع وأجزم من خلال التتبُّع والاستقراء لأكثر كتبه.

١٢ ــ أن القارىء لمؤلفات الحافظ ابن رجب، المتنوِّعة في فنون عديدة ليعيش في دوحة علم، بين قال الله وقال رسول الله ﷺ، وجاء عن أبي بكر، وورد عن عمر، ووقع لعثمان، ونقل عن علي، وعليه عمل فلان وفلان من الصحابة، ونقول عن كبار التابعين، وتابعيهم بإحسان، وأحوال أهل الصلاح والزهد والورع من كبار العلماء والعباد.

يقرأ ذلك في تناسق بديع، وتناسب عجيب بين الأقوال، وعرضها المتناسب لبعضها مع بعض، مع جودة التأليف بين الأقوال والمناقشة عليها، وسبك للعبارات والجمل، لأجل هذا ــ والله أعلم ــ ناسبت كُتُبُ الحافظ ورسائله عموم الناس، عامَّتهم وخاصَّتهم، علماءهم وطلّاب العلم منهم، وعوامهم.

١٣ ــ تميَّز الحافظ رحمه الله بسلامه صدره ــ كسلامة منهجه ــ في باب النقد والتعديل والتجريح للعلماء وغيرهم، واعتداله في الحكم على الناس، في انتهاج يماثل إلى حد كبير منهج الشيخين: ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله، بعيدًا عن الأحقاد والأغراض والهوى، انتهاج تحدوه الديانة لله في القول والفعل، فالمدح والثناء لأجل الديانة والتمسُّك بالسنَّة والذبّ عنها، وتحمل العلم والانتساب إليه حقًّا، والنقد والتجريح لمباينة ذلك، لا سيَّما عند مخالفة السنة أو البعد عن أصولها تجهُّمًا أو اعتزالاً أو رفضًا أو تمشعرًا.. منهج يقوم

على العلم الراسخ، والإنصاف الحق، والعدل المبني على التثبُّت والديانة لا على الهوى والخيانة أو الإرجاف والسذاجة، فلِلَّـهِ درُّ العالم الربّاني المتتبّع لِأُصول الصديق الثاني، رضي الله عن الجميع.

١٤ ــ أيضًا لا يفوتني الإشادة بالسمات الشخصية للحافظ ابن رجب وشخصيته العلمية، والتي اتَّسمت بالأمانة العلمية، والتجرُّد لطلب الحقيقة، والبحث عن القول المدلل بأدلة الوحيين، وحسن مناقشته للأقوال المخالفة للدليل اجتهادًا، وتأدُّبه مع أصحابه، واستصحابه لحسن النية والظن بهم، والترحُّم عليه والدعاء لهم.

كذا عدم التعصُّب لرأيه أو لقول شيخه، أو من ينقل عنه، وتظهر عنايته بالحديث وتخريجه، والكلام على الروايات صحةً وضعفًا، تخريجًا وتعليلاً واستنباطًا، حتى ربما غلب عليه ذلك في البحث، فكأنك أمام مؤلف في الحديث وصناعته.

١٥ ــ وإن أهم ما أؤكد عليه: العناية بقراءة ودراسة وتفهم وتعقُّل مؤلفات هذا الجهبذ: الحافظ ابن رجب، والإفادة منها علمًا وزكاة للقلب.

وبعد، فإني أوصي إخواني وأساتذتي والباحثين طلّاب العلم بالاهتمام بدراسة مناهج الأئمة من السلف الصالح؛ للتعرُّف على مناهجهم وطرائقهم وجهودهم وأحوالهم المشرفة في تمثيل العقيدة الإسلامية بأنفسهم قبل دعوتهم إليها، ولأجل ذلك كانوا ملوك الدنيا، وأوصيهم بالاهتمام بهذا العلم الرباني، ولا يغررهم كونه مجهول القدر، قليل الذكر كما أوصي بإخراج باقي كتبه، والتي لم تزل حبيسة

الخزائن والرفوف، والتي حوت علمًا عظيمًا ونقولاً عن السلف فريدة، كفتح الباري، وعند الهمة في إخراجها أن تخرج بثوب قشيب يؤدي الغرض من إخراجها والانتفاع بها، وتقريبها إلى الناس كلهم عامَّتهم وخاصَّتهم بما يناسب الجميع من إفراد لرسائله العامّة، وجمعها للخاصّة.

وأخيرًا، أقول إنَّ شخصيَّة الحافظ ابن رجب ومنهجه في العقيدة، تحتاج إلى جهد أكبر من هذا؛ لانغلاق كثير من القضايا على مثلي، فيا ليت باحثينا الأكفاء يلتفتون إلى هذا، وهذه الدراسة خطوة على هذا الطريق ولم تتم بالمقصود.

هذا ما لزم التنويه إليه عند خاتمة البحث مع اعتراف بالتقصير، لكن هذا ما قدَّمت يداي. ألله أسأل التوفيق والسداد، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾.

* * *

قائمة المصادر والمراجع[1]

أولاً ــ مؤلفات ابن رجب الحنبلي:

* اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى: ت بشير عيون، مكتبة دار البيان بدمشق ١٤٠٥هـ.

* أحكام الخواتم وما يتعلق بها: ت د. محمد الوائلي، الطبعة الأولى عام ١٤٠٧هـ بمطابع الرشيد بالمدينة.

* الاستخراج لأحكام الخراج: ت جندي الهيتي، مكتبة الرشد بالرياض ١٤٠٩هـ.

* استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس: مخطوط، والمطبوع: ت مجدي قاسم، نشر دار الصحابة بطنطا، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

* أهوال القبور وأحوال أهلها إلى النشور: ت بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية بلبنان ١٤٠٥هـ.

* البشارة العظمى للمؤمن بأن حظّه من النار الحمى: **مخطوط**.

(١) هذه المصادر هي المحال إليها في حواشي الكتاب وجوفه فقط، وما سواه ضرب الذكر عنه صفحًا، وهي مرتبة على الحروف في الجملة، وما كان من مخطوطات ابن رجب فيرمز لها بمخطوط وتفاصيله في مبحث مؤلفاته.

* تحقيق كلمة الإخلاص: ت د. أسامة حمزة، دار الفتح، الطبعة الثانية عام ١٤٠٤هـ.

وللكتاب طبعة بخدمة زهير الشاويش وتخريج الألباني في المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة ١٣٩٧هـ.

وثالثة ضمن مجموع رسائل ابن رجب، جمع عادل الغزازي، نشر مكتبة التربية الإسلامية بالقاهرة عام ١٤١٢هـ، والإحالة على النشرة الأولى.

* التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار: ت بشير عيون، دار البيان، الطبعة الثانية عام ١٤٠٩هـ.

* تسلية نفوس الآباء والرجال عند فَقْد الأطفال: ت الوليد الفريان، بمجلة البحوث الإسلامية الصادرة عن أمانة هيئة كبار العلماء بالرياض، عدد رقم ٢٣.

* تفسير سورة الإخلاص: ت محمد العجمي، الدار السلفية، طبعة ١٤٠٧هـ بالكويت، الطبعة الأولى.

* تفسير سورة النصر: ت محمد العجمي، الدار السلفية، طبعة ١٤٠٧هـ بالكويت، الطبعة الأولى.

* تفسير سورة الفلق: **مخطوط**.

* تعليق الطلاق بالولادة: **مخطوط**.

* جامع العلوم والحكم: نشر مكتبة طيبة بالمدينة سنة ١٤٠٨هـ.

* الحكم الجديرة بالإذاعة من قول النبي ﷺ «بعثت بالسيف بين يدي الساعة»: ت زهير الشاويش، المكتب الإسلامي بلبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.

* الخشوع في الصلاة: ت محمد عفيفي، مكتبة الحرمين بالرياض عام ١٤٠٠هـ، وله عدَّة طبعات.

* ذمّ الخمر وشاربها: **مخطوط**.

* ذمّ قسوة القلوب: **مخطوط**.

* الذلّ والانكسار للعزيز الجبار: هو الخشوع في الصلاة.

* الذيل على طبقات الحنابلة: ت محمد حامد الفقي، تصوير دار المعرفة بلبنان.

* الرد على من اتَّبع غير المذاهب الأربعة: ت الوليد الفريان، دار عالم الفوائد بمكة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

* رسالة في رؤية الهلال: ت عبد الله الرشيد، مكتبة الكوثر بالرياض ١٤١٢هـ.

* رسالة في بيان صدقة السر وفضلها: ت الوليد الفريان، بمجلة عالم الكتب، المجلد السابع، العدد الأول، ص ٥٨.

* رسالة في تعليق الطلاق بالولادة: تعليق الطلاق بالولادة (**مخطوط**).

* رسالة في فضيلة شهر رجب: **مخطوط**.

* رسالة في معنى العلم وأقسامه وأنواعه = فضل علم السلف على الخلف.

* سيرة عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز، ومختصر سيرة عمر بن عبد العزيز: طبعة مطابع الرياض بالسعودية، غير مؤرَّخة، الطبعة الأولى، القديمة.

* شرح المحرر: لابن عبد الهادي، **مخطوط**.

* شرح حديث أبـي أمامة «إن أغبط أوليائي»: **مخطوط**.

* شرح حديث أبـي الدرداء «من سلك طريقًا..»: **مخطوط**.

* شرح حديث شداد بن أوس «إذا أكنز الذهب والفضة»: **مخطوط**.

* شرح حديث زيد بن ثابت «لبَّيك اللَّـهُمَّ لبَّيك»: **مخطوط**.

والمطبوع ت وليد الفريان، دار عالم الفوائد، بمكة، ط أولى.

* شرح حديث عمّار بن ياسر «اللَّـٰهُمَّ بعلمك الغيب»: ت إبراهيم العرف، مكتبة السوادي بجدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

* شرح حديث «ما ذئبان جائعان»: ت بدر البدر، الدار السلفية بالكويت ١٤٠١هـ.

* شرح حديث «مثل الإسلام الذي ضرب النبـي عليه الصلاة والسلام»: **مخطوط**.

والمطبوع، ت الوليد الفريان، دار عالم الفوائد بمكة، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

* يتبع الميت ثلاث: الفريان والحمدان، دار طيبة بالرياض ١٤٠٨هـ.

* شرح علل الترمذي: ت السامرائي، عالم الكويت، ١٤٠٥هـ. وهناك طبعة د. همام سعيد، وطبعة أخرى د. نور الدين العتر.

* غاية النفع شرح حديث تمثيل المؤمن بخامة الزرع: ت إبراهيم العرف، مكتبة السوادي بحمده ١٤٠٨هـ.

* فائدة لابن رجب: **مخطوط**.

* فتح الباري شرح صحيح البخاري: **مخطوط**.

والمطبوع، ت مجموعة، نشر مكتبة الغرباء بالمدينة، ط ١، ١٤١٨هـ.

وطبعة ثانية بمكتبة ابن الجوزي بالدمام، ط أولى عام ١٤١٧هـ، طارق بن عوض الله.

* الفرق بين النصيحة والتعيير: ت نجم خلف، دار المأمون للتراث بدمشق، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ، وطبعة علي حسن عبد الحميد بدار عمار.

* فصل في وجوب إخراج الزكاة على الفور: ت الوليد الفريان بمجلة البحوث الإسلامية، بدار الإفتاء بالرياض، عدد ٣٣.

* فضل صدقة السر = رسالة في بيان صدقة السر وفضلها.

* فضل علم السلف على الخلف: ت محمد العجمي، الدار السلفية بالكويت، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ،

وطبعة علي حسن عبد الحميد بدار عمار.

* قاعدة في رؤية الهلال = رسالة في رؤية الهلال.

* قطعة من شرح الترمذي: **مخطوط**.

* قواعد الفقه الإسلامي أو القواعد الفقهية: ت طـه عبد الرؤوف، طبعة سنة ١٤٠٨هـ، تصوير دار أم القرى بالقاهرة ــ ونسخ منه مخطوط.

* القول الصواب في تزويج أمهات الأولاد: ت د. عبد الله الطريقي، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

* كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة: ت محمد عبد العزيز، المكتبة القيِّمة بالسودان سنة ١٩٨٢م.

* كفاية الشام = فضائل الشام بمن فيها من الأعلام ــ **مخطوط**.

* الكلام على قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾: ت قسم التحقيق بدار الصحابة بطنطا، ط ٢، عام ١٤١٢هـ.

* لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف: ياسين السواس، دار ابن كثير بدمشق، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

* المحجَّة في سير الدلجة: ت يحيـى غزاوي، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الثالثة ــ بيروت عام ١٤٠٩هـ.

* معاملة الظالم السارق عند أهل المعرفة والحقائق: ت الوليد الفريان بمجلة البحوث الإسلامية بدار الإفتاء، عدد ١٦.

مقدمة تشتمل على أن جميع الرسل كان دينهم الإسلام = ت قسم التحقيق بدار الصحابة، طنطا ط ١، ١٤١١هـ، وربما تكون تقدمة لحاشيته على مشيخة والده الشهاب أحمد بن رجب.

* نزهة الأسماع في مسألة السماع: ت العسلي والحداد، دار العاصمة بالرياض عام ١٤٠٧هـ، الطبعة الأولى.

* نور الاقتباس من مشكاة وصية النبـي لابن عباس، ت عز الدين النجار، دار المدني بجدة.

ثانيًا ــ المصادر العامة الأخرى:

* ابن الحنبلي وكتابه «الرسالة الواضحة» علي بن عبد العزيز الشبل، أطروحة عالمية «ماجستير» ط أولى، مجموعة التحف النفائس الدولية، بالرياض ١٤٢٠هـ.

* ابن رجب الحنبلي وآثاره الفقهية: د. أمينة جابر، الدوحة، دار قطرى بن الفجاءة، طبعة ١٤٠٥هـ.

* ابن رجب وجهوده في توضيح العقيدة: د. عبد الله الغفيلي، أطروحة دكتوراه بالجامعة الإسلامية بالمدينة.

* الإحكام في أصول الأحكام: لابن حزم، دار الكتب العلمية بلبنان.

* إتحاف السادة المتقين شرح إحياء علوم الدين = للزبيدي، تصوير عن الطبعة الأولى.

* الأسرار المرفوعة في الأحاديث الموضوعة = لعلي ملا القاري، مؤسسة الرسالة ــ بيروت.

* الأسماء والصفات: للبيهقي، ت عبد الله الحاشدي، مكتبة السوادي بجدة.

* الاعتقاد والصفات: للبيهقي، دار الكتب العلمية.

* إشارة التعيين في تراجم النحويين: عبد الباقي اليماني، د. عبد المجيد ذياب، نشر مركز الملك فيصل بالرياض ١٤٠٩هـ.

* الإعلام: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة عام ١٣٩٩هـ.
* الإفصاح عن معاني الصحاح: لابن هبيرة، المطبوعة: مجلدان بمصر، ومجلدان بقطر رئاسة المحاكم القطرية، والمخطوطات منه في ثنايا البحث عند الكلام على الذيل على طبقات الحنابلة.
* الأمالي العشرون، لابن سمعون الواعظ (٣٨٣) **مخطوط**، وهو موجود في المكتبة الظاهرية بالشام.
ـ برقم مجموع ١١٧/ ٩ (١٦٦ ـ ٢٠٤) في ٣٧ ورقة.
ـ وضمن مجموع ٣٠/ ٣ (٤٦ ـ ٦٦).
ـ وضمن مجموع ١٧/ ٧ (٣٩ ـ ٦٩)، والمجموع ١٨/ ١٨ (١٧٩ ـ ١٩٧).

وله صورة فلمية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية برقم (٢٠٣٠).

وهو الذي رواه الحافظ ابن رجب وسمعه من شيخه ابن أبي الفضل بن الحموي (٧٥٨هـ).
* إنباه الرواة عن أنباء النحاة: للقفطي، ت محمد أبو الفضل إبراهيم ـ القاهرة ١٩٥٠م.
* إنباه الغمر بأنباء العصر: ابن حجر، ت حسن حبش ـ القاهرة ١٣٨٩هـ.
* البداية والنهاية: لابن كثير، دار الكتب العلمية عام ١٤٠٥هـ.

وتصوير مكتبة المعارف عن مطبوعة مصر.
* البدر الطالع بمحاسن القرن التاسع: للشوكاني، مطبعة السعادة بمصر، الطبعة الأولى ١٣٤٨هـ، وما صُوِّر عنها.
* بروكلمان، تاريخ الأدب العربي: طبعة مترجمة لثلثه، والأصل بالألمانية في ستَّة مجلدات، ثلاثة مجلدات أصل وثلاثة ملاحق.

* البلغة في تراجم أئمة اللغة: للفيروزآبادي، ت محمد المصري، دمشق ١٩٧٢م.

* التاج المكلَّل: صديق حسن خان، طبعة الهند على نفقة آل ثاني عام ١٣٨٢هـ.

* تاريخ الإسلام: للذهبي، ت عمر تدمري، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، لبنان.

* تاريخ بغداد: للخطيب البغدادي، تصوير دار الفكر عن الطبعة الأولى.

* تاريخ ابن قاضي شهبة، ت عدنان درويش، نشر المعهد الفرنسي العالمي بالشام، ط ١، ١٩٩٤م.

* تاريخ الصالحية = القلائد الجوهرية: لابن طولون.

* التبيان شرح بديعة البيان: ابن ناصر الدين، **مخطوطة** بمكتبة عارف حكمت رقم ٥٠/ ٩٠٠.

* تحريم النظر في علم الكلام: ابن قدامة، حققها جورج مقدسي بالمعهد الفرنسي بسورية سنة ١٩٥٦م.

* التدمرية: ابن تيمية، ت محمد السعوي، شركة العبيكان عام ١٤٠٥هـ.

* تذكرة الموضوعات: للفتني الهندي، نشره عبد الجليل السامرودي، وما صور عنها.

* الترغيب والترهيب: للمنذري، تصوير عن طبعة مصطفى الحلبي بمصر.

* تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، تصوير دار المعرفة بلبنان.

* تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد: للبيجوري، دار الكتب العلمية ١٤٠٣هـ.

* التلخيص الحبير: لابن حجر، ت شعبان إسماعيل، مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٩٩هـ.

* التنبيه والإيقاظ لما في ذيول تذكرة الحفاظ: للحسيمي الطهطاوي، مطبوع بآخر ذيول التذكرة، دار إحياء التراث.

* تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة والموضوعة: لابن عراق الكناني، تصوير لبنان عن طبعة عاطف بمصر.

* توبة ابن عقيل = ضمن تحريم النظر في علم الكلام للموفق ابن قدامة.

* تيسير العزيز الحميد: سليمان آل الشيخ، المكتب الإسلامي ـ لبنان.

* الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام: لابن طولون الشافعي الدمشقي، ت محمود دهمان، ط ٢، ١٤٠١هـ، دمشق.

* جامع الإمام الترمذي: ت محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتاب العربي ـ لبنان.

* جامع بيان العلم وفضله: ابن عبد البر، تصوير دار الفكر العربي.

* جامع التحصيل في أحكام المراسيل: للحافظ العلائي، ت حمدي السلفي، عالم الكتب، ط ٢، ١٤٠٧هـ.

* الجامع الصحيح: للإمام الترمذي، ت محمد فؤاد عبد الباقي، وأحمد شاكر، تصوير دار الكتب العلمية، بيروت.

* الجامع الصغير: للسيوطي، دار الفكر، لبنان، طبعة رابعة.

* الجوهر المنضد في طبقات متأخِّري المذهب: ابن عبد الهادي (هو ذيل ابن عبد الهادي على طبقات ابن رجب: مراجعة محمود الحداد)، دار العاصمة ١٤٠٨هـ.

* جزء في إثبات الحرف والصوت والقرآن والردّ على الأشاعرة: لابن عقيل، نشره جورج مقدسي في مجلة المعهد الفرنسي، عدد ٢٤ (٥٥ ـ ٩١)، وعندي صورة مخطوطة من الرسالة عن الظاهرية.

* حلية الأولياء: لأبـي نعيم، الطبعة المشهورة ومصوراتها ــ بيروت، لبنان.

* خطط الشام: محمد كردعلي، دار العلم للملايين عام ١٣٨٩هـ.

* الـدارس فـي تـاريـخ المـدارس: للنعيمـي، ت جعفـر الحسيـن، مجمـع اللغـة بدمشق سنة ١٩٤٨م.

* الدر المنضد في أسماء كتب مذهب الإمام أحمد: عبد الله بن علي بن حميد، ت جاسم الفهيد، دار البشائر ــ لبنان.

* الدرر الكامنة في أعيان المائة الثانية: لابن حجر، مجلس دائرة المعارف العثمانية في الهند سنة ١٣٤٩هـ.

* الدليل الشافي على المنهل الصافي: ابن تغري بردي، ت فهيم شلتوت، طبع مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى بمكة.

* درء تعارض العقل والنقل: ابن تيمية، ت محمد رشاد، طبع جامعة الإمام بالرياض ١٤٠١هـ.

* ذيل التذكرة: السيوطي = هو ذيل طبقات الحفاظ للذهبـي: ت الكوثري، دمشق ١٣٤٧هـ.

* ذيل التقييد في رواة السنن والمسانيد: للتقي الفاسي، ت كمال الحوت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٠هـ.

* الرد الوافر: لابن ناصر الدين، ت زهير الشاويش، المكتب الإسلامي ١٣٩٣هـ.

* الرد على المبتدعة: أبو الحسن ابن البنا الحنبلي، **مخطوط** عن دار الكتب الظاهرية.

* الـرسـالـة الـواضحـة: عبـد الـوهـاب ابـن الحنبلـي، **مخطـوط** عـن دار الكتـب الظاهرية.

* الرسالة المستطرفة: للكناني، دار الفكر، الطبعة الثالثة ١٣٨٣هـ.

* الرعاية الصغرى: لابن حمدان الحنبلي، **مخطوطة** أصلية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

* الرعاية الكبرى: لابن حمدان الحنبلي مخطوطة أصلية بمكتبة تشرين لها صور بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية رقم (٣٥٤١) فلم.

* الروح: لابن القيم، ت بسام العموس، مكتبة ابن تيمية، طبعة أولى.

* روضة المحبين: لابن القيم، دار الكتاب العربي ــ لبنان، بيروت.

* الزبد في الأصول لطالب الوصول: لابن رجب الطوفي، **مخطوط** عن تشستربتي بدبلن.

* السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة: لابن حميد، مكتبة الإمام أحمد بمكة ١٤٠٨هـ.

* السنن: لابن ماجه، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي.

* السنن: لأبي داود، ت محمد محيي الدين عبد الحميد، طبعة بيروت.

* سنن النسائي (بحاشية السيوطي والسندي): تصوير دار المعرفة ــ بيروت.

* السنن الكبرى: البيهقي، تصوير دار الفكر ــ بيروت.

* سِيَر أعلام النبلاء: للذهبي، ت جماعة من المحققين، مؤسسة الرسالة بلبنان.

* الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية: مرعي الكرمي، ت نجم خلف، دار الفرقان، الطبعة الرابعة سنة ١٤٠٤هـ.

* شذرات الذهب: لابن العماد الحنبلي، تصوير لبنان ــ بيروت.

* شرح السنّة: للبغوي، ت شعيب الأرناؤوط، المكتب الإسلامي ــ لبنان.

* صلة الخلف بموصول السلف: للردواني، المطبوع ضمن مجلة معهد المخطوطات العربية، عدد ٢٦ ــ ٢٩، ومخطوطته في مكتبة الحرم المكي.

* صحيح البخاري: ترقيم البغا، دار ابن كثير واليمامة بالشام.

* صحيح مسلم: محمد فؤاد عبد الباقي، تصوير لبنان.

* صحيح ابن حبان ضمن الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان: ت كمال الحوت، دار الكتب العلمية سنة ١٤٠٧هـ.

* صحيح الجامع الصغير: الألباني، المكتب الإسلامي بلبنان.

* الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة: لابن القيم، ت علي الدخيل الله، دار العاصمة بالرياض، طبعة أولى.

* طبقات الحفاظ: للسيوطي، ت علي عمر، مكتبة وهبة بمصر ١٣٩٣هـ.

* طبقات القرّاء: لابن الجزري، ت مستشرق ــ القاهرة ١٩٣٢م.

* طبقات الشافعية: لابن كثير، طبعة مصر الحديثة.

* طبقات الشافعية: لعبد الرحمن الأسنوي، ت الجبوري، بغداد ١٣٩١هـ.

* طبقات الشافعية الكبرى: للسبكي، ت الطناحي والحلو، طبع عيسى البابي بمصر سنة ١٣٨٣هـ.

* طبقات الشافعية الكبرى: لابن هداية الله، ت عادل نويهض، لبنان ١٩٧٩م.

* طبقات المعتزلة= فرق وطبقات المعتزلة.

* العصر المماليكي في مصر والشام: سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية بمصر، الطبعة الثانية سنة ١٩٧٦م.

* العلل في الحديث ــ دراسة منهجية: د. همام سعيد، دار العدوي بعمان ١٤٠٠هـ.

* العقود الدرية في مناقب ابن تيمية: لابن عبد الهادي، تصوير مطبعة المدني.
* فرق وطبقات المعتزلة: عبد الجبار الهمداني، دار المطبوعات الجامعية، ت علي النشار وعصام علي ــ الإسكندرية.
* فهرس الفهارس والأثبات: للكتاني، عناية إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي.
* فيض القدير: للمناوي، تصوير بيروت ــ لبنان عن الطبعة المصرية.
* القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحين: لابن طولون (٩٥٣هـ)، ت أحمد دهمان، طبعة دمشق ١٩٤٩م.
* قضاة دمشق: الثغر البسام... لابن طولون.
* قواعد التحديث: للقاسمي، ت بهجت البيطار، دار إحياء الكتب العربية ــ لبنان.
* القواعد الأصولية: لابن اللحام، ت حامد الفقي، طبع مطبعة أنصار السنَّة بمصر، ونسخة خطية بالمكتبة المحمودية بالمدينة.
* الكامل في التاريخ لابن الأثير، مكتبة دار التراث ــ بيروت.
* الكامل في الضعفاء: لابن عدي، تصوير دار الفكر بيروت، لبنان.
* كتاب التوحيد: للشيخ محمد بن عبد الوهاب، ومعه: القول السديد، لابن سعدي.
* كتاب السنَّة: لابن أبي عاصم، تخريج الألباني، المكتب الإسلامي ــ لبنان.
* كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون: لحاجي خليفة، وكالة المصرف الجليلة سنة ١٣٦٠هـ.
* كشف الخفاء ومزيل الإلباس: للعجلوني، دار إحياء التراث ــ لبنان.
* لسان الميزان: للحافظ ابن حجر، تصوير بيروت، عن طبعة دائرة المعارف العثمانية بالهند ــ الدكن.

* اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة للسيوطي، واسم الكتاب العربـي، بمصر.
* لوامع الأنوار البهية: للسفاريني مع حواشي أبا بطين وابن سحمان، طُبع على نفقة آل ثاني.
* المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين: لابن حبان، ت إبراهيم زايد، دار المعرفة بيروت.
* مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: للهيثمي، مكتبة المعارف ــ بيروت.
* المجمع المؤسس للمعجم المفهرس: للحافظ ابن حجر، ت عبد الرحمن مرعشلي، دار المعرفة ط أولى ١٤١٦هـ.
* مجموع فتاوى ابن تيمية: جمع ابني قاسم، طبعة الملك فهد بمصر.
* المحلى: لابن حزم، ت أحمد شاكر، إدارة الطباعة المنيرية بمصر **١٣٤٧**هـ.
* مختصر طبقات الحنابلة: للشطي، بمطبعة الترقي بدمشق عام **١٣٣٩**هـ.
* مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة: للموصلي، دار الكتب العلمية.
* المختار في أصول السنَّة: لابن البناء، نسخة **مخطوطة** عن دار الكتب الظاهرية، أو المطبوعة، تحقيق عبد الرزاق البدر، مكتبة العلوم والحكم بالمدينة.
* مسند الإمام أحمد: تصوير بيروت عن طبعة الميمينة بمصر.
* المستدرك على الصحيحين: للحاكم، دار المعرفة ــ بيروت.
* مسائل صالح عن أبيه الإمام أحمد: **مخطوط** دار الكتب المصرية، والمطبوعة بتحقيق محمد فضل الرحمن، الدار العلمية بالهند.
* مسائل ابن هانىء: ت زهير الشاويش، المكتب الإسلامي.

* مسائل ابن داود: ت رشيد رضا، صورة عن طبعة المنار.
* مسائل عبد الله: ت علي المهنا، مكتبة الدار بالمدينة.
* مسائل البغوي: ت عمر عبد المنعم، مؤسسة قرطبة، وأخرى ت الحداد بدار العاصمة بالرياض.
* المسائل التي حلف عليها أحمد: لأبي يعلى، ت الحداد، دار العاصمة بالرياض.
* المسائل: لغلام الخلال عبد العزيز بن جعفر، ت محمد زهيران، نشر المكتب الإسلامي بلبنان.
* المسائل: رواية الكوسج، محقق رسائل ماجستير ودكتوراه بالجامعة الإسلامية بالمدينة. **والمخطوطة** عن الظاهرية ودار الكتب المصرية.
* مشكاة المصابيح: للخطيب التبريزي، ت الألباني، المكتب الإسلامي.
* المعجم المختص: للذهبي مصورة عن مخطوطة دار الكتب المصرية بمصر.
* المغني عن حمل الأسفار: للعراقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر.
* المغني في الضعفاء: للذهبي، ت نور عتر، دار المعارف ــ دمشق ط أولى ١٣٩١هـ.
* معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة ــ لبنان عام ١٤١٤هـ.
* معجم المؤرِّخين الدمشقيين: صلاح الدين المنجد، دار إحياء الكتاب الجديد عام ١٣٩٨هـ.
* مراتب النحويِّين: الطيب اللغوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٥٥م.
* معجم الأدباء: ياقوت الحموي، نشر أحمد فريد رفاعي بمصر ١٩٣٦م.
* المقاصد الحسنة: للسخاوي، ت عبد الله الصديق وعبد الوهاب عبد اللطيف، الخانجي بمصر.

* المقصد الأرشد: لابن مفلح، **مخطوط** بمكتبة عارف حكمت رقم ٢٢٣٨ في ثلاثة مجلدات.

* ومنه مصورة لبنان، والمطبوعة بمكتبة الرشد بالرياض، ت عبد الرحمن العثيمين، ط أولى.

* من ذيول العبر: للذهبي والحسيني، ت رشاد عبد المطلب، ط ١، بالكويت ١٩٧٠م.

* منادمة الأطلال: لابن بدران، طبعة المكتب الإسلامي، على نفقة آل ثاني.

* المنتظم في تاريخ الأمم والملوك: لابن الجوزي، تصوير لبنان، عن طبعة الدكن ــ بالهند.

* المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي: ابن تغري بردي، **مخطوط** عارف حكمت، ٣ مجلدات رقم ٢٣٧ ــ ٢٣٩/ ٩٠٠.

* المنهج الأحمد للعليمي في تراجم أصحاب أحمد: ت محيي الدين عبد الحميد، مصر ١٩٦٥م. ومصورة عن الأصل **المخطوط** بمكتبة الدولة برلين ــ ألمانيا.

* مؤلفات ابن الجوزي: عبد الحميد عجلوني، جمعية إحياء التراث الإسلامي بالكويت.

* ميزان الاعتدال في نقد الرجال: للذهبي، ت علي البيجاوي، عيسى البابي الحلبي، ١٣٨٢هـ، وما صور عنها.

* هدية العارفين: إسماعيل باشا، طبعة استانبول عام ١٩٥١م.

* الوافي بالوفيات: الخليل الصفدي، ت جماعة من المستشرقين الألمانية، سلسلة النشرات الإسلامية، بيروت، ١٩٦٢م.

* وجيز الكلام في الذيل على تاريخ الإسلام: للسخاوي ت مجموعة، طبعة أولى، ١٤١٥هـ.

* الـورع الإمـام أحمـد: لأبــي بكـر الخـلاَّل، ت محمـد زغلـول، دار الكتـاب العربـي ــ لبنان.

* الوفيات: لمحمد بن رافع السلامي، ت صالح مهدي عباس، نشر مؤسسة الرسالة عام ١٤٠٢هـ.

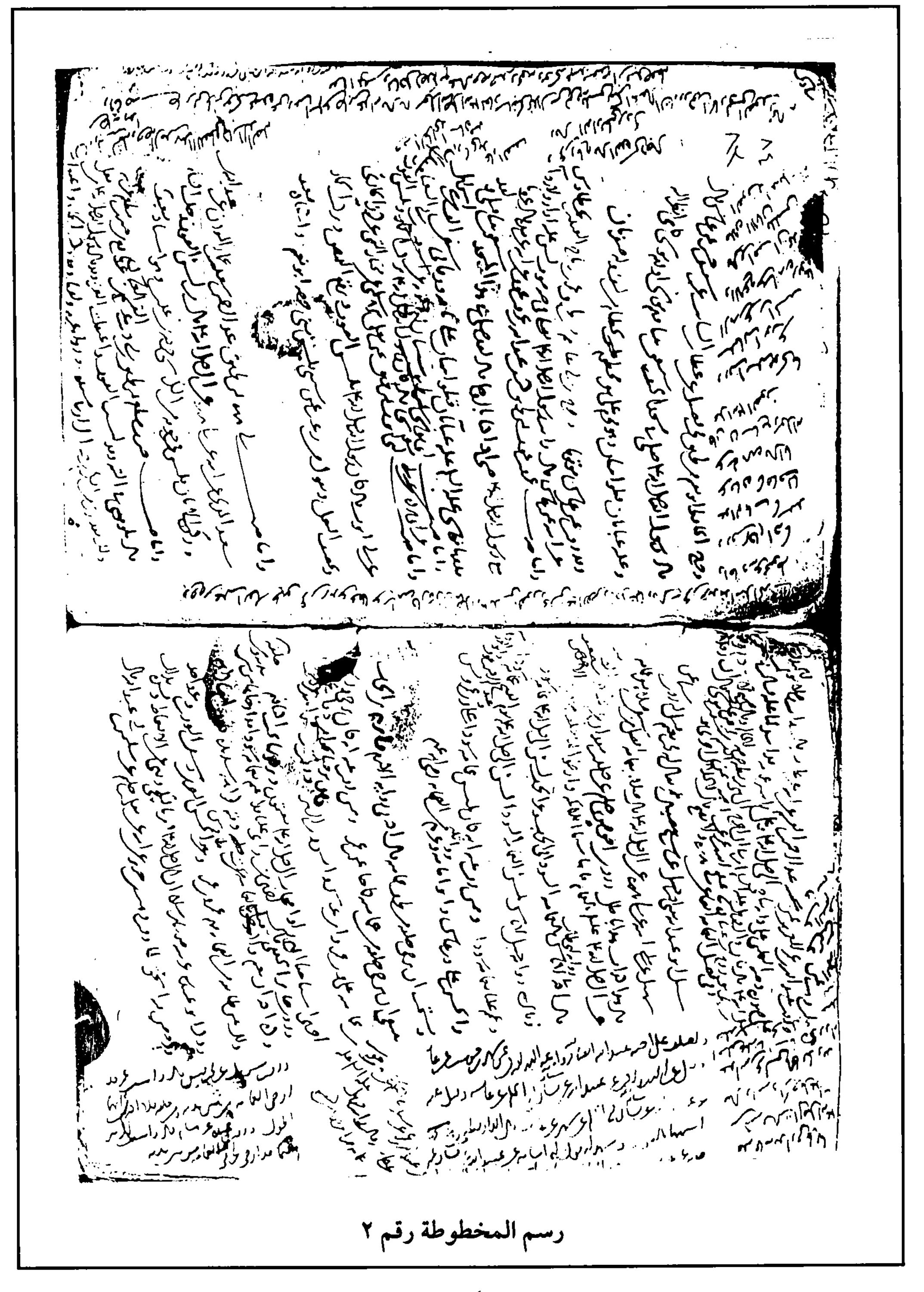
* * *

ملحق رقم [١]

بخط الحافظ ابن رجب الحنبلي

على القطعة الموجودة من شرحه لجامع الترمذي

رسم المخطوطة رقم ١



رسم المخطوطة رقم ٢

رسم المخطوطة رقم ٣

رسم المخطوطة رقم ٤

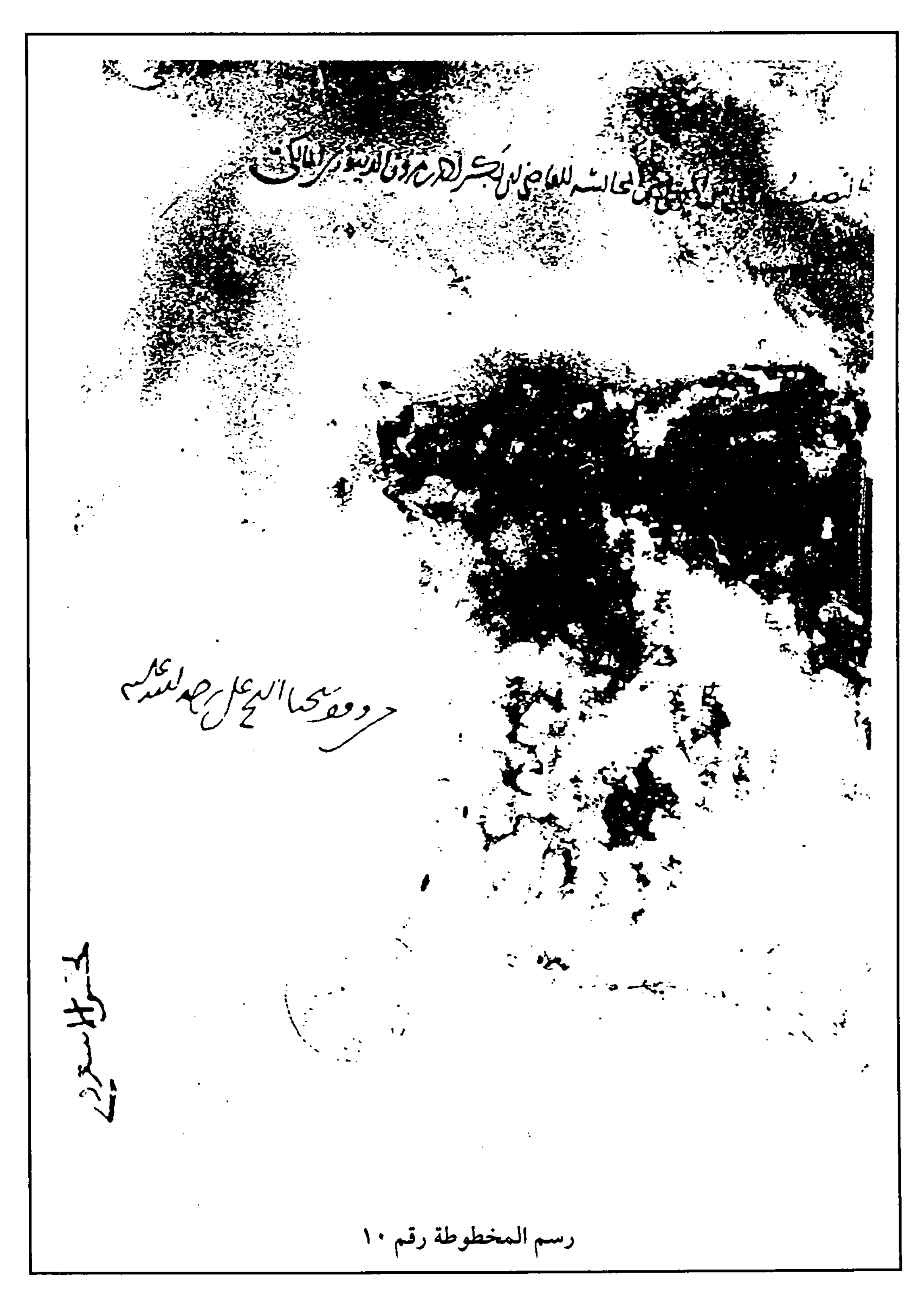
رسم المخطوطة رقم ٥

رسم المخطوطة رقم ٦

رسم المخطوطة رقم ٧

رسم المخطوطة رقم ٨

رسم المخطوطة رقم ٩



رسم المخطوطة رقم ١٠

ملحق رقم [٢]

آخر صفحة من الكلام على قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾

فيلزم حينئذ ان ينفي العلم ويثبت الجهل عند انتفا فايدة العلم ومقتضا
وهو اتباعه ومن هذا الباب قوله تعالى واذا خاطبهم الجاهلون قالوا
وقول النبي صلى الله عليه وسلم اذا كان احدكم صايما فلا يرفث ولا يجهل فان
امرؤ شاتمه او قاتله فليقل اني امرؤ صايم وهذا كما يوصفا
من لا يسمع بسمعه وبصره وعقله في معرفة الحق والانقياد له بانه
اصم ابكم اعمى قال تعالى صم بكم عمي فهم لا يعقلون ويقال
ايضا انه لا يسمع ولا يبصر ولا يعقل كما قال تعالى ولقد ذرانا لجهنم كثيرا
من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم
اذان لا يسمعون بها اوليك كالانعام بل هم اضل اوليك هم الغافلون
فسلب العلم والعقل والسمع والبصر واثبات الجهل والبكم والصمم
والعمي في حق من فقد حقايق هذه الصفات وفوايدها من الكفار والمنافقين
او من شر منهم في العصر كله من باب واحد وهو سلب اسم الشيء او
مسماه لانتفاء مقصوده وفايدته وان كان موجودا وهو باب واسع
وامثلته كثيرة في الكتاب والسنة ○ انتهى ما ذكره الشيخ نفع الله به
ونسخ من ملتة ○ نقل من نسخة مكتوب عليها ما صورته

بلغ مقابلة على اصل وهو مسودة كاتبه وصاحبه العلامة الفاضل الاوحد المشتغل
المحصل تقي الدين ابو الحسن محمد بن الشيخ الامام العارف ابي محمد عبد القادر بن محمد بن علي
ابن الجبار الدين الحنبلي نفعه الله ونفع به في ... ...
بظاهر دمشق المحروس واجزت له ما يجوز لي ... ... عبد الله بن ... ...
الحنبلي عفا الله عنه ○

غ منقولة

رسم المخطوطة رقم ١

ملحق رقم [٣]

صور أصول التقاريظ على الكتاب
المسطورة في أوله

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية

الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد

الرقم : ....

التاريخ : ....

المرفقات : ....

الموضوع : ....

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين وبعد:

فقد قرأت الكتاب المسمى: منهج الحافظ ابن رجب الحنبلي في العقيدة لمؤلفه الشيخ: علي بن عبد العزيز بن علي الشبل فوجدته كتابا قيما في موضوعه حيث تكلم عن شخصية علمية فذة مبينا سيرته وآثاره العلمية وما له من إسهام عظيم في مجال توضيح عقيدة السلف الصالح والدعوة إليها والرد على أعدائها والمخالفين لها. وعسى أن يتخذ الدعاة في العصر الحاضر من هذا الإمام الجليل قدوة صالحة لهم في منهج الدعوة بدلا من السير وراء المناهج الفكرية المخالفة لمنهج السلف الصالح. فجزاه المؤلف على ما بذله في هذا الكتاب من جهد خير الجزاء ونفع به. وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

كتبه :

صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

في ١١/٢/١٤١٩هـ

صورة تقريظ معالي الشيخ صالح الفوزان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وأصلي وأسلم على رسول الله وبعد :

فإن من أهم ما ينبغي لطلاب العلم هو العناية بتراجم علمائهم وسلفهم الصالح والاطلاع على سير حياتهم ونهجهم في تعلم العلم وتعليمه للتأسي بهم والاقتداء بآثارهم .

ومن أشهر سلفنا الصالح ومن اتفقت كلمة العلماء على جلالة قدره وسعة علمه هو الإمام الحافظ زين الدين عبد الرحمن بن احمد ابن رجب الحنبلي ٧٣٦-٧٩٥، كيف لا وهو من أخص تلاميذ الإمام شمس الدين ابن القيم الذي هو من أخص تلاميذ شيخ الإسلام تقي الدين احمد بن تيمية رحمهم الله الجميع ورضي عنهم ، فابن رجب إمام حافظ جاهد في طلب العلم وأثرى المكتبة العلمية عامة والحنبلية خاصة بكثير من المؤلفات النافعة في العقيدة السلفية وعلم الحديث رواية ودراية ، وعلم الفقه والزهد والوعظ والتراجم وغيرها وبين يدي الآن رسالة جامعة لسيرته ومؤلفاته ألفها الابن الشيخ الأستاذ علي بن الشيخ عبد العزيز العلي الشبل سماها منهج الحافظ ابن رجب الحنبلي في العقيدة .

وقد عرفت المؤلف الشيخ علي من خلال طلبه العلم وقراءته عليّ منذ ثماني سنين كما عرفت والده الشيخ عبد العزيز بن علي الشبل المدرس في المسجد النبوي وفي الجامعة الإسلامية كما عرفت جده لأم أبيه شيخنا وجارنا في عنيزة الشيخ عبد الله بن محمد المانع قاضي عنيزة المتوفى سنة ١٣٦٠هـ فالمؤلف وفقه الله حريص على تحصيل العلم وبذله وقد أعطى فهماً وملكة علمية تظهر من خلال مؤلفه المذكور وغيره .

وأما الكتاب منهج الحافظ ابن رجب الحنبلي في العقيدة فقد اطلعت عليه والمفيته قد استوعب ترجمة الحافظ ابن رجب وسيرته وما في ضمنها من الفوائد والعلوم الجمة ، وقد ركز على منهجه في العقيدة ، كما قد استوعب ذكر ما تمكن عليه من مؤلفاته المخطوطة والمطبوعة سواء منها المؤلفات الكبار مثل فتح الباري شرح البخاري وشرح الترمذي والمتوسطة مثل جامع العلوم والحكم ولطائف المعارف . والرسائل الصغار مثل فضل علم السلف وتحقيق كلمة التوحيد وغيرها .

صورة تقريظ معالي الشيخ عبد الله بن عقيل

وأعطى عن كل منها بيانا كافيا لمن أراد التعرف عليها مجملا وقد ركز على منهجه في العقيدة كما تضمن بحوثا مهمة وتحقيقات سديدة واستطرادات جيدة لم تخرج عن دائرة الموضوع، وهذا مما يشجع على استحصال مؤلفات ابن رجب والاستفادة منها، وبالجملة فمخبر الكتاب أبلغ من منظره.

ولهذا فقد أعجبت به وشجعته على طبعه ونشره لتعم فائدته ولعل الله أن ينفع به المسلمين كما أسأله تعالى أن يرزقنا جميعا العلم النافع والعمل الصالح إنه جواد كريم.

وكتبه الفقير إلى الله عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل رئيس الهيئة الدائمة بمجلس القضاء الأعلى سابقا - وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين

صورة تقريظ معالي الشيخ عبد الله بن عقيل

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
وزارة العدل
محكمة التمييز بالمنطقة الغربية

الرقم ....
التاريخ ....
المشفوعات ....

الحمد لله الذي خلق الإنسان وعلمه البيان وفقّه من أراد به الخير [illegible]
الإيمان أرسل رسوله بالهدى ودين الحق فمنّ علينا أن هدانا للإيمان
وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. وصلى الله وسلم على رسول الهدى (نبينا محمد)
إمام المتقين وسيد المرسلين مخرج أمته من الظلمات إلى النور وعلى آله
وأصحابه أجمعين ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين وبعد:

فقد استمتعت بقراءة بروفة الطبعة الأولى لكتاب
«منهج الحافظ ابن رجب الحنبلي في العقيدة» لمؤلفه فضيلة الشيخ علي
ابن عبد العزيز بن علي الشبل المدرس بكلية أصول الدين في جامعة
الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض.

وقد رغب إلي فضيلة مؤلف الكتاب الشيخ علي قراءة الكتاب وإبداء
ما ظهر لي فيه من الملاحظات ونظرًا لكثرة ما علي فقد استجبت
لهذه الرغبة الكريمة من أخ محب عزيز إلا أنني كنت على عزم في الاكتفاء
من القراءة بالتصفح نظرًا لضخامة الكتاب حيث تقارب صفحاته السبعمائة
صفحة ولكثرة ما علي ولظني أن الموضوع لا يحتاج إلى هذا التوسع في
الكتابة. ولكن بعد أن بدأت في قراءة الكتاب رأيته يشدني شدًا
قويًا إلى التأني في قراءة الكتاب وإعادة قراءة بعض محتوياته

صورة تقريظ معالي الشيخ عبد الله بن منيع

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
وزارة العدل
محكمة التمييز بالمنطقة الغربية

الرقم ....
التاريخ ....
المشفوعات ....

ص ٢

وأدركت أن الشيخ عليا جزاه الله خيرا قد أحسن إلى إخواننا
أهل القرآن سيتولى جزاءه عني حيث أتاح لي فرصة الاطلاع
على كامل شخصية إمام من أبرز أئمتنا معشر الحنابلة الذي تبحر في
الأحكام الفرعية دائما في أصول الشريعة وقواعد منهج أهل السنة
والجماعة في الاعتقاد في أصول الاعتقاد في التوحيد بأقسامه الثلاثة
وفي أركان الإيمان والإسلام وحقيقة الإيمان وحقيقة الزهد والورع
وتمام التعلق بالله.
فجزى الله الشيخ عليا الجزاء الأوفى على ما كتبه لإمامنا زين الدين الحافظ ابن رجب
ودافع عنه ودفع ما قيل عنه من نسبته إلى التصوف المذموم حيث أبان
أن تصوف ابن رجب للزهد والزهد والورع وكمال الخشية والخشوع
والتعلق بالله تعالى دون أن يكون ذلك من منطلق الطرق الصوفية وبواطل
ما يزعمه أهل التضليل والضلال. ودون أن يكون ذلك مبنيا على
ومبادئ الأوهام والتخيلات في الكشف واضرابه لحجب الغيبة
لقد كان الشيخ علي حفظه الله عدلا ومنصفا في استعراضه جوانب
شخصية ابن رجب في انتقاده عليه بعض التصرفات الاصطلاحية لدى
أهل التصوف فكان جزاه الله خيرا أحسب على الانتقاد مسلمات لدى الإمام ابن رجب حيث إن

صورة تقريظ معالي الشيخ عبد الله بن منيع

بسم الله الرحمن الرحيم

الرقـم ____________
التـاريخ ____________
المشفوعات ____________

ص ٣

جميع اتجاهاته في الاعتقاد هي وفق ما عليه سلف هذه الأمة وأهل السنة والجماعة وأن هذه التعبيرات الصوفية صادرة من طريقة التأثر بالبيئة بعيداً أن يكون لمدلولها أثر في الاعتقاد والعمل والخلاصة أن الكتاب جهد علمي مستحق الثناء والإشادة والاعتزاز به حيث أعطانا عن ابن رجب صورة طيبة لحياته وجهاده في سبيل العلم والتعليم وسلامة اعتقاده وانتهاجه النهج السلفي المستمد مما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وما كان عليه أصحابه رضوان الله عليهم.

وأشكر فضيلة الشيخ علي على الإتاحة لي فرصة قراءة هذا الكتاب القيم وأسأل الله تعالى أن يجعل ذلك في موازين حسناته وألا يجعل هذا آخر عهدنا بما يتحفنا به من تآليف وتحقيق ونظر في حقل الدعوة إلى الله أيما كان والله المستعان وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

كتبه عبد الله بن سليمان المنيع عضو هيئة كبار العلماء

صورة تقريظ معالي الشيخ عبد الله بن منيع

فهـرس المحتـوى[1]

(١) طلبًا لعدم تطويل الكتاب فقد تمَّ حذف الفهارس العامة منه؛ عدا فهرس المصادر والمراجع، والمحذوفة فهارس الآيات القرآنية والأحاديث والآثار، والأعلام، والفرق والطوائف والمذاهب.

الباب الأول

الأصول العامة لمنهج ابن رجب
في التلقي والاستدلال

● ● ●

يصدر قريبًا ـ إن شاء الله ـ للمؤلف

١ ـ التنبيه على المخالفات العقدية في فتح الباري. «استكمال لعمل سماحة الشيخ ابن باز على الفتح، بإشارته ومتابعته ومراجعته».

٢ ـ رسالة في النزول والمعية والإثبات = لابن تيمية (٧٢٨هـ) تحقيق وتعليق.

٣ ـ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنَّة، لأحمد بن نصر الخزاعي (٢٣١هـ). تحقيق.

٤ ـ مظاهر الحركة العلمية في نجد قبل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.
مع تحقيق ودراسة كتاب: «طُرَف الطَّرْفِ في مسألة الصوت والحرف»، للشيخ أحمد بن يحيى بن عطوة التميمي العييني (٩٤٨هـ).

٥ ـ الحجة على تارك المحجة، للحافظ ابن طاهر المقدسي (٥٠٨هـ). تحقيق وتعليق.

• • •